موسوعة

التاريخ الإسلامي

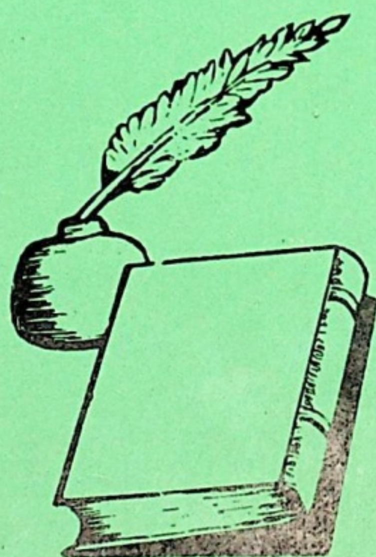
والحضارة الإسلامية

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج

استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة



مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي - القاهرة

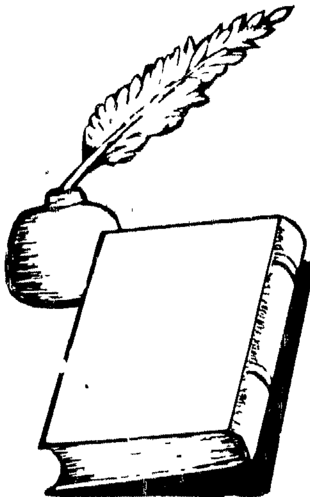
مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

موسوعة
التاريخ الإسلامي

٧

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق
من مطلع الاسلام حتى الآن

- نجد والحجاز حتى قيام المملكة العربية السعودية .
- تاريخ المملكة العربية السعودية منذ قيامها حتى الآن .
- سلطنة عمان وامتداداتها وانكماشها حتى الآن .
- اليمن من العصر الجاهلي حتى الآن .
- الخليج العربي ومشكلاته ودوله : دولة البحرين - دولة قطر - دولة الامارات العربية - دولة الكويت .
- العراق فى جميع العصور .
- أحداث العراق والكويت (١٩٩٠ - ١٩٩١) دراسة محايدة .



تأليف
الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)

استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

والفائز لوسام « العلوم والفنون » من الطبقة الأولى
لكتاباته فى التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي - القاهرة

الطبعة الخامسة
مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا

(سورة الممتحنة الآية الرابعة)

التاريخ • • • •

شعاع من الماضى ينير الحاضر والمستقبل

أحمد شلبى

الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧
الطبعة الثانية سنة ١٩٨٢
الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٦
الطبعة الرابعة سنة ١٩٩٠
الطبعة الخامسة سنة ١٩٩٢

خطة البحث فى هذه الموسوعة

ان خطة البحث التى اتبعتها فى كتابة « التاريخ الاسلامى » خطة جديدة ومريحة ، ويسرنى أن أبرزها فى التخطيط التالى ليعرف القارىء كنهها ، وليسهل عليه متابعتها :

دراسة زمنية فى هذه الأجزاء الثلاثة إذ أن العالم الإسلامى كان وحدة واحدة .	ج ١	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين
	ج ٢	الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها
	ج ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ودور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية

ثم دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) فى الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الاسلامى انقسم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الاسلامى ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالتخطيط التالى :

الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزء الخامس	الجزء الرابع
التاريخ الاسلامى للدول الاسلامية غير العربية بآسيا : ايران — أفغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا — الأقليات الاسلامية بالصين والاتحاد السوفيتى والهند والفيلبين وسنغافورة .	الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن . دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان اليمن ، دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق	الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن : — وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية . دراسة عن { — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى . — الدول الاسلامية الحالية : موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال	— مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر — الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها — الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن	— الأندلس الاسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى أوروبا — المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر — السنوسية : مبادئها وتاريخها

وتختم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر عصر المظالم والهزائم

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : أنور السادات : شخصيته وعصره

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة مجلدات لتاريخ العالم الاسلامى كله، من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى حققتها الدول الاسلامية عبر التاريخ . (الطبعة الرابعة عشرة)

الجزء الأول : السيرة النبوية العطرة وعصر الخلفاء الراشدين .

الجزء الثانى : الدولة الأموية وانصاف تاريخها .

الجزء الثالث : الخلافة العباسية والدور الحضارى خلال عصرها الأول .

الجزء الرابع : الأندلس الاسلامية ، انتقال الحضارة الاسلامية منها الى أوربا .
تاريخ المغرب ــ الجزائر ــ تونس ــ ليبيا من مطلع الاسلام حتى الآن .

الجزء الخامس : تاريخ مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى الآن ــ الحروب الصليبية ــ تاريخ الامبراطورية العثمانية .

الجزء السادس : الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن : موريتانيا ــ السنغال ــ جامبيا ــ غينيا ــ مالى ــ النيجر ــ نيجيريا ــ تشاد ــ السودان ــ الصومال ــ جيبوتى .

الجزء السابع : دول الجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن .
المملكة العربية السعودية ــ اليمن ــ عمان ــ دولة الامارات العربية ــ قطر ــ البحرين ــ الكويت ــ ثم العراق ــ (أحداث العراق والكويت : ١٩٩٠ ــ ١٩٩١ دراسة محايدة) .

الجزء الثامن : الدول الاسلامية غير العربية بآسيا : ايران ــ أفغانستان ــ الباكستان ــ بنجلاديش ــ ماليزيا ــ اندونيسيا ــ الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيلبين .

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم .
عصر جمال عبد الناصر : عصر المظالم والهزائم .

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر أنور السادات .

كتب للمؤلف

ثانيا : موسـوعة الحضارة الاسـلامية

دراسة تحليلية شاملة فى **عشرة مجلدات**، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاسلام لهداية البشرية فى شئون **الفكر** ، والسياسة ، **والاقتصاد** ، **والعلاقات الدولية** ، وفى مجال **الحيـاة الاجتماعية والتربوية والتشريعية والقضائية والعسكرية** ، **كمـا تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية كالطب والرياضـة والفلك** ...
(الطبعة العاشرة)

الجزء الأول : موجز عـام للحضارة الإسـلامية ـ المناهج الاسلامية : أصولها الصحيحة ـ انحرافاتها ـ وجوب تصحيحها .

الجزء الثانى : الفكر الاسلامى : منابعة وآثاره .
مآثر المسلمين فى مجال الدراسات العلمية والفلسفية .

الجزء الثالث : السياسة فى الفكر الاسلامى ـ مع المقارنة بالنظم السياسية المعـاصرة .

الجزء الرابع : الاقتصاد فى الفكر الاسلامى ـ مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعـاصرة .

الجزء الخامس : التربية والتعليم فى الفكر الاسلامى .

الجزء السادس : المجتمع الإسلامى : تكوينه وعلاج مشكلاته .

الجزء السابع : الحيـاة الاجتماعية فى الفكـر الاسلامى : نطاق الأسرة ونطاق المجتمع كالأفراح والمآتم والموسيقى والغنـاء .

الجزء الثامن : التشريع والقضاء فى الفكر الاسلامى .

الجزء التاسع : العلاقات الدولية فى الفكر الاسلامى .

الجزء العاشر : رحلة حياة : تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الاسـلامية .

ثالثـا : التفسير الميسر للقرآن الكريم .

تفسير موجز وواضح يهدف لأن تفهم القرآن الكريم اذا قرأته أو سمعته ، مع وقفات تفصيلية عند بعض القضايا القرآنية المهمة .

كتب للمؤلف

رابعا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المصادر بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة العاشرة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود فى التاريخ من عهد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية — أنبياء بنى اسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

— **مصادر الفكر اليهودى :** العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

— **اليهود فى الظلام :** الاغتيال ، التجسس ، الماسونية ، الروتارى ، اللونز — شهود يهوه ، البابية والبهائية .

— من صور التشريع فى اليهودية .

الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة العاشرة)

— المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والأديرة ، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدها .

الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة العاشرة)

— الله فى التفكير الاسلامى ، النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المرأة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منه ، السياسة والاقتصاد فى الاسلام ، آراء المفكرين الغربيين فى الاسلام ورسول الاسلام .

الجزء الرابع : أديان الهند الكبرى : (الطبعة العاشرة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية » .

— **تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان فى الهند .**

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ، **كيتا .**

— اهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجود .

— تاريخ النهدوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

خامسا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ ـ كيف تكتب بحثا أو رسالة ٠
دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه ٠
(الطبعة الثانية والعشرون ـ مع ثلاثة ملاحق مهمة)

٢٦ ـ الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام ، واستمرارها حتى الآن : عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكرية وفكرية على العالم الاسلامى عبر العصور ٠

٢٧ ـ أحداث العراق والكويت : ماذا أبرزت من مشكلات ؟ وما السبيل للتغلب عليها ؟ دراسة تاريخية نفسية محايدة (الزهراء للاعلام العربى)

كتابان باللغة الانجليزية هما :

٢٨ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals
٢٩ — History of Muslim Education

وباللغة الفرنسية :

٣٠ — Islam : Croyance - Législation - Morale

مكتبة النهضة المصرية

وباللغة الاندونيسية والماليزية :

٣١ — Nearag dan Pemerintahan Dalam Islam
٣٢ — Masjarakat Islam
٣٣ — Hukum Islam
٣٤ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 1
٣٥ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 11
٣٦ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 111
٣٧ — Perbandingan Agama (Jahudi)
٣٨ — Perbandingan Agama (Masihi)
٣٩ — Perbandingan Agama (Islam)
٤٠ — Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbeser di India : Hindu-Jaina-Buddha)
٤١ — Sadjarah Pendidikan Islam
٤٢ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam
Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam
٤٣ — Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi
٤٤ — Perang Salib
٤٥ — Kurikulum Islam Dalam
٤٦ — Perkembangan Sedjarah
٤٧ — Pengajian Al Quraan
٤٨ — Sedjarah Kehakiman Dalam Islam

Pustaka National (Singapore)

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٩ - تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى ، مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت فى أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمرينات مفيدة .

٥٠ - قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)

عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف .

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعاد طبعها

٥١ - فى قصور الخلفاء العباسيين :

أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الجزء الثالث من موسوعة التاريخ .

٥٢ - مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :

وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الجزء التاسع من موسوعة التاريخ .

٥٣ - الحكومة والدولة فى الاسلام :

وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الجزء الثالث من موسوعة الحضارة .

٥٤ - الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى .

٥٥ - النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامى فيها .

وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الجزء الرابع من موسوعة الحضارة .

٥٦ - الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الاسلامى :

وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الجزء التاسع من موسوعة الحضارة .

كتب للمؤلف

سابعا : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

تخطيط يشمل ١٠٠ جزء ، يقرؤها كل فرد من أفراد الأسرة ظهر منها ٧٢ جزءا كالاتى :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة (١٦ جزءا)
وتشمل سيرة الرسول ﷺ وجوانب منها تُدَوَّن لأول مرة .

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة (٧ أجزاء)

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية (٥ أجزاء)
نزول القرآن وتدوينه ـ القرآن والعلم ـ فضائل القرآن ـ اعجاز القرآن ـ الأخلاق الاسلامية من القرآن الكريم .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم (٧ أجزاء)

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف (٥ أجزاء)
لماذا انحرف تدوين التاريخ الأموى ؟ مدعو التشيع وسمومهم ـ قمم أموية .

المجموعة السادسة : شخصيات اسلامية (٥ أجزاء)
صقر قريش ـ هارون الرشيد ـ الخليفة المامون ـ الناصر لدين الله ـ عبد الرحمن الناصر . . .

المجموعة السابعة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ أجزاء)
ـ من شهداء الاسلام .
ـ الحروب الصليبية: بدؤها مع مطلع الاسلام واستمرارها حتى الآن (٣ أجزاء فى مجلد)
ـ شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه (جزءان فى مجلد)

المجموعة الثامنة : الاسلام والمراة (٥ أجزاء)
حالة المراة فى الحضارات غير الاسلامية ـ ماذا قدم الاسلام للمرأة؟
نماذج من السيدات المسلمات: من بيت النبوة «السيدة زينب والسيدة سكينة » ونماذج فى السياسة والآداب والعلوم والفنون ـ زيجات شهيرة فى التاريخ : « زبيدة ـ بوران ـ قطر الندى » .
ـ مكة المكرمة : من التهيؤ لاستقبال دين جديد الى التنكيل بمن اتبعه (٣ أجزاء فى مجلد واحد)

ـ الميراث فى الشريعة الاسلامية : دراسة شاملة .
ـ تاريخ الطب فى الإسلام .
ـ حركات فارسية ضد الاسلام والمسلمين عبر العصور (٣ أجزاء فى مجلد واحد)
ـ تطوير دراسة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ودور دار العلوم فى هذا المجال .
ـ الصحوة الاسلامية : مظاهرها ـ معوقاتها ـ الصحوة تستعيد نشاطها .
ـ السلفية : نماذج رائعة للسلفية وتعثر السلفية أحيانا .
ـ عواصم إسلامية مقدسة : مكة ـ المدينة ـ القدس : عبر العصور .

(الأجزاء التالية ستظهر قريبا ان شاء الله)

الموضوع — صفحة

الجزيرة العربية
فى صدر الاسلام والعهد الأموى والعصر العباسى

نجـــد
من مطلع الاسلام حتى قيام المملكة العربية السعودية

الموضوع | صفحة

نجد وآل سعود والدعوة الاصلاحية

السعوديون :

الموضوع — صفحة

المملكة العربية السعودية

الموضوع | صفحة

سلطنة عمـان

اليمن

١ - الجمهورية العربية اليمنية

٢ - جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

الموضوع | صفحة

اليمن الجنوبيـــة
قبل وبعد اعلان الجمهورية

الموضوع | صفحة

الخليج العربى
والدول العربية الواقعة عليه

العراق ابتداء من عهد المغول

فهرس الخرائط والمخططات

مقدمة الطبعة الأولى

فى مسيرتنا من الغرب إلى الشرق لدراسة تاريخ العالم الإسلامى انتهينا من الدول الإسلامية بإفريقية شمالى الصحراء وجنوبها ، ودرسنا منطقة سوريا ونحن ندرس تاريخ مصر لطول ارتباط سوريا بمصر على مر التاريخ ، كما درسنا تركيا منذ ظهورها حتى الآن ، ووقفنا بذلك عند البحر الأحمر ، وعند الحدود الفاصلة بين سوريا وتركيا من جانب وبين العراق من جانب آخر ، متطلعين لقطاع جديد من قطاعات العالم الإسلامى ليكون موضوع جزء جديد من أجزاء هذه الموسوعة •

ومتابعةً لمسيرتنا نجدنا فى هذا الجزء أمام منطقة مهمة للغاية ، هى الجزيرة العربية وامتداداتها إلى الشمال الشرقى حيث العراق ذو التاريخ الإسلامى المجيد •

والجزيرة العربية مهد الاسلام ، وفيها انبثقت الحضارة الإسلامية التى سرعان ما أصبحت حضارة إنسانية ، وقد ظلت الجزيرة العربيـــة ردحا من الزمن ترسل الإشعاعات الفكرية فى اتجاهات متعـــددة حتى تسلمت دمشق فبغداد فالقاهرة مشعل النور ، ولكن الإسلام كان قد ربط بالحجاز ركنا من أركان الإسلام هو الحج حيث يلتقى كلَّ عام مئـــاتُ الآلاف من القادرين على تكاليف الرحلة ومشاقها ليؤدوا فريضة الحج ، وليجتمعوا فى مهبط الوحى ليتدارسوا مشكلات المسلمين ، وليرســموا الطريق لعلاج هذه المشكلات ، وعلى هذا لم يفقد الحجاز جلاله الدينى عندما ضعف جلاله السياسى •

وفى الجزيرة العربية كذلك توجد المدينة المنورة حيث مثوى سيدنا رسول الله ، وكثير من خلفائه وصحبه ، وزيارة سيدنا رسول الله بالمدينة هدف تحرص عليه الغالبية العظمى من الحجيج •

ومن أجل هذا نجدنا فى هذا الجزء على صلة وثيقة بمنزل الوحى ، وبالعنصر العربى الذى تلقى الإسلام وفهمه ، وحمله للبشر ، وذاد عنه عندما تصدّى له أعداء الحرية والعدالة والمساواة ، وتخطى به المخاطر والحدود ، وحارب من أجله المعارضين المعتدين ، ولو كانوا أولى قربى أو أصحاب تيجان وعروش ، وعلى هذا فإننا نؤكد أن انتشار الإسلام كان انتشارا حضاريا ، وأن تفوقه على العقبات التى وقفت فى طريقه كان بسبب رجحانه فكريا على الحضارات أو اشلاء الحضارات التى واجهته .

ومن الواضح أن هذا الجزء يرتبط بالجزء الأول من هذه الموسوعة ارتباطا وثيقا ، ففى الجزء الأول تحدثنا عن العرب قبل الإسلام ، وعن السيرة النبوية العطرة ، وعن الدعوة الإسلامية وفلسفتها ، وعن عصر الخلفاء الراشدين ، وقد كانت الجزيرة العربية مسرح الأحداث فى تلك الفترة ، ويرتبط هذا الجزء كذلك بالجزء الثانى من هذه الموسوعة حيث الصراع بين الحجاز والأمويين ، ويرتبط أيضا بالجزء الثالث حيث قامت الخلافة العباسية فى العراق ، وسنلمّ هنا إلمامات موجزةً بالتاريخ الذى أوردناه فى الأجزاء السابقة ، ثم نفصل القول فى الأحداث التى لم تشملها تلك الأجزاء حتى نصل بهذه الأحداث الى العهد الحاضر .

ومن الملاحظ أننا إذا نظرنا إلى خريطة المنطقة التى سيشملها هذا الجزء يتضح لنا أنها الآن تشمل الدول الآتية :

١ ـ المملكة العربية السعودية .

٢ ـ سلطنة عمان .

٣ ـ جمهورية اليمن الشمالية .

٤ ـ جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

(وقد اتحدت الدولتان (مايو ١٩٩٠) وسنتكلم عنهما فيما بعد كدولة واحدة)

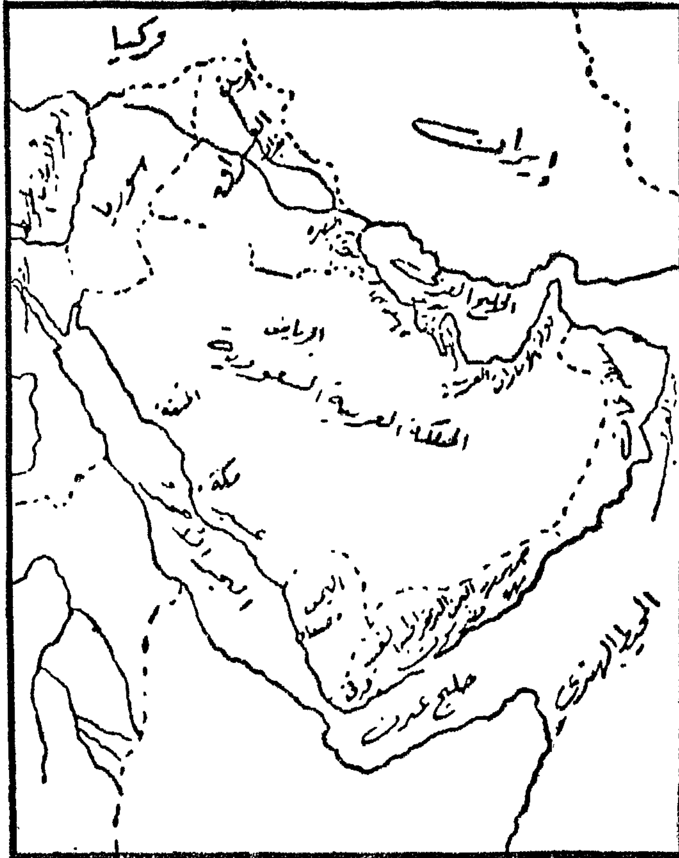
٥ ـ دولة الامارات العربية .

٦ ـ قطر .

٧ ـ البحرين .

٨ ـ الكويت .

٩ ـ العراق .



الدول التى ستدور حولها الدراسة فى هذا الجزء

ومن الواضح أن الغموض يكتنف فترات طويلة من تاريخ هذه الدول ، وأن الإقدام على دراسة تاريخها السياسى والحضارى دراسة متصلة يحتاج الى جهد جهيد ، وصبر طويل ، حتى ندفع تاريخ هذه المناطق إلى النور ، أو ندفع النور لها ، فتاريخ الجزيرة العربيـة يدخل فى نطاق غموض لم تكشفه بعد أبحاث ذات بال ، فأكثر ما كتب عن هذه المنطقة مجلدات هى الى الدعاية أقرب ، وأمثال هذه المجلدات قد تخدم أغراضها فى مجال الدعاية ، ولكنها لا تخدم البحث والدراسة ، ومن هنا فهى لا تزيل اللبس والغموض بصفة حقيقية .

فاللهم نضرع إليك أن تلهمنا السداد والرشاد ونحن نقتحم هذا العمل الكبير ، فكل صعب يهون إن شملنا تأييدك ، وكل ضباب يتلاشى إن كان معنا عونك ، وكن يارب معنا لنكمل العمل الذى بدأناه باسمك ، وسرنا فيه بتوفيقك فعليك اعتمادنا ، ومنك وحدك ما حققناه ، ونحققه من نجاح لخدمة الإسلام والمسلمين .

يارب .... يارب

المعادى فى يناير سنة ١٩٧٧

دكتور أحمد شلبى

مقدمة الطبعة الرابعة

يسعدنى أن أقدم الطبعة الرابعة من هذا الكتاب بعد أن أدخلت عليه إضافات عن الأحداث التى جرت بعد آخر طبعة منه ، وبعد أن ادخلت عليه بعض التحسينات والتحقيقات .

والله المسئول أن ينفع بـه قارئه ومؤلفه ، وهـو نعم المولى ونعم النصير .

المعادى فى ابريل سنة ١٩٩٠

دكتور أحمد شلبى

الجزيرة العربية

في صدر الإسلام والعهد الأموي والعصر العباسي الأول

الجزيرة العربية فى صدر الإسلام

فى عهد الرسول :

فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ذكرنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام — بعد أن انتصر على قريش فى بدر ثم هادنهم فى العام السادس من الهجرة ، وبعد أن انتصر على اليهود فى العام الثانى والرابع والخامس والسابع للهجرة — راح يتطلع لنشر الإسلام فى نواحى الجزيرة العربية ، فأرسل مبعوثين من قبله يحملون كتبه لرؤساء القبائل والامارات بالجزيرة العربية ، بل كذلك للملوك والرؤساء بالأقطار المحيطة بالجزيرة ، وأوردنا هنـــاك أسماء هؤلاء المبعوثين ، ونتائج هذه البعوث ، والمهم هنا أنه عن هذا الطريق انتشر الإسلام انتشارا واسعا بالجزيرة على وجه خاص .

وفى العام التاسع قدمت وفود عربية للرسول من كل جهة ، ولذلك سمى العام التاسع للهجرة عام الوفود ، وقد أوردنا فى الجــزء الأول أسماء هذه الوفود ، وأشرنا الى مـــا عرف من شعرهم وخطبهم .

ومن الذين وفدوا على الرسول ضمن هـــذه الوفود وائل بن حجر الكندى وكان أمير بلاد الشاطىء من حضرموت فأسلم ، وأقره النبى على امارته ، كما جاءت وفود حمير من اليمن تعلن إسلام هذه المناطق ، وكانت هذه الوفود بقيادة الحارث بن طلال وأخويه نعيم والنعمان .

وكتب فروة بن عمرو الجذامى عامل الروم على من يليهم من العرب إلى الرسول بإسلامه ، وأرسل بعض الهدايا ، فلما عرف الروم عنه هذا التصرف قبضوا عليه وسجنوه ثم قتلوه ، وقد أشرنا إلى هذا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة .

ومن بين الوفود وفود تميم وربيعة وقحطان وثقيف وأسد والأزد وغسان ومهرة ونجران ومذحج وخثعم وغيرهم .

وأرسل النبى عليه الصلاة والسلام عماله على المناطق المختلفة التى أسلمت ، كما أرسل الدعاة والمعلمين ليعلموا الناس مبادىء الإسلام وليقرئوهم القرآن .

الجزيرة العربية فى عهد الخلفاء الراشدين :

وذكرنا أيضا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة أن من العرب من دخل الإسلام دون دراسة ، ودون إيمان عميق ، ومنهم من دخل الإسلام تجنبا لخوض الحروب ضد المسلمين الذين حققوا انتصارات واسعة فى معاركهم ، ومنهم من دخل الاسلام طمعا فى مغنم أو جاه ، والمهم أن وفاة الرسول أتاحت الفرصة لهؤلاء ليظهروا ما فى نفوسهم ، أو ليثوروا على حَصْر الرئاسة فى جماعات قريش ، ومن هنا ظهر من يعرفون فى التاريخ بالمتنبئين والمرتدين ومانعى الزكاة ، وهى أسماء مختلفة ولكنها تعبر عن مدلول واحد هو التمرد بدليل أن الأشعث بن قيس كان من مانعى الزكاة ثم انضم للمرتدين ، وكانت كندة مع الأسود العنسى مدعى النبوة فلما قتل انضمت للمرتدين ، وكان أهل اليمامة من المرتدين فلما علا شأن مسيلمة انضموا له (١) وهكذا .

ولكن أبا بكر وقف موقفا رائعا ، وحمل المسئولية بكفاءة ممتازة ، فأرسل رسله بكتب مفتوحة إلى هؤلاء المرتدين يوضح لهم ما خفى عليهم ، ويردّ على ما أظهره قادة الضلال من انحراف ليعودوا من جديد إلى الإسلام والتمسك به (٢) ، ثم انثنى يدفع بالقوة من لم تنفع معه الحسنى ، فأعدّ جيوشا جبارة أوصاها بقوله : من حرص على الموت فى الحرب وُهبت له الحياة . فكانت هذه الوصية خير ضمان للنصر ، وكانت جيوش أبى بكر التى أعدها لهؤلاء كالآتى :

---

(١) صالح بن حامد العلوى : تاريخ حضر موت جـ ١ ص ١٤٧ و ١٥٧ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ص ١٨٨١ وما بعدها . وانظر كتاب أشهر مشاهير الاسلام لرفيق العظم جـ ١ ص ١٠٩ وما بعدها .

خالد بن الوليد الى طليحة بن خويلد ومالك بن نويرة ومسيلمة
عكرمة بن أبى جهل الى مسيلمة حتى جاء خالد بن الوليد
المهاجر بن أبى أمية الى الأسود العنسى بصنعاء
حذيفة بن محصن الى أهل عمان
عرفجة بن هرثمة الى أهل مهرة
سويد بن مقرن الى تهامة اليمن
طريف بن حاجز الى بنى سليم وهوازن
عمرو بن العاص الى قضاعة
العلاء بن الحضرمى الى البحرين
خالد بن سعيد الى مشارف الشام

وكانت جولة خالد بن الوليد أعظم هذه الجولات فقد اتجه إلى قبيلة بنى أسد التى كانت تنزل فى « عين بزاخة » بالقرب من مكة (١) وقد حاربهم خالد وانتصر عليهم ، وأسر طليحة ، وأرسله إلى المدينة ، ولكنه أعلن توبته وعاد بصدق إلى الإسلام ، وانتقل خالد بأمر أبى بكر إلى بنى حنظلة (من أهم بطونها تميم) وكانت هذه القبائل تقيم فى المنطقة الممتدة بين المدينة والخليج العربى ، حيث كان مالك بن نويرة قد توقف عن دفع الزكاة ، وقد هزم خالد العشائر التى قاومته ، وقتل مالك بن نويرة وتزوج امرأته ، وقد دار نقاش طويل حول خالد مرتبطا بهذه الزيجة ، ولكننا نميل إلى الاعتقاد بأن خالد تزوج هذه المرأة بعد أن فصلت الردة بينها وبين زوجها مالك ، وكان مالك متهما بالردة مع قطع الزكاة ، أو كان قطع الزكاة وعدم الاعتقاد بوجوبها نوعا من الردة (٢) .

وسار خالد بعد ذلك إلى أرض اليمامة ، وهى قريبة من البحرين (٣) وتسكنها قبائل كثيرة أهمها بنو حنيفة التى كانت مشهورة بكثرة العدد

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٢٣ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١٦٠ .
(٢) انظر الاحكام السلطانية للماوردى ص ٤٧ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٥١٥ .



مناطق القبائل التى اتجهت لها جيوش أبى بكر

وشدة البأس ، وكان مسيلمة كاهنا ادعى النبوة ، وقد بدأ ادعاؤه قبل وفاة الرسول ، وكتب للرسول أن يعترف بالمشاركة بينهما ، وقد استطاع مسيلمة قبل أن يصل له خالد أن يهزم جيش عكرمة بن أبى جهل ولكن خالدا أنزل به عدة هزائم وقضى عليه فى « حديقة الموت » حيث سقط آلاف من بنى حنيفة ، وعدد كبير من المسلمين ، منهم مجموعة من حفظة القرآن الكريم ، وسمى هذا اليوم ، « يوم القيامة » (١) وقد زرت الدرعية موطن مسيلمة وأهلها يقولون أن الله طهر بلادهم بظهور محمد بن عبد الوهاب بها بعد أن دنسها مسيلمة ورفاقه .

واتجه خالد بعد ذلك إلى البحرين ليساعد عاملها « العلاء بن الحضرمى » فى صراعه ضد المرتدين الذين كان يقودهم رجل اسمه « الحطم » ، وكان كثير من سكان البحرين من عناصر فارسية أو من اليهود والنصارى (٢) وقد هزم خالد هؤلاء المرتدين وقتل « الحطم » .

وهكذا جالت الجيوش الإسلامية جولة فى الجزيرة العربية أعادت خلالها الثائر إلى الاستسلام ، والضال إلى الهدى ، وعادت الجيوش إلى المدينة ، وقد عادت للجزيرة العربية وحدتها وتمسكها بالدين الحنيف بعد أن زالت الشبهات والترهات بالحكمة عند من عرف الحكمة أو بالسيف عند من دفعته العصبية الضالة إلى السيف ، ولم تعرف الحكمة إلى نفسه سبيلا .

ثم قسم أبو بكر الجزيرة ولايات ، وعين على هذه الولايات عماله كالآتى :

عتاب بن أسيد	عاملا على مكة
عثمان بن العاص	« « الطائف
المهاجر بن أمية	« « صنعاء

(١) الميدانى : معجم الأمثال جـ ٢ ص ٢٧١ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٧٤ .

زياد بن لبيد	»	»	حضرموت
يعلى بن أمية	»	»	خولان
أبو موسى الأشعرى	»	»	زبيد
جرير البجلى	»	»	نجران
عبد الله بن ثور	»	»	جرش
العلاء بن الحضرمى	»	»	البحرين

وفى أواخر عهد أبى بكر بدأ الصراع ضد قوى الشمال ، ضد الفرس والروم ، وزحف الإسلام بحضارته وفكره فلم تستطع دولتا الشمال أن أن تقفا فى وجهه ، فقد كان كثير من العراقيين والسوريين والفرس يحسون أن الإسلام دين الجميع ، وأن الانضمام اليه ليس هزيمة وإنما هو فرار من العسف والظلم والانحراف الى حضارة الاسلام وروح الاسلام التى سمعوا بها ، وترقبوا يوم الخلاص مما يعانون ليعتنقوها ، ومن هنا كان جنود الفرس والروم يفرون من جيوشهم وينضمون للمسلمين ، حتى اضطر قادة الفرس والروم أن يقيدوا الجنود بالسلاسل حتى لا يفروا ، وقد عرفت هذه المعارك بمعارك ذات السلاسل ، وقد تحدثنا عنها فى الجزء الأول من هذه الموسوعة .

وعلى هذا فالتوسع الاسلامى ليس كما تعود المؤرخون أن يصفوه بالفتح والغزو والانتصارات ، وإنما هو فى الحق صراع بين حضارة نضبت وانهارت ، وحضارة انبثقت وعلا شأنها وهى دعوة من الله لكل الناس ، يشكر منهم من قدمها وذاد عنها ، ويشكر من استقبلها فأحسن استقبالها .

وكلمة أخيرة عن الجزيرة العربية قبل أن نترك عهد الخلفاء الراشدين هى أن منها كان يحكم العالم الاسلامى فى أكثر سنوات هذه الفترة ، فقد كانت المدينة المنورة هى عاصمة الدولة الاسلامية خلال عهد الرسول ، وعهد الخلفاء الثلاثة بعده ، ومطلع عهد الإمام على كرم الله وجهه ، حتى انتقل منها إلى الكوفة سنة ٣٦ هـ .

الجزيرة العربية فى العصر الأموى

فى كلمة موجزة نقرر أن الجزيرة فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين نعمت بشيئين مهمين هما :

١ — كانت بها عاصمة الدولة الإسلامية كلها .
٢ — أبناؤها هم حملة الدعوة والمدافعون عنها .

وقد أكسبها هذا الوضع امتيازات أدبية ومادية بعيدة المدى ، وفى العهد الأموى فقدت الجزيرة العربية الصفة الأولى فلم تعد عاصمة الدولة الإسلامية إذ أصبحت دمشق هى العاصمة ، ولكن الصفة الثانية بقيت لها ، فان الأمويين كانوا يكرمون العرب ، ويعتمدون عليهم فى كل شئونهم ، فلما جاء العصر العباسى فقدت الجزيرةُ الصفةَ الثانية كما فقدت الأولى ، إذ قوى نفوذ الفرس والترك فى بغداد ، وانتهى الأمر بأن أسقط المعتصمُ العربَ من دواوين العطاء ، فقلّ شأن الجزيرة واستسلمت للمجهول .

تلك فكرة موجزة تحتاج إلى بعض التفاصيل والإيضاح :

فى العهد الأموى انتقلت العاصمة — كما قلنا — إلى دمشق ، وتركت الجزيرة العربية ، التى يمكن أن نقسمها فى هذا العصر قسمين مختلفى الملامح ، القسم الأول الحجاز ، والقسم الثانى يشمل باقى الجزيرة العربية ، ولنرجىء الكلام عن الحجاز لنبدأ الحديث عن باقى الجزيرة ، فنقرر أن انتقال الخلافة الى دمشق أبعد السلطة التى كانت تُرْغم القبائل على الخضوع والتبعية ، وكانت أغلب بقاع الجزيرة تموج بالقبائل التى كانت بطبيعتها تكره الخضوع لسلطات مركزية ، وترى ذلك تدخلا فى حريتها وسيادتها ، ومن أجل هذا استعادت القبائل تقريبا حياتها الأولى التى كانت عليها قبل الاسلام ، فأصبح لكل قبيلة شأنها ورياستها واستقلالها ، وفى بعض المناطق قامت حركات استقلالية بقيادة بعض الأمراء الطموحين الذين كانت الخلافة عيّنتهم ، ولكن الحياة القبلية كانت تهدد هؤلاء أيضا ، ومن أجل هذا اشتد التناحر فى أرجاء الجزيرة العربية

بين أمير وأمير ، وبين قبيلة وقبيلة ، كما كانت الحال قبل الاسلام ، ولعل الأمويين أرضاهم ذلك حتى تنشغل هذه القبائل بهذا الصراع ، فيكون فى ذلك السلامة للخلافة التى كانت ثورات الجزيرة العربية أخطر ما تخافه ، **وأصبح تاريخ أغلب المناطق بالجزيرة العربية هو تاريخ الحياة القبلية أو قل ان الجزيرة أصبحت بدون تاريخ** •

وكان الأمويون يحاولون أحيانا أن يمدوا نفوذهم إلى بعض المناطق الحساسة بالجزيرة العربية ، فيضمون نجد إلى ولاية العراق أو البحرين ، ويضمون عسير إلى الحجاز أو إلى اليمن ، ويضمون الابحرين إلى البصرة ، ولكن الوالى هنا أو هناك لم يستطع غالبا أن تكون له سيطرة فعلية ثابتة على القبائل •

أما القسم الثانى وهو الحجاز ، فقد أدرك الأمويون أن الخطـر يتهددهم منه أكثر من غيره ، ففيه الطامعون الذين لم يخضعوا لمعاوية إلا كارهين ، والذين وقفوا موقفا صلبا ضد ابنه يزيد ، وضد الحجاج عامل عبد الملك بن مروان ، ثم ان بالحجاز توجد الأماكن المقدسة حيث ينساب الحجيج كل عام لأداء فريضة الحج ، وحيث يتدفق الناس للعمرة ولزيارة مثوى سيدنا رسول الله بالمدينة ، ومن أجل هذا لم يكن فى وسع الأمويين أن يتغاضوا عن الحجاز كما تغاضوا عن الأماكن الأخرى بالجزيرة ، بل وجّهوا له عناية كبرى لمنع الحركات فيه من جانب ولتيسير شئون الحج من جانب آخر ولهذا عينوا لحكمه مجموعة من الأفذاذ وخيرة الرجـال من بنى أمية ، مثل عتبة بن أبى سفيان ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص وابنه عمرو ، وخالد بن العاص ، وعمر بن عبد العزيز ، وقـد تولى بعض هؤلاء مكة ، وتولى بعضـهم المدينـة ، وجُمع لبعضـهم الحجاز كله •

ويمكننا على كل حال أن نقرر أن التفكك شمل الجزيرة العربية ، وأن المدنية الإسلامية أدارت للجزيرة ظهرها ، وأن كبار الرجال بها من

قادة وعلماء استقروا حيث طاب لهم المقام فى الشام او العراق أو مصر ، وفيما عدا الحجاز استسلمت هذه المنطقة بوجه عام إلى الظلام والقبلية والمجهـولة •

ومن أوضح ما يدلنا على مدى التفكك الذى انتاب الجزيرة العربية ابتداء من العهد الأموى أن ابن الزبير وأعوانه بمكة لم يهبوا لمساعدة المدينة عندما كان مسلم بن عقبة المرى يَدُكّها ويُبيحها لرجاله ، وبالتالى لم تتقدم المدينة لمساعدة مكة عندما دمرها الحجاج ورمى الكعبة بالمنجنيق ، ومعنى هذا أن التفكك شمل سكان المدينتين المقدستين مع مـا شمل من مناطق الجزيرة •

على أن ثورة المدينة من جهة ، وثورة ابن الزبير بمكة من جهة أخرى جعلت الدولة الأموية تقف موقف الحذر من الحجاز ، وتقلل من استخدام أبنائه ، فانصرف الجيل الجديد إلى الفن والشـعر ، وتخلى عن عالم السياسة والطموح (١) •

وينبغى أن يكون واضحا أن عناية الأمويين بالأماكن المقدسة لم تَقِـلّ بسبب سخط الأمويين على أهل الحجاز ، فقد أمر عبد الملك بن مروان قائده الحجاج بأن يبنى الكعبة عقب نهايـة الصراع بينـه وبين ابن الزبير (٢) ، وعمّر عبد الملك المسجد الحرام عمارة حسنة ، فرفع جدرانه وسقفه وجعل فى رءوس الأساطين خمسين مثقالاً من الذهب فى رأس كل أسطوانة (٣) وفى عصر الوليد بنى عمر بن عبد العزيز المسجد النبوى سنة ٨٨ هـ ووسعه بأن أدخل فيه بيوت زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام إلا بيت عائشة حيث مثوى الرسول وصاحبيه (٤) وأمر الوليد عمر بن

---

(١) أنظر الجزء الثانى من هذه الموسوعة ص ٦٩ — ٧١ •
(٢) الأزرقى : أخبار مكة ص ١٤٦ •
(٣) المرجع السابق ص ٣٠٩ •
(٤) الطبرى ج ٨ ص ٦٥ •

عبد العزيز أن يبنى الفوّارة التى يشرب منها أهل المدينة ، كما أمره بتسهيل السبل ما بين الحرمين وتمهيد الثنايا الواقعة بها [١] وبالنسبة للمسجد الحرام فقد زاد الوليد فى زخرفته ، ونقل له أساطين الرخام ، وهناك اصلاحات علمية وعمرانية كثيرة عرفها الحجاز فى العهد الأموى .

وفى أواخر العهد الأموى قامت محاولة ضد الأمويين ترمى إلى الاستيلاء على الحجاز ، وقد قام بهذه المحاولة عبد الله بن يحيى الكندى الحضرمى ، الذى استولى سنة ١٣٩ هـ على حضرموت ثم أنفذ المختار ابن عوف الأزدى أحد قواده ، فاحتل مكة والمدينة ولكن جيوش مروان ابن محمد سرعان ما قضت على هذه المحاولة .

ومعنى هذا أن التفكك الذى شمل الجزيرة أو أكثرها كان على وشك أن يبتلع الحجاز ، لولا ما للحجاز من أهمية دينية جعلت كل الخلفاء فى مختلف العهود يهتمون به ، ويحرصون على الحفاظ عليه .

وهناك نقطة خطيرة هى أن بعض خلفاء الأمويين كان لا يعلم عن موطن آبائه وأجداده الا ما يسمعه من الناس ، فقد أصبحت دمشق وطنهم ، ومقر أمجادهم ، أما مكة حيث أمجاد أبى سفيان ومنشأ معاوية ، فقد أصبحت للأمويين ولغيرهم من المسلمين ، مدينة مقدسة فقط ، يحج لها بعضهم ، وينشغل آخرون حتى عن أداء فريضة الحج أو العمرة لها .

الجزيرة العربية فى العصر العباسى

قلنا من قبل إن الجزيرة العربية فقدت فى العهد العباسى عاملى الرخاء وهما العاصمة والقيادة ، وهذا القول يحتاج إلى مزيد من التفصيل ، فالعاصمة العباسية (بغداد) زادت بعدا عن الجزيرة العربية ، فقد كانت دمشق قريبة الصلة بالخط التجارى فى رحلتى الشتاء والصيف ،

---

(١) الطبرى ٨ : ٦٦ والأزرقى : أخبار مكة ص ٣٠٩ .

ولكن بغـداد لم تكن كـذلك ، ثم أن دمشـق كان وجهها عربيا ، ولكن عاصمة العباسيين لم تكن كذلك على الرغم من حزم بعض الخلفاء ، ففى العصر الأول كانت فارسية الوجه ، فأبو مسلم الخراسانى ، وأبو سلمة الخلال ، والبرامكة ، وبنو سهل •• كان لهم النفوذ الكبير ، وبعد العصر الأول زاد وجه العاصمة العباسية بعدا عن العروبة •

ويرى بعض الباحثين أن الصراع بين الأمين والمأمون كان صراعا بين العرب والفرس ، وقد انتصر فيه المأمون بجيشه الذى زحف به من خراسان بقيادة طاهر بن الحسين ، ولا شك أن المأمون حاول عقب انتصاره أن يعيد للعرب بعض النفوذ ولكن الزمن كان اقوى منه ، وجاء المعتصم فقضى على هذه المحاولة عندما أسقط العرب من قوائم العطاء •

وينبغى أن نبرز هنا ما سبق أن ذكرناه من أن العرب الذين كانوا يقودون الجيوش ، ويتولون المناصب ، وينشرون الإسلام فى مختلف البقاع لم يعودوا الجزيرة العربية ، بل استوطنوا البلاد التى نزلوا بها ، وأقاموا بها أُسراً جديدة ، فتوقف تدفق المال على الجزيرة ، وأصبحت كبيتٍ رحل أهله عنـه ، فعـادت القهقرى فى الفكر والسـياسة ، وبالتـالى عادت الحياة القبلية تستشرى فيها من جديد ، وتمّ ذلك مع نهاية العصر العباسى الأول •

ومع هذا فقد حظيت منطقة الحجاز بعناية الخلفاء العباسيين كما حظيت من قبل بعناية الخلفاء الأمويين بسبب الأمكنة المقدسة ، وحرصـا على سلامة الحجاج الوافدين إلى الحجاز •

وقـد حاول بعض الخلفاء العباسيين أن يستعيدوا النفوذ فى أكثر مناطق الجزيرة العربية ، ولو على الأقل من الناحية الاسمية ، فكان أمير الحجاز يُعَدُّ أميرا على أكثر مناطق الجزيرة ، فأبو العباس السفاح ولىّ سنة ١٣٣ هـ خاله زياد بن عبيد الله الحارثى على الحجاز ، وجعل الطائف

واليمامة تابعتين له [١] وداود بن على كان واليا علـى الحجاز فى عهـد المنصور وكانت اليمامة تابعة له [٢] .

ولكن نفوذ هؤلاء الولاة خارج الحجاز كان محدودا للغاية ، وبخاصة ما دامت لم توجد بتلك المناطق ثورات تهدد الخلافة .

ومن الأعمال التى تنسب للعباسيين أن أبا العباس السفاح أنشأ القلاع على طريق الحج لحراسة الحجاج من هجمات البدو ، كما أنشأ بيوت الضيافة فى محطات الاستراحة ، وينسب لأبى جعفر المنصور أنه زاد فى الحرم المكى زيادة كبيرة سنة ١٣٩ هـ ، وكان من اصلاحات المهدى أن أخذ عددا كبيرا من أولاد الأنصار وأقطعهم الأملاك الواسعة بالعراق ، وأكثر بناء الخانات على دروب الحج ، ووسع فى بناء المسجد الحرام ، وأدخل فيه دورا عديدة من جهة المسمى ، وينسب لزوجتـه الخيزران ، أنها — عندما حجت — ابتاعت بعض الأماكن التاريخية ، وأنشأت فيها مساجد ، ومنها المكان الذى ولـد فيه سيدنا رسول الله ، ومنها دار الأرقم ابن أبى الأرقم ، أما السيدة زبيدة فمن منشآتها « عين زبيدة » بمكة التى أجرت اليها الماء من وادى النعمان على بعد عشرة كيلو متـرات من مكة ، كما أنها مهـدت طريق الحج من العـراق الى الحجاز عبـر الصحراء ، وبنت عليه المرافق والمنازل ، وحفرت الآبار ، وما زال يعرف باسم « درب زبيدة » [٣] .

ولكن كان هناك عامل مهم باعد بين العباسيين وبين الحجاز ، فمنذ مطلع الدولة العباسية ظهر الحجاز مناوئا للدولة الجديدة ، وقامت بـه مجموعة مـن الثورات العلوية ذكرناها فى الجـزء الثالث مـن هـذه الموسوعة [٤] ، وفى قمتهـا ثورة النفس الزكية ، والحسن بن عـلى بن الحسن بالمدينة ، ومحمد الديباج بمكة ، كما أنه خرج من الحجاز مناوئون

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ١٤٧ .
(٢) تاريخ اليعقوبى جـ ٣ ص ٨٨ .
(٣) أحمد عطية الله : القاموس الاسلامى جـ ٣ ص ٢ .
(٤) انظرها فى ص ٢٩٦ وما بعدها .

آخرون زعزعوا أركان الدولة فى أرجاء أخرى من العالم الإسلامى ، فمن الحجاز خرج ابراهيم بن عبد الله الذى سار الى الديلم بعد موقعة (فخ) وكوّن هناك حركة رآها الرشيد خطرا عليه ، وبذل جهدا كبيرا ليتحاشاها ، ومن الحجاز كذلك خرج إدريس بن عبد الله الذى أخذ طريقه الى المغرب ، وكوّن دولة الأدارسة وهى أول دولة تنشق على العباسيين من العـالم الذى كان يدين لهم بالولاء .

ولم تقتصر ثورات الحجاز على الثورات السياسية ، بل امتـدت الثورات فى الحجاز الى مدى آخر ، فقد هب بنو سليم وأشجع بالمدينة فى ثورة سلب ونهب وتدمير ، وامتد أذاهم الى كثير من الناس ، وقطعوا الطرق ، وتغلبوا على جند الوالى ، وكان ذلك فى عهد الواثق ، فأرسل لهم الخليفة جيشا بقيادة بغـا الكبير فأوقع بهم وأخذ عددا كبيرا من الأسرى (١) .

والذى ينظر فى تلاحق ثورات الحجـاز على العباسيين يدرك أن الحجاز كان مصدر خطر على الدولة العباسية مما جعل هذه الدولة لا تعنى بالحجاز الا بالقدر الذى يرتبط بالأمكنة المقدسة ، وسلامة الحجاج ، والتغلب على صور التمرد ، وفيما عدا ذلك انضم الحجاز للأمكنة الأخرى بالجزيرة العربية من حيث الفراغ والنسيان والعودة للمجهول والحياة القبلية .

بقى من الجزيرة العربية أن نتكلم كلمـة عن عمـان وعن اليمن ، وهذان القطران قامت بهما فى عصور التاريخ الاسـلامى دول وممالك ، ولكن الحياة القبلية كانت نشطة بهما نشاطا لـم يتوقف ، ومنافسـات للأمراء وحركات التفكك لـم تنقطع كمـا سنرى عنـد عرض تاريخهما بالتفصيل فيما بعد .

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ٢٢٠ .

التفكك الفكرى فى الجزيرة العربية

وصفنا من قبل التفكك السياسى الذى أصاب الجزيرة العربية ولكن هذه الجزيرة أصيبت بانهيار آخر هـو التفكك الفكرى فقـد اجتمعت بالجزيرة بقايا المذاهب المختلفة ، وتعمق التعصب فاتضحت صـورتـه فى التعصب المذهبى الذى يصفه المقدسى [1] بقوله : « ومذاهبهم بمكة وتهامة وصنعاء سنّة ، وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمـان شراة غالية ، وبقية الحجاز وأهل الرأى بعمان وهجر وصعدة شيعة ، وجماهير عمان وصعدة وأهل السروات وسواحل الحرمين معتزلة ، والغالب على أهل صنعاء اتجاهات أبى حنيفة ، وبالمعافر مذهب أبى المنذر ، وفى نواحى نجد اليمن مذهب سفيان ، والأذان بتهامة ومكة يُرجّع على مذهب مالك ، ويكبر فى العيدين على قول ابن مسـعود ، والعمل بهجر عـلى مذهب القرامطة » .

وفى الجزيرة العربية وبخاصة فى منطقة الخليج العربى ظهـرت حركات مدمرة ، وانحرافات متعددة ، سـتكون موضـع اهتمامنا عندما نصل فى دراستنا الى هذه المنطقة ، ولا شك أن القرامطة كانوا من أبرز هذه الحركات ، وقد بعث القرامطة الذعر ، ونشروا الخوف فى الجزيرة العربية مدة قرن من الزمان ، فكانوا بانحرافهم الفكرى مثالا واضـحا لمـا أصاب الجزيرة من تدهور وانحلال .

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٩٦ .

اتجاهات مصر الاستقلالية
وصلاتها بالجزيرة العربية

لمصر تاريخها الطويل العريض قبل الإسلام ، فعلى ضفاف النيل نبتت أقدم وأعظم حضارة عرفتها البشرية (١) ، وشعب مصر ورث هذه الحضارة الرائعة جيلا عن جيل ، وجو مصر جو ممتاز طيلة العام . وهواء مصر عبق ، ونيلها ساحر ، ورخاؤها غامر ، وآمالها عراض ، وقد فتحت مصر ذراعيها للاسلام ورحبت بفكره وحضارته ، وحذق اللسان المصرى لغة القرآن وبلاغة القرآن ، وتكونت بمصر مدرسة إسلامية عظيمة الشأن منذ العهد الأول ، وكان من دعائمها وافدون من الجزيرة العربية جنبا إلى جنب مع الذين نبتوا على أرض مصر ، وسرعان ما أصبحت المدرسة الإسلامية بمصر من أعظم المدارس التى تخدم الإسلام والفكر الإسلامى (٢) ، فلما ضعفت الجزيرة العربية سياسيا وفكريا ، وسقطت الدولة الأموية ، واصطرعت بعاصمة العباسيين قوى البغى ، تطلعت مصر إلى مكان الصدارة ، وفى العهد الطولونى تحقق لمصر استقلال يكاد يكون تاما ، ومن مظاهر هذا الاستقلال نمو الثروة المصرية فى عهده نموا كبيرا بسبب الاصلاحات الشاملة التى قام بها (٣) ، وتكوين جيش ضخم يحمى البلاد ويحقق الأهداف العسكرية (٤) ثم صراعه ضد الموفق أخى الخليفة والمسيطر على دار الخلافة ، وهذا الوضع يجعل مصر على قدم المساواة مع بغداد وينفى التبعية التى كانت موجودة من قبل ، وطمع ابن طولون فى أن يجذب لمصر الخليفة المعتمد المغلوب على أمره ، وكتب له يقول : وقد جمعت عندى مائة ألف عنان ، وأرى لسيدى

---

(١) انظر حديثنا عن هذه الحضارة فى كتاب « الفكر الاسلامى » أحد أجزاء موسوعة الحضارة الاسلامية للمؤلف .

(٢) اقرأ عن هذه المدرسة فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف .

(٣) ابن خلكان : وفيات جـ ١ ص ٦٨ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٤ .

أمير المؤمنين الانجذاب إلى مصر ، فان أمسره يرجع بعد الامتهان الى نهاية العز ، ولا يتهيأ لأخيه فيه شيء مما يخافه (١) .

ووصل الاتجاه الاستقلالى فى ذلك العهد الى أن ابن طولون عزل « الموفق » وأن كان هذا العزل بطبيعة الحال لم يتم .

وبعد أن كانت مصر تابعة للمدينة أو دمشق أو بغداد أصبحت مصر ذات سلطان واسع ، فيه استقلال لها ، وفيه امتداد الى الخارج ، فقد اتسعت دولة ابن طولون من العراق شرقا الى برقة غربا ، ومن آسـيا الصغرى الى بلاد النوبة ، كما أسهم ابن طولون فى الدفاع عن الثغور الشمالية المواجهة للروم ، حتى خشى امبراطور الروم بأسه ، وترضاه بأن أطلق بعض أسرى المسلمين الذين كانوا عنده (٢) .

ولما كان الحجاز قبلة للعالم الإسلامى ، ومطمع الحكام الأفذاذ فقد كان من الطبيعى أن تحاول مصر أن تمد نفوذها الى الحجاز ، وقد حاول أحمد ابن طولون ذلك ، ونازل قوات الموفق فى مكة (٣) .

وقامت الدولة الأخشيدية بعد ذلك بمصر ، واتجهت نفس الاتجاه الاستقلالى الذى بدأ فى العهد الطولونى ، وكما حارب ابن طولون الموفق فقد حارب الأخشيد ابن رائق أمير الأمراء الذى كان مسيطرا على الخلافة العباسية فى عهده (٤) ، وكما دعا ابن طولون الخليفة المعتمد ليلحق بمصر ، وليتخذ منها عاصمة للخلافـة ، فقد دعـا الاخشـيد الخليفة العبـاس (الراضى) ليجيء الى مصر حتى يتخلص الخليفة من نفوذ أمير الأمراء وكما اتسع سلطان مصر فى عهد ابن طولون ، فان سلطان مصر فى عهد الاخشيد كان أكثر اتساعا ، فقد شمل مصر واليمن والشام ، وقد ذكرنا

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٨١ ، ابن الاثير جـ ٢ ص ١٣١ .
(٢) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ٣ ص ١٢٩ .
(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ٧ ص ١٣٢ .
(٤) المرجع السابق : جـ٨ ص ١١٧ .

من قبل أن ابن طولون تطلع للسيطرة على الحجاز لمكانة الحجاز فى العالم الإسلامى ، وأنه نازل جند الموفق فى مكة ولكن الاخشيد كان أكثر توفيقا من ابن طولون فى هذا الاتجاه ، فقد امتد نفوذه الى الحجاز كله (١) .

ولابد فى الحديث عن الاخشيديين أن نرجع الى الوراء قليلا ، لنذكر أن الخلافة الفاطمية قامت بتونس سنة ٢٩٧ ﻫ وهى خلافة لا تعترف بالخلافة العباسية ، وتقف منها موقف المنافسة وتحاول أن تقضى عليها ، وبينما كانت الخلافة الفاطمية قوية فى مطلع حياتها وقمة قوتها ، كانت الخلافة العباسية تترنح تحت ضغط القوى التى استولت على السلطة فى بغداد متماثلة أولا فى الأتراك ثم البويهيين .

ومن الطبيعى أن يكون الحجاز محل صراع بين العباسيين والفاطميين ، فللحجاز مكانه المقدس عند هؤلاء وأولئك وسيكون لمن يستولى عليه مكان أرفع لدى كافة المسلمين ، وقد أدرك العباسيون ألا قبل لهم بالصراع ضد الفاطميين الذين كانوا يندفعون بقوة تجاه مصر وتجاه الحجاز ، وبخاصة أن مصر كانت فى حالة اضطراب بعد نهاية الطولونيين ، كما كانت الحجاز تمر بفترة سيئة اثر تدخل القرامطة وانتزاع الحجر الأسود من مكانه .

فى ضوء هذه الظروف لم يجد الخليفة الراضى بدا من اللجوء الى قائد عرف عنه الحزم والحكمة هو محمد بن طغج الاخشيدى الذى كان واليا على دمشق ، وكانت مصر تابعة له بصفة مؤقتة ، فجعل الراضى ولاية مصر لمحمد بن طغج الاخشيدى ولاية أصيلة ، وأمره بالانتقال اليها ، ليعيد اليها حياة الاستقرار ، فجاء ابن طغج الى مصر سنة ٣٢٣ ﻫ (٢) ثم ضمت الحجاز لدولة الاخشيديين وظلت الحجاز مرتبطة بمصر عدة قرون بعد ذلك خلال العهد الفاطمى والأيوبى وخلال عهد المماليك حتى

---

(١) الكندى : تاريخ مصر وولاتها ص ٢٨٨ — ٢٩١ .
(٢) انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

الفتح العثمانى (أى من سنة ٩٤٥ الى سنة ١٥١٧) ما عدا فترات قصيرة جدا ، وكان حكام مصر يولون الولاة علـى الحجاز ليكـون لهم الحكم والسياسة ، ويوافقون على تولية الأشراف الذين سنتكلم عنهم فيما بعد ، والذين كانوا يباشرون الأمور الدينية ، وفى بعض الأحوال كان الشريف يختار ليتولى شئون الحكم والسياسة مع عمله الدينى تابعا لحكام مصر ، وكانت مكانة الشريف تعلو أو تهبط حسب كفاءته من جـانب ، وانتهازا لفرص ضعف أو اضطراب بمصر من جانب آخر •

وقد حاول بعض ولاة الحجاز من قبل مصر أن يمدوا نفوذهم الى مناطق أخرى بالجزيرة العربية ، ولكن هذه الفترات كانت قصيرة العمر ، وكانت الحياة القبلية تنشـط من جـديد فتستعيد السلطة مـن هؤلاء الولاة •

وعلى هذا ليس صحيحا ما تذكره بعض المراجع [١] من أن ارتباط الحجاز بمصر بدا بعد وفاة كافور الاخشيدى عندمـا رحل عن المدينـة المنورة محمد بن جعفر الحسينى ، ودخل مكـة ودعا للفـاطميين ، لأن ارتباط الحجاز بمصر بدأ فى مطلع عهد الاخشـيديين ، وكان بموافقـة العباسيين •

وهكذا ارتبطت الحجاز بمصر حوالى ستة قرون ، ولم يقصمها الا تدخل العثمانيين ، واستيلاؤهم على السلطة فى البلاد العربية ، وقـد حاولوا اضعاف مصر لأنهم تصوروا أن الخطر ضدهم يكمن فى مصر ، ولكن مصر على كل حال استطاعت فى عهد العثمانيين أن تستعيد مكانتها بالحجاز من الناحية الأدبية ، وقدمت الى الحجاز أسمى المساعدات دون أن تنتظر تعليمات من العثمانيين كما سنرى بعد قليل ، فلما تحقق لمصر

---

(١) سعيد باوزير : معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ١١٥ •

استقلالها عن العثمانيين ابتداء من سنة ١٨٠٥ (عهد محمد على) حاولت مصر أن تستعيد مكانتها بالحجاز كاملة كما كانت عبر القرون الماضية [١] •

ماذا فعلت مصر للحجاز ؟

فى اعتقادى الذى أؤمن به بناء على الدراسات الدقيقة أن مصر قدمت للحجاز أكثر مما قدمت لنفسها ، تطلعت الى الأماكن المقدسة بعناية فائقة من الناحية العمرانية والثقافية ومن ناحية الأمن داخل الحجاز أو فى الطرق الموصلة اليه ، ومن ناحية كبح جماح الطامعين والمتمردين ، ومن ناحية دور الايواء والإحسان ، وقد استوى فى ذلك الطولونيون والاخشيديون والفاطميون والأيوبيون والمماليك ، ولست أورد تفاصيل ما فعلته مصر فى الحجاز فليس ذلك بخاف على أحد •

والذى دفعنى الى هذا الاتجاه ما لاحظته من بعض المؤلفين الذين يميلون الى أن يبخسوا مصر حقها ، بل يميلون الى أكثر من ذلك ، يميلون إلى إخفاء اسم مصر ، ومحاولة الكلام عنها ضمن ما أسموه « ملوك الطوائف » وهى تسمية خاطئة فى مجال التاريخ ، ويوم يعمد عربى الى اخفاء اسم مصر فانه يحفر قبره بيده •

لماذا اتجه هؤلاء المؤلفون هذا الاتجاه ؟ •

لقد خطر لهؤلاء المؤرخين — كما أوحت بذلك عباراتهم — أن مدح مصر يسىء إلى المملكة العربية السعودية ، وقد كتبت مؤلفاتهم مهداة إلى ملوك هذه المملكة ، وتزينت بصورهم وحملت أعمق الأدعية لهم ، ولكننى أعتقد أن التوفيق لم يحالف هؤلاء المؤلفين ، فملوك المملكة العربية السعودية لا يخدعهم هذا الزيف ، وهم يعرفون لمصر قدرها ، وتعرف مصر لهم أقدارهم بكل العمق والتقدير ، ويوم يكتب التاريخ بهذا الاتجاه يضر كثيرا ولا ينفع أحدا ، وحسبى هذا دون أن أذكر

---

(١) انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة •

هؤلاء المؤلفين ، وإن كنت أرثى لحالهم ، وبخاصة إذا لاحظنا أن نشاط مصر بالحجاز الذى نتحدث عنه الآن حصل قبل بدء الدولة السعودية بمدى طويل ، فقد بدأ كما قلنا فى القرن الهجرى الرابع وظل حتى الفتح العثمانى فى القرن العاشر الهجرى ولم تكن الإمارة السعودية قد بدأت بعد فليس مما يضر ملوك السعوديين أن ننسب لمصر ما قامت به من أعمال جليلة فى الحجاز حيث القبلة التى يتجه اليها المسلمون فى صلواتهم ، وحيث الأمكنة المقدسة التى يفد إليها الحجاج من كل ربوع العالم الإسلامى ، وليت ملوك العالم الإسلامى ورؤساءه يتسابقون دائما لخدمة هذه الأمكنة المقدسة وإعلاء شأنها .

العثمانيون فى الحجاز والجزيرة العربية

عندما فتح العثمانيون مصر سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) تطلعوا لاستعمال الدين وسيلة لتثبيت سلطانهم فيما فتحوه من البلاد الإسلامية ، ووسيلة لتيسير توسع جديد باسم الدين ، ولذلك عمد السلطان سليم بعد فتح مصر إلى شيئين مهمين :

الأول : نقل الخليفة العباسى وأهله إلى القسطنطينية ، لتصبح القسطنطينية بذلك مقر الخلافة ، ويرتبط بهذا موضوع يثار دائما ، وهو ما يشاع من أن السلطان العثمانى أمر الخليفة العباسى فتنازل له عن الخلافة وهو موضوع سنحققه بعد قليل .

الثانى : أنه حرص بسرعة أن يمد نفوذه إلى الحجاز ، وكان ذلك سهلا هينا لأن الحجاز كان تابعا لمصر ، وسقوط مصر كان معناه استلام ما يتبعها من أقطار .

وكان بالحجاز من الأشراف رجل اسمه بركات ، وأكثر الأشراف بعد الرعيل الأول ، لم يكن لهم — للأسف — أية مبادىء ، وكانوا مستعدين

ليصادقوا أو يعادوا تبعا لمصالحهم لا لأفكارهم ؛ ولذلك نجــد الشريف بركات يسارع فيقدم مفاتيح الحرمين الشريفين الى السلطان سليم اعترافا بسلطانه ، ويثبته السلطان على ذلك بأن يقره فى مكانه •

ويتحقق للعثمانيين بذلك ما أرادوا ، فقد كان فتح الأقطار الإسلامية بعد ذلك سهلا بل تقدمت بعض الأقطار الإسلامية من تلقاء نفسها تطلب أن تشملها سلطة العثمانيين •

العثمانيون ولقب الخلافة :

كان السلطان سليم قد قابل الخليفة المتوكل فى سوريا ، وعاد به إلى استانبول بعد فتح مصر لتصبح استانبول مقر الخلافة [1] أما ما يشاع من أن السلطان طلب من الخليفة أن يتنازل له عن لقب الخلافة فلا يقوم عليه دليل ، ويرى المرحوم الأستاذ ساطع الحصرى أن هذا التنازل ليس صحيحا بدليل أن ابن إياس وهو معاصر لهذه الفترة وقد دوّن فى كتابه « بدائع الزهور » تفاصيلها لم يذكر شيئا عن هذا التنازل ، وكذلك لـم تورد « اليوميات » التى ألفها « فريدون بك » أى ذكر لهذا التنازل ، مع أنها أوردت تفصيلات عن أشياء بسيطة جدا ، ومثل هذا يقال عن كتاب « تاج التواريخ » وقد كتبه ابن شيخ الإسلام الذى رافق السلطان سليم الأول فى رحلته إلى مصر •

بل تتحدث « اليوميات » المشار إليها عن تحركات المتوكل العباسى واصفة إياه بأنه الخليفة ، كما يتحدث ابن إياس عن تولية خلفاء آخرين من العباسيين [2] •

والحق أن السلطان سليم ، والسلطان سليمان من بعده لم يحتاجا إلى أن يتنازل الخليفة المتوكل لهما عن الخلافة ، فان الحاكم العثمانى

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٣ ص ١٤٧ •

(٢) انظر : البلاد العربية والدولة العثمانية للاستاذ ساطع الحصرى ص ٤٢ وما بعدها •

بعد الانتصار على مصر شرع من تلقاء نفسه فى مباشرة سلطات الخلفاء دون حاجة إلى هذا التنازل .

ومع أن هذا التنازل ليس ثابتا بصفة شكلية إلا أنه حدث بصفة واقعية ، فان الخليفة المتوكل كان قد سلم إلى السلطان العثمانى شارات كانت تعتبر من شارات الخلافة كالبردة التى كان يلبسها الخلفاء فى المناسبات الرسمية ، وكالذخائر النبوية ، وهى العصا والخاتم وخصلة من الشعر يقال إنها من شَعْر الرسول صلوات الله عليه : وقد أودعت هذه المخلفات السراى الكبير فى استانبول (١) .

أما استعمال السلاطين العثمانيين للقب الخليفة فعلا فتشير إليه بعض أحداث لعل أولها رسالة السلطان سليمان إلى شريف مكة التى يخبره فيها بوفاة والده السلطان سليم ، وأنه تسلم بعده سدة السلطنة ، وأصبح « مستقر الخلافة » وقد أجابه شريف مكة مهنئا إياه على تسلمه العرش ، وعلى منصب الخلافة (٢) وكان شريف مكة فى ذلك — كالعهد بأكثر الأشراف — ملكيا أكثر من الملك كما يقولون فصرح بما لم يصرح به السلطان ، فاذا كان السلطان قد اكتفى بأن يصف نفسه بأنه « مستقر الخلافة » فان شريف مكة يثبت الخلافة بصراحة إلى السلطان .

وعلى كل حال فإن هذا اللقب لم يظهر فى وثيقة رسمية إلا عندما ضعف العثمانيون وراحوا يبحثون عن مصادر للقوة ، وكان لقب الخلافة والظهور بمظهر من يمثل المسلمين من بين هذه المصادر ، ففى معاهدة كوتشك كينارجى بين الروس وبين الأتراك سنة ١١٧٤ لقب السلطان بلقب خليفة المسلمين (٣) .

---

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .
(٢) فريدى باى : مجموعة منشآت السلاطين ص ٥٠٠ — ٥٠٢ .
وانظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة ص ٦٧٢ من الطبعة الثالثة .
(٣) History of the Arabs Vol. 3 p. 831.

عودة إلى علاقة العثمانيين بالجزيرة العربية :

المهم الآن أن سلطان العثمانيين امتد إلى الحجاز ، وتطلع العثمانيون إلى المناطق الساحلية حول الجزيرة كما سنرى فيما بعد ، ولم يبدوا اهتماماً يذكر بقلب الجزيرة فلم يكن بها ثراء يغريهم ، أو قوة تخيفهم ، وتركوا هذه المناطق كما كانت قبلهم تعيش بها القبلية ، وتتناحر الرياسات ، ويعشش الجهل ، ولا يتوقف الصراع بين القبائل بعضها والبعض ولا يتوقف الصراع بين البدو من جانب والحضر من جانب آخر .

وقد وجه العثمانيون فى هذه الفترة عناية كبيرة للحرمين ولسكان الحرمين ، فالصدقات أصبحت تصل بانتظام إلى السكان ، والمحمل والأكسية للكعبة كانت موضع العناية ، وأرسل السلطان سليمان القانونى للحرم المكى منبراً بديع الصنع من الرخام ، لا يزال موجوداً حتى الآن كما عنى باصلاح سقف الكعبة المشرفة ، وجلب الماء للحجاج فى قنوات بناها لتأتى بالماء من عين زبيدة ، وبنى أسوار جدة .

مصر بالحجاز خلال العهد العثمانى :

وأعيد بناء الكعبة فى زمن السلطان مراد الرابع فاتح بغداد وكانت مصر هى التى قامت بالبناء وبتكاليفه ، وكان ذلك فى شهر شوال سنة ١٠٣٩ هـ ، ويروى أنه فى ذلك العام نزل مطر عظيم جرف ما وجده أمامه ، ودخل بيت الله الحرام فبلغ طوق القناديل المعلقة حول المطاف ، ودخل الكعبة المشرفة بارتفاع مترين عن قفل باب الكعبة ، وقد سبب هذا سقوط الجدار الشمالى ، وتصدعت باقى الجدران وجمع المشرفون على البيت القناديل المرصعة بالأحجار الكريمة والذهب ، فى بيت سادن الكعبة وأرسلوا هذا النبأ إلى مصر ، وطلبوا تبليغه إلى استنابول .

وبادر والى مصر بالعمارة قبل أن يجىء أمر من الأستانة ، وفى كتاب « أخبار مكة » للأزرقى يذكر شاهد عيان قائمة طويلة بالآلات

والمؤن التى وردت من مصر لهذه العمـــارة ، وهى كميات هـــائلة وثمينة الغاية ، كما يورد تفاصيل سير العمارة من يوم إلى يوم ، وبعد تمـــام العمارة كُتِب محضر إلى والى مصر به شهادة المكيين بحسن عمـــارة البيت المعادة (١) :

وهكذا ارتبطت أكثر الحركات بدائر الجزيرة العربية ، أى بمناطق الحضر فيها ، وربما امتـــدت قليلا إلى الداخل عـــن طريق ضـــم بعض المناطق الداخلية لولاة دائر الجزيرة ، ومن هنا لزم أن نولى قلب الجزيرة بعض العناية فنتجه لدراسة تاريخ نجد ، ذلك التاريخ الذى لم يتضح بعد للباحثين ، وذلك ما سنحاوله فيما يلى :

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار جـ١ ص ٢٤١ ـ ٢٥٤ .

نجـــــد

من مطلع الإسلام حتى قيــام المملكة العربية السعودية

تشغل نجد أكبر منطقة فى الجزيرة العربيـــة ، ومع هذا لم تأخـــذ حظها من الدراســـة ، ولا مكانها فى تدوين التـــاريخ ، حتى أصـــبح من الحقائق المعروفة أن « الباحث فى أية ناحية مـــن نواحى التاريخ تتعلق ببلاد نجد قبل ثلاثة قرون من الزمن تعوزه المصادر »[1] ولم يتجه علماء نجد إلا إلى هذه القرون الثلاثة الأخيرة • ويستوى فى ذلك الشيخ حسين بن غنام والشيخ عثمان بن بشر والشيخ ابراهيم بن صالح •

وفى جولتى التاريخية باحثاً ومعلماً ومؤلفاً طالما قابلت حقبا وبلاداً يكتنف تاريخها الغموض ، ولكنى لم أعرف اليأس ، وظللت أكدح حتى حققت نتائج مرضية ، وعندما وصلت نجداً فى هـــذه الجولـــة التاريخية الطويلة هالنى أن أرى الفرق الواسع بين مـــاض غامض وبين حـــاضر ناصع ، فاستعنت بالله ، واتجهت بكل العزم الألقى شعاعا من الضوء على تاريخ هذه البلدة ، فما كان لى أن أدع نجداً بدون تاريخ ، وسأتلمس الوسائل العلمية لأحقق بعض ما أتطلع إليه ، ويتطلع له الناس حـــول تاريخ نجد التى أصبحت بمكانتها فى العالم العربى الإسلامى وبثرائها تشغل المفكرين ورجال المال ، وبهذا أصبح من الضرورى أن نتعرف على ماضى هذه البلاد ، فالحاضر لابد أن يكون لـــه ماض عميق الجذور ليرتفع الحاضر عليه ويباهى بـــه •

ويزعم بعض الناس ، أن أمريكا مثلا لا ماضى لها ، ولا يضر ذلك بحاضرها ، ونجيب بأن الذين بنوا حاضر أمريكا هم نازحون من أوربا بتاريخهم ونهضتهم ، فهم فى أمريكـــا امتداد للفكر الأوربى ، وليس الحال كذلك فى نجد ، فناسها فى الحاضر هم أحفاد شعبها ، فإما أن يكون

---

(١) مقدمة كتاب « تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد » للشيخ ابراهيم بن صالح بن عيسى •

لهم تاريخ أو لا يكون ، وهذا يجعل من المحتم أن نتعرف على تاريخ نجــد .

وفى اعتقادى أنه ليس من العسير إبراز تاريخ نجد فى حدود الاطار العلمى التاريخى الذى يرسم المدى الذى يسعى له المؤرخ وهو يدرس تاريخ القبائل أو المدن أو الدول ... وسنتتبع تاريخ نجد فى ضوء هذا الاطار العلمى .

وقد كان من الوسائل التى أطمع أن تعيننى لتحقيق أملى ، صلتى الطويلة بالتاريخ الإسلامى أستاذا ومؤلفا ، وصلتى الدقيقة بالمراجع التى كتبها الباحثون والرحالة من الشرق أو الغرب من الجزيرة العربية ، وزياراتى المتكررة لمناطق متعددة فى نجد ، زيارات باحث يتعرف على وسائل الحياة فى الحاضر تلك التى تعين على فهم ما غمض فى الماضى .

وفى هذا الضوء وبهــذا الأمل أخطو طالبا العون مــن الله ودوام التأييد .

حدود نجد وتعريف سريع بها :

حدود نجد ليس متفقا عليها تماما ، ولكنها على العموم تشــمل الأراضى الممتدة من قريّات الملح شمالا إلى وادى الدواسر جنوبا ، ومن حدود الأحساء شرقا إلى حدود الحجاز غربا وتشمل المناطق التالية من الشمال إلى الجنوب .

قـُرَيات الملح ــ الجَوْف ــ جبل شمّر ــ القَصيم ــ سُدَيرْ ــ الوشـَمْ ــ العارض ــ الخَرْج ــ الحــريق ــ الأفــلاق ــ وادى الدواسر .

ويبلغ امتداد نجد من الشمال إلى الجنوب ثمانمائة ميل (٨٠٠ ميل) ويبلغ عرضها من الشرق إلى الغرب حوالى ٢٢٠ ميلا .

ومن الواضح أن المناخ يختلف فى هذه المناطق حرارة وبرودة ، ولكنها على العموم قليلة الأمطار ، مما سبب الجفاف فى أكثر بقاعها .

وتكثر العيون فى بعض المناطق فيستقر بعض السكان حولها ، أما الأكثرية الغالبة فيعيشون حياة البداوة ، وينتقلون من مكان إلى مكان [1] .

عشائر نجد :

والعشائر النجدية يمكن بوجه عام ترتيبها كالآتى :

فى الشمال	: شمَّر
فى الشمال الغربى	: عُتيبة ومُطَير
فى الشمال الشرقى	: عَنْزة وحَرْب
فى الغرب	: سُبَيع
فى الشرق	: آل مُرة وبنو خالد والعَجمان
فى الجنوب والجنوب الشرقى	: قحطان

مناطق الخصوبة فى نجد :

ينبغى علينا أن نتعرف على مناطق الخصوبة والجفاف فى نجد ، فإن ذلك سيبسط أمامنا الأرض التى نحاول أن ندرس تاريخها ، ويمهد لشرح العلاقات بين السكان والأرض ، ومن الخطأ أن يظن ظان أن نجداً كلها بلاد صحراوية قاحلة لأن فيها مناطق شديدة الخصوبة سخية فى إنتاجها الزراعى ، وتعد العارض من أكثر بلدان نجد خصوبة ، وفيها يقع وادى حنيفة الذى يمتد حوالى ٦٠ ميلا ابتداء من الجُبَيْلة حتى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ، ثم إلى ما بعد الرياض ، وهذا الوادى كثير العيون ، وتجتمع فيه الأمطار ، فيكوّن ما يشبه النهر عدة شهور فى العام ،

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين من ٥٢ — ٥٣ .

وقد عشت فى هذا الوادى ردحا من الزمن بين نخيله الباسقة وأشجاره الفينانة وزراعته الخضراء ، وهو ينتج محصولا هائلا من التمر بالاضافة إلى بعض الحاصلات الأخرى ، وقد سميت الرياض بذلك الاسم لأنها تكوّن فعلا مجموعة من الرياض التى تعد منحة لهذا الوادى ، ومن أشهر بلدان العارض الجُبيلة سالفة الذكر ، والعُيينة مسقط رأس المصلح الدينى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والدرعيّة التى سنتناولها أحاديثنا فيما بعد ، وحريملة .

ومن مناطق الخصوبة فى نجد منطقة القصيم ، وهى منطقة فسيحة تقع بين الوشم وعتيبة وجبل شمر ومزارعها كثيرة ، وحدائقها فسيحة ، ومن أشهر مدنها بُريده وعُنَيزة ، وفى شهر يناير سنة ١٩٧٧ افتتَحت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض إحدى الكليات التابعة لها فى بريدة ، وحضرت حفل الافتتاح ، وأتاحت لى هذه الفرصة أن أعيش فى القصيم فترة من الزمن ، وأن أرى ما بها من خصوبة ، ورياض فينانة ، ولا تزال هناك منافسات بين بريدة وعنيزة حتى العهد الحاضر ، وهى منافسات انحدرت من الحياة القبلية الصاخبة ، ومع أن هذه وتلك أصبحتا ضمن المملكة العربية السعودية التى انصهر فيها المواطنون مكوّنين دولة واحدة ، فان آثار الماضى لا تزال لها بقايا ، وإن كانت هذه البقايا تتجه الآن إلى الأحسن ، فإذا كانت هناك كلية فى بريدة فإن عنيزة تطمع أن تكون بها كلية مماثلة وسنعيش مرة أخرى مع بريدة ، وعنيزة فيما بعد .

ومن أشهر مدن القصيم بالاضافة إلى بريدة وعنيزة الرس والخبرا والعيون .

مناطق الجفاف فى نجد :

تلك هى أهم مناطق الخصب والنماء من نجد ، تضاف لها بعض الواحات والمناطق الصغيرة التى يوجد بها آبار ومزارع محدودة المساحة ،

مثل قفار وتيماء والجوف ، وفيما عدا ذلك فالصحراء فسيحة الامتداد لا تقع العين على آخرها ، والصمت هائل مخيف والتربة فقيرة ، مكوّنة أساسا من حصباء أو رمال ، والمراعى القليلة تظهر وتختفى وفى بعض الأحيان تنعدم الآبار تقريبا كالحال فى الربع الخالى وصحراء النفود ، وتقول الليدى آن بلنت (١) : إن صحراء النفود ليس هناك ما يفوقها فى العالم ، ولقد سمعنا عنها تقارير عجيبة ، وسمعنا عن الناس الذين فقدوا فيها ، والرحلة من بلاد الجوف عبر صحراء النفود إلى حائل تستغرق عشرة أيام على الأقل وليس هناك الا بئران على الطريق ، الأولى فى نطاق مسيرة اليوم الثانى ، والأخرى فى اليوم الثامن وعلى من يقوم بهذه الرحلة أن يكون حريصا مزودا بقدر كاف من الماء والتمر ، ومعه دليل خبير وإلا أكله الطريق الذى طالما اختفى فيه عابروه ، وفى هذه الصحراء تعيش القبائل الرحل التى لا تستقر فى مكان وتسير مع الدروب وخلف الآبار ، وهؤلاء هم الذين يسمون البدو ، وما يزال بعضهم يمارس نفس الحياة وإن كان الكثيرون منهم قد جذبتهم مناطق النفط ، أو تركوا الجمال ليمتلكوا السيارات الفارهة ، وليعملوا عليها سائقين ينقلون الناس من مكان إلى مكان داخل المدن ، أو عبر الصحراء من مكان إلى مكان .

قسوة الطبيعة فى بعض المناطق :

تتحدث الرحالة الانجليزية « آن بلنت » عن ريح شديدة قابلت ركبهم فى يوم من أيام ديسمبر ، وكانت برودتها تنفذ من خلال جُبَبِهم المصنوعة من الفراء ، وكانت هذه الريح هوجاء لدرجة أنها منعتهم من الكلام ، بل كما تقول الكاتبة حرمتهم التفكير ، وفى يناير التالى كان البرد قاسيا للغاية والصقيع شديداً ، حتى تجمد الماء فى الدلاء ، وتتحدث كذلك عن العواصف الرملية التى يقال إنها تدفن القوافل أحيانا ، وقد شرح لها دليلها ذلك قائلا : ان الرمل لا يدفن القوافل ، لأن بقايا القوافل تظهر

(١) Pilgrimage to Nejd p. 96.

على سطح الرمل ، والخطر الوحيد على القوافل هو أن العاصفة تستمر كثيرا فى بعض الأحيان فتنفد المؤن والمياه إذ لا تستطيع القافلة أن تتحرك عند هبوب العاصفة ، وعندما ينفد ماؤها ومؤنها تتعرض للهلاك ، وقد حدث ذلك لكثير من القوافل التى كانت تعبر الصحراء ، ومن هذه القوافل بعض الجنود الأتراك الذين كانوا يتجهون إلى دمشق عبر الصحراء ، ونفد ماؤهم ، ولما يئسوا من عدم الحصول على الماء اضطجعوا تحت بعض الأشجار الصحراوية حيث لاقوا نهايتهم المحتومة .

وبجانب البرد القارس الذى أشرنا لـه ، تقتبس الكاتبة من رحالة آخر هو « بلجريف » حديثا عن لهب الصحراء الذى يصبح فى بعض الأيام نارا متأججة ، يقول بلجريف : إن المسافر فى بعض الأيام بصحراء الجزيرة العربية ، يجد نفسه كما لو كان سجينا فى حفرة رملية ضيقة محاطا بأسوار لاهبة من كل جانب ، وأحيانا يجد نفسه كأنما يطل على بحر واسع من النار تتصاعد تحت ريح موسمية شديدة [١] .

صراع القبائل الذى لا يتوقف :

ان الذى يطالع تاريخ الحياة القبلية فى نجد ، قبل قيـام المملكة العربية السعودية ، يهوله ما فى هذه المناطق من قتل وسلب وحرق وتدمير ، لقد كانت الحياة سلسلة متصلة من سفك الدماء ، ليس فقط بين العدو وعدوه ، ولكن بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ، وبين أولاد العم ، وأولاد الأخوال ، بعضهم البعض ، وقد أورد الشيخ ابراهيم بن صالح بن عيسى من ذلك صورا يشيب لها الولدان ، ولسنا ندرى ماذا نقتبس منها وماذا ندع ، وكنموذج قصير نذكر أن موسى بن ربيعة يحتال على قتل أبيه ربيعة ابن مانع المريدى ويجرحه جراحات خطيرة ، ولكن الرجل يفلت من هذه المؤامرة ، ويلجأ إلى رئيس العيينة يطلب حمايته ، ثم يندفع موسى هذا برجاله من المردة والموالفة وغيرهم ويصـبح بهم آل يزيـد فى النعمية

(١) صفحات ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ١٤٠ ، ٩٩ على التوالى .

والوصيل ، ويقتل منهم أكثر من ثمانين رجلا ، ويستولى على منازلهم ويدمرها ، ولم يقم لهم بعد هذه الواقعة قائمة ، وهى التى يضرب بها المثل فى نجد فيقال : « صبحهم فلان صباح الموالفة لآل يزيد » (١) .

ويتحدث ابن صالح عن زحف قاس قام به عريعر بن وجين استطاع به أن ينتصر على بريدة وعنيزة ، ولكنه مات بعد ذلك بشهر فتولى بعده ابنه بطين ، ولكن أخويه سعدون ودجين قتلاه خنقا ، ثم تولى دجين ، فسقاه سعدون سما وقتله (٢) .

وإذا سرنا صفحة أخرى (٣) مع هذا المؤلف وجدناه يتحدث عن وقعة « أكيتال » بين الظفير والفضول بنجد سنة ١٠٨١ هـ ، وعن وقعة أخرى تسمى وقعة المنتهبة فى نفس العام بينهما أيضا ، كما يتحدث عن اختلاف بين بنى خالد أدى إلى قتال بينهم سقط فيه كثيرون ، منهم محمد بن حسين ابن عثمان وآخرون ، وفى نفس الصفحة يورد حديثا عن مسيرة رئيس بلد الجلاجل ومعه آل تميم من بنى خالد ، وسطا هؤلاء على مانع بن عثمان وصارت رياسة بلد الحصون لبنى خالد .

وهكذا يروع الباحث والقارىء بالدم الذى كان يسفك ، والمنازل التى كانت تحرق وتدمر ، والرحم الذى كان ينتهك ، ومن الواضح أنه لم يكن هناك أمن لأحد ، ولا أمل لمن يصبح أن يمسى ولا لمن يمسى أن يصبح ، وسنرى صورا من ذلك فيما بعد حتى بين السعوديين بعضهم والبعض فى الدولة السعودية الثانية كما سنرى فيما بعد .

ولم تكن هذه الوقائع أخذا بثأر فقط ، بل كان سفك الدماء يوشك أن يكون هدفا لذاته ، وهواية يحاول كل انسان إشباعها ، أو كان لأتفه كسب يمكن أن يحصل عليه الإنسان ، وتتحدث Anne Blant عن هجوم جماعة

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ٣٧ .
(٢) المرجع السابق ص ١١٥ — ١١٦ .
(٣) ص ٦٤ .

من البدو عليها هى وزوجها بطريق مفاجىء ، وأن هـؤلاء المهـاجمين أصابوها هى وزوجها بضربات من رماحهم ، وأخذوا البندقية من زوجها وكسروها على رأسه ، واستولوا على مهربيهما ، ولكن بعد قليل اتضح أن الكاتبة وزوجها فى حماية ابن شعلان وهو شخصية مهيبة الجانب لا يستطيع البدو العدوان على من يسير فى حمايته ، فردوا ما أخفوه وهم فى أشد الغيظ لضياع هذه الغنيمة (١) .

كثرة الأوبئة والقحط والغلاء :

ونتيجة لقسوة الطبيعة التى تحدثنا عنها ، ونتيجة للصراع الذى لم يكن يتوقف بين القبائل بعضها والبعض ، عانت مناطق نجد ألوانا مريرة من الأوبئة والقحط والغلاء فى كثير من الأوقات ، فالطبيعة فى كثير مـن الأحوال كانت تدمر المزارع والمراعى ، والحروب كانت تقوم بنفس الدور وأقسى منه ، وسنعطى فيما يلى لمحات عن هذه الآلام :

فى سنة ١٠٧٦ هـ حدث قحط عظيم بنجد امتد إلى الحجاز ، واشتد الغلاء اشتدادا هائلا ، وقل الطعام حتى هلك كثير من الناس جوعا ، وحتى أكلت الميتات والكلاب ، ويسمى هذا القحط « صلهام » وقد كانت شدته زائدة فى مكة المكرمة ، حتى باع بعض الناس أولادهم طلبا للقوت .

وفى سنة ١٠٩٨ هـ هبت ريح عاصفة فى منطقة سدير فأسقطت من نخيل المنطقة نحو ألف نخلة .

وفى سنة ١١٣٥ وقع بنجد قحط عظيم سمى (سَحِى) وامتد فى السنة التالية إلى الشام واليمن ، وبلغ غاية قسوته حينما غارت الآبار حتى هلك الناس عطشا وجوعا وتشردا ، وقد وصفه بعض الأدباء بقصائد باكية تمثل الناس بين مشرد وجائع وفقيد .

---

(١) رحلة الى نجد ص ٣٧ — ٤٠ باختصار .

وفى مطلع سنة ١١٣٧ هـ عُدِمت الأقوات تقريبا ، ويقــول الشيخ ابراهيم بن صالح [١] انه فى هذا القحط أكلت جيف الدواب ، ومات كثير من الناس جوعا ، وزاد البلاء عندما اشتد البرد فماتت الزروع بسبب ذلك ، ثم جاء جراد أكل غالب الثمار .

وفى سنة ١١٣٩ وقع وباء فى بلدة أشَيْقر توفى فيه خلق كثير . يعدد الشيخ ابراهيم بن صالح بعضهم ، ومثله الوباء الذى حصل فى بلدان سدير سنة ١١٧٥ هـ .

وفى سنة ١١٨١ هـ بدأ بنجد قحط شديد وغلاء هائل سُمِّى (سوقه) وقد مات فيه خلائق كثيرة جوعا ووباء ، وجلا فيه كثير من أهل نجد إلى البصرة والحسا .

وفى سنة ١٢٨٧ هـ و ١٢٨٨ وقع بنجد غلاء وقحط كان من نتيجته كما يقول الشيخ ابراهيم بن صالح [٢] ان أكلت الميتات والجيف ، وان قتل الناس بعضهم بعضا طلبا للقوت مما ضاعف الفتن والمحن ، وقد مات فى هذا القحط كثير من الناس جوعا .

تلك لمحة سريعة عن صور من الآلام عانتها نجد خلال تلك العصور نتوقف عن مثيلات لها كثيرة ، وقد كانت كلها نتيجة للطبيعة من جانب ، والصراع المدمر من جانب آخر .

مظاهر الجمال فى نجد :

وإذا كنا قد تحدثنا عما يوجد فى نجد من رياح وعواصــف وبرد قارس وحر ملتهب ، فان من الحق علينا أن نتحدث عما فى نجد من جمال وروعة ، وطالما وقفت فى رحلاتى بنجــد الأطل على واحة يضوع منهـا

---

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ٩٧ .
(٢) المرجع السابق ١٨١ .

الشذى ، وتمثل ابتسامة طيبة ، كأنها نابعة من فم حسناء ، وبسـاتين النخيل تتحدث بروعتها وبجمال تمرها ، وفى بعض فصول العام تبـدو الصحراء رائعة حتى انها طالما أوحت للشعراء بأروع القصائد ، وأجمل الأناشيد ، ويقول « ولفريد » زوج الرحالة « آن » بعد أن رأى جبل « شمر » انه يموت بعد ذلك سعيدا لأنه رأى مكانا فريدا فى جماله تقريبا ، وكلماته هى « ان كل مكان يمكن أن يماثله مكان آخر الا شمر فلا شىء يشبهه إلا أن يكون جبل سيناء (١) .

وبعد ، ذلك تعريف بنجد يبسط أمامنا المنطقة التى نتدارسها ، وذلك العرض السريع لها سيساعدنا على الخوض فى تـاريخها ، أمـلا فى أن تأخذ نجد مكانها اللائق بها فى ضوء التاريخ .

---

(١) Pilgrmage to Nejd p. 177.

مفتاح تاريخ نجد

ان الشكوى من غموض تاريخ نجد مصدرها — فيما أعتقد — فقدان مفتاح هذا التاريخ ، ويوم نعثر على هذا المفتاح ، ونتمسك به نرى كل شيء مُقْنعا ومُرْضيا الغاية ، وهذا المفتاح هو أن نعرف طبيعة المنطقة التى نتلمس تاريخها أو ندونه ، فلابد أن يكون هناك فرق واضح فى التأريخ لأمريكا قبل أن يكتشفها كولومبس وبعد الكشف ، ولا بد أن يكون هناك فرق فى التأريخ للأرض الألمانية وهى حافلة بالدويلات المستقلة ، والدوقيات والامارات والمدن الهانسية التى كانت تعد بالعشرات والتى كان لكل منها تاريخ مستقل تقريبا ، وبين التأريخ لألمانيا الموحدة التى تكونت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ونمت بعد ذلك حتى أصبحت من دول القمم ، ومثل ذلك يقال عن التأريخ لقبائل متناثرة فى نجد لا توجد بينها روابط ، أو توجد روابط عدائية ، وبين الدولة السعودية التى سنراها فيما بعد تضم هذه الأشتات بوسائل متعددة وتقيم من هذه القبائل دولة ذات شأن .

ولا بد أن يكون هناك فرق واضح بين التأريخ لدولة وبين التأريخ لقبيلة ، ففى الدولة هناك جماعات يربط بينهم وطن وقوانين ، وهنـاك استقرار داخلى وألوان من الحضـارة والنظم السياسية والعلاقـات الخارجية ، أو قل هناك الأرض نؤرخ للحياة فوقها ، ولكن الحال فى القبيلة يختلف ، لأن القبيلة أسرة كبيرة يربط بين أفرادها الدم ، وكثيرا ما تنزح من مكان إلى مكان ، مما يجعلنا لا نؤرخ لأرض تدب فوقها نظم ، بل نؤرخ لجماعة من البشر لا يرتبط أكثرهم بأرض أو يرتبطون بها ارتباطا غير طويل ، وتحكمهم العادات والتقاليد وعلاقاتهم بمن حولهم علاقات عدائية ، ومما يزيد تاريخ الحياة القبلية غموضا كثرة الحـروب التى كانت تدور بينها ، وكثرة هذه الحروب تدمر أية آثار عمرانية أو حضارية قـد تقيمها قبيلة من القبـائل ، وممـا سبب الغموض كـذلك عـدم

الاهتمام بالتاريخ فقد اتجه علماء نجد الى دراسة الفقه والتفسير ....
ولم يعنوا بتدوين السير والتاريخ (١) .

وعلى هذا فالذى يؤرخ لنجد لا بد أن يكون فى يده المفتاح التاريخى الذى يعرف به طبيعة المنطقة التى يؤرخ لها ، وبهذا المفتاح لا نتوقع فى التأريخ لنجد قبل المملكة العربية السعودية مثل ما نتوقعه للتأريخ للدول ، فالتأريخ لنجد قبل هذه المملكة له نهج خاص سنشرحه ونتبعه فيما يلى :

محاور تاريخ نجد :

إن حياتى مع نجد باحثا وزائرا تجعلنى أعتقد أن تاريخ نجد قبل قيام المملكة العربية السعودية ينضوى تحت ثلاثة محاور هى :

١ — الحياة القبلية .

٢ — زحف من الداخل تقوم به قبيلة ما وتسيطر على مجموعة من القبائل ، وكان هذا النوع قصير العمر ، ولم يكوّن دولة بالمعنى المعروف .

٣ — نفوذ أو زحف من الخارج يمتد الى نجد من شرقى الجزيرة أو من غربيها .

وسنتدارس هذه المحاور فيما يلى :

١ — الحياة القبلية فى نجد

إن الحياة القبلية هى السمة العامة للحياة فى نجد قبل المملكة العربية السعودية ، وهى السمة الضرورية ، والطبيعية لهذه البلاد ، والذى يريد أن يدرس تاريخ نجد قبل السعوديين يتحتم عليه أن يعيش فى نجد ، فان الصحراء الشاسعة ، والجبال الشاهقة ، والأغوار والوديان والرمال والفراغ سترسم له معالم هذا التاريخ ، ويمكننا أن نرسم هنا بالكلمة صورة لنجد

---

(١) ابن بشر : عنوان المجد ص ١٤ .

قبل السعوديين لتساعد القارىء على تصوير هـذا البلاء والفقر الغالب ، وبالتالى تصوّر المدى الذى يمكن أن يكون عليه تاريخها .

وقد سبق أن قلنا إن امتداد نجد من الشمال الى الجنوب يصل الى ٨٠٠ ميل وأن عرضها من الشرق للغرب يزيد عن ٢٢٠ ميلا وهى بذلك بلاد فسيحة ، فاذا أضفنا الى ذلك أن هذه المساحة لم يكن بها طـريق مرصوف ولا معبّد ، وأن منابع المياه لم تكن متوافرة فى الطريق ، وأن وسائل المواصلات حتى العهد السعودى كانت مرتبطة بالجمال ، وأنه لم تكن هناك إذاعة ولا مذياع ، وبالأحرى لم تكن هناك صحافة ولا كتاب ، إذا تصورنا ذلك أدركنا أن نجد كانت أشبه بمحيط رملى هائل ، تبرز فيه بعض الجزر الصغيرة ، وهذه الجزر الصغيرة تمثل القبائل المتناثرة التى لا يربط رباط بين إحداها والقبائل الأخرى ، وأن كلا من هـذه القبائل كان أشبه بدولة مستقلة ، وتقول Lady Anne Blant :حيث توجد الآبار بقدر كاف من الماء تظهر المدن والقرى ، تحاط بالبساتين ، وهذه على أية حال كثيرا ما تكون متباعدة بحيث تبدو مجرد نقط على خريطة بلاد العرب ، وعلى هذا فكل مدينة منفصلة عن جاراتها إلى درجة كبيرة ، وتحيط بها الصحراء من كل جانب ، فهى منعزلة بالمعنى الحرفى لهـذه الكلمة ، ومن هذه الحقيقة تنبع الفردية السـياسية التى ظلت العناية مركزة دائما لرعايتها ، إذ كانت كل مدينة تمثل دولة مستقلة (١) .

وقد سرت فى نجد أشواطا طويلة فى سيارة من السيارات الفارهة وعلى طرق مرصوفة ناعمة ، وظهرت لنا الصحراء خاليـة إلا من قرى صغيرة متباعدة تنام وسط الصحراء ، وقد كانت هذه القرى قبل السيارات والطرق والملكة يخاف بعضها بعضا بدليل « المَرَاقب » التى تنتشر حول كل قرية ، أو توجد فى الأماكن التى يخشى منها هجوم على القرية ، وكان يعيش فى هذه المراقب حرس يتناوبون حراسة القرية لينذروا قومهم

---

(١) Pilgrimage to Nejd p, 207

إذا حاولت قبيلة أخرى أن تدهم قريتهم ، وهذا يؤكد الانفصال الشديد بين قرية وأخرى .

وإذا تركنا القرى التى تعرف نوعا من الاستقرار والاستقلال واتجهنا إلى البدو الرحل نجد أن هناك قبائل تتجول كل منها فى منطقة معينة بالجزيرة العربية بحثا عن الكلأ للمرعى ، وهؤلاء ميالون للحرب وأكثر عددا من سكان المدن ، وهم يسيطرون على كل الطرق بين مدينة وأخرى ، مما يمكن معه أن نصفهم أنهم كانوا عوامل انفصال لا عوامل اتصال [١] .

ومما يؤكد الانعزالية بين القبائل أن كل قبيلة لها صفات جسمانية يغلب ألا تتخلف ، وتروى Lady Anne Blant أنها سألت « الدليل » قائلة : كيف يسهل على أبناء القبائل أن يحددوا نسب آخرين يقابلونهم فى الصحراء ؟ فأجاب : أن كل قبيلة لها خصائص فى الملبس والملامح معروفة جيدا للجميع ، وعلى ذلك (فشمر) بصفة عامة طوال القامة ، و (السبعة) قصار الا أن رماحهم طويلة ، و (حرب) سود الوجوه كالعبيد تقريبا ... [٢] .

نظام الحكم فى القبيلة ودستور الحياة بها :

كيف كان نظام الحكم فى القبيلة ؟ وما دستور الحياة فيها ؟

فى الاجابة عن هذا السؤال يمكننا أن نقول إن نظام الحكم فى القبيلة بعد الإسلام كان امتدادا لنظام الحكم فيها قبل الإسلام ، وكل ما طرأ عليها بالإسلام هو دخول الدين ، أما نظمها السياسية فقد تركت لها ، فمن الواضح أن شيخ القبيلة عندما كان يفد إلى المدينة معلناً إسلامه ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٨ .
(٢) Pilgrimage to Nejd p. 115

كان الرسول يقره على مكانته فى قبيلته ، كما ذكرنا من قبل [1] ومن أجل هذا نجد أبا بكر عندما عين ولاته على مناطق الجزيرة التى ذكرناها فيما سبق لم يعين أيا منهم على هذه القبائل اكتفاء برؤسائها •

ونجىء لهذه القبيلة لنذكر أنها كانت تكوّن وحدة سياسية يربط الدم والعصبية بين أفرادها ، ويعتبر من أفراد القبيلة هؤلاء الضعاف أو العبيد الذين يلجأون للقبيلة ويعيشون فى جوارها وحمايتها ، ولو لم يكن بينهم وبين القبيلة صلة دم •

والقبيلة العربية تخضع لدستور صارم نظمته التقاليد والعرف ، وخلاصة هذا الدستور أن يحس الفرد برابطة القبيلة ، ويلتزم بتأييد مصالحها والعمل لها بكل ما يملك من قوة ، وأفراد القبيلة جميعا متضامنون فيما يجنيه أحدهم تضامنا حازما ، تلقى مسئوليته على سيد العشيرة الذى عليه أن يتحمل التبعة ، ومن أجل هذا له حق الطاعة على أفراد القبيلة •

وسيد القبيلة يختار من بين مَنْ تجمعت فيهم صفات الشجاعة والكرم والحلم ، أو قل إن الامتياز فى هذه الصفات يفرض صاحبه ليكون سيدا للقبيلة ، وقد يجىء لرئيس القبيلة ابن يعدله فى الشرف والسؤدد وحينئذ يستطيع أن يرث مكان أبيه ، وإذا تكررت رياسة القبيلة فى بيت بيوتها عرف البيت بالمجد والجاه •

ومسئوليات سيد العشيرة أو رئيس القبيلة أكثر جدا من حقوقه فهو فى السلم جواد كريم مسئول عن إكرام الضيوف الوافدين ، وإغاثة المحتاجين من أبناء القبيلة ، وإجارة المستجير ، وهو فى الحرب يتقدم الصفوف ويساعد من لا عتاد له ، وهو يتحمل باسم القبيلة تبعة ما قد يرتكبه أى فرد من أفراد القبيلة من أخطاء ، ولكن إذا ارتكب فرد من

---

(١) الميدان : مجمع الأمثال جـ٢ ص ١٧ •

أفراد القبيلة جرما ترفض القبيلة أن تتحمل نتائجه ، أو أخطأ فى حق قبيلته نفسها فأنه يطرد منها ، ويسمى الطريد خليعا .

أما حقوق رئيس القبيلة فهى الطاعة المطلقة على كل أفراد القبيلة ، وليس لدى رئيس القبيلة قوة مادية يرغم بها أفراد القبيلة على الطاعة ، وإنما هى التقاليد والعرف ، وللبدوى أن يتمرد على أى قرار يتخذه رئيس القبيلة ، ولكن عليه فى هذه الحال أن يدع القبيلة وأن يهجرها هجرا تاما ، وكثيرا ما لجأ البدوى إلى هذا التصرف ، فان أهم ما يمتاز به البدو عدم الخضوع ، فالحرية عند البدوى هى خير ما يعتز به ، ولا يستطيع أن يتنازل عن أى جزء منها لقاء أى شيء ، فما نعرفه فى العصر الحديث من أن كل فرد ينبغى أن يتنازل عن جزء من حريته لتتحقق الحرية للمجموع ، هذا الاتجاه كان البدوى يعتبره خدعة ، ولا يقبله ، والموت أو الهجرة عن الوطن أيسر على البدوى من فقدان حريته .

والدارس لتاريخ البادية ونظام الحكم بها يجد أن تمرد أفراد من القبيلة على حكم رئيسها كان كثير الوقوع ، وكانت الحرية المطلقة ، والأنانية المفرطة ، والأثرة من أهم العوامل التى تتحرك فى نفوس البدو ، فلا يخضعون لحكم يصدره رئيس القبيلة ، ويؤثرون أن يخلعوا أنفسهم ويهيمون على وجوههم مع نظرائهم من الخلعاء (١) .

وحدة الدين ووحدة اللغة :

ويخطر بالبال سؤال مهم فى هذا المجال هو : وحدة الدين قبل الإسلام وبعده ، ووحدة اللغة ، فقبل الإسلام كانت الوثنية منتشرة فى الجزيرة وإن اختلفت الأوثان والأصنام ، وبعد الإسلام انتشر الدين الإسلامى فى جميع أرجاء الجزيرة العربية وان أصاب القوم انحراف قليل أو كثير ، كما سنرى فيما بعد ، وكانت اللغة العربية هى السائدة

---

(١) انظر الجزء الأول من هذه الموسوعة للمؤلف .

قبل الإسلام وبعده ، وربما خطر بالبال أن حياة الانعزالية التى كانت تعيشها القبائل كانت تستدعى اختلاف الدين واللغة ، كالذى يحدث فى مناطق مماثلة فى العالم ، فلماذا حافظت الجزيرة العربية على وحـدة الدين واللغة ؟

الاجابة على هذا فى تقديرى ترجع إلى الكعبة المشرفة التى كانت تفد لها وفود العرب من كل مكان للحج ، فكان هناك لقاء سنوى تتقارب فيه وجهات النظر من ناحية الدين ، وتكون اللغة العربية هى لسان الجميع فى جميع اللقاءات ، كما كانت أسواق العرب فى الجاهلية كسوق عكاظ ومجنة وذى المجاز من أهم الأسباب التى وحّدت الدين واللغة .

وليس معنى هذا أنه كان هناك اتفاق تام فى الدين واللغة ، فقد كان الاختلاف فى عبادة الأصنام مظهرا من مظـاهر الاختلاف بين القبـائل العربية . إذ كان لكل قبيلة صنم تعبـده ولا تعبد سواه ، فقد كـانت « اللات » صنم ثقيف المفضل ، وكانت « العزى » أعظم صنم عند قريش بعد « هبل » وكان « وَدّ » صنم كلب وقضاعة و « نهم » صنم مزينة وهكذا (١) .

وبعد الإسلام أخذ الأولياء والقباب وبعض الأشجار .... مكـان القداسة ، وتعددت هذه المقدسات حتى قامت دعوة الإصلاح فقضت عليها كما سنرى فيما بعد .

ومن ناحية اللغة قامت فى بعض النواحى لهجات بعدت كثيرا أو قليلا عن اللغة الفصحى ، وقد التقيت فى رحلاتى بنجـد ببعض السـكان فى القرى والبادية وكنت لا أعرف من كلامهم إلا النذر القليل ، واضطر بعض الذين كانوا يرافقوننى من آل الأسطل (الشيخ عـلى وأبو محمد عمر والسيد منير) إلى أن يترجموا لى كلامهم إلى اللغة العربية التى أفهمها ،

---

(١) انظر كتاب « الأصنام » لابن الكلبى فى عدة صـفحات وانظر الجزء الأول من هذه الموسوعة .

وقد طالت جلستنا مع شيخ فى المخطط أكرمنا أيما اكرام ، ولكنى لم أستطع أن أتحدث اليه بطريق مباشر •

علماء نجد ودورهم :

كانت هناك صلات بين علماء نجد تتمثل فى موقفهم طلابا أو معلمين ، فأحدث هؤلاء نوعا من الارتباط بين البلاد ، إذ كان يحج لهم الطلاب للأخذ عنهم ، أو كانوا ينتقلون بعلمهم من مكان إلى مكان •

وقد ازدهرت نجد بمجموعة من العلماء والفقهاء كان بعضهم يرتبط ببلدة من بلاد نجد ، وكان آخرون ينتقلون بين البلاد فالعلم لا وطن له ، وسنذكر فيما يلى مجموعة من مشاهير العلماء وما عرف لبعضهم من مؤلفات :

من أشهر علماء نجد شهاب الدين أحمد بن يحيى بن عطوه التميمى النجدى الحنبلى وقد عاش فى أواخر القرن التاسع الهجرى والنصف الأول من القرن العاشر الى أن توفى سنة ٩٤٨ هـ فى بلدة الجبيلة بوادى حنيفة ودفن ضجيعا لزيد بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد أخذ ابن عطوة العلم عن عدة مشايخ منهم الشيخ شهاب الدين أحمد العسكرى الذى كثيرا ما كان يروى عنه ، وكان له مطارحات ومدارسات مع معاصريه من العلماء أمثال القاضى أجود بن عثمان ، والقاضى عبد القادر بن بريد ، والقاضى منصور الباهلى وغيرهم ، وله مصنفات كثيرة منها التحفة البديعة والروضة الأنيعة ، وقد أخذ عنه كثير من العلماء فى بلاد نجد منهم الشيخ أحمد بن الأشيقرى وغيره (١)

ومن علماء نجد المشاهير الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله بن بسام ، وهو من بلدة أشيقر — وقد انتقل منها الى « القصب » قاضيا لها سنة ١٠١٠ هجرية ، ولكنه لم يرغب فى الاستمرار فى القصب فطلبه أهل بلد ملهم

(١) ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة بنجد ص ٤٧ بتقديم وتأخير •

قاضيا لهم ، فانتقل لها قبل تمام السنة المذكورة وفى سنة ١٠١٥ انتقل من ملهم إلى العيينة ، وكان عالما فاضلا تلقى العلم عن الشيخ محمد بن أحمد ابن إسماعيل فى أشيقر وعن غيره من علماء نجد ، كما تلقى عنه عـــدد كبير من فقهاء نجد منهم الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب المشرفى ، وتوفى الشيخ ابن بسام سنة ١٠٤٠ هـ .

ومن علماء نجد كذلك الشيخ محمد بن أحمد بن اسماعيل ، وقد أخذ الفقه عن أحمد بن محمد بن مشرف ، وأخذ عنه جماعة من العلماء الذين ظهروا بعده ، وتوفى سنة ١٠٥٩ هـ .

وعندما نصل إلى القرن الثانى عشر الهجرى تبرز لنا فى ميـــدان العلوم الاسلامية أسرة المصلح الدينى الشيخ محمد عبد الوهاب وهى أسرة عُرفت بالعلم والمعرفة فى عدة أجيال منها ، ولا تزال ترعى العلم والمعرفة حتى العهد الحاضر ، وسنعقد بابا خاصا للحديث عن المصلح الدينى الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعن شيوخه ومعاصريه ومريديه .

ومن علماء نجد فى القرن الثانى عشر العلامة عبد الرحمن بن عبد الله بن خميس أبو بطين وكان فقيها واسع المعرفة ألّف كتابا فى الفقه اسمه « المجموع فيما هو كثير الوقوع » وقد توفى فى سدير سنة ١١٢١ هـ .

ومن علماء نجد الشيخ أحمد بن محمد المنقور ، وله كتـــاب مفيد جمع فيه فتاوى فقهاء نجد ، وجملة مـــن فتاوى غيرهم ، ومن تلاميـــذه الشيخ عبد الله بن زهلان ، ومن تلاميذه ابنه ابراهيم بن أحمد المنقور ، وقد توفى الشيخ أحمد فى حوطة سدير سنة ١١٢٥ هـ .

ومن علماء نجد الشيخ أحمد بن محمد بن مبارك قاضى (المجمعة) وقد أخذ الفقه عن عدة مشايخ منهم عبد القادر العديلى ومحمد بن عفالق ، وتلقى عنه محمد بن سلوم الفرضى ، وعثمان بن عبد الجبار الذى تولى قضاء المجمعة بعد شيخه وغيرهم وقد توفى الشيخ أحمد سنة ١١٩٤ هـ .

ومن علماء نجد الشيخ بن عبد الله بن عبيدان قاضى حريملاء ، والشيخ عبد الرحمن بن زهلان من قضاة العارض وقد توفيا سنة ١٣٠٢ هـ والشيخ حميدان بن تركى من عنيزة وقد توفى بالمدينة المنورة سنة ١٢٠٣ والشيخ عبد الوهاب بن محمد بن فيروز مؤلف كتاب « زاد المستنقع فى الفكر » وقد توفى سنة ١٢٠٣ هـ .

ومن علماء نجد العلامة أحمد بن ناصر بن معمر ، وهو من تلاميذ الامام محمد بن عبد الوهاب ، وهو أيضا من تلاميذ الشيخ سليمان بن عبد الوهاب والشيخ حسين بن غنام ، وكان قاضيا فى الدرعية ، ثم أرسله سعود الكبير الى مكة قاضيا ، وتوفى بها سنة ١٢٢٥ هـ .

ومن علماء نجد الشيخ عبد العزيز بن الشيخ حمد بن ناصر بن معمر ، وهو من المعامرة أهل العيينة ، وكان أديبا لبيبا ورعا وله قصائد جميلة ، وقد توفى سنة ١٢٤٤ فى البحرين ورثاه أحد أصدقائه الشيخ بن على بن مشرف بقصيدة مشهورة .

ومن علماء نجد الشيخ ابراهيم بن حمد بن عيسى قاضى بلـــدان الوشم ، وقد توفى فى شقرا سنة ١٢٨١ هـ .

وفى العام التالى توفى الشيخ عثمان بن عبد العزيز قاضى سدير .

تلك نبذة عاجلة عن فقهـــاء نجد وعلمـــائها ممن ترتبط بهم بعض المؤلفات أو الأحداث ، وبجانب هؤلاء ، كانت هناك مجموعة وافرة من العلماء تتردد أسماؤهم قضاة ومعلمين فى مختلف المناطق بلاد نجد لم نذكرهم لقلة ما حول أسمائهم من أفكار ومعارف .

مزيد من الدراسـات التفصيلية عن تاريخ نجـد

أوردنا فيما سبق بعض دراسات تاريخية عن نجد ، ونريد فيما يلى أن نعطى مزيدا من الدراسات التفصيلية عن تاريخ نجـد ، لعلنا بذلك نغذّى رغبة الذين يتلهفون إلى تاريخ مدون لهذه البلاد .

ولكننا نذكّر هؤلاء بما سبق أن كررناه من أن الحياة القبلية كانت الحياة السائدة فى نجد ، وأن كل قبيلة ، كانت تعيش فى حياة منعزلة عن القبائل الأخرى ، سواء كانت هذه القبيلة مستقرة فى بلدة أو متنقلة بحثا عن المراعى ، وبهذا كانت القبيلة أو المدينة وحدة سياسية مستقلة تماما .

وفى ضوء هذا الواقع الذى لم يتخلف تجىء دراساتنا التاريخية عن نجد ، بمعنى أنه من المحتم أن ندرك أن نجدا كانت تحوى عشرات الدول الصغيرة المستقلة المتعادية ، فإذا أردنا أن ندرس تاريخ نجد كان علينا أن ندرس تاريخ هذه الوحدات أو هذه الدول ان جاز أن نسميها دولا ، وليس هناك من سبيل آخر لدراسة تاريخية عن نجد ، اللهم الا ما سنراه فيما بعد من محاولات زحف داخلى أو زحف من الخارج كما أشرنا من قبل .

وعلى هذا فتاريخ نجد هو تاريخ هذه البلدان أو هذه القبائل ، وقد اتجهتُ بكل الجهد والصبر لجمع تاريخ أشهر هذه البلاد ، من المراجع المختلفة ، ومن أهمها :

- معجم البلدان لياقوت ثم المستدرك عليه .
- تاريخ نجد للشيخ حسين بن غنام .
- عنوان المجد فى تاريخ نجد للشيخ عثمان بن بشر .

(وقد كتبا تاريخ نجد ابتداء من سنة ١١٥٧ هـ فقط)

- الجزيرة العربية فى القرن العشرين للشيخ حافظ وهبة .

— تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد عبد الوهاب لجون فيلبى ، وكل كلامه يتصل بالحركة السعودية فى عصورها المختلفة .

— تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد للشيخ ابراهيم بن صالح .

— رحله إلى نجد لليدى أن بلنت .

وهناك مراجع أخرى كذلك ولكن أهم ما ساعدنى على هذا العمل أننى قمت بدراسة ميدانية ، ورأيت الحاضر الذى أوحى بالكثير عن الماضى كما سيرى القارىء فيما يلى من صفحات ، ومن تتبع الأحداث تجمع لى زاد وفير ، ثم عرضت هذه المعلومات للنقد التاريخى فتبين لى أن هناك بينها تشابها كبيرا كالغارات والنصر والهزيمة ، وتبين لى من جهة أخرى عدم جدوى ايراد التفاصيل المتشابهة وبخاصة أنه لم يوجد دور حضارى ذو بال لأى منها ، وما كان يمكن أن يوجد مثل هذا الدور لأية وحدة صغيرة من وحدات نجد ، إذ كان كل الجهد متجها للحراسة من جانب وللاعداد لهجمة من جانب آخر ، وتأثرا بذلك رأيت أن أورد نماذج لبعض بلاد نجد تمثل تاريخا مفصلا لها طيلة عدة قرون ، وقد حاولت أن أختار بلادا تمثل العارض والقصيم وجبل شمر لعلنا نتدارس أهم مناطق نجد . ويمكن القول إن هذه النماذج هى أحداث يمكن أن تنطبق على جميع بلدان نجد تقريبا .

وستبدأ دراساتنا عن أية بلدة منذ إنشائها ما أمكن ذلك ، وإنشاء بلدة يمثل فى نجد تكوين دولة ، وسنسير مع تاريخ هذه البلدة حتى نراها جزءا من المملكة العربية السعودية التى أنشأها العاهل العظيم الملك عبد العزيز آل سعود ، حيث ذابت هذه البلاد كما ذابت القبائل فى المملكة الفتية ، فلنأخذ فى الأمر :

عنيـــزة

عنيزة من أهم بلدان القصيم ، والكلام عن عنيزة يحتاج إلى مقدمة عن منطقة القصيم التى تعد من أهم مناطق نجد وأكثرها خصوبة كمـا ذكرنا مـن قبل ، ومنطقة القصـيم يحيط بها جبل شـمر فى الشـمال والغرب ، وصحراء النفود فى الشمال ومنطقة الوشم فى الجنوب الشرقى ، ومنحدرات عتيبة فى الجنوب الغربى .

وقُرى القصيم حوالى خمسين قرية متناثرة فى المنطقة الشاسعة ، وأشهرها بُرَيْدَة وعنيزة والرس والخَبرا والعيون والبكيرية ، وبريدة أعظم مدن القصيم ولذلك تسمى أم القصيم ، وتقع بريدة على مرتفع رملى بالجانب الأيسر لوادى الرمة ، ويقول ياقوت عـن بريدة انها تصـغير برد [1] ، وتقول المراجع عنها إنها أعظم سوق للإبل ، وقد زرتها فى العصر الحديث فوجدت أنها يمكن القول إنها من أعظم أسواق السـيارات فى العالم ، فامتداد معارض السيارات بها فسيح للغاية .

وتقع القصيم فى الطريق بين الحجاز والشرق ، وبسبب وقوعها على الطريق كانت معرضة أكثر من غيرها مـن بلاد نجـد لغزوات أشراف الحجاز ، ومن هنا كذلك كانت من البلاد التى مسها الصراع بين محمد على باشا وبين السعوديين فى العارض كما سنرى فيما بعد ، وبسـبب موقع القصيم وخصوبة المنطقة نشطت التجارة بها نشاطا عظيما ، ومن هنا كان أهل القصيم أكثر النجديين اتصالا بالعالم الخارجى ، وهذا أضفى عليهم قدرات طيبة وجعلهم يستمتعون بمواهب ممتازة ، ورقة طبع وكـرم خلق [2] .

وينبغى أن يتضح أن أكثر قرى القصيم كانت متنافسة متصارعة ، وأن الصحراء الفسيحة تقف حاجزا بينها فلم يتكون منها وحدة قبل عهد

(١) معجم البلدان جـ٢ ص ١٥٩ .

(٢) انظر جزيرة العرب فى القرن العشرين للشيخ حافظ وهبة ص ٦٩ .

المملكة العربية السعودية ، وطالما شهدت بريدة وعنيزة هجوما من احداها على الأخرى .

وبعد هذا التعريف بالمنطقة نجيء للكلام عن عنيزة ، وأول ما يطالعنا كلام ياقوت الذى يدل على قدم هذا الموقع ، وعلى أن مدينة عامرة كانت به قبل الإسلام وفى مطلع الإسلام ، ويحددها بأنها تقع فى بطن الرمة وهى لبنى عامر بن كريز ، ويروى قول امرىء القيس :

تراءت لنا يوما بسفح عنيزة   وقد حان منها رحلة وقلوص

وقول خاله مهلهل بن ربيعة :

غـداة كأننـا وبنى أبينـا   بجنب عنيزة رَحَيَا مدير

ويؤخذ من كلام ياقوت أنها كانت تابعة لأمير البصرة فى العصر العباسى ، إذ يروى عن أبى عبيدة السكونى قوله : استخرج عنيزة (أى حصل على خراجها) محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس وهو أمير على البصرة [١] .

ويفهم من كلام المهلهل أن حروبا طاحنة دارت فى هـذا الموقع ، ولعل هذا يرتبط بيوم بريدة الذى عناه ياقوت بقوله « ويوم بريدة يوم من أيام العرب فى الجاهلية [٢] » .

ويبدو أن هذه الحروب دمرت عنيزة تماما وأزالتها من الوجود وهو ما كان يحدث كثيرا فى بلاد نجد ، بدليل أننا نقرأ عن تأسيس جديد لها فى القرن السابع الهجرى ، ففى الملحق الثانى لكتاب « تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد » أن عنيزة أنشئت سنة ٦٣٠ [٣] ، وهـذا

---

(١) معجم البلدان جـ٦ ص ٣٣ — ٢٣٤ .
(٢) معجم البلدان جـ٢ ص ١٥٩ .
(٣) ص ٢٣٢ .

سيفسر لنا السبب فى تغلب اسم « عنيزة » على أسماء القرى التى كانت موجودة قبل اعادة انشاء عنيزة فى التاريخ الهجرى السابق .

ونستمر مع الملحق الذى أشرنا اليه والذى يقرر أن منشىء عنيزة هذه المرة هو زهرى بن جراح الثورى ، وكانت عند انشائها هذه المرة قرية صغيرة ضمن القرى الواقعة فى هذه المنطقة وهى قــرى الضبَط والخـُرَبرة والمَلَيَة والعقيلية ، ولكن سرعان ما غلب اسم عنيزة على هذه القرى جميعا لمكانتها التاريخية السابقة كما ذكرنا آنفا ، وبقيت هذه القرى بأسمائها تمثل كل منها محلة أو حيا من محلات المدينة الشــاملة « عنيزة » وقد أصبحت عنيزة امارة بعد حوالى ٢٥٠ سنة من انشائها أى فى أواخر القرن التاسع ، وأول أمير لها هو عقيل بن ابراهيم بن موسى من أحفاد زهرى بن جراح الذى سبق ذكره .

ونستطيع بعد ذلك أن نسير مع عنيزة لنروى أهم الأحداث التى تتصل بها :

فى سنة ١٠٩٧ أغار الشريف أحمد بن زيد بن محسن على نجد ، ونزل عنيزة ودمر العقيلية (محلة مــن محلات عنيزة) وفعل بأهلهــا القبيح والفساد [١] .

وفى سنة ١١١٠ هـ سطا آل غنام والبكر على فوزان بن حميدان أمير عنيزة ، وكان يقيم فى المليحة ، وأخرجوه مــن بلــدة عنيزة وذلك ردا للغدرة التى قام بها فوزان ضد بريدة فى العام السابق .

وفى سنة ١١١٥ هـ هجم آل جناح على عنيزة وقتلوا أميرها فوزان ابن حميدان الملقب ابن معمر واستولوا على عنيزة كلها .

وفى سنة ١١١٦ غرقت عنيزة بسيل جارف غمرها وتسمى هــذه الحادثة « غرقة السليمى » وهو رجل أعمى دخل السيل بيته وأغرقه فعرف

---

(١) الشيخ ابراهيم بن صالح . تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ٧٠ .

سيل هذا العام باسمه • ويروى الشيخ ابراهيم بن صالح [1] أنه اطلع على بعض وريقات فى التاريخ تثبت أن غرقة السليمى كانت سنة ١٠٨٠ هـ •

وفى سنة ١١٢٨ سطا ادريس بن شايع بن صعب شيخ آل جناح من بنى خالد على المليحة فى عنيزة وملكها •

وفى سنة ١١٣٣ حدثت « ذبحة آل جناح » فى دارهم بالخُرَيزة فى بلدة عنيزة •

وفى سنة ١١٤٠ عمر آل عفالق وهم من قحطان بلدة الخَبرا فى القصيم وكان مسكنهم قبل ذلك فى عنيزة •

فى سنة ١١٥٥ قُتِل حسن بن مشعاب رئيس بلدة عنيزة ، واستولى عليها آل جناح من بنى خالد والشختة من المشاعيب من آل جراح ، وقد استولى هؤلاء على عنيزة كلها ، وكان الشختة ينزلون « الجادة » فى عنيزة ، وفى نفس العام غُرس نخل « الجادة » فى عنيزة •

وفى سنة ١١٥٦ حاصر آل شماس ومعهم رشيد بن محمد رئيس بلد عنيزة حىّ الدريبى فى بريدة ، ونهبوا جنوبى البلد ، ثم صارت الغلبة للدريبى وهزمهم •

وفى سنة ١١٦٠ حدثت « ركدة عنيزة » ويُقصد بها استقرار ماء الآبار وثباته ، وقد ساعد ذلك على غرس الأشجار •

وفى سنة ١١٧٤ قُتل رشيد رئيس بلدة عنيزة وهو من آل جراح ، وقُتل فراج رئيس آل جناح من بنى خالد ، قتلهم عيال الأعرج من آل أبو غنام ومعهم آل زامل وذلك فى مجلس عنيزة •

---

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ٥ .

وفى سـنة ١١٧٩ انتقل حمد بن ابراهيم بن عبد الله بن بسام من بلدة « حرمة » الى عنيزة وسكنها هو وأولاده .

وفى سنة ١١٨٠ تقريبا بنيت « البكيرية » من بلدان القصيم وليست بعيدة عن عنيزة .

وفى سنة ١١٨٣ قـام سعود الكبير ومعـه راشد الكبير وراشـد الدريبى رئيس بلدة بريدة بغزو بلـدة عنيزة ونزلوا بالقرب من بـاب شارخ ، وحصل بينهم وبين أهل عنيزة قتال قتل فيه من أهل عنيزة ثمانية رجال ، منهم عبد الله بن حمد بن زامل ، واستولى آل سعود على عنيزة والقصيم .

وفى سنة ١١٩٢ أصيبت بلدة عنيزة بسيل عظيم أغرقها ، ومحا بعض منازلها ، فخرج أهل عنيزة الى الصحراء ، وبنو فيهـا بيوت الشـعر ، وقعدوا بها حتى عمروا منازلهم .

وفى سنة ١١٩٥ سطا آل « أبو غنام » وآل جناح على العقيلية فى بلدة عنيزة واستولوا عليها .

وفى سنة ١١٩٦ أجمع أهل القصيم على نقض البيعة لآل سـعود وعلى حربهم ، ما عدا أهل بريدة والرس والتنومة ، وأجمعوا على قتل من كان عندهم من المعلمين ، وأرسلوا الى سعدون بن غرير آل حميد الخالدى رئيس الحسا والقطيف يستحثونه على القدوم اليهم ، فأقبـل اليهم بجنوده ، فلما قرب من القصيم قام أهل كل بلد بقتل من عندهم مـن المعلمين ، فقتل أهـل الخبرا امامهم منصـور أبا الخيل ، وثنيان أبا الخيل ، وقتل أهل الجناح رجلا عندهم يقال له البكرى وصلبوه ، وقتل أهل الشماس أميرهم على بن حوشان ، وحاصر سعدون بلدة بريدة ، أربعة أشهر (١) جرت خلالها عدة وقعات ، ثم ارتحل عنها سعدون ونزل

---

(١) الشيخ ابراهيم بن صالح : المرجع السابق ص ١١٩ وروايته بعد ذلك غير واضحة .

قريبا من الزلفى ، وأقام هناك أياما ، ووفد عليه كثير من رؤساء بلدان نجد الذين لم يدخلوا فى طاعة آل سعود ، وحقق نصرا فى القصيم والعارض ، وأعاد الروضة الى رؤسائها آل ماضى ، وكان الامام السعودى قد فتحها عنوة وفر منها هؤلاء الرؤساء ، ثم رحل سعدون راجعا الى وطنه [1] .

وفى سنة ١٢٠٢ غزا سعود بن عبد العزيز بلدة عنيزة وأجلى آل رشيد منها ، وعين عبد الله بن يحيى أميرا لها .

وفى سنة ١٢٢٩ توفى ابراهيم بن عفيصان فى عنيزة وكان سعود ابن عبد العزيز قد جعله أميرا لها بعد عزله عن الاحساء وهو من آل عفيصان المعروفين فى الخرج .

وابتداء من هذا العام (١٢٢٩) بدأت أحداث الصراع فى نجد بين محمد على باشا وبين آل سعود وعانت منطقة القصيم ألوانا من مرارة هذا الصراع ، وسنذكر تفاصيل ذلك عندما نصل فى دراساتنا الى وصف هذه الحروب .

وفى سنة ١٢٣٤ سالت عنيزة وبعض بلدان نجد خريفا ، وأصبح وادى الرُمّة روضة طيبة .

وفى سنة ١٢٥٧ حدثت وقعة « بقعا » بين أهل القصيم وبين آل رشيد وصارت الهزيمة على أهل القصيم ، وقتل منهم عدة رجال منهم يحيى السليم أمير بلدة عنيزة .

وفى سنة ١٢٥٩ قدم فيصل بن تركى الى جبل شمّر من مصر ، فقام معه رئيس الجبل عبد الله بن رشيد وسارا الى عنيزة واستجاب لهما أهل عنيزة وتحرك الجميع الى الرياض وحاصروا عبد الله بن ثنيان حتى

---

(١) محمد بن عبد الله الأنصارى : تحفة المستفيد ص ١٣٠ — ١٣١ .

ظفروا به وحبسه الأمير فيصل حتى توفى فى الحبس ، واستقل بالملك فيصل بن تركى .

وفى سنة ١٢٦٠ أغار عبيد بن على بن رشيد على بلد عنيزة وأخذ أغنام الناس ومتاعهم ففزعوا ضده وحصلت بينهم وقعة فى «مقطاع الوادى» وهزم أهل عنيزة فى هذه الوقعة وقتل منهم عدد كبير .

وفى هذا العام والعام التالى توفى فى عنيزة وفى القصيم مجموعة من الأفذاذ والشيوخ منهم الشيخ عبد الرحمن بن محمد القاضى فى عنيزة والشيخ قرناس بن عبد الرحمن فى الرس ، وحمد السليمان فى عنيزة ،

وفى سنة ١٢٦٣ هاجم الحميدى بن فيصل الدويس حجيج القصيم . واستولى على كثير من متاعهم .

وفى نفس السنة أغار الشريف محمد بن عون على نجد ووصل عنيزة ، فأرسل اليه الامام فيصل هدية مع أخيه جلوى بن تركى ، فقبلها وعاد الى مكة .

وفى سنة ١٢٦٥ استعمل الامام فيصل بن تركى أخاه جلوى أميرا على عنيزة .

وفى سنة ١٢٧٠ هبَّ أهل عنيزة على جلوى هذا وأخرجوه منها ، فقصد الى بريدة فلما علم الامام فيصل بذلك ، أرسل ابنه عبد الله لمحاربة أهل عنيزة فسار هذا حتى نزل القصيم ، فقطع جُملة من نخيل الوادى ، وجرت بينه وبين أهل عنيزة وقعة ، قُتل فيها بعض الرجال ، ثم وقع الصلح بين المتحاربين سنة ١٢٧١ ، ورحل عبد الله وعمه جلوى الى الرياض ، وركب عبد الله آل يحيى السليم الى الامام فيصل بالرياض ، واستقر الصلح بينهم .

وفى سنة ١٢٧٣ اعترض ابن مهيلب الحجاج من عنيزة وحبسهم عن

السير الى الحجاز ، وطلب منهم أشياء معينة ، فرفضوا إعطائها له ولكنه استطاع أن يأخذها منهم .

وبين سنتى ١٢٧٩ و ١٣١٨ استؤنف الصراع بين آل سعود وبين آل عنيزة ، وصارت الهزيمة على آل عنيزة فى الوقعة التى تسمى « وقعة المطر » .

وفى سنة ١٣٠٨ شهدت منطقة القصيم صراعا على السلطة بين آل رشيد وآل سعود ، وقد استطاع آل رشيد أن ينتصروا فى موقعتى « القرعا » و « المليدا » وقتل من أهل القصيم خلائق كثيرة منهم زامل العبد الله أمير عنيزة ، وقد انتهت هذه المعارك باستيلاء آل رشيد على بادية نجد ، وجرت محاولة أخرى سنة ١٣١٨ ساعد فيها الأمير مبارك ابن صباح من الكويت ولكنها لم يقدر لها النجاح أيضا وظل آل الرشيد أصحاب السلطة فى نجد حتى العام التالى (١٣١٩) حيث بدأ يتألق نجم آل سعود على يدى البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن كما سنرى فيما بعد ، وفى عهده الزاهر أصبحت عنيزة جزءا من المملكة الفتية « المملكة العربية السعودية » وغمر الضوء تاريخها كما غمر باقى أجزاء المملكة .

من أمراء عنيزة :

ذكرنا من قبل أسماء أمراء عنيزة الذين كان لهم السلطان حتى بدء الصراع بين ابراهيم باشا وبين السعوديين ، وأشرنا الى هذا الصراع الذى دار بالمنطقة والذى اشترك فيه آل الرشيد وآل سعود ومحمد على باشا ، وكان المنتصر يعين لعنيزة أميرها ، ونذكر فيما يلى أمراء عنيزة بعد الأميرين عبد الله بن يحيى ومحمد بن عفيصان اللذين عينهما الامام سعود بالتوالى أميرين على عنيزة أيام أن كانت عنيزة تابعة له ، وأمراء عنيزة بعد ذلك هم (١) :

---

(١) نقلا عن الشيخ ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ٢٣٦ وما بعدها .

عبد الله بن حمد الجميعى من سبيع وقد ولاه ابراهيم باشا على عنيزة عندما قدم الى نجد سنة ١٢٣٢ .

وفى سنة ١٢٣٦ تآمر فى عنيزة محمد بن حسن الجمل باتفاق من أهلها ، ثم تآمر الجمعى الى أن قتله يحيى بن سليمان المعروف بسليم .

ولما تمكن الامام تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود فى الرياض أمَّر فى عنيزة خير الله تابع سعود بن عبد العزيز ، ثم أمَّر محمد بن ناهض ثم صالح القاضى .

ولما قتل تركى تآمر يحيى السليم ، ثم قتل يحيى فى بقعاء سنة ١٢٥٤ فى أثناء حربه مع ابن رشيد ، فتأمَّر أخوه عبد الله السليم ، فلما قتل بالجوا سنة ١٢٦١ هـ تأمر ابراهيم السليم ، ثم عزله الامام تركى وأمَّر ناصر بن عبد الرحمن السحيمى .

وفى سنة ١٢٦٥ تأمَّر فى عنيزة جلوى بن تركى بن عبد الله بن محمد ابن سعود ، ثم خرج من عنيزة سنة ١٢٨١ وتأمَّر عبد الله آل يحيى السليم وتوفى سنة ١٢٨٥ فتأمر على السليم ولم يكن له الا اسم الامارة فقط وحقيقتها لزامل العبد الله السليم ثم تأمر زامل حتى قتل فى المليدا سنة ١٣٠٨ .

ثم تأمر من قبل الرشيد عبد الله آل يحيى الصالح الغانم ، ثم تأمر أخوه صالح ، ثم تأمر حمد العبد الله آل يحيى الصالح .

ثم زالت دولة الرشيد ، فعادت امارة عنيزة الى أهلها بمساعدة الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، وأصبحت جزءا من المملكة السعودية ، وأول أمير لها فى هذا العهد كان عبد العزيز العبد الله آل يحيى السليم .

قضاة عنيزة :

جمع الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع قائمة بقضاة عنيزة ، وقد وردت هذه القائمة فى الملحق الثانى لكتاب الشيخ ابراهيم بن صالح ونحن نقتبس بتصرف ما يلى عن هؤلاء القضاة :

قبل القرن الثانى عشر لم يكن فى القصيم علماء مشهورون ، وكان مركز العلماء بنجد فى أشيقر وسدير والعارض ، أما أهل القصيم فكان عندهم « مطوعون » وهم الذين يصلون بالناس ويعلمونهم القرآن ، وربما لجأ أهل القصيم الى قضاة المناطق المجاورة اذا ألم بهم أمر ذو بال .

وفى سنة ١١١٠ طلب أهل عنيزة الشيخ عبد الله بن أحمد بن عضيب ليكون قاضيا لهم ، وكان قبل ذلك فى « المِذْنَب » فاستجاب لهم ، وجاء الى عنيزة ، وهو الذى حفر لهم البئر العذبة التى يستقون منها ، وقد توفى فى « الضبَط » وقبره معروف حتى اليوم فى مقبرتها .

ثم تولى القضاء بعده تلميذه الشيخ سليمان بن عبد الله بن زامل سنة ١١١٦ .

ثم تولى بعده الشيخ محمد بن ابراهيم أبو الخيل .

ثم الشيخ عبد الله بن حمد بن اسماعيل .

ثم الشيخ محمد العلى بن زامل الملقب أبو شامة .

ثم الشيخ صالح بن عبد الله الصائغ .

ثم الشيخ عبد الله بن سويلم سنة ١٢٢٠ .

ثم الشيخ غنيم بن سيف ، وبعده أخوه الشيخ عبد الله .

ثم الشيخ عبد الله الفائز أبو الخيل .

ثم الشيخ عبد الرحمن بن محمد القاضى .

ثم الشيخ عبد الله أبا بطين . وقد ولاه الامام تركى بن عبد الله ثم رجع الشيخ عبد الله الى بلدة نسقرا ، فلما استشهد الامام تركى وتولى الامام فيصل ركب أمير عنيزة ومعه جماعة الى الشيخ عبد الله وجاءوا به مع عائلته ، ومعه زوج ابنته الشيخ محمد بن عبد الله بن مانع وهو أول من سكن عنيزة من آل المانع ، وكان ذلك حوالى سنة ١٢٥١ ، واستمر الشيخ عبد الله قاضيا عشرين سنة تقريبا .

وبعده جاء الشيخ على المحمد من بلـدة الزبير التى كـانت آهلة بفقهاء الحنابلة .

ثم الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع .

ثم الشيخ عبد الله بن غائض حوالى سبع سنوات ويقول الشيخ ابراهيم بن صالح (١) انه قبل ولاية الشيخ عبد الله بن غائض كان يأتى الى عنيزة أحيانا الشيخ صالح بن الشيخ قرناس من أهالى الرس ويتولى القضاء ، كما يذكر رواية تفيد أن الشيخ العلامة عبد العزيز بن حمـد سبط الشيخ محمد بن عبد الوهاب تولى قضاء عنيزة فترة من الزمن ، وكان هذا ضمن الوفد الذى أرسله الامام سعود بن عبد العزيز الى مصر لمفاوضة محمد على باشا ، وقد اجتمع به الجبرتى وأثنى عليه .

وكلمات الجبرتى عنه هى : وقـد اجتمعت مرتين بعبد العزيز بن حمد وبمبعوث آخر معه اسمه عبد الله فوجدت فيهما أنسا وطلاقة لسان ، واطلاعا وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادر ، ولهما من التواضع وتهذيب الأخلاق ، وحسن الأدب فى الخطاب ، والتفقه فى الدين ، واستحضـار الفروع الفقهية ، واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف ، وكان عبد العزيز أكبر حسا ومعنى من عبد الله (٢) .

ونعود لقضاة عنيزة بعد الشيخ عبد الله بن غائض ، فهم :

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٤ .
(٢) تاريخ الجبرتى : جـ٤ ص ٢٢٩ .

الشيخ ابراهيم بن حمد الجاسر سبع سنوات وهو من أهالى بريدة •
ثم الشيخ صالح بن عثمان واستمر قاضيا سبعة وعشرين عاما •
ثم الشيخ عبد الله بن محمد بن مانع مدة عشر سنوات •
ثم الشيخ محمد العبد المحسن من أهل بريدة مدة تسعة أشهر •
ثم الشيخ عبد الرحمن بن عودان من أهالى شقرا مدة تسع سنوات •
ثم الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل سنة ١٣٧١ •
ثم الشيخ محمد بن عبد العزيز سنة ١٣٧٥ ، وقد نقل الى عنيزة من المجمعة •

اشهر القبائل فى عنيزة الآن :

كتب الشيخ ابراهيم بن صالح بعض الفوائد فى خاتمة كتابه عن تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ، وفى قمة هذه الفوائد أنساب بعض الأسر النجدية ومحال اقامتها ، ويهمنا منها هنا الأسر الموجودة فى عنيزة وهى :

آل بسام ومنهم الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله جد آل بسام بعنيزة وينتهى نسب آل بسام الى مالك بن حنظلة بن مالك ... حتى معد بن عدنان •

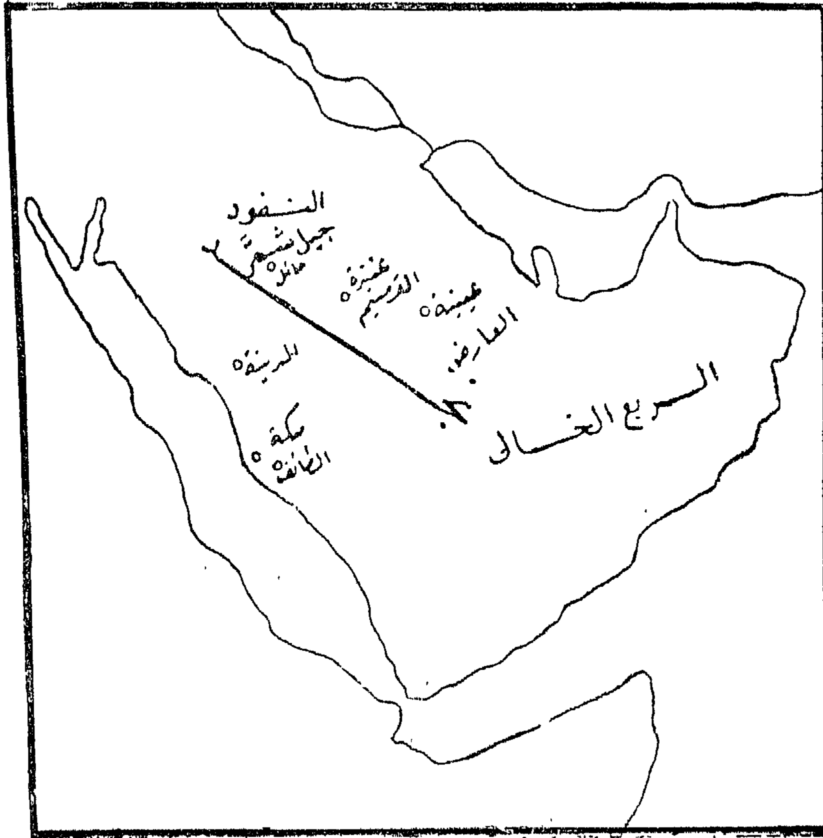
ومن آل بسام ينحدر آل القاضى المعروفون فى عنيزة وآل حسن الذين فى أشيقر ، ويوجد من آل بسام فروع فى أشيقر وفى الدرعية وفى بريدة •

وفى عنيزة كذلك آل شبل الذين منهم الخروب وهم من المشارفة ، وكذلك آل شبل آخرون فى عنيزة وهم من العناقر •

وفى عنيزة كذلك آل مستند ، وآل ضبيب ، وآل سلوم (١) •

---

(١) انظر الكتاب السابق : اقتباسات من ص ٢٠٥ الى ٢٢٦ •



حائل بجبل شمَّر وعنيزة بالقصيم وعيينة بالعارض

العيينة

إن الحديث عن العيينة يقتضى أن نتحدث عن المنطقة الواسعة التى تقع فيها العيينة وهى « العارض » والتى كانت تعرف قديما بالعَروض أو اليمامة ، وتقع هذه المنطقة بين سدير شمالا والخرق والحريق جنوبا ، وهى تمثل الجزء الأوسط من طُوَيْق ، ويقع وادى حنيفـة فى قلب العارض ، ولوادى حنيفة تاريخ شهير فى التاريخ الاسلامى سنعرض له بعـد قليل •

ويقول ياقوت عن العارض انه اسم للجبل المعترض ، ومنه عارض اليمامة وهو جبلها ، وفيه أودية كثيرة ، ولا نعلم جبلا يسمى عارضا غير عارض اليمامة ، والمسافة بين طرفى العارض مسيرة شهر [1] •

وإذا كنا ذكرنا عن القصـيم أنها أكثر بلاد نجـد اتصالا بالعـالم الخارجى ، فإن بلاد العارض كانت أميل بلاد نجد الى العزلة ، وعـدم الامتزاج بالآخرين ، واذا كانت بلاد القصيم تهتم بالتجارة فإن الحرب كانت تمثل الاهتمام الأول لأهل العارض •

ومما يدل على جانب التعصب فى بلاد العارض ، وجانب الانتصار للقبيلة فى كل الأحوال ما يروى أن مسيلمة الكذاب عندما ادّعى النبوة وقدم قرآنه الذى يعارض به القرآن الكريم ، أدرك أهلوه زيف ما عرض ، ولكن واحدا من بنى قومه صاح قائلا ، أشهد أنك كاذب ، ولكن كـذب حنيفة خير من صدق مضر • واتبعه قومه وأيدوه بحماسة شديدة •

ومن أجل ما عُرف به أهل العارض من الشجاعة والاقدام والبطولة الحربية ، اعتمد عليهم آل سعود فى كثير من المواقف الحرجة واستندوا عليهم عندما كانت تشتد بهم الكروب •

---

(١) معجم البلدان جـ ٣ ص ٥٨٥ •

وأشهر بلدان العارض الرياض عاصمة المملكة العربية السعوديه ، ومقر آل الشيخ ، والدرعيه التي كانت العاصمة الأولى لآل سعود ، والجنبيله والعيينة . وهما بلدتان متجاورتان كثيرا ما شملهما حديث واحد ، وملهم وحريملاء [1] ، ومنفوحة بلد الأعشى الشاعر .

معارك التنبؤ في وادي حنيفة :

ومن أعنف المواقف التي شهدها وادي حنيفة معارك الردة والتنبؤ التي وقعت في عصر الصديق أبي بكر ، وكانت هذه المعارك بقيادة مسيلمة الكذاب وهو من بني حنيفة باليمامة ، وكان قد وفد على الرسول عليه الصلاة والسلام ضمن بني حنيفة في عام الوفود (٩ هجرية) وأعلن إسلامه ، ولكنه كان يضمر التردد والغدر ، فما إن عاد إلى اليمامة حتى ارتد عن الإسلام وادعى النبوة ، وكتب للرسول ، يقول : من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله ، أما بعد فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشا لا ينصفون والسلام عليك .

فكتب له الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، والسلام على من اتبع الهدى [2] .

وبدأ الصراع في حياة الرسول ، ولكنه بلغ قمته في عهد الصديق أبي بكر ، وقد سبق أن قلنا أن بني حنيفة قوم أشداء يحبون الحرب ، ولا يخافون الموت ، وقد دفعهم اعتزازهم بالنفس ورغبتهم في العزلة الى وأن ينفصلوا عن المجتمع الاسلامي الذى ساد الجزيرة ، وأن يشعلوا لذلك حربا ضروسا ، وكانت قيادة المسلمين في يد خالد بن الوليد ، وشهدت منطقة الجبيلة حربا مريرة سقط فيها عدد كبير من الجانبين

---

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٥٥ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٩٧ — ٩٨ .

وكـان بين قتلى المسلمين عـدد كبير من حفظة القرآن الكريم ، وقـد أورد ابن كثير أسماء كثيرين من هؤلاء الحفاظ [١] ، ولما أحس مسيلمة بأن كفته شالت تراجع ودخل حديقة فسيحة لها سور مرتفع ، ولحق به أصحابه ، ليحتموا بهذه الحديقة ولكن المسلمين تسوّروها عليهم ، ودارت بها معركة شرسة سقط فيها الآلاف مـن الفريقين ، حتى سميت حـديقة الموت ، وقتل مسيلمة بعد جهد كبير [٢] .

وقد زرت منطقة الجُبيلة والعُيينة مع أصدقاء لى من آل الأسطل خلال شهر فبراير ١٩٧٧ ، وأمضيت بتلك المنطقة التى تقع على بعد حوالى عشرين ميلا من الرياض يوما كاملا وتتبعنا فيه آثار المعركة بين المسلمين وبين مسيلمة وذويه ، ورأينا المنطقة التى تسمى حاليا « وادى الدم » لكثرة من سقط فيها من القتلى ، ورأينا بقايا سـور ، قيل لنا أنـه بقايا سور حديقة الموت ، كما رأينا الأرض الخصـبة التى تعد منحـة لوادى حنيفة ، والتى لا تزال حتى الآن عامرة بالزراعة والنخيل ، ومما شاهدناه فى هذه البقاع آثار مقابر الشهداء ومن الواضح أن تعاليم المصلح الدينى محمد بن عبد الوهاب لم تدع أثرا للقباب التى أقيمت لشهداء معركة اليمامة ، وكان من أهمها مقبرة زيد بن الخطاب ، ومع زوال هذه الآثار فإن الوادى لا يزال يحتفظ بفتحات فى جوفـه يمكن مشاهدتها بسهولة ويقولون عنها إن كلا منها كان بقايا اللحد الذى دفن فيه أحد الشهداء .

وقد كان اليوم الذى أمضـيناه بوادى حنيفة يومـا طويلا ، وهذه الكلمة ليست ارتجالية لأنه فى الحق كان يوما شاقا ، فقد اتجهنا بسيارتنا الى أعماق الوادى محاولين أن نتعرف على جوانب المكان الذى دارت به أعنف معارك المرتدين والمتنبئين ، ووصلت السيارة الى مكان كانت رماله كالدقيق الناعم ، فغاصت عجلاتها فى أعماق هذه الرمال وكنا نخشى أن تمسنا لعنة مسيلمة ، فالمكان كان موحشـا حولنا ، ورفع السيارة كـان

---

(١) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣٣٤ ــ ٣٤٠ .
وانظر هامش ص ٦٧ من « العواصم من القواصم » لأبى بكر العربى .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٠٤ وابن الأثير جـ ٢ ص ٢٢٤ .

عملا لا أمل فيه لاتساع حجمها وثقل وزنها ، وقد اضطررنا أن نستعمل آلة الرفع لنرفع عجله إثر عجلة ، ونضع تحتها قدرا من الحجارة مختلفة الأحجام ، ثم ندير جهاز السيارة ونحاول الاندفاع بها الى الخلف ولكنها بعد حوالى نصف متر كانت تغوص مرة أخرى ، فنكرر العملية ، ولم ننج من وادى حنيفة الا بعد أن أوشك أن ينفد صبرنا ويصيبنا الإعياء ، ومع هذا فإن ما حصلنا عليه من معلومات ، وما شاهدناه من مناظر كان معينا لنا على هذا الجهد ، وكان مبعث متعة علمية عظيمة .

وبعد هذه المقدمة عن العارض ووادى حنيفة ، نعود للحديث عن العيينة ، ويبدو من المراجع التى بين أيدينا أن العيينة كانت موجودة منذ أمد طويل ولكن خرابا ألم بها لأسباب متعددة ويشير الشيخ حافظ وهبة [١] إلى قصص كثيرة عن أسباب هذا الخراب وعن هجر الناس لها ، ويتحدث الشيخ ابراهيم بن صالح عن العيينة فيقول :

فى سنة خمسين وثمانمائة اشترى حسن بن طوق جد آل معمر العيينة من آل يزيد من بنى حنيفة ، ورحل حسن عن ملهم ونزل العيينة عقب ذلك ، وتداولتها ذريته من بعده [٢] .

وهذا القول يفيد وجود العيينة قبل ذلك التاريخ ، وأن ما فعله حسن بن طوق كان مزيدا من التعمير والتجميل .

وبعد حسن بن طوق أصبحت رياسة العيينة الى ابنه حمد وهو الذى احتمى به ربيعة بن مانع المريدى عندما اعتدى عليه ابنه موسى ، واضطره الى الفرار ، فسار الى العيينة حيث وجد بها الكرم والتكريم ، ومما يذكر أن موسى بن ربيعة قُتل فى العيينة سنة ١١٣٩ .

ومن أحفاد ابراهيم بن موسى وَطْبان الذى نزل أولاده العيينة ، وقد حدث صراع طويل بينهم وبين يحيى بن سلامة رئيس الرياض .

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين : ص ٥٩ .
(٢) تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد : ص ٣٥ .

وفى سنة ١٠٥٦ توفى أمير العيينة أحمد عبد الله بن معمر ، وهــو حاج ، وفى سنة ١٠٥٧ نزل الشريف زيد بن محسن على « بيان » على مشارف الرياض وهدد العيينة فدفع له أهلها مبالغ كثيرة وثلاثمائة جمل .

وفى نفس السنة قتل ناصر بن عبد الله بن معمر صاحب العيينة قتله ابن أخيه دواس بن محمد بن عبد الله ، وتولى دواس العيينة ، ولكنـه قتل فى العام التالى ، وتولى العيينة محمد بن حمد بن عبد الله .

وفى سنة ١٠٧٠ تولى عبد الله بن أحمد بن معمر رياســة العيينة .

وفى سنة ١٠٧٢ سار عبد الله هذا الى بلد « ألبير » وكان أهلها قـد استولوا على قافلة لأهل العيينة ، وقد سار مـع عبـد الله جنود كثيرة ، فبات بعضهم تحت جدار من جدران بلد : « ألبير » فسقط الجدار عليهم ، فمات منهم خلق كثير ، وتدخل القاضى سـليمان بن على للاصـلاح بين أهل العيينة وأهل ألبير ، وقد تم ذلك ، ورجع عنهم ابن معمر .

وفى سنة ١٠٩٦ تولى عبد الله بن محمد بن معمر رياسة العيينة فى حياة أبيه ، وصار له فيهـا شهرة عظيمـة ، وكبرت العيينــة فى زمنـه وتزخرفت ، وكثر أهلها وزادت عمارتها ، وحج أبوه محمد بن أحمد تلك السـنة .

وفى سنة ١٠٩٧ اسـتولى عبد الله هذا عـلى بلد « العمارية » وفى العام التالى أغار على حريملة وقتل مـن أهلها عدة رجال ، وقد تسـبب عن هذا أن هبت حرب بينه وبين أهل الدرعيـة الذين جاءوا لمسـاعدة العمـارية .

ومن المفاخر التى تنسب الى العيينة أن ولد بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح الدينى الكبير ، ونشأ بهـا قبل أن ينتقل أبـوه الى حريملاء .

وفى سنة ١١١٦ نزل على العيينة سيل خرب منازلها .

وفى سنة ١١٢٦ أغار سعدون بن محمد آل غرير رئيس الحسا والقطيف هو وعبد الله بن معمر رئيس العيينة على اليمامة من بلد الخرج ونهبوا بعض منازلها .

وفى سنة ١١٣٧ قام صراع بين آل معمر فى العيينة وبين أهل العمارية وقد انهزم أهل العيينة فى هذا الصراع وقتل منهم حوالى عشرين رجلا .

وفى سنة ١١٣٨ حل بالعيينة وباء أفنى الكثيرين من سكانها ، وممن مات فى هذا الوباء رئيسها عبد الله بن محمد بن معمر الذى لم يذكر فى زمنه ولا قبله فى نجد من يدانيه فى الرياسة ، وسعة الملكة والعدد والعقارات والأثاث ، وتولى فى العيينة ابن ابنه محمد بن حمد بن عبد الله الملقب « خرفاش » .

وفى سنة ١١٣٩ غدر خرفاش هذا بزيد بن مرخان صاحب الدرعية ، وبدغيم بن فايز السبيعى وقتلهما ، وذلك أنه لما أصاب الوباء المذكور آنفا العيينة وفنى رجالها ، وقتل رئيسها ، طمع زيد بن مرخان وأتباعه فى أموالها ، وأرادوا نهبها ، فساروا اليها بآل كثير وبوادى سبيع وغيرهم ، فلما وصل الجميع « عقربا » أرسل خرفاش الى زيد من يقول له : انه لا ينفعك نهب البوادى ، وأنا مستعد أن أعطيك وأرضيك ، فأقبل الى أكلمك من قريب وأناجيك ، فسار اليه زيد فى أربعين رجلا ، ومعهم محمد بن سعود وغيره ، ثم أدخل رجالا من قومه فى مكان وطلب اليهم أن يرموا زيدا بالبنادق ففعلوا ومات زيد ، وتنبه أصحاب زيد ، فتحصنوا فى مكان بالقصر ولم ينزلوا منه الا بأمان الجوهرة بنت عبد الله ابن معمر ورجع محمد بن سعود بمن معه من أهل الدرعية .

وفى سنة ١١٤٢ قتل محمد بن حمد (خرفاش) رئيس العيينة قتله آل نبهان من آل كثير ، وتولى العيينة أخوه عثمان .

وفى سنة ١١٦٠ هـ غزا عبد العزيز بن محمد بن سعود ومعه عثمان بن معمر رئيس العيينة بلدة « سرمدا » وتمت الهزيمة على أهل سرمدا ، وقتل منهم حوالى سبعين رجلا وتسمى هذه الوقعة وقعـة « البطين » لأنها حدثت فى « بطين سرمدا » .

ويمتاز عهد عثمان بن حمد بن معمر بخطوة هـامة ترتبط بالمصلح الدينى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فإن الشيخ بعد جولة علمية طويلة اتجه الى مدينة حريملاء التى كان والـده قد عين قاضـيا بها ، وظـل الشيخ مع والده حتى توفى ذلك الوالد ، فجهر الشيخ بآرائه ، وحينئذ تجمع بعض الجماهير فى حريملاء للعدوان على الشيخ ، وهذا دفعه الى أن يعود الى العيينة مسقط رأسـه ، وأن يدعم صـلته برئيسها عثمان ابن حمد الذى رحب به وبالغ فى اكرامه ، وزوجه قريبته « الجوهرة » وبدأ الشيخ يرفع صوته بدعوته ، فهدم القباب التى كانت قد أقيمت على قبور شهداء موقعة اليمامة ، ومنها القبة التى أقيمت على مقبرة زيد بن الخطاب ، وبهذا كانت العيينة أول مكان يحقق الشيخ فيه أهدافه ولكن عثمان بن حمد لم يستطع أن يظل على حمايته للشيخ كما سنرى فيمـا بعـد ، فنصح الشيخ بترك العيينة ، فانتقل منها الى الدرعية ، كمـا سنرى عند الحديث عن الشيخ ودعوته .

وفى سنة ١١٦٣ قتل عثمان بن حمد رئيس العيينة ، وتولى مشارى ابن معمر رياستها .

وفى سنة ١١٦٤ أغار عبد العزيز بن محمد بن سعود ومشارى بن معمر رئيس العيينة على أهل سرمدا مرة أخرى وحدث قتال بين الجانبين هزم فيه أهل سرمدا وتسمى هـذه الوقعة ، وقعـة « الوطية » والوطية موضع بين سرمدا ومراة . وقد ذكر ابن غنام وابن بشر أن هذه الموقعة حدثت فى سنة ١١٦٣ هـ .

وقد ظلت العيينة بعد ذلك وثيقة الصلة بالحركة السعودية ، وشديدة الولاء لها حتى قامت المملكة العربية السعودية فى عهد البطل عبد العزيز ابن عبد الرحمن .

من قضاة العيينة وعلمائها :

كانت العارض منطقة تزدهى بالعلماء والفقهاء ، ومن العلماء المشاهير بها أسرة الامام محمد بن عبد الوهاب الذين ورثوا العلم كابرا عن كابر ، والذين تولوا مناصب القضاء والفتوى فى أكثر بلدان العارض ، قبل الشيخ وبعده ، وكان منهم أبو الشيخ الذى تولى القضاء فى العيينة وفى حريملاء ، ومنهم الشيخ الذى ارتفع صوته بالمعرفة فى حريملاء والعيينة والدرعية ، ومنهم أولاد الشيخ وأحفاده ومريدوه وهم كثر تولوا أكثر المناصب الدينية فى بلاد العارض قبل المملكة العربية السعودية . وفى ربوع المملكة بعد قيامها ، ونذكر منهم الشيخ حسن بن محمد بن عبد الوهاب وأبناءه وأحفاده الذين ازدهوا فى مواقع كثيرة بالدولة ، والشيخ حسين ومن أبنائه علماء مبرزون كذلك .

ومن علماء العارض أيضا الشيخ سليمان بن موسى الباهلى والشيخ محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله من المشارفة ، والشيخ محمد بن على ابن عيد ، والشيخ موسى بن عامر قاضى الدرعية .

فإذا جئنا الى العيينة وجدنا مجموعة من قمم العلماء والفقهاء تزدهى بهم ، منهم الشيخ ابن عفالق قاضى العيينة الذى توفى بها سنة ١٠١٩ ، ومنهم الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب قاضى العيينة الذى أخذ الفقه عن الشيخ منصور البهوتى ، والشيخ أحمد بن محمد بن بسام ، وقد توفى سنة ١٠٥٩ .

ومن علماء العيينة كذلك الشيخ عبد الوهاب بن عبد الله سالف الذكر الذى كان مريداً لأبيه ، ووارثا لعلمه وفضله وكان أستاذا لمجموعة من العلماء منهم الشيخ سيف بن عزاز ، وتوفى سنة ١١٢٥ .

ومنهم الشيخ العلامة سليمان بن على التميمى الذى توفى بالعيينة سنة ١٠٧٩ .

ومنهم الشيخ عبد الوهاب بن الشيخ سليمان بن على قاضى العيينة الذى عزله خرفاش رئيس العيينة سنة ١١٣٩ ، وقد انتقل عقب ذلك من العيينة الى حريملاء .

ومنهم الشيخ أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب الذى عينه خرفاش قاضيا عقب عزله للشيخ عبد الوهاب بن سليمان سالف الذكر .

وهناك كثيرون غير هؤلاء من العلماء والفقهاء الذين كانوا ينتقلون قضاة ومعلمين بين بلدان العارض .

حـــائل

مدينة حائل عاصمة جبل شمَّر ، ومن هنا كان مـــن الأوفق أن نبدأ بالحديث عن جبل شمر لنعرف به ، وبعد ذلك ننثنى متحدثين عن حائل .

وجبل شمر يقع شمال نجد والى الجنوب من صحراء النفود ، وهو يتكون من سلسلتين متوازيتين من الجبال هما « أجا وسلمى » جَبَلاطَىّء ويتجه الجبلان من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، وفى جبل شمر توجد منابع عديدة للمياه تستخدم فى أرض السهل الخصبة التى تنمو بها شتى أنواع المزروعات ، وبخاصة النخيل ، كما تهطل على الجبل أمطار غزيرة فى الشتاء ، فتكثر المراعى التى ترتادها الخيل والتى يشتهر بهـا الإقليم فضلا عن الإبل والغنم (١) .

و (شمر) أحد أجداد العرب فى الجاهلية ، وهو ابن أيْد بن خزيمة من طىّ ، واليه ينتسب هذا الجبل ، اذ يعيش بطن من بطون شمر فى هذا الجبل منذ أمد طويل ، وهناك بطون أخرى مـــن هذا الجـــد تعيش فى العراق وفى سورية .

وتتحدث Lady Anne Blant عن هذا الجبل فتصفه بأن منظره رائع : وأنه سلسلة طويلة بديعة تمتد من الشرق الى الغرب ، وبـــه عـــدة قمم شاهقة متميزة عن السلسلة الرئيسية ، وهو يذكّر من رآه بأروع الجبال فى أسبانيا المسماه « جودا راما » (٢) ومنظر الجبل يفوق الوصف ، فهو سهل كامل الاستواء يتدرج فى الارتفاع ، وتنبثق منه صخور وتلال كأنها جزر فى محيط ، وبعض صـــخوره قرمزية اللون شاهقة ، تشمخ عـــلى الجميع ، وهى تَهدى من يقصد جبل شمر قبل أن يصله بعدة أيام ، ومعالم جبل شمر لها روعة غريبة ، والمرتفعات به تكوّن ذرا وقبابا تاركة بينها

---

(١) أحمد عطية الله : القاموس الاسلامى جـ٤ ص ١٤٢ .
(٢) آن بلنت : رحلة الى نجد ١٦٩ .

كوى تستطيع من خلالها أن ترى السماء ، وبعض صخوره كانت على شكل جمل ، وهى تخدع أى شخص لا يعلم أن الجمال ليس فى استطاعتها أن تتسلق تلك القمة (١) .

وقد سبق لنا أن ذكرنا أن ولفريد زوج الرحالة ليدى آن بلنت قال عندما رأى جبل شمر إنه يموت الآن سعيدا لأنه رأى هذا المنظر البديع الذى ليس هناك مكان آخر يشبهه الا أن يكون جبل سيناء .

وأهم البلاد فى جبل شمر « حائل » العاصمة التى سنتحدث عنها فيما بعد ، و « فيد » التى تقع فى جنوب حائل و « قفار » وهى بلدة فى الجنوب الغربى من حائل ، ثم قَنا وعقدة وتَيْماء ، ولدينا معلومات ذات بال عن البلدان الثلاثة الأخيرة ينبغى أن نوردها هنا لمزيد من التعريف بالمنطقة :

« قَنا » قرية صغيرة جميلة تُعَدّ باب جبل شمر لمن يأتى عبر صحراء النفود ، وبها حقول خصبة ، تزرع بها الحبوب وتكثر الأشجار .

« وعقدة » تقع على بعد عدة أميال من حائل ، وكانت قلعة حصينة فى الجبل ، وقد اختير لها مكان تحصّنه القوى الطبيعية ، وأضيفت لها ألوان من التحصينات التى صنعها الانسان ، وعقدة عبارة عن مجموعة من قرى منتشرة فى مزارع النخيل فى الجنوب الغربى من حائل ، ومن هذه القرى قرية الروضة وغزالة والمستجدة .

وتيماء واحة كبيرة فى الشمال الغربى لنجد ، وأرضها خصبة صالحة للزراعة ، وبها أشهر عين ماء فى بلاد العرب ، وقد عُثِرَ بها على نقوش يُظن أنها من القرن السادس قبل الميلاد وتنسب الى (تيما) أحد أبناء اسماعيل وتقع تيما فى منخفض من السهل المرتفع ، ولتيماء مكان مهم فى

(١) رحلة الى نجد : آن بلنت ١٧٩

التاريخ الإسلامى ، اذ كانت احدى قرى اليهود فى الشمال من المدينة ، وقد كونت هى وبلدان اليهود الأخرى فى وادى القرى وفدك وخيبر خصما عنيدا للاسلام والمسلمين ، وقدم هؤلاء مساعدات لمن حاصروا المدينة فى غزوة الخندق ، ولذلك نجد الرسول يزحف على تلك المناطق فى العام السابع للهجرة ، بعد أن تم صلح الحديبية بينه وبين قريش ، وحاصر المسلمون خيبر ، فتساقطت حصونها ، واستسلم أهلها واتفق معهم المسلمون ، اتفاقا سمحا ، فقد تركهم الرسول يزرعون الأرض ، ولهم شطر الزرع والثمار نظير عملهم (١) ، وعقب سقوط خيبر طلب يهود فدك الصلح فصالحهم الرسول على نصف التمر ونصف الأرض ، أما يهود وادى القرى وتيماء فقد حاربوا المسلمين ، ثم حلت بهم الهزيمة ، وبعد ذلك تركهم المسلمون على نظام خيبر (٢) .

وفى عهد عمر بن الخطاب عندما تقدمت جيوش المسلمين الى الشمال رأى عمر أنه ليس من الحكمة أن تكون جيوش المسلمين بين عدوين : الروم فى الشمال واليهود فى الجنوب فأخرجهم من الجزيرة العربية ، على أن يحملوا ما يستطيعون حمله ، وأن يدفع المسلمون ثمن أى متاع لا يحملونه معهم (٣) .

ونجىء الآن الى حائل العاصمة لنروى ما يمكن من حديث عنها :

تقع حائل على مرتفع هائل بجبل شمر إذ يبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح البحر حوالى ٣٥٠٠ قدم ، وهى تقع على الطريق الصحراوى الذى يربط الحجاز بالعراق وايران وبلاد المشرق ، وعلى هذا فهى تقع على طريق مطروق وبخاصة فى موسم الحج ، ومن هنا كانت مركزا تجاريا مهما بين الشرق والغرب كما أن هذا الموقع ضمن لها ولضواحيها ربحا

---

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٩ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧ .
(٣) انظر الجزء الأول من هذه الموسوعة .

طيبا فقد كان كثير من الحجاج يشترون منها الماعز والخراف التى يقدمونها هديا فى حجهم ، ففى موسم الحج كان الرعاة يفدون الى حائل بقطعانهم لبيع بعض ماشيتهم الى حجاج الفرس والعراق ، كما كانوا يفدون ليعملوا على تسهيل مهمة الحجاج وتقديم بعض الخدمات اليهم .

وبالإضافة الى موقعها الذى جلب لها أنواعا من الثراء عن طريق التجارة والقوافل فإن مدينة حائل تقع فى منطقة خصبة تجود فيها بساتين النخيل والتين والرمان والتفاح ، وتحيط بها حقول واسعة يزرع بها الشعير والقمح والخضر ، وفى الجنوب الشرقى من حائل تكثر بساتين النخيل والرمان والليمون الحلو والنارنج والبرتقال والتفاح والبرقوق والمياه اللازمة لهذه البساتين تستخرج من آبار عمقها حوالى ٩٠ قدما ، وفى شمال المدينة توجد مزارع النخيل .

ويتحدث ياقوت عن حائل فيذكر أنها موضع باليمامة ، وهو واد أصله من الدهناء ، ويستمر ياقوت متحدثا عن حائل بما يفيد أنها كانت دائما بلاد الزهر والخير ، فيذكر أن بدويا من حائل ذهب الى « الحضرة » ولكنه سرعان ما اشتاق الى حائل وحن اليها وقال فيها قصيدة رائعة منها :

لعمرى لنور الأقحوان بحائل
ونور الخزامى فى ألاء وعرفج

أحب الينا يا حميد بن مالك
من الورد والنعمى ودهن البنفسج (١)

وكانت حائل فى هذا المكان التجارى الزراعى من جهة والشاهق الناتئ من جهة أخرى محمية بموقعها وبطولات أهلها ، فان استقلال حائل واستقرارها كانا يعودان بالخير والبركة على جميع السكان بقرى جبل

---

(١) معجم البلدان : ج ٣ ص ٢٠٥ .

شمر ، الذين ذكرنا من قبل أخبار وفادتهم على حائل متاجرين أو عاملين . وعلى هذا لم تكن القرى المجاورة لحائل منافسة لها بقدر ما كانت تابعة ، ولا كانت حائل هدفا لهجمات ذات بال من الخارج بسبب هذا الموقع . وهذا الوضع قلل الصراع حولها ، ذلك الصراع الذى رأيناه مستمرا دون توقف فى عنيزة ومثيلاتها .

وتشتهر حائل بخيولها الأصيلة ، وقد كانت هذه الخيول تمثل السبب الذى دفع الرحالة آن بلنت لتقوم برحلتها الى بلاد نجد اذ كانت هذه الرحالة مهتمة بتربية الخيول العربية ، وكانت تملك مزرعة بها حظيرة حافلة بأمهر الخيول ، وقد تحدثت فى كتابها عن خيول آل الرشيد ، وأبرزت أن فى حائل مجموعة ممتازة من الخيل ، وأن ابن الرشيد كان يعنى بها أحسن عناية ، حتى انه كان يذهب بخيوله كل ربيع الى الصحراء لتعيش فى الهواء الطلق ، ولتمارس تدريبا دقيقا على السرعة والكر والفر ، وفى خلال الصيف كان يترك أكثر خيوله مع القبائل لتستمر فى التدريب ولا يبقى معه فى حائل الا القدر اللازم للاستعمال فى المدينة .

وسنرى فيما بعد أن خيول آل رشيد كسبت له بعض الجولات العسكرية ، وحققت النصر لجانبه .

وقد دخلت حائل فيما دخلت فيه مناطق نجد فأصبحت جزءا من دولة آل سعود الأولى ، وعيَّن آل سعود عبد الله بن الرشيد أميرا على حائل ، فلما سقطت الدولة السعودية الأولى وجاءت الدولة السعودية الثانية بما فيها من اضطرابات وقلاقل أعلن عبد الله بن رشيد استقلاله بجبل شمر ، بل أخذ يوسع سلطاته حتى أصبح آل الرشيد هم أصحاب السيادة على أكثر ربوع نجد معظم القرن التاسع عشر كما سنرى فيما بعد .

وسنذكر فيما يلى بعض الأحداث التى اشتركت فيها حائل ، حتى نصل الى مطلع المملكة العربية السعودية .

مطلع عهد آل الرشيد :

فى سنة ١٢٩٤ هـ حمل محمد بن عبد الله بن على الرشيد راية المغزو مستقلا بها عن متابعة آل سعود ، وهو أول من حملها مستقلا بها من بيت آل الرشيد وكان قبل ذلك أميرا فى حائل تابعا لآل سعود خلال دولتهم ثم اتجه بعد حمل راية الاستقلال الى غزو بادية عتيبة ، وهذا الوضع فتح الباب لصراع بينه وبين آل سعود (١) .

وفى سنة ١٣٠٠ هـ حدث أول قتال بين آل سعود وآل الرشيد وقصة ذلك أن الامام عبد الله بن فيصل خرج من الرياض لغزو المجمعة فنزل على عربان عتيبة فى الحمادة المسماة « أم العصافير » ولما علم بذلك أهل المجمعة أرسلوا الى محمد بن عبد الله الرشيد يستنجدونه فتجهز لذلك وخرج فى أهل حائل ، ومعه قبيلة شمر ، وانضم اليه حسن بن مهنا رئيس بريدة بمن معه من أهل بريدة ، والتقى الجمعان فى « أم العصافير » واقتتلوا ، فانهزم الامام عبد الله بن فيصل ، وقتل منهم خلق كثير من المشاهير منهم تركى بن عبد الله بن تركى ، وفهد بن سويلم ، وفهد بن سلطان ، وفهد بن عشيان والشيخ عبد العزيز بن الشيخ عبد الله بابطين ، ورجع الامام عبد الله الى الرياض ، وأقام محمد الرشيد فى الحمادة عدة أيام ، وأحضر رؤساء بلدان الوشم وسدير وعين فى كل بلد من بلدانهم أميرا ، ثم رجع الى بلاده ، وبهذه الموقعة امتدت أطماع محمد بن الرشيد الى الاستيلاء على جميع بلدان نجد ، وكان سلطان آل سعود آنذاك يتجه الى الضعف .

وفى سنة ١٣٠٣ خرج أولاد سعود بن فيصل (محمد وسعد وعبد الله) على عمهم عبد الله بن فيصل ، أمير الرياض وقبضوا عليه وسجنوه وبلغ ذلك محمد بن عبد الله بن رشيد ، فانتهز هذه الفرصة ليمد نفوذه الى الرياض عاصمة آل سعود ، فأظهر الإنكار والسخط على أولاد سعود لاعتدائهم على عمهم ، وتجهز وقصد الرياض ، ولما قرب منها تلقاه وفد

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الله الأنصارى : تحفة المستفيد ص ١٧٦ وما بعدها

من أهلها على رأسهم الامـــام عبد الرحمن بن فيصل (والد جلالـــة الملك عبد العزيز) وفاوض الوفد ابن الرشيد لمعرفة قصده ، فأخبرهم أنه جاء لتخليص الامام عبد الله من السخط فقط ، ولما عرف أولاد سعود ذلك ، وعلموا من أنفسهم العجز عن مقاومته ، خرجوا اليه ، وطلبوا منه الأمان لأنفسهم ، فأمّنهم ، فخرجوا من الرياض الى الخرج ، ودخل محمد بن عبد الله الرياض ، وأطلق عبد الله بن فيصل من السجن ، وبعد ذلك بأيام خرج من الرياض ومعه الامام عبد الله وعبد الرحمن ابنا فيصل ، وعشرة آخرون من آل سعود ، ورجع بهم الى بلده ، وجعل سالم السبْهان أميرا لـــه في الرياض .

وقد قام أولاد سعود الذين سبق الحديث عنهم بألوان من الهجمات ضد ابن رشيد ، واتخذوا من الخرج مركزا لهم ، ورأى ابن الرشيد ان يتخلص منهم ، فأوعز الى سالم السبْهان أمير الرياض بأن يهاجمهم فى غفلة منهم ويقضى عليهم ، ففعل سالم ذلك ، وعندما ضج أهل نجد لهذه الخيانة ، تظاهر ابن رشيد باستنكارها وعزل سالم السبهان عن الرياض ، وجعل مكانه فهد بن رخيص وهو من أهل حائل .

وفى سنة ١٣٠٧ دبر ابن رشيد حيلة للتخلص من زعماء آل سعود الموجودين عنده ، فيقال انه قـــدم القهوة وفيها شىء من السم بطىء النتائج للامام عبد الله بن فيصـــل وأخيه عبد الرحمن ، وقـــد استطاع عبد الرحمن أن يحس بذلك فتخلص من هذه القهوة ، ولكن عبد الله شرب القهوة فبدأ السم ينساب فى جسده ، وأراد ابن الرشيد أن يخفى هـــذا فسمح للامامين بمغادرة حائل الى الرياض ، ولم يكن يعرف أن عبد الرحمن لم يشرب القهوة المسمومة ، وكان يريدهما أن يموتا بعيدا عنه ، وسرعان ما توفى الامام عبد الله فى الرياض [١] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٧ — ١٧٨ .

ولم يقنع ابن الرشيد بذلك ، بل أراد أن يقضى على البقية الباقية من آل سعود بنفس الطريقة الغادرة ، وكان سالم السبهان خير معين له فى ذلك الاتجاه ، فأعاده الى امارة الرياض وأوعز اليه أن يقضى علـى زعماء آل سعود ، وبدأ سالم يدبر المكيدة لذلك ، ففى يوم عيد الفطـر أرسل سالم للامام عبد الرحمن يخبره أنـه يرغب فى زيارة آل سـعود للتهنئة بالعيد وطلب منه أن يجمع أفراد الأسرة فى قصره لهذا الغرض ، إذ يتعذر عليه أن يزور كل واحد فى مقره ، ففطن الامام عبد الرحمن لاتجاه الغدر ، وأمر رجال آل سعود أن يحضروا بسلاحهم وأن يكونوا على حذر ، ثم جاء سالم السبهان بأعوانه وهم مدججون بالسلاح ، وبعد قليل بدرت من سالم بوادر الغدر فهب السعوديون للدفاع عن أنفسهم ، وتغلبوا على جماعة سالم ، وأسروه هو نفسه ، وأودعوه السجن ، وعادت امارة الرياض للامام عبد الرحمن .

ولم يسكت ابن الرشيد على هذا النصر الذى أحرزه السعوديون ، فزحف بجيوشه الى الرياض ، وتحصن أهل الرياض بمدينتهم ، وفى الوقت نفسه كان أهل القصيم قد غضبوا عـلى آل الرشـيد ، وكتبوا للامام عبد الرحمن أنهم على استعداد لمناصرته ، وعلى هذا أحس ابن الرشيد بضعف موقفه فطلب المفاوضة ، وخرج له زعماء آل سعود ، وتم الصلح على أن يكون العارض وما حوله تحت سلطة الامام عبد الرحمن ، وأن يطلق آل سعود الأمير سالم السبهان ، وتم ذلك ورجع ابن الرشـيد الى بلده .

وقد سبق أن ذكرنا أنه كان هناك تعاون بين محمد بن عبد الله الرشيد وبين أمير بريدة حسن بن مهنا ، وكان ابن الرشيد قد طمع فى أن تكون علاقة بريدة به علاقة تبعية لا علاقة تحالف ، بل اتسعت أطماعه فأراد ضـم القصيم كله اليه ، ولم يكن أهل القصيم يريدون ذلك فتجمع جيش من أهل بريدة بقيادة حسن بن مهنا ، ومن أهل عنيزة بقيادة زامل السليم ، والتقى هذا الجيش بجيوش ابن الرشيد فى المليدا ، وقامت حرب ضروس

بين الجماعتين لعبت فيها خيول جيش حائل دورا هائلا ، فتحقق النصر لابن الرشيد ، وقتل زامل السليم ، وعاد حسن بن مهنا الى وطنه بعد هذه الموقعة ، ويقال انه قتل من أهل القصيم فى هذه المعركة ألف رجل . وقد جىء بحسن بن مهنا الى ابن الرشيد فأرسله الى حائل وسجن هناك ، واستولى ابن الرشيد بذلك على القصيم .

وكانت هذه الموقعة شديدة الأثر على السعوديين فى الرياض فإن عبد الرحمن بن فيصل خرج من العارض ليساعد أهل القصيم ، ولكن خبر الهزيمة قابله فتراجع الى الرياض ، وتفرق جنده ، ولكنه أدرك أن ابن رشيد سيتابعه الى الرياض فخرج عنها الى بادية العجمان [1] .

وتم استيلاء ابن رشيد على الرياض وعلى بادية نجد سنة ١٣٠٨ .

وفى سنة ١٣٠٩ حاول عبد الرحمن بن فيصل محاولته الأخيرة ضد آل الرشيد ، وكان يساعده ابراهيم بن مهنا وجند كثيرون ، وقصدوا مدينة الرياض ، ولكن ابن الرشيد خرج من حائل بحشد كبير من الجند والتقى بهؤلاء عند حريملاء وهزمهم ، وقتل ابراهيم بن مهنا ، ودخل الرياض ، وهدم سورها ، وأحس أن الأمر قد استقر اليه .

أما الامام عبد الرحمن فقد أمضى فترة مترددا بين قبيلة العجمان وبين قطر والاحساء وانتهى به الأمر الى اللجوء الى الكويت .

وفى سنة ١٣١٥ توفى الأمير محمد بن على بن عبد الله بن رشيد فى حائل ، وتولى بعده ابن أخيه عبد العزيز المتعب ويقول عنه الشيخ محمد عبد الله الأنصارى [2] : انه كان شجاعا قاسيا لا يعرف من السياسة الا القهر والغلبة ، فطمع فى الاستيلاء على الكويت التى تحمى آل سعود ، وقد نتج عن هذا أن قامت سنة ١٣١٨ محاولة سعودية كويتية لاسترداد

---

(١) الشيخ ابراهيم بن صالح : ص ١٩٦ — ١٩٧ .
(٢) تحفة المستفيد ص ١٩٤ .

الرياض ، واسترداد مدن القصيم ، وقد حقق أمير الكويت نصرا مبدئيا على جنـد ابن الرشـيد ، وانتصر الإمـام عبـد الرحمن عـلى أمير الرياض من قبل ابن الرشيد ودخلها ثم ترك بها ابنه عبد العزيز (الملك عبد العزيز فيما بعـد) وذهب لينضـم الى جيش الكويت ولكن الأمير عبد العزيز بن الرشيد عـلم بذلك فسـار بجيش كبير ، وحقق نصرا فى مناطق القصيم وانهزم أمير الكويت والامام عبد الرحمن بن فيصل ، وجاء خبر الهزيمة الى من بالرياض من آل سعود فخرجوا منها ، ولجأوا الى الكويت مرة أخرى .

وفى العام التالى (١٣١٩) اندفع البطل عبد العزيز فاحتل الرياض وقتل الأمير عجلان أمير الرياض من قبل آل الرشيد ، وبدأ نجم السعوديين فى التألق وراح نجم آل رشيد يتجه الى الأفول كما سنرى فيما بعد .

وهكذا بدأ دور حائل فى الصراع بنجد متأخرا ، ولكنه عندما بدأ كان عنيفا وطموحا ، وسنعود لدراسته فيما بعد عند الكلام عن آل الرشيد .

وهكذا نقرر ونكرر أن (نجد) فى أكثر تاريخها كانت تتكون من وحدات سياسية مستقلة تماما ، وبعض هذه الوحدات كان يتمثل فى القبائل التى تقيم حول آبارها خلال شهور الصيف ، ثم تبدأ تجوالها مع سقوط **المطر لترعى ما ينجم عن المطر من عشب ، وتجوال القبيلة يكون فى نطاق محدد لا تتعداه ، وتعرف الأرض الخاصة بكل قبيلة بالديرة .**

وبعض هذه الوحدات يتمثل فى المدن الموجودة فى الأودية والتى يظهر فيها الاستقرار البشرى .

والقبيلة التى تستقر وترحل من جانب ، والمدينة بأحد الأودية من جانب آخر ، تلفها الصحراء الفسيحة ، وتكاد تكون منقطعة عن غيرها ، ومن هنا كانت تكون وحدة سياسية مستقلة تماما ، فتاريخ نجد قبل المملكة

العربية السعودية هو تاريخ هـذه القبائل وتلك المـدن التى أعطينـا نماذج لها ٠

وكانت الغارة والنصر والهزيمة هى أسلوب الحياة ، ومن هنا لم تقم مع القبائل ، ولا فى المدن حضارات ذات بال ، وأشعة النور بها كانت منحصرة فى الفقهاء الذين يتعلمون العلوم الدينية ، ثم يعلمون ما تعلموه فى دورات لا تتخلف من ناحية الفكر أو المنهج ، وقد تحدثنا عن كثيرين منهم ٠

واذا كانت القبيلة أو المدينة هى الوحدة السياسية بوجه عام كمـا ذكرنا ، فإن هناك نوعين آخرين من الحكم والسيادة ظهرا فى نجد من حين إلى حين ، وقد أشرنا لهما من قبل (١) وهما :

ـ زحف من الداخل تقوم به قبيلة أو مدينة وتسيطر على مناطق أخرى أو مدن أخرى ٠

ـ نفوذ أو زحف من الخارج يمتد إلى نجد من شرقى الجزيرة أو من غرُبيها ٠

وقد آن لنا أن نتكلم عن هذين النوعين بشىء من التفصيل ٠

---

(١) ص ٥٣ ٠

٢ — زحف من الداخل

تحدثنا آنفا عن الحياة المستقلة التى كانت تعيشها القبائل الرحل أو المدن بنجد ، وكانت القبائل على كل حال أكثر ميلا للحرب واكثر عددا من سكان المدن ، وأكثر قدرة على قطع الصلات بين سكان المدن وبين العالم .

وسكان المدن كانوا فى حاجة للاتصال الخارجى ليبيعوا انتاجهم وليشتروا ما يلزمهم ، ولذلك اتفقت كلمتهم فى الجاهلية على تحريم الغارات والحرب خلال الأشهر الحرم (١) ، وجرى عرفهم بعد ذلك على أن سكان المدن يتفقون مع عاهل بدوى واسع النفوذ فى قبيلته وفى « الديرة » على أن يضمن لهم السلامة داخل حدود دائرته ، وتدفع المدينة أتاوة (أخاوة) نظير ذلك ، ويحصل هذا عندما تكون هذه القبيلة قوية ، نفوذها واسع ، وحدود هذا النفوذ تبلغ مئات الأميال ، وتضم مدنا كثيرة على هذا النسق (٢) .

ذلك نوع من النفوذ الداخلى ، ولعل هدفه طيب ، ولكن هناك أنواع من النفوذ هدفها السيطرة من قبيلة على قبيلة ومن مدينة على مدينة ، ومن هذا زحف آل الرشيد الذى تحدثنا عنه من قبل ، ومنه كذلك زحف آل سعود فى دولتهم الأولى والثانية ، إذ لم تكن الدعوة الإصلاحية قد اختمرت فى النفوس واتضحت أهدافها الإصلاحية ، فاعتبر الزحف السعودى فى خلال هاتين الدولتين وبسبب سوء فهمه لونا من الألوان التى ألفتها نجد فى هذا المجال .

على أن الزحف الرشيدى والزحف السعودى خلال هاتين الدولتين لم يكوّنا دولة بالمفهوم العلمى المعروف ، وكل ما كان يفهم منه هو نوع

---

(١) انظر الكلام عن الأشهر الحرام فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ص ١٢٢ وفى الطبرى جـ٢ ص ١٥ .

(٢) انظر رحلة الى نجد للرحالة آن بلنت ص ٢٠٨ .

من الاعتراف بالسلطة السعودية أو الرشيدية ، وتدخل الحاكم السعودى أو الرشيدى فى اختيار رئيس المدينة أو القبيلة وهو فى الغالب من أهلها الموالين للحكم الجديد ، ودفع الاتاوة لآل سعود أو آل الرشيد ، وفيما عدا ذلك فالقبيلة أو المدينة تعيش حياتها الاستقلالية .

والزحف السعودى ومن بعده الزحف الرشيدى كانا يتجهان للاستيلاء على نجد كلها تقريبا ، ولكن كان هناك زحف آخر لا يتوقف تقوم به مدينة على مدينة ، ومن هذا النوع نذكر بضعة أمثلة :

فى سنة ١٠٩٧ استولى عبد الله بن معمر رئيس العيينة على بلدة « العمارية » وقد تسبب عن هذا أن هبت حرب بينه وبين أهل الدرعية الذين جاءوا لمساعدة العمارية ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك (١) .

وفى سنة ١١٢٣ استولى أهل حريملاء على بلدة « ملهم » .

فى سنة ١٠٩٧ استولى عبد الله بن معمر رئيس العيينة على بلدة « جلاجل » على بلدة « روضة سدير » وعلى منزلة آل أبو هلال ، ومنزلة آل أبو سليمان ، ومنزلة آل أبو سعيد (٢) ، وأخرج العبيد من حوطة سدير ، وأسكن فيها أهلها آل أبو حسين من بنى العنبر ، وكانوا قد جلوا عنها (٣) .

وهناك نماذج كثيرة من هذا النوع يقابلها الباحث دون عناء ، فقد كانت هذه الحالة هى شريعة نجد قبل قيام المملكة العربية السعودية .

---

(١) انظر ص ٨٦ من هذا الكتاب .

(٢) (أبو) تستعمل مرفوعة فى المراجع فى جميع الأحوال .

(٣) الشيخ ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ٨٩ و ٩٤ .

وينبغى أن يتضح أن هذا الزحف لم يستقر غالبا ، فكثيرا ما كان يواجه بمقاومة تقضى عليه ، وأحيانا تجعل الغالب مغلوبا .

وينبغى كذلك أن يتضح أننا نقصد هنا الزحف الذى يتطلع للاستقرار والسيادة ، أما الزحف الذى يرمى الى السلب والنهب دون محاولة استقرار فهو عمل كان كثير الوقوع بسبب وبدون سبب فى مختلف الأرجاء ببادية نجد وقد تحدثنا عنه من قبل .

٣ — زحف من الخارج على نجد

تحدثنا من قبل عن القبائل والمدن فى نجد وقلنا ان كلا منها كانت تكوّن وحدة سياسية مستقلة ، وان العلاقات بينها كانت علاقات عدوانية ، والى الشرق من نجد والى الغرب منها قامت قوى أقرب ما تكون الى الدولة سواء كان ذلك فى منطقة الأحساء أو فى الحجاز ، فقد كانت هنا وهناك جيوش وعتـاد وادارة ، مستقلة أو تابعة لقوة أعظم ، وشـهد التاريخ ألوانا من الزحف على نجد من الشرق ومن الغرب •

ولم يكن هذا الزحف يرمى الى ضم مناطق نجـد الى الشرق أو الغرب ، فليس ذلك بمستطاع بسبب الصحراء الفسيحة التى تحيط بكل مدينة وبكل قبيلة ، مما يجعل تكاليف هذه المحاولة غـالية الثمن وليست هناك فائدة تدعو لها ، وعلى هذا كان الهدف من حملات الشرق والغرب على نجد ينحصر فى أمرين :

١ — التهديد حتى لا تحاول قوى نجد أن تقوم بأعمال ضد سيادة النظم بالشرق أو الغرب •

٢ — التبعية العامة ودفع إتاوة كانت تسمى الزكاة غالبا وقـد تسمى خراجا أو اتاوة ، وتكون نقدا أو حاصلات عينية •

أما الحكم السياسى للمدينة أو القبيلة فيظل — كما ذكرنا من قبل — بالاعتراف بشيخها أو بتعيين شيخ آخر منها يكون أكثر استجابة للتعاون مع الغزاة ، ولم يحصل أن حكمت هذه المدن أو القبائل حكما مركزيا ، وما كان ذلك ممكنا •

ويلاحظ أن أطماع الشرق كانت مبكرة عن أطماع الغرب اذ قـام بالشرق طيلة القرون الهجرية الأولى قوًى علا شأنها وعظمت قوتها فى بعض الأحيان كالخوارج وبنى الأخيضر والزنج والقرامطة ، وكان لهؤلاء أطماع فى نجد بل أحيانا أطماع وصلت الى الحجاز عبر نجد ، أما الحجاز

فى الغرب فكان تابعا لمصر منذ عهد الأخشيديين ولم يكن لولاته أطماع فى نجد ، فلما تمكن نفوذ الأشراف فى العهد العثمانى ، بدأ هؤلاء الأشراف يتطلعون الى نجد فى النطاق الذى شرحناه من قبل •

وسنتحدث فيما يلى عن زحف على نجد من الشرق ، ثم عن زحف مماثل من الغرب •

زحف على نجد من الشرق :

كانت بلاد الأحساء منطقة مهمة لاتصالها بالخليج الذى كان يمثل منطقة اقتصادية هائلة ، ولاتصالها كذلك ببلاد فارس على الجانب الآخر من الخليج ، وقد قامت فى منطقة الأحساء دول كبيرة شديدة الأطماع ، وقد امتد نفوذها الى مناطق متعددة فى الجزيرة العربية وخارجها ، وكانت نجد من أهم الأماكن التى تطلع لها حكام الأحساء ليضمنوا ولاءها ، أو ليحثوا أبطالها على مشاركتهم فى المغارات التى كانوا يقومون بها • وسنتدارس فيما بعد منطقة الخليج ، ونتحدث عن نشاط الدول التى قامت بها ، ونكتفى هنا بلمحات عن زحف دول الأحساء على نجد •

لقد تطلع الخوارج الى نجد واستطاع النجدات احدى فرق الخوارج أن يستولوا على اليمامة ، وأرسل نجدة سرية الى « الخط » فظفر بأهله ، وامتد نشاط الخوارج بوادى نجد وأخذ نجدة الصدقة من أهلها ووصل فى زحفه الى الطائف •

وبعد نجدة سار أبو فديك فى هذا الاتجاه كما سار فيه مسعود العبدى الذى استطاع أن يستولى على اليمامة (١) •

أما بنو الأخيضر فقد ظهروا فى الحجاز بقيادة محمد بن يوسف فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، فحاربهم العباسيون وهزموهم ، ففروا

---

(١) الكامل : ابن الأثير ج ٤ ص ٢٨ •

الى اليمامة وملكوها ، ومن اليمامة مدوا نفوذهم الى بعض النواحى فى نجد ، وظلوا يحكمون هذه المناطق فى المدة من سنة ٢٥٣ هـ الى سنة ٣١٧ هـ ونشروا بها مذهب الشيعة الذى عاش بتلك البقاع فترة طويلة (١) .

وعندما قامت دولة الزنج فى هجر انسابت للمنطقة كلها تقريبا ، وكانت لها تطلعات فى نجد وسواها ، ولكنها لم تحقق ما حققه الخوارج قبلها ولا القرامطة بعدها .

أما القرامطة فقد اتسع نفوذهم فى مناطق كثيرة بنجد ، ووصل هذا النفوذ الى أرض الحجاز واستطاع هؤلاء أن يأخذوا الحجر الأسود من مكة وأن ينقلوه الى عاصمتهم بالخليج ، وقد اتسع نطاقهم اتساعا هائلا ، فلم يتوقف عند نجد ، وانما امتد الى دمشق وحماه ومعرة النعمان وبعلبك .

وعندما قامت الأسرة العيونية بالبحرين تطلع كثير من أمرائها الى نجد وكان بعض أمرائها شديدى الاهتمام بالبرارى لتعقب المفسدين ، والضرب على أيدى الأعراب ، كما كان منهم من امتد نفوذه الى نجد تماما مثل الأمير محمد بن أحمد بن عبد الله وستشمله أحاديثنا فيما بعد .

واذا قفزنا فترة الاحتلال الفارسى والمغولى فى البحرين ووصلنا الى القرن السادس عشر ، وجدنا محاولات واضحة للزحف على نجد من الاحساء ، فإن العثمانيين الذين غزوا منطقة الأحساء فى القرن السادس عشر لم يأبهوا فى بادىء الأمر بالجزيرة العربية ، ولكنهم سرعان ما اتجهوا لها وحاولوا تمكين نفوذهم فى أهم مناطقها (٢) ، وأصبح ذلك دستور السياسة فى منطقة الأحساء ، أى أن يتطلع حكامها الى مد نفوذهم الى نجد ، وسنروى فيما يلى نماذج من زحف قادة الأحساء إلى نجد .

---

(١) دكتور منير عجلانى : تاريخ المملكة العربية السعودية .
(٢) جون فيلبى : دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب ص ٧ .

ففى سنة ١٠٨١ غزا براك بن غرير الخالدى رئيس الحسا والقطيف بلاد نجد وعين لها ولاة من قبله •

وفى سنة ١٠٨١ عين سلامة بن صويط رئيسا لبوادى الظفير •

وفى سنة ١٠٩٨ أغار محمد آل غرير صاحب الأحساء على منطقة سبيع فى العارض وانتصر على سكانها ، وفى السنة التالية نزل هذا منطقة الخرج وحارب آل عثمان رؤساء الخرج حربا شديدة ، ولكنهم صالحوه فرجع عنهم •

وفى سنة ١١٢٦ أغار سعدون بن محمد آل غرير رئيس الحسا والقطيف هو وعبد الله بن معمر رئيس بلد العيينة على اليمامة ونهبوا منها بعض المنازل وفى سنة ١١٣٣ عاد سعدون هذا الى نجد وأمضى فصل الصيف فى العارض ، كما سار الى عقرب وإلى الدرعية ، ونهب كثيراً من البيوت •

وفى سنة ١١٨٨ سار عريعر بن دجين آل حمد الخالدى رئيس الحسا والقطيف بالجنود العظيمة من الحاضرة والبادية ، وقصد بلدة بريدة ، وأخذها عنوة ونهبها ، وقبض على أمير بريدة عبد الله الحسن وجعل راشد الدريبى أميرا لها •

وفى سنة ١١٩٦ استعان أهل القصيم بسعدون سالف الذكر ضد آل سعود ، وقد تحدثنا عن ذلك فيما قبل ويضيف الشيخ محمد عبد الله الأنصارى معلومات ذات بال عن هذه الغزوة ، إذ يقرر أن سعدون هذا حاصر بلدة بريدة ، ونزل قريبا من الزلفى وأقام عليها أياما ، ووفد عليه كثير من رؤساء بلدان نجد يعلنون الطاعة والتعاون ، كما أرسل فرقا من جنده الى مناطق متعددة فى نجد ، فأحرزت نجاحا كبيرا (١) •

(١) تحفة المستفيد : ص ١٣٠ •

وهكذا تعرضت بلاد نجد إلى ألوان من الزحف من الشرق فى فترات متتابعة على مر القرون .

زحف على نجد من الغرب :

ونجىء الآن للحديث عن الزحف الذى عانته نجد من الغرب ، أى من الحجاز ، وقد سبق أن ذكرنا أن أطماع الشرق كانت مبكرة عن أطماع الغرب ، ولكن يبدو لمن يمعن النظر أن الحجاز سبق الأحساء فى تطلعاته الى السيادة على مناطق نجـد ، ففى مطلع الإسلام وفى حياة الرسـول نفسه دخلت أرجاء الجزيرة العربية فى الإسلام وكان الرسول ــ كما قلنا من قبل ــ يقر رؤساء المدن والوفود على مكانتهم ، وقد بدأ نوع من التمرد فى أواخر حياة الرسول فى بنى حنيفة كما ذكرنا من قبل ، وبعد وفاة الرسول اتسع نطاق هذا التمرد فشمل بقاعا مختلفة فى الجزيرةـ وحمل هـذا التمرد لواء الردة والتنبؤ ومنع الزكاة وقامت العاصـمة الإسلامية بواجبها فى ردع هذا التمرد والقضاء عليه حتى عادت الجزيرة العربية الى الطاعة (١) .

وقد حرصت الحجاز بعد ذلك على القيام بهذا الدور كلما حصـل تمرد فى الداخل بشرط أن تكون الحجاز نفسها قادرة على مقاومة هـذا التمرد .

وفى بعض الحالات شغلت الحجـاز بصراع مع الخلافة الأمويـة أو العباسية ، فأتاح هذا الصراع فرصة الاستقلال التام للوحدات السياسية بنجد ، ففى عهد ثورة عبد الله بن الزبير ضد الأمويين أو ثورة الامام محمد النفس الزكية وخلفائه ضد العباسيين تم استقلال وحدات نجد عن الحجاز ، ولكنها بدأت تتعرض لزحف الشرق الذى أشرنا اليه آنفا ، فقد انتهزت الأحساء فرصة الضعف بالغرب ، وكان بالأحساء قـوى تعتبر

---

(١) انظر حديثنا عن الصراع فى الجزء الأول من هذه الموسوعة .

متمردة على الخلافة كالزنج والقرامطة ، فاتجهت هذه القوى الى غزو نجد ، على ما ذكرنا من قبل • وبخاصة أن الحجاز عقب ذلك أصبح تابعا لمصر فى أكثر الأحوال ، ولم يعد له تطلعات بقلب الجزيرة العربية ، مما أتاح لقوى الشرق أن تستبدّ بمحاولة الزحف على نجد •

ومع ظهور الأتراك العثمانيين تم فصل الحجاز عن مصر ، ثم قوى نفوذ الأشراف الذين كانوا يتولون أمر الحجاز باسم العثمانيين • وعندما أحس الأشراف بنفوذهم ، تطلعوا الى مناطق نجد وأصبحوا يعتبرون أنفسهم سادة المناطق الداخلية من الجزيرة كما يقول جون فيلبى ، وكانوا يقومون بالاغارة على هذه المناطق بغية تأديب أهلها حينا ، وملء خزائنهم بالمال حينا • وأولى هذه الغارات فيما يذكر ابن بشر تلك التى وقعت سنة (٩٨٦ هـ — ١٥٧٨ م) عندما وصل الشريف حسن أبو نمى الى الرياض بجيش عدته خمسون ألفا من الجنود ، ورابط هناك طويلا يقتل وينهب ، وحين هم الشريف بمغادرة البلاد عين من لدنه رجلا اسمه محمد ابن فضل أميرا عليها وارتهن عددا من الزعماء سجنهم عاما ، ولكنه عاد فأطلق سراحهم بعد ذلك شريطة أن يدفعوا له جزية سنوية معينة ، وبعد انقضاء ثلاث سنوات عاد الشريف نفسه فغزا نجدا ، وقد وجه اهتمامه هذه المرة الى مقاطعة الخرج ، فاحتل مدنها الرئيسية والمواقع الاستراتيجية فى المرتفعات المحيطة بها ، ثم عاد الى بلاده تاركا من ينوبون عنه فى ادارة شئون المنطقة (١) •

وبعد وفاة الشريف حسن تولى ابنه ادريس ، وفى عهده غزا شقيقه أبو طالب نجد سنة (١٠١١ هـ = ١٦٠٢ م) وانضم له ادريس فى هذه الغزوة فحقق انتصارا كبيرا ، ومات ادريس فى جبل شمر ، وتولى بعده ابن أخيه محسن إذ كان ادريس قد أشركه فى الامارة يوم تولاها ، فلما مات ادريس استبد بها محسن دون أبناء عمه ، فقد كان أقوى رجل فى

(١) دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية : ص ٧ وتاريخ بعض الحوادث الواقعة بنجد لابراهيم بن صالح ص ٤٨ •

الأشراف آنذاك ، وقد غزا نجد سنة ١٠١٥ هـ = ١٦٠٦ م ووصـل الى قرية قصب فى شعيب فاحتلها وأعمل السيف فى رقاب أهلها بوحشية ، وقد استطاع الشريف محسن أن يصل فى غزواته الى قرب الأحسـاء ، ويقول ابن بشر أنه لم يتفق لأحد من القادمين من الغرب أن يصل الى الأحساء غير الشريف محسن (١) .

وقد توفى محسن بعد غزوة الأحساء بفترة وجيزة ، فخلفه ابن عمه سعود بن ادريس ، ولكن امارة هذا لم تطل فخلفه زيد بن محسن سالف الذكر ، وقد طالت مدة زيد حتى توفى سنة ١٠٧٦ هـ = ١٦٦٥ م ، وفى عهده قام بغزو نجد عدة مرات ففى سنة ١٠٥٧ هجرية نزل روضة سدير ، وقتل أميرها ، وعين أميرا يحكم باسمه من آل أبو سعيد ، وكان قاسيا بأهل البلاد قسوة بالغة الحد ، وفى نفس العام نزل (بيان) على مشارف الرياض فسلب منها وقتل . وفى أثناء عودته زار العيينة وأخذ من أهلها مالا كثيرا وثلاثمائة جمل . وفى سنة ١٠٦٩ هجرية هاجم نجدا مرة أخرى ونزل بين التويم وجلاجل .

وفى سنة ١٠٨٤ عزا الشريف بركـات منـاطق (حَرْب) وانتصر انتصارا كبيرا على أهلها . ويقول الشيخ ابراهيم بن صالح ان خنادقهم التى حفروها لم تنفعهم ، وكانت قبورا لهم واستبيحت أموالهم وديارهم ، ونُهبت أموالهم ، وقُتل خيارهم (٢) .

وفى سنة ١٠٨٨ هـ غزا الشريف محمد الحارث منطقة « الظفير » وقتل غانم بن كاسر رئيس الفضول ، وتسمى هذه الغزوة (مناخ الضلفعة) والضلفعة ناحية من نواحى القصيم .

وفى سنة ١١٠٥ هـ هاجم سعد بن زيد صاحب مكة بلاد نجد ، ووصل

---

(١) عنوان المجد فى تاريخ نجد . جـ٤ ص ٤٠٣ .
(٢) تاريخ بعض الحوادث بنجد : ص ٦٥ بالهامش .

الى منطقة الحمادة ، وفى سنة ١١٠٧ هـ غزا الشريف سعد بلاد نجد ، ونزل روضة سدير •

وفى سنة ١١١٣ هـ هاجم الشريف الحارث منطقة « الظفير » ووقعت وقعة « السّبيع والبترا » وكان النصر فيها للشريف •

وفى سنة ١٢٠٥ هـ غزا الشريف غالب بن مساعد بلاد نجد ونهب (ضرية) وهدمها ، وهاجم (الشَعْرا) و (البرود) ولكنه لم يحقق فيهما وطرا •

وفى سنة ١٢٦٣ هـ غزا الشريف محمد بن عون بلاد نجد ووصل الى عنيزة ، فأرسل اليه الامام فيصل بن تركى هدية مع أخيه جلوى فقبلها ورجع الى مكة •

ويمكن أن يعد الزحف المصرى على نجد الذى سنتحدث عنه فيما بعد ، لونا من ألوان زحف الغرب على قلب الجزيرة العربية ، فإن محمد على احتل الحجاز أولا واتخذه مركزا لزحفه على نجد •

ولعل من آثار الزحف الخارجى على بلاد نجد تلك الكتابات الأثرية التى توجد فى عدة مناطق بنجد ، وتوحى بأنها بقايا زحف ، أو بقايا كشف على أحسن تقدير ، وقد أشارت ليدى بلنت [(١)] الى بعض هـذه الكتابات الأثرية فى رحلتها بنجد فذكرت أن هناك فى النفود بقايا بعض حروف قديمة محفورة على الصخور من نفس النوع الذى يوجد فى سيناء ، وهناك أيضا فى بلدة « عقدة » صخور من الجرانيت التى توجد كثيرا بجبال سيناء ، وعلى واحدة من هذه الصخور نقشت كتابة عربية غير جيدة الوضوح هى : « هذه خربة سنحاريب [(٢)] » وليس من المؤكد

(١) رحلة الى نجد : فى صفحات متعددة •
(٢) سنحارب ملك أشور (٧٠٥ — ٦٨١ قم) •

أن سنحاريب اتخذ يوما طريقه الى نجد ، وبخاصة أنه لم يكتب بلغته المسمارية .

وتتحدث كذلك هذه الرحالة عن تل عجيب بالقرب من حائل ينتصب وحيداً فى السهل ، وهو من الصخر الرملى مغطى بنقوش وصور طيور وحيوانات ، وبه كتابة تمتاز بالوضوح والتناسق وهى بالحروف الفينيقية القديمة ، ولعل هذه الكتابات كما تقول الرحالة كانت لجماعة من الفينيقيين التجار الذين كان من عاداتهم اقتحام هذه الفيافى لعرض تجارتهم ، أو للتعرف على إنتاج هذه المناطق ، وكانوا يتوقفون على الطريق فينقشون أسماءهم اذا وجدوا صخورا لينة ، ويرسمون بعض الحيوانات .



وهكذا تعرضت نجد إلى زحف من الغرب كما تعرضت إلى زحف من الشرق ، ولكنه كان زحفا كما حددناه من قبل لا يقصد إلا التهديد أو ضمان التبعية العامة ودفع الزكاة ، وفى كل الأحوال كانت وحدات نجد تتمتع باستقلال ذاتى ، عندما ترتبط بقوة قاهرة ، ولكن هذه الوحدات كانت تعمل على أن تستعيد استقلالها التام ، وتتخلص من كل قوة دخيلة ، فبلاد نجد — كما تقول ليدى آن بلنت — لم تخضع لحكم أجنبى ، ولم تدخل قط ضمن نطاق الامبراطوريات التى كانت تحيط بها ، وقد ظل الحرص على الاستقلال دستور الحياة فى نجد حتى جاء الاسلام فخضعت نجد للدولة الاسلامية ، ولكنها كانت أسرع أجزاء الدولة الاسلامية للعودة لاستقلالها القديم [1] .

وهكذا نجد أن تاريخ نجد فى تلك الفترة الطويلة هو تاريخ القبائل بما بها من استقلالية وصراع ، وقد أعطينا نماذج منه يمكن أن تنطبق على باقى مناطقه ، فليس تاريخ نجد مجهولا لأن هذه هى ملامحه التى

---

(١) رحلة الى نجد : ص ٢٠٩ و ٢١٠ .

لم تتخلف ، وليس تاريخ نجد معروفا لأن هذه المعرفة لا تبعث الضوء بقدر ما تبعث الأسى •

وبعد ، لقد سرنا مع نجد فى مسيرتها التاريخية عبر عـدة قرون ، ورأيناها تموج بالصراع والدم والقلق ثم انبثقت بها الدعوة الاصلاحية التى نادى بها الامام محمد بن عبد الوهاب ، وآزرتها سيوف آل سعود ، وقد آن لنا أن نتحدث عن نجد فى ظل هذا العهد الجديد فنصف ما شاهدته نجد من مد وجزر حتى أقام الملك عبد العزيز المملكة العربية السعودية ثابتة الأركان ، رفيعة البنيان ، فعمرت البلاد بالأمن والاستقرار ، وتكونت الدولة بمفهومها العلمى الدقيق •

نجد وآل سعود والدعوة الاصلاحية

أشرنا فيما سبق إلى أن العثمانيين كانوا قانعين من الجزيرة العربية بالحجاز وببعض المواقع المهمة بدائر الجزيرة ، ولم يُبدوا اهتماما يذكر بنجد ، وفى القرن الثامن عشر الميلادى انبثقت بنجد حركة جديدة استدعت قلق العثمانيين أو اضطرتهم لتغيير خططهم تجاه حكم الجزيرة العربية ، فقد ظهرت حركة دينية رفع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بها صوته والتقت هذه الدعوة الدينية بإحدى القوى الناشئة فى نجد وهى قوة السعوديين واستجاب السعوديون لدعوة الإصلاح ، وقَوِيت الدعوة بسلطة الأمير السعودى ، وقَوِىَ الأمير السعودى بالدعوة الجديدة التى نقلته من قائد حركة قبلية ككل الحركات العربية ، إلى دعوة إصلاحية بعيدة المدى ، وحركة كهذه أقضّت مضاجع العثمانيين لأنها تنافسهم السلطان ، ولأنها أيضا وصلت لهم ولأهل الحجاز مشوّهة الصورة ، وقد تسبب عن تشويه صورة الدعوة الجديدة أن قام شريف مكة سعود بن سعيد سنة ١١٦٢ هـ باعتقال الحجاج النجديين (الموحدين) حتى لا ينشروا معتقداتهم بين أهل الحجاز وبين الحجاج الآخرين ، وقد توقف حجاج نجد بعد ذلك ، أو قل مُنعوا عن أداء فريضة الحج فترة من الزمن .

وفى سنة ١١٨٣ هـ حدثت مناوشة بين النجديين وبين فرقة عسكرية تابعة لأشراف الحجاز ، واستطاعت القوة السعودية أن تعتقل رئيس فرقة الأشراف واسمه (الشريف المنصور) ، ولكن الأمير السعودى عبد العزيز أطلق سراحه بدون فدية مما دعا الى تحسين العلاقات بعض الشىء بين حكام نجد وأشراف الحجاز ، فأذن شريف مكة بالحج لأهل نجد ، بل أرسل شريف مكة أحمد بن سعيد الى السعوديين يطلب فقيها وعالما من جماعتهم ليتناقش مع شيوخ مكة حول حقيقة الدعوة ، فاختارت السلطة فى نجد الشيخ عبد العزيز الحصين ليقوم بهذا العمل ، وسافر الى مكة حيث التقى بعلمائها ، ودارت مناقشة فى أمور ثلاثة هى :

١ ـ ما نسب للموحدين من التكفير العام للمسلمين .

٢ ـ هدم القباب التى على القبور .

٣ ـ إنكار شفاعة الصالحين .

وقد استطاع الشيخ عبد العزيز أن يشرح اتجاه الموحدين شرحا وافيا فاعترف علماء مكة باستقامة حججه ولكنهم جحدوا .... [١] .

وقد كان هذا التصرف من الشريف أحمد بن سعيد مثيرا للعثمانيين ولبعض الأشراف ، مما دعا الى خلع الشريف أحمد بعد سنتين من ولايته وتعيين شريف آخر هو سرور بن مساعد ١١٨٦ هـ ورأى العثمانيون أن لابد من التدخل بالقوة لمنع الزحف السعودى على الحجاز إذ كان الحجاز بطبيعة الحال شديد الأهمية فى نظر الأتراك العثمانيين ، وبدأ بذلك صراع طويل بين السعوديين وبين العثمانيين جعل العثمانيين يحاولون مد سلطانهم إلى نجد ، وكانوا ينتصرون أحيانا ويتراجعون أحيانا ، ويتخذون من مصر والعراق والحجاز مراكز لهجومهم على نجد ، أو يتخذون أحيانا بعض القوى القبلية بالجزيرة أداة ضد السعوديين ، كما أصبح السعوديون أكثر من قوة قبلية ، بل دعوة إصلاحية كبرى تعمل على مد نفوذها ونشر مبادئها فى الجزيرة العربية وخارجها

ولتوضيح هذا الصراع يجدر بنا أن نتجه بحديثنا إلى القوة السعودية التى ستصبح لها الغلبة فى النهاية ، لنرى كيف انبثقت هذه القوة ، وأدوار الحياة التى أحاطت بها ما بين عسر ويسر ، وماذا حدث بينها وبين العثمانيين وسواهم من القوى التى صارعتهم بالجزيرة العربية

---

(١) ابن غنام : روضة الأفكار جـ٢ ص ٩٢ .

السعوديون *

الأمير سعود :

يستمد السعوديون تسميتهم من جدهم سَعود بن محمد بن مُقْرِن ، ويُعَد سعود هذا هو المؤسس الأول للأسرة السعودية ، على أن مقرن جد الأمير سعود ينسب له حادث مهم هو الاستقرار فى وادى حنيفة ، وكان لأجداد السعوديين ارتباط ببلدة « داريا » على الخليج ، ولهذا أطلقوا على مقرهم الجديد فى وادى حنيفة اسم « داريا » وقد عرفت فيما بعد باسم « الدرعية [1] » .

وكانت الأسرة قبل أن يستقر مقرن فى « داريا » تتحرك فى أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية طلبا للماء والكلأ فنزلت حينا خيبر وحينا تيماء ، ومدائن صالح والمدينة المنورة ، ونواحى مختلفة فى نجد ، ثم استقر مقرن فى الدرعية ، ولا يعد مقرن مؤسسا للملك السعودى ، لأن استقراره كان أشبه باستقرار القبائل الذى يحصل من حين إلى حين ، أما الأمير سعود فقد ثبت استقراره فى الدرعية ، وبنى بها دار إمارة ،

---

* هناك مراجع كثيرة عن تاريخ السعوديين منها :

حافظ وهبة	جزيرة العرب فى القرن العشرين
صلاح الدين المختار	تاريخ المملكة العربية السعودية فى ماضيها وحاضرها
فؤاد حمزة	قلب جزيرة العرب
حسين غنام	تاريخ نجد
عثمان بن بشر	عنوان المجد فى تاريخ نجد
محمد طارق الافريقى	المملكة العربية السعودية بين الأمس واليوم
جمال الدين الشعرانى	التاريخ السياسى للمملكة العربية السعودية
محمود شكرى الألوسى	تاريخ نجد
John Philby	تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية .
محمد عسه	معجزة فوق الرمال
كارل توتشل	المملكة العربية السعودية
ابراهيم بن صالح	تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد

(١) تقويم البدان الاسلامية ص ٢٨٧ .

ومدّ نفوذه الى ما جاورها من واحات ، وكان ذلك أساس الملك السعودى فلا عجب أن تستمد هذه الدولة اسمها من هذا الأمير الذكى الطموح .

وأمراء السعوديين وملوكهم هم الآتى :

الدولة السعودية الأولى :

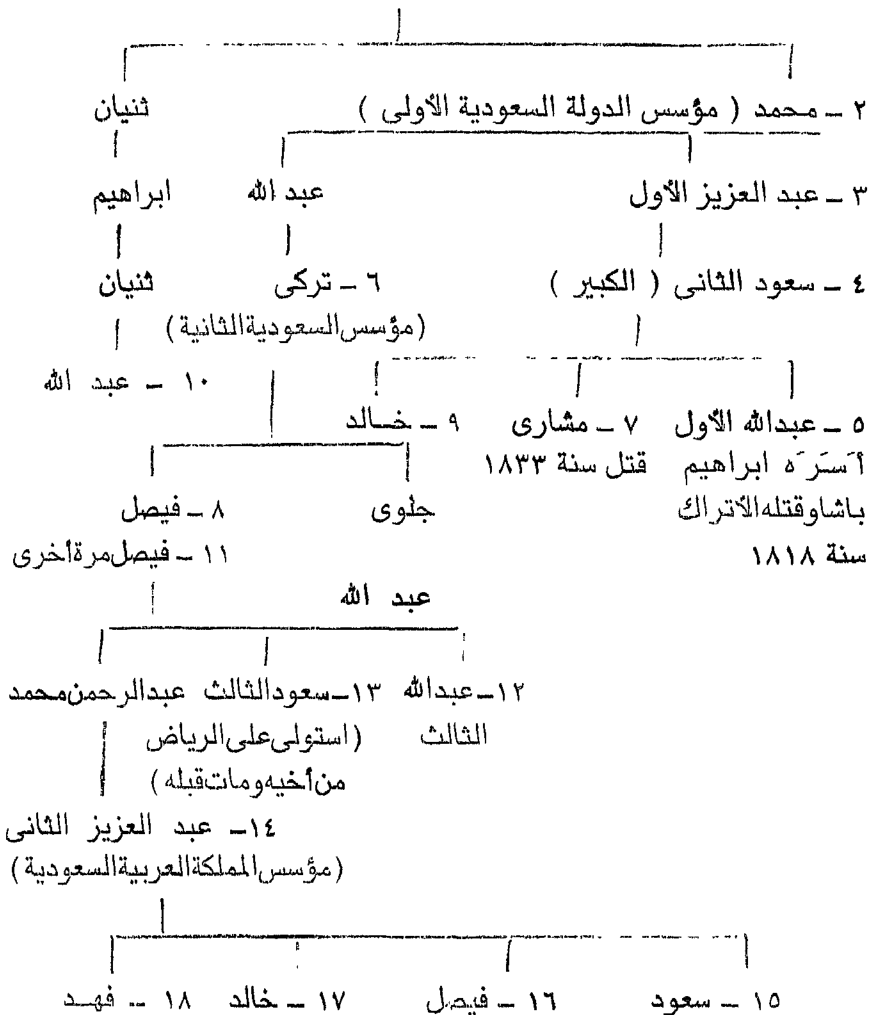
١ — سعود	إلى ١١٣٧ هـ
٢ — محمد بن سعود	من ١١٣٧ هـ = ١٧٢٤ م
٣ — عبد العزيز الأول	من ١١٧٩ هـ = ١٧٦٥ م
٤ — سعود الثانى (الكبير)	من ١٢١٨ هـ = ١٨٠٣ م
٥ — عبد الله الأول	من ١٢٣٠ هـ = ١٨١٤ م

الدولة السعودية الثانية :

٦ — تركى	من ١٢٣٤ هـ = ١٨١٨ م
٧ — مشارى	من ١٢٤٩ هـ = ١٨٣٣ م
٨ — فيصل	من ١٢٥٠ هـ = ١٨٣٤ م
٩ — خالد	من ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م
١٠ — عبد الله الثانى	من ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م
١١ — فيصل (مرة أخرى)	من ١٢٥٩ هـ = ١٨٤٣ م
١٢ — عبد الله الثالث	من ١٢٨١ هـ = ١٨٦٤ م
١٣ — سعود الثالث	(استولى على الرياض فترة من أخيه عبد الله ثم مات قبله)

الدولة السعودية الثالثة :

١٤ — عبد العزيز الثانى	من ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م
١٥ — سعود بن عبد العزيز	من ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٣ م
١٦ — فيصل بن عبد العزيز	من ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م
١٧ — خالد بن عبد العزيز	من ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م
١٨ — فهد بن عبد العزيز	من ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م


١ ـ سعود
٢ ـ محمد (مؤسس الدولة السعودية الأولى)
ثنيان
٣ ـ عبد العزيز الأول
عبد الله
ابراهيم
٤ ـ سعود الثانى (الكبير)
٦ ـ تركى
(مؤسس السعودية الثانية)
ثنيان
١٠ ـ عبد الله
٥ ـ عبدالله الأول
أسره ابراهيم
باشاوقتله الاتراك
سنة ١٨١٨
٧ ـ مشارى
قتل سنة ١٨٣٣
٩ ـ خالد
جلوى
٨ ـ فيصل
١١ ـ فيصل مرة اخرى
عبد الله
١٢ـ عبدالله
الثالث
١٣ـ سعود الثالث
(استولى على الرياض
من أخيه ومات قبله)
عبدالرحمن
محمد
١٤ـ عبد العزيز الثانى
(مؤسس المملكة العربية السعودية)
١٥ ـ سعود
١٦ ـ فيصل
١٧ ـ خالد
١٨ ـ فهد

وقد كتب على هؤلاء السعوديين أن يصارعوا فى عدة جبهات ، وأن يحققوا أحيانا نجاحا معجزا ، وتنزل بهم أحيانا هزائم قاصمة ، ولكنهم بقوا وانتهى الآخرون ، وامتد ملكهم فابتلع المملكة الحجازية والإمارة الرشيدية ، والإمارة الادريسية ، وإمارات آل عائض تلك الإمارات التى تخلفت بالجزيرة عن عهد الأتراك العثمانيين كما سنرى .

وهكذا ورث تيار الحياة السعودى الجميع ، وعاش يتدفق فى حين نضبت الفروع الأخرى ، وهوت الى الأبد .

الدولة السعودية الأولى

محمد بن سعود :

إذا كان الأمير سعود هو الذى وضع الأساس للمملكة السعودية فإن الذى رفع البناء هو ابنه محمد أو قل بوجه أدق هو الارتباط بين القوة السعودية والفكر الإصلاحى الذى حمل لواءه الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فعندما لجأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية واعتنق محمد بن سعود مذهبه تغير وجه الزحف السعودى فأصبح دينيا فكريا بعد أن كان قبليا ، ويقول الأستاذ حافظ وهبه [١] : قبل سنة ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ م) وهى السنة التى وفد فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح الكبير على محمد بن سعود لم يكن لآل سعود شأن كبير فى نجد ، ولم يكن لهم دور يذكر فى شئون الجزيرة ، بل كان شأنهم شأن غيرهم من شيوخ المقاطعات النجدية ، وكانت الجزيرة العربية مقسمة الى مناطق عدة ، لكل منطقة أمير يمتد نفوذه أو يقصر ، حسب كفاءته الشخصية وهمته ، والأمراء البارزون فى ذلك هم أمراء الحجاز وبنو خالد فى الأحساء وما والاها على الخليج ، وآل معمر فى العيينة ، والسعدون فى العراق ، وإمام صنعاء فى اليمن ، والسادة فى نجران ، والبوسعيديون وسواهم فى

---

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

مسقط وعمان ، وبعد أن تعاهد محمد بن سعود مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب على تطهير جزيرة العرب من البدع والخرافات التى كانت شائعة بها ، وعلى نشر كلمة التوحيد وقفت نجد أو بالأحرى وقفت الدرعية ضد سائر المدن والإمارات الأخرى ، وبدأت حرب دينية دامية كان النصر فيها لجيوش التوحيد ودعاة الإصلاح •

ويجدر بنا أن نتوقف هنا لنتعرف على الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأفكاره :

الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته

إذا كانت مصر سنية تعتنق مذهب الإمام الشافعى غالبا ، وإذا كان الشمال الأفريقى سنيا يتبع مذهب الإمام مالك غالبا ، وإذا كانت إيران شيعية •• وهكذا فإن الجزيرة العربية مهد الإسلام لم تكن على هذا المذهب أو ذلك ، بل عششت بها بقايا أفكار وحثالة اتجاهات ، يقول Gerald de Gaury [1] : كانت الجزيرة العربية أكثر البقاع الإسلامية بعداً عن المذاهب الإسلامية وجريا خلف التطرف من أى اتجاه ، ويصدق هذا على نجران والجوف ، والأحساء ونجد وغيرها •

وقد سبق أن اقتبسنا من المقدسى تصويره للتفكك الفكرى بالجزيرة العربية ، وكيف عششت بها بقايا المذاهب المتطرفة والاتجاهات الشاذة ، ونتجه الآن لمؤرخى نجد لنقتبس منهم مزيدا من التفصيل عن الانحرافات الفكرية فى نجد والجزيرة العربية حتى قيام دعوة الإصلاح •

يقول الشيخ حسين بن غنام :

كان كثير من المسلمين فى مطلع القرن الثانى الهجرى قد اركسوا فى الشرك وارتدوا الى الجاهلية ، وانطفأ فى نفوسهم نور الهدى لغلبة

---

(١) Rulers of Mecca p. 55.

الجهل عليهم ، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين ؛ أمواتهم وأحيائهم ليستشفعوا بهم فى النوازل ويستعينوهم على قضاء الحاجات ، وتفريج الشدائد ، بل إن كثيرا منهم كان يرى فى الجمادات كالأشجار والأحجار القدرة على تقديم النفع ودفع الضرر (١) .

وكان فى بلاد نجد من ذلك أمر عظيم وهول مقيم ، كان الناس يقصدون قبر زيد بن الخطاب فى الجُبَيْلة يدعونه لتفريج الكرب ، وكشف النوب ، وقضاء الحاجات ، وكانت فى الدرعية قبور بعض الصحابة ، وقد عكف أهل البلاد على عبادتها وصارت هذه القبور فى صدورهم أعظم من الله خوفا ورهبة (٢) .

وتحدث المؤلف عن نظائر لذلك فى شعيب وبليدة والطرفية وعن غار أسفل الدرعية ، وبعض الطواغيت ممن كانوا يُعَدّون أولياء (٣) .

وانثنى إلى الحرم المكى ليذكر أن ما يُفعل به يزيد على غيره ، فإن جماعات الأعراب يأتون فيه بألوان من الفسوق والضلال (٤) .

وتحدث عما يُفعل عند قبة أبى طالب وقبر ميمونة بنت الحارث فى سَرِف ، وقبر عبد الله بن عباس فى الطائف وقبر الرسول فى المدينة من ضلالات وانحرافات (٥) .

ولم يكتف الشيخ حسين بن غنام بنجد والحجاز ، بل تكلم عن انحرافات وأضاليل مشابهة فى كثير من الأقطار الإسلامية وأفاض فى

---

(١) تاريخ نجد ص ١٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١١ .
(٣) المرجع السابق ص ١١ ــ ١٢ .
(٤) المرجع السابق ص ١٣ .
(٥) المرجع السابق ص ١٤ .

الكلام عما يتبع عند قبر الإمام على كرم الله وجهه ، ومشهد الإمام الحسين ، ومشهد الإمام الكاظم »

ويقول الشيخ عثمان بن بشر النجدى (١) :

كان الشرك قد فشا فى نجد وغيرها ، وكثر الاعتقاد فى الأشجار والأحجار ، والقبور والبناء والتبرك بها والنذر لها ، والاستعانة بالجن والذبح لهم ، ووضع الطعام لهم فى زوايا البيوت لشفاء مرضاهم ونفعهم وضرهم ، وكثر الحلف بغير الله ، وغير ذلك من الشرك الأصغر والأكبر ، ويذكرون من أمثلة ذلك أنهم كانوا فى الجبيلة يقصدون قبر زيد بن الخطاب باعتباره موئلا يحسّن الأحوال ، ويجيب فى الملمّات ، كما كان سكان بلدة « منفوحة » عندهم فحل نخل تؤمه العوانس ليتزوجن ، وكن يهتفن به : يا فحل الفحول أريد زوجا قبل الحول •

هذا من الناحية الدينية ، أما من الناحية السياسية فقد عادت الجزيرة العربية الى فترة الجاهلية الأولى ، وتجددت فيها الحياة القبلية ، وعادت الحروب تأكل كل البشر والحيوان والنبات ، ولم تكن هناك شريعة أو قانون الا ما تقضى به أهواء الأمراء وعمالهم •

وكان هذا مؤلما حقا أن يصير الموطن الأول للدعوة الإسلامية على هذا النمط ، فقيض الله فكر الشيخ وسيف الأمير للقضاء على هذا الباطل •

مولد الشيخ وتحركاته :

وقد ولد الشيخ محمد سنة ١١١٥ هـ (١٧٠٣ م) فى بلدة العيينة بنجد ، وكان والده الشيخ عبد الوهاب من العلماء ، وكان قاضيا للعيينة فى عهد أميرها عبد الله بن معمر ، وحفظ الشيخ محمد القرآن الكريم فى مطلع العمر ، وقرأ على أبيه كثيرا من الكتب فى العلوم الإسلامية ، ولما

---

(١) عنوان المجد فى تاريخ نجد ص ١٦ •

اشتد عوده راح يطوف بالبلاد ليلتقى بالعلماء وليأخذ عنهم ، فذهب الى مكة حاجا وطالب علم ، كما سار الى المدينة حيث جلس فى حلقة الشيخ عبد الله بن ابراهيم من آل سيف رؤساء بلدة « المجمعة » بالقرب من سدير [١] ، كما أخذ العلم عن العلامة محمد المدنى ، ثم ذهب إلى البصرة وقرأ على الشيخ محمد المجموعى فى بلدة « المجموعــة » فى ضــواحى البصرة ، وامتدت رحلاته العلمية فشملت بغداد وكردستان ، وهمــذان واصفهان ، ودرس الشيخ — كما يقول الأستاذ أحمد أمين [٢] — فلسفة الإشراق والتصوف ثم رحل إلى « قم » حيث التقى كذلك بعلمائها .

وعندما كان الشيخ فى البصرة أحسّ أنه أصبح على درجة من العلم يستطيع بها أن يتكلم وأن يعطى بعد أن أخذ كثيرا ، فبــدأ يجهر ناقــدا الضلال الذى يراه هنا وهناك ، والانحراف الذى يبْعد الناس عن الدين الصحيح بل بدأ يقرر أن الدعوة للحق إلزام ، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب ، وأن السكوت على هذا الإثم إثم كبير .

وأثار هذا الاتجاه الناس على الشيخ ، وتجمع أهل البصرة عليه ، وألحقوا به الأذى وطردوه .

وكان هذا أول امتحان يمر به الشيخ فإما أن يصمد وإما أن ينهار ويستسلم ويكتفى بالسخط بقلبه وهو أضعف الايمان ، ولكن الشيخ رحب بالأذى وقرر أن يدخل المعمعة ، فإما أن ينتصر وإما أن يموت فى سبيل الله .

وغادر البصرة حيث استكمل جولته ، ثم هبط إلى نجد بعد العناء الطويل الذى تعرض فيه للبطش والعدوان ، ونزل فى الاحساء على الشيخ عبد الله بن محمد الشافعى الأحسائى ثم رحل الى بلدة « حُرَيْملة » التى اتخذها أبوه مقرا له بعد أن ترك العيينة إثر خلاف بينه وبين واليها ،

---

(١) الشهاب : لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب ص ١١٤ .
(٢) زعماء الاصلاح ص ٧ .

وفى الحريملة عاد الشيخ محمد يتدارس مع أبيه علوم الدين ، ويجهر بضرورة تغيير الحال المنحرف فى تلك البقاع ، وتوفى والده سنة ١١٥٣ هـ (١٧٤٠ م) فأصبحت التبعة الفكرية ملقاه على الشيخ محمد الذى منعه إجلاله لأبيه أن يسبقه فى حياته إلى الجهر بدعوة يعتنقانها جميعا .

وكان فى حريملة ظروف دعت إلى سرعة الجهر بالدعوة ، فقد كانت تعيش فيها قبيلتان دون أن يكون بالبلدة رئيس عام ، واحدى القبيلتين تملك طائفة من العبيد الذين أظهروا العدوان وأكثروا الفسق والفجور ، فصرخ الشيخ بأن هذا منكر ينبغى القضاء عليه ، فثار عليه العبيد وقرروا الفتك به ، ولكن بعض الناس حموه وساعدوه على الخروج من حريملة سالما (١) .

ومن حريملة اتجه الشيخ الى العيينة مسقط رأسه ، فرحب به رئيسها عثمان بن حمد بن معمر ، وزوجه قريبته (الجوهرة) وعرض الشيخ على عثمان فكره وقرر له حقيقة التوحيد وحدوده ، وما ينقضه ، ودعاه إلى اعتناق هذا الاتجاه وقال له : أرجو إن قمت بنصرة لا إله إلا الله أن يظهرك الله وتملك جميع بلاد نجد ، فقبل عثمان دعوته ووعده بالعون والمساعدة ، وجهر الشيخ بدعوته فاعتنقها عدد كبير من الرجال بالبلدة ، واتجهت جموع الشيخ الى القباب التى كانت على شهداء معركة اليمامة فهدموها وبخاصة التى كانت على زيد بن الخطاب ، كما قطع الشيخ وأعوانه أشجارا كان الناس يعظمونها وينذرون لها ، وشرع الشيخ فى إقامة الحدود الشرعية وكانت معطلة ، فقضى بالإعدام رجما على امرأة زنت واعترفت بالخطيئة دون أن تكره عليها .

وأمر الشيخ عثمان بن معمر بإحياء الصلوات مع الجماعة وعيّنت للمتخلفين عقوبات ، وألغى الشيخ الضرائب الجائرة والرسوم التى كان

---

(١) الشيخ حسين بن غنام : عنوان المجد ص ٧٨ وصلاح الدين مختار تاريخ المملكة العربية السعودية ص ٣٧ .

يأخذها الأمراء من الرعية ، ولم يسمح الا بأخذ الزكاة فقط على أن تصرف فى مصارفها ، واستجاب عثمان بن معمر لهذه الاتجاهات القويمة وعمل على نشرها (١) .

ولكن الرواة والمغرضين شوهوا هذه الدعوة ونقلوها مشوهة إلى حاكم الأحساء سليمان بن محمد الذى كان سلطانه قد امتد الى كثير من بلاد نجد بما فى ذلك العيينة ، وكان لابن معمر مرتب سنوى عنده باعتباره أميرا تابعا له ، فكتب اليه يقول : « ان المطوع الذى عندك قد فعل كذا وكذا من المنكر فاقتله ، فإن لم تفعل قطعنا خراجك » ، واضطرب أمير العيينة لرسالة الأحساء ، وأحس الشيخ بذلك فاتجه الى الأمير يقول له إن هذا الذى قمت به ودعوت له هو ركن الإسلام ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وان أنت تمسكت بذلك وأظهرته ، فإن الله يظهرك على أعدائك . فلا تنزعج بقول سليمان ولا تفزع منه .

ولكن عبد الله بن معمر لم يصغ الى الشيخ ، وان كان لم يقتله . وأرسل له يقول : ان سليمان أمرنا بقتلك ولا نقدر على غضبه ولا مخالفة أمره لأنه لا طاقة لنا بحربه وليس من الشيم والمروءة أن نقتلك فى بلادنا ، فشأنك ونفسك وخل بلادنا » .

وهكذا لم يستطع عثمان أن ينفذ الأمر أو يرفضه فلجأ إلى الحل الوسط بأن أوعز الى الشيخ بالهرب فاتجه الشيخ الى الدرعية ونزل دار تلميذه محمد بن سويلم العرينى ووصلت أخباره الى رئيس الدرعية محمد ابن سعود بن مقرن ثانى أمراء السعوديين وعرفت زوجة الأمير (موضى بنت أبى وطبان) خبر مجىء الشيخ إلى الدرعية وكانت ذات عقل وروية ، فأشارت على زوجها بمقابلة الشيخ وإيوائه ومؤازرته ، فقبل نصيحتها وزار الشيخ ، وقال له أبشر ببلد خير من بلدك وأبشر بالعز والمنعة ، فأجابه

---

(١) مسعود الندوى : محمد بن عبد الوهاب ص ٤٧ .

الشيخ : وأنا أبشرك بالعز والتمكين لأن من قام بنصر الحق فهو منصور وكلمة" لا إله إلا الله من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك" العباد . فبسط محمد بن سعود له يده وبايعه على النصرة والمنعة والجهاد فى سبيل الله (١) .

السيدة موضى :

وقبل أن نتجه إلى أفكار محمد بن عبد الوهاب يجدر بنا أن نقول عن السيدة الفاضلة حرم الإمام محمد بن سعود ، إنها كانت نقطة انتقال بالفكر الإصلاحى من الضعف إلى القوة مما يدل على أننا يوم نعلم النساء سنكسب كثيرا ، فالمرأة العاقلة لها تأثير عظيم على زوجها وعلى أولادها .

أفكار محمد بن عبد الوهاب :

بعد هذا الحديث عن شخصية الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتكوينه العلمى ، ينبغى أن نقف وقفة قصيرة نعطى فيها مزيدا من التعريف بأفكار الشيخ ، وعلى العموم كان الشيخ يتخذ من ابن تيمية رائدا له ، ولهذا يجمل بنا أن نعود الى كتب ابن تيمية لنستقى منها صورة للأفكار التى اقتبسها محمد بن عبد الوهاب ، وسار على هديها بنفس التشدد الذى سار عليه ابن تيمية ، بل بأكثر منه فى بعض الأحوال ، وأبرز اتجاهات ابن تيمية من أقواله هى :

أولا — بنى ابن تيمية فقهه على الكتاب والسنة ، واتجاهات السلف الصالح ، فقد فكر فى القرآن الكريم ، وتعلم على مائدته ، واجتهد فى استخراج فقهه ومعانيه ، وتعرف أحكامه ومراميه ، ولجأ الى محمد صلوات الله وسلامه عليه فى شرح كتاب الله ، كما اعتمد على من تخرجوا عليه ، ونهلوا من ينبوعه وهم الصحابة والتابعون ، وبهذا لم يتبع من الرجال

(١) تحفة المستفيد للشيخ محمد بن عبد الله الأنصارى ص ١٢٦ و ١٢٧ وعنوان المجد لابن بشر من ص ١ الى ص ١١ وتاريخ نجد للشيخ حسين بن غنام .

إلا السلف الصالح ، وهو فى ذلك يقول : « إن دلالة الكتاب والسنة على أصول الدين ليست بمجرد الخبر كما تظنه طائفة من المغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم ، بل الكتاب والسنة دلاّ الخلق وهدياهم الى البراهين والأدلة المبيّنة لأصول الدين (١) ويقول كذلك فى مناظرته فى العقيدة : قد أمهلت من خالفنى فى شىء ثلاث سنين فإن جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة الأولى يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن رأيى (٢) .

وعلى هذا كان ابن تيمية — كما يقول الشيخ أبو زهرة — حر التفكير من كل قيد إلا الكتاب والسنة ، وآثار السلف الصالح ، كان فى نشأته حنبليا ، ولكنه ما إن شب عن الطوق حتى درس المذاهب الإسلامية كلها . واقتبس منها ، وأضاف لها (٣) .

ثانيا — اهتم ابن تيمية اهتماما كبيرا بقضية التوحيد ، وتشدد فيها ، ورأى أن الوحدانية الله سبحانه وتعالى تشمل وحدانية الذات والصفات ، كما تشمل وحدانية العبادة ، وذكر أن وحدانية العبادة تقتضى أن نعبد الله ولا نشرك به سواه ، وقرر أن الدعاء من جملة العبادات ، فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم كان مبتدعا فى الدين مشركا برب العالمين ، متّبعا غير سبيل المؤمنين ، ومن سأل الله بالمخلوقين أو أقسم عليه كان مبتدعا بدعة ما أنزل الله بها من سلطان (٤) وبنى على هذا منع التقرب الى الله بالصالحين والأولياء ، والتوسل بالموتى وزيارة القبور ، ويروى فى هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « انه لا يستغاث بى وانما يستغاث بالله » وذكر ابن تيمية أن الطلب من الأنبياء والصالحين لم يفعله

---

(١) رسالة معراج الوصول فى مجموعة الرسائل الكبرى ص ١٨٣ .
(٢) العقيدة الواسطية جـ ٢ ص ٤٠٩ من مجموع الرسائل .
(٣) الشيخ محمد أبو زهرة : ابن تيمية ص ٢١٤ .
(٤) ابن تيمية : قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ١٠٢ .

أحد من السلف ، وهو ذريعــة الى الشرك بخلاف الطلب من أحــدهم فى حياته فإنه لا يفضى إلى الشرك (١) .

وربط بين هذا وبين النذور فانطلق يقول : ومن اعتقد أن فى النذور والقبور نفعا أو أجرا فهو ضال جاهل ، وإن من يعتقد أنها تكشف الضر وتفتح الرزق فهو كافر مشرك يجب قتله (٢) .

ثالثا — يتجه ابن تيمية إلى ترك الغلو فى الرسول صلوات الله وسلامه عليه والاكتفاء بالاهتداء بهديه ، ويجيز زيارة قبره صلوات الله عليه لأن زيارة القبور بوجه عام جائزة للعبرة والاتعاظ ، ولكن عــلى ألا تتجه الزيارة للتمسح والطلب ، فقد عدّ ذلك نوعا من الشرك .

ويذكر الشيخ حافظ وهبة أن الوهابيين تكاد تعليماتهم تكون مطابقة لمــا كتبه ابن تيمية ، وأنهم لا يختلفون معه إلا فى بعض الفروع ، وتشدد الوهابيون فى تفسير التمسح بالقبور ، وعدّوا ذلك شركا ، كما عــدوا الاستشفاع بالرسول والهتاف بالأولياء لرفع غمّة شركا ، وحاربوا الموالد وألزموا بجهاد من يعمل هذه الأشياء ، وفسروا قول الرسول عليه السلام « من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم ماله ودمه » بأن ذلك مشروط بالعمل الذى تستلزمه هذه الشهادة ، أما اذا قال ذلك وعمل بسواه أى استشفع بالأنبياء ، أو دعا الموتى فهو كافر حلال الدم (٣) .

وأعلن الشيخ الحرب على البدع الشائعة فى الأمصار مثل قراءة مولد الرسول والزيادات فى الأذان ، وخروج النساء وراء الجنائز وإحيــاء موالد الأولياء ، ومثل ما يفعله بعض الدراويش من الأذكار مــع الدّف والمزمار (٤) .

---

(١) ابن تيمية : قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ص ١١٣ .
(٢) مجموعة الرسائل والمسائل جـ ١ ص ٥٥ .
(٣) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣٣٩ الى ٣٤١ .
(٤) حافظ وهبة : جزيرة العرب ص ٢٤٠ — ٣٤١ .

ودعاة هذه الدعوة يحرصون أشد الحرص على تنفيذ أحكام الشريعة مثل تحريم لبس الحرير للرجال ، وتحليهم بالذهب ، كما يحرمون التدخين والتصوير ، ويكرهون الموسيقى [١] .

وعلى العموم لقد كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب فى أصولها سلفية حنبلية ، وكانت فى إجمال دقيق ترى التوحيد أساس الإسلام ، وترى اللجوء للقباب والأضرحة شركا عم بلاؤه وانتشر ، وهناك نوع آخر من الفكر عدّه الشيخ شركا ، أو قريبا من الشرك وهو التشريعات الباطلة . ومن هذه التشريعات الذبح للقبور والنذور لها ، والتوسل الى الله بها . **ومثل هذه التشريعات المنحرفة لابدّ أن ترفض لأنها بعيدة عن العقيدة الصحيحة ورأى الشيخ أن خضوع نفوس المسلمين إلى هذه المعبودات التافهة ، وانحناءها لها خاشعةً طائعة هو الذى دفع هذه النفوس الضعيفة لتنحنى أمام الحكام الظالمين ، وتتقبّل كل جورهم وانحرافهم ، وليس هذا وذاك من التعاليم الإسلامية فى شئ .**

ومن أجل عناية الشيخ بالتوحيد سُمّى هو واتباعه « بالموحدين » أما اسم « الوهابية » فقد أطلقه عليهم خصومهم حتى يحرموهم من اللقب الذى يمثل اتجاههم .

مزيد من التفصيل

عن فقه الدعوة واتجاهها العقائدى

بقى بعد ذلك أن نذكر بعض التفاصيل عن الاتجاهات المحددة للشيخ محمد بن عبد الوهاب فى المجالات الفقهية والعقائدية .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤٣ .

المذهب الفقهى :

كان الشيخ يستمد مذهبه الفقهى من الكتاب والسنة واتباع السلف الصالح ، وكان فى الفروع الفقهية يتبع مذهب الامام أحمد بن حنبل ، ولكنه كان إذا وجد حديثا صحيحا يخالف مذهب الامام ابن حنبل ، فإنه يتبع الحديث ، ولا يقدّم عليه قولَ باحث ، وهو فى ذلك يقول : وأما مذهبنا فمذهب الامام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة ، وذلك فى الفروع ، ولا ندعى الاجتهاد ، واذا بانت لنا سنة صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عملنا بها ، ولا نقدم عليها قول أحد كائنا من كان [١] .

وعن علاقته بفكر ابن تيمية وابن القيم يقول : الامام ابن القيم وشيخه إماما حقٌ من أهل السنة ، وكتبهما عندنا من أعز الكتب ، إلا أنا غير مقلدين فى كل مسألة [٢] .

العقـــــائد :

يتبع الشيخ فى العقائد مذهب السلف ، وهو إقرار ما ورد من الصفات الإلهية فى القرآن والأحاديث الصحيحة ، والإيمان بظاهره مع نفى الكيفية ، وهو فى هذا يتبع مذهب ابن تيمية الذى يقول : ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن نَصِفَ الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه رسول الله صلوات الله عليه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، فلا يجوز نفى صفات الله تعالى التى وصف بها نفسه ، ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه ليس كمثله شىء فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، وقد عبر الامام مالك عن رأى السلف أدق تعبير عند تفسير قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة [٣] .

---

(١) سليمان بن سحمان : الهدية السنية ص ٩٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٣ .
(٣) الشيخ نعمان خير الدين الألوسى : جلاء العينين ص ٢١٢ وانظر محمد بن عبد الوهاب للأستاذ مسعود الندوى ص ١٨٣ — ١٨٤ .

التوحيـــد :

يقول الأستاذ مسعود الندوى [1] : لقد اهتم الشيخ اهتماما بالغا فى جميع كتبه ورسائله بالتوحيد ، بل إن كتبه كلها ليس بها إلا التوحيد ، فقد كان شعاره (لا إله إلا الله) وكان يوضح معانى هذه الجملة لكل إنسان ويسعى إلى ترسيخ حقيقتها فى الأذهان ، ولذلك سميت الدعوة بدعـــوة الموحدين .

وبناء على اتجاه التوحيد يرى الشيخ أن الأمور الآتية تبعد عـــن التوحيد وتقرب من الشرك وهى :

١ ـــ دعاء غير الله فى المصائب أو دعاء غير الله مع الله .

٢ ـــ الاستغاثة أى طلب الغوث من غير الله .

٣ ـــ التوسل الى الله تعالى بالأنبياء والصالحين ، فهذا التوسل كأنه يحلف على الله بهؤلاء ، وليس ذلك مأثورا .

٤ ـــ الاستعاذة : أى لا يجوز الاستعاذة بشىء من المخلوقين أو المخلوقات ، وتكون الاستعاذة بالله وأسمائه وصفاته فقط .

٥ ـــ الحلف بغير الله فذلك ينافى التوحيد .

٦ ـــ زيارة القبور لدعاء الموتى وللشفاعة بهم ، أما زيارة القبور للعظة والعبرة فهى مأثورة .

ومما يتصل بذلك عدم جواز بناء المساجد على القبور ، ولا بناء القباب عليها ، فهذا منكر يوجب الشيخ إزالته ، وقد سبق أن شرحنا ذلك .

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٦ وما بعدها بإيجاز .

نقـــد دعــوة الاصلاح :

اتجه كثير من الناس إلى نقد الدعوة الإصلاحية ، واشتط بعضهم فى نقدها شططا قاسيا ، ولــم يكتف بعض الناس بالنقــد بل اختلقوا الاتهامات والأكاذيب ضد الدعوة ، وقد شاع عن دعوة الإصلاح أنهــا متشددة ، تكفّر الكثيرين من المسلمين وترى فى زيارة القبور للاستشفاع كفرا واضحا ، ويدافع أحد دعاة الموحدين عنهم بقوله (١) : لم يكفر شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمــه الله إلا عبّاد الأوثان من دعــاة الأولياء والصالحين وغيرهم ممن أشرك بالله وجعل له أندادا ، بعد إقامة الحجة ووضوح المحجة ، وبعد أن بدأوه بالقتال فحينئذ قاتلهم ، وسفك دماءهم ، ونهب أموالهم •

وقد سبق أن اقتبسنا من الشيخ حسين بن غنام ، ومن الشيخ عثمان ابن بشر وصفهما لبعض أهل نجد الذين كانوا يعظمون مقبرة زيد بــن الخطاب وسواها ويقفون منها موقف العبّاد ، ولا شك أن الشيخ تأثر فى أحكامه باتجاهات هؤلاء ، ومن الحق أن أقرر بتجربة قمت بها فى مصر مرتبطة بالوفود التى تزور الصالحين فى مصر كالامام الحسين والسيدة زينب وغيرهما ، وقد سألت كثيرين من هؤلاء الروّاد عن مدى اعتقادهم فى مكان صاحب الضريح وإمكان أن ينفع وأن يضر ؟ فاتضح لى أنهم جميعا بدون استثناء بعيدون كل البعد عن الشرك بالله ، وأنهم مؤمنون تماما بوحدانية الله ، وأن الله وحده هو الذى ينفع ويضر ، ولكنهم يستشفعون بصاحب الضريح ، أخذا من قوله تعالى « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه (٢) » فهم يأملون أن يكون صاحب الضريح ممن يؤذن لهم فى الشفاعة ، وإذا كان هؤلاء مخطئين فى هذا الأمل فإن ذلك لا يدفعهم إلى نطاق الشرك ماداموا بعيدين تماما عنه ، ومؤمنين بوحدانية الله وبأنه وحده الذى يدبّر الأمر •

---

(١) الشيخ سليمان بن سحمان : تبرئة الشيخين الإمامين ص ٨٦ •

(٢) آية الكرسى من سورة البقرة •

وعلى كل حال فقد تعرضت دعوة الاصلاح الى هجوم قاس من أعدائها وألّف بعضهم الكتب والرسائل فى مناقشة المسائل التى آثارها الشيخ وتفنيد اتجاهاته . وقد كان منهم أخو الشيخ (سليمان بن عبد الوهاب) الذى عارضه بقسوة ، وألف فى الرد على مبادىء الشيخ كتابا اسمه (الصواعق الإلهية فى الرد على الوهابية) ولكنه عاد وتاب وأناب سنة ١١٩٠ هـ كما يقول ابن غنام [١] .

وفى ختام هذه الدراسة نورد نقداً أورده المؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى وفيه يقول :

« الفكرة التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب فى أصلها وفى جوهرها فكرة صحيحة ، ولكنه غلا فيها وتشدد ، حتى صار أساسها تكفير كل من لم يأخذ مأخذه ، أو يتبع تعاليمه ، واعتباره مشركا بالله ، ومن هنا جاءت تسمية الوهابيين للمخالفين لهم (مشركين) ومثل هذه الدعوة قد تصادف نجاحا ، وتجد لها الأتباع فى بلاد فُطِر أهلها على الخشونة والبداوة ، ولكنها تتعارض ومقتضيات الحضارة والعمران ، ومن تعاليم الوهابية تحريم لبس الحرير ، وشرب الدخان والتنباك ، وكذلك تحريم إقامة المزارات ، ونصب القباب على القبور ، واعتبارها مخالفة لأحكام الدين ، ثم الدعوة إلى هدمها ، وغير ذلك من التعاليم المنطوية على التشدد والغلو . على أن هذا الغلو لم يسىء إلى الدعوة الوهابية ، بمقدار ما أساء إليها الإسراف فى القسوة ، وارتكاب الفظائع مع المخالفين فى المذهب والعقيدة [٢] » .

ومن النقد الهادىء لدعوة الإصلاح ما ذكره الأستاذ أحمد أمين بقوله : « لم ينظر محمد بن عبد الوهاب الى المدنية الحديثة ، وموقف الاسلام منها ، ولم يتجه فى إصلاحه إلى الحياة المادية كما فعل معاصره محمد

---

(١) تاريخ نجد : جـ ٢ ص ١٨٠ .
(٢) عصر محمد علي ص ٢٨ — ٢٩ .

على ، وانما اتجه إلى العقيدة وحدها ، والروح وحدها ، وعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب إن صلحا صلح كل شيء ، وإن فسدا فسد كل شيء ، وطبيعي أن يكون هذا هو الفرق بين الرئيس الديني في نجد ، ورئيس الحكم في مصر [1] » •

ونضيف كذلك أن هذه الدعوة لم يكن بها دراسات عن حضارة الإسلام واتجاهاته في الفكر والسياسة والاقتصاد والتربية وغيرها ، لأن مجتمع الجزيرة آنذاك لم يكن في حاجة الى مثل هذه الدراسات ، وكان حَسْب الشيخ أن يعود بالمجتمع لله ، ولترك أنواع الشرك به ، سواء ارتبطت بحجر كالجاهلية الأولى ، أو بقباب وشجر كالجاهلية التي شاهدها الشيخ •

مؤلفات الشيخ وجهودة :

ترك الشيخ مجموعة مهمة من المؤلفات بعضها يرتبط بدراسات إسلامية عامة ، وبعضها يرتبط بالمسائل التي عُني بها لشرح مبادئه واتجاهاته الفكرية ، ومن أشهر مؤلفاته : كتاب التوحيد ، وكشف الشبهات ، وكتاب الكبائر ، وكتاب الإيمان ، ومختصر الإنصاف ، والشرح الكبير ، ومختصر تفسير ابن كثير ، ومختصر الفتح ، ومختصر سيرة ابن هشام ، وكتاب المسائل التي خالف فيها رسولُ الله أهلَ الجاهلية ، ومختصر زاد المعاد ، وله كثير من الرسائل والأجوبة ، وله كتاب في الأصولِ الثلاثة : معرفة الله ، ومعرفة الاسلام ، ومعرفة الرسول •

وبالاضافة إلى الكتب التي كتبها عُني الشيخ بحلقات الوعظ والدرس ، فكان يقيمها دون انقطاع ، وكانت حلقاته تمتد من الصباح الى المساء ، وكان يفد إليها الكثيرون من مختلف البقاع ، وكانت هذه الحلقات جذابة ممتعة تخرّج فيها كثيرون من المريدين والعلماء ، وحملوها إلى بقاع مختلفة •

---

(١) زعماء الإصلاح ص ١٢ — ١٣ •

تلاميذ الشيخ :

ومن الشيوخ الذين أخذوا عنه : الشيخ محمد بن ناصر بن معمر والد الشيخ عبد العزيز مؤلف « منحة القريب المجيب فى الرد على عبّاد الصليب » ومنهم عبد الله بن محمد الناصرى ، والشيخ عبد الرحمن بن خميس إمام مسجد الدرعية ، والشيخ عبد الرحمن بن نامى الذى تولى القضاء بالأحساء ، والشيخ محمد بن سلطان وقد تولى قضاء الاحساء أيضا ، والشيخ حسن ابن عيدان ، وكان قاضيا فى حريملاء ، والشيخ عبد العزيز بن سويلم وكان قاضيا فى القصيم ، والشيخ محمد بن راشد العريبى وكان قاضيا فى ناحية سدير .

وفى قمة مَنْ تأثر بالشيخ وحمل دعوته إلى الآفاق أبناؤه وأحفاده ولا يزالون يباشرون هذا الجهد بهمة عالية ونجاح موفور .

رسائله وبعوثه :

وعنى الشيخ كذلك بإرسال الكتب والبعوث للرؤساء والقضاة بنواحى نجد ، فاستجاب البعض له ، واتجه آخرون للتكتل لمحاربة دعوته الجديدة ، وحينئذ أعلن الشيخ أن الجهاد للدعوة شىء واجب ، وتعاونت الكلمة مع القوة فى الزحف الجديد ، وأصبح حملة الدعوة جنود الله بعد أن كانوا جنود ابن سعود ، وهذا الاتجاه ضمن للزحف كثيرا من النجاح ، ويقول بعض المفكرين : إن الامتزاج بين القوة السعودية والدعوة الإصلاحية كان تاما لدرجة أن صار وصف وهابى ونجدى مستخدما للدلالة على معنى واحد (١) .

وفاة الشيخ :

توفى الشيخ فى ذى القعدة سنة ١٢٠٦ هـ (يوليو ١٧٩٢) ، وله من العمر أكثر من تسعين سنة هجرية بعد أن اشتغل بالدعوة والارشاد مدة خمسين سنة متتالية ، وقد عظم شأن الشيخ فى حياته ، ولكنه مع هذا ظل

(١) صلاح العقاد : جزيرة العرب فى العصر الحديث ص ٧ .

زاهدا راضيا بالقليل ، وقليل من النـــاس من قنع بمثل هذا الاتجـــاه القويم .

والآن بعد أن اتحدت الفكرة والقوة نســـتطيع أن نتابع هذا الزحف الواعى وهو يحقق صورا عظيمة من النجاح .

عودة للحديث عن محمد بن سعود :

عندما شاعت مبادىء الامام محمد بن عبد الوهـــاب فى الدرعية ، وذاعت بيعة الأمير محمد بن سعود له بدأ أهل الدرعية يفدون له مؤيدين مبايعين ، وسرعان ما أصبحت الدرعيـــة مركزا قويا للدعوة الجديدة ، وعرف أهل العيينة ذلك فانتقل منها إلى الدرعية كثيرون من تلاميذ الشيخ ومريديه الذين التفوا حوله إبان إقامته بها ، بل إن عثمان بن معمر أسف على ما حدث منـــه ، وكتب للشيخ يعتذر لـــه ، ويطلب منه العودة إلى العيينة مسقط رأسه ، ولكن الشيخ لم يستجب له .

واتجه الشيخ ومريدوه إلى نشر الدعوة خارج الدرعية وسرعان مـــا التحق بها أمير العيينة وعاهد الشيخ على إقامة الحدود الشرعية (١) ، كما جاء أهل حريملاء إلى الشيخ وبايعوه أيضا .

وعنى الشيخ عناية كبيرة بشرح الإسلام الصحيح للمريدين الذين توافدوا عليه من كل البقاع ، فأصبح بيته أشبه بمعهد علمى يتربَّى فيه دعاة الإسلام وتلاميذ الدعوة الجديدة ليخرجوا منه إلى مختلف البقـــاع ما استطاعوا لذلك سبيلا .

صراع من أجل الدعوة :

وبجانب نشر الدعوة بالفكر والموعظة الحسنة ، قام محمد بن سعود وابنه عبد العزيز فى حياة أبيه ، بألوان من الصراع ضد الذين هددوا الدعـــوة أو حاولوا خنقها ، ففى ١١٦٠ هـ غـــزا عبد العزيز بن محمد بن

---

(١) لم يخلص عثمان للدعوة إخلاصا تاما ، بل إنه تمرد احيانا عليها كما يقول مؤرخوها .

سعود ومعه عثمان بن معمر رئيس العيينة منطقة ثرمدا ، وهزموا أهلها ، وتسمى هذه الوقعة وقعة **البطين** .

ولما قتل عثمان بن معمر سنة ١١٦٣ هـ ، وتولى مكانه مشارى بن معمر رئاسة العيينة ظل على ولائه للدعوة ، واشترك مع عبـــد العزيز بن محمد ابن سعود سنة ١١٦٤ هـ فى معاودة الهجوم على ثرمدا التى وقفت من الدعوة موقف المعارضة ، وتسمى هذه الوقعة وقعة (**الوطية**) وقد قتل فيها عدد كبير من أهل ثرمدا .

وفى سنة ١١٧٧ هـ أى قبل وفاة الأمير محمد بن سعود بعامين استطاع عبد العزيز بن محمد أن يستولى على بعض بلدان « سدير » .

على أن أشد معركة عاناها آل سعود فى حياة الأمير محمد بن سعود ، كانت معركتهم ضد أمير الرياض « **دهام بن دواس** » الذى كان يبتلى الموحدين فى الرياض ومنفوحة بأنواع المصائب والمحن وما كان لهم أى ذنب سوى أنهم انخرطوا فى سلك دعوة التوحيد واتبعوا الشيخ فى دعوته . فاضطر الشيخ والأمير إلى المقاومة ، وقد دام الصراع بين القوتين فترة طويلة ، ولم تسقط الرياض فى أيـــدى آل سعود إلا بعد وفاة الامام محمد بن سعود ، كما سنرى عند الحديث عن ابنه وولى عهده عبد العزيز .

عبد العزيز بن محمد بن سعود :

من الواضح للباحث فى تاريخ آل سعود أن هناك نوعا من التداخل ، بمعنى أن الصراع الذى دار فى عهد الأمير محمد بن سعود كان فى حالات كثيرة بقيادة ابنه عبد العزيز ، ومثل هذا حدث بالنسبة لعبد العزيز وابنه سعود ، فإن الأمير سعود طالما قاد جيوش أبيه ، وكسب النصر للدعوة الجديدة ، فى عهد أبيه ثم فى عهده هو بعد ذلك .

وهناك شىء يلحظه الباحث مرتبطا بالعلاقـــة بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآل سعود ، بعد جيل أو جيلين ، ذلك هو الاتجاه نحو اختفاء

الازدواجية إذ نشأ جيل ينحدر من الاثنين بسبب المصاهرة التى قامت بين الركنين السياسى والدينى •

وفى عهد عبد العزيز كان اتساع الدولة السعودية سريعا وواسع المدى ، ففى سنة ١١٨٢ ﻫ غزا سعود بن عبد العزيز بلدة عنيزة وانتصر عليها ، وفى السنة التالية توجه عبد العزيز نفسه إلى القصيم ونزل بلدة الهلالية وأخذها عنوة ، وبايعه أكثر أهل القصيم على السمع والطاعة •

على أن أكبر نصر أحرزه آل سعود فى نجد فى هذه الفترة كان استيلاؤهم على الرياض بعد حرب استمرت حوالى ثلاثين عاما ، وانتهت سنة ١١٨٧ ﻫ عندما يئس دهام بن دواس من مقاومة آل سعود فخرج من الرياض واتجه الى الأحساء ، واستولى عبد العزيز بن محمد بن سعود على الرياض وذلك بعد قتال مرير ووقائع عديدة ، وكان سقوط الرياض فى يد آل سعود يعتبر خاتمة المقاومة العنيدة فى نجد ، فلم تستطع أقاليم نجد بعد ذلك أن تقاوم دعوة الإصلاح وسيوف آل سعود ؛ ففى سنة ١١٨٩ ﻫ تم النصر على بريدة ، وفى سنة ١١٩٠ ﻫ أغار عبد العزيز على عربان آل مرة فى الخرج ، وفى سنة ١١٩٣ ﻫ استولى سعود بن عبد العزيز على بلدة حرمة ، وفى سنة ١١٩٦ ﻫ أخذ سعود بن عبد العزيز الصهبة من مطير وفى سنة ١٢٠١ ﻫ هدم عبد الله بن رشيد أمير بلدة عنيزة « الجناح » فى عنيزة تجملا مع ابن سعود بسبب خروج أهل الجناح على دعوة الإصلاح ، وفى سنة ١٢٠٥ أغار سعود بن عبد العزيز على شمر ومطير وانتصر عليهما •

ومن الواضح أن انتصارات آل سعود كانت تعتريها نكسة أحيانا فتتراجع ، ولكنها سرعان ما كانت تنشط من جديد وتستعيد الزمام •

وعندما توفى الامام محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦ ﻫ كانت نجد كلها تقريبا خاضعة لآل سعود ، وتابعة لدعوة الإصلاح •

وقد بدأ عبد العزيز بعد أن امتد سلطانه على نجد يغير على المناطق المحيطة بنجد ، وقد شملت غاراته هذه الاحساء والعراق وعمان وغيرها ، فقد استولى سعود بن عبد العزيز سنة ١٢٠٧ هـ على الحساء والقطيف **بعد وقعة « الشيط »** وزال ملك آل حميد من بني خالد عن الحساء والقطيف ، وكانوا قد استولوا على هذه المناطق سنة ١٠٨٠ هـ .

وفى سنة ١٢١٧ قصد عبد العزيز أرض كربلاء ونازل أهلها واستولى عليهـــا .

أما عن الحجاز فقد شهدت سنة ١١٩٧ هـ توقيع صـــلح بين الأمير عبد العزيز والشريف سرور بن مساعد الذى جاء بعد أحمد بن سعيد الذى سبق أن ذكرنا أنه استدعى بعض علماء نجد لمناقشة علماء الحجاز حول الدعوة الاصلاحية وبمقتضى هذا الصلح سمح للنجديين بأداء فريضة الحج ، ويقول ابن غنام « فشمر المسلمون وانتهزوا فرصة هذه الرخصة فحجوا ذلك العام ، وكانوا نحو ثلاثمائة من الأنام [١] » .

وهكذا كان ملك السعوديين عندما مات الأمير الثانى عبد العزيز بن محمد بن سعود (١٢١٨ هـ = ١٨٠٣) واسع الرقعة ممتد الأطراف ، وقد تحققت بعض هذه الانتصارات على يده ، وتحقق الكثير منها بقيادة ابنه الأمير سعود الذى كان خير عون لأبيه فى صراعه السياسى والعسكرى ، وكانت وفاة الأمير عبد العزيز غيلة ، فقد قتله أحد شيعة العراق انتقاما لما قام به الأمير من هجوم على الأماكن المقدسة لدى الشيعة بالعراق .

سعود الكبير :

استكملت الدولة اتساعها فى عهد الأمير سعود ، ولذلك اصطلح على تسميته سعود الكبير ، إذ دانت له عمان واليمن واستولى على تيماء وخيبر وفتح الحجاز ، ووضع الحرمين تحت حمايته وكان احتلاله لمكة سنة ١٨٠٦

---

(١) روضة الأفكار : جـ٢ ص ١٣٤ .

ميلادية وأبقى الشريف غالب ، فى مكانه [١] . وامتد سلطانه الى نجران وعسير .

ووصلت دولة السعوديين بذلك الى أقصى اتساعها ، وهددت بلاد الشام .

وفى الحجاز واجهت الدعوة الجديدة كثيرا من الأماكن المقدسة ، ونفّذت دون تسامح منهاجها كاملا ، فهدمت القباب الأثرية بمكة ، كقبة السيدة خديجة ، وقبة المكان الذى ولد فيه النبى عليه الصلاة والسلام ، وفى المدينة أخذ السعوديين الحلى والذخائر التى كانت فى ضريح الرسول ، ودمروا القباب ، وأزالوا المصاطب بقبور البقيع ، وقد أحس كثير من المسلمين بالأسى لهذا التصرف ، وان اختلف سبب حزنهم ، فمنهم من كان حزنه لضياع معالم التاريخ ، ومنهم من كان حفياً بالفن الإسلامى ، ومنهم من رأى فى ذلك جرحاً لعاطفته الدينية .

بيد أن الذى يقرأ عن الاشراف بالحجاز فى هذه الفترة ، وعن أعمالهم لا يسعه إلا أن يحس بضرورة الحركة الإصلاحية لإزالة الآثام التى كانت سمة العصر بالأرض المقدسة ، وكان الجبرتى معاصرا لهذه الأحداث ، وهو يقول عنها : وفى هذه الأيام أيضا وصلت الأخبار من الديار الحجازية بمسالمة الشريف غالب للوهابيين ، وذلك لشدة ما حصل بالحجاز من المضايقة الشديدة ، وقطع الجالب عنه من كل ناحية حتى وصل ثمن الأردب

---

(١) أشراف الحجاز فى هذه الفترة هم :

أحمد بن سعيد	١١٨٤ هـ
عبد الله بن حسن	١١٨٤ هـ
أحمد بن سعيد (مرة أخرى)	١١٨٤ هـ
سرور بن مساعد	١١٨٩ هـ
عبد المعين بن مساعد	١٢٠٢ هـ
غالب بن مساعد	١٢٠٢ هـ
يحيى بن سرور	١٢٢٨ هـ

المصرى من الأرز ٥٠٠ ريال ، والأردب من البر ٣١٠ ، وقس على ذلك السمن والعسل وغير ذلك ، فلم يسع الشريف إلا مسالمتهم والدخول فى طاعتهم ، وسلوك طريقتهم ، فأخذ دعاتهم العهد عليه ، وألزموه بأن يأمر بمنع المنكرات والتجاهر بها ، ومنع شرب الأراجيل فى المسعى بين الصفا والمروة ، كما ألزموه بأن يأمر بملازمة الصلوات فى الجماعة ، ودفع الزكاة ، وترك لبس الحرير ، والمقصّبات ، وإبطال المكوس والمظالم ، وكان الأشراف قد خرجوا عن الحدود فى ذلك حتى أن الميت كان يتحتم أن يُدفَع عليه إتاوة حتى يسمح بغسله ودفنه ، كما ظهرت أنواع أخرى من البدع والمكوس والمظالم التى أحدثها الأشراف على المبيعات والمشتريات ، على البائع والمشترى ، وكثرت مصادرات الناس فى أموالهم ودورهم حتى كان الشخص يفاجأ وهو جالس فى داره بأنها أصبحت ضمن أملاك الشريف وعليه إخلاؤها حالاً ، إلا أن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أكثر ، وقد التزم الشريف غالب أن يترك ذلك كله ويتبع ما أمر الله تعالى به فى كتابه العزيز ، من إخلاص التوحيد لله وحده ، واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون ، والأئمة المجتهدون آخر القرن الثالث وترك ما حدث فى الناس من الالتجاء إلى غير الله من المخلوقين الأحياء والأموات فى الشدائد والملمات ، وما أحدثوه من بناء القباب على القبور والتصاوير والزخارف ، وتقبيل الأعتاب والخضوع والتذلل والمناداة والطواف والنذور وغيرها ، وعمل الأعياد لأصحاب هذه القباب وما يتبع ذلك من اختلاط الرجال بالنساء فى هذه الأعياد ، وتعهد الشريف غالب بهدم القباب المبنية على القبور والأضرحة ، والقضاء على كل المستحدثات [1] .

وبسيطرة السعوديين على الحجاز امنت السبل ، وانقطع قطاع الطرق الذين كانوا ينتشرون فى طرق الحجاز ، وتبع ذلك أن انخفضت الأسعار

---

(١) تاريخ الجبرتى جـ٤ ص ٥ ـ ٦ .

وكثرت الأطعمة ، وعاد النشاط الاقتصادى الى طبيعته ، ومع ذلك فقد ظل الشريف غالب يأخذ العشور من التجار ، وكان إذا نوقش فى ذلك يقول هؤلاء مشركون وأنا آخذ من المشركين لا من الموحدين (١) .

وهكذا اهتم آل سعود بنشر العقيدة الإسلامية والقوانين الإسلامية السلفية فى كل المناطق التى خضعت لنفوذهم ، ومن ثم اختفى من هـذه المناطق شرب الخمر والسرقة وقطع الطريق ،وكانت وسيلة الأمير سعود للوصول إلى الأمن والنظام أن ألقى مسئولية الجرائم التى تقع فى أية منقطة على شيخ القبيلة التى تقع هذه المنطقة تحت نفوذه ، ومن هنا جد شيوخ القبائل فى الضرب على أيدى المفسدين وكف أذاهم ، وبهذا نعم الناس بأمن لم يحلموا به منذ أمد بعيد ، فأقبلوا على الدعوة الجديدة وأيدوا الحكم السعودى .

ولكن يد الاصلاح لم تمتد الى الحياة العقلية أو الاجتماعية بل ربما عارض الشيوخ أى تطور من هذا النوع ، وقد ظل موقفهم كذلك حتى عهد الملك عبد العزيز آل سعود الذى تغلب على هذا الاتجاه خطوة خطوة فأخذت مظاهر المدنية تعرف الطريق إلى الجزيرة العربية .

وقبل أن نترك دعوة الموحدين نذكر أن صداها انتشر الى عـدة أقطار إسلامية ، وكان موسم الحج أعظم مناسبة لذلك ، فسرعان مـا ترددت أفكارها فى الهند على يد زعيم اسمه الحـاج أحمد ، وحملها السنوسى إلى شمال أفريقية وعنى الشوكانى باليمن بدراستها وشرحها .

على أن صوت الامام محمد عبده بمصر كان من أعلى الأصـوات بأفكار هذه الدعوة ، ولكنه ضـم لمحاربة البدع الأخذ بوسـائل المدنية الحديثة ، فكان صوته بذلك يناسب مصر ، ويناسب البلاد التى فتحت أبوابها للمدنية الحديثة .

---

(١) المرجع السابق ص ٦ .

القوى المضادة

لا شك أن هذا النجاح العظيم أثار ألوانا من السخط فى جبهات مختلفة ، كان فى مقدمتها العثمانيون الذين كان انتزاع الحجاز من سلطانهم يعد تهديدا خطيرا لمكانتهم كخلفاء المسلمين ، ثم ان السعوديين أرادوا أن ينفذوا تفكيرهم مع المصريين والأتراك ، فرفضوا قبول المحمل ومنعوا الطبول والاحتفالات التى كانت تتبع مع تسليم كسوة الكعبة ، وعدوا ذلك من الانحراف ، وتسبب عن ذلك توقف الحجاج المصريين والسوريين ، ويقول ابن بشر (١) : ان سعودا حشد جيوشا عظيمة لمنع الحجاج القادمين من الشام واستانبول ، لأن سعودا خشى مكايد الشريف غالب بمكة ، وأخرج سعود ذلك العام من كان فى مكة من الأتراك ، كما أخرج منها من كان بها من العساكر التركية .

وقد أثار هذا التصرف السعودى الأتراك ، واعتبر ذلك تمردا وبخاصة بالنسبة للحجاز فهو مكان مقدس لدى المسلمين ، ولا تستقيم لهم الخلافة الإسلامية بدونه ، ثم إن الدولة السعودية ضربت العراق وتطلعت إلى الشام ، وكل هذا أقض مضجع العثمانيين ودفعهم لمقاومة عنيدة ، وقد دخلوا هذا الصراع بقواهم المباشرة ، وتطلعوا لا إلى استعادة الحجاز فحسب بل إلى الاستيلاء على نجد والقضاء على السعوديين ، ودخلوا هذا الصراع بقوى غير مباشرة ، فدفعوا محمد على باشا حاكم مصر للاستيلاء على الحجاز وضرب السعوديين ودفعوا سليمان باشا والى العراق للهجوم على نجد ، فأرسل لها عدة حملات ، إحداها بقيادة توينى بن عبد الله والأخرى بقيادة الوزير على كخيا ، كما حركوا القوى العربية المنافسة للسعوديين بالجزيرة وأمدوها بالمال والسلاح والخبرات لتثور على السعوديين وتستولى على بقاع من أملاكهم ، ومن هؤلاء صاحب عمان ومسقط ، والشريف غالب أمير مكة ، وآل معمر أمراء العيينة ،

(١) عنوان المجد فى تاريخ نجد حوادث سنة ١٢٢١ هـ .

وانضم أهل الحجاز للقوى المعادية للسعوديين ، لأن توقف الحجاج المصريين والسوريين والأتراك أضرّ بمصالحهم واقتصادهم ، وبقى على الولاء للسعوديين من أمراء الجزيرة صالح بن على أمير حائل وزعيم شمر ، فقد عقد صلحا مع الأمير تركى السعودى أكسبه نفوذا قويا على أكثر الجبل وعلى القصيم .

وكان من الأسلحة التى أطلقها العثمانيون ضد هذه الدعوة ، الدعاية القاسية التى جُنّدت لها بعض الأقلام وبعض الألسنة ، فصوّرت الدعوة على أنها بدعة منكرة ، وانحراف خشن ، وأنها حركة ضد وحدة العالم الإسلامى ، وضد المقدسات الإسلامية .

وهناك خصم عنيد آخر ظهر فى الجو وهو الاستعمار البريطانى الذى كانت له مصالح هائلة فى الخليج ، وكان لا يخشى على هذه المصالح ما دامت السلطات الحاكمة فى الجزيرة سلطات ضعيفة ، فلما بنى السعوديون دولتهم الكبيرة القوية التزم الاستعمار البريطانى أن يتدخل لحماية مصالحه بالسياسة والخداع ان كَفَتْ السياسة والخداع ، وبالتهديد والحروب عند اللزوم ، وعلى هذا تمّ تحالف بين الاستعمار البريطانى وبين سعيد بن سلطان صاحب مسقط ، وامتد نفوذ الانجليز إلى البحرين .

على أن الهجوم المصرى كان أشد هجوم نزل بالسعوديين ، أما القوى العربية التى ثارت بالجزيرة فلم تكن فى الغالب الا امتدادا للهجوم المصرى وتنفيذا لتدبيره .

لماذا قامت مصر بزحفها على الحجاز ونجد ؟

هل كان ذلك استجابة لتعليمات الأستانة كما استجابت مصر لها فأشعلت حربا ضد اليونان ؟

أو كان رغبة من مصر لتستعيد الحجاز امتدادا للقرون الطويلة التى كان فيها الحجاز تابعا لمصر ؟كما فعلت مصر فى زحفها الى الشام لنفس الغرض وعلى الرغم من إرادة الأستانة ؟

أو كان الرغبة فى التوسع كالزحف المصرى الى السودان وقلب افريقية ؟

إن بعض الباحثين يميلون للرأى الأول ، ويعتقدون أن الأستانة أرادت أن تتخلص من القوتين العربيتين : المصرية والسعودية فضربت هذه بتلك [١] ، ولكن هذا الرأى ليس بشىء لأن العثمانيين ألبوا قوى مختلفة فى داخل الجزيرة وخارجها ضد السعوديين ، ولأن العثمانيين كذلك دفعوا محمد على لحرب اليونان دون أن يكون الهدف التخلص من قوتين عربيتين كما يتجه هذا الرأى الذى نراه ساذجا ، ولأن محمد على وافق على الصلح مع السعوديين دون أن يستشير سلاطين الأستانة ، وكان اتجاه الصلح أن يرفع السعوديون أيديهم عن الحجاز وأن ترفع مصر أيديها عن نجد وسنرى ذلك فيما بعد مقتبسا من المراجع السعودية ، ولعل ذلك يقطع دابر هذه الفرية التى تتجه الى القول بأن الباب العالى سخر مصر ليتخلص من القوتين العربيتين •

والذى نراه وتدل عليه اتجاهات التاريخ ، أن مصر كانت تتجه لتستعيد نفوذها فى الأماكن التى كانت تابعة لها خلال حقب طويلة ، وبخاصة فى الحجاز الذى سيكسب مصر قوة معنوية كبيرة ، وقد سبق أن ذكرنا أن صلة مصر بالحجاز كانت طويلة المدى ، بدأت من عهد الاخشيديين واستمرت حتى العهد العثمانى ، وقد كان العثمانيون حريصين على حرمان مصر من الاتصال بالحجاز ، ولذلك جعلوا الحجاز ولاية مستقلة تابعة للاستانة بشكل مباشر ، ولكن مصر مع هذا ظلت فى العهد العثمانى تعتبر المسئولة الأولى عن الحجاز ، وقد رأيناها تهب لتبنى الكعبة المشرفة عند ما تلقت الأنباء بانهيار هذا البناء المقدس ، ولم تنتظر تعليمات أو أوامر من تركيا فى هذا الشأن •

---

(١) فؤاد حمزة : قلب الجزيرة العربية ص ٣٠٦ وقد اقتبس الاستاذ سعيد عوض باوزير رأيه وكلماته ص ١١٨ فى كتابه : معالم تاريخ الجزيرة العربية •

وكان مما ألهب العواطف ضد السعوديين ما سبق أن أشرنا اليه أخذا عن ابن بشر أن سلطات السعوديين بالحجاز منعت حجاج الشام وتركيا ومصر من الدخول إلى الأرض المقدسة ابتداء من سنة ١١٢١ هـ وقد وضح ابراهيم بن صالح أن هذا التصرف استمر بعد ذلك فقال : ان سعود بن عبد العزيز حج بالناس سنة ١٢٢٢ هـ ومنع الحاج الشامى من الحج وفى سنة ١٢٢٣ حج سعود بالناس مرة أخرى ، ولم يحج أحد من الشــام ومصر وتركيا تلك السنة (١) .

ويذكر الجبرتى (٢) أنه فى شهر صفر سنة ١٢٢٢ هـ وصلت ثلاث سفن من جدة إلى السويس فيها أتراك وشوام وأجناس آخرون وذكروا أن الوهابى نادى بعد انقضاء الحج ألا يأتى الى الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن ، وتلا فى المناداة قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (٣) .

ويحدد المؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى أسباب الزحف المصرى على الحجاز بقوله : أن الحرب ضد الوهابيين كانت وسيلة لتوطيد مركز محمد على كما كانت وسيلة لرفع شأن مصر وإعلاء مكانتها وبخاصة أن فكرة الانفصال عن تركيا ، وتحقيق استقلال مصر كانت تملك على محمد عــلى مشاعره ، وليس هناك من وسيلة تعلى مكانة مصر ، وتنيلها مركزا ممتازا ، وتكسبها عطف الشرق والعالم الاسلامى مثل الحرب الحجازية التى أذاع محمد على أنها ترمى إلى إنقاذ الحرمين الشريفين من تحكم فرقة به ، وترمى إلى إعادة مناسك الحج وتأمين السبيل للحجاج الذين يأتون كــل عام من مشارق الأرض ومغاربها .

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ١٣٠ وانظر الجبرتى جـ٤ ص ٥ .
(٢) تاريخ الجبرتى جـ٤ ص ٥٤ — ٥٤ .
(٣) سورة التوبة الآية ٢٩ .

ويستمر هذا المؤرخ فيقرر : أن محمد على خاض هذه الحرب لا لمصلحة تركيا بل تثبيتا لمركزه وإعلاء لشأن مصر ، وقد حققت الأيام صدق نظره (١) . . . . . . وقد ظلت مصر فى الحجاز وفى غيرها من بقاع الجزيرة العربية إلى أن اضطربت الأحوال السياسية سنة ١٨٤٠ ، واضطرت مصر إلى سحب جنودها كما وضحنا ذلك عند الحديث عن تاريخ محمد على فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

تلك هى الأسباب الحقيقية لهذا الزحف وسنسير مع الزحف المصرى لنصور بإيجاز خطواته ونتائجه :

---

(١) عصر محمد على : ص ١٢٥ — ١٢٦

الزحف المصرى على الحجاز والجزيرة العربية

بدأ الزحف المصرى على الحجاز سنة ١٢٢٦ هـ = ١٨١١ ، وقد اشترك فى قيادة الجيوش المصرية فى هذا الزحف الأمير طوسون بن محمد على ، ثم سافر محمد على نفسه لإدارة المعارك ، وبعد أن عاد محمد على وعاد ابنه طوسون سافر ابراهيم باشا لإكمال الشوط ، وسنتابع فيما يلى مسيرة الجيوش المصرية فى الحجاز ونجد بشىء من الوضوح والإيجاز .

طوسون يقود الحملة :

أقلعت السفن تحمل الجنود من ميناء السويس فى سبتمبر سنة ١٨١١ قاصدة ينبع ، أما الفرسان بقيادة طوسون فقد غادروا القاهرة فى اكتوبر ، وكان يصحب الحملة طائفة من الصناع وأربعة من العلماء يمثلون المذاهب الأربعة .

وقد أحسن أهل الحجاز استقبال الجيش المصرى لأن قلة الحجاج ضيق عليهم أرزاقهم ، كما رحب الشريف غالب بالجيش المصرى لأن نفوذ السعوديين قد قضى على سلطانه .

وقد احتلت الحملة ينبع دون مقاومة تذكر ، ومن ينبع سارت الحملة برا فاحتلت وادى بدر وزحفت إلى وادى الصفراء ، وفى وادى الصفراء وقعت الموقعة الأولى المهمة بين الجيش المصرى والسعوديين وقد هُزِم فيها الجيش المصرى بسبب اختلاف قواده وتقصير بعضهم من الارناءوط ، وقد أرسل طوسون الى أبيه بخبر هذه الهزيمة وبأسبابها ، وطلب مددا جديدا وقد تلقى محمد على هذه الأخبار برباطة جأش كما يقول الجبرتى [1] ، وأرسل المدد والأموال الى ابنه ، فاستطاع المدد الجديد

---

(١) عجائب الاثار : جـ٤ ص ١٤٦ ويعلق المؤرخ عبد الرحمن الرافعى على ما ذكره الجبرتى بقوله : إن الجبرتى كان يعطف كثيرا على الوهابيين ، ويدافع عنهم ، وينتقد الحملة عليهم وهو الاتجاه السائد بين كثير من المفكرين .

أن يستولى على الصفراء وأن يتابع سيره إلى المدينة المنورة ، وقد استطاع فى ذى الحجة سنة ١٢٢٧ هـ أن يستولى على قلعة المدينة حيث نزل أميرها على حكم طوسون ، ثم تقدم المصريون فاحتلوا الحنايكة شمالى المدينة ، وعاد طوسون بعد ذلك الى ينبع ، وسار جنوبا الى جدة فأخذها ، واستقبله بها الشريف غالب ، ومنها سار الى مكة فدخلها دخول الظافر وقد عاونه فى ذلك الشريف غالب وقبائل عرب الحجاز ، وكان ذلك فى شهر صفر سنة ١٢٢٨ (١٨١٣) ، ومما يذكر أن الأمير سعود الكبير كان قد حج فى الموسم الذى سبق هذا الشهر ، وكان الشريف غالب فى معيته ، وهذا يدلنا على تذبذب الشريف ، واختلال أمره ، وبعد دخول المصريين مكة اتجهوا إلى الطائف واستولوا عليها فى العام نفسه .

وفى تربة حصل لقاء هزم فيه الجيش المصرى ، واعتصم طوسون وجيشه بمكة والمدينة وجدة وينبع ، وأرسل إلى أبيه بذلك ، وطلب منه مزيدا من المدد .

محمد على يقود الحملة :

لم يجد محمد على بدا من أن يسافر بنفسه ليقود ذلك الصراع وقد درس محمد على ظروف الجزيرة دراسة دقيقة ووضع خطة حاسمة لتقوده الى الفوز ، وأبحر بجيش المدد الى جدة ، ثم قصد مكة حيث أدى فريضة الحج ، وكان من أوائل الأعمال التى قام بها محمد على أن اعتقل الشريف غالب لأنه إرتاب فى إخلاصه ، وأحس أنه يعمل لصالحه هو ، ويتمنى تدمير القوتين المتصارعتين .

وحقق محمد على ألوانا من النصر فاحتل القنفذة ، وأخذ يستعد لمزيد من التقدم ، وفى هذه الأثناء مات الأمير سعود الكبير ، وخلفه فى الإمارة ابنه عبد الله .

ثم حدثت موقعة فاصلة فى « بسل » وهو وادٍ شرقى الطائف وكانت بين محمد على وبين فيصل بن سعود ، وصارت الهزيمة على فيصل أخى الأمير عبد الله ومن معه ، وقتل منهم خلق كثير (١) ، واستولى محمد على على بيشة ورانية ، وفى الوقت نفسه زحف طوسون إلى الرس إحدى مدن نجد المهمة وهى تقع على نحو ٢٧٠ ميلا فى الشمال الشرقى من المدينة المنورة ، وقد استطاع أن يستولى عليهـا ، ثم أخذ الشبيبية الواقعـة على طريق الدرعية ، كما استولى على الخبرا والبلاد الواقعة حولها (٢) .

وتجمعت لذلك الأسباب للوصول الى حل وسط ، فوجود محمد على من جانب ووفاة الأمير سعود من جانب آخر ، وما تلا ذلك من انتصارات للجيش المصرى ، كل هذا دعا القوة السعودية أن تطلب الصلح وقد تم هذا الصلح سنة ١٢٣٠ هـ وهذا الاتجاه للصلح ساعد محمد على على العودة لمصر حيث كانت تتطلبه أسباب داخلية ، فعاد محمد على إلى مصر قبل إتمام الصلح بقليل .

أما نصوص هذا الصلح فنقتبسها من المؤلفين السعوديين :

يقول الشيخ عثمان بن بشر : فى سنة ١٢٣٠ وقع صلح بين عبد الله ابن سعود وبين طوسون على وضع الحرب بين الفئتين ، وأن المصريين يرفعون أيديهم عن نجد وأعمالها ، ويرفع عبد الله بن سعود يده عن الحجاز وأن السابلة تمشى آمنة من الفريقين ، فالترك وأهل مصر والشام يمشون إلى نجد وجميع ممالك عبد الله ، والكل يحج آمنا ، وكتبوا بذلك سجلا ، ورحل جند طوسون من نجد متجهين الى المدينة ، وبعث عبد الله بن سعود بكتاب الصلح الى مصر مع وفد مصرى ، ومعهم عبد الله بن محمد صاحب الدرعية ، والقاضى عبد العزيز بن حمد ليعرضوه على محمد على

---

(١) الشيخ ابراهيم بن صالح . تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ١٤٠ . وانظر الجبرتى : عجائب الاثار جـ٤ صفحات ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٩ ، ١٧٢ ، ٢١٢ .

(٢) محمد بن عبد الله الأنصارى : تحفة المستفيد ص ١٤١ .

صاحب مصر ، فوصلوا مصر ورجعوا منها وانتظم الصلح [١] .

ويقول الشيخ محمد بن عبد الله الأنصارى [٢] : ان طوسون بعد أن احتل الرس والخبرا ومسكه والبوصير . . . جنح الفريقان الى الصلح ، فوقع الصلح بين الامام عبد الله وأحمد طوسون على أن تنسحب القوات المصرية من جميع بلدان نجد ، وعلى ألا يتعرض الامام عبد الله للحجاز ولا لأحد من رعايا الأتراك والحكومة المصرية وكتبوا بذلك عهدا ، ورحل الجيش المصرى من الرس وتوجه إلى المدينة .

ويقول الشيخ ابراهيم بن صالح ، وفى سنة ١٢٣٠ قدم أحمد طوسون ابن محمد على بالعساكر العظيمة ، ونزل الرس والخبرا ، وكان عبد الله ابن سعود إذ ذاك فى المِذْنب ، فلما علم بذلك رحل من المِذْنَب ، ونزل فى بلد عنيزة ، وكانت آنذاك تابعة له ، واتخذ مزارع الحجناوى مركزا له نحو عشرين يوما ، وكان يصابر عساكر محمد على ويجادلهم ، ثم ان الصلح وقع بين أحمد طوسون وبين عبد الله بن سعود على وضع الحرب ، وأن عساكر مصر ترفع أيديها عن نجد ، ويرفع عبد الله بن سعود يـده عن الحرمين ، وكل منهم يحج آمنا . وكتبوا بذلك سـجلات ، ورحل أحمد طوسون ومن معه من العساكر فى غرة شعبان من هذه السنة ، وتوجهوا الى المدينة المنورة [٣] .

ذلك هو الصلح وتلك هى بنوده من المراجع السعودية ، فماذا حدث بعد ذلك ؟ وما الأسباب التى أدت الى نقضه ؟ .

فى الاجابة عن هذا السؤال نعود للمراجع السعودية أيضا :

---

(١) عنوان المجد فى تاريخ نجد : ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .
(٢) تحفة المستفيد ص ١٤١ .
(٣) تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ١٤١ .

يقول الشيخ عثمان بن بشر : في سنة ١٢٣١ هـ سار عبد الله بجموع رعيته وقصد ناحية القصيم ، ونزل على بلدان الخبرا وهدم سورها وسور البكيرية عقوبة لهم على ما تقدم من استدعائهم محمد على ، وأقام عبد الله أياما على الخبرا ، وقتل شاعرا من أهلها اسمه عَمْيان قتله عبد الله بن حجيلان ، ثم سار منها متجها الى الحجاز ، وبعث جيشا أغار على الحرة بالقرب من المدينة ، وأخذوا أغناما كثيرة وشيئا من الابل ، وقبض على ثلاثة من رؤساء أهل الرس وسار بهم الى الدرعية ، ويستمر الشيخ ابن بشر قائلا ان هذه الغزوة سُميت (غزة مُحرّش) لأنه حدث النقض بسببها ، وقد ركب رجال من أهل القصيم والبوادى وزخرفوا القـول لصاحب مصر ، فتلقى قولهم بالقبول ، وشـمر فى تجهيز العسـاكر إلى نجد (١) .

أما الشيخ محمد بن عبد الله الأنصارى فينقل رواية ابن بشر ولكنـه يضيف لها جُملا ذات بال ، ومن أجل هذا يجدر بنا أن ننقل كلماته : فى سنة ١٢٣١ هـ سار الامام عبد الله رحمه الله بجموع من المسلمين من الأحساء وعمان ووادى الدواسر والجبل ، والجوف ونجد ، من الحاضرة والبادية ، وقصد ناحية القصيم ، ونزل قرية الخبرا وهدم سورها وسور البكيرية عقوبة لهم لأنهم دخلوا فى طاعة القائد المصرى ، وتأديبا لهم لئلا يعودوا لمثلها ، وقتل شاعرا من أهل الخبرا يسمى عميان ، ثم توجه الى الحجاز ، وبعث جيشا أغار على أعرابٍ فى الحرة ، فركب رجال من أهل القصيم إلى مصر ، وشكوا إلى محمد على ما فعله بهم الإمام عبد الله ، وأنه نقض بذلك الصلح ، فشمَّر محمد على فى تجهيز العساكر إلى نجد (٢) .

ويقول الشيخ ابراهيم بن صالح : وفى سنة ١٢٣١ هـ سار عبد الله بن سعود بجنوده من البادية والحاضرة وقصد القصيم فنزل الخبرا وهدم

(١) عنوان المجد : ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .
(٢) تحفة المستفيد ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

سورها وسور البكيرية وربط ثلاثة من رءوس الرس والخبرا ، ومنهم الأمير شارخ الفوزان أمير الرس ، وسار بهم الى الدرعية بسبب تعاونهم مع الجيش المصرى ، وسميت هذه الغزوة « غزوة محرّش » لأنه انتقض بسببها الصلح الذى بين محمد على وبين عبد الله بن سعود ، وسار رجال من أهل القصيم الى مصر وأكثروا القول عند محمد على ، فتلقى قولهم بالقبول وشمر فى تجهيز العساكر إلى نجد (١) .

وبكل الحيدة يستطيع المؤرخ أن يبرز بعض النقاط من هذه المقتبسات :

أولا : كانت هناك بلدان فى نجد لا تزال تحرص على وضعها الاستقلالى الذى أشرنا له من قبل ، وتعارض زحف السعوديين لها ، ومن هذه البلاد الخبرا والرس والبكيرية وغيرها من مدن القصيم .

ثانيا : تعجل الأمير عبد الله فى القيام بهذه الغزوة بعد عام واحد من الصلح وأنزل الضر بمن تعاونوا مع مصر إبان زحفها ، ويتحتم أن **نتذكر أن هذا التعاون مع مصر لا يعد من الخيانة لأن كل بلدة وكل قبيلة كانت حتى ذلك الحين تحرص على استقلالها كما ذكرنا من قبل .**

ثالثا : لم يقنع الأمير عبد الله بالهجوم على بلاد نجد ، بل ترك أتباعه يقتلون ويسلبون .

رابعا : امتد زحف الأمير عبد الله الى الحجاز الذى كان الجيش المصرى معسكرا فيه بناء على الصلح السابق .

إبراهيم يقود جيش مصر إلى نجد :

ذكرنا من قبل أن محمد على عاد إلى مصر سنة ١٢٣٠ بسبب أحداث داخلية رأى أنها تستلزم عودته ، وبعد الصلح مع السعوديين عاد طوسون

---

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد : ص ١٤٢ .

أيضا فى نفس العام ، وفى العام التالى مات طوسون وعلى هذا كــان الشوط الجديد بقيادة ابراهيم باشا ، وقد نزل ابراهيم باشا المدينة المنورة وضبط ثغورها واستولى على ما حولها من القرى ، ثم سار الى الحنايكة فانحازت اليه البوادى من حرب ومطير وعتيبة والدهامشة من عنيزة ، وخرج الإمام عبد الله من الدرعية ومعه جموع غفيرة من أهل نجد وقصد الحجاز ، وجرت حروب بين الجيشين ، فانهزم الأعراب الذين كانوا مع عبد الله ، وتتابعت الهزيمة فى جميع الجيش كما يقول الشيخ عبد الله الأنصارى (١) ، ثم سار إبراهيم من الحنايكة إلى الرس وحاصرها ولكن أهلها قاوموا الحصار وكتبوا الى عبد الله وهو مقيم فى عنيزة يقولون له : اما أن يناجز ابراهيم باشا ويفك عنهم الحصار واما أن يأذن لهم فى المصالحة ، وعندما لم يستطع عبد الله المناجزة تم الصلح بين أهل الرس وبين ابراهيم ، ثم دخل ابراهيم بلدة عنيزة فقابله أهلها بالطاعة والتسليم ، ووصل ابراهيم من عنيزة الى بريدة فسلمت له البلاد ، وكان كلما فتح بلدا أخذ رئيسه معه خوفا من الخيانة ، ثم حاصر بلد شقراء مدة أسبوع ، ثم تم صلح بينه وبين أهلها ودخل جميع أهل الوشم فى هذا الصلح ، وسار ابراهيم باشا فى بلاد نجد يفتحها صلحا وحربــا حتى انتهى الى الدرعية سنة ١٢٣٣ = ١٨١٧ م (٢) .

وفى الدرعية واجه ابراهيم جيشا باسلا يتخذ مواقعه فى حصــون تحيط بالمدينة ، وكانت المدينة مسورة ، وقد حاصر ابراهيم الدرعية أكثر من شهرين ، وكان الجنود السعوديون يدافعون عن أنفسهم بجســارة وقوة ، ثم حدث أن هبت نار التهمت مستودع الذخيرة المصرى ، فأصبح موقف الجيش المصرى حرجا ، ويقول المؤرخون (٣) ان ابراهيم قابل تلك الكارثة بشجاعة وجلد ، وخطب فى جنوده قائلا : لقد فقدنا كل شيء ،

---

(١) تحفة المستفيد : ص ١٤٢ — ١٤٣ .
(٢) الشيخ محمد عبد الله الانصارى : تحفة المستفيد ص ١٤٢ — ١٤٣ .
(٣) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ١٦٠ .

ولم يبق لدينا إلا شجاعتنا ، فلنتذرع بها ، ولنهاجم العدو بالسلاح الأبيض ، وأخذ يشجع الضباط والجنود ، وفى الوقت نفسه أرسل يطلب الذخيرة من المواقع التى قد تم فتحها كالشقراء وبريدة وعنيزة ومكة والمدينة .

وقد انتهز السعوديون قلة الذخيرة لدى الجيش المصرى ، فهجموا هجمة قوية عليه ، ولكن ابراهيم أحكم خطة القتال ، فأمر جنوده بالاقتصاد فى استعمال الذخيرة ، واستطاع بذلك أن يرد هجمة السعوديين .

وبعد فترة وردت إلى إبراهيم الذخيرة التى طلبها من المواقع المختلفة ، وجاءت رسالة من أبيه بأنه أمده بمدد باسل بقيادة خليل باشا ، ولكن ابراهيم قرر أن يكسب النصر قبل وصول هذا المدد حتى لا يشاركه خليل باشا فى شرفه ، فشدد هجومه على الدرعية التى أخذت أحياؤها تتساقط الواحد بعد الآخر ، ورأى عبد الله بن سعود ألا أمل فى المقاومة فأرسل فى سبتمبر سنة ١٨١٨ (أواخر ١٢٣٣ هـ) رسولا إلى ابراهيم باشا يطلب وقف القتال حتى يتم الاتفاق على الصلح ، يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى : فابتهج ابراهيم باشا بهذه الرسالة ابتهاجا عظيما ، وأذن بوقف القتال ، ثم جاء عبد الله بن سعود نفسه إلى معسكر ابراهيم باشا ، فتلقاه القائد العظيم بالحفاوة والإكرام ، وتمّ الاتفاق بينهما على أن تسلم الدرعية إلى ابراهيم ، وأن يتعهد بالإبقاء عليها ، وألا يوقع بالسعوديين أو ينالهم بضرر ، وأن يذهب عبد الله بن سعود إلى مصر ثم إلى الأستانة كرغبة السلطان ، فقبل عبد الله بن سعود هذه الشروط حماية لشعبه ولبلاده ، واستولى الجيش المصرى على الدرعية بعد حصار دام ستة أشهر ، وبعد فتح الدرعية لم تلبث المدن الأخرى من نجد أن خضعت لما خضعت له العاصمة [١] ، وتبعا لهذه الشروط جىء بعبد الله بن سعود الى مصر فأحسن محمد على استقباله ، وأكرمه ، وسنرى ذلك مفصلا بعد قليل

---

(١) عصر محمد علي : ص ١٦٠ — ١٦١ .

تبعا لرواية الجبرتى ، ومن مصر أرسل عبد الله الى الأستانة حيث أعدم هناك ، رحمه الله ، وسقطت بذلك الدولة السعودية الأولى .

نظرة شاملة لهذا الصراع :

فى ختام هذه الدراسة نقدم بعض تعليقات حول هذا الصراع .

أولا : إن المعروف أن الحرب تضعف المنتصر والمهزوم ، واذا كانت هناك روابط عديدة بين الدول العربية ، فينبغى أن نصل إلى وضع حاسم بمنع أن يراق دم عربى بيد عربية ، فالقاتل والمقتول سيسببان ضعفا للجسم العربى كله ، وقد قدمت مصر فى معارك الجزيرة العربية فيضا من الدماء وفيضا من الأموال ، وكانت الفيافى والعواصف تهلك الرجال والذخائر والمؤن ، ولولا ما عرف عن محمد على وابنه ابراهيم من العزم ورباطه الجأش لكان من الممكن أن تكون نتيجة هذه الحروب على غير ما كانت ، وقدم السعوديون كثيرا من التضحيات فى الأنفس والأموال ، وليس لهذه التضحيات من هنا أو هناك أى طائل ، وقد استطاعت الأجيال الحاضرة أن تتناسى أهوال الماضى لأن الروابط بين مصر والسعودية أعمق وألزم للطرفين من أن تهتز بسبب هذه الأحداث ، فالحاضر والمستقبل يحتاجان الى وصف عربى واحد يتقدمه تعاون وثيق بين مصر والسعودية .

ثانيا — لقد أنصفت المراجع السعودية مصر ، وكان مؤلفوها فى قمة الحياد ، والدقة التاريخية ، ولم يذكر الجبرتى ولا سواه من المؤرخين المصريين ، شيئا عن غزوة المحرش ، وعن نقض الجانب السعودى للصلح الذى كان قد تم بين السعوديين والمصريين ، ومن هنا استحق هؤلاء المؤرخون كل تقدير واعجاب ، أما الجبرتى المؤرخ المصرى الذى عاصر هذه الحرب فلم تصله آنذاك أخبار هذه التحركات بدقة ، ومن هنا لم يدون عنها شيئا ، وعلى نهجه سار المؤرخون المصريون المتأخرون ، بل المؤرخون فى العالم كله .

ثالثا — لقد ذكرنا من قبل مذهب الشيخ محمد عبد الوهاب الذى

اعتنقته السلطة السعودية وتصرفت بمقتضاه ، فهاجمت كربلاء ومنعت حجاج الأتراك والمصريون من الحج — وتحرشت بالشام ، ولو أن قــادة السعوديين آنذاك فعلوا ما فعله البطل المحنك العظيم « الملك عبد العزيز » لمـا قامت هذه الحروب ، فالملك عبد العزيز اعتنق فكر محمد بن عبد الوهاب ، ونفذه فى بلاده ، وقدمه للآخرين دعوة خالية من العنف أو الغزو ، فلتبق المشاهد فى كربلاء ، ولتبق فى مصر ، والمهم أن الحج مفتوح للجميع ، وليس للحاج عندما يصل الى الديار السعودية أن يتمسح بالمشاهد أو القبور ، ولكن لا تكفير لأحد ولا منع لأحد من الحج ، والدعوة سلمية تسير دون سيف ودون إكراه ، وقد سار سيرة الملك عبد العزيز أبناؤه الملوك من بعــده •

رابعا : لم تكن كل البلاد النجدية التى امتلكها السعوديون الأوائل تعد نفسها جزءا لا يتجزأ من الدولة السعودية ، بل كانت تتبعها بحكم الغزو ، كما كان يحدث دائما فى الجزيرة العربية ، بدليل ما ذكرناه من قبل من أن أهل القصيم أجمعوا سنة ١١٩٦ على نقض بيعتهم للسعوديين واستعانوا برئيس الحسا والقطيف وقتلوا مَنْ عندهم من المعلمين ••• فما كان أحرى السعوديين الأوائل بأن يثبّتوا معتقداتهم وسلطانهم فى بقاع نجد قبل التفكير فى الخروج بهذه المعتقدات الى خارج نجد •

خامسا : دمر ابراهيم باشا بلدة الدرعية عاصمة السعوديين ، فقد اختار لجيشه ربوة مرتفعة تجعل الدرعية هدفا قريب المنال ، وقد زرت هذا المكان سنة ١٩٧٦ ورأيت أنقاض الدرعيــة ، وإحساسنا فى العهــد الحاضر يصور تصرف ابراهيم فى الدرعية عنفا وقسوة ، ولكن المؤرخ ليس عادلا اذا حكم بإحساس اليوم على عمل جرى منذ أكثر من قرن ونصف ، وبخاصة إذا وضعنا فى الميزان ما يقال من أن تصرف ابراهيم كان رد فعل لتصرفات مماثلة ارتكبتها القوات السعودية ضــد القوات المصرية فى ساعات تراجعها أو هزائمها •

سادسا : عن معاملة مصر لأسرى السعوديين نسوق دراسة أغفلهــا

كثيرون مـن الذين يعنون بإثارة الغبـار ، ونعتمد فى ذلك على الجبرتى وهو مؤرخ ثقة عاصر الأحداث ، وبخاصة أنه لم يكن راضيا عن الزحف المصرى على الجزيرة العربية ، وكان متعاطفا مع الفكر الذى قال بـه الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وكان فى الوقت نفسه سيء الصلة بمحمد على باشا وهذا يجعل كلامه جديرا بالقبول :

يقول الجبرتى فى أحداث السابع عشر من المحرم سـنة ١٢٣٤ ﻫ (نوفمبر ١٨١٨) :

وفيه وصل عبد الله بن سعود ، فدخل من باب النصر راكبا هجينا ، فذهبوا به الى بيت اسماعيل باشا بن محمد على باشا ، فأقام به يومه ، ثم انتقلوا فى الصباح التالى الى بيت الباشا بشبرا ، فلما دخل قـام له محمد على وقابله بالبشاشة ، وأجلسه بجانبه وحادثه وقال له ما هذه المطاولة ؟ فقال عبد الله : الحرب سجال . قـال الباشا : وكيف رأيت ابراهيم ؟ قال : ما قصر وبذل همته ونحن كذلك حتى كان ما كان . فقال الباشا : أنا إن شاء الله أترجى فيك عند مولانا السلطان . فقال الأمير : المقدر يكون ، ثم ألبسـه الباشا خلعة ، وعـاد الأمير الى مقره ببيت اسماعيل باشا .

ويواصل الجبرتى يومياته عن هذا الموضوع فيذكر أن الأمير عبد الله ابن سعود سافر يوم التاسع عشر من المحرم ١٢٣٤ الى الاسكندرية ومنها إلى دار السلطنة بالأستانة ، ومعه عدد من خدمه حسبما طلب .

وقد ذكرنا آنفا أن الأستانة قضت باعدام الأمير ونفذت ذلك القضاء ، وهو تصرف ليس غريبا على الأستانة التى كان القتل فيها عقوبة كثيرة الوقوع ، ولم يُجْدِ معها ما تقدم به محمد على من رجاء ، ولا شك أن الباحث يجد الفرق شاسعا بين المعاملة التى لقيها الأمير فى القاهرة ، وبين تلك التى قوبل بها فى الأستانة ، وهو فرق ينبيء عن صلة الدم

والعروبة بين مصر والجزيرة العربية ، فان محمد على أنزل الأمير السعودى فى منزل يليق به ، وأحسن استقباله ، وحادثه ببشاشة ، ووعده بالعون لدى السلطان ، وخلع عليه ، وأحسن له ولذويه . وتلك صفات قلما نجدها بين المنتصر والمهزوم .

أما باقى الأسرى فيتحدث عنهم الجبرتى بقوله : حضر بواقى السعوديين والوهابية بحريمهم وأولادهم ، وكانوا نحو أربعمائة نسمة ، وأسكنوا بالقرب من الأزبكية من غير حرج عليهم ، وطفقوا يذهبون ويجيئون ويمشون فى الأسواق ويشترون البضائع والاحتياجات ، وتردد كثير من مشايخ الوهابية على العلماء والشيوخ بمصر واستمعوا إليهم واستفادوا من علومهم (١) .

ويرى بعض المفكرين أن اللقاء العلمى بين أتباع الشيخ محمد عبد الوهاب وبين علماء مصر أثرى الفكر الوهابى وهدأ نوعا ما من غلوائه ، وهذا هو السبب فى الفرق الذى اتضح فيما بعد بين هؤلاء من جانب وبين « الاخوان » الذين سنتحدث عنهم فيما بعد من جانب آخر ، فإن هؤلاء « الإخوان » ظلوا نشأة بدوية أميل إلى الخشونة والجفوة ، وكانت تعارض كل إصلاح وتراه بدعة ، مما اضطر الملك عبد العزيز إلى مصارعتهم والقضاء عليهم .

أما اللقاء السياسى بين قادة مصر وقادة السعوديين فقد برهن على أن العلاقات بين مصر والسعوديين لها جذور طيبة ، ولا تشابهها أو تقرب منها العلاقات بين السعوديين والعثمانيين ، أو بين السعوديين والأشراف .

سابعا : نعيب على محمد على باشا أنه أرسل عبد الله بن سعود إلى الأستانة ، واكتفى بالوعد بأنه « سيترجى فيه السلطان » فمحمد على يعرف قسوة السلاطين وسهولة إراقة الدماء عندهم ، وقد كان لمحمد

---

(١) تاريخ الجبرتى جـ٤ صفحات ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣١٩ .

عـلى وزنـه آنذاك ، ولو اعتبر محمد على الأميرَ السعودى لاجئا له لكان من الممكن فيما نعتقد أن يُـنـْقـَذ الأمير من القتل ، وكان ذلك يوضع فى ميزان الحسـنات له .

وهكذا زالت الدولة السعودية الأولى ، ولكنها وضعت الأساس الذى لم يمكن إزالته ، وعلى هذا الأساس بدأت تقوم الدولة السعودية الثانية التى آن الأوان لنتكلم عنها .

الدولة السعودية الثانية

فترة صراع من سنة ١٨٢١ الى ١٨٨٩

تمكّن محمد على من الاستيلاء على الحجاز ونَجْد وبلاد عسير ، ولم يتقدّم هذه البلاد إلى العثمانيين بل شرع فى إدارتها على وجه الاستقلال كما لو كانت خاضعة لحكمه المباشر [1] .

ولم يطل بقاء المصريين فى نجد التى سيطروا عليها فى سنة ١٨١٨ ، فلم تجىء سنة ١٨٢١ حتى كانوا قد بدءوا الانسحاب منها مكتفين بالحجاز وقانعين من نجد بالاعتراف الاسمى بسلطانهم ، وهكذا يؤكد وجهة النظر التى ترى أن الزحف المصرى على الجزيرة العربية لم يكن استجابة لتعليمات الأستانة بقدر ما كان لدافع داخلى هو الرغبة فى إعادة ربط الحجاز بمصر ، وهو ما حدث فى أكثر فترات التاريخ الإسلامى .

ونقطة أخرى تؤكد هذا الاتجاه ، تلك هى بروز الصراع السافر بين محمد على وبين الأستانة بعد ذلك ، وقد اتضح فى هذا الصراع أن محمد على حريص على أن يكون الحجاز لمصر تماما ، ولكن الدولة العثمانية كانت تدرك أن ذلك يضعف مكانتها الدينية فى العالم الاسلامى ، وقد طلبت تركيا تدخل روسيا وأوروبا فى هذا الصراع ، وكانت انجلترا تخشى التطور السياسى والدينى للقوة الناشئة فى مصر ، فأخذت جانب الأتراك مع الآخرين ، وأرغم محمد على على إخلاء الحجاز سنة ١٨٤٠ م وضاعت سدى تلك الدماء العربية التى أريقت على الأرض المقدسة من المهاجمين أو المدافعين وانتهت بذلك علاقة مصر بالحجاز .

وهكذا انسحبت مصر من نجد سنة ١٨٢١ وبقيت بالحجاز حتى سنة ١٨٤٠ م ثم انسحبت منه أيضا كما قلنا ، وقد خلفهم الأشراف فى الحجاز

---

(١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

يحكمونه باسم العثمانيين (وسنتكلم عن الأشراف فيما بعد) أما نجد فإن انسحاب مصر منها ترك بها فراغا هائلا واضطرابات جمة كتلك التى تحصل دائما وقت المحن ، فقد حاول السعوديون استعادة مكانتهم ، ولكن الصراع كان قد طحنهم ، وجعل جبهتهم متصدعة حافلة بالفتن ، كما كانت هناك قوى أخرى فى نجد وفى الأحساء نافست السعوديين ومن أهمها قوة آل الرشيد التى نمت وأصبحت خطرا على السعوديين وقد تحدثنا عنها من قبل (١) .

على أن أشق ما عاناه السعوديون كان الفتن الداخلية بين أمرائهم ، وقد سقط فى هذه الفترة عـــدد من الأمراء كان بعضـــهم خفيف الوزن لا يستحق الذكر ، وكان بعضهم بطلا ولكن الظروف كانت أقوى منه ، ومن هؤلاء الأبطال الأمير تركى الذى استعاد الرياض ، واستعاد كثيرا من ملك آبائه بمعاونة ابنه فيصل ، ثم قتل تركى غدرا بيد ابن عمـــه مشارى بن عبد الرحمن بن سعود ، مع أن الأمير تركى أكرم مشارى هذا عقب عودته من مصر ووفادته عليه ، ولكن الهزائم والاضطرابات تخلق الفتن ، وتخرب الذمم ، وقد دفع هذا القاتل رأسه ثمنا لغدره ، فقد قتله فيصل بن تركى ثأرا لأبيه ، وراح فيصل فى إمارته الأولى (١٨٣٤ — ١٨٤٨) يواجه التفكك الذى كان لا يزال سائدا فى نجد ، وكان كجده محمد بن سعود فى لينه أحيانا وشجاعته أحيانا ، وقد استطاع أن يستعيد نجد كلهـــا وينشر بهـــا الأمن والســـلام ، وأخـــذ يتطلع للحجـــاز التى كانت لا تزال تابعة لمصر ، فتصدت له مصر ، وكان مع مصر بعض النجديين بقيادة خالد بن سعود وأرسلت مصر حملة بقيادة خورشيد باشا سنة ١٨٣٨ م ولم يستطع فيصل أن يطيل أمد مقاومته لها ، فاستسلم وأرسل إلى مصر مع أخيه جلوى وولديه عبد الله ومحمد وعينت مصر خالد بن سعود مكانه ، وبعد نهاية حكم مصر فى الجزيرة العربية أى

---

(١) انظر حديثنا عن آل الرشيد وموقفهم من الدولة السعودية الثانية فيما كتبنا آنفا .

بعد سنة ١٨٤٠ خلعه أهل نجد وولوا عبد الله بن ثنيان ، ولم يدم حكمه كذلك فترة ذات بال ، فإن مصر أطلقت فيصلى فعاد هذا إلى نجد واستعاد الإمارة ، وظل بها بقية عمره ، وقد ساعده على الاستقرار نهاية النفوذ المصرى بالجزيرة ، وحسن الصلة مع الأتراك الذى عمل له فيصل ، وبعد وفاة فيصل هبت حقبة جديدة من الحروب الأهلية فى هذا العهد متمثلة فى الصراع بين ولدى فيصل عبد الله الثالث الذى تولى الإمارة أولا ، وسعود الثالث الذى اغتصب الإمارة من أخيه عبد الله فترة ، ولكنه سرعان ما مات واستطاع أولاده أن يقبضوا على عمهم ويأسروه وأن يتولوا السلطة فى الرياض ، وقد أضعف هذا الصراع شأن السعوديين وقوى جانب منافسهم محمد بن رشيد فى حائل • وانتهز ابن الرشيد فرصة سنحت له ، فإن عبد الله الثالث استنجد به ليفك أسره ، فهب ابن الرشيد للرياض وفك أسر عبد الله وأخذه إلى حائل ، وقتل كثيرا من السعوديين ومكن لنفسه فى الرياض ، وأقام بها عاملا من قبله بجوار عبد الرحمن بن فيصل (والد جلالة الملك عبد العزيز) الذى اختاره ابن رشيد أميرا للرياض ولكن عبد الرحمن لم يقبل أن يحكم الرياض فى ظل ابن رشيد ، ودار صراع فى القصيم بين الأمير عبد الرحمن وأمير عنيزة وأمير بريدة من جانب وبين ابن رشيد من جانب آخر ، وكانت الغلبة لابن رشيد وكانت هذه آخر محاولة يستطيعها الأمير عبد الرحمن ، فلما فشلت حمل متاعه إلى الكويت حيث نزل فى ضيافة آل صباح سنة ١٨٩١ وولى ابن الرشيد محمد بن فيصل بن تركى ليحكم الرياض تحت سلطانه ، ولما مات محمد هذا استبد ابن الرشيد بالأمر ظاهرا وباطنا (١) ، وانتهت بذلك الدولة السعودية الثانية التى كانت حافلة بالاضطراب والفوضى •

ذلك تصوير سريع لتاريخ نجد من مطلع الإسلام حتى قيام المملكة العربية السعودية التى آن لنا أن نتحدث عنها وعن أمجادها ، والتى

---

(١) سيأتى حديث خاص عن آل الرشيد فيما بعد .

كوّنت دولة حقيقية بالجزيرة العربية ، ذابت فيها المــدن والقبــائل ، واختفت الميول المتعارضة ، وأصبح الكل يفخر بالانتساب لها ، وليست بها سيطرة لمدينة على مدينة ولا لقبيلة على قبيلة ، وانما السلطة للقــانون ولشريعة السماء التى اتخذتها الدولة دستورا لها ، وقــد عملت المملكة العربية السعودية على الربط الشامل بين هذه الأصقاع بواسطة الطرق المرصوفة ، وبواسطة الطائرات التى تنتشر مطاراتها فى مختلف النواحى بالبلاد ، بواسطة الصحافة والإذاعة .

وسيطول حديثنا عن المملكة العربية السعودية وعمّا حققت لإنسانها بوجه خاص وللإنسان العربى والمسلم بوجه عام .

المملكة العربية السعودية

الدولة السعودية الثالثة
من سنة ١٩٠١ م
دولة البطولة والاستقرار والتقدم

يرتبط قيام الدولة السعودية الثالث بشخصية تعددت فيها نواحى التفوق والجلال ، تلك هى شخصية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ، لقد كان الرجل شجاعا لا يعرف التردد ، ونبيلا لا ينسى وعده ولا يغدر فيه ، وكريما شديد الرغبة فى العطاء ، وعبقريا يحسب خطواته بدقة .

وقد خلقت المحن هذا البطل ، ودفعته الأقدار ليلعب دورا يشبه الأحلام والأساطير .

والجزيرة العربية فى مطلع القرن العشرين كانت بها قوتان كبيرتان هما السلطنة العثمانية والامبراطورية البريطانية ، وكانت هناك قوى عربية كثيرة تعيش فى ظل القوتين الكبيرتين . ففى ظل العثمانيين كانت تعيش قوى الداخل ، وفى ظل الانجليز كانت تعيش القوى التى تقطن ساحل الخليج ، وبوجه الدقة كان الأشراف بالحجاز ، وآل الرشيد بحائل والرياض ، ونائف الهزال فى عنيزة ، ومحمد أبو الخيل فى بريدة ، كل هؤلاء كانوا يدينون بالولاء للعثمانيين ، أما آل الصباح بالكويت ، وأمراء البحرين فكان ولاؤهم للإنجليز .

فى هذا الجو وصل عبد العزيز إلى عهد الشباب ، وحمل مسئولية الصراع ، واتجه بكل قوته إلى مسقط رأسه وعاصمة أجداده إلى الرياض ، وأول معركة خاضها عبد العزيز فى هذا الشأن كانت تلك المعركة التى أعد جيشها أمير الكويت واشترك فيها آل سعود ضد آل رشيد ، ولم تنجح هذه المعركة ، كما ذكرنا من قبل وكأنما أحس عبد العزيز أن نجاحها

سينتقل الرياض من سلطة آل الرشيد إلى سلطة آل الصباح ، وهو يريد الرياض بجهده خالصة له ولآله ، ولأجل هذا الهدف كان لابد من خطة تجمع بين المغامرة والدقة ، بين المفاجأة والتنظيم ، ووضع عبد العزيز هذه الخطة ، وهى كما قلنا من قبل شىء أشبه بالأساطير .

لقد خرج هذا الشاب يريد تحقيق هذا الهدف الكبير بمجموعة صغيرة العدد قليلة العدة ، ولكنها كبيرة القلوب والآمال ، لقد كان عددها ستين شخصا ، ولكنهم كانوا من الرجال الأشداء المخلصين ، كانوا من بنى قومه ومن خلصائه ، كان منهم أخوه محمد وابن عمه عبد الله بن جلوى وعبد العزيز بن مساعد ، ووصل بهم مكانا اسمه « ذيل عشب » بضواحى الرياض فى الرابع من شوال سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١) وعسكر بهم فى مكان لا يلفت الأنظار .

وبعد أن استراح قليلا ترك منهم عشرين فارسا فى هذا المكان لحراسة مؤخرتهم ، وقال لهم اذا لم تأت لهم أخبار منه خلال أربع وعشرين ساعة فإن عليهم أن يذهبوا إلى الكويت ويخبروا والده أن ولده عبد العزيز ومن معه قد قضوا نحبهم ، أو سقطوا أسرى بيد ابن الرشيد .

وتقدم بالعدد الباقى قاصدا الرياض ، وقبل أن نواصل الكلام عن هذا الزحف الهادىء الهائل يجدر بنا أن نتعرف على الحالة فى الرياض آنذاك لنرى ظروف هذه المدينة التى سيقفز لها هؤلاء العمالقة .

كان ابن الرشيد قد بنى حصنا بالرياض سماه (المصمك) وأنزل به جماعة من رجاله الأشداء ، وعين لإدارة الرياض واليا من الأبطال اسمه عجلان ، وكان هذا الوالى يخاف انتفاضة الرياض ، أو يخاف أى هجوم على الرياض من الخارج ، ومن أجل هذا كان يمضى ليله فى هذا الحصن بين الجنود ، ولا يأوى إلى بيته إلا مع إشراقة الصباح وكان هذا التصرف سرا لا يعرفه إلا خاصته ، وبالتالى لم يعرفه عبد العزيز آل سعود ولا

صحبه ، وقد استلزم ذلك أن تدور المعركة على نحو غير النحو الذى خططت له ، ولبيان ذلك نعود إلى الجماعة المهاجمة بقيادة عبد العزيز لنعايشها لحظة لحظة فى تلك الأمسية التى غيرت وجه التاريخ فى هذه المنطقة .

عندما وصل عبد العزيز وصحبه الأربعون إلى سور الرياض أبقى ثلاثون بجوار السور برياسة شقيقه محمد انتظارا لتعليماته وتقدم بالعشرة الباقين ، فاستطاع بهم أن يتخطى الأسوار حتى وصلوا إلى بيت مجاور لبيت الأمير عجلان عامل ابن الرشيد ، وكان هذا البيت مملوكا لتاجر ، فعرفت زوجة التاجر عبد العزيز وأوشكت أن تصيح بين الخوف والترحاب ، ولكن عبد العزيز أمرها بالصمت الشامل ، وهدد بأن أى صوت سيجلب الضرر على صاحبه ، ولضمان الصمت دفعهم عبد العزيز إلى إحدى غرف المنزل وأقفلها عليهم ، وتسلق عبد العزيز وصحبه إلى بيت آخر مجاور لبيت الأمير عجلان ، وفيه وجد امرأة وزوجها نائمين فأغلق عليهما الباب كما فعل مع أصحاب البيت الأول ، وأصبح عبد العزيز بذلك قريبا من المعمعة التى كان يتوقعها ، وحينئذ أرسل إلى أخيه وإلى من معه الذين تركهم عند أسوار المدينة ليلحقوا به ، وعندما اجتمع جمعهم بدءوا يتسلقون أسوار قصر عجلان ، وكان عبد العزيز يعتقد أنه سيواجه عجلان بقصره فقضى عليه نائما أو مستيقظا ، ولكنه عرف وهو بالقصر أن عجلان لا يبيت فى المنزل ، وقد أخبرته بذلك زوجة عجلان ، ولكنه هددها بالويل والثبور إن رفعت صوتها ، وجلس عبد العزيز وصحبه يترقبون لحظة خروج عجلان من الحصن مع إشراقة الصبح .

وفتح باب الحصن وخرج منه عجلان بين عشرة من رجاله ، فدفع عبد العزيز بعض صحبه ليدخلوا الحصن وليواجهوا من بداخله ، واندفع هو ومعه بعض رفاقه لمواجهة عجلان ، ودار صراع مرير ، صراع حياة أو موت بين عبد العزيز وعجلان ، وحاول الأخير أن يرتد إلى الحصن ولكن عبد العزيز حال دون ذلك فى أول الأمر ، ولكن عجلان استطاع

على الرغم من إصابته برصاصة من بندقية عبد العزيز أن يصل إلى داخل الحصن ، بيد أن عبد الله بن جلوى لحق به وقضى عليه ، وفى هذه الأثناء كان الرصاص يندفع من كلا الطرفين ، وعندما عرف أتباع ابن الرشيد أن الأمير عجلان سقط قتيلا ضعفت قوتهم وهانت عزائمهم ، وكان عددهم حوالى الثمانين قتل أكثرهم واعتصم الباقون فى برج من بروج الحصن فأمنهم عبد العزيز فاستسلموا •

ومما يذكر عن الملك عبد العزيز أنه كان لا يحب سفك الدمـــاء إلا للضرورة القصوى ، وكان يؤمّن من طلب الأمان ، ولا يعرف التاريخ أنه غدر فى أمان أعطاه •

ومع إشراقة الشمس نادى المنادى بأن آل سعود عادوا إلى الرياض بقيادة عبد العزيز ، وأن عامل ابن الرشيد قد قتل كما قتل بعض رجاله واستسلم الباقون ، فضجت المدينة بالفـــرح والبشرى بسبب ما عاناه السكان خلال حكم ابن الرشيد ، وامتلأ الجو بأهازيج الأغانى ، وزحفت جموع المهنئين تعلن الفرح والتأييد ، وقد قتل فى هذه المعركة اثنان من أتباع عبد العزيز ، وجرح أربعة (١) •

وسرعان ما أخذ عبد العزيز يحصن الرياض ، ثم استدعى أباه وذويه وأتباعه ، وفى فترة قصيرة أصبحت الرياض قوة سعودية هائلة ، وقفت بصلابة أمام المحاولات المتعددة التى قام بها ابن الرشيد ليسلبها مـــرة أخرى ، وكانت وفود الأبطال تأتى اليه من كل الجهات تدعم جبهته وتقوى بنيانه •

وقفة عند المواقع التاريخية :

فى يناير سنة ١٩٧٧ زرت « المصمك » ورأيت أبراجه ، وعشـــت

(١) روى الملك عبد العزيز قصة هذا الصراع وقد تلقاه عنه عدد كبير من السامعين ودونته عدة مؤلفات •

ردحا من الزمن فى المكان الذى شهد هــذه المعركة التى غيرت تـاريخ المنطقــة ، ورأيت بقايا الحراب بباب الصمك ، وقد تأسف لأن أكثر المعالم من الأسوار والمنازل التى شهدت هذه الأحداث التاريخية قد أزيلت ، وحلت محلها عمارات شاهقة ، ولو كان الحس التاريخى قويــا لاشتد الحرص على هذه المواقع التاريخية ، أو لعل ان الناس لا يحسون بقيمة مثل هذه المواقع وهم على مقربة زمنية مع الأحداث ، ولكن اذا بَعُد الزمن ظهرت القيمة التاريخية لهذه المواقع ، وكم أتمنى أن تعاد هذه المنطقة الى ما كانت عليه ، فذلك كسب عظيم للتاريخ •

عبد العزيز يواصل جهوده :

بعد فترة رأى عبد العزيز أنه آن الأوان ليخرج من الرياض مستبيدا الملك السليب ، فبدأت حملاته تشق الطرق ، وتبعث الضجيج فى نجد ، وهاجم مقاطعات نجد واحدة بعــد أخرى حتى استعادها جميعا عــلى النظام التالى :

فى عام ١٣٢٠ هـ ١٩٠٣ م احتل واحتى الخرج والأفلاق •
وفى عام ١٣٢١ هـ ١٩٠٤ م احتل السدير والوشم •
وفى عام ١٣٢٢ هـ ١٩٠٥ م احتل عنيزة •
وفى عام ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م احتل بريدة •

على أن المعارك التى دارت حول بريدة كانت بعيدة الأثر فى حياة عبد العزيز ، وفى حياة منطقة نجد ، ففى موقعة (روضة مهنا) قــرب بريدة سنة ١٩٠٦ سقط ابن الرشيد قتيلا ، وتضعضعت بموته سلطة قومه ، وتضعضعت بموته كذلك أطماع العثمانيين الذين كانوا يصارعون عبد العزيز فى نجد بواسطة آل الرشيد ، ولم يجد العثمانيين بدآ من محاولة إجراء نوع من المصالحة بينهم وبين عبد العزيز الذى بدأ فارس الميدان وبطل نجد ، ولكن عبد العزيز كان لا يثق فيهم ومن هنا مرت فترة بين الشدة

والأمن ، ولكن اتجاه عبد العزيز إلى ضرورة النصر جعل المعركة فى هـذه الآونة لا تحسم إلا بالسيف ومن أجل هذا كان على عبد العزيز أن يخوض فى الجزيرة العربية جولات أبعد مدى ، وأشد قسوة ، ومناطق هـذه الجولات هى :

الأحساء : حيث كان يعسكر العثمانيون .

حائل : منطقة آل الرشيد .

عسير : حيث إمارات الادريسيين وآل عائض .

الحجاز : حيث سلطة الأشراف .

وفى الصفحات التالية سنتدارس هذا الصراع منطقة إثر منطقة ، لنرى النتائج التى حصل عليها الملك البطل :

الأحســـاء

تضبط الأحساء بفتح الهمزة ، ويقول ياقوت [١] إنها جمع « حِسى » بكسر الحاء وهو ماء المطر يهبط على أرض تكسوهـا الرمال ، وتحت الرمال أرض صلبة ، فإذا نزل المطر سرعان ما يختفى بين الرمال حتى يصل الى الأرض الصلبة فتحجزه ، ويمكن الحصول عليه بحفر الآبار ، ويكون عذبا باردا .

ويذكر ياقوت أن البادية بها عدة أحساء وأن من أشهرها أحســاء الخليج فى منطقة البحرين .

ومنطقة الأحساء هذه منطقة مهمـة من مناطق المملكة العربيــة السعودية ، وكان يحكمها الفرس قبل الإسلام ، وكان يسكن بها جماعات من عبيد قيس وبكر وتميم ، وقد أرسل لها الرسول العلاء بن عبـد الله الحضرمى ، فدخلت الإسلام على يديه ، وفى الأحساء قامت دولة القرامطة ، وبعد القرامطة تنازعتها الأيدى الحاكمة ، وعبثت بها أيدى البدو ، وقد فتحها السعوديون فى دولتهم الأولى ، ثم انتزعتها منهم المصريون بعـد دخولهم الدرعية سنة ١٨١٨ ، وعادت للسعوديين فى دولتهم الثانية فى عهد الأمير فيصل ، وظلت تحت حكم السعوديين حتى عهد ابنه عبد الله حيث استولى عليها مدحت باشا سنة ١٨٧١ باسم الأتراك وألحقها بولايــة البصرة ، وأخيرا كان فتحهـا الثالث على يد عبـد العزيز آل سـعود سنة ١٩١٣ [٢] .

وقد اتبع عبد العزيز تخطيطا دقيقا لفتح الأحساء ، فقد سـار فى احدى ليالى الربيع فى سبعة آلاف من رجاله الأقوياء قاصدا المنطقــة الشرقية ، واتجه الى الهفوف مركز الادارة العثمـانية ، وقـد استعان

---

(١) معجم البلدان جـ١ ص ٣٦ .
(٢) حافظة وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٨٣ .

عبد العزيز بأعوانه من آل القصيبى ويوسف الذين كتبوا له عن مواطن الضعف وعن أصلح الأماكن للهجوم ، وقبيل الفجر كان عبد العزيز يحاصر بقواته الهائلة حامية العثمانيين ، التى فوجئت بهذا الحصار ، فلجأ عدد من الحامية وعائلاتهم الى مسجد هناك وتحصنوا فيه ، فحاصرهم عبد العزيز وهددهم فاستسلموا ، وأمنهم عبد العزيز على حياتهم وأسلحتهم الخفيفة ان خرجوا من غير قتال ، فقبلوا ذلك ، فرحلهم عبد العزيز الى (العقير) ومن هناك أعد لهم سفنا نقلتهم إلى البحرين ، ولم يسمح لهم بنقل الأسلحة الثقيلة التى كانت موجودة فى الهفوف .

وبسقوط الهفوف لم تستطع الحامية العثمانية فى القطيف أن تقاوم ، فاستسلمت للقوة التى أرسلها لها عبد العزيز ، وسلكت الحامية العثمانية فى العقير نفس المسلك (١) .

وكان فتح الأحساء ذا شأن كبير من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية ، فقد وضع السعوديون أقدامهم على ساحل الخليج مرة أخرى ، وذلك يحقق لهم مكانة سياسية واقتصادية هائلة ، ثم ان هذه المنطقة هى التى انفجرت منها كنوز البترول ، تلك الكنوز التى دفعت الخير والترف إلى مملكة آل سعود .

وتاريخ فتح الأحساء يضع مؤشرا خطيرا ، فإن الحرب العالمية الأولى كانت على الأبواب ، ووجد العثمانيون ألا مناص من وضع حد لهذا الصراع حتى يتفرغوا للخطر الأعظم الذى كان يهدد العالم آنذاك ، فاعترف العثمانيون بعبد العزيز واليا على نجد ، ومتصرفا على الأحساء ، على أن تكون ولاية نجد من بعده لأولاده وأحفاده ، ومن الواضح أن العثمانيين لم يكونوا مخلصين فى هذا الاتجاه ، ولكن الضرورة ألجأتهم له ، بدليل أنهم كانوا فى نفس الوقت يشجعون آل الرشيد ويمدونهم بالسلاح لمهاجمة نجد ، ومناضلة السعوديين . ولم يكن البترول قد تدفق آنذاك فى منطقة الأحساء ، وهذا سهل على العثمانيين التضحية بالمنطقة .

---

(١) محمد فرج : الأمة العربية ص ٧٣ .

ومن نتائج اقتصار السعوديين على الأحساء كذلك أن بريطانيا بدأت تتصل بعبد العزيز ، وتدخل معه فى مباحثات سياسية إذ كانت بريطانيا فى ذلك الحين تحتل الكويت وتستعد كذلك لخوض الحرب العالمية الأولى ، وقد نتج عن هذه المباحثات أن عُقدت معاهدة (العقير) بين عبد العزيز وبين بريطانيا ، وكان فى هذه المعاهدة تأييد لعبد العزيز من القوة العظمى ، وفى نفس الوقت كانت تحوى بعض القيود ضد استقلال الدولة السعودية ، ومن أجل هذا حرص الملك عبد العزيز فيما بعد على أن يتخلص من هذه القيود عندما توطدت أقدامه وساعدته الظروف على ذلك •

الحرب العالمية الأولى وأثرها على المنطقة :

انتهى عبد العزيز من الأحساء سنة ١٩١٣ كما رأينا ، وقبل أن يواصل صراعه فى المناطق الأخرى بالجزيرة اندفعت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، فشغلت العالم كله ، ويبدو أن الدول الكبرى أرغمت الدول الصغرى على عدم إثارة المشكلات فى فترة الحرب العالمية الحرجة ، فكان من الضرورى أن تؤجَّل — إلى حينٍ — خطواتُ الصراع الذى كان على السعوديين أن يخوضوه •

وكان عبد العزيز خلال الحرب العالمية الأولى حسن الصلة بالانجليز ، لأن الصلة بينه وبين العثمانيين لم تكن طيبة ، ثم ان انتصار العثمانيين كان معناه استمرار استغلال هؤلاء للإسلام للسيطرة على البلاد العربية ، وذلك ما لم يكن عبد العزيز ولا العرب يريدونه ، وانتهت هذه الحرب بهزيمة العثمانيين وبالتالى بجلائهم عن البلاد العربية كلها ، ومن ضمنها الجزيرة العربية وقد قفز على أثر ذلك شريف الحجاز يطمع فى أن يحل محل العثمانيين فى الجزيرة ، كما كانت هناك منطقتا حائل وعسير تنتظران جولة السعوديين ، وسنواصل فيما يلى وصف الصراع الذى عاناه الملك عبد العزيز ضد هذه القوى حتى تتضح النتائج النهائية •

آل الرشيد

في مطلع القرن التاسع عشر الميلادى كانت جبال شمر وعاصمتها حائل خاضعة للأمير محمد بن عبد المحسن بن على ، ولكن كان هنـاك منافس يتطلع للسلطة ، ذلك المنافس هو عبد الله بن على بن الرشيد من عشيرة جعفر .

ولم يقو عبد الله بن الرشيد على الصراع ، فترك المنطقة ، ولجأ إلى الرياض التى كان الأمير تركى يعيد إنشاءها بعد انسحاب الترك والمصريين منها ، وتقرب عبد الله بن الرشيد من فيصل بن تركى ، وصاحبه فى غزواته فى حياته أبيه ، ولما قتل مشارى ابن عمه الامام تركى واستولى على الامارة بالرياض ، كان الأمير فيصل بن تركى آنذاك فى إحدى غزواته بالقطيف فعاد بسرعة الى الرياض ومعه عبد الله بن الرشيد ، وبذل هذا جهدا كبيرا للثأر للإمام القتيل ، واستقرت الإمارة لفيصل بن تركى الذى كافأ عبد الله ابن الرشيد بأن عينه حاكما على جبال شمر محل منافسه .

ولكن عبد الله بن الرشيد لم يستطع أن يحتفظ بإمارته طويلا ، فقد استعادها منافسوه بمعونة الترك ، وأرغموه على الفرار ، فاتخذ بعض القرى الصغيرة مركزا لنشاطه ، ثم حدث أن انصرف الترك والمصريون عن آل على ، فجدد ابن الرشيد صراعه ضد آل على ، ثم جاءت قـوة عسكرية مصرية برياسة خورشيد باشا سنة ١٨٣٨ فقابله عبد الله بن الرشيد وأعلن له خضوعه ، وقدم له هدايا وفيرة ، فاطمأن له خورشيد وأجلسه على كرسى الامارة فى حائل ، وفر أميرها من آل على تجاه المدينة المنورة ، فقتل فى الطريق ، واستقر الأمر لآل الرشيد فى حائل ، واستطاع أن يضم لإمارته منطقة الجوف (دومة الجندل) فى وادى السرحان ، كما استطاع أن يضم بعض الواحات الشمالية ، وقد حكم عبد الله هذه الولاية حتى وفاته سنة ١٨٤٧ ، تاركا ثلاثة أبناء هم طلال ومتعب ومحمد ، وإذا كـان عبد الله بن على بن الرشيد هو الذى أسس هذه الإمارة فإن طلالا ابنـه

خطا بها خطوات كبيرة للأمام ووصلت القمة فى عهد محمد الابن الثالث لعبد الله .

وتفصيل ذلك أنه فى عهد طلال استطاع هذا أن يضم لها خيبر وتيماء بعد انسحاب الترك منهما ، وبعد طلال جاء عهد ملىء بالاضطرابات والفتن والصراع بين أبناء طلال ومعهم متعب ، ثم قفز إلى السلطة محمد الابن الثالث لعبد الله بن على ، وقد استطاع أن يتخلص من كل منافسيه فخلا له الجو ، وساعدته الظروف فامتد سلطانه امتدادا واسعا حتى سيطر على كل البلاد النجدية من وادى السرحان إلى وادى الدواسر ، ومن تيماء وخيبر إلى قرب الخليج وكثيرا ما امتد سلطانه إلى تدمر وجبال حوران (١) .

ثم سنحت له فرصة فاهتبلها ، وقد أشرنا لها من قبل وهى أن صراعا دار فى البيت السعودى بين أولاد فيصل بن تركى ، واستنجد به عبد الله بن فيصل فهب إلى الرياض ودخلها ثم ثبت بها أقدامه ، وثارت القصيم وعنيزة وبريدة على حكمه وتجمعوا حول عبد الرحمن بن فيصل ابن سعود ، ولكن محمد بن عبد الله بن الرشيد هزمهم ، فقد كانت الدنيا آنذاك قد أدارت ظهرها لآل سعود ، وقد اعترف عبد الرحمن بذلك فأخلى الرياض لآل الرشيد كما قلنا من قبل ، ولجأ ضيفا على أمراء الكويت سنة ١٨٩١ م .

وكان محمد شديد القسوة ، وقد قضى على أعدائه ومنافسيه بوحشية شديدة ، وتقول ليدى آن بلنت : إن تصرفه ذلك نشر الرعب فى طول البلاد وعرضها ، ولم يعد أحد يجرؤ على معارضته ، أو إثارة الرعب فى إمارته ، ومن هنا اختفى قطّاع الطرق ، وأصبح المسافر يستطيع أن يتجول فى أى جزء من الصحراء بأمان واطمئنان ، كما اختفى اللصوص

---

(١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣٥٢ بتصرف .

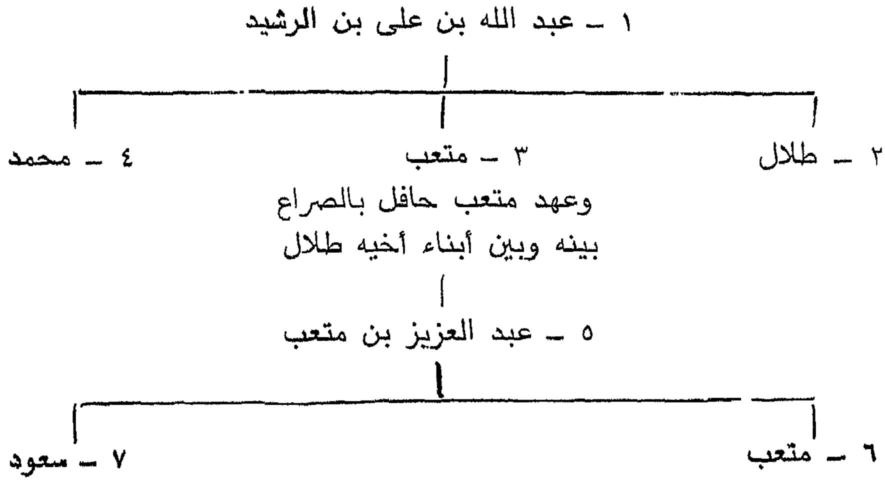
من المدن ، وكان يوارى قسوته بالكرم ، لعله يجلب رضا الناس عنه ، ولم ينجب محمد أولادا ، ولذلك هبت بعد موته صراعات مريرة [١] .

وبعد محمد بدأت الأمور تتغير ، فآل الرشيد دب بينهم خصـــام وصراع ، وآل سعود هب من بينهم بطل مغامر ذكى هو المرحوم الملك عبد العزيز ، وقد استطاع هذا أن يستعيد الرياض سنة ١٩٠١ كما ذكرنا من قبل ، ثم أخذ يوسع إمارته رويدا رويدا على حساب الحروب الداخلية التى هبت بين أمراء آل الرشيد الذين لا يستحقون أن نذكر أسماءهم أو نقف عندهم ، وبعد الحرب العالمية الأولى ، وبعد أن فقد آل الرشيد حماية الأتراك العثمانيين وعونهم أصبح سهلا على الملك عبد العزيز آل سعود أن يقضى عليهم ، وأن يضم إلى مملكتـــه آخر قلاعهم فى حـــائل سنة ١٩٢١ م .

---

(١) رحلة إلى نجد ص ١٦٣ .

واشهر أمراء آل الرشيد هم :



منطقة عسير

تذكر الوثائق والمراجع التاريخية (١) أحاديث فيها كثير من الغموض عن إمارات صغيرة قامت جنوب الحجاز فى عسير وفى الجنوب منها إلى حدود اليمن ، وسكان هذه المناطق ليسوا شيعة ، ولذلك حرصوا على عدم الاندماج فى الدولة الزيدية باليمن ، ولكنهم فى الوقت نفسه حرصوا على ألا تشملهم شرافة مكة ، ويمكن القول ان هذه الامارات الصغيرة كان يشملها التفكك الواسع الذى لف الجزيرة كلها منذ أمد بعيد ، ومع الطابع الاستقلالى لهذه الإمارات فإنها كانت تعترف بشكل ما بسلطة الحكومة ، التركية بعد الزحف التركى الى الحجاز ، إذ كان الأتراك لهم سلطان فعلى على منطقة القنفذة بالساحل ، وبذلك كانت تهاجم هذه الإمارات وكان الأشراف فى بعض عهود قوتهم يمدون نفوذهم الى هذه المناطق أو أكثرها فيعترف الأمراء بسلطانهم وبمكانتهم •

وأقدم هذه الإمارات إمارة أبو عريش التى ظهرت على أثر دخول العثمانيين مصر والحجاز ، واتفقت واختلفت مع العثمانيين ثم انقطعت أخبارها حتى مطلع القرن التاسع عشر حيث بدأت تظهر من جديد ، وتشترك فى الأحداث التى قامت بها مصر والسعوديون والعثمانيون فى هذه المناطق ، وقد حل الادريسيون محل آل أبى عريش ، والادريسيون جديرون بكلمة أوسع بالنسبة للمكانة التى حققوها فى هذه المنطقة ردحا من الزمن ، وجدُّ الأدارسة رجل من أهل العلم والصلاح جاء من المغرب الأقصى ، وعاش فى صبيا فى رحاب آل عريش فترة نافس فيها الزيدية فى الجنوب ، والوهابية فى نجد ، فالتف حوله كثير من الناس ، فلما ضعف آل عريش كان الأدارسة فى وضع يهيىء لهم أن يرثوا السلطة فى هذه الإمارة ، وكان أول من أعلن قيام الأدارسة هو السيد محمد على الإدريسى •

---

(١) فى هذا الموضوع توجد وثائق لدى وزارة الخارجية السعودية ووزارة الخارجية البريطانية ، كما توجد عدة كتب مثل تاريخ بلاد العرب لهوغارث ، وظهور أئمة صنعاء لتريتون ، وتاريخ المخلاف السليمانى لفهد بن أحمد بن عيسى •

والسيد محمد على الإدريسى ولد فى صبيا وتعلم فى مكة وفى الأزهر الشريف ، وزار واحة الكفرة مركز السنوسية ، وزار السودان ، ثم عاد إلى صبيا ، وقد استفاد من هذه الرحلات تجارب مهمة ، ثم إن الفترة كانت تمنح الفرص لأنها فترة السلطان عبد الحميد ، وما مارسه من أعمال المكر والحيل ، ولم يضيع الإدريسى الفرصة فأعلن استقلاله بمنطقة صبيا ، وأرسلت له الحكومة العثمانية قائدا يتعرف حاله ، فاستطاع الادريسى أن يخدعه وأن يظهر الولاء للدولة فنال رضا ذلك القائد ، وثبته فى صبيا وأبى عريش .

ولم يدم هذا الوفاق طويلا فإن الادريسى أخذ يوسع دائرته ويهاجم ولاة العثمانيين ، وأعلن الانفصال عن الدولة العثمانية سنة ١٩١٠ م ، ولكن الشريف حسين شريف مكة أبدى استعداده بالنيابة عن العثمانيين فى كبح جماحه ، وسار فعلا ولكنه لم يحقق نجاحا يذكر ، وبعد عودة جيش الشريف اتفق الادريسى مع أيطاليا ، وأخذ منها بعض أسلحة ، وكان الصراع بينها وبين العثمانيين قد بدأ ، واستطاع أن يثبت أقدامه فى منطقته ، وقامت الحرب العالمية الأولى فاتفق الادريسى مع الانجليز ، وعقد معهم معاهدة سنة ١٩١٧ اعترفوا فيها بسيادته على تهامة حتى اللحية فى الجنوب والقنفدة فى الشمال ، وبلغت دولة الأدارسة فى عسير بذلك أقصى اتساعها فشملت قبائل قحطان بالقسم الجنوبى من عسير ، والقسم الأكبر من تهامة من البرك حتى الحديدة ، ويبلغ طول هذه المنطقة من الشمال للجنوب ٣٥٠ ميلا وعرضها ٧٠ ميلا ، وشملت ما كان معروفا بالمخلاف السليمانى وجيزان وغيرها ، ومنطقة أبى عريش ، ووصلت جنوبا إلى اللحية ، وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى ترك له الانجليز الحديدة التى احتلوها خلال الحرب اعترافا بخدماته التى قام بها ضد الأتراك ، وقد استطاع الإدريسى أن يتحالف مع سلطان نجد (الملك عبد العزيز) وبهذا وقف فى وجه الشريف حسين فى الشمال والامام يحيى فى الجنوب .

وعقب وفاة السيد محمد الادريسى الكبير سنة ١٣٤١ (١٩٢٢ م) اغتنم الامام يحيى ملك اليمن الفرصة فاستولى على الحديدة وبعض مناطق الساحل ، وثار السكان ضد الأمير الادريسى الجديد على بن محمد الذى لم يستطع حماية إمارته فهرب هذا إلى السعودية إبان فتح الحجاز . ولم يستطع الأمير الحسن شقيق الادريسى الكبير أن يحتفظ بإمارته وقتا طويلا على الرغم من ألاعيب السياسة التى اتبعها ، فأرسل للملك السعودى يطلب حمايته ، ويقول حافظ وهبة : اجتمعتُ بمندوب الإدريسى ووضعنا معا معاهدة الحماية سنة ١٩٢٦ لإنقاذ ما بقى من ملك الأدارسة [١] .

وفى سنة ١٩٣٠ طلب الأمير الإدريسى أن تضم البلاد إلى مملكة جلالة الملك عبد العزيز لتصبح جزءا لا يتجزأ من هذه المملكة ، وقد تم إعلان ذلك ولكن الإدريسى أراد سنة ١٩٣٣ أن يتراجع فثـار فى عسير تهامة ، فاغتنم الامام يحيى باليمن الفرصة ، فهاجم منطقة عسير ، واستولت جيوشه على نجران ، فأرسل الملك عبد العزيز ابنه الأمير فيصل فى مايـو سنة ١٩٣٤ على رأس قوات كبيرة نزلت جيزان ثم زحف بقواته إلى ديرى واستولى عليها ، وخضع له سكان اللحية وقبائل « مور » ثم تقدم فاستولى على الحُديدة وخضعت له قبيلة الزرانق ، وفى أثناء وجوده فى الحديدة نزلت بها قوات مسلحة بريطانية جاءت على ثلاث سفن حربية بدعوى حماية الرعايا البريطانيين الهنود الذين كانوا فى اليمن ، ووصلت سفينتان حربيتان ايطاليتان لرعاية الطليان ، وقد استطاع الأمير فيصل أن يُجرى مفاوضات مع هؤلاء وأولئك انتهت بانسحابهم من هذه المناطق ، وقد انتهى الصراع بين اليمن والسعودية بتوقيع معاهدة الطائف سنة ١٩٣٤ على أن تكون الحديدة لليمن ، وعسير تهامة ، وعسير السراة للسعودية .

وبقى من هذه الإمارات الصغيرة إمـارة آل عائض فى عسـير ، وعاصمتها أبها ، وقد نشأت هذه الإمارات فى النصف الثانى من القرن

---

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٥٠ .

الثالث عشر الهجرى ، ويقال ان عائض كان جنديا باسلا أظهر كفاءة حربية فى النضال ضد الجنود المصرية ، فأوصى به قائده على بن مجثل إلى ابن سعود ، فثبته هذا فى الإمارة بعد ابن مجثل [1] .

بلغت امارة آل عائض قمتها فى عهد محمد بن عائض ، فقد امتدت مملكته إلى عسير السراة وقسم من الحجاز وغامد وزهران ، وقسم كبير من تهامتى عسير واليمن حوالى سنة١٨٨٠ ، وقد خافت الدولة العثمانية نتيجة هذا التوسع نقضت عليه ، ولكنها عادت فاستعملت حسن بن على ابن محمد بن عائض إبان الفتن التى هبت بهذه المناطق حوالى سـنة ١٩١٠ ليكون مساعدا للوالى التركى ، وبعد الحرب العالمية وزوال الأتراك من الجزيرة العربية عاد فاستقل بإمارته ، ولكن الزحف السعودى تقدم وضم هذه المناطق إلى الدولة الأم .

وانتهت بذلك هذه الإمارات التى قصدنا الإيجاز فى الحديث عنها ، فلم تكن إلا حركات لم تصل إلى القاع ، وليست لها أهداف حضارية تخلد لها أيــة ذكريات .

أما الصراع الطويل المرير فقد كان فى الحقيقة بين السعوديين وبين الأشراف الذين كانوا يرون أنهم أصحاب الحق فى أن يخلفوا العثمانيين ويصبحوا سادة العالم العربى ، ولم تكن للأشراف بالمنطقة كفاءات أو تاريخ يساعد على تحقيق هذا الأمل ، ولكنه الغرور القاتل ، وسنفسح المجال للحديث عن الأشراف منذ مطلع نفوذهم بالجزيرة حتى القضــاء على هذا النفوذ على يد الملك عبد العزيز .

(١) أمين الريحانى : نجد الحديث وملحقاته .

الأشراف

نقرر أولا أن الاصطلاح السائد فى الحجاز هو أن يطلق اسم « الشريف » على نسل الحسن بن على رضى الله عنهما ، واسم « السيد » على نسل الحسين رضى الله عنه .

ونقرر ثانيا أن آل البيت لهم بيننا مكانة سامية لصلتهم بالأرومة الطيبة التى كان سيدنا رسول الله رائدا لها ، ولكن على أن يكونوا قد انتفعوا بما جاء به نبى الاسلام من فكر وأخلاق ، فإن حادوا عن ذلك حملوا مسئولية ذلك ، فلقد هتف نوح مناجيا ربه : رب إن ابنى من أهلى .

فأجابه الحق جل وعلا : إنه ليس من أهلك .

فالانحراف عن الحق لا يغنى معه دم ولا نسب ، ولا شك أن الكثيرين منهم قد استقاموا على الطريقة ، وكانوا جديرين بالانتساب لهذه الأرومة الطيبة ، ولكن وجد من بينهم من كان النسب هو كل بضاعته ، وحاول أن يستغل هذا النسب لتحقيق أغراض شخصية ، وذلك ما لا يتفق مع الإسلام ، وتمادى بعضهم فتمرد على كل القيم والشرائع ، فوجد منهم من لم يتورع عن قتل أخيه وأبناء عمومته فى سبيل الحكم ، بل يورد الأستاذ حافظ وهبة [1] صورا من قسوة بعضهم بأهله تقشعر الأبدان لذكرها .

واعتدى الكثيرون منهم على الحجاج لسلب أموالهم ، بل كانوا يغتالون أحيانا الحجاج النازلين فى بيوتهم [2] .

ونقرر ثالثا أن الحسن بن على كان حكيما عندما تنازل عن الخلافة

---

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١٦٦ .
(٢) المرجع السابق ص ١٦٧ .

لمعاوية لجمع كلمة المسلمين ، ولم يتشبث بها خوفا على دماء المسلمين أن تراق ، وعلى أموالهم أن ينزل بها الضر ، ولكن هذا المثل السامى لم يتكرر كثيرا ممن طمعوا فى السلطان من نسله ، فقـد حرص كثيرون منهم على السلطان بأى ثمن .

ونقرر **رابعا** أن آل البيت كانوا يطمعون فى الخلافة منذ مطلع الإسلام ، فلما أفلتت الخلافة من أيديهم الى أبى بكر وعمر وعثمان ثم إلى الدولة الأموية فالعباسية .. قنعوا بالحجاز يباشرون الشرافة عليه ولو تحت ظل الآخرين .

وفى ضوء هذه المقدمات نستطيع أن نتحدث عن الأشراف بمكة ..

كانت المدينة المنورة هى حاضرة الحجاز منذ عهد الرسول حتى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى بصرف النظر عن المحاولة التى قام بها عبد الله بن الزبير بمكة إذ لم يكتمل نجاحها .

وينسب إلى جعفر الحسنى أنه أول من جعل مكة عاصمة الحجاز ، فلقد ثار على الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ = ٩٠٨ — ٩٣٢ م) واحتل مكة وأيده الفاطميون فى ذلك فاستقر أمره ودعا للفاطميين [١] وأصبحت المدينة تابعة لمكة ، وأصبحت الحجاز تابعة لمصر بوجه عام منذ ذلك الحين .

وهناك رواية أخرى تقول إن الفاطميين أرسلوا جيشا إلى مكـة ليخلصها من القرامطة وأتباعهم ، وكان جعفر أحد رؤساء هذا الجيش فاستولى على مكة باسم الفاطميين [٢] ، ثم استقر بها ، وكون أسرة الأشراف ، وكان حكم جعفر من سنة ٣٥٥ إلى سنة ٣٧٠هـ=٩٦٥ إلى ٩٨٠م .

---

(١) Gerald de Garury : Rulers af Mecca p. 59

(٢) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣١٣ — ٣١٤ .

وجاء بعد جعفر ابنه عيسى (٣٧٠ — ٣٨٤ = ٩٨٠ — ٩٩٤ م) •

ثم جاء أخو جعفر واسمه أبو الفتوح الى سنة (٤٣١ هـ = ١٠٣٩ م) فابنه محمد من بعده •

وقد شغل أبو الفتوح وابنه محمد بصراع طويل ضد جبهتين : الجبهة الأولى الأمراء الحسينيون فى المدينة الذين حاولوا استعادة السلطان بالمدينة وجعل مكة تابعة لهم •

والجبهة الثانية : أمير حسنى اسمه الفاتكى استعان بالزيدية باليمن ليأخذ السلطة من أسرة جعفر ، وقد استطاعت أسرة الفاتكى أن تتغلب فى النهاية لانقراض أسرة جعفر ، إذ مات أميرها الأخير دون أن يكون له نسل من الذكور •

ثم قفزت للسلطة جماعة ثالثة من آل الحسن تسمى « الهواشم » [1] ، ودار صراع بين الفاتكيين والهواشم ، تغلب هؤلاء مرة وأولئك مرة أخرى ، فلما سقطت أسرة الفاطميين أزال صلاح الدين الجماعتين ، وعهد لفرع حسنى جديد ليكون منه الأشراف بمكة ، فكان رابع فرع حسنى يتولى هذه المهمة •

وفى أواخر القرن السادس الهجرى كانت المظالم قاسية على أهل مكة وعلى الحجاج ، وكان الأشراف منهمكين فى الملذات ، فاستغاث الناس بالشريف قتادة وهو من فرع خامس [2] من فروع بنى الحسن ، فاستجاب لهذا الهتاف وكان يسكن فى جهات ينبع ، فزحف إلى مكة مع أعوانه ، واستولى عليها سنة ٥٩٨ هـ ، ثم مكن لنفسه فى الحجاز ، واستقرت أسرته

---

(١) الجماعة الحسينية الاولى هى جماعة جعفر والثانية هى جماعة الفاتكى •

(٢) يرى الاستاذ حافظ وهبه (ص ١٦٦) أن قتادة مطلع الفرع الرابع فكأنه لا يعترف بالفرع الذى أسلمه صلاح الدين السلطة ويرى انه امتداد للفرع السابق •

فى هذه المكانة حتى نهاية الأشراف بالحجاز ، واستطاع أن يمد سلطانه على كافة الأرض الحجازية من خيبر شمالا حتى القنفدة جنوبا ، كما أنه حاول أن يكون حسن الصلة بكل الأطراف الاسلامية ومنفذا للتعليمات المصرية ، ولكن أولاده لم يستطيعوا أن يحافظوا على هذا الوضع مما عرضهم أحيانا للهجوم عليهم ، وإخضاعهم ، وبخاصة فى عهد المماليك بمصر الذين عينوا حكاما لحماية الحجاج وتنفيذ أوامر القاهرة ، وتركوا الأشراف بدون سلطان حتى أنهم تركوا مكة أحيانا إلى « وادى فاطمة » إذ لم يبق لهم دور فى الحكم والسياسة (١) .

ومن أهم الأشراف من نسل قتادة أبو نمى الأول ، وكان معاصرا للظاهر بيبرس ، وقد ظهر عليه مرة ميل للتمرد ، وكان الظاهر بيبرس لا يغفر هذا الاتجاه ، فكتب اليه يقول : « أما بعد يا شريف فإن الحسنة فى نفسها حسنة ومن بيت النبوة أحسن ، والسيئة فى نفسها سيئة ومن بيت النبوة أسوأ . قف عند حدك والا أغمدنا فيك سيف جدك » فانهار الرجل وأجاب : إن العبد مقر بذنبه ، تائب إلى ربه ، فإن تؤاخذ فيدك الأقوى ، وأن تعف فالعفو أقرب للتقوى (٢) » .

ومنهم كذلك الشريف أبو نمى الثانى الذى سافر إلى مصر لإعلان تسليم الحرمين للسلطان سليم العثمانى سنة ٩٢٢ هـ ، وقد انتهز أبو نمى الثانى فرصة اكتفاء العثمانيين منه بالولاء ، وقراءة اسم السلطان فى الخطبة فوسع سلطاته ، ووضع قواعد عديدة للشرافة والأشراف تعرف بقانون أبى نمى ، وكان هذا القانون يشمل ستا وثلاثين مادة أهمها جعل الإمارة إرثا فى أسرة أبى نمى ، ومنع الأشراف من الاشتغال ببعض المهن ، وحقوق الأشراف بالنسبة الى غيرهم ، وذلك بأن جعل للشريف أربعة أمثال حق غير الشريف (٣) .

---

(١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣١٥ — ٣١٦ بتصرف .
(٢) ابن فهد : اتحاف الوردى ص ٦٧٥ .
(٣) حسين محمد نصيف : ماضى الحجاز وحاضره ص ١٧ — ١٨ .

ومع وجود الفرمان العثمانى بتعيين الأشراف ، ومع وجود قانون أبى نمى ، فإن حق مصر فى الحجاز الذى باشرته عدة قرون ظل يتضح حتى فى العهد العثمانى كما ذكرنا من قبل ، فلقد كان لوآلى مصر أكبر قسط من النظارة على شئون الحجاز ، وأحيانا كان أمراء الحج من مختلف الأقطار يتدخلون فى سلطة الأشراف ويمنعونهم من مزاولة كثير مما يريدون •

وقد ظهرت فروع ثلاثة من أسرة أبى نمى الثانى وهى :

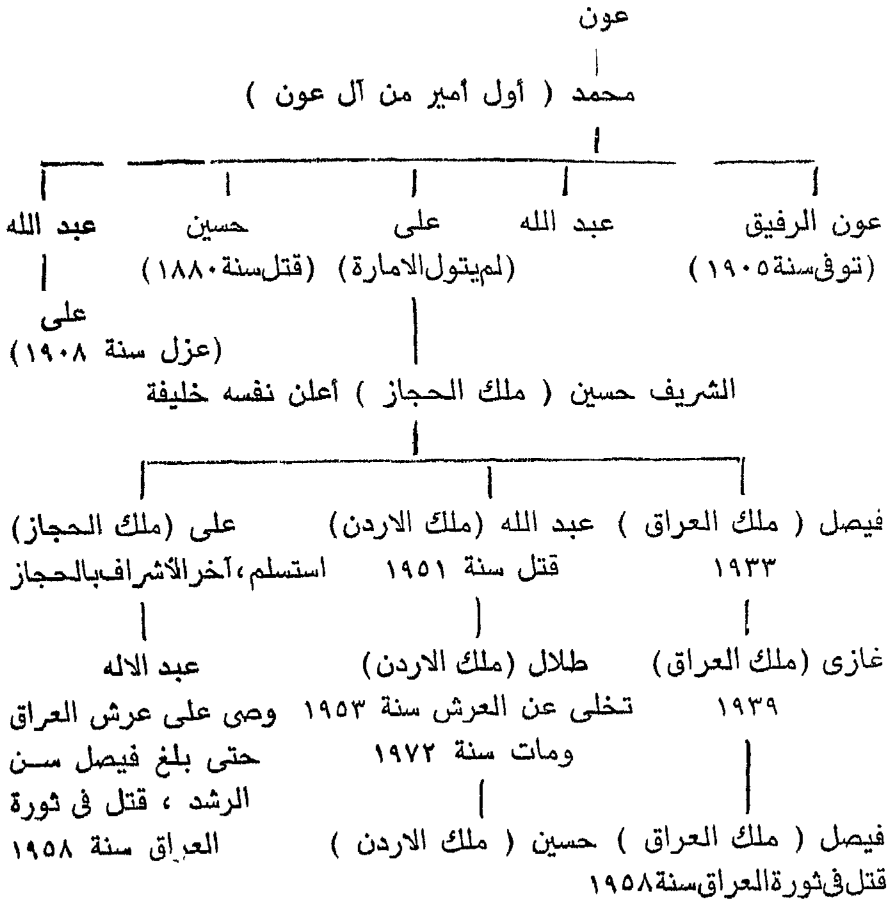
آل بركات — وآل زيد — وآل عون •

وقد استبد آل بركات بالشرافة حوالى مائة سنة (القرن العاشر الهجرى) ثم ظهر فى الجو آل زيد ونافسوهم أحيانا ، وهزموا أحيانا ، ثم كانت لهم الغلبة حتى فتح محمد على الحجاز فانتقلت الشرافة الى آل عون وبقيت فيهم حتى أزيلت •

ومن أشهر أمراء آل زيد الشريف سرور ، وقد استطاع أن يخضع الأشراف الآخرين بمكة الذين كان كل واحد منهم يعد نفسه أميرا ، وصاحب نفوذ على السكان وعلى الحجاج ، وقد أحبه أهل مكة لذلك حبا جما ، وكان بالإضافة إلى ذلك يميل للبساطة والتواضع والكرم ، مع الشجاعة النادرة والذكاء المتوقد •

ويلى سرورا فى الشهرة الشريف غالب ، وان كان دونه فى حب العدل ، وفى أيام غالب غزا السعوديون الحجاز ، كما أنه فى أيامه أيضا غزا المصريون الحجاز ونجد ، وقد قبض عليه محمد على باشا ، ونفاه الى سلانيك حيث مات هناك ، كما ذكرنا من قبل ، ونقل محمد على الشرافة الى آل عون • وفيما يلى شجرة تسلسل الملوك والأمراء من آل عون :

الامراء والملوك من آل عون



وقد ضعفت قيمة الأشراف ابتداء من الزحف المصرى ، ولم يسترد الأشراف مكانتهم التامة بعد أن أخلى المصريون الحجاز سنة ١٨٤٠ ، فقد أرسل العثمانيون واليا على الحجاز تكون له قيادة الجيوش وإدارة المصالح بجوار الشريف الذى يتولى الأمور الدينية ، وقد أحدث هذا كثيرا من الاضطراب والارتباك فى البلاد ، وعم الشر والفساد لأن كلا من الحاكمين كان يلقى المسئولية على الآخر •

الشريف حسين :

وفى وسط هذه الفوضى اختارت الأستانة الشريف حسين لمنصب الشرافة وتركت له الأمور الدينية والمدنية ، وقد تسلم عمله سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) وحاول أن يكون حسن الصلة بالممالك الكبرى ذات النفوذ فى المنطقة كالانجليز فى مصر ، بالإضافة إلى محاولته أن يكون على صلة طيبة بالدولة العثمانية التى اختارته لهذا المنصب ، وعلى هذا فالرجل كان يتمتع بقدر من الذكاء وحسن التدبير لتنفيذ مصالحه الخاصة ، وقد أحست الدولة العثمانية أن ولاءه موضع شك فعينت معه القائد وهيب باشا ليراقبه ولينفذ ما يراه حول إدارة الحجاز ، ولكن إعلان الحرب العالمية الأولى أحدث كثيرا من التغيرات فى المنطقة على النحو الآتى :

ـ غادر وهيب باشا الحجاز ليقوم بدوره فى هذه الحرب ، وبهذا أزيل هذا الكابوس عن الشريف حسين •

ـ كانت البلاد العربية تئن تحت حكم العثمانيين ، وكانت تتطلع إلى قيادة تقودها للتخلص من الاستعمار ، واتجه الشريف حسين ليكون ذلك القائد •

ـ بمجرد دخول الحكومة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا اتجه الشريف إلى :

١ ـ تأمين سلامة المواصلات البريطانية بين الهند والبحر الأبيض المتوسط بطريق البحر الأحمر وقناة السويس •

٢ — إثارة المتاعب ضد الحكومة العثمانية داخل البلاد التى تحكمها •

٣ — إثارة المسلمين بوجه عام والحجاز بوجه خاص ضد العثمانيين للقضاء على الفكرة التى كان الأتراك يذيعونها بأنهم سيشعلون نار حرب مقدسة ضد الانجليز وأعوانهم •

وكانت البلاد العربية تواقة إلى الاستقلال والتخلص من الحكم العثمانى ، ولذلك رحب العرب بهذا البريق الخداع دون أن يتصوروا العواقب الوخيمة التى ستنقلهم من استعمار مغلف إلى استعمار سافر ، ولعل من الحق أن نقرر أن الشريف حسين كان من أسباب هذه النتائج السيئة لأنه كان شديد الرغبة فى أن يصبح ملكا وكان شديد الثقة بالانجليز وبخاصة أن علاقاته كانت قد ساءت مع الأتراك كما شرحنا من قبل •

وبدأت المشاورات بين الشريف حسين يعاونه أبناؤه على وعبد الله وفيصل وبين الانجليز ، وقد أدرك الانجليز أنهم أمام مفاوض سهل يرضى بالقليل ويعطى الكثير ، فقدموا له بعض المال (٤٠٠ر٠٠٠ جنيه كل عام) كما جاء فى بيان اللورد كروفورد فى مجلس اللوردات سنة ١٩٣٢ (١) ، وقدموا له بعض الوعود الساذجة غير الدقيقة ، وكان ذلك كافيا ليعلن الشريف ثورته فى شعبان ١٣٣٦ هـ (١٩١٦ م) ، وقبل أن نسير مع ثورة الشريف نؤكد ما ذكرناه من قبل أن بريطانيا وعدت بالقليل ، فقد كان الاتفاق أن يقوم العرب بالثورة على الترك مقابل اعتراف بريطانيا باستقلال العرب ، بدون تعيين حدود البلاد التى يشملها هذا الاستقلال ، واستثنت بريطانيا المناطق التالية :

١ — المناطق الواقعة غرب الخط من حلب وحماة وحمص ودمشق حتى البحر •

---

(١) دكتور أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، جـ ١ ص ٢٢٣ و :
Geraled dc Gatry : Rulers of Mecca p. 265.

٢ — المناطق التى لا تستطيع أن تتصرف فيها مستقلة عن حليفتها فرنسا .

٣ — منطقة عدن .

٤ — ولاية البصرة .

٥ — المناطق العربية التى لا تستطيع أن تتصرف فيها من تلقاء نفسها (١) .

والناظر إلى هذه الشروط يجد أن ما وعدت بريطانيا باستقلاله كان ضئيلا جداً لا يتعدى منطقة الحجاز وبعض مناطق الجزيرة ، وإذا كان هذا هو حال الوعد عند ضرورة الحرب فما بالك بالتنفيذ بعد انتهاء الضرورة .

ولكن هذه المفاوضات كانت سرية ، فلما هب الشريف حسين يعلن ثورته ضد تركيا ، وأتخذ بكل قوة جانب انجلترا وحليفاتها ظن أكثر الشباب العربى أن هناك ارتباطات قوية وآمالا واضحة ، باستقلال العرب ، ولذلك ساعدوا الشريف وانضموا بكل قوة لحركة المقاومة ضد العثمانيين .

وانتصرت انجلترا والحلفاء ، ووضعت الحرب أوزارها ، وجاء يوم الحساب ، فقابل العرب حقيقة مرة هى أنهم انتقلوا من تبعية كان الاسلام يخفف مشكلاتها الى استعمار صليبى سافر ، وحاول الشريف أن يجنى أية ثمرة لجهوده فلم يجد شيئا ذا بال .

وكان الشريف قد تعجل الملك والجاه ، فأعلن نفسه « ملك العرب » عقب ثورته ، ولكن الانجليز منعوه من ذلك لأن ذلك سيثير ثائرة حكام العرب الآخرين ، ولكنه كان شديد الحرص على لقب « ملك » ، فاكتفى

---

(١) Geraled de Gaury : Rulers ol Mecca 272

بأن أعلن نفسه « ملك الحجاز » (١) ، ولما خرج من المعركة صفر اليدين حاول توسيع سلطانه على حساب العرب والمسلمين بعد أن فشل أن ينال مـا تحت يد الإنجليز والفرنسيين ، فقد انتهز الشريف حسين فرصـة إلغاء الخلافة من تركيا وطرد الخليفة العثمـانى الأخير عبد المجيد من تركيا فجر الرابع من مارس سنة ١٩٢٤ فأعلن نفسه خليفة على المسلمين فى المكان الـذى خـلا ، وكـان ذلك فى ١١ مارس سـنة ١٩٢٤ ، ولكن تصرفه هذا أساء إليه ، فقد أثار ضده كل زعماء المسلمين واتهموه بأنه يبحث عن مصالحه الشخصية ، ويحـاول تحقيق أطماعه دون اهتمـام بمصالح المسلمين (٢) ، وعلى كل حال فإن هذا الاعلان لم يكن ذا نتيجة فإن البلاد الإسلامية لم تعترف به (٣) •

على أن إدعاء الشريف حسين الخلافة كان حدثا قصير العمر ، وزوبعة فى فنجان كما يقولون ، ولذلك ينبغى أن نتخطاها لنعود للعلاقات بين الشريف والملك عبد العزيز ، أو قل بين الطموح الذى لا أساس له ، وبين الطموح الذى تدعمه الدعائم القوية والتاريخ •

عندما أدرك الشريف حسين فشله فى السياسة اتجه للحرب فأخـذ يهاجم واحتى تربة والخرمة ، وكان أهلها تابعين للسعوديين ، وقد فشل فشلا مريرا فى هذه المحاولة كما سنرى ، وراح بعد ذلك يتخبط يمينا وشمالا ، ولكن الحقيقـة المرة اتضحت له ، فقد اضطربت الأحوال داخل الحجاز ، واستفزت أعماله عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، فقرر الزحف على الحجاز ، وكما قام ملك الشريف بسرعة وبدون أساس فإنه هوى بسرعة ، وانضم إلى ملك السعوديين •

---

(١) Ipid p. 274.

(٢) دكتور أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية جا ص٢٣٤ •

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٥ •

وفيما يلى بعض التفاصيل عن سير العلاقات بين الشريف حسين والملك عبد العزيز آل سعود :

العلاقة بين الشريف والملك :

بدأ الصدام بين عبد العزيز والشريف حسين حين استسلمت الحامية التركية فى المدينة للشريف سنة ١٩١٨ ولم يخفف هذا الصراع تلك التهنئة الرقيقة التى بعث بها الملك عبد العزيز مهنئا الجيش العربى بالانتصار على فلول العثمانيين واقتحام المدينة ، فإن الشريف سرعان ما أرسل خطابا شديد اللهجة لابن سعود يطالبه فيه بالاعتراف به ملكا على البلاد ، ويطالبه أيضا بإخلاء واحة خرمة وعدم التعرض لأهلها بنى عتيبة •

وكان رد الملك ساخرا ، فقد أرسل بعثة من علماء نجد لنشر مبادىء دعوة الاصلاح بين قبائل عتيبة ، وقد رحب الناس بهذه المبادىء ، وتحمسوا لها مما آذن بصراع عسكرى بين عبد العزيز والشريف حسين ، وقد ابتدأ هذا الصراع حول واحتى تربة وخرمة على النحو التالى :

تربة وخرمة منبت الصراع :

تقع واحة تربة على بعد خمسة وسبعين ميلا جنوبى جبل حضن . وتقع واحة خرمة على بعد خمسين ميلا شرقى هذا الجبل ، وهما بذلك أبرز مكانين فى الحدود الفاصلة بين نجد والحجاز ، ومن أجل هذا كانتا محل نزاع دائم بين حكام نجد وحكام الحجاز ، وكان من يتسلط عليهما يحظى بموقع استراتيجى يدفع الطرف الآخر لمنافسته ومصارعته •

وقد بدأ الصراع العسكرى سنة ١٩١٩ فقد أعد الشريف حسين بن على حملة كبيرة يقودها ابنه الأمير عبد الله لإخضاع قبائل تربة والخرمة التى ثارت على الحكم الحجازى وأعلنت انضمامها للسعوديين ، وقد تصدى أتباع السعوديين لهذه الحملة بقيادة سلطان بن بجاد متعاونين مع قبائل

تربة والخرمة ، وهاجموا جيش الأمير فى الليل فتفككت عراه وتمزق شر ممزق ، وأفلت الأمير من موت محقق تاركا أسلحته ومتاعه وعددا كبيرا من القتلى ، واتضح أن بقاء المملكة الحجازية سيكون مثار متاعب بالجزيرة العربية وبخاصة أن هؤلاء الحكام ليست لهم أعماق فى هذه البقـاع ، ولا يعرف عنهم إلا صفة الانتهازية ، ولكن السعوديين لم يواصلوا زحفهم على الحجاز ، فاسم « ملك العرب » كان لا يزال يدوّى ، وعلاقة الانجليز بالشريف كانت لا تزال قوية ، وقد تلقى ابن سعود رسالة من الوكيـل السياسى البريطانى فى جدة يطلب منه عدم التعرض للحجاز [١] .

ولكن أسبابا حدثت فعجلت بالصراع ، فبينما كان الشريف حسين يطمع فى توسيع سلطانه ، وكانت الأطماع تتخيل له كأنها حقائق ، كـان ابن سعود يوسع سلطانه فعلا ، فلقد ضم بلاد حائل ، واستولى على تيماء وخيبر والجوف ووادى السرحان ومد نفوذه فشمل بلاد عسير .

وكان رد الفعل من الشريف حسين يثير حفيظة الناس ، فقد ضيق على أهل نجد ، وحرمهم من القدوم لأداء فريضة الحج كما تعـاون الشريف مع سلطات العراق وشرق الأردن لتطويق ممتلكات السعوديين .

واقترحت بريطانيا عقد مؤتمر بالكويت لتسوية الأحوال التى تثير الخلاف ، وعقد المؤتمر فى ديسمبر ١٩٢٣ وفشـل المؤتمر لأن الشريف حسين كان يريد أن تعود عقارب الساعة للوراء ، فطالب بإعادة الأوضاع فى الجزيرة العربية إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، أى أراد أن يلزم السعوديين بإعادة الجوف ووادى السرحان لشرق الأردن ، وإعادة تيماء وخيبر وتربة والخرمة إلى الحجاز ، وإعادة آل الرشيد إلى حائل ، وآل عائض إلى عسير ، وكان هذا مطلبا ساذجا لا يحتمل التنفيذ ، فانهارت عليه آمال المؤتمر .

---

(١) دكتور صلاح العقاد : جزيرة العرب فى العصر الحديث ص ١٢ .

بين سياستين :

تعتبر السنوات الأولى من العقد الثالث من هذا القرن سنوات حاسمة بالنسبة لتاريخ الحجاز ، وقد اتضح لنا التنافس القوى بين الأشراف وبين السعوديين فى هذا المجال ، ولكن سياسة الملك السعودى كانت دقيقة وحكيمة ، وكانت سياسة الشريف حسين فيها كثير من الخرق والفوضى ، كان الملك السعودى يأخذ للأمر أهميته من كل ناحية ، فهو من الناحية الداخلية عميق الصلة بشعبه ، يعدّ جيشا نظاميا مدربا على أحدث الأسلحة ، وهو — فيما يتعلق بالجزيرة العربية — يخفى خططه خلف جدار من الصمت والهدوء ، وهو بالنسبة للعالم الخارجى كان يحاول أن يخرج من عزلته ، ويكون حسن الصلة بالعالم الاسلامى ، وقد أولى مصر مزيدا من الاهتمام لمكانتها العربية والإسلامية فأرسل برقية تهنئة للملك فؤاد بمناسبة افتتاح أول برلمان مصرى ، ومن الواضح أن هذا الحدث كان بعيدا آنذاك عن الفكر بالجزيرة العربية ولكن الملك السعودى كان يتلمس الوسائل ليظهر رغبته فى حسن الصلة بمصر ، واستمر الملك السعودى فى هذا الاتجاه فتبنى رأى مصر عقب سقوط الخلافة الإسلامية وكانت مصر ترى أن حلّ مسألة الخلافة الإسلامية ينبغى أن يكون بمؤتمر إسلامى عام يعقد فى القاهرة .

وأدرك الملك السعودى ذعر الرأى العام المصرى من احتمال وقوع الحجاز تحت سلطة السعوديين ، لأن ذلك ارتبط عند المصريين بهدم القباب وإيقاف المحمل المصرى ، وبالتالى وضع عقبات فى طريق الحجاج المصريين — تلك الأحداث التى انتهجها السعوديين إبان الدولة السعودية الأولى عندما صار لهم الحكم فى الحجاز ، وقد أوعز الملك لكثير من رجال الرأى أن يؤكدوا أن الحج حق لجميع المسلمين ، وأنه ليس من الممكن أن يمس أحد القبة النبوية بالمدينة بأى سوء وقد اعتبر ذلك حلا لمشكلة كانت تشغل الجماهير (١) .

---

(١) اقرأ كتاب « الوهابيون والحجاز » .

وكانت سياسة الوفاق بين الملك السعودى وبين الانجليز ثابتة تبعا للمعاهدة التى عقدت سنة ١٩١٥ ، وقد رأى الملك الإبقاء على هذه السياسة وتلك المعاهدة حتى لا ينضم الانجليز الى خصومه .

وبينما كان الملك السعودى ينهج هذا النهج ، كان الشريف يتخبط ، وينصرف كأن قوى الأرض تدين له ، وأنه غالب لا يقهر ، فقد كان داخل الحجاز بعيدا عن الجماهير ، هؤلاء الذين ذاقوا ألوانا من الويلات على أيدى الأشراف كما ذكرنا من قبل ، وكان جيش الأشراف مجموعات من المرتزقة لا تربطهم أواصر دم أو فكر بالحكام ، ولذلك كانوا يطالبون بالمال فى أحرج الأوقات ، ويتوقفون عن أداء واجبهم حتى يقبضوا المال .

وفى الجزيرة العربية كان الشريف يمثل حركة استفزاز وتسلط على كل النواحى ، ولذلك كانت كل بقاع الجزيرة تخشى شره .

وكانت علاقات الشريف بالعالم العربى والاسلامى غير طيبة ، فهو مرة يعلن نفسه ملك العرب ، وهو لقب واسع ، ومرة يعلن نفسه خليفة المسلمين ، ويحدث هذا وذاك منه دون استئذان العرب ودون شورى من المسلمين ، كأن العناية الالهية اختارته ملكا أو خليفة ، وعلى الناس أن يستجيبوا ، ولكن الناس فى الحالتين رفضوا وقاوموا .

واتسعت آمال الشريف فراح يخلق الامارات والممالك لأولاده فى ظل الانجليز ، فخلق إمارة شرق الأردن وعين الأمير عبد الله أميرا لها ، وعين فيصل ملكا على سوريا ، فلما لم تنجح هذه الأمنية حول فيصل ليصبح ملكا على العراق ، وقد خلق هذا التصرف استياء عاما فى النفوس العربية التى أحست أن الشريف يمد نفوذه لصالحه وصالح أبنائه دون نظر لرغبات الشعوب وحقوق الشعوب .

على أن الزلة الكبرى التى تردى فيها الشريف هى سياسة الجفاء التى بدأت بينه وبين الانجليز أولياء نعمته ، أو الذين أمدوه بالمال

والسلاح والنفوذ ، وقد حسب الشريف أن وعود الانجليز له خلال الحرب وعود حقيقية ، فلما انتهت الحرب وظهر الانجليز على طبيعتهم من الغدر بالعرب ، والسعى لصالح الاستعمار وصالح اليهود فكر الشريف فى نوع من الاعتداد بالنفس فكان فى ذلك حتفه •

لقد امتنع الشريف عن حضور بعض المؤتمرات التى نسقها الانجليز لتنظيم الحدود بين دول الجزيرة ورفض معاهدة قدمها له الانجليز . احتجاجا على بعض بنودها ، وظهرت الجفوة فى كثير من التصرفات فأدت الى قطع المعونة البريطانية سنة ١٩٢٤ وآذن ذلك بتقويض الركن القوى الذى بنى الشريف عليه آماله وطموحه •

وهكذا كانت سياسة الملك السعودى تقفز به للأمام وكان حمق الشريف يدفعه إلى التدهور والتقهقر ، وفى ضوء هذا تهيأت الظروف لفتح الحجاز كما سنرى فيما يلى :

فتح الحجاز :

إزاء الموقف السابق كان لابد من الصراع للتخلص من الأشراف فوجودهم بالحجاز مثار للفتن ، فسارت حملة عسكرية من تربة حتى الأخيضر ، ومنها الى الطائف فى أوائل صفر سنة ١٣٤٣ هـ (٦ سبتمبر سنة ١٩٢٤) وكان يقودها خالد بن لؤى ، وسلطان بن بجاد ، فاحتلت الطائف دون مقاومة تذكر ، ثم اشتبكت مع جيش للأشراف الذى يقوده على بن الملك حسين فى معركة الهدى HADA ، وقد اندحرت قوات الأشراف فى هذه المعركة وقد حدثت هذه المعركة فى ٢٦ صفر سنة ١٣٤٣ هـ (٢٦ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م) وتقدم الجيش بعدها فحاصر المدينة • أما جند الشريف فقد فروا فى حالة من الفوضى والاضطراب ، ويصف جون

فيلبى موقف على بن الحسين قائد الجيش بقوله : وقد سار على إلى جدة مخلفا مكة وراءه معتبرا الحكمة فوق شجاعة الشجعان (١) .

ومن العجب أن آمال الشريف حسين انهارت تماما بعد هذه المعركة : وانكب الرجل على وجهه بعد أن كان منذ عام واحد يحاول أن يملى شروطه فى مؤتمر الكويت ، ولم يستطع صبرا ، فتنازل عن العرش لابنه على ، وسافر الى ميناء العقبة ومعه ثروته الضخمة ، ومن هذه الميناء أبحر الى قبرص وبقى بها حتى مات سنة ١٩٣١ م .

أما على بن الحسين فقد بقى فى جدة ليشهد أفول المملكة التى بناها أبوه فى الخيال .

واستمر التقدم السعودى دون توقف ، ففى ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هـ (١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٤ م) دخلت قوات السعوديين مكة ثم احتلوا القنفذة والليث ورابغ .

وتقدم الجيش السعودى الى جدة فحاصرها ، واستمر الحصار مدة عام تقريبا ، وفى خلال هذا الحصار نشطت الوساطة لإيقاف المعارك فى الأرض المقدسة ، وقد اشتركت فى هذه الوساطة دول وهيئات مختلفة ، فجمعية الخلافة الاسلامية فى الهند كانت تنادى بحكومة جماعية للحجاز أشبه بالنظام الجمهورى ، ومصر كان ملكها (الملك فؤاد) يطمع فى الخلافة ، وقد أرسل الى الحجاز بعثة فى أغسطس سنة ١٩٢٥ اشترك فيها الشيخ محمد مصطفى المراغى وعبد الوهاب طلعت ، وكان الملك عبد العزيز يحرص على إرضاء مصر مع حرصه على أهدافه الخاصة ، ولذلك قدم للوفد المصرى مقترحات مطاطة ترضيهم من جانب ، ولا يبعد عن أهدافه من جانب آخر (٢) .

---

(١) تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٣٢٥ .
(٢) انظر هذه المقترحات فى فيلبى .

وتقدم للوساطة كذلك « سان جون فيلبى » خبير المخابرات الانجليزى الذى كان متخصصا فى الشئون العربية ، كما تقدم لها كذلك أمين الريحانى أحد المسيحيين السوريين وهو مفكر عربى معروف .

على أن صوت الحجاز كان مدويا آنذاك ومتمثلا فى الحزب الوطنى برئاسة محمد الطويل ، وكان هذا الصوت لا يوافق على فكرة الحكومة الجماعية خشية أن تتدخل فى حكم البلاد جنسيات" غير عربية لا تعرف التقاليد العربية كالفرس والهنود ، ولا توافق على التبعية لمصر لأن الحجاز عانى ألوانا من الاضطراب فى بعض فترات الحكم المصرى له ، ولذلك كان يميل الحزب الوطنى فى أثناء الحصار على الإبقاء على حكم الملك على بن الشريف حسين .

ولكن صوت السلاح كان أقوى من كل هذه الأصوات فقد زمجر هذا الصوت وحسم هذه القضية ، حتى اضطرت جدة الى التسليم فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ بعد حصار دام عاما كاملا وبعد أن لاقى المحاصرون ألوانا من العناء ، وفى نفس الوقت سلمت المدينة المنورة الزمام للسعوديين كذلك .

ولم يجد الملك قصير العمر على بن الحسين بدًّا من توقيع اتفاقية تنازل فيها عن الحجاز ، وسافر من جدة عقب ذلك ، ودخل الحجاز فى ملك السعوديين ، وتحققت آمال البطل عبد العزيز آل سعود ، وكان دخول الحجاز تحت سلطان الملك عبد العزيز وسيلة مهمة لذيوع صيت الرجل ، وبروز اسمه فى العالم الاسلامى كله .

وأسرع الملك عبد العزيز فأوضح بنفسه أن الحجاز ستبقى وديعة لكل المسلمين فى العالم ، وأنها ترحب بجميع المسلمين سواء جاءوها حجاجا أو طالبى معاش ، على شرط أن يقبلوا بها الشريعة الاسلامية نبراسا لحياتهم ومعاملاتهم المشروعة فى كل شىء (١) .

---

(١) جون فيلبى : تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٣٤٣ .

وتطلعت بعض قوى الوساطة التى تحدثنا عنها آنفا أن تستعيد نشاطها بعد زوال الحكم الهاشمى ، ولكن الملك عبد العزيز حسم الموضوع ، وجذب إليه أعيان مكة ، كما جذب رجال الحزب الوطنى الذين كانوا من قبل يؤيدون الملك « على » ، ونادى هؤلاء فى ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤ هـ (٨ يناير سنة ١٩٢٦) بابن سعود ملكا على الحجاز فأصبح لقبه : ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها .

وفى ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٣٢٥ هـ (٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٦) بسط حمايته على تهامة عسير المعروفة بالمقاطعة الإدريسية كما ذكرنا من قبل .

وفى ٢٥ رجب سنة ١٣٤٥ هـ (١٦ يناير سنة ١٩٢٧) صدر قرار بأن يصبح لقب جلالته · ملك الحجاز ونجد وملحقاتها .

وفى ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هـ (٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م) صدر مرسوم ملكى ، وحد أجزاء المملكة جميعا ، فأصبحت مملكة واحدة باسم : المملكة العربية السعودية ، وأصبح لقب عبد العزيز هو ملك المملكة العربية السعودية .

الملك عبد العزيز بين عهدين :

قبل أن نطوى صفحة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود يجدر بنا أن نوضح التطور الخطير الذى حدث فى علاقة الملك بالشريف حسين ، وسنعتمد فى بيان هذه الحقيقة على كتب رسمية أرسلها عبد العزيز عندما كان أميرا لنجد ، إلى الشريف حسين الذى لم يكن فقط حاكم الحجاز ، وانما كان — كما توحى به هذه الرسائل — واسع النفوذ فى الجزيرة العربية كلها ، مما جعل السكان فى كل مكان يلجئون اليه اذا أحسوا ظلما من أميرهم ، وكان الأمراء لهذا يتملقونه ويعملون على نيل رضاه ، فكأنما كان ممثلا للأتراك فى الجزيرة العربية كلها ، وليس فى الحجاز وحده ، وبعد هذا بحوالى خمسة عشر عاما انهار كل شىء ، وزحف أمير

نجد فى جيش صاخب ، فقضى على مُلك الشريف وأمجاده ، وأصبح الرجل الذى كان يتملق الشريف منذ أعوام قليلة صاحب الحول والطول فى أكثر الجزيرة العربية ، كما أصبح الحجاز جزءا من المملكة الكبيرة التى امتد لها سلطان العاهل السعودى •

وفيما يلى هاتان الرسالتان اللتان تحملان عبارات الإجلال والتقدير من أمير نجد إلى الشريف حسين (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة جناب الأجل الأفخم يمين الشيم أمير مكة المكرم سيدنا الشريف حسين باشا بن السيد على دام مجده وعلاه آمين •

بعد إهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر ، لا زلتم بكمال الصحة والسرور حايزين الأوصاف الحميدة •

أحوالنا من كرم الله جميلة ، وتقدم سعادتكم قبل هذا كتاب نرجو أنه وصل وأنتم مسرورين • ثم نعرض لدولتكم العزيز أنه بموجب شفقتكم وعلو هممكم وأنظاركم العالية قدمنا أخينا عبد العزيز عبد الله السعود لموجب خدمتكم وأحببنا المصاوغة معه لموجب التبرك باقدامكم ، وأرسلنا معه الصقلاوية والحمدانى وكحيلان ، ولا والله قصدنا فى إرسالها لأنكم بحاجتها ، ولا شـك فى غايتنـا نبغى نقرّب أنفسـنا منكم ، فإننا هنا حاسبين أنفسنا من خواصكم ، والله ثم لكم ، والا هديتنا لحضرتكم رءوسنا وما تحت أيدينا ، ولكنها هى صوغة للأولاد الكرام ، وحررنا هذا الكتاب لموجب التعرض لخدمتكم ، وما يبدو منه اللازم ، والا أمرك علينا تام على

(١) ننقل هاتين الرسالتين بنصهما مع ما فيهما من أخطاء نحوية وضعف فى الاسلوب ، فالرسالتان صورة لعصرهما من الناحية السياسـية والناحية الثقافية •

على كل حال ، ومهما تفعلونه معنا وتحطون أنظاركم علينا تجدونه إن شاء الله مضاعفا بالخدمات والسمع والطاعة ، هذا ما لزم تعريفه ، والولد برسم الخدمة مع إبلاغ السلام حضرة الإخوان السادات الكرام على وفيصل وزيد ، ومن عندنا أولادنا محمد وسعود وكافة السعود يسلمون ودمتم محروسين •

١٨ ن سنة ١٣٢٨ هـ	خادم الدولة والملة والوطن
(سنة ١٩١٠ م	أمير نجد ورئيس عشائرها
(التاريخ هكذا فى الأصل)	عبد العزيز السعود
	(ختم)

والخطاب الثانى هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة جناب الأجل الأمجد الأفخم بهى الشيم أمير مكة المكرمة سيدنا الشريف حسين باشا ابن السيد على دام مجده وعلاه آمين •

بعد اهداء مزيد السلام التام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر ، ولا زلتم بكمال الصحة ووافر السرور حائزين الأوصاف الحميدة ، أحوالنا من كرم الله جميلة ، بأشرف وقت أخذنا مشرفكم المكرم ، فسرنا ما تضمنه من صحة أحوالكم واعتدال أوقاتكم ، وما عرف جنابكم كان لدى ابنكم معلوم خصوصا ما عــرف جنابكم من جهة عتيبة والقصيم ، وأنهم يلقون اليكم من الأكاذيب الذى ليس لها حقيقة ، ويتظلمون عند حضرتكم ، فنحن نقول عما قالوا : سبحانك هذا بهتان عظيم فأما وجهة نظركم علينا وعليهم فهذا هو شأن مثلكم وهو مقامكم العزيز ، وأحن متيقنين ان حنا بأنفسنا أقرب منهم ومن غيرهم لسعادتكم وأدنى جواب يصدر منكم الينا بمنع السو عنهم اذا كان

صادر منا شيء فنحن نمتثل به لموجب رضا الله ثم لخدمة سعادتكم مـع إني ما والله أعلم أن أحد من أهل نجد يطلب مني مثقال حبة من خردل من ظلم الا ان كان عدو ضعيف جاني ، ولجنايته سبب ، وقول العدو مـا يؤخذ في عدوه ، والا أدام الله وجودكم نجد يوم جيته ما فيه من جميع مأموريته احد كلها مناصب لابن رشيد ، وولانا الله عليه بهداية الله ثم هدايتكم ، وأمرنا كل في منصبه فمنهم من أطاع واستقر والى الآن بمكانه ، ومنهم من ظلم الرعية ، وبنا غدر وأعاننا الله عليه وأحسنا فيه ، فالآن ابنكم وخادمكم ومملوك فضلكم ثاني نفسه سامع مطيع لله ثم لحضرتكم لأدنى واحد من أهل القصيم أو عتيبة يدعى على بأدنى شيء منه ظلم ، فكما تأمرون أفعل امتثالا لأمر الله ثم أمركم ، وجميع ما زوروه عـلى حضرتكم دواء الكذب للقابل ، فإن كنت المجرم فأنا تحت امركم كمـا تأمرون أفعل ومصطبر لأدبكم ، فإن كانوا هم الكاذبين وتحقق عند جنابكم ذلك ، فنحن قد دممنا لهم من الزلات أكثر ، وحقا على جنابكم أن تكونوا على حذر من أقوال الغاشين للاسلام والمسلمين ، وأنا والله وبالله وتالله ان رضاكم وامتثال خدمتكم عندي أعز من رضا عبد الرحيم وخدمته ثم أنا معطيكم عهد الله وأمان الله ، أني ولد لك سامع ومطيع ، مـا أخالف شوفتك في جميع أمر ، وأنا تحت أمركم ان كان تريدون المقابلـة بيني وبين المزورين في أي وقت تحبونه أحضر ، فإن كان تحبونه من بعيد فالمراجعة بيننا ونحن تحت تدبير الله ثم تدبيركم ، وانما لا يزورون على حضرتكم أني مستغزي أهل نجد ، قصدي محاربتكم أو مكابرتكم لا والله لا والله والله ، اني ما استغزيتهم الا لموجب بني خينا وبعض الفساد الي ما يخفى جنابكم ، ولا يقطع عقلكم أن قدومي بها المحل قصدي محاربة أو أمر يغضب خواطركم الا انما هو تقرب لخدمتكم وعن البعد الذي

يحصل به الاتحاد للأعداء ، ويزورون أعظم مما زوروا سابق ، وأجبنا تعجيل الطارش لموجب رد جوابكم العزيز ، ونحن بانتظار تدبير الله ثم تدبيركم ، وتحت الأمر هذا ما لزم ، والرجا ابلاغ سلامنا للإخوان السادات الكرام ، ومن عندنا أولادكم محمد وسعود وكافة السعود يقبلون أياديكم ودمتم محروسين •

خادم الدولة والملة والوطن
أمير نجد ورئيس عشائرها
عبد العزيز سعود
(ختم)

١٥ ل ١٣٢٨ هـ
(سنة ١٩١٠ م)

مرة أخرى نقرر أن هذين الخطابين صورة واضحة للتحول الضخم الذى تم فى الجزيرة العربية ، ولا شك أن الحرب العالمية الأولى ونتائجها كانت أكبر وسيلة لتحقيق هذا التحول •

والآن وقد حقق الملك عبد العزيز هذا النجاح الساحق فى ميـدان السياسة والحرب بجدة يتجه بحماسة وإصرار إلى تقوية الجانب الحضارى فى هذه المملكة الفسيحة لتستعيد مكانها بين دول العالم الإسلامى ، فقد كانت مهبط الوحى ومركز الثقافة والفكر فى مطلع الإسلام ، ومنها شع الضوء على العالم ، فكيف بها تتخلف عـن الركب وتنزوى بعيـدا عن التقدم ، وسنراه هو وأولاده من بعده يصارعون فى هذا المضمار ، فيفتحون المدارس والجامعات وينشئون المدن ، ويمهدون الطرق ، ويعنون بالصحة •

وقبل أن ندع الملك عبد العزيز ونتجه الى أولاده وخلفائه يجدر بنا أن نخصص مساحة ولو قصيرة لدراسة صورة من صور الصراع خاضها الملك العظيم ، ضد رفاق الأمس ، ضد مَنْ يسمون « الإخوان » •

الإخـــوان

كلمة الأخوان فى الحجاز خلال العقد الثانى والثالث من القـــرن العشرين كانت كلمة تثير الذعر ، وتملأ الجو بالخوف والفزع ، وقـــد ارتبطت هذه الكلمة بمشروع تحضير البادية الذى بدأ سنة ١٩١١ إذ اتجهت عناية الملك الى توطين البدو ومنحهم الأرض والآلات لزرعها ، وقد أقبلت كثير من القبائل على هذا الاتجاه ، فتركت سكنى الخيام ، وبنت لها بيوتا فى تجمعات اختيرت لها الأمكنة المناسبة ، وأطلقت كلمة هجرة على كل تجمع من هذه التجمعات ، واستعملت كلمة هجـــرة إشارة الى أن هؤلاء هجروا حياة البادية بما فيها من جهل وتعصب وصراع ، وأول هذه الهجرات هجرة الأرطاوية ، ثم الغطغط ، ثم دخنه ، وقد بلغت هذه التجمعات ستين هجرة •

وقد حاول البدو أن يقربوا من الاسلام الصحيح ، فاتجهوا لدراسة هذا الدين فى تجمعاتهم الجديدة ، وبالغوا فى اتجاهاتهم التحضرية ، فباع بعضهم إبله وغنمه •

ولكن خطرا جديدا داهمهم ، فإن الذين جلسوا من الاخوان مجلس المعلمين كانوا أنصاف متعلمين ، وكانت ثقافتهم ضحلة ، وبناء على ذلك اتجه التفكير فى هذه الهجر إلى أنهم وحدهم المؤمنون ومن عداهم بعيدون عن الإيمان ، فالبدو الذين لم يقْبِلوا على الهجر أعراب يصدق عليهم قوله تعالى « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله [1] » وقوله : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم [2] » وسكان الحضر كفرة بعيدون عن مبادىء الاسلام وتعاليمه ، وعلى الاخوان أن يجاهدوا فى سبيل الله هؤلاء وأولئك لتعلو كلمة الله ، وعدّ الاخوان ارسال سعود

---

(١) سورة التوبة الاية ٩٧ •
(٢) سورة الحجرات الاية ١٤ •

ولى العهد إلى مصر عملا منافيا للدين لأن مصر — فى نظرهم — بلاد شرك ، كما انتقدوا الملك عبد العزيز لتسامحه مع الشيعة وعدم إلزامهم بالدخول فى الاسلام كما يرونه ٠

وظن الاخوان أن معارفهم هى وحدها الدين ، وكانت هذه المعارف عبارة عن أمور ضئيلة ، فمثلا أصبح لبس العمامة هو السنّة ، ولبس العقال بدعة منكرة ، أو — عند بعضهم — لباس كفار ، واتجهوا الى أنه لا اسلام لمن لم يسكن الهجرة ، كما اتجهوا الى إساءة الظن بالحضر ، والاستعداد لمهاجمتهم لأنهم أهملوا الإسلام كما يرونه ، وشاع عندهم أن الثوب الطويل إسراف يجب القضاء عليه ، فكانوا اذا وجدوا ثوبا طويلا قصروه معتمدين على فهم خاص للحديث الذى يقول « فضل الازار فى النار » ثم خطوا خطوة أخرى عارضوا بها كل وسائل الاصلاح فى الدولة ، ورأوها كفرا والانحرافا ، فعارضوا مدّ أسلاك التليفون بحجة أنها تنقل الأصوات بواسطة الشياطين ، وعارضوا ركوب الدراجة وسموها عربة الشيطان ، كما أنهم اتجهوا للعبادة ولم يهتموا بالفلاحة والإنتاج مما جعلهم عبئا على الخزانة السعودية ومصدر استهلاك لا إنتاج ٠

وهكـذا كوّن الإخوان جماعات ليست أقل مـن البدو فى حمقها وخطرها ، وان اختلفت مع البدو فى أسباب هذا الخطر ٠

ويصفهم الأستاذ حافظ وهبة بقوله : إنهم لا تعرف الرحمة قلوبهم ، ولا يفلت من تحت أيديهم أحد ، فهم رسل الموت أينما حلوا (١) ٠

ويطرأ دائما سؤال عن مدى العلاقة بين العلماء من نسل الشيخ محمد بن عبد الوهاب مؤسس حركة التوحيد وبين الاخوان ، ويجيب بعض الباحثين عن ذلك بقوله : إن هؤلاء العلماء قالوا بضرورة طاعة الامام

---

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣١٤ ٠

فى مسائل الحكم كإقامة الحصون وإعداد الجيوش ، وتوقف هؤلاء العلماء عند مسألة المخترعات الحديثة ولم يبدوا فيهـا رأيا قاطعا ، وأظهروا تعاطفا مع الاخوان فى بعض المسائل كإرسال المعلمين لتعليم الشيعة حتى يدخلوا فى الإسلام ، ويمنع المحمل ما دام مصحوبا بما أسموه مظـاهر الشرك [1] .

وهكذا يتضح لنا أن العلماء الوهابيين كانوا أكثر تطورا من الاخوان ، وكان استعدادهم للفهم أنضج وأقوى ، أما موقفهم من المخترعات الحديثة فلعله كان موقفا شائعا عند كثيرين من العلماء المسـلمين بالعالم ، لأن الدراسات الإسلامية حتى مطلع القرن العشرين كانت متعثرة ، ولم يكن لعلماء الدراسات الإسلامية حظ يذكر من العلوم المدنية .

وانتهت الحال الى الصراع بين الملك وبين الاخوان عندما لم تبق وسيلة غير الصراع ، وكان فيصل الدّويش أهم قائد من قواد الاخوان قد خر جريحا فى احدى المعارك سـنة ١٩٢٩ ، وأشفق الملك عليـه . ولكنه عندما أحس ريح العافية هبّ من جديد يصارع الملك ، وضيق الملك عليه حتى استسلم للانجليز الذين سلموه بدورهم للملك الذى عفا عنه بعد أن قلّم أظافره ، ويروى أن الملك عندما انتهى من ثورات الاخوان قال : « من اليوم سنحيا حياة جديدة » ، مما يدل على أن الاخوان كانوا عائقا للتقدم والحضارة .

وبسبب ثورات الهجر توقف مشروع تحضير البادية سنة ١٩٣٠ .

الاخوان والجيش السعودى :

كان الاخوان يكونون النواة الأصـلية للجيش السـعودى ، وبهم خاض الملك عبد العزيز كثيرا من المعارك ، وحقق كثيرا من الانتصارات

---

(١) دكتور صلاح العقاد : جزيرة العرب فى العصر الحديث ص ٢٨ .

فبهم اقتحم الملك الأحساء ، وأخذها من الأتراك العثمانيين ، وبهم قضى على ابن رشيد ، وضم إمارة حائل ، وبهم اقتحم واحتى تربة وخرمة ، وبهم دخل مدينة الطائف .

ولكن الهجر كوّنت للاخوان قوة وقيادات أشرنا لها فيما سبق ، فقد أصبحت لجموع الهجر فلسفات بعدت قليلا أو كثيرا عن آراء الامام ، كما ظهرت بين الاخوان قيادات تمردت على توجيهاته كما رأينا فى فيصل الدّويش ، ولعل الخلاف بين الاخوان وبين الكويت كان نذير خطر أدركه الملك السعودى ، فقد جاء بعض الاخوان من قبيلة مطير وقرروا بناء هجرة عند بئر قريب من ساحل الكويت ، وأدى ذلك الى صراع مسلح بين الإخوان وأمير الكويت « سالم الصباح » الذى لم يكن حسن الصلة بالحركة النجدية التى يقودها الملك عبد العزيز ، وقد تدخل الملك بحكمته حتى لا يتفاقم هذا الصراع ، وساعد على الوصول لهذه النتيجة الطيبة تولية أحمد الجابر إمارة الكويت خلفا للشيخ سالم الذى توفى فانكمشت بوفاته هوة الخلاف .

ثم جاء دخول الطائف فى سبتمبر سنة ١٩٢٤ ، وفى الطائف أفلت زمام بعض الإخوان أو قل نفذوا اتجاههم الذى كان يرى مَنْ سواهم مشركين لا حرمة لهم ولا لأموالهم فأكثروا القتل والسلب .

وبجانب هذه الفوضى قاوم الاخوان استعمال الآلات الحديثة ، وكانت الجيوش فى العالم قد عرفت آلات حربية لم تعرفها من قبل .

من أجل هذا بدأ الملك عبد العزيز يعد فرقا جديدة من الشبان لتكون نواة جيشه ، فاختار جماعات تدين له بالولاء الكامل ، وتلتزم بالطاعة التامة لولى الأمر ، ودرّب هذه الجماعات على استعمال الأسلحة الحديثة التى استنكر الاخوان استخدامها .

وعندما لم يبق الا القوة حكما بين الملك وبين المتمردين من الاخوان اقتحم الملك بجيشه النظامى تجمعات مطير الثائرة بقيادة فيصل الدويش وعملت السيارات المصفحة والآلات الحديثة عملها ، فهزمت جموع الثائرين شر هزيمة ، وأسلم قائدها نفسه للانجليز كما سبق •

وأصبح الجيش السعودى منذ ذلك اليوم جيشا نظاميا موحد القيادة سواء انحدر جنوده من الإخوان أو من الحضر •

رحلة الى الغطغط :

فى الرابع من شهر فبراير ١٩٧٧ قمت ومعى بعض الأصدقاء برحلة إلى الغطغط وهى قرية قريبة من مدينة المزاحمية التى تبعد عن الرياض بحوالى ثمانين كيلوا مترا •

والغطغط الآن بقايا قرية واسعة تقع فى أحضان منطقة خصبة كثيرة الزرع والنخيل ، وقد دققنا باب شيخ (مطوّع) له صلة بأحد رفاقنا فى الرحلة ، وقد أحسن المطوع استقبالنا ورحب بنا ودعانا لجلسة فى نخيله على بعد حوالى ميلين من المنزل ، وقد هتف بابنه أن يحضر بعض البلح فأسرع الابن باحضار عدل كبير ، وكنا نظن أننا سنأكل منه فقط ، ولكن الرجل أسرع فأفرغه كله فى سيارتنا وسار معنا إلى حديقة النخيل على حافة الغطغط وجلس يحدثنا عن أحداث الاخوان هناك •

وكان الرجل يهمس فى حديثه كأن الحديث عن الاخوان خطير مثل خطر الاخوان أنفسهم ، وذكر الرجل أن مؤامرة أعدها الاخوان ضد الملك عبد العزيز ، فقد أرسلوا له يدعونه للقاء ، ولكنهم كانوا يضمرون الغدر ، وقد استطاع أمير المنطقة (ماجد بن ختيلة) أن يعرف خبر المؤامرة فأرسل بأخبارها سرا الى الملك عبد العزيز الذى أخذ حذره ، وبعد أن انكشف خبر المؤامرة أعان الإخوان عن عصيانهم ، وكانوا قد أعدوا قريتهم إعدادا يناسب التمرد ويواجه الحصار ، وقد زرنا بقايا القرية حيث وجدنا الاستحكامات

والاستعدادات ، فأماكن للتجمع والدفاع والهجوم ، وآبار عامة وآبار خاصة تساعد على احتمال ما يمكن من حصار ، وأسوار ومراقب ، ثم أن الغطغط متصلة تماما بمناطق زراعية وحدائق واسعة يمكن الاختباء فيها ، ويمكن الانتفاع بثمارها وزرعها مهما طالت المقاومة .

وقد اتخذ الملك كل الوسائل ليردع الإخوان وليعودوا إلى الطاعة ، ولكن هؤلاء كانوا قد ألفوا الحروب وتكفير الناس ، وبالتالى استحلال دم الغير ، فلم يعودوا يقنعون بما تنبته الأرض أو تقدمه الدولة .

وبدأت المعركة ويبدو أنها كانت شرسة ، وقد رأى الملك ضرورتها ليحمى الدولة التى بناها بالعرق والجهد ، ولم يبدأ الملك المعركة إلا بعد محاولات واسعة ليتراجع هؤلاء إلى الطاعة ، ولكنهم كانوا قد وصلوا إلى غاية الشطط ، بل إنهم بدءوا بإشعال نار الحرب ، فدارت الدائرة عليهم بعد أن أظهروا بطولات هائلة وصمودا عظيما ، وقد قتل منهم عدد كبير وجرح وأسر كثيرون ، وأغضى الملك الطرف عن مئات منهم ليهربوا ، ويختفوا هنا وهناك وينماعوا بالمجتمع رعاة وزراعا وعمالا ، ويتحدث (المطوع) سالف الذكر عن حميه الذى كان واحدا من هؤلاء ، فاختفى فى مزارع أهل المطوع ولحقت به أسرته وكتموا أمره ... شأن كثيرين من أمثاله وكان الملك يدرك ذلك ويرضى عنه ولكن دون أن يعلن ذلك ، فإنه كان حريصا على تقليم أظافرهم والقضاء على خطرهم ، ولكنه لم يكن قط حريصا على دمائهم ، ولو كان يريد قتلهم بعد هزيمتهم ما نجا منهم أحد لأن سطوته كانت غالبة .

وقد سرت مع رفاقى نجوب أطلال القرية الكبيرة ، وقد دمرت تدميرا تاما خلال المعركة ، ودمر ما تبقى من منازلها بعد المعركة ، وصدرت الأوامر ألا يعاد بناؤها لتظل هكذا تذكّر من تراوده نفسه بالعصيان ، ولم يبق من أبنيتها إلا المسجد الذى أعيد بناؤه على أحسن حال ، وهو يقف شامخا وسط الأطلال وإن كان لا يوجد من يصلى فيه إلا القليل النادر لخلو المنطقة من الناس .

نهاية البطل

كل شيء فى هذه الدنيا له نهاية ، والملك عبد العزيز أمضى نصف قرن فى صراع عسكرى رأيناه واجتماعى سنراه ، وآن له أن يستريح بعد ما بذل من جهد وحقق من أهداف تعزّ على الكثيرين ، وقد صعدت روح الملك إلى بارئها فى ربيع الأول سنة ١٣٧٣ هـ (الموافق ٩ نوفمبر سنة ١٩٥٣) تاركا أجل الأعمال ، وأخلد الذكريات . رحمه الله رحمة واسعة ، وأحسن جزاءه كفاء ما قدم للإسلام والمسلمين من خير وعون .

مآثر الملك عبد العزيز :

إن الدراسة السابقة تبرز المآثر السامية للملك العظيم عبد العزيز آل سعود ؛ فلقد خلق مملكة عظيمة من الأشتات التى كانت متصارعة ، وأقام دولة شامخة متماسكة إنماع فيها الجميع وافتخر بها الجميع ، وذلك وضع قل أن وجد فى هذه البقاع ، ولا شك أن كل حبة من حبات الرمال بالجزيرة العربية أحست بعرق الملك وجهده .

ولما كوّن الملك هذه المملكة الفسيحة فتح أبوابها للحضارة والمجد ، وهيأها لتأخذ مكانها العظيم فى التاريخ .

وسنعود فيما بعد للحديث عن حضارة المملكة العربية السعودية .

الملك سعود

كان الملك عبد العزيز قد عيّن ابنه الأكبر « سعودا » وليا للعهد ، وأخذ البيعة له فى مارس سنة ١٩٣٢ ، كما عين ابنه الثانى « فيصل » وليا للعهد لابنه الأكبر ، فلما مات الملك عبد العزيز نفذ الأمراء والعلماء رغبة الملك الراحل ، فأصبح « سعود » ملكا ، وأصبح فيصل وليا للعهد بالإجماع .

وكان التعجيل بتعيين فيصل وليا لعهد الملك سعود نابعا عن حقيقة كانت واضحة هى أن فيصل كان يمثل اتجاها هاما ، ولا يمكن أن يُدَبَّر أمر المملكة بدونه ، فقد كان الملك سعود يمثل الاتجاه التقليدى المحافظ فى الحكم ، وكان ولى العهد يمثل الطبقة المثقفة المستنيرة ، وكان ذلك سببا لصراع خفى حينا أو بارزا حينا آخر بين الشخصيتين الكبيرتين ، فالملك سعود يريد أن يكون فى مكان أبيه له السلطان كله ، ولكن الملك سعود لم يكن فى كفاءة أبيه ، ولم تكن له جهود أبيه لخلق هذه المملكة الواسعة .

أما ولى العهد فمع ثقافته وخططه الإصلاحية لم يكن يريد الصدام مع أخيه حرصا على مكانة الدولة من جانب ومكانة الأسرة من جانب آخر ، وسارت أمور الصراع الخفى والظاهر على النحو التالى :

— ١٩٥٧ ترك فيصل المملكة إلى الخارج تفاديا للصدام مع الملك ،

— ظهر اضطراب اقتصادى فى المملكة بسبب ما عانته فى السنوات التى تلت توقف الملاحة فى قناة السويس بسبب الاعتداء الثلاثى سنة ١٩٥٦ ، فأحدث هذا حرجا فى موقف الملك فاستدعى الملك أخاه الأمير فيصل ، وترك له تشكيل وزارة فى ٢٢ مارس سنة ١٩٥٨ . وفى هذه الوزارة وضع الأمير فيصل أسسا اقتصادية وسياسية سرعان ما ضاق بها الملك ، كما ضاق بها الذين تأثروا بها اقتصاديا ، وأدرك فيصل أن مناورات تدبر ضد موقفه فى الخفاء ، فآثر التخلى مرة أخرى عن السلطة ، فترك رياسة مجلس الوزراء سنة ١٩٦٠ .

وشكل الملك سعود الوزارة عقب ذلك برياسته ، ولكن مجلس الوزراء الجديد لم ينجح فى اقرار الأمور ، ثم قامت باليمن ثورة السلال ، فخاف الملك عواقبها فلجأ مرة أخرى إلى أخيه ليتولى السلطة من جديد .

— نوفمبر ١٩٦٢ فيصل يعود للسلطة من جديد ، وفى هذه المرة وضع برنامجا واسعا للإصلاح يلخص فى الآتى :

فيما يتعلق بالعلاقات الخارجية :

— وَضْعُ ميثاق يجمع بين الدول الإسلامية فى دائرة تضامن وتعاون .

— محاربة بقايا الاستعمار فى كل البلاد الإسلامية .

— التعاون الصارم ضد الصهيونية ولمصلحة فلسطين .

وفى المجال الداخلى :

— أصدر فيصل قرارا بإلغاء الرق إلغاء تاما على أساس تعويض الملاك .

— سن تشريعات تضمن حقوق العمال .

— تزويد البلاد بأحدث الأجهزة فى ميادين المواصلات والصحة والتعليم .

وسافر الملك سعود إلى نيس بفرنسا للاستشفاء ، وهناك اتصل به أنصاره يخوفونه من إصلاحات ولى العهد التى ستقضى على حكم الملك وتربط البلاد بولى العهد .

وسرعان ما عاد سعود محاولا استرداد سلطته والاستبداد بها ، وكان معنى هذا هو العودة بعقارب الساعة إلى الوراء ، ولذلك فشل ولم تمكنه الظروف من ذلك مما اضطره إلى مغادرة البلاد تاركا خلفه جوا حافلا بالغموض والاضطراب .

وكان لابد من وضع حد لهذا الغموض ، فصدر فى ٢٣ مارس سنة ١٩٦٤ فتوى وقعها علماء السعودية طلبوا فيها من الملك سعود أن يقوم فيصل بتصريف جميع شئون الدولة الداخلية والخارجية وأن يبقى الملك سعود ملكا بالاسم فقط ، وأيد مجلس الوزراء فتوى العلماء . ووافق الملك على ذلك ، وعلى نقل جميع سلطاته إلى الأمير فيصل .

— خطا العلماء وأفراد أسرة آل سعود خطوة أخرى ، فقرروا فى أواخر اكتوبر سنة ١٩٦٤ خلع الملك وطلبوا إلى الأمير فيصل أن يتولى الملك ، وفى الثامن من نوفمبر ١٩٦٤ قـرر مجلس الوزراء السعودى الاستجابة لقرار العلماء والأمراء ، فخلع الملك سعود وبايع الأمير فيصل ملكا شرعيا على البلاد ، وقبل فيصل هذه المبايعة فتم له الأمر .

— فى الثانى من يناير سنة ١٩٦٥ أى بعد شهرين من عزل الملك سعود اعلن الملك السابق (سعود) موافقته على ما ارتآه أهل الحل والعقد فكتب للملك فيصل خطابا نصه كما يلى :

من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل إلى جناب الأخ جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز سلّمه الله .

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، بناء على ما أقرته الأسرة والعلماء بتنصيبكم ملكا على البلاد فإنا نبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله ملكا للبلاد راجيا لكم التوفيق ، وللشعب السعودى الرفاهية والازدهار والتقدم والسلام .

وتوفى الملك السابق سعود سنة ١٩٦٩ ونقل إلى الرياض حيث دفن بهـا .

الملك فيصل *

لم يكن الملك فيصل جديداً على الحكم ولا على الحياة الدولية ، فقد كان ساعد أبيه فى نضاله ، وكانت مواهبه الادارية واضحة وعالية ، وفيما يلى أبرز المناصب والأعمال التى باشرها فيصل قبل أن يصير الملك إليه :

ــ اصطحب أباه فى هجومه على ابن رشيد فى حائل سنة ١٩٢٠ .

ــ اشترك فى حصار جدة بعد أن استولى السعوديون على الطائف ،

فى سنة ١٩٢٧ أصدر الملك عبد العزيز (التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية) وعين فيصل نائبا عاما للملك فى الحجاز ورئيسا لمجلس الشورى ، وكان عمره آنذاك عشرين عاما .

ــ فى مايو سنة ١٩٢٧ كان فيصل نائبا عن والده فى المباحثات التى جرت بين المملكة وبين الانجليز الذين كان يمثلهم الجنرال « كلايتون » لتعديل معاهدة العقير التى سبق أن وقعت فى أثناء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥ ، وكان بها بعض القيود التى تتنافى مع الاستقلال الكامل للبلاد ، وقد انتهت المفاوضات بإبطال معاهدة العقير واستقلال البلاد استقلالا تاما .

ــ شغل منصب رئيس مجلس الوكلاء الذى كان يدير أكثر الشئون بالبلاد ، والذى صدر به مرسوم سنة ١٩٣٢ .

ــ وكان أول وزير للخارجية عندما أنشئت هذه الوزارة .

ــ وقــد أنشىء مجلس الوزراء فى أكتوبر ١٩٥٣ فى عهــد الملك

(*) من مراجعنا للحديث عن جلالة الملك فيصل الكتب التالية :
(١) خطب الملك فيصل بن عبد العزيز فى وفود الحجاج المسلمين .
(٢) فيصل بن عبد العزيز من خلال أقواله وافعاله للدكتور صلاح الدين المنجــد .
(٣) معجزة فوق الرمال للاستاذ أحمد عسه .

عبد العزيز ، على أن يكون الأمير سعود رئيسا لهذا المجلس والأمير فيصل نائبا للرئيس ، ولكن الملك عبد العزيز توفى فى الشهر التالى (٩ نوفمبر) قبل أن يباشر هذا المجلس سلطاته ، ولما أنشىء هذا المجلس فى عهـد الملك سعود كانت الرياسة الفعلية لولى العهد (فيصل) ولو أن الرياسة الاسمية كانت للملك سعود .

— وقد رأينا جهوده العظيمة فى خلال عهد الملك سعود ، تلك الجهود التى رجحت بكفته ونقلت الملك إليه .

واذا كان الملك عبد العزيز قد أسس الدولة ووحدها ووضع أسس نهضتها فإن الملك فيصل رفع شأن البناء ، ونقل المملكة من عصر إلى عصر ، ومن حال إلى حال ، وقد برهن جلالته بحق أنـه قمة من قمم العروبة ، ورائد من أعظم رواد الإسلام ، وفتح جديد بين الرجال .

مآثر الملك فيصل :

وقد اتجهت جهود الملك فيصل إلى كل اتجاه ، فله فى الميدان الداخلى جهد يذكر فيشكر ، وله كذلك جهود عظيمة فى الميدان العربى والإسلامى ، وكذلك فى الميدان الدولى .

وتشعبت جهوده الداخلية فشملت الجانب الثقافى والاقتصـادى والاجتماعى ، كما شملت حركات التقدم والعمران وتقوية الجيش .

ففى مجال العلم والمعرفـة فتحت الجامعات فى مختلف العواصـم بالمملكة ، وشيدت مئات المدارس والمعاهد والكليات لتستوعب مئات الألوف من الطلاب ، كما ارتفع عدد المبعوثين من أبناء المملكة إلى الخارج ارتفاعا عظيمـا .

وقد أصبح عدد الطلاب يقترب من المليون فى جميع مراحل التعليم .

وارتفعت مخصصات تعليم الفتيات فى عهده إلى ٤٨٥ مليون ريال ، أى ٢٤٣ ضعفا عما كانت عليه سنة ١٩٦٠ ، حينما بدأت سياسة تعليم الفتيات فى السعودية ، وكان فيصل وقتئذ رئيسا للوزراء ، وهو الذى أصدر هذا القرار ، وتحمل كل آثاره من جانب العقول المتعصبة الرافضة لتعليم الفتيـــات .

وفضلا عن ذلك دخلت المملكة السعودية عصر التصنيع على يديه ، فبدأت خطوات جديدة تستهدف الانتقال بهذه البلاد من مجرد الاعتماد على ثروتها الطائلة من البترول إلى بلد يسير نحو الصناعة ، وتطوير الزراعــــة .

كما صاحب ذلك حركة ممـــاثلة فى ميدان الصـــحة ، حيث انتشرت المستشفيات وظهرت قلاع علمية طبية تستفيد من أحدث المنجزات العلمية فى هذا الميدان ، وتجذب إليها أعظم الخبراء فى هذا المجال .

وفى الميدان العربى كان الملك ضمان ود عند الأزمات ، وكان دائما كبير القلب مستعداً أن يمد يده لكل العرب وأن يتعاون معهم ، يمشى للرؤساء العرب أو يستقبلهم ، وكان مستعدا — من أجل المستقبل — أن ينسى إساءات الماضى التى تنسب لبعض الرؤساء ، وكانت الميزانية السعودية على استعداد أن تقدم المال كلما احتاجت الأمور للمال ، وبخاصة للمنظمات الفلسطينية التى تصارع لاستعادة كيانها .

وفى الميدان الإسلامى كانت هناك حقيقة تمثل أمام الملك هى أن بلاده مشرق النور ، وأن الإسلام انبثق من الأرض المقدسة التى تقع ضمن نطاق مملكته ، وإذا كان الفكر الإسلامى قد اتخذ له عدة مراكز هنا وهناك فإن الحجاز ينبغى أن يظل مركزا مهما من مراكز الفكر بالإضافة إلى أنه مقصد لآلاف من المسلمين كل عام للحج وزيارة مدينة رسول الله ، وقد اتجه الملك بعناية فائقة إلى ربط بلاده بأقطار العالم الإسلامي برباط من الود

الوثيق وتبادل المنافع ، كما اتجه إلى أن يكوّن من المسلمين قوة تقف أمام اللادينية والإلحاد ، وتعمل على التعاون المثمر حتى تبقى كلمة الله خفاقة عالية ، والذى يدرس تاريخ الملك فيصل فى هذا المجال يجده سلسلة من النشاط أثمرت أطيب الثمرات ، وعملت على أن تخلق من المسلمين قوة كبيرة قوية متماسكة تتعاون فى مختلف المجالات ، حتى تسهم كل دولة من الدول الإسلامية برصيدها الفكرى أو البشرى أو الاقتصادى بهدف خدمة المجتمع .

ولا شك أن الملوك والرؤساء المسلمين استجابوا أقوى استجابة لدعوة الملك فيصل للتضامن والتعاون ، فالتضامن والتعاون بين المسلمين من أهم أسس الإسلام ، وعندما ينادى بهما صوت أو ترتفع بهما راية يتجاوب الصدى فى كل مكان ، وتجتمع حول الراية كل القوى بالحماس والثبات والأمل .

فيصل وحرب رمضان ١٣٩٣ (أكتوبر ١٩٧٣)

من الحق أن نذكر أن الملك فيصل كان له دور فريد فى حرب رمضان ، وقد بدأ هذا الدور قبل اندلاع المعركة ، فقد صرح الرئيس أنور السادات بأنه عرض على الملك فيصل قبل المعركة بفترة نيّة مصر نحو بدء الصراع ضد إسرائيل ، ودعا الملك فيصل لمصر بالتوفيق ، ووعد بكل التأييد فى جميع المجالات ، كان له شرط واحد هو أن تكون المعركة طويلة ، فطولها فرصة للثقة والجدية ، وبالتالى للتجمع العربى والتضامن ، ووعد أنور السادات بذلك .

ومع بدء المعركة وصلت برقية إلى الرئيس السادات من الملك فيصل يقول : « نؤكد لكم بأننا إلى جانبكم بجميع إمكانياتنا ، داعين للجيش المصرى المظفر بالنصر والتأييد » .

ودارت المعركة ، ووقف الرجل عملاقا هائلا كأنه فى غرفة العمليات الحربية ، ويقول الرئيس السادات عنه :

إن كل ما صدر بعد ذلك عن قضية البترول ، وعن مد مصر بكل ما تحتاج إليه ، وعن الوقوف الصلب فى المحيط الدولى ، وعن الدعم الكامل للتضامن العربى ••• كل ذلك صدر من الملك فيصل دون أن يطلب أحد منه شيئا » •

وعلى هذا فسيظل التاريخ يذكر للرجل دوره الكبير فى المعركة الناجحة •

ومن الواضح أن صدى قطع البترول عن أمريكا كان عنيفا للغاية ، فلقد أحس كل بيت وكل مصنع بهذه الصفعة الشديدة ، وانطلقت ألوان من التهديدات الثائرة ، ولكن الرجل كان أصلب عودا ، وكان كالجبل الأشم ، فلم تنل منه هذه الترهات منالا ، وتراجعت التهديدات من تلقاء نفسها ، وسحبها أولئك الذين ظنوا أن صداها سيكون له تأثير على نفس الملك ، مع العلم أن الملك لم يقل شيئا يرد به على هذه التهديدات ، ولكن صمته كان أبلغ من كل كلام ، فالذين هددوا توقفوا عن التهديد ، ثم سحبوا هذا الشعار الزائف وتراجعوا ثم سلكوا الطريق الذى يرضى الصف العربى الذى نال من الملك فيصل قوة وثباتا وجلالا •

ولم يكن قرار فيصل عن البترول وليد انفعالات صاحبت المعارك العسكرية ، وإنما جاء تنفيذا لحكمه ولحساب دقيق ، ومن أجل هذا اجتمعت حول هذا القرار كلمة جميع الدول العربية المنتجة للبترول •

وكانت معركة البترول — ولا زالت — نموذجا لاستخدام الحكمة والدهاء والمرونة التى هزت أنماط التفكير الغربى من أساسه ، فبدأ يعيد الحسابات فى مواقفه نحو العالم العربى ، وكانت النتائج مذهلة :

— تحركت دول أوربا الغربية لتصدر قرارا جماعيا تطالب فيه بانسحاب إسرائيل من جميع الأراضى العربية التى احتلتها •

— تخلت اليابان عن حيادها ، وأعلنت انحيازها وإيمانها بالقضية العربية ، وبدأت تشترك بصوت فعال فى عمليات تنمية الدول العربية •

— ثم تحركت الولايات المتحدة ، وبدأت تبحث عن حل لأزمة الشرق الأوسط ، بعد انحياز كامل دام أكثر من ربع قرن نحو ربيبتها المدللة

— وانتهت إلى الأبد حالة اللا حرب واللا سلم • وشرع كيسنجر فى رحلاته المتلاحقة لنزع الفتيل من الأرض المشتعلة والمهددة بالانفجار ، وما يستتبع ذلك من خطورة الموقف الدولى •

— أفاق العالم بأسره من غيبوبة اللامبالاة ، واعتناق أسطورة الدولة المسالمة التى يريد العرب إلقاءها فى البحر •

نهاية الملك فيصل :

وهذا الرجل الذى رفع شأن بلاده وأعز شأنها ، وأيد المعركة قبل أن تقوم ، ودعمها وهى مشتعلة ، وناصرها بحزم بعد أن توقفت ، سقط شهيدا فى لحظة كان العالم العربى ، والعالم الإسلامى فى أشد الحاجة إليه ، وكان موته غدرا بيد ابن أخيه المسمى فيصل بن مساعد بن عبد العزيز ، وقد أطلق عليه هـذا الشاب الرصاص وهو يتظاهر بأنه يريد أن يقدم له التحية ، وفى لحظة سريعة أفرغ فى جسد الملك رصاص مسدسه ، وسقط الرجل العظيم شهيدا فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١٣٩٥ هـ (٢٥ مارس ١٩٧٥) وأحدث نبأ اغتيال الملك فيصل دويا هائلا فى العالم كله بوجه عام ، وفى العالم الإسلامى والعربى بوجه خاص •

وكان الشاب القاتل قد عاد حديثا من أمريكا ، ولا يستبعد أن يكون قد تأثر بالحنق الذى يذيعه الصهيونيون وعملاؤهم ضد الملك الراحل ،

فأقبل الشاب على فعلته الطائشة لهذا السبب أو لسواه ، وقد قيل عقب الحادث أن الشاب مختل العقل ، ولكن سرعان ما أثبت الأطباء أنه عاقل مسئول عما يفعل ، وبناء على ذلك قدم الشاب للمحاكمة ، وقد استغرقت محاكمته عدة أشهر ، ولما سئل أحد أولاد الملك الراحل عن القصاص قال : وماذا يجدى القصاص من ذلك الشاب بعد أن قضى بفعلته الشنعاء على رجل كان العالم الإسلامى يتطلع إليه ويرقب فضله :

ولكن القصاص على كل حال يحمى الأحياء من مثل هـذا التصرف الإجرامى ، وهو المعنى الذى تشير له الآية الكريمة « ولكم فى القصاص حياة » •

وفى صبيحة يوم ١٨ يونيو سنة ١٩٧٥ صدر حكم المحكمة الشرعية بإعدام القاتل الأثيم وتم تنفيذ الحكم فى نفس اليوم وصدر بذلك بيان رسمى يقول :

« تم تنفيذ الإعدام فى المجرم القاتل بناءً على حكم أصدرته صباح اليوم المحكمة الشرعية العليا لارتكابه جريمة قتل فقيد الأمة العربية والإسلامية المغفور له الملك فيصل ، وإن جلالة الملك خالد بن عبد العزيز قد صدق على الحكم فور صدوره وأمر بتنفيذه عقب صلاة العصر » •

وقال الراديو نقلا عن بيان للقصر الملكى أن القاتل اعترف خـلال محاكمته بأنه قتل الملك لكى يضع حدا للإسلام ، وأن جريمته هى جزء من أهدافه لمحاربة هذا الدين • لعن الله هذا القاتل الأثيم •

ورحم الله الفقيد وأثابه على ما قدمه لبلاده وللعالم العربى والإسلامى من جهد وعون •

الملك خـــالد بن عبد العزيز

عقب وفاة الملك فيصل صدر عن الديوان الملكى السعودى بيان يقرر أن أفراد الأسرة المالكة وأولى الأمر بالمملكة بايعوا ولى العهـــد الأمير خالد بن عبد العزيز ملكا على البلاد ، وبعد إتمام البيعة أعلن صاحب الجلالة الملك خالد ترشيح صاحب السمو الملكى الأمير فهد بن عبد العزيز ولياً للعهد وقـــد أجمع أفراد الأسرة وأولو الأمر على ذلك ، ثم بايعت الجماهير والقوات المسلحة الملك وولى العهد .

ولئن سقط فى الميدان بطل ، فهناك أبطال وأبطال يملئون الفراغ ويكملون مسيرة الذين رحلوا بعد أن أناروا الطريق ، ومهّدوا السبيل .

وفاة الملك خالد

لم تَطُلْ حياة الملك خالد بعـــد أن آلت له الأمور ، فقـــد هاجمته الأمراض ، وعجز الطب عن شفائه ، وأسلم الروح بعد حياة ملكية قصيرة ولكنها عامرة بالإيمان والخدمات العامة رحمه الله وأجزل ثوابه .

البيعة للملك فهـــد بن عبد العزيز

وآل المُلك للملك فهد ، وهو من الملوك الأفذاذ ، فقد استطاع أن يعيد أمجاد أخيه الملك العظيم فيصل فى قوته وكياسته وعمق تفكيره وحسمه للأمور ، عطّر الله أيامه ، وجعل عصره من أزهى العصور للمملكة العربية السعودية وللعالم الإسلامى كله .

وللملك فهد مآثر رائعة جديرة بالتسجيل مع الإجلال والتقدير ومن أهمها ما يلى :

تعاون وعون :

شهد هذا العصر تعاونا وصل إلى القمة بين المملكة العربية السعودية

وبين دول العالم الإسلامى ، وفتحت المملكة خزائنها بقدر الطاقة لكل الدول التى طلبت عونا أو مسها الضر ، وعندما شمل التصحر بعض الدول الإسلامية بإفريقية فى الثمانينات امتدت يد العون من السعودية فكانت بلسما خفف آلام المنكوبين وأزال كربتهم ، وأحس الجميع أن الملك « فهد » واقف فى صفوفهم .

ملايين النسخ من القرآن الكريم :

وقامت المملكة بطبع ملايين النسخ من القرآن الكريم ووزعتها على العالم الإسلامى ، واختارت لهذه المصاحف أحسن الأوراق وأجود وسائل الطباعــة .

وعندما هبت صحوة إسلامية فى الدول الإسلامية التى يشملها الاتحاد السوفييتى استغلت المملكة السعودية هذه الفرصة وأرسلت للمســلمين هناك ملايين من المصاحف ومن الكتب الإسلامية ، وكانت هذه الهدية مؤثرة تأثيرا عظيما ، ولفتة إسلامية طيبة .

خادم الحرمين الشريفين :

وتنازل الملك فهد عن لقب « صاحب الجلالة » واختار بديلا عن ذلك لقبا آخر هو : « خادم الحرمين الشريفين » .

جسر الملك فهد :

ومن أخطر الأعمال التى تمت فى هذا العهد الميمون « جسر الملك فهد » . وطوله ستة وعشرين كيلو مترا ، وهو الذى وصل « دولة البحرين » بأرض السعودية ، وقضى بذلك على الأمل الفارسى الذى كان يراود حكام إيران بأن تكون جزر البحرين جزءا من إيران ، وسنرى عندما نتكلم عن البحرين محاولات الفرس للتسلل لهذه البلاد ، ولكن هذا الجسر قضى على الأطماع والمحاولات وثبتت البحرين دولة عربية عميقة العروبة .

أقســام المملكة العربية السعودية
وأهم بلـــدانها

بعد هذا الحديث عن المملكة العربية السعودية يتضح لنا أنها الآن تشمل أربعة أقسام رئيسية هى : نجد والأحساء والحجاز وعسير ، وأن نجدا تشغل المساحة العظمى بالملكة ، وامــا الأحساء فتطلق على المنطقة الممتدة على الساحل الغربى للخليج من حدود المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية إلى حدود قطر ، أما الحجاز وعســير فيشغلان شريطا موازيا للبحر الأحمر يضيق حينا فيصل إلى عشرة أميال ، ويتسع حينا فيصل إلى أربعين ميلا ، ويقع الحجاز فى الشمال وعسير فى الجنوب وفيما يلى معلومات سريعة عن أقسام المملكة :

أولا — نجد :

تحدثنا عن نجد حديثا طويلا فيما سبق ، وكل ما نضيفه هنا أن نجدا معناها الأرض المرتفعة وعكسها تهامة ، وأن نجدا تمثل همزة الوصل بين أقاليم المنطقة وهى التى تربط بينها ، وفى نجد مواقع أكثر المشاهير من شعراء الجاهلية ، ففى جبل السموأل بالقرب من حائل عاش حاتم الطائى وسجل أروع المكرمات ، وفى منطقة الوشم توجد بلدة جرير الشاعر ، وفى بلدة منفوحة عاش الأعشى الشاعر ، وهكذا ، وتعداد نجد حوالى مليونين

ثانيا — الأحساء :

الأحساء هى — كما سبق — الأرض الرملية التى يقرب المــاء من سطحها ، وهى اليوم تطلق على المنطقة الممتدة على الساحل الغربى من الخليج العربى من حدود المنطقة المحايدة جنوب الكويت إلى حدود قطر ، **وتلتقى بالربع الخالى فى الجنوب ، وكانت قديما تسمى البحرين أو هَجَر ،** ويقول أبو الفدا ، إن البحرين أو هَجَر ناحية تمتد على شط بحر فارس ،

والأحساء جزء فيهـا ، والقطيف بلدة علـى شاطىء بحر فـارس من البحرين [1] وتعرف هذه المنطقة الآن بالمنطقة الشرقية .

ومنطقة الأحساء كثيرة العيون ، نضرة خضراء ، خصبة التربة تنمو بها زراعات الأرز وغيره من الحبوب ، ويكثر بها النخيل كما توجد بهـا أنواع مختلفة من الفواكه ، ولكن أعظم ما تشتهر به الأحساء هو حقول البترول الهائلة التى تمثل بحرا فيّاضا بالذهب الأسود ، وتكثر البلـدان المشهورة بالأحساء ، ومن أهمها البلدان التالية :

ــ الهفوف : كانت عاصمة الأحساء قبل اكتشاف النفط ، وهى مقر أسرتين من كبار التجار الأثرياء ، وهما القصيبى والعجاجى ، ولأفراد هاتين الأسرتين قصور ضخمة تحيط بها حدائق فينانة ، والهفوف مدينـة مسوّرة ، وبها سوق حافلة بأنواع البضائع والحاجيات ، وكانت الهفوف عاصمة المنطقة فى العهد العثمانى يوم كانت الأحساء لواء إداريا مستقلا .

ــ الظهران : هى مدينة حديثة تقع على أكَمَة مسماة بهذا الاسم ، وتبعد حوالى خمسة أميال عن السـاحل ، والظهران مركز شركة الزيت العربية الأمريكية ، وقد أنشئت الظهران على نسق البلاد الأمريكية ، ولها ميناء على الساحل وهو رأس تنورة ، ومنه يتدفق البترول إلى نواح مختلفة بالعالم .

ــ القطيف : واحة فى الجهة الشمالية الشرقية من الأحساء ، وأكثر سكانها من الشيعة ، وهى تقع على الخليج على بعد ٣٦ ميلا من الظهران ، وهى كثيرة المياه العذبة ، وبها حركة تجارية واسعة .

ــ الدمّام : تقع الدمام على الخليج ، وهى عاصمة الأحساء الآن ، وتبعد سبعة أميال عن مدينة القطيف وكانت الدمام قد خرّبت فى القرن

---

(١) أبو الفدا : كتاب البلدان ص ٩٨ ــ ٩٩ .

التاسع عشر ، ثم أعيد عمرانها ، وفى الدمــام تكثر الحدائق والآبــار الارتوازية ، وهى مركز اقتصادى هام ، ومركز رئيسى لشحن البترول ، وأهم الموانى السعودية على الساحل الشرقى ، وتبدأ منها سكة حديد الرياض •

وسنتكلم عن تاريخ الأحساء فيما بعد ضمن حديثنا عن منطقة الخليج •

ثالثا — الحجاز :

طول الحجاز على ساحل البحر الأحمر حوالى ٧٠٠ ميل تبدأ مــن خليج العقبة إلى عسير ، ويقدر عدد سكان الحجاز بحوالى مليونى نسمة ، وهم يتكونون من حضر يسكنون المدن أو القرى ويشتغلون بالتجارة أو الزراعة ، ومن بدو يتنقلون طلبا للمراعى وبحثا عن الماء •

وتجارة الحجاز تنحصر غالبا فى البضائع التى ترد له من الخــارج والتى يشتريها الحجاج ويعودون بها إلى بلادهم ، وتصدّر الحجاز بعض الحاصلات من التمر والجلود والحناء والصمغ ، وأهم مدن الحجاز مكة والمدينة والطائف وجدة وينبع ، وسنتكلم كلمة عن كل من هذه المدن :

— جدة : جدة هى الميناء الأولى للمملكة العربية السعودية ، وينبع هى الميناء الثانية ، وتقع جدة فى منتصف طول البحر الأحمر تقريبا ، وبينها وبين مكة ٥٥ ميلا ، وقد أسست جدة فى عهد الخلفاء الراشدين أسسها الخليفة عثمان رضى الله عنه ، وكان بجدة قبر ينسب إلى حواء أم البشر ، وقد أزالته حركة الإصلاح ، إذ كان الحجاج يتمسحون به ، ويتوسلون به إلى الله •

وتبعد جدة عن بور سودان الواقعة على الشاطىء الآخر بمقدار ١٩٠ ميلا ، وتبعد جدة عن السويس بمقدار ٧١١ ميلا ، وكانت تحصل على ماء الشرب من تقطير مياه البحر ، ولكنها الآن تحصل على الميــاه العذبة من منابع فى وادي فاطمة الذي يبعد عن جدة بمقدار ٥٠ ميلا •

— مكة : ومكة تسمى بكة وأم القرى ، وهى أشهر مدن الحجاز ، وتعتبر المدينة الأولى بالمملكة العربية السعودية ، تقع على ارتفاع يبلغ ١٤٠٠ قدم ، ولا يدخلها غير المسلمين ، وهى محاطة بالتلال الصخرية ، ومعرضة لحرارة الصيف الهائلة ، كما أنها تتعرض أحيانا لفيضان جارف وتعتمد مكة على عين زبيدة فى الحصول على ماء الشرب ، وفى مكة يوجد المسجد الحرام أول مساجد العالم ، ولقد كان فى مكة كثير من الآثار التاريخية مثل المكان الذى ولد فيه الرسـول ، وبيت السـيدة خديجة ، وبيت أبى بكر وغيرها من الآثار ، ولكن الإخوان هدموا هذه الآثار مع ما هدموا من القباب والقبور ، ويقول المؤرخون للحركة السعودية الأولى إن مكة والمدينة فى أثناء الحكم السعودى فى القرن التاسع عشر قد أزيل منهما كل الآثار التاريخية التى كان يتبرك بها الحجاج [١] .

— المدينة : المدينة تسمى طيبة ويثرب ، وهى أول عاصمة إسلامية ، وتبعد المدينة عن مكة حوالى ٣٠٠ ميل ، وعن ينبع حوالى ١٣٠ ميلا ، وبها قبور الصحابة وآل البيت وأئمة الحديث والفكر ، وكانت تكثر بهـا القباب والمبانى فوق هذه القبور ، ولكن الحكومة السعودية هدمت هذه القباب والمبانى وسوّتها بالأرض ، وترتفع المدينة حوالى ٢٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، وفى المدينة مياه غزيرة وافرة تساعد على زراعة الفواكه والخضر بكثرة تزيد عن حاجة السكان .

— الطائف : والطائف مدينة مسوّرة تقع على بعد ٧٥ ميلا مـن الجنوب الشرقى من مكة على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم من سطح البحر ، وهى مصيف العظماء والأغنياء ، وأمطارها غزيرة تسقط فى فصل الخريف ، وآبارها كثيرة ، وأرضها خصبة يكثر بها العنب والرمان والخوخ والليمون والمشمش ، كما تنمو بها أنواع مختلفة من الزهور والورد .

---

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣٤ .

رابعا — عسير :

تقع عسير إلى الجنوب من الحجاز بين الحجاز واليمن ، وتشمل سهول تهامة ، وفى عسير قامت إمارات متعددة تحدثنا عنها من قبل ، وكان بعضها تابعا للأتراك أو خاضعا لنفوذهم ، ولكن المملكة العربية السعودية شملت منطقة عسير فيما شملته من بقاع .

ويبلغ عدد السكان حوالى مليونين ، وهم شافعيو المذهب وهناك قلة فى الشمال الشرقى تتبع مذهب أحمد بن حنبل ، ويشتغل أغلب الأهالى بالزراعة ، والبدو الرحل قليلون جدا فى عسير ، والاختلاط فى الأنساب قليل فيها ، إلا ما كان فى المدن الكبيرة ، وحدود القبائل معينة تعيينا دقيقا ، ليس له نظير فى غير عسير [1] ، وعسير أغزر جهات السعودية مطرا .

وأهم مدن عسير هى جيزان وأبْها والقنفذة — وصَبْيَا ، وأبو عَرِيش وتُرْبة ومِيدى .

وجيزان عاصمة تهامة فى إقليم عسير ، وكانت ميناء الأدارسة فى زمنهم ، وجيزان تقع على قمة خليج يكتنفه المد والجزر العنيف ، وبها مقر الحاكم ، ويشتغل سكان جيزان باستخراج اللؤلؤ .

وأبْها كانت العاصمة القديمة فى عهد الأتراك ، وموقعها جذاب ، وتقع على ارتفاع ٧٠٠٠ قدم ، وهى محاطة بحقول وجبال خضراء .

والقنفذة أهم ميناء بعسير ، وهى على بعد حوالى ٢٠٠ ميل جنوب مكة ، وهى ميناء أبْها .

وصَبْيَا كانت عاصمة الأدارسة ، وبها قلعة قديمة بنيت أيام الحكومة السعودية الأولى ، وقد أصلحتها الحكومة الحالية .

---

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٤٢ .

وأبو عريش أشهر بلدة فى تهامة ولها تاريخ حافل فى القرن التاسع عشر ، عصر النهضة الدينية الأولى .

حضارة المملكة العربية السعودية

لا يعرف ما حققه السعوديون من تقدم فى المملكة العربية السعودية إلا الذى يعرف أو يتصور ماذا كانت عليه هذه المنطقة قبل السعوديين : وكيف عَبَر سكان هذه البلاد مئات السنين فى حياة جاهلية وقبلية وصراع وتناحر وسلب ونهب وفوضى ، فلما قامت الدولة السعودية بها تغيَّر كل شىء ، ومع هذا فإن شوطا طويلا لا يزال يُرجى من القادة السعوديين ، فإن الإمكانيات الكبيرة المتاحة لهم تهيىء لهم أن يلعبوا دورا واسعا لخدمة الإسلام والمسلمين ، ولكن هذا الأمل لا ينسينا أن نَصِفَ التطور الهائل بين ما كان وما هو كائن فعلا ، وفى السطور الآتية نشير لهذا التطور الكبير .

التصحيح الفكرى :

فى قمة ما حققه السعوديون فى مملكتهم ذلك التصحيح الفكرى الذى انطلق به الإمام محمد بن عبد الوهاب وحمل القادة السعوديون لواءه ، وقد انتقلَ الناس بهذا التصحيح من جاهلية حمقاء وشرك أو ما يقرب منه إلى التوحيد الخالص ، وقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق ، وأظهرنا أثره فى داخل البلاد وخارجها .

وحدة المملكة :

أصبحت هذه المنطقة الفسيحة تتكون منها دولة واحدة بعد أن كانت أشتاتا من القبائل والجماعات ، وخضعت هذه الدولة للشريعة الغراء بعد أن كانت تتبع شريعة الغاب . وكما استطاع الملك عبد العزيز وخلفاؤه من بعده أن يتغلبوا على الشعور القبلى الذى كان يهدد المملكة ، فقد استطاعوا كذلك أن يقضوا على التفكك الإقليمى الذى حدث بعد ضم الحجاز وغيره من المناطق إلى نجد ، ويوما بعد يوم ، وعاما بعد عام ضعف

هذا التفكك ، وزال تقريبا ، ويمكن القول أن ما قام به السعوديون فى هذا المجال عجز عنه غيرهم فى الظروف المشابهة وكانت عدالة السلطة وحكمتها أعظم وسيلة لما وصلت له من وحدة حقيقية ، هذا بالإضافة إلى اتباع أحدث الوسائل لهذه الغاية كتمهيد الطرق بين نواحى المملكـة ، وكبرامج التعليم ، وكالحزم عند الضرورة وغير ذلك من الوسائل •

القيادة الرشيدة :

عُرف عن ملوك السعوديين أنهم يحسنون اختيار بطانتهم ، وبطانة الخير تدفع للخير وتُعين عليـه ، وفى الفترة الأولى من ظهور المملكـة العربية السعودية كانت بطانة الملك عبد العزيز تُختار من الكفايات العربية الإسلامية بدون ارتباط بالجنسية ، وعلى هذا ظهر بين مستشارى الملك شخصيات تنسب إلى العراق وسوريا ومصر ، ولما اتضحت الكفايات بين أبناء المملكة السعودية ، اتجه الاختيار اليهم ، وإن كانت المملكة لا تزال تنتفع بالخبراء وقمم المفكرين فى مجالات مختلفة من أبناء العالم العربى والإسلامى •

الأمن :

عمّ الأمن تلك المناطق الفسيحة التى تكونت منهـا المملكة العربية السعودية ، وأصبح الحجاج من مختلف البقاع يسيرون رحلتهم إلى الأرض المقدسة فى أمن وسلام وطالما تعرضوا من قبل للسلب والنهب والعدوان وهم فى طريقهم لأداء فريضة الحج ، ومثل وفود الحجيج حظيت القوافل التجارية التى تجتاز الجزيرة العربية بمثل ذلك الأمن ، ولم تعد قوافل التجارة تحتاج لحراسة ، إذ اختفى العدوان فى ظل المملكة العربية السعودية وقد سبق أن ذكرنا أن قادة السعوديين جعلوا قيادات المناطق مسئولة عن أى عدوان يقع فى مناطقها ومن هنا حرص هؤلاء القادة عـلى حفظ الأمن فى مناطقهم خوفا من هذه المسئولية ، وكان بعض القادة من قبل يشترك فى التخطيط للعدوان ، وينال نصيبا موفورا من الغنائم المسلوبة

وهذا يوضح الفرق الكبير بين ما كانت عليـــه الأحوال قبل قيام المملكة العربية السعودية ، وبعد قيامها •

الإدارة :

خلق السعوديون للدولـــة الجديدة جهازا إداريا دقيقا ، وأخذ هذا الجهاز يتطوّر بتطور الظروف ، فقد كان الملك عبد العزيز يحكم البلاد كأنه أب لأسرة يحكم أسرته ، فثروة الدولة كلها كانت فى يده دون فصل بين مال الدولة وماله الخاص ، وكان ينفق من هذه الثروة على الدولة وعلى الأسرة ، وكان هناك معاونون فى العاصمة وخارجها لمساعدة الملك فى مختلف الشئون ، وكان للملك بعض المستشارين يطلب رأيهم كلما عنّ له ذلك ، وكان هذا يكفى عن الوزارات والتقسيمات الفنية ، ثم اتجه الملك إلى نوع من التطور فى هذا المجال ، فأنشأ وزارات متخصصة ، وكانت وزارة الخارجية أولى هذه الوزارات إذ أنشئت سنة ١٩٣٠ ، وجاءت بعدها وزارة المالية ١٩٣٣ ، فالدفاع سنة ١٩٤٤ ، فالداخلية سنة ١٩٥١ ، فالمواصلات والمعارف سنة ١٩٥٣ ، ثم أنشىء مجلس يضم هذه الوزارات سنة ١٩٥٣ قبل وفاة الملك بشهر واحد ، كما ذكرنا من قبل ، كما قسمت البلاد إلى مناطق متعددة ، وعين لها محافظون أكْفاء أشداء ، ووُجدت كذلك مجالس محلية ومجالس بلدية لإدارة المدن والمناطق ، كما وُضِعت التشريعات اللازمـــة للعمل وللتأمينات الاجتماعية ، واتخذت من التشريع الإسلامى اتجاهاتها ومبادئها •

محاربة الأعداء الثلاثة :

كان الفقر والجهل والمرض صورة للحياة العامة فى الجزيرة العربية قبل قيام المملكة العربية السعودية ، وقد ذكرنا عند حديثنا عن نجد نماذج من الآفات الطبيعية والمجاعات التى كانت تنتاب البلاد من حين إلى حين ، وقد حارب السعوديون هذه الآفات قبل أن ينبثق البترول وبعده ، حتى وجد كل إنسان وسيلة طيبة للحياة والعلم والعلاج ، وسنعطى فيما يلى صورة سريعة لما حققته المملكة السعودية فى مجال العلم والصحة ومحاربة

الفقر ، وقد ذكرنا بعض هذا التطور متصلا بالملك فيصل ، ولكنا هنا نتحدث عن الجهود العامة منذ إنشاء المملكة حتى العهد الحاضر .

النهضة العلمية :

إن عناية ملوك السعوديين بلغت غاية رائعة فى مجال التعليم ، فالمدارس وجدت فى القرى والنجوع ، والجامعات شيدت فى الرياض ومكة والمدينة وجدة وأقيمت كليات تابعة لها فى المدن الأخرى مثل بريدة وأبها ، ووجدت البنت طريقها للعلم ابتداء من سنة ١٩٧٠ ، والحق يقال إن الملك فيصل — كما أشرنا من قبل — واجه تذمرا واسعا عندما بدأ وهو رئيس للوزراء يفتح المدارس للفتاة السعودية ، وكان إقبال الأهالى على تعليم بناتهم محدودا ، ولكن سرعان ما زال التذمر ، وأدرك الناس يُمْنَ هذه الخطوة وباركوها ، فتدفقت الفتيات على التعليم حتى أصبح للطالبات ٤٦٤ مدرسة سنة ١٩٧٠ ، بعد أن كان عددها يعد على أصابع اليد الواحدة سنة ١٩٦٠ ، وتضاعفت المدارس والكليات بعد ذلك ولا شك أن النهضة العلمية تستحق التقدير والإعجاب .

والتعليم بالمملكة العربية السعودية بالمجان فى جميع مراحله ، ويقدم للتلاميذ ما يحتاجونه من كتب وعلاج ، وتقدم وجبة غذائية للتلاميذ فى مراحل ما قبل الجامعة ، ولكل طالب فى المدارس المهنية وفى الفروع العلمية من الجامعة وكلية البترول مرتب شهرى يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ ريال سعودى .

وقد أنشئت أول مديرية للتعليم سنة ١٩٢٦ ، وجعلت تابعة لإدارة الشئون الداخلية وفى سنة ١٩٥٣ أنشئت أول وزارة للمعارف فى تاريخ شبه الجزيرة العربية ، وتولاها الأمير فهد بن عبد العزيز ، (الملك فهد الآن) ومنذ ذلك الحين تطور التعليم بالمملكة تطورا عظيما .

الصـــحة :

حقق السعوديون فى مجال الصحة تقدما هائلا ، ففتحوا المستشفيات الكثيرة ، وبعض هذه المستشفيات ينافس فى إعداده وأطبائه أعظم المستشفيات فى العالم ، وأدخلوا نظم التحصين ، والعناية الصحية بمختلف أنواعها ، كما عنوا عناية كبيرة بالنظافة العامة ، وبتطهير الأماكن التى تكثر فيها التجمعات ، وبخاصة فى موسم الحج ، متبعين أحدث الطرق للوقاية من ظهور الأمراض أو انتشارها .

مقارنـــات :

ولا يمكن أن نترك الحديث عن التقدم العلمى والتقدم الطبى اللذين أشرنا لهما آنفا بدون أن نعود إلى الوراء قليلا لنضع فى ميزان المقارنة صورتين من الصور الفكرية والطبية التى كانت سائدة بهذه البلاد فى مطلع عهد الراحل العظيم عبد العزيز آل سعود لنرى الجهد الكبير الذى بذله هذا الرجل وبذله خلفاؤه من بعده :

فى المجال الأدبى نقتبس سطورا من الخطابين اللذين أرسلهما الملك عبد العزيز وهو أمير نجد سنة ١٩١٠ إلى الشريف حسين بمكة — والخطابان ركيكا الأسلوب ضعيفا البنيان ، وتكثر الأخطاء النحوية بهما ، وقد سبق أن أوردنا الخطابين عند الحديث عن الملك عبد العزيز بين « عهدين » ، وفيما يلى هذه المقتطفات :

من الخطاب الأول :

بعد إهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، على الدوام مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر لازلتم بكمال الصحة والسرور حايزين الأوصاف الحميدة ... أحوالنا من كرم الله جميلة ، وتقدم لسعادتكم قبل هذا كتاب ، نرجو أنه وصل وأنتم مسرورين ، ثم نعرض لدولتكم العزيز أنه بموجب شفقتكم وعلو همتكم وأنظاركم العالية قدمنا أخينا عبد العزيز

عبد الله السعود لموجب خدمتكم ، وأحببنا المصاوغة معــه لموجب التبرك بأقدامكم ...

وفى الخطاب الثانى فى نفس العــام يقول عبد العزيز آل سـعود للشريف ، بعد نفس المقدمة السابقة ما يلى :

أحوالنا من كرم الله جميلة ، بأشرف وقت أخذنا مشرفكم ، فسرنا ما تضمنه من صحة أحوالكم واعتدال أوقاتكم ، وما عرف جنابكم كان لدى ابنكم معلوم خصوصا ما عرف جنابكم من جهة عتيبة والقصيم ، وأنهم يلقون إليكم من الأكاذيب التى ليس لها حقيقة ، ويتظلمون عنــد حضرتكم ، ونحن نقول عما قالوا : « سبحانك هذا بهتان عظيم » فأما من جهة نظركم علينا وعليهم فهذا شأن مثلكم ، وهو مقامكم العزيز ، ونحن متيقنين ان حنا بأنفسنا أقرب منهم ومن غيرهم لسعادتكم ، وأدنى جواب يصدر منكم إلينا إذا كان صادر منا لشىء فنحن نمتثل به ......

ذلك هو مدى ما وصل له البيان فى مطلع هذا القرن ، ولو قارنا ذلك بما تنعم به هذه البلاد من فصاحة القول ، وعمق الفكر الآن ، لاتضح لنا التفاوت الواسع بين ما كان فى مطلع عهد الملك الراحل ، وما تم فى عهده وعهد خلفائه من تطور مرموق عظيم .

وفى المجال الطبى يقرر الشيخ حافظ وهبة (١) أنه حتى العقد الثالث من القرن العشرين كان الطب بالجزيرة العربية بدائيا وضارا أحيانا ، ويذكر أن الملك ابن سعود نفسه عانى من ذلك ، فقد أصيب بدمل صغير فى شفته ، فاستعملوا معه أنواع العلاج المستعملة فى نجد من كى وغيره فزادت حالته خطرا ، وسبب تقيحا شديدا ، فارتفعت معه حرارة الرجل ، وأوشك أن يقضى نحبه ، وفى حالة أخرى أصيب برمد حاد ولجأ كذلك

---

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين للاستاذ حافظ وهبة ص ١٣٩ .

للطب المحلى الذى كان ضرره أكثر من نفعه ، وفى الحالتين كان اللجوء للطب الحديث ولمشاهير الأطباء المصريين والأمريكيين هـو مطلع العلاج الصحيح .

أين هذا مما حققه الرجل نفسه من تطور فى المجال الأدبى ، والمجال العلمى والطبى الذى شهدته مملكته فى عهده ، وفى عهد خلفائه فى مدى وجيز ؟ .

الزراعـــة :

تقدر المساحة الصالحة للزراعة بالمملكة العربية السعودية بحوالى ١٢٪ من مساحة المملكة ،ولكن المنزرع فعلا كان لا يتجاوز ١٪ فقط ، ومن أجل هذا تبذل جهـود كبيرة للزحف الأخضر ، حتى تنكمش المســاحات الجرداء ، وتنمو المساحات الخضراء ، ومن هذه الجهود بناء السدود ، والتعرف على المناطق التى تكثر بها المياه الجوفية لاستخراجها بأحدث الوسائل الميكانيكية والذى يزور مناطق المملكة العربية السعودية يُدرك قوة هذا الجهد ويرى انتشار الآلات فى أمكنة متعددة ، لتزحف الخضرة على الرمال ، وقد استطاعت السعودية بهذا الجهد أن تنتج ما تحتاجه من قمح وأن يكون عندها فائض .

ويرتبط بالزراعة موضوع مهم هو : توطين البدو ، الذى أشرنا له من قبل ، فقد اتجهت عبقرية الملك عبد العزيز إلى أن توطين البدو سيخلق استقرارا نفسيا ، واستعدادا لحمل المسئولية ، كما سييسر التعليم والعلاج ، وعلى هذا أقطع جلالته الأرض للبدو ليزرعوها ، وأمدّهم بما يحتاجونه من عون ، كما بنى لهم الدور والمساجد ، وكان ذلك اتجاها طيبا نحو تحضير البادية ، لولا الانحراف الذى ارتبط بهذا الأمر ، والذى درسناه فيما سبق تحت عنوان « الإخوان » .

على أن الظروف التى أتاحت للإخوان فرصة الثورة سنة ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ قد زالت بعد حقبة من الزمن ، ولذلك جدد الملك عبد العزيز ، والملك

فيصل من بعده مشروع توطين البدو ، وساعد على ذلك وجود النفط غير بعيد من مناطق هؤلاء البدو ، واجتذاب هذه الصناعة لكثير من الأيدى التى كانت تحويها البادية من قبل ، وكل هذا جعل نسبة البدو تتناقص من حين إلى حين ، حتى أصبحت أقل من ربع السكان ٠

ويبدو أن البدو استعادوا مكان الثقة من نفس الملك فيصل ، ولذلك كوّن منهم جيشا أسماه الشرطة ، وهذا الجيش شديد الولاء للملك ، وهو يخلق عملية توازن بالنسبة للجيش النظامى ٠

وقامت سياسة المملكة السعودية فى عهد الملك فيصل وبعده بالنسبة للبدو على توطينهم حيث هم ، فلا ينتقلون لموطن جديد إلا للضرورة ، على أن يكون هذا الموطن أقرب ما يمكن لمناطقهم الأصلية ، فالمقصود التوطين لا التهجير ، وعلى أن يتاح لهم ما يحقق حياة مستقرة طيبة من خدمات علمية وصحية وفنية ، ولنجاح هذا الاتجاه وضعت مشروعات كثيرة فى مجالى تنمية البادية والتوطين ، منها البحث عن المياه ليكون وسيلة إلى الاستقرار ، وتوسيع المراعى طبيعيا وصناعيا ، لأنها لابد منها فى حياة البدو وتوسيع الأراضى الزراعية التى يعمل البدو فيها بدلا من الارتحال ، وإنشاء المخزانات لشرب المواشى ، وانتاج الأعلاف لها ، ومن أهم المشاريع التى قامت بها المملكة فى هذا المجال : مشروع حرض ، ومشروع وادى جيزان ، ومشروع وادى السرحان (١) ٠

العمران والحرمان الشريفان :

يمكن القول أن المملكة العربية السعودية حققت نصيبا مرموقا من التطور فيما يرتبط بالحضارة العمرانية ، فالمملكة ترتفع فيها العمائر الضخمة ، وتوجد بها المستشفيات الكبيرة والمدارس

---

(١) دكتور صلاح المنجد : فيصل بن عبد العزيز من خلال اقواله وأعماله ص ١٩٩ ٠

والجامعات الفسيحة على نحو ما قدمنا ، كما ترتبط مدنها وكثير من قراها بشبكة مواصلات دقيقة ، وقد نال الحرمان الشريفان من عناية المملكة قسطا كبيرا ، فقد وسّعا عدة مرات حتى ضم الحرم المكى المسعى بين جدرانه ، وضم الحرم المدنى كثيرا من المساحات حوله ، وعلى كل حال فالذى يزور المملكة العربية السعودية من عام إلى عام يشهد درجات التطور التى توشك أن تكون مستمرة لا تتوقف ، قوية لا تتوانى •

الصـناعة :

اتجهت المملكة العربية السعودية إلى ادخال بعض الصناعات بها ، فوجدت بها مصانع للحديد ، ومصانع للصفائح المعدنية ، والمدابغ ، وصناعة البلح ، وتعبئة الغاز ، وقد بدأت المدارس المهنية تخرج عمالا مدربين على مختلف الاتجاهات الصـناعية ، ولكن الصناعات المرتبطة بالبترول أكثر نشاطا ، وأكثر جذبا للأيدى العاملة ، ومن هنا ينبغى أن نتحدث كلمة عن تاريخ النفط فى السعودية ، ومدى النشاط فيـه ، لأن النفط يمثل أبرز العناصر فى اقتصاد هذه البلاد وفى تطوراتها المختلفة •

وقد جاء النفط أثر أزمة اقتصادية طاحنة مرت بالسعودية ، وشملت العالم كله فى مطلع العقد الرابع ، فكان النفط إنقاذا للبلاد •

وكان أول اتفاق عملى لاستخراج النفط السعودى مع شركة استاندارد أف كاليفورنيا الأمريكية ، وقد أسست هذه الشركة فرعا خاصا للتنقيب عن النفط السعودى عرف باسم شركة أرامكو ، وأسهمت فيه شركة تكساس ، وعندما تدفق النفط فى منطقة الظهران أنشأت الشركة خطا للأنابيب يصل بين الآبار وبين ميناء الدمام على بعد خمسة أميال منها ، وصدرت بـاكورة الإنتاج سنة ١٩٣٩ •

بيد أن الحرب العالمية الثانية شبت عقب ذلك فتوقف نشاط استخراج البترول السعودى ، ولم يستأنف إلا عقب نهاية الحرب ، وقد رأت الشركة

التى تقوم باستخراجه أن تضم لها شركتين أمريكيتين آخريين هما : نيوجرسى وسوكونى فاكوم لتضمن فتح أسواق جديدة لإنتاجها ، واتسعت أعمال التنقيب اتساعا واسعا ، ولم تقنع هذه الشركات بموانى السعودية على الخليج ، بل بنت خط التابلاين الذى امتد ١٠٦٨ ميلا إلى البحر المتوسط ، وبذلك لم يحتج البترول السعودى إلى قناة السويس ليصل إلى أمريكا وغيرها .

وأنشئت شركات أخرى يابانية وفرنسية وأسبانية وغيرها للبحث عن البترول فى مناطق أخرى غير تلك التى تعمل فيها أرامكو .

وتوصف المملكة العربية السعودية بأنهـا البلد البترولى الأول فى الشرق الأوسط ، فإنتاجها من البترول يزيد عـن إنتاج أى بلد آخر ، والاحتياطى من البترول يزداد برغم ازدياد الإنتاج ، بسبب الاكتشافات المستمرة الجديدة فيها ، وقد تجاوز هذا الاحتياطى ١٤٣ مليون برميل ، وتبلغ نسبة احتياطى السعودية من البترول — إحصاء ١٩٧١ — إلى الاحتياطى العالمى ٢ر٢٧٪ وإلى احتيـاطى الشرق الأوسط ٥ر٣٩٪ وهـذا يجعل السعودية البلـد البترولى الأول فى العالم أيضـا ، وبالتالى يزيـد فى مسئولياتها ورخائها .

وقد سبق أن ذكرنا أن النفط لعب دورا عظيما فى خلال حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، فأصبح لأول مرة سلاحا خطيرا فى المعركة ، فعندما قامت الحرب ، وظهرت انتصارات مصر وسوريا تشجع العرب فبذلوا كل مـا عندهم لاستمرار الانتصار ، وكانت وحدتهم أولى الثمرات ، وبعدهـا أصدروا قرارات حاسمة فى قضية النفط كان دويها فى العالم قويا ، هز أرجاءه وزلزل أفكاره ، ومن أهمها تخفيض ضخ البترول بمقدار ٢٠٪ تتزايد ٥٪ كل شهر طيلة فترة الصراع ، ومنعوا تصدير البترول تماما إلى الولايات المتحدة وهولندا ، وهددوا بأن قرار المنع سيمتد إلى أية دولة أخرى تساعد إسرائيل ضد العرب .

وكان احتياطى النفط فى الدول المستوردة قليلا ، ولذلك سرعان ما عانت هذه الدول من هذا القرار ، ودخل موسم الشتاء فى أعقاب ذلك فقاست هذه الدول متاعب الظلام والبرد حتى أحس العالم كله بالمشكلة وبأن وجود إسرائيل وعدوانها سيعود على العالم كله بالضرر والخسران ، ولم تكن الولايات المتحدة تظن إمكان أن يقف العرب منها هذا الموقف ، ولذلك هزها هذا القرار هزا عنيفا ، وعندما أطلقت الولايات المتحدة وغيرها من الدول إشاعة عن الاستيلاء بالقوة على منابع الزيت كان رد العرب حاسما وقويا هو أن أعلنوا أن المتفجرات ستنسف آبار البترول قبل أن يستولى عليها أحد ، وستنسف كذلك أنابيب الضخ ، فتهاوت قوى التهديد وتلاشت .

واتخذت الدول المنتجة للبترول قرارا آخر بزيادة أسعار النفط زيادة كبيرة ضاعفت أثمانه ، وحجة العرب فى ذلك أن المعركة تأكل كثيرا من ثرواتهم ، وتحتاج إلى نفقات باهظة ، ومعدات عسكرية كبيرة يشتريها العرب من الدول الغربية ، ولابد من مضاعفة أسعار النفط لتغطية هذه النفقات ، ووعدوا ببحث تخفيض الأسعار عقب تصفية العدوان الإسرائيلى .

وكلمة حق سجلناها من قبل ونعود لتسجيلها الآن ، هى أن جلالة الملك فيصل كان له موقف يذكر فيشكر فى هذا المضمار ، وأن صوته كان أول صوت دوّى بهذه الإجراءات ، واستجاب له الجميع فى حماسة وقوة وإيمان .

وفى ختام أحاديثنا عن المملكة العربية السعودية يطيب لنا أن نبارك تقدمها ونثنى على تعاونها العميق مع العالم العربى والإسلامى وندعو الله لها باليمن والبركة ، وأن يكون التعاون بينها وبين العالم الإسلامى سبب عز ومجد لدولة الإسلام وللشعوب الإسلامية .

عدوان على المسجد الحرام

روّع العالم الإسلامى فى موسم الحج الذى يوافق العام الهجرى الأول من القرن الخامس عشر الهجرى (أواخر نوفمبر ١٩٧٩) بحادث مؤلم اهتزت له قلوب المسلمين فى مختلف الأنحاء ، ذلك هو عدوان شرذمة من الرجال على المسجد الحرام وعلى الحجاج فيه •

وقد احتل المعتدون الذين كانوا مسلحين بأسلحة مختلفة أمكنة متعددة بالمسجد الحرام ، واحتجزوا مجموعة من الرهائن يحتمون بهم ، وقام خطباؤهم بإلقاء مجموعة من الخطب العدوانية المثيرة ، وكان المسجد الحرام كعادته خاليا من جنود الحراسة مما مكّن لهؤلاء المعتدين من الأمر ، وأحكم إلى حين سلطانهم على البيت الحرام وعلى من فيه ، واتخذوا هذا البيت المقدس والحجاج الذين وفدوا اليه من مختلف الأنحاء وسيلة لدعاية متمردة قاموا بهـا •

وقد هب العالم الإسلامى كله يستنكر هذا العدوان على بيت الله الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، ويستنكر لذلك العدوان على الحجاج الذين وفدوا من كل فج عميق •

ومن الحق أن يقال إن مصر بكّرت فى رد هذا العدوان واستنكاره وبعد ساعات قلائل من حدوث هذا التمرد ، وقف كـاتب هذه السـطور بالتلفزيون المصرى يندّد بهذا العمل ويدينه •

وسنروى أحداث هذا الحادث من البيانات الرسمية السعودية التى صدرت عنه :

وصل المسلحون إلى المسجد الحرام فى فجر يوم الثلاثاء فى عدد من سيارات الأتوبيس بدعوى تأدية صلاة الفجر كأول صلاة فى القرن الخامس عشر الهجرى ، وعندما وصلوا إلى المسجد اتخذوا مواقعهم فى الأماكن

الاستراتيجية وأخرجوا مسدسات ومدافع رشاشة من تحت ملابسهم ثم قدموا إلى إمام المسجد ورقة مكتوبة ليقرأها على المصلين : ولكن إمـــام المسجد رفض قراءة الورقة كما رفض السماح لهم بتلاوتها من إذاعة المسجد الحرام •• فأطلقوا عليه الرصاص وقتلوه فى الحال وعند سماع أصوات طلقات الرصاص •• انطلق الحراس الموجودون حول المسجد الحرام إلى داخل المسجد ليعرفوا ماذا يحدث ، ولكنهم فوجئوا بوابـــل من طلقات المدافع الرشاشة •• وسقط منهم عدد كبير من الجرحى والقتلى بينما فشل باقى الحرس فى السيطرة على الموقف ••

وسرعان ما وفدت قوات سعودية ، وحدثت اشتباكات بينها وبين المتمردين ، ولكن المتمردين اندفعوا إلى بعض الأماكن بالمسجد وأخذوا معهم مجموعات من الحجاج كرهائن يحتمون بها ، وتقول المصادر السعودية إنه كان من الممكن القضاء على هؤلاء المتمردين لولا الحرص على أرواح الرهائن ، ومن أجل هذا امتدت الأيام قبل أن ينتهى هذا العدوان ، وقد ذكرت المصادر السعودية أنه لم يتضح لديها أن العملية مخططة من أى جهة أجنبية ، بل إن المجموعة الكبيرة من أفراد هذه الشرذمة من السعوديين . وإذا كانت هناك مجموعات تنتمى إلى جنسيات أخرى فهى أعداد قليلة .

وأعلن الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودى أن المسلحين الذين احتلوا المسجد الحرام من جنسيات مختلفة ولا ينتمون لأى جماعة سياسية محددة . وقال إنهم متعصبون فى أشد حالات الهياج وسيحاكمون طبقا للشريعة الإسلامية وأحكام القرآن الكريم .

وأوضح أن السلطات السعودية تسيطر على الموقف وانه لم يعد هناك داخل المسجد سوى حوالى ثلاثين شخصا انزووا واعتصموا بالأركان .

وبعد بضعة أيام أضاف الأمير سعود الفيصل أنه قد تمت السيطرة

على الموقف • وقال إننا نحاول الآن معرفة دوافع هـذه الجمـاعة التى تضم حوالى مائتى شخص •

وذكرت وكالات الأنباء أن عدد المسلحين الذين اقتحموا المسجد الحرام يتراوح بين مائتين وخمسمائة ، كما يقـدر عدد الرهائن بحوالى مـائة وخمسين •

ويقال إن من الأسباب التى ألزمت هؤلاء المتمردين بالاستسلام أن الحكومة بدأت تغمر المسجد الحرام بالماء ، وأصبح الغرق لا مفرَّ منه إذا لم يستسلم هؤلاء ، فكان الاستسلام أفضل لأنه يطيل هذه الأرواح الرخيصة ساعات أو أياما •

وقد عالجت السياسة السعودية هذا الأمر بحكمة وكياسة ، واستسلم المتمردون بعد عدة أيام ، وحوكموا على فعلتهم الشنيعة حسب قوانين الإسـلام •

عدوان إيرانى بالمسجد الحرام

هناك سلسلة من الأعمال العدوانية على المسجد الحرام ، وهى هذه المرة ترتبط بإيران ، وقد بدأت هذه السلسلة بالعدوان الأول سنة ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) ثم توالت هذه المرات فى سنة ١٤٠٣ و ١٤٠٤ و ١٤٠٥ ، ثم كان العدوان الكبير سنة ١٤٠٧ هـ فقد سقط قتيلا فى هذا العدوان عدد من النساء والأطفال والكهول وكان تعدادهم ٤٠٢ بخلاف عدد كبير من الجرحى • وقد كتبتُ بالتفصيل عن ذلك فى مرجع آخر (١) •

العراق والسعودية :

من أخطر الأحداث التى مرت بالمملكة العربية السعودية تلك الأحداث

---

(١) انظر : حركات فارسية للمؤلف ص ٢٠٤ — ٢٠٨ •

التى شهدها شهر أغسطس سنة ١٩٩٠ ، فقد غزت القوات العراقية دولة الكويت فى مطلع هذا الشهر ، وأقامت بها حكومة لم تعش إلا بضعة أيام ، ثم أعلنت العراق اعتبار الكويت محافظة من محافظاتها ، ولم تقنع العراق بالزحف على الكويت ، بل حشدت [1] قواتها على حدود المملكة العرتية السعودية ، مما جعل الملك فهد يستنجد

حدود المملكة العربية السعودية ، مما جعل الملك فهد يستنجد بالدول الإسلامية والصديقة لرد العدوان المحتمل ، وقد هبت الولايات المتحدة وبريطانيا ومصر للاستجابة لهذا الطلب وحشدت قواتها للدفاع عن المملكة .

إنه موقف يدعو لشدة الأسف أن تفعل العراق ذلك ، وألا تكون للدول العربية قدرة لحماية بعضها البعض دون حاجة للغرب ، ولست أدرى ماذا تعنيه اتفاقية الدفاع المشترك مادامت تعجز عن الدفاع .

---

(١) سنتكلم عن هذا الموضوع عند حديثنا عن الكويت والعراق فيما بعد .

سَلطنة عُمان

تقـــديم :

فى الكتابة عن عمان يحس الكاتب بغبطة وسعادة إذ يدفع بتاريخ هذه البلاد إلى الضوء بعد أن احتواها الظلام فترة طويلة حتى أصبحت منقطعة عن جيرانها ، وأصبحت فى عداد الأقطار التى لا يعرف الكثيرون عنها شيئا ، وعمان جديرة بمكان واضح على صفحة التاريخ ، فقد لعبت أدوارا عالمية فى مجالى السياسة والاقتصاد ، ثم أدار لها الزمن ظهره ، وأوشكت أن يغمرها النسيان ، ولكن الجوهر الحر يستجيب لصاقله ، وسرعان ما يعود للبريق واللمعان •

موقع عمان على خريطة العالم :

تقع عمان فى أقصى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة العربية ممتدة شمال بحر العرب ، وعلى طول خليج عمان حتى إمارة الفجيرة إحدى إمارات دولة الإمارات العربية ، وبعد إمارة الفجيرة توجد منطقة تابعة لعمان أيضا وهى منطقة رأس مسندم الذى يقع على مضيق هرمز •

وتقع الجمهورية العربية اليمنية إلى الغرب من عمان ، وتقع المملكة العربية السعودية فى الجهة الغربية والشـمالية منها ، كما تقع دولـة الإمارات فى الناحية الشمالية الشرقية منها •

وعمان تطل على البحر من جهة ، وتطل على الصحراء من جهـة أخرى ، ومن هنا يمكن تقسيم سكانها إلى طائفتين متميزتين هما الحضر والبدو ، والحضر هم الذين يسكنون الساحل وبخاصة مسقط ، وهم خليط متمازج من السكان أشد اتصالا بالعالم الخارجى ، أما البدو فيعيشون فى المناطق الداخلية ، وهم أكثر فطرة وبساطة ، وهم شديدو المحافظة على عاداتهم وتقاليدهم (١) •

---

(١) عمر رضا كحاله : جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٤٤٣ •

ومساحة عمان حوالى مائة وعشرين ألف ميل مربع ، وهى مساحة انجلترا تقريبا ، وعدد سكانها حوالى مليونين ، وتنقسم هذه المساحة إلى عدة مقاطعات هى :

— مقاطعة الباطنة التى تطل على خليج عمان إلى الشمال من مسقط ، وهى سهل خصب .

— ومقاطعة عمان ، وهى المقاطعة الداخلية ، وتضم الجبل الأخضر ، كما تضم المناطق المحيطة بهذا الجبل والتى توجد بها العواصم القديمة والمدن الشهيرة مثل نزوى والرستاق وسمايل ، وفى الجبل الأخضر ، تجود أهم أنواع الفاكهة ، وتشمل هذه المنطقة منطقة الظاهرة ، وسميت بذلك لأنها أول ما يظهر من عمان للوافد من الجزيرة العربية ، ومنطقة الظاهرة أرض جبلية تتخللها الواحات والسهول الخصبة والوديان التى تعتبر مصدرا مهما من مصادر المياه فى الصحراء .

— والمقاطعة الشرقية وأهم نواحيها المضيبى ووادى بنى خالد .

— ومقاطعة جعلان ، واسمها مشتق من اسم سكانها القدامى ، وأهمها بلاد بنى بو حسن وبو على وصور .

— والمقاطعة الجنوبية المسماة « ظفار » وتتألف من سهل ساحلى منبسط تحاذيه الجبال .

ويفصل بين مراكز العمران الرئيسية حواجز طبيعية تتمثل فى سلاسل الجبال الشاهقة ، وأهمها سلاسل جبال الحَجَر التى تمتد من الحجر الغربى إلى الحجر الشرقى ويفصل بينهما وادى سمايل الذى يعتبر الطريق الرئيسى بين الساحل وبين المناطق الداخلية ، وفى جبال الحجر الغربى تقع منطقة الجبل الأخضر التى تعتبر أعلى القمم فى سلسلة تلك الجبال ، إذ يصل ارتفاعها إلى عشرة آلاف قدم ، ويمكن مشاهدتها على بعد مئات الأميال من البحر .

إيران
الخليج العربي
خليج عمان
رأس مسندم
الفجيرة
قطر
البحرين
أبو ظبي
مسقط
قريات
الباطنة
الظاهرة
المملكة العربية السعودية
الشرقية
نزوى
جعلان
سلطنة عمان
الدقم
جزيرة مصيرة
عمان
ظفار
البحر العربي
جزر كوريا موريا
رأس مربط



سلطنة عمان ومقاطعاتها

وهناك مجموعة من الجزر تتبع سلطنة عمان وهى جزر كوريا موريا « الحلانيات » وهى تقع فى بحر العرب مواجهة لمقاطعة ظفار ، وجزيرة « مصيره » وهى تواجه مقاطعة جعلان ، وجزيرة الغنم ، وتقع عند مدخل مضيق هرمز •

وعلى هذا يمكن القول بأن عمان تحتل أقصى الزاوية الشرقية من شبه الجزيرة العربية ، وتلتف حولها مياه المحيط الهندى وخليج عمان ، وتكمل الصحراء العربية حركة الالتفاف حولها من الجهة الغربية ، ومن الطبيعى أن هذا الموقع له أهميته العظمى من الناحية الاستراتيجية ومن الناحية الجغرافية كما سيتضح ذلك فيما بعد •

تسمية عمـــان :

إن دولة عمان مرت بها تسميات مختلفة ، فكانت فى فترة من الفترات تسمى « مزون » أو « مازون » وهو اسم يعود فى أصله إلى السومريين (بلاد ما بين دجلة والفرات جنوب الموصل) ، ويقال ان الفرس هم الذين أطلقوا هذا الاسم على عمان ، ويروون فى ذلك قول الشاعر :

« إن كسرى سمى عمانا مزونا » [١] •

وقد وردت « مرون » فى المسعودى بالراء المهملة [٢] ولعل الاعجام أشهر :

ونقل السالمى أن قبيلة الأزد اليمنية التى هاجرت إلى عمان بعد حادثة سيل العرم سنة ١٢٠ ق•م• الذى سبب انهيار سد مأرب ، هى التى أطلقت على هذه المناطق اسم « عمان » إذ كان هؤلاء يعيشون فى واد قريب من مأرب يدعى « عمان » فسموا الموطن الجديد باسم موطنهم الأصيل [٣] •

---

(١) انظر كشف الغمة الجامع لأحكام الأمة لأحد علماء الاباضية ص ٣٢ •

(٢) مروج الذهب جـ١ ص ٩١ •

(٣) تحفة الأعيان جـ١ ص ٥١ •

ولما انتقلت عاصمة البلاد من الداخل إلى الساحل واختيرت مسقط لتكون العاصمة سميت البلاد « عمان ومسقط » وظلت كذلك حتى العصر الحديث حينما كان السلطان يباشر نشاطه فى مسقط وينيب عنه ممثلا فى عمان ، وهذا أتاح الفرصة لبروز فكرة استقلال عمان عن مسقط ، فتوجد السلطنة فى مسقط والإمامة فى عمان ، وكانت الدولة على وشك أن تصبح دولتين حتى سنة ١٩٥٥ عندما هاجم السلطان عمان ، وأعاد توحيد البلاد وسنشرح ذلك فيما بعد ، ومن أجل هذا وقف السلطان الحالى « السلطان قابوس » موقفا حاسما من هذه الازدواجية ، فجعل اسم البلاد هو « عمان » وهو الاسم المستعمل الآن ، ومسقط هى عاصمة البلاد .

أهم المدن فى عمان :

وبمناسبة ذكر مسقط العاصمة ينبغى أن نعطى بعض المعلومات عن هذه المدينة المهمة وأن نعرف أيضا بالمدن المهمة بعمان ، ثم بعواصم عمان ، ويقول المؤرخون عن مسقط إنها تشتمل على كثير من خصائص عمان ، فهى تطل على البحر الذى يمتد امتدادا طويلا مع بلاد عمان ، وبها الصخور السوداء الفاحمة التى تنتشر فى عمان ، وتصلها طريق ملتوية ضيقة إلى « مطرح » ومن ثم إلى داخل البلاد ، وعلى هذه فمسقط تتمثل فيها الخصوبة والبحر والجبال ، وتلك هى أبرز مظاهر الحياة فى عمان .

أما منظر مسقط من البحر أو الجو فهو منظر رائع إذ يمتد صف فوق صف من الجبال الجرداء مسافات طويلة ، وتقبع فى الخليج الصغير الذى يلتقى عنده البحر بالجبال مدينة مسورة تطل عليها قلعتاها القديمتان ، وقلما يوجد ركن فى مسقط لا يمكن منه رؤية هاتين القلعتين ، ولم يكن القصد من بناء مدينة مسقط قديما أن تكون صالحة للسيارات على الاطلاق وماز ال السير على الأقدام فى أنحائها هو الطريقة الواقعية الوحيدة التى يمكن بواسطتها التعرف عليها .

أما خارج الأسوار فتوجد مسقط الحديثة الآخذة فى النمو ، وهى

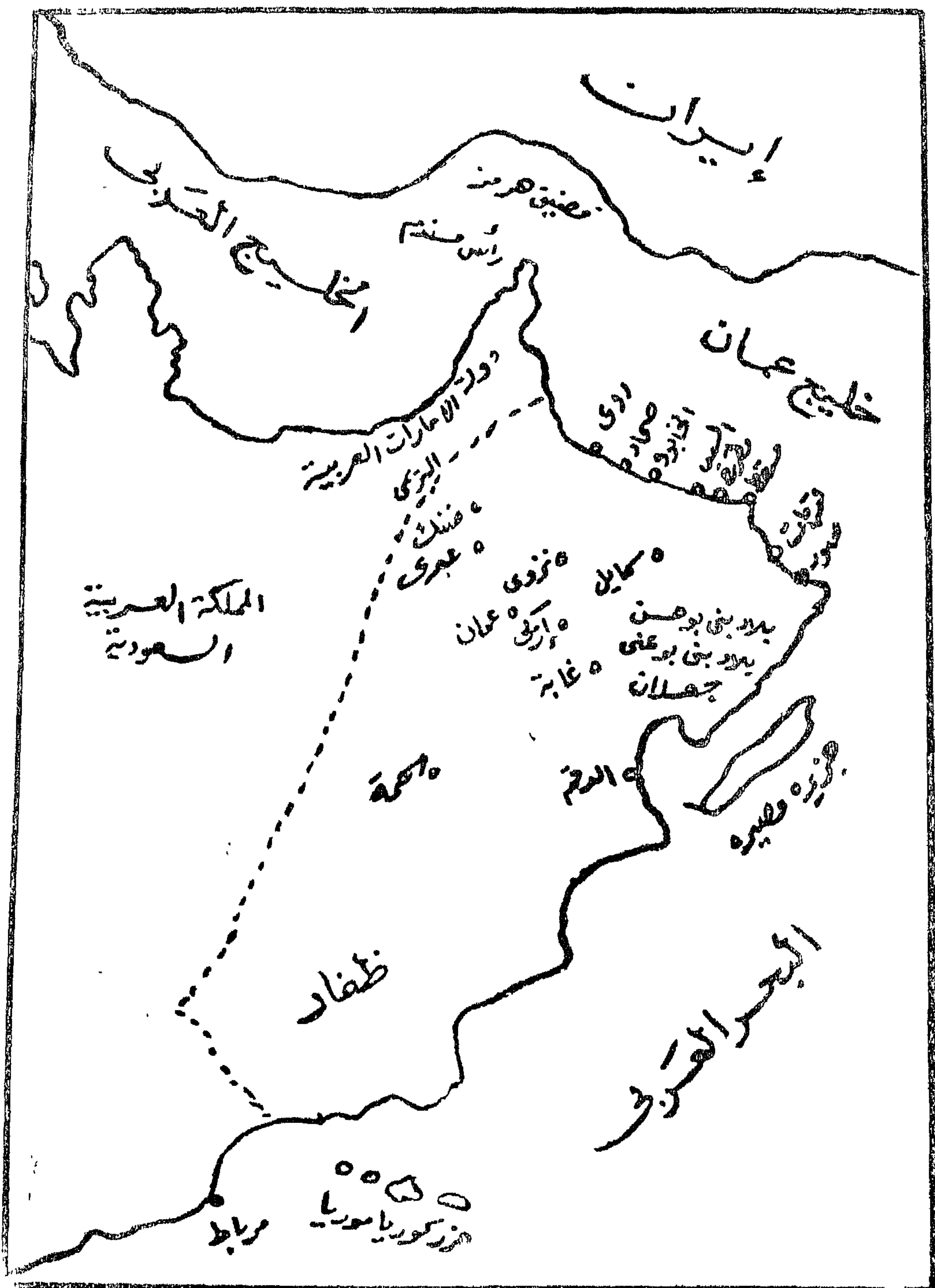
فسيحة الشوارع ، ضخمة المبانى ، وتعد مسقط الآن أعظم مرفأ على خليج عمان ، ونشاطها التجارى واسع فهى تستورد الأقمشة القطنية والحريرية وتصدّر اللؤلؤ والعاج والجلود والبلح والزبيب وغيرها ، ولها علاقات تجارية مع أكثر بلاد العالم وبخاصة مع الباكستان والهند وبلاد الخليج وبلاد فارس [١] .

على أن مسقط لم تكن دائما عاصمة عمان ، فقد ذكر الاصطخرى أن قصبة عمان هى صُحار ، وذكر أنها على البحر وبها متاجر ومرفأ للمراكب ، وهى أعمر مدينـــة بعمـــان ، وأكثرها مـــالا ، ولا تكـــاد تعرف عـــلى شاطىء بحر فارس مدينة أكثر عمارة ومالا منها [٢] . ويقول ابن حوقل عن صحار أنها قصبة عمان وتقع على البحر ، وبها من التجارة والتجار مالا يحصى كثرة [٣] ، ومن البلاد التى كانت عواصم لعمان كذلك « نزوى » وكانت عاصمة لعمان قديما ، وأحيانا كانت العاصمة هى مدينة « الرستاق » أو مدينة « ازكى » . وسنتحدث بعد قليل عن « عواصم عمان » .

وفى عمان مدن كثيرة شهيرة ، يحمل بعضها آثار الماضى ومظاهره ، ودرج بعضها فى طريق المدنيّة والحضارة الحديثة فتلألأت به الأنوار ، وظهرت المبانى الضخمة ومظاهر المدنيّة المختلفة ، ومن هذه المدن مدينة « مطْرح » وهى تقع على بعد ميلين إلى الغرب من مسقط ، وبها ميناء قابوس الجديد ، وتطل عليها قلعة عالية بناها البرتغاليون ، وقد ظلت هذه المدينة عدة قرون الميناء الذى يصل بين عمان والعالم الخارجى ، واسمها مأخوذ من طرح أى حط الرحال ، وأهم معالمها « سور اللواتيا » أو حى الخوجات ، وهى منطقة مسوّرة داخل المدينة ، والخوجات ، وجماعة من التجار من أصل سندى أصبحوا مواطنين عمـــانيين ، ولكنهم مازالوا يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم .

---

(١) عمر رضا كحاله : جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٤٤٤ .
(٢) المسالك والممالك ص ٢٥ .
(٣) صورة الأرض ص ٤٤ .



اهم المدن فى سلطنة عمان

ومن المدن الشهيرة فى عمان مدينة « قلهات » التى زارها ماركوبولو فى أواخر القرن الثالث عشر ، ورآها كذلك الرحالة العربى ابن بطوطة ، وهى تبعد عن مسقط بحوالى ٨٢ ميلا إلى الجنوب الشرقى .

ومن المدن الشهيرة مدينة صور ، وقد زارها ابن بطوطة أيضا وكانت فى يوم من الأيام الميناء الرئيسى فى عمان ومركزا للتجارة مع ساحل أفريقيا الشمالى ، وكان سكانها من البحارة والتجار ، مما يوحى بارتباط بينها وبين مدينة صور الفينيقية .

ويقول الشيخ سالم بن حمود بن شامس . . . : وجاء فى بعض الرسومات التاريخية أن « صور » هى إحدى مدن الخليج التى استوطنها الفينيقيون وربما بنوها ، وما إن هجروا الخليج إلى البحر المتوسط لسبب من الأسباب حتى أنشأوا لهم هناك مدينة أطلقوا عليها الاسم نفسه : وأهل صور كالفينيقيين لهم مهارة فى الأسفار البحرية ، ولهم بها ولع ، وهم أهل علم بأحوال البحر (١) .

ومن المدن المهمة بالداخل مدينة عبرى وهى أكبر مدن مقاطعة الظاهرة وهى مركز منطقة كانت فى وقت من الأوقات منطقة زراعية مهمة .

ومن المدن المهمة « الرستاق » التى كانت عاصمة لعمان فى الماضى ، وهناك بلدتان تشبهانها ، ولكنهما أصغر منها قليلا هما بلدتا « العوابى » و « نخل » وهذه المدن الثلاثة تسيطر على ممرات الجبل الأخضر ، وتقع « العوابى » بين « نخل » و « الرستاق » وفى كل منها فلج من الأفلاج العمانية الشهيرة ، وقد زارها الكولونيل « ماينز » وكتب عنها كتابة رائعة .

والآن نتجه إلى عواصم عمان عبر التاريخ لنعطيها مزيدا من الدراسة والاهتمام .

---

(١) سالم بن حمود : العنوان فى تاريخ عمان ص ١١٨ .

عواصم عمان السياسية

مقدمــة :

تعددت العواصم فى عدة أقطار من عهد إلى عهد ، ففى العراق كانت « الكوفة » أول عاصمة للدولة العباسية ثم أنتقل العباسيون إلى « الحيرة » وجعلوها عاصمتهم ، ثم إلى « الأنبار » (الهاشمية) وبقوا بها حتى بنوا « بغداد » ، ومع ما وصلت له بغداد من الشهرة والعظمة فقد انتقل منها المعتصم إلى عاصمة جديدة هى « سامراء » •

وفى مصر كانت أول عاصمة إسلامية هى « الفسطاط » وفى عهد الخلافة العباسية بنى العباسيون مدينة « العسكر » وجعلوها عاصمةً مصر ، ثم أنشأ أحمد بن طولون عندما تولَّى السلطة فى مصر مدينة « القطائع » وجعلها عاصمة له • فلما قامت الدولة الفاطمية أُنشئت « القاهرة » وأصبحت العاصمة •

عواصم عمان :

وفى عمان حدث مثل ذلك أيضا ، بل حدث شىء آخر هو أن البلاد ظهر فيها حاكمان أو أكثر من حاكمين أحيانا فى وقت واحد ، وأصبح لكل حاكمٍ عاصمة •

ويتحدث ابن رزيق [١] عن أنه عندما بويع الإمام ناصر بن مرشد كان يمتلكُ « نخلَ » سلطانُ بن أبى العرب ، ويمتلك « سمائلَ » مانعُ بن سنان ويمتلك « سعدَ » علىُّ بن قطن الهلالى ، وكان مَلِكُ « أبرا » محمد بن جفير وكانت « ازكى » بيد بنى عزرة و « نزوى » بيد أهل العقر •••••

وتجمعت البلاد فى عهد « اليعاربة » ثم تفرقت فى نهاية ذلك العهد فلما

---

(١) الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين صـ ٢٦٣ •

بويع أحمد بن سعيد إماما على عمان وكان آنذاك واليا على صحار كانت هناك عواصم متعددة لمقاطعات كانت كل منها مستقلة فمضى أحمد بن سعيد من صحار إلى الرستاق ففتح حصنها ، ومضى إلى سمايل فاستخلصها ، ثم إلى ازكى فأذعنت له ، ثم إلى نزوى فسلمت له الأمر ، ثم إلى بهلاء فـ طاعته (١) .

وأحيانا كان « الإمام » يتخذ عاصمة يمكن أن يطلق عليها العاصمة الدينية ، وفى نفس الوقت كان ملـوك النباهنة يتخذون لهم عاصـمة أو عواصم أخرى .

وهكذا تعددت العواصم فى عمان تبعا للزمن أو تبعا للطموح ، أو لوجود الأئمة فى جانب والسادة أو السلاطين فى جانب آخر ، وانتهى هذا التعدد فى عمان ، وأصبحت مسقط عاصمة وحيدة للبلاد .

وفى الدراسات التالية سنتحدث حديثا موجزا عن عواصم عمان ، تلك العواصم التى تتَابَعَتْ أو وُجدت فى وقت واحد ، ونقول ان الدراسة ستكون موجزة لأن المادة التى بين أيدينا يمكن أن تكوّن حديثا طويلا ، ولكن الظروف الآن تقتضى الإيجاز .

---

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٩ .

صحار

تقع صحار إلى الشمال الغربى من مسقط بعد مطرح والسيب والخابورة ، وبين صحار ومسقط مائة وأربعة وخمسون ميلا (١) ويقول عنها ابن حوقل (٢) إنها قصبة عمان وتقع على البحر وبها من التجارة والتجار ما لا يحصى كثرة .

وذكر الاصطخرى (٣) أن صحار أعمر مدن عمان وأكثرها مالا ، ولا تكاد تعرف على شاطىء بحر فارس (!!) مدينة أكثر عمارة ومالا منها .

ويذكر المقدسى أن صحار مدينة طيبة الهواء كثيرة الخيرات والفاكهة ، واسعة ، ليس فى تلك النواحى مثلها ، وهى قصبة عمان ، بلد عامر آهل ، حسن ، طيّب ، نَزِه ، ذو يسار وتجار ، أسواقه عجيبة ، والجامع على الساحل له منارة حسنة ، والبلدة بها آبار عذبة وقناة حلوة ، وأهلها فى سعة من كل شىء (٤) .

وبالإضافة إلى موقع صحار وأهميته يذكر الباحثون أن النحاس استخرج من مكان يقع بالقرب من صحار ، وكان ذلك فى الألف الرابعة قبل الميلاد (٥) .

واستمر استخراج النحاس بعد ذلك ، وترتّب على هذا أن قامت فى مشارف صحار صناعة صهر النحاس ، عند الطريق الطبيعى إلى الداخلية ، وكان عمال النحاس يشغلون حيزا كبيرا فى المدينة (٦) .

---

(١) حصاد ندوة الدراسات العمانية ج ١ ص ٢٧٢ .
(٢) صورة الارض ص ٤٤ .
(٣) المسالك والممالك ص ٢٥ .
(٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ج ٥ ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .
(٥) مال الله بن على بن حبيب : ملامح من تاريخ عمان ص ٣ .
(٦) اندرو ويليامسون : صحار عبر التاريخ ص ٢٧ .

ومع صناعة النحاس كانت صحار دائما المركز الطبيعى للتطور الزراعى فى اقليم الباطنة الساحلى ، وهى تنتج فائضا كبيرا من المنتجات الزراعية ، وبخاصة البلح والفواكه شبه الاستوائية .

ويصف بعض الكتاب الحالة الزراعية فى صحار خلال فترة ازدهارها بأنها كانت تنتج كمية هائلة من البلح بالإضافة إلى الموز والتين ، وكان الزراع يتوسعون فى زراعتها (١) .

وازدهار الصناعة فى مشارف صحار ، وازدهار الزراعة حولها ، مع موقعها الساحلى الممتاز ، كل هذا هيأ « صحار » لتلعب دورا كبيرا فى مجال التجارة ، فقد نشطت تجارتها إلى الهند وإلى شرقى إفريقية ، وقد ذكر عنها الاصطخرى وابن حوقل فى هذا المجال أنها كانت مستودع العالم ، ولا توجد مدينة فى جميع أنحاء العالم تضاهى صحار فى ثراء تجارتها ، وإن جميع منتجات الشرق والغرب والجنوب والشمال تصب فى هذه المدينة ، وتخرج منها إلى جميع المراكز التجارية فى العالم (٢) .

وننتقل بالحديث عن صحار من وضعها الطبيعى إلى دورها السياسى وحظها فى الاستقلال والاحتلال ، وجهود أهلها لدفع الاحتلال عنها .

وأول ما نذكره كتابان وردا من الرسول صلى الله عليه وسلم أحدهما إلى أهل عمان بوجه عام والثانى إلى « عبد » و « جيفر » ابنى « الجلندى » بوجه خاص ، وكانت لهما السيادة على عمان وكانا يقيمان فى مدينة صحار .

ونص الكتاب الأول هو : من محمد رسول الله إلى أهل عمان ، أما بعد ، فأدعوكم أن تقروا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، وأن تعمروا المساجد .

(١) المرجع السابق ص ١١ و ٢٢ .
(٢) اندرو ويليامسون : صحار عبر التاريخ ص ١٩ و ٢٣ .

ونص الكتاب الثانى هو : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، أما بعد فإنى أدعوكما لدين الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين .... (١) .

وحمل هذه الرسالة عمرو بن العاص وقابل « عبدا » وهو أحكم الرجلين فأوصله إلى أخيه جيفر ، وإيجاز القول هنا أنهما أسلما وتبعهما قومهما ، ورفض الفرس الذين كانوا يقيمون بعمان أن يدخلوا الإسلام ، فاشتعلت الحرب بين المسلمين وبين الفرس ، وغلب الفرس وطلبوا الصلح على أن يخرجوا من البلاد ، وتمّ ذلك فخرجوا من عمان وبقيت أموالهم لأهل البلاد .

وهكذا حظيت صحار بأنها كانت أول مدينة فى عمان ترحّب بالإسلام وتدخله طواعية ، ثم حظيت بشرف طرد الأجانب منها لرفضهم الإسلام .

وحظيت عمان كذلك بالاستقلال ، وكان بصحار الوالى الذى عيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده لتنظيم الزكاة ، وفى عهد الدولة الأموية تعرضت عمان لهجوم حربى من بعض خلفاء الأمويين ، ولكن عمان عادت فحصلت على استقلالها التام إبان العهد العباسى ، وبدأ بذلك العصر الذهبى لصحار (٢) .

صحار تحت سلطة البرتغال :

وفى مطلع القرن السادس عشر زحف الاستعمار البرتغالى إلى أرض عمان بعد أن نجح فاسكو دى جاما فى الدوران حول إفريقية ، فيما عرف بطريق رأس الرجاء الصالح ، وبفتح هذا الطريق تحولت تجارة الشرق من

---

(١) الكتابان وردا فى مخطوطة عمانية مجهولة المؤلف حققها الدكتور سعيد عاشور وجعل عنوانها « تاريخ أهل عمان » ص ٤٠ وما بعدها .
(٢) عمان وتاريخها البحرى : اصدار وزارة الاعلام والثقافة ص ٣٤ .

الطرق البرية — البحرية إلى هـذا الطريق البحرى المتصل ، وحـاول البرتغاليون أن يقيموا مراكز للتموين والحراسـة على طول الطريق ، فاتجهوا إلى عمان واحتلوا صور وقريات ثم مسقط وصحار سنة ١٥٠٧ ، واتجه القائد الجائر البوكيرك إلى تدمير السفن العمانية وإقامة القواعد والقلاع ليدعم مركزه ويقوى سيطرته على تلك المنطقة الاستراتيجية ذات الموقع الملاحى الممتاز [١] •

اليعاربة يحررون صحار :

وقامت دولة اليعاربة ، وأعلن مؤسسها الإمام ناصر بن مرشد الحرب على البرتغاليين بعد أن وحّد البلاد ، وكانت أجزاء من عمان خاضعة لهرمز • وبالتالى خضعت للبرتغال التى احتلت هرمز ، ولما تحررت هرمز بجهود مشتركة سنة ١٦٢٢ وأصبحت تابعة للفرس حاول الفرس أن يسيطروا على المناطق العمانية التى كانت تابعة لهرمز ومن أهمها صحار ، ولكن الإمام ناصر بن مرشد خاض حربا ضد الفرس ونجح فى تخليص صحار وجلفار (رأس الخيمة) [٢] من السيطرة الفارسية •

وهكذا عادت الحرية لصحار بعد نضال طويل ، وأدى ذلك إلى توجيه حملات نحو صور وقريات ، فاستطاع الإمام تحريرها أيضا من البرتغاليين [٣] وكانت صحار قلعة المقاومة ضد الفرس وضد قوات العدوان على العموم •

وكانت صحار مقرًا لأحمد بن سـعيد مؤسس دولة البوسـعيديين والذى كان الإمام سيف بن سلطان قد ولاّه صحار قبيل نهاية اليعاربة ، وعقب نهاية اليعاربة آل الأمر لأحمد بن سعيد واتخذ من صحار مركزا حرر منه مسقط وغيرها من الموانى •

---

(١) Stephan and Handy Ronald : Arab Civilizatiin p. 396.

(٢) Boger : History of the Imams and Sayyids of Oman : The Introduction

وستأتى تفاصيل الاحتلال البرتغالى وطرده فيما بعد •

(٣) حصاد ندورة الدراسات العمانية جـ ٢ ص ٣٨ •

وسنرى بعد قليل عندما نتكلم عن « الرستاق » انتهاء دور صحار كعاصمة ، ووجود عاصمتين فى عمان ، عاصمة الإمامة فى الرستاق ، وعاصمة سياسية فى مسقط .

مكانة صحار العالمية :

كانت صحار قوة هائلة فى الدفاع عن عمان كلما اتجه أعداء عمان اليها بسوء ، وكانت فى الوقت نفسه تحظى بمكانة عالمية فى مجال التجارة والبحرية ، وتمتعت صحار بموقع فريد فتجمعت لها خصائص قلّ أن تجمعت لسواها ، ونعيد فى هذا المجال قول الاصطخرى إنها كانت مستودع العالم ، وان جميع منتجات الشرق والغرب والشمال والجنوب كانت تصب فى هذه المدينة وتخرج منها إلى جميع المراكز التجارية فى العالم .

وظلت صحار عاصمة لعمان فترة طويلة كما ذكرنا ، ففيها كان يقيم الولاة الذين كان الخلفاء يعينونهم ، وكانت صحار تمثل موقعا مهما بالنسبة للسيطرة على المجتمع العمانى ، وعندما اختار الجلنديون المناطق الجبلية الداخلية كقاعدة للحكم ظلوا يحتفظون ببعض التحصينات فى صحار ، وظلت صحار تحتفظ بصلات وثيقة مع الخارج كالبصرة والهند وخراسان ، ولهذا فعندما تحولت السلطة السياسية عن صحار احتفظت صحار بطابعها الدولى كعاصمة اقتصادية لعمان .

وهكذا كانت صحار تمثل مركزا عمانيا مهمًا بسبب ارتباطها ببقية المناطق العمانية وبسبب علاقاتها بالخارج .

وتشتهر صحار بقلعتها الشماء التاريخية ، ومن صحار انطلقت السفن العمانية تجوب البحار والمحيطات متجهة للصين وغيرها من موانى الشرق والغرب .



قلعة صحار

وموقع المعركة الحاسمة التى قادها أحمد بن سعيد لتحقيق استقلال عمان

وفى صحار الحديثة معالم نهضة وتطور ، ومنها مزارع شمس عمان التى أنشئت سنة ١٩٧٢ وهذه المزارع تتسع أنشطتها فتشمل أنشطة صناعية وزراعية وحيوانية .

ومن معالمها الحديثة كذلك التنقيب عن النحاس الذى نجح نجاحا عظيما وتكوّن على أثره مصنع النحاس .

وفى صحار الحديثة مؤسسات تعليمية وصحية رائعة .

الرســتاق

ذكرنا فيما سبق أن « عمان » تنقسم خمس مقاطعات هى :

١ — مقاطعة الباطنة •

٢ — مقاطعة عمان •

٣ — المقاطعة الشرقية •

٤ — مقاطعة جعلان •

٥ — المقاطعة الجنوبية (ظفار) •

والذى يهمنا هنا هو مقاطعة عمان حيث توجد الرستاق التى تبعد عن مسقط بحوالى ١٧٠ كم •

وعندما تغلب البرتغاليون على ساحل عمان أصبحت عمان خاضعة لثلاث سلطات هى :

١ — سلطة الأئمة فى الرستاق ، وكان الإمام آنذاك هو محمد بن إسماعيل (٩٠٦ هـ) •

٢ — بعض ملوك بنى نبهان وتتبعهم بعض مناطق بالداخل •

٣ — البرتغاليون ويسيطرون على المدن الساحلية : صور ومسقط وقريات وقلهات وصحار •••••

أما القرى الساحلية التى تقع بين المدن الساحلية فكان ولاؤها للإمام فى الرستاق •

وهكذا لم تخضع الرستاق للبرتغال ، فما كــان هؤلاء يســتطيعون الاندفاع لداخل عمان ، ولو قد فعلوا لالتقطتهم أيدى العمانيين وأنزلت بهم الضر • فالعدو كان يعيش بالموانى فى حراسة البوارج العسكرية وعلى صلة بالتموين من الخارج •

وكانت الرستاق عاصمة الأئمة الذين حرصوا — وبخاصة فى فترات ازدهار الإمامة — على الحياة مع الشعب ووسط تجمعاته ، ولهذا فقد عُقدت الإمامة للإمام ناصر بن مرشد بالرستاق سنة ٩٠٣ ه (١٦١٥ م) وبدأت بذلك دولة اليعاربة [١] فى هذه العاصمة المهمة .

ويقول كتاب « تاريخ أهل عمان » الذى لم يُعرف مؤلفه : ظهر الإمام ناصر بن مرشد بين أهل الرستاق ، بعد أن اشتدت المحن ، وكثر الشقاق ، .... فتشاور أهل الاستقامة فى الدين ، وبحثوا فيمن يكون أهلا لقيادة الأمر ، فأجمعوا أمرهم أن ينصبوا السيد الأجل ناصر بن مرشد فمضوا اليه وطلبوا منه ذلك فاستجاب لهم ، وكان مسكنه فى بلد الرستاق فأظهر العدل ، ودمّر الجهل [٢] .

وجال الإمام جولته يضرب العصاة حتى اجتمع الكل إليه ثم رجع إلى الرستاق .

ومن الرستاق خرجت جيوش ناصر بن مرشد التى أوقعت أشد الهزائم بالبرتغاليين والفرس ، وأحرز ناصر انتصارات واسعة ، ولم يبق مع البرتغاليين إلا مسقط ومطرح ، وقد خرجت جيوش ابن عمه وخليفته سلطان بن سيف من الرستاق أيضا فأجهزت على الأعداء ، وحررت مسقط ومطرح .

وفى أواخر عهد اليعاربة شهدت الرستاق — كما سيأتى تفصيله — صراعا مريرا بين أفراد هذه الأسرة فلجأ أحد المتنافسين (سيف بن سلطان بن سيف) سنة ١٧٣٧ إلى نادر شاه ملك الفرس يطلب عونه ، وانتهز نادر شاه هذه الفرصة فدخل عمان بجيوشه ، وسرعان ما ظهر أنه لا يعمل لحساب سيف بن سلطان بل يعمل لحساب نفسه .....

---

(١) الشيخ سعيد بن على المغيرى : جهينة الاخيار فى تاريخ زنجبار ص ١٩٩ .

(٢) انظر كذلك حمد بن سيف : الموجز المفيد فى تاريخ البوسعيد ص ١١ .

وقد مات بالرستاق آخر أئمة اليعاربة ، وعند موته كانت فارس تحتل بعض المناطق ومنها مسقط ...

واستقبلت الرستاق علما جديدا من أعلام السياسة والحرب ، هو الإمام أحد بن سعيد الذى انتخب إماما لعمان سنة ١١٥٧ هـ (١٧٤٤ م) وهو رأس الأسرة البوسعيدية التى لاتزال تحكم البلاد حتى الآن ، واستطاع حكم البلاد من عاصمته الرستاق ، وأعاد للبلاد استقلالها بالحرب حينا وبالخديعة حينا ، حتى خلص البلاد من الاحتلال الفارسى ، وكانت الرستاق فى عهده عاصمة سياسية واقتصادية مهمة إذ عمل أحمد بن سعيد على تنشيط التجارة وازدهار المال ، وأقام أحمد بن سعيد توازنا بين الساحل والداخل وشجع التجارة وحقق الأمن والاستقرار للبلاد .

وتوفى الإمام أحمد بن سعيد بالرستاق فى محرم سنة ١١٩٨ هـ ودفن بها وقبره هناك معروف .

وبعد وفاة أحمد بن سعيد حدثت حركات سياسية وثورات جعلت ابنه سعيد بن أحمد بن سعيد يقنع بالإمامة فى الرستاق ، إذ ثار عليه ابنه حمد واستولى على مسقط وجعلها عاصمة سياسية ، ومع أن حياة حمد بن سعيد لم تطل إلا أن مسقط أصبحت العاصمة منذ ذلك التاريخ (١٢٨٣ م) (١)

ومنذ ذلك التاريخ الذى ثار فيه حمد بن سعيد على أبيه وانتقل إلى مسقط وقنع أبوه سعيد بأن يبقى فى الرستاق إماما ، منذ ذلك التاريخ أصبح هناك إمام فى الرستاق و « سيد » أو « سلطان » فى مسقط ، وتبعا لذلك فإن سلطان بن أحمد بن سعيد الذى ثار على أخيه سعيد بعد وفاة حمد اتخذ من مسقط عاصمة له .

وانتهى بذلك دور الرستاق كعاصمة سياسية ، وانتقل الأمر إلى

---

(١) مال الله بن على : ملامح من تاريخ عمان ص ٢٤ .

مسقط التى ستكون موضوع حديثنا بعد الانتهاء من الكلام عن الجوانب الحضارية فى الرستاق :

وتشتهر الرستاق بقلعتهـا العظيمة وكذلك بقلعة الحزم وجـامع البياضة الذى تخرّج منه عدد كبير من علماء عمان وأئمتها الأفذاذ •

وتشتهر الرستاق كذلك بعين « الكسفة » التى تتدفق منها مياه حارة نقية •

وكانت الرستاق فيما مضى مركزا تجاريا مهما يعرض منتجات الجبل الأخضر من المشمش والرمان والخوخ والتين والعنب ، وكانت الدواب تتوافد على الرستاق تحمل هذه الفواكه من الجبل الأخضر ، كما كان أهل الباطنة يفدون إلى الرستاق يحملون إنتاج هذه المنطقة من الأسماك والموز والليمون ، فكانت الرستاق بذلك نقطة التقاء اقتصادى كما كانت نقطة التقاء سياسى •

ومن الصناعات التى برزت فى الرستاق صناعة الحلوى العمانية ، وصناعة المصوغات الفضية ، وتحظى الخناجر الرستاقية بشهرة بالغـة إذ يضع الصائغ العمانى فى الرستاق بصماته الدقيقة على هـذه التحفة الفضية الرائعة •

ومن الصناعات التى حظيت بالاهتمام فى الرستاق صناعة التمور ، وهناك بالرستاق مصنع عظيم للتمور ، تختار فيه أجود التمور وتمر بمراحل مهمة لتعلَّب تعليبا رائعا للتمور مما جعل تمور عمان من أرقى أنـواع التمور فى العالم •

كلمة عن قلعة الرستاق وقلعة الحزم :

زرت هاتين القلعتين يوم ١٧/٥/١٩٩٠ وهما قلعتان شاهقتان ، وتقع

قلعة الرستاق على مرتفع يجعلها تطل على كل الجهات حولها ، وبهذه القلعة مساكن للإمام ولأسرته ، ومساكن للحراس ، ومكان للمسجونين ليكونوا تحت رقابته ، ومكان آخر للمعتلقين السياسيين وبها مدرسة لتعليم القرآن الكريم وعلوم الإسلام ، ومكتبة يقال أنها كانت عامرة بأهم الكتب .

أما قلعة الحزم فيرجع بناؤها إلى سنة ١١٢٦ هـ وهى على طبيعتها عندما زرتها أى لم تد خلها يد التجديد والإصلاح .

وقيل لى إن هناك نفقا يربط بين القلعتين وطوله ٢٥ ك م .

ومما يذكر عن القلاع أن الولاة يجلسون بها الآن مرة كل شهر حيث يباشرون أعمال الولاية منها ، وذلك لربط الحاضر بالماضى .

مسقط

الحديث عن مسقط يحتاج إلى نَفَسٍ طويل ، فهى درة الخليج ، والنجم الساطع فى هذا المكان من العالم ، وقد أتيح لى أن أزور مسقط عدة مرات ، وأن أتجول فى ربوعها ، وكانت تسحرنى مظاهرها ، فالقلاع الشامخة تبهر الرائى والبحر يخلب الألباب ، وناسها ينعكس عليهم صفاء البحر فنافسوا الماء فى النظافة والنقاء ، وانعكس عليهم صمود الجبال فظهروا كأجدادهم قوة وصلابة .

وأشهد أن مسقط جذبتنى ، وتمنيت أن أصف مشاهدها ، وأن أعيش مع تاريخها لأضيف شيئا إلى ما كُتب عنها ، وهأنذا أفعل ، ولكن ليس بالقدر الذى تمنيته بل بالقدر الذى تتحمله الظروف .

وقد كتب علماء الجغرافيا والرحالة شيئا عن مسقط ولكنه ليس كثيرا ، فهو لذلك لا يشفى الغلة ، وكتب الباحثون المحدثون دراسات تطول وتقصر عنها ، ونحن نقتبس من هؤلاء وأولئك ما ينير لنا السبيل ، ثم نضيف بعض ما دوناه عنها خلال زياراتنا ودراساتنا .

يقول ابن الفقيه الهمدانى (٩٠٢ م) عن مسقط : إنها تقع فى نهاية عمان وعلى بعد مائتى فرسخ من « سيراف » وهى ميناء تُبحر منها السفن إلى الهند [1] .

أما أبو عبد الله المقدسى (٩٨٥ م) فيذكر أن مسقط أول ميناء ترسو فيه السفن اليمنية المتجهة للشمال فى الخليج الفارسى ، ومسقط مدينة كثيرة الفواكه [2] .

---

(١) كتاب البلدان ص ١١٧ .
(٢) أحسن التقاسيم ج ٢ ص ٦٣ .

ويتحدث ابن بطوطة عن مسقط فيقول : هى بلدة بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس ، وبعدها سافرنا إلى قريات ثم قلهات وهذه البلاد كلها من بلاد عمان (١) .

أما المؤرخ العمانى الشيخ سالم بن حمود فقد كتب عن مسقط كلمات قصيرة أيضا بدأها بتصحيح ما ذكره عنها ياقوت الحموى ، ثم أضاف ان مسقط مدينة من أهم المدن على البحر العربى الفارسى ، علا شأنها وعظم مكانها منذ القرن الحادى عشر للهجرة حين حل بها البرتغاليون ، وبنوا بها حصنا لهم بل حصونا وسوّروها من الجبال بأسرار متينة ، حين صار ملك عمان بأيدى الطغاة من آل نبهان ، واستمر بها الحال أيام اليعاربة الأجلاء الذين يفتخر بهم الدين ، وتبتهج بهم الدنيا ، ثم اتخذها آل بوسعيد عاصمتهم الوحيدة ، وهكذا تطور الزمن بها حتى الآن (٢) .

ولعل العلامة الشيخ سالم كان فى عجلة من أمره ، فلم يمنح مسقط ما تستحقه من عناية ، وربط علو شأنها بالبرتغاليين ثم اتجه بسرعة للحديث عن آل نبهان الطغاة ، واليعاربة الأجلاء ، وختم كلمته القصيرة ذاكرا أن آل بوسعيد اتخذوها عاصمتهم الوحيدة مع أن قمة البوسعيديين « الإمام أحمد بن سعيد » كانت الرستاق عاصمته .

وعلى العموم فالعلامة سالم بن حمود تحدث طويلا عن مسقط وهو يسرد تاريخ عمان ، فإذا كان قد أوجز هنا ، فقد أعطى فيما بعد تفاصيل واسعة عنها وهى تصارع الأحداث .

وفيما يتعلق بأهمية مسقط ومطلع بروزها فى التاريخ نتفق مع الرأى الذى يقرر أنه على الرغم من أن صحار كانت الميناء الرئيسى فى عمان

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢١٠ — ٢١١ .
(٢) عمان عبر التاريخ ج ١ ص ٦٢ .

إبان ما يسمى « العهد الذهبى لتجارة الخليج » ما بين سنة ٧٥٠ و ١٥٠٧ بعد الميلاد ، وارتبطت بعلاقات تجارية مع موانى الخليج الهامة الأخرى كسيراف وهرمز ، فإن مسقط هى الأخرى كانت محطة هامة لتموين السفن واستقبال البضائع القادمة من موانى الخليج والهند وشرقى إفريقية ، وإن ظل دورها ثانويا فى هذا المجال (١) .

وعلى هذا فقد كان لمسقط دور فى التجارة العالمية بجوار صحار منذ القرن الثانى الهجرى مع الاعتراف بأن دور صحار كان هو الدور الرئيسى .

ونستمر فى مزيد من الاقتباسات للتعريف بمسقط ، ونحن الآن نقتبس من أحمد بن ماجد البحارة الشهير الذى كتب عن مسقط يقول :

« إنها ميناء شهير لا مثيل له فى العالم ، وفيه أمور وأشياء لا يجدها المرء فى أى مكان آخر ، وفى رأس الميناء صخرة عالية يراها القاصى والدانى ، ويهتدى بها المسافر أينما كان ، ويستطيع أن يراها المسافر إلى الهند أو السند أو هرمز أو مكران أو المغرب ، وتوجد إلى القرب من الشمال الغربى جزيرة حمراء عالية اسمها (الفحل) وهى ظاهرة بارزة بروزا كافيا حتى يمكن للجاهل أن يهتدى بها ليلا ونهاراً .

« أن مسقط هى الميناء الأول لعمان ، وتأتى إليه السفن وتتموّن فيه ، وفى مسقط تباع الأقمشة والخضروات والزيوت والحبوب ، ثم إن السفن حين تقصد مسقط تكون فى مكان آمن من كل ريح ، وفى مسقط المياه العذبة ، وسكانها كرام لطفاء يحبون الغرباء » (٣) .

---

(١) سطور من مقال عن : مسقط : الحاضر والمستقبل للاستاذ عباس ابن غلام نشر فى .. « أخبار شركتنا » .
(٢) المرجع السابق بتصرف ص ١٢ .

مسقط بين الاحتلال والاستقلال :

عانت مسقط احتلال الفرس ثم الاحتلال البرتغالى الذى وصلت به القحة أن يعتبر أهل مسقط قراصنة ، وأنزل بهم أقسى ألوان العنت . ثم تحقق لمسقط النصر المؤزر على يد ناصر بن مرشد وابن عمه سلطان ابن سعيد .

وعاد الفرس لاحتلال مسقط فى آخر عهد اليعاربة ، ولكن البطل أحمد بن سعيد حرر مسقط وأذلّ المعتدين .

وكان أحمد بن سعيد قد جعل الرستاق عاصمة له ، ولكن حفيده حمد ابن سعيد (١٧٧٩ — ١٧٩٢) اتخذ مسقط عاصمة له كما سبق ، فانتقلت العاصمة إلى مسقط ، ومنذ ذلك التاريخ ظلت مسقط عاصمة البلاد وواجهتها .

موضوعات ختامية عن مسقط

هناك موضوعات مهمة ترتبط بمسقط سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا وثقافيا ، وفيما يلى نتكلم عن هذه الموضوعات :

(أ) اقتصاد مسقط :

من مشاهدات السير بارتر فرير أنه زار مسقط فشاهد الأسواق تَعِجّ بالحركة حيث تُعرض السلع والمنتجات على اختلاف أنواعها مثل المنسوجات والأقطان والحرير والمجوهرات وأدوات المائدة واللحوم والأسماك .

وفى « رحلات عبر الجزيرة العربية » لكارستان يقول : تنتج مسقط الجبن والشعير والعدس والعنب وتصدِّر كميات هائلة من البلح إلى الخارج .

وذكر G. T. Rinal أن مسقط تصدِّر اللبان والمر والفضة والصمغ (١) .

وأهم دور اقتصادى قامت به مسقط هو أنها كانت محطة تجارية ومركزا لتوزيع البضائع وشحنها ، فالخليج يتوسط شبكة من الطرق البحرية التى تربط الهند وجنوب شرقى آسيا والشرق الأقصى وإفريقية ، هذا الخليج كانت مسقط تمثل أهم ميناء بين موانيه ، وكان هذا الموقع يدُرُّ ربحا عظيما على البلاد وعلى العمال العمانيين .

وعلى هذا فمنتجات مسقط وموقعها الجغرافى جَلَبَا لها عبر التاريخ مكانة اقتصادية مرموقة ، ولذلك كان يقال إن نفوذ مسقط فى الخليج نفوذ غير منازع (٢) .

وكان لمسقط معاهدات سياسية واقتصادية مع بريطانيا وفرنسا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية (٣) .

ولكن انقسام الدولة العمانية إلى دولتين بعد وفاة سعيد بن سلطان أو سعيد العظيم كما كان يسميه الحكام الأوربيون جعل عمان تفقد مكان الصدارة الذى كانت تحتله بين دول المنطقة بقوة أسطولها البحرى العظيم ، كما فقدت مدينة مسقط أهميتها كميناء بحرى هام ، وهكذا تداعت حياة النعيم والرخاء التى كانت تتمتع بها هذه المدينة العريقة .

وعندما جاء للحكم السلطان سعيد بن تيمور عام ١٩٣٢ استطاع هذا الحاكم تهدئة النزاعات القبلية ، ولكن البلاد كانت شبه منقسمة إداريا ، فالإمام كان لايزال الحاكم فى داخلية عمان فهو الذى يعين الولاة والقضاة من مقره فى « نزوى » على الولايات الداخلية ، بينما كان السلطان

---

(١) عمان فى صفحات التاريخ ص ٧٤ ، ٣١ ، ٤٣ بالتوالى .
(٢) عمان وتاريخها البحرى ص ٧١ .
(٣) دكتور جمال ذكريا قاسم : الخليج العربى ص ٣٧٩ .

سعيد يسيطر على المنطقة الساحلية وهى الباطنة وعلى المنطقة الجنوبية من السلطنة • ولكن السلطان سعيد قضى على هذا الانقسام وأصبح الحاكم الوحيد •

وجاء عصر السلطان قابوس بدءا من ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٠ دون صخب ودون إعلام زائف عن الماضى والمستقبل فكان هذا العهد نورا كله ويُمنا كله فى مختلف المجالات فوحد البلاد تماما ، وأصبح الحاكم الوحيد يعاونه وزراؤه ومستشاروه ، وكان النفط قد انبثق فى الستينات فاستغل السلطان هذا المورد الجديد كما استغل مواهبه الخصبة السمحة فى حركة عمران رائعة سنتكلم عنها عندما نتحدث عن مسقط المعاصرة •

(ب) مسقط مدينة الأبراج والقلاع :

تكثر الأبراج والقلاع والحصون فى عمان ، وتقوم هذه عادة على



مسقط مدينة الأبراج

التلال البارزة ، ومهمتها الحراسة والدفاع عن مداخل المدن ، وأحيانا كانت القبائل المتنازعة تقيم الأبراج للحماية ضد بعضها البعض •

والقلاع والأبراج كانت منازل للحكام ، وأحيانا كانت توجد بداخلها مدارس ومكتبات ، ومكان للمساجين السياسيين حتى يكونوا تحت سمع الحاكم وبصره •

وفى مسقط مجموعة من الأبراج والقلاع تشرف على المدينة من ناحية البحر ، فمسقط كانت دائما يخشى عليها أن تضرب من البحر •

وفى مسقط قلعتان عظيمتان أقامهما البرتغاليون والقلعة الغربية تسمى « ميرانى » ولعلها أخذت اسمها من الادميرال البرتغالى ، وكان البرتغاليون يطلقون عليها فى الأصل « كابيتان » إذ كانت مقرا للقائد البرتغالى •

أما القلعة الشرقية فتسمى قلعة « جلالى » ولعل اسمها مقتبس من اسم أحد القادة الذين ارتبطوا بهـــا •



(جـ) مسقط المعاصرة :

إن الحديث عن مسقط المعاصرة يحتاج إلى دراسة طويلة لا تتسع لها هذه العجالة ويكفى أن نذكر أن عهد السلطان قابوس أقام جسرا هائلا بين الماضى والحاضر والمستقبل ، فقد اتجهت عمان المعاصرة إلى المحافظة على القيم الأصيلة والتقاليد العربية مع تطعيمها بما يزيدها بهجة وجمالا دون تغيير فى جذورها ، ثم اتجهت عمان إلى الحضارة الحديثة فأخذت منها قسطا كبيرا بحيث لا يتناقض مع القيم والآداب العربية والإسلامية ، ولا نستطيع هنا إلا تقديم إشارات سريعة لما جد فى مسقط من صور حضارية :

- امتداد الشريط الساحلى من مسقط إلى مطرح ، ويحس السائر فيه بروعة الطبيعة وقدرة الحضارة الحديثة .
- شق الطرق فى الجبال الصلدة بحيث قربت المسافات إلى حد كبير وربطت بين أحياء العاصمة فى سهولة ويسر .
- ظهرت للوجود مدن جديدة أو ما يسمى بالضواحى لمسقط ومن هذه مدينة قابوس الفاخرة ، ومدينة الإعلام التى تحوى محطة الإذاعة والتليفزيون ونادى الصحافة ومساكن العاملين ، والمدينة الدبلوماسية لرجال السلك السياسى ولسفاراتهم .
- المنطقة الصناعية بكل ما تحويه من أجهزة ومعدات .
- مجموعة من الفنادق الضخمة العالمية .
- المستشفيات التى أعدت أروع أعداد لاستقبال المرضى وعلاجهم .
- مطار دولى يستقبل أضخم الطائرات .
- ميناء قابوس الذى يستقبل أعظم السفن .
- جامعة قابوس وهى مفخرة عظيمة للعلم والمعرفة .

— التماثيل التى تزدان بها الميادين الرائعة المختلفة فى العاصمة .

— ومن أهم ما يذكر لمسقط ولعمان الأمن الذى يسود العاصمة ويسود القطر كله ليلا ونهارا فوقوع الجريمة يعتبر شيئا نادرا للغاية .

وبعد ، إنى أرفع القلم عن الحديث عن مسقط ولايزال هناك الكثير مما يمكن أن يدوّن عنها .

نــــزوى

تقع نزوى فى المنطقة الداخلية بعمان ، على بعد ١٨٠ كيلو مترا من مسقط ، وهذه المنطقة مهمة جدا وبخاصة بالنسبة لمؤرخ الإسلام ، وذلك لما تزدان به من مساجد ، ولما قدمته للمجتمع العمانى من أساطين العلماء ، ثم لأن هذه المنطقة بها حصون فخمة تتيه بجلالها ، وبعض الحصون شملت معاهد عليا ترعى العلوم والمعارف ، ولذلك فإننا قبل أن نتحدث عن نزوى كإحدى العواصم العمانية يجدر بنا أن نتحدث عن نزوى بلدة العلماء ونزوى منطقة الحصون .

نزوى بلدة العلماء :

حظيت نزوى بأن أطلق عليها « بيضة الإسلام » وذلك لوجود مدارس الفقه الإسلامى بها ، وعكوف العلماء والمريدين فيها على الدراسة والتأليف فى كل جوانب الدراسات الإسلامية ، وقد تخرج من معاهد نزوى مجموعة من جلة العلماء انسابوا فى نواحى عمان يحملون العلوم والمعارف وسنذكر بعد قليل أسماء بعض هؤلاء العلماء ، وقد كان مناخها المعتدل من الأسباب التى جذبت حلقات العلم لاتخاذ نزوى مركزا للدراسة .

ونزوى من أوائل بلدان عمان التى احتضنت الإسلام ، ولذلك نجد مساجد نزوى تجمع فى عمارتها بين القديم والحديث ، وعلى سبيل المثال مسجد الشواذنة المنسوب لعيسى بن عبد الله بن شاذان ، وهو أول مسجد فى المنطقة وقد أعيد تجديده سنة ١٠٧ هـ .

وبمناسبة الحديث عن أول مسجد بنى فى منطقة نزوى ينبغى أن نقفز قليلا من نزوى إلى سمائل حيث نقابل الصحابى الجليل مازن بن غضوبة ، وهو أول عمانى اعتنق الإسلام ، وأسس مسجدا سمى « مسجد المضمار » وهو أول مسجد أسس فى عمان ، وقد جدده السلطان قابوس على حسابه الخاص تكريما لهذه الذكرى المجيدة .

ونعود إلى نزوى لنكمل حديثنا عن مساجدها ، ففيها الجامع الذى لايزال مقرا لدراسة الفقه والعلوم الإسلامية ، وجامع سعال الذى يقال أنه بنى فى السنة الثامنة للهجرة ، ويوجد بنزوى كذلك مسجد العين ومسجد الشيخ ، وقد تخرج العديد من العلماء الفطاحل من مساجد نزوى ومن هؤلاء الإمام الصلت بن مالك الخروصى والإمام جابر بن زيد « أبو الشعثاء » والشيخ محمد بن إبراهيم الكندى مؤلف كتب « بيان الشرع » والشيخ العلامة بشير بن المنذر ، والشيخ أحمد بن عبد الله بن موسى الكندى وغيرهم كثيرون •

نزوى بلدة الحصون :

وتشتهر نزوى بالحصون والقلاع ، ومن أهم حصون نزوى قلعتها التاريخية التى بناها سلطان بن سيف ١٠٥٩ — ١٠٧٩ هـ (١٦٤٩ — ١٦٦٨ م) وقد استغرق بناء هذه القلعة اثنى عشر عاما ، ويزيد طول قطر برجها الدائرى الضخم عن ٣٧ مترا ، وهى تضم تحصينات متينة كما تضم أبراجا محصنة •

ويوجد بهذه القلعة أماكن للتعبد والصلاة والإدارة الحكومية وسبعة آبارللمياه المعذبة •

وتتعدد الحصون فى نزوى فمنها حصن « تنوف » الذى يقع على سفح الجبل الأخضر ويتحكم فى مدخل الجبل الأخضر ، وتحيط به ثلاثة أبراج •

وهناك حصن الدويدة وله موقع استراتيجى ، إذ يقع فى الشمال الغربى ، ويتحكم فى مدخل الوادى المؤدى للجبل الأخضر ويخترقه فلج المبركة [١] وقد أسسه محمد بن الإمام أحمد بن سعيد وولده هلال ، وبه قلعة الشهباء وبرج القرن [٢] •

---

(١) سلطنة عمان ومسيرة الخير : المنطقة الداخلية والوسطى ص ١٩ •
(٢) المرجع السابق ص ٢٣ •

ومرة أخرى ونحن نتحدث عن الحصون — نقفز إلى حصن جبرين ، ولجبرين صلة سياسية بنزوى سنتحدث عنها فيما بعد ، وحصن جبرين (ويسمى أحيانا ببرين) يقع فى ولاية بهلاء غير بعيد عن نزوى ، وهو من أهم الحصون الأثرية فى عمان • وقد بناه الإمام بلعرب بن سلطان ، وأصل اسمه « أبو العرب » ثم نطق بلعرب اختصارا ، وهذا الحصن هو أحد الآثار الكاملة الباقية ، وهو مزين بالنقوش الملونة ، وتنتشر فيه السراديب ويطل على مدينة بهلاء ، وحوله أرض زراعية تنتشر فيها أشجار النخيل ، وله فلج للمياه ، وهو مزود بشبابيك وفتحات تيسر مراقبة الداخلين والخارجين منه [1] •

وبمناسبة الحديث عن حصن جبرين ينبغى أن نعود إلى تحفة الأعيان لنروى عنه قوله :



حصن جبرين

---

(١) المرجع السابق ص ٣١ •

حصن جبرين من أعاجيب الزمان ، وقد بنا. بلعرب من صلب ماله لأن الأموال قد كثرت فى أيامه وأيام والده قبله وذلك لبركة العدل وفضل الجهاد ، ولذلك أقبلت الأمة على تشييد الحصون والمعاقل وإجراء الأنهار وغرس الأشجار ، وإحياء المواتات ليعيش الناس بأرغد عيش وأتم نعمة ، فبنى والده قلعة نزوى وهى الشهباء ، وبنى هو حصن جبرين ، وبنى ابن أخيه وهو سلطان بن سيف بن سلطان حصن الحزم والثلاثة من أعاجيب الزمان حتى قيل إن حصن جبرين لا يستطيع أحد أن يصفه بجميع ما فيه ولو بقى به شهرا كاملا ، وهو قصر عال يجرى فى بطنه نهر جاره وله حيطان شاهقة ، ومن أعاجيبه أنه لو دخله داخل من غير أهله لم يستطع أن يبلغ أعلاه إلا بدليل من أهله [1] .

أشياء أخرى تشتهر بها نزوى :

وتشتهر نزوى أيضا بصناعة الحلوى العمانية التى برع فيها العمانيون بصفة عامة وأهل نزوى بصفة خاصة ، وقد ساعد على ذلك توافر السكر الأحمر بنزوى الذى تصنع منه هذه الحلوى .

وتشتهر نزوى كذلك بصناعة دبغ الجلود وتصنيع هذه الجلود بعد دبغها ، كما تشتهر بالمشغولات الذهبية والفضية والخناجر وحلى الأعراس والسيوف وغيرها من المشغولات التى تزدان بالنقوش البديعة .

جولة تاريخية

اتخذ الأئمة الإباضيون « نزوى » عاصمة لهم طيلة تاريخهم الطويل فى فترة الإمامة الأولى التى بدأت سنة ١٣٥ هـ باختيار جلندى بن سعيد إماما ، وامتدت إلى الإمامة الثانية التى بدأت سنة ١٧٧ هـ باختيار محمد ابن عبد الله بن أبى عفان ، ثم فترة الإمامة الثالثة التى بدأت باختيار

---

(١) السالمى : تحفة الاعيان ج ٧ ص ٧٧ وانظر كذلك جهينة الاخبار لسعيد بن على ص ٢٠١ .

الخليل بن شاذان إماما سنة ٤٠٨ هـ واستمرت حتى مالك بن على الحوارى الذى توفى سنة ٨٣٣ هـ مع ملاحظة وجود فترات كان منصب الإمامة شاغرا ، أو وجود فترة ظلام سيطرت على البلاد .

وعادت الإمامة مرة أخرى باختيار عبد الله بن خامس بن عامر الأزدى سنة ٨٣٩ وظلت إلى نهاية بركات بن محمد بن إسماعيل فى إمامته الثانية سنة ٩٦٨ هـ وكانت العاصمة تتأرجح بين نزوى وبهلاء (١) .

وفى خلال عهد الأئمة وبسبب الصراع الداخلى الذى اشتد وامتد ظهرت سلطات جديدة بعمان هم ملوك بنى نبهان الذين كانوا إلى الشر والتخريب أميل ، وقد اتخذ هؤلاء عاصمتهم بهلاء أو مقنيات (٢) وأحيانا فى نزوى (٣) .

وعندما أصبحت الإمامة لليعـاربة كانت « الرسـتاق » غالبا هى العاصمة ، ولكن بلعرب أمضى فترة طويلة من حياته بين جبرين — التى شيّد بها حصنه الذى سبق الحديث عنه — وبين نزوى (٤) .

وقد ذكرنا من قبل أنه قبل قيام اليعاربة كان بعمان خمسة من صغار الملوك يحكمون فى الرستاق والنخل وسمائل وسمد وأبرا .

ويقول الشيخ سعيد بن على المغيرى (٥) عن « نزوى » إن الإمـام العادل سيف بن سلطان توفى بها سنة ١١٢٣ ويصفها بأنها بيضة الإسلام وعاصمة الإمامة العمانية ، ويصفها السالمى بأنها كرسى مملكة العرب (٦) .

---

(١) انظر السالمى : تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان ج ١ ، ٢ وانظر كذلك زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ج ١ ص ١٩١ وما بعدها .
(٢) زامباور : المرجع السابق ص ١٩٤ .
(٣) تاريخ أهل عمان ص ١٠٣ .
(٤) تاريخ أهل عمان : مؤلفه مجهول ص ١٤٦ .
(٥) جهينة الاخبار فى تاريخ زنجبار ص ١٩٦ .
(٦) تحفة الاعيان ج ٢ ص ٢١١ .

عواصم ثانوية مع نزوى :

وهكذا نجد نزوى قد نعمت بأن تكون عاصمة عمان فترة طويلة ، وفى عصور التفكك ظهر بجانبها كثير من العواصم الثانوية (بهلاء — جبرين — النخل — سمائل — سمد — ابرا) وقد ذكرناها جميعا حتى نلم بكل العواصم العمانية ، المهمّ منها وقليل الأهمية .

صلالة :

بقيت كلمة تقال عن « صلالة » فأغلب المفكرين العمانيين أو ربما كلهم لا يعدون « صلالة » فى العواصم العمانية ، ومن المعروف أن جلالة السلطان سعيد بن تيمور أقام بها اثنتى عشر سنة إقامة متصلة ، ومنها كان يُصدر تعليماته وتوجيهاته إلى وزرائه ورجاله بمسقط ، وإذا كان العرف قد جرى على اعتبار « الاسكندرية » مثلا عاصمة صيفية إذ يقيم بها الملك أو الرئيس شهرين فى العام ، فإن من الممكن أن تعتبر صلالة أيضا عاصمة ثانوية بجوار مسقط .

أحداث تاريخية تتصل بنزوى :

وهناك أحداث تاريخية مهمة تتصل بالعاصمة نزوى ، ونحن نوردها فيما يلى :

أولا — احتلال فارسى قصير :

مرّت بعمان — كما أشرنا من قبل — فترات فوضى واضطرابات وبخاصة فى عهد ملوك بنى نبهان وكان الفرس يتحيّنون الفرص لمهاجمة عمان مستغلّين أى اضطراب أو أى مظهر من مظاهر الضعف ، ولذلك نجد أنه فى سنة ٦٧٤ هـ فى عهد الملك عمر بن نبهان هاجمت شيراز عمان ، وكان المهاجمون عددا من الفرسان الأشداء ، واستطاعوا أن يحتلوا نزوى ، وأن يسلبوا أموال الناس ، وحاصروا بهلاء ، ولكنهم لم يستطيعوا فتحها فارتدوا على أعقابهم بعد احتلال لنزوى دام أربعة شهور .

ثانيا — خضوع نزوى بسهولة لناصر بن مرشد :

عقب البيعة للإمام ناصر بن مرشد سار بالبلاد ليقضى على الفرقة التى كانت سائدة ، وسرعان ما رحبت به سمائل ، ثم سار إلى نزوى ومعه القاضى خميس بن سعيد ، وفى الطريق نصرته قوة من أهل أزكى ودانت له أزكى بالطاعة ، ثم سار إلى نزوى فالتقاه أهلها بالكرامة ودخلها فى حال من السلامة (١) .

ثالثا — الإمامة فى عهدها الأخير بنزوى :

كان الإباضيون يرون أن بعض سلاطين آل بوسعيد لم يتم اختيارهم بالطرق التى يوافق عليها المذهب الإباضى ، ومن هنا لا يعتبر هؤلاء أئمة فى نظرهم ، وقنع البوسعيديون المتأخرون بلقب « السيد » أو « السلطان » ولم يتمسكوا بلقب الإمام ، وعلى هذا اختفت الإمامة طيلة القرن التاسع عشر وقبله بقليل وبعده بقليل أيضا ، وكانت خلال ذلك تظهر أحيانا باهتة لا غناء فيها .

وفى سنة ١٩١٣ م بدأت حركة قوية لبعث الإمامة ، فاجتمع زعماء الإباضية ومعهم الشيخ نور الدين السالمى واختاروا راشد بن سالم الخروصى إماما ، وقتل هذا سنة ١٩٢٠ فبويع محمد بن عبد الله الخليلى إماما لعمان ، وقد ظل يشغل إمامة عمان فترة طويلة حتى سنة ١٩٥٤ وحاول خلال هذه المدة أن يجعل من عمان الداخلية دولة شبه مستقلة عن مسقط ولكنه لم ينجح ، وعندما توفى سنة ١٩٥٤ اختير غالب بن على إماما وحاول هذا أن ينهج نهج سلفه ، ولكن هذه الازدواجية وذلك التقسيم لم يكن فى مصلحة عمان ، ولذلك سار جيش من مسقط سنة ١٩٥٩ وقضى على هذه المحاولة تماما ، واختفت بذلك الإمامة من نزوى إلى الأبد كما ذكرنا من قبل .

---

(١) تاريخ أهل عمان ص ٢٥ .

نزوى فى رأى العلامة سالم بن حمود :

فى ختام هذه الدراسة نذكر أن العلامة الشيخ سالم بن حمود يذكر نزوى بالكثير من التقدير والإجلال ، ولعله تلقى العلم فى معاهدها أو علَّم فيها ، وعلى كل حال فالعلماء يجلُّون معاهد العلم وملتقى الفكر ، ويسعدنا أن نقتبس منه هنا بعض كلماته عن نزوى :

تعرضت عمان من الفرس وقراصنة الهند .... إلى هجمات متعددة ، فرأى المسلمون تحويل عاصمة الإمامة من صحار إلى نزوى ، ورأى ذوو الشأن أن نزوى أمنع لهم وأحصن لزعامتهم وأقرُّ لسلطانهم ، فاتفق نظرهم إلى أن يكون الإمام بها ، ولا يخرج منها إلا لمهم يبدو أو لداعٍ يستدعى .

وأصبحت نزوى كرسى الإمامة فى عمان ، وكان مقام الإمام فى الحصن ، وفى عهد الإمام غسان سُمِّيت تخت مُلْك العرب ، كما سميت بيضة الإسلام .

والخلاصة أن نزوى كانت عرش الإمامة فى عمان ، وقد استوطنها الأئمة والعلماء والقضاة ، وكم حوت تربتها من إمام وفقيه وزاهد .

ويختم العلامة الشاعر كلامه عن نزوى بقصيدة طويلة نقتبس منها البيتين التاليين :

فإن تيامَنَتْ الحوراءُ شاخصةً
لها مع السحب أكنافٌ وأحضانُ

فحطَّ رحلك عنها إنها بلغت
نزوى وطافت بها للمجد أركانُ

★ ★ ★

تلك هى العواصم العمانية بما حفلت به من أمجاد وما عانته من صعاب واستبداد ، وقد سعدت وأنا أعيش معها ، وكانت تنعكس على نفسى أحوالها فأفرح عندما أدون انتصاراتها العسكرية والفكرية ، وأحزن عندما أراها تعانى من صراعات داخلية أو عدوان خارجى .

حمى الله عمان ورعى سلطانها العظيم الذى شاهدنا بصماته فى كل شبر من هذه الأرض الطيبة ، إنه طاقة من الخير والنور ، سطع على البلاد فاستجابت له البلاد ، وخطت فى ظله أوسع خطوات فى طريق المجد والسؤدد .

هل تعد عمان من دول الخليج ؟ أو لا تعد ؟

إن الاجابة عن هذا السؤال تتوقف على اعتبار خليج عمان جزءا من الخليج العربى [١] ، أو ليس جزءا منه ، فإذا كان خليج عمان جزءا من الخليج العربى كانت عمان إحدى دول الخليج ، وكان الحديث عنها ينبغى أن يكون ضمن الحديث عن دول هذا الخليج ، أما إذا كان خليج عمان ليس جزءا من الخليج العربى ، فإن عمان لا تكون إحدى دول الخليج ، وبالتالى يكون الحديث عن عمان مستقلا كالحديث عن السعودية واليمن وغيرهما ٠

وإذا ذهبنا نتعرف عما اذا كان خليج عمان جزءا من الخليج العربى أو ليس جزءا منه ، نحس أن هذه القضية ليست موضع اتفاق ، أو قل إنها لم تطرح للبحث والتفكير من قبل ، ولهذا ترد مضطربة عند بعض الكتاب ، فالدكتور جمال زكريا له كتاب عنوانه « الخليج العربى » وفيه يتحدث عن عمان ضمن دول الخليج ، وله كتاب آخر عن « دولة بوسعيد » وفيه لا يجعل عمان إحدى دول الخليج العربى إذ يذكر فى صفحة ٦ أن حدود عمان هو الخليج العربى شمالا وبحر العرب جنوبا ، وخليج عمان شرقا ، وصحراء الربع الخالى غربا ٠

وهذا الاضطراب يتضح أيضا فيما كتبه الدكتور سيد نوفل فهو مرة يجعل خليج عمان جزءا من الخليج العربى ، إذ يقول عن جنوبى الجزيرة العربية وشرقيها ما يلى : إن جنوب الجزيرة العربية يبدأ من مضيق باب المندب ويستمر شرقا إلى عدن وحضر موت ، ثم يتجه شرقا فشمالا على بحر العرب ، فخليج عمان حيث عمان ومسقط ، ثم ندخل الخليج العربى من جانبه الغربى [٢] فهو بهذا يجعل ما بعد خليج عمان جزءا غربيا للخليج

---

(١) عن تسمية هذا الخليج سيجد القارىء دراسة شاملة فيما بعد عند الكلام عن الخليج ودوله ٠

(٢) الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة ج١ ص ٤٠ ٠

العربى عادة خليج عمان الجزء الشرقى لهذا الخليج ، ولكنه يعود فى مكان آخر فيقرر أن خليج عمان ليس جزءا من الخليج العربى ، وهاك كلماته [١] « إن بريطانيا استطاعت أن تسيطر باسم سلطان مسقط على مدخل الخليج العربى فى مضيق هرمز » فهو بهذا يحدد مضيق هرمز ليكون مدخلا للخليج العربى مما يجعل خليج عمـان ، ليس جزءا من الخليج العربى ، ويكرر المؤلف هذا الاتجاه فى موضـع آخر فيقول : إن مضيق هرمز هو بـاب الخليج العربى [٢] .

وإذا ذهبنا لغير هذين المؤلفين أحسسنا أن الموضوع غير مطروح ، ولا مدروس ، وبالتالى تختلف الآراء حوله كلما ورد له ذكر ، وكانت المراجع القديمة يتبع بعضها بعضا فى عدّ خليج عمان جزءا من الخليج العربى ، فالمسعودى وهو يتحدث عما أسماه بحر فارس جعل حدوده تمتد من البصرة حتى مسقط [٣] .

واتجه ياقوت هذا الاتجاه أيضا ، فقد جعل الخليج الفارسى شعبة من بحر الهند [٤] ، ومعنى هذا أنه ابتدأ به من المحيط الهندى وجعلـه يشمل خليج عمان .

واتجه النويرى [٥] هذا الاتجاه أيضا ، فقد حدد خليج فارس وجعله يشمل مضيق هرمز وخليج عمان ، ويمتد إلى بلاد مهرة .

وتحدث ابن الوردى [٦] حديثا واضحا عن بحر عمان بقوله : هو شعبة من بحر فارس ، وهو بحر كثير العجائب فيه مغاص اللؤلؤ ، ويخرج منه الحب الجيد .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٦ .
(٢) المرجع السابق جـ٢ صـ ٨١ .
(٣) مروج الذهب جـ١ ص ٩١ — ٩١ .
(٤) معجم البلدان جـ١ ص ٣٤٣ .
(٥) نهاية الأرب فى فنون الأدب : جـ١ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .
(٦) جريدة العجائب ص ٦٤ .

وذكر ابن خلدون [١] ان عمان إقليم سلطانى منفرد يقع على بحر فـــارس •

ومن الباحثين المحدثين الذين قالوا بهذا الرأى الدكتور صلاح العقاد الذى خصص جزءا كبيرا للحديث عن عمان فى كتابه عن « التيـــارات السياسية فى الخليج العربى » •

وهناك لمحات أخرى تدعم هذا الاتجاه منها أن البلاد امتد لهـــا الاحتلال الفارسى قبل الإسلام مع ما امتد له من دول الخليج ، وأن هذا الاحتلال ترك على المنطقة كلها بصمات متشابهة تربط بين نواحيها المختلفة •

ومن اللمحات كذلك أن الفرق الإسلامية التى عاشت بالخليج العربى امتد نشاطها إلى عمان ، وطبعت المنطقة كلها بطابع واحد تقريبا •

أما الاتجاه المضاد أى الذى يجعل خليج عمان ليس جزءا من الخليج العربى ، وبالتالى لا يجعل عمان جزءا مـــن دول الخليج العربى فهو اتجاه له ثقله فيما نرى ، فعمان يقع جزء كبير منها على بحر العرب ، والمحيط الهندى ، مما يبعدها عن أن تكون محصورة فى نطاق هـــذا الخليج ، ثم ان عمان توصـــف فى المؤلفات العمانية ، بأنها الطريق البحـــرى بين الخليج والمحيط الهندى [٢] • وهى بذلك ليست من دول الخليج وقد ذكر Stephan and Handy Ronart [٣] حدود عمان فقرر أنها تمتد من ظفار إلى الشاطىء العمانى الذى يطل على بحر العرب وعلى خليج عمان شاملا رأس مسندم حتى مطلع الخليج الفارسى ، وهو بهذا يوضح أن الخليج الفارسى يبدأ من ناحية خليج عمان ، وبهذا لا تكون عمان من دول الخليج الفارسى •

---

(١) العبر : جـ٣ ص ١٩٧ •

(٢) سلطنة عمان ص ١٠ •

(٣) Concise Encyclopaedia of Arabic Civilization p. 379.

وقد ورد ذلك الاتجاه بوضوح فى تعريف بوغاز هرمز ذلك التعريف الذى أورده « عليرضا مرزا محمد » ونصه : وبوغاز هرمز يوصل خليج العجم ببحر عمان (١) .

وعدّد رفاعة الطهطاوى خلجان آسيا ، فذكر أنها عشرة ، وعدّ الخليج العربى واحدا منها ، وخليج عمان واحدا آخر (٢) .

وذكر ابراهيم رفعت باشا حدود الجزيرة العربية فقال : انها يحدّها البحر الأحمر غربا ، والمحيط الهندى جنوبا ، وبحر عمان والخليج الفارسى شرقا (٣) .

بقيت كلمة تحسم الموضوع فيما أرى هى أن الساحل المهادن أو ساحل الصلح كان جزءا من عمان (٤) ، وهذا الجزء يقع على الخليج العربى ومن هنا فعمان قبل أن تفقد هذا الجزء كانت تقع على خليج عمان والخليج العربى جميعا ، ولعلّ الذين عدّوها من دول الخليج العربى لاحظوا وضعها القديم أيام كانت شاملة لدولة الإمارات . وفى أثناء التفكك الذى انتاب عمان وأخضعها إلى عدد من الطموحين والقبائل ظهرت هذه الإمـارات وتلقفها الإنجليز عندما ظهروا فى الخليج العربى فثبتوا إبعادها عن الوطن الأم ، وتكونت منها أخيرا دولة الإمارات العربية كما سنرى فيما بعد .

ومن هنا فإن عمان الحالية تقع على خليج عمان وليست من دول الخليج العربى ، ولهذا يجدر بنا أن نتدارسها مستقلة قبل أن نتدارس هذا الخليج ودوله .

---

(١) الخليج الفارسى عبر القرون والاعصار ص ١٠٢ وانظر التحفة الأزهرية لاسماعيل على ص ٤٥٩ .
(٢) التعريفات الشافية ص ٢٦ .
(٣) مرآة الحرمين جـ ١ ص ١٤٣ .
(٤) دكتور سيد نوفل : الأوضـاع السياسية جـ ١ ص ١٥٤ و جـ ٢ ص ٣٧ — ٣٨ .

صورة عمان بصفة عامة

لو أردنا أن نرسم صورة بالقلم لعمان لقلنا إنها بلاد تكثر بهـا المفارقات ؛ فهى قمم شاهقة تطل على وديان منحدرة ، وهى صخور جرداء ، بجوار سهول البساتين والبيارات ، وهى بحر زاخر من جانب ورمال مترامية بلا نهاية من جانب آخر ، وشعبها تبعا لذلك يشتغل بالرعى والزراعة كما يعمل فى صيد الأسماك ، ولكن بحر العرب وخليج عمان والموقع الاستراتيجى قدّمت لشعب عمان مهنة أخرى هى السفارة التجارية ؛ فعمان تسيطر على أقدم وأهم الطرق التجارية البحرية فى العالم ، وهو الطريق البحرى بين الخليج والمحيط الهنـدى ، وقـد استغل أهل عمـان الموقع البحرى أعظم استغلال ، ودرسوا اتجاهات الرياح أعمق دراسـة ، وراحوا بسفنهم الشراعية تدفعهم الرياح الموسمية عبر بحر العرب إلى الهند ثم إلى مـا بعد الهند من أقطار ، وهناك كانوا يبيعون مـا يحملون من سلع تحتاجها هذه البلاد ، ويجمعون من منتجاتها ما يملئون به سفنهم ، وينتظرون حتى موسم هبوب الرياح المعاكسة التى تدفعهم فى رحلة العودة إلى عمان ، ومن عمان يبدءون رحلة جديدة داخل الخليج حتى حوض دجلة والفرات ... وكان ذلك هو طابع الحياة لتلك البلاد فى العصور القديمة والوسيطة .

ويقول المؤرخون الغربيون إن موقع عمان الجغرافى كفل لعمان أهمية خاصة ، لأنها تحتل مركزا مهما بالنسبة للطرق الموصلة إلى الهند وإفريقية والبحر الأحمر ، كما أن الرياح الموسمية كـانت خير وسيلة للعمـانيين ليزاولوا هذه التجارة بين هذه المناطق (١) .

اقتصاد عمـان

وبمناسبة الحديث عن التجارة البحرية التى كانت عمان تقوم بهـا

---

(١) Palgrave : Narrative of a year's jaurney through Central and Eastern Africa vol. I p. 255.

خلال قرون طويلة مضت ، نقرر أن هذه التجارة كانت وسيلة ربح وفير للعمانيين ، ليس فقط للذين يزاولون التجـارة ، بل لعدد كبير غيرهم ؛ كالذين كانوا يعملون فى بناء السفن ، ويقومون بشحنها أو تفريغها وكأولئك الذين كانوا يحرسون المخازن التى تودع فيها البضـائع إلى أن تجىء السفن ...

وهكذا شهدت الموانى العمانية حركة تجارية نشطة للغاية ، وكان نشاط العمانيين أبرز نشاط ملاحى فى المحيط الهندى قبل أن تظهر السفن التجارية الكبيرة ، واستتبع هذا النشاط أن قام أبناء عمان بدور واسع فى إنشاء عدد من المدن البحرية على امتداد شواطىء إفريقية الشرقية ، كما اتخذوا مراكز لهم فى المدن الساحلية التى كانوا يفدون لها على طـول المحيط الهندى وحتى شواطىء الصين .

وتقرر المراجع العمانية أن عمان كانت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر تملك أسطولا من السفن يقدر بنحو خمس عشرة سفينة من الطراز الغربى المربع الهيكل ، وثلاث سفن كبيرة ، ونحو ٢٥٠ سفينة شراعية أغلبها من سفن الشحن الكبيرة الحجم والحمولة ، إلى جـانب مائة سفينة أخرى تزاول مختلف ألوان النشاط الملاحى ، وكانت السفن الكبيرة من هذا الأسطول التجارى تربط بين ميناء مسقط وميناء زنجبار من جانب ، وبين مسقط وكلكتا وجاكارتا من جانب آخر [١] .

ويتضح من التاريخ السابق أن النشاط التجارى العمـانى ضم إلى نفوذه كل المناطق التجارية التى كانت البرتغال تتصل بها ، فما إن أجلى العمانيون البرتغال عن بلادهم فى النصف الأول من القرن السابع عشر حتى ورثوا معاقلهم ، وورثوا الخطوط البحرية التى كان البرتغـاليون يزاولون فيها نشاطهم ، وفرضوا سيطرتهم على ضفتى خليج عمان ، وامتد سلطانهم قويا عزيزا إلى ساحل إفريقية الشرقية .

(١) عمان الماضى والمستقبل ص ١٩ — ٢٠ .

وهكذا كانت التجارة مصدر رزق وفير لأبناء عمان طيلة عدة قرون .

وبالإضافة إلى التجارة كانت الزراعة مصدرا مهما من مصادر الاقتصاد العمانى ، بل إنها كانت المصدر الرئيسى الذى يعمل فيه حوالى ٨٠٪ من أهل البلاد ، وقد ساعد على نشاط الزراعة فى عمان أن بها مساحات واسعة من الأراضى الخصبة ، كما أن بها بعض الواحات التى تكثر بها أنواع الفاكهة ، ويبرز فى الحديث عن الزراعة بعمان منطقة الباطنة الساحلية ، ووادى سمايل حيث توجد المساحات الخصبة والماء الوفير ، وتنتج أرض عمان الحنطة والشعير والخضروات وقصب السكر ، كما تكثر بها فواكه المناطق الاستوائية كالمانجو والرمان والجوز ، وينمو العنب فى منطقة الجبل الأخضر ، وتكثر أشجار جوز الهند فى مقاطعة ظفار ، كما تكثر أشجار النخيل فى الواحات ، وهى تنتج أنواعا متعددة من التمور تصل إلى مائتى نوع .

ويتصل بالإنتاج الزراعى تربية الحيوانات وتتنوع هذه الحيوانات بتنوع المناطق فى عمان ، فالقبائل فى الصحراء تهتم بتربية أجود أنواع الجمال ، وتكثر الأغنام فى مناطق الرعى الجبلية ، ويوجد البقر فى مقاطعة الباطنة ، وتكثر الجياد العربية فى مقاطعة عمان .

ومن مصادر الاقتصاد العمانى الثروة السمكية ، إذ تمتد سواحل عمان مساحات طويلة على المحيط الهندى وخليج عمان ، ويقدر طول الشاطىء العمانى بـ ١٥٠٠ كيلو متر ، وقد اتجه الأهالى منذ عهد طويل إلى اتخاذ صيد الأسماك حرفة مهمة يعتمدون عليها فى الطعام والتجارة ، كما يقومون بتجفيف الأسماك أحيانا ثم سحقها لاستعمالها سمادا أو غذاء للحيوان ، وساعدهم على ذلك أن الساحل العمانى من أغنى البحار من حيث كثافة الأسماك وتنوعها ، إذ يشمل سمك « التن » و « المارلين » وسمك « القرش » و « السردين » وغيرها من الأنواع ، ويستعمل صيادو

الأسماك القوارب والشباك وغيرهـا من الأنواع البدائيـة ثم المتطورة لتحقيق أهدافهم فى صيد الأسماك •

ولعمان أطماع فى أن تصبح الصناعة مصدرا من المصادر الاقتصادية بها ، وتدل البحوث على أن بأرض عمان مناجم للنحاس والفضة ، ومن الممكن أن تتحقق هذه الأطماع فى المستقبل عندما تجرى بعمان عمليات للتنقيب للبحث عن هذه الثروات •

على أن أكبر مصدر تعتمد عليه عمان فى الوقت الحاضر هو البترول الذى انبثق فى منتصف العقد السابع ، وبدأ تصديره سنة ١٩٦٧ ، ومع أن كمياته لا تزال قليلة نسبيا فهو قد فتح لعمان بابا واسعا من أبواب الخير يرجى أن يكون باب ثراء وبركة •

جولـــة تاريخية عن عمـــان

لمحـــة عن التاريخ القديم :

يتجه كثير من الباحثين إلى أن الحضارة البحرية الأولى ظهرت على مياه الخليج ، وأن هذه المنطقة جذبت لذلك جماعات الوافدين عبر البحر أو عبر الصحراء غزاة أو تجارا أو نازحين •

وبجانب الحضارة البحرية القديمة تدل الآثار على حضارة زراعية قديمة ارتبطت بمناطق الخصب والمياه فى عمان ، وتدل عليها القنوات والسدود التى لا تزال آثارها واضحة للعيان •

وهناك مظاهر حضارية من الفخار ، ومن الأدوات الحجرية ، ومن نظام الرى ، والأسلحة ، تدل على أن عمان كانت جزءا من الحضـــارة التى شملت مع عمان منطقة بلاد فارس وامتدادها إلى أفغانستان وغرب الهند فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وأن الأسكندر المقدونى حينما استولى عـــلى مصر أدرك أن مقامه بها غير آمن مـــا دامت الفرس تسيطر عـــلى المنطقة البحرية بالخليج العربى وامتداده فى المحيط الهندى إلى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، وهذا هو الذى دفعه للزحف على امبراطورية فارس ، وامتدادها فى أفغانستان وغرب الهند (الباكستان حاليا) •

وقد كان غزو الاسكندر لبلاد فارس وسيلة لتخليص منطقة الخليج ومنطقة عمان من الفرس فحصلت هذه المناطق على استقلالها فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد •

ولكن الفرس لم يقبلوا استقلال هذه المناطق عنهم ، فحاولوا من جديد فرض سلطانهم عليها ، بل حاولوا دفع جماعات من الفرس ليعيشوا بها ، ولكن العرب فى هذه المناطق حرصوا على الاستقلال عن سـلطان

الفرس ، ولم يقبلوا أن يعيش فى بلادهم من الفرس إلا من يخضع لسلطانهم كما يعيش العرب على الشاطىء الشرقى تحت سلطان الفرس . وعلى هذا شهدت القرون الميلادية الأولى محاولات من الفرس للزحف ، واصرارا من العرب لرد الزاحفين ، ولم ينته هذا الصراع إلا بمجىء الإسلام الذى استقرت فى ظله عروبة هذه المناطق كما استقر استقلالها عن الفرس إلى حد بعيد (١) .

سكان عمان :

وبمناسبة الحديث عن عروبة عمان يجدر بنا أن نتحدث عن أصل العمانيين ، ويقرر التاريخ أن السواد الأعظم من أهل عمان يرتبط بهجرتين عربيتين كبيرتين ، أولاهما هجرة منذ زمن سحيق من قلب الجزيرة العربية إلى جبال عمان وشواطئها ، وقد وفد هؤلاء المهاجرون بسبب الجفاف فى نجد وما حولها ، بحثا عن أرض خصبة ، أو بحثا عن الماء ولا يعرف بالضبط تاريخ هذه الموجة من المهاجرين ، ويغلب أن يكون هؤلاء قد وفدوا على عدة دفعات ، وينتسب هؤلاء إلى قبائل نزار ، ويعرفون بالنزاريين .

وأما الهجرة الثانية فقد وفدت من جنوب الجزيرة العربية ، أى من مناطق اليمن ، وارتبطت هذه الهجرة بانهيار سد مأرب سنة ١٢٠ ق.م. وقد بدأت هذه الهجرة مع بدء الانهيار فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وظلت تتوالى كلما تعرض السد إلى مزيد من التصدع حتى كمل هذا التصدع فى نهاية القرن السادس الميلادى ، وبهذا تكون الهجرات اليمنية إلى عمان قد استغرقت ثمانية قرون ، ويعرف هؤلاء الوافدون باليمنيين أو القحطانيين ، ويقال ان إحدى موجات اليمنيين كانت بقيادة

---

(١) Arian's History of Alexander's Expedition vol. I p. 108

وانظر الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة للدكتور سيد نوفل ج ١ ص ٤١ — ٤٢ .

نصر بن الأزد ، وأن موجة أخرى يمنية كانت بقيادة مالك بن فهم وهو أيضا من بنى أزد •

ولا يزال سكان عمان حتى الآن ينتسب بعضهم إلى نزار ، وبعضهم إلى أزد ، أو بلغة أخرى يرتبط بعضهم بالشمال وبعضهم بالجنوب ، وهذا الانقسام عانى منه المجتمع العمانى أحقابا طويلة ، وطالما هددت النزعة القبلية الاستقرار والسلام فى المنطقة ، على أن النزعة الوطنية كانت تغلب على النزعة القبلية كلما هدد خطر خارجى أرض عمان ، فحينئذ ينسى هؤلاء وأولئك مشكلاتهم القبلية ، ويتجمعون صفا واحدا للوقوف فى وجه ذلك الخطر ، ولكنهم سرعان ما يعودون للصراع القبلى إذا تغلبوا على الخطر الخارجى ، وقضوا على الاعتداء الذى يهدد وطنهم •

وبالإضافة إلى عرب الشمال وعرب الجنوب الذين يكوّنون العنصر الرئيسى فى عمان توجد هناك جماعات أخرى وفدت على عمان من خارج الجزيرة العربية ، واستقرت بها ، وأصبحت عمانيـــة الجنس ، عربية اللسان ، تدين بالإسلام ، وبعض هؤلاء وفدوا من إفريقية إبان الارتباط الطويل الذى كان يربط زنجبار وساحل إفريقية الشرقى بعمان ، وأكثر هؤلاء يعيشون فى مسقط ومطرح وغيرهما من المدن الساحلية ، وبعضهم وفدوا من شبه القارة الهندية عن طريق الارتباط التجارى الذى ربط شبه القارة الهندية بعمان قرونا طويلة ، وأكثر هؤلاء يعيشون فى مطرح ، وبعضهم وفد من ساحل مكران فى بلوخستان (الباكستان الآن) وأصبحوا الآن جزءا من المجتمع العمانى ، ويعيش أكثرهم فى الظاهرة ، وبعضهم فى المناطق الساحلية •

عمـان الإسلاميـة

فى عهد الرسول :

عندما جاء الإسلام كانت أكثر مناطق عمان تحت حكم أسرة الجُلَنْدى الأزدى ، وقد اشتهر من هذه الأسرة شخص عظيم هو « جيفر » وكان ينزل من قومه منزلة الملوك بين الرعية ، فبعث إليه الرسول عمرو بن العاص بن وائل السهمى فى العام السابع للهجرة بكتاب يدعوه هو وقومه إلى الإسلام فى نفس الوقت الذى كتب فيه الرسول بذلك إلى الملوك والرؤساء فى الجزيرة العربية وخارجها ، وقد أورد أبو عبيد نص كتاب الرسول إلى ملك عمان مع ما أورد من نصوص لكتب الرسول إلى الملوك والرؤساء (١) ، ويذكر الخثعمى السهيلى أن من الملوك من اتبع محمداً صلى الله عليه وسلم كملوك اليمن وملك عمان (٢) ، وقد أسلم مع ملك عمان وجوه العشائر وبقية الناس .

ولم يكتف جيفر بإسلامه ، وإنما أرسل مِنْ قِبَله رسلا تحمل دعوة الإسلام إلى مهرة وغيرها من المناطق المجاورة لعمان ، وقد استجاب أكثر العرب فى هذه المناطق إلى الدعوة الجديدة ، ولكن الفرس الذين كانوا يقيمون بها رفضوا دعوة الإسلام ، فاجتمع الأزد إلى جيفر وقالوا له : لا يجاورنا العجم بعد هذا اليوم ، وأجمعوا على إخراجهم ، فدعا جيفر مرازبة الفرس وقال لهم : إما أن تدخلوا فيما دخل فيه النـاس أو تخرجوا من أرض العرب ، فرفضوا الاستجابة لأى من هذين الاتجاهين مما سبب صراعا شديداً بين الجماعتين ، كان النصر فيه لأهل عمان ، واضطر المرازبة أن يطلبوا الصلح ، وتم الصلح على أن يخرج الفرس من عمان بأنفسهم وذراريهم ، وعقب ذلك خلت عمان من الفرس الذين عادوا إلى بلادهم .

---

(١) الأموال لأبى عبيد ص ٢٠ — ٤٢ .
(٢) انظر الروض الأنف جـ ١ ص ٢٥٠ .

وأقام عمرو بن العاص عاملا على عمان من قبل الرسول فكان يجمع الصدقات ويوزعها ، ويعلم الناس مبادىء الإسلام ، ويقضى بينهم حسب تعاليم الدين الجديد ، وكان زعماء الأزد من بنى الجلندى عونا له فى أداء مهمته ، وقد ظل كذلك حتى جاءت الأنباء بوفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فعاد عمرو إلى المدينة ومعه عبد الله بن الجلندى وبعض بنى أزد ، وألقوا زمام الأمر إلى أبى بكر ليختار من يراه ليكون واليا على البلاد .

ويقرر المفكرون العمانيون أن الإسلام استطاع أن يوحد القوى القبلية فى عمان تحت لوائه ، فقد منحها شخصيتها الدينية كما أمدها بنظام سياسى وتشريعى أقامت عليه دعائم مجتمعها [1] .

عمان فى عهد الخلفاء الراشدين :

يذكر السالمى [2] أن أبا بكر استقبل عمرو بن العاص ووفد عمان بترحاب وتقدير ، وأن أبا بكر قال لهم : إنكم يا معشر أهل عمان أسلمتم طوعا ، فجمع الله على الخير شملكم وبعث الرسول صلوات الله عليه لكم عمرو بن العاص بلا جيش ولا سلاح فأجبتموه إذ دعاكم ، مع بعد داركم ، وأطعتموه إذ أمركم على كثرة عددكم ، فأقام فيكم عمرو مكرما ما أقام ، وكنتم على خير حال حين أتتكم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأظهرتم ما يضاعف فضلكم ، وقمتم مقاما حمدناكم فيه . . . . وأقر أبو بكر جيفر وأخاه عبداً على ملكهما ، وجعل على الصدقات حذيفة بن محصن .

وفى عهد عمر عين على صدقات عمان عثمان بن أبى العاص وهو الذى أغرى عمر أن يعبر الخليج إلى بلاد فارس ، وظل جيفر وأخوه « عبد » يقومان بعملهما إلى أن ماتا فى عهد عثمان ، فتولى السلطان بعدهما عباد

(١) عمان بالألوان (انظر المقدمة) .
(٢) تحفة الأعيان : جـ ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .

بن عباد الجلندى ، وأقره عثمان على ذلك ، وظل على حاله تلك طيلة عهد عثمان وعهد على كرم الله وجهه .

ولنعد إلى عهد أبى بكر الصديق لنذكر أنه حدث بعمان خلاله فتنة يختلف المؤرخون فى سببها ومداها ، ومن المعروف أن حركات الردة وادعاء النبوة ومنع الزكاة ظهرت فى مناطق مختلفة من الجزيرة فى أخريات عهد الرسول ، ونشطت فى عهد أبى بكر الصديق ، ويذكر ابن الأثير [١] أن إحدى هذه الحركات قامت بعمان بزعامة رجل اسمه ذو التاج (لقيط ابن مالك الأزدى) فقد ارتد هذا عن الإسلام ، ودعا الكثيرين إلى رأيه ، واتخذ من الزكاة وسيلة لإثارة الناس ضد مركز السلطة بالمدينة ، وكرر فى هذا المقام التعبير الذى كان شائعا فى هذه المناطق ، والذى قيل لعمرو ابن العاص وهو فى طريقه من عمان إلى المدينة ، ونصه « إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة ، فإن أعفيتموهم من أخذ أموالهم فستستمع لكم وتطيع ، وان أبيتم فلا تجتمع عليكم كلمة العرب [٢] ، وبهذا استجاب الكثيرون من أهل عمان لهذا القائد ، وأرسل أبو بكر أحد جيوشه التى دكت الجزيرة العربية للقضاء على هذه الفتن ، وكان الجيش الذى أرسل إلى عمان بقيادة حذيفة بن محصن من حمير ، وأرسل أبو بكر إلى عكرمة ابن أبى جهل بعد أن اشترك فى القضاء على مسيلمة الكذاب أن يلحق بحذيفة ، ودارت معركة هائلة ، انتصر فيها المسلمون انتصارا عظيما ، وتسمى هذه المعركة موقعة « دبا » وقد انضم للمسلمين فيها بنو ناجية بقيادة الخريب بن راشد ، وبنو عبد القيس بقيادة سيحان بن صوحان .

ولكن المؤرخ العمانى السالمى يهاجم ابن الأثير وروايته ، ويرى أن كلامه باطل لا أصل له ، ويقرر أن سبب هذه الواقعة أن امرأة من بنى الحارث بن مالك بن فهد كان عليها أن تدفع الزكاة لعامل الزكاة ، ولكنها

---

(١) الكامل فى التاريخ : ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) انظر هذا الحديث أيضا فى تاريخ حضرموت لحامد بن صالح العلوى ج ١ ص ١٥٧ .

دفعت أقل مما كان يجب أن تقدمه ، فأخذ عامل الزكاة منهـا حق المسلمين غير مكترث برأيها ، فاعتبرت المرأة هذا غصبا وعدوانا ، وصرخت يا آل مالك ، وكانت دعوة جاهلية استجاب لها بعض النـاس دون تمحيص وصارعهم حذيفة بن محصن الذى كان أمير الصدقات ، وقامت حرب ليست واسعة انتصر فيها الجانب الإسلامى [1] . وعلى هذا لم تكن بعمان حركة منع الزكاة وإنما هى حادثة فردية أزكاها الاتجاه القبلى الذى استجاب لنـداء المرأة .

عمان فى العهد الأموى :

إن الحديث عن عمان فى العصر الأموى يحتاج إلى عودة للوراء لنتحدث عن الصراع الذى دار بين على بن أبى طالب وبين معاوية ، ففى هذه الحرب نشأت فرقة « الخوارج » وقد تحدثنا عنها حديثا طويلا فى الجزء الثانى من موسوعة التاريخ الإسلامى ، وشمل حديثنا عنهم مبادئهم وحركاتهم [2] والمهم أنه فى موقعة النهروان التى حدثت بين الإمام على وبين الخوارج سنة ٣٨ هـ لم ينْجُ من الخوارج إلا عدد قليل لم يتجاوز العشرة ، وأن هؤلاء تفرقوا فى البلاد ، واتجه أكثرهم إلى المناطق النائية ، فذهب اثنان منهم إلى عمان واثنان إلى كرمان ، واثنان إلى سجستان ، واثنان إلى الجزيرة ، وواحد إلى اليمن [3] ، فشهدت عمان نشاط الخوارج الذين وفدوا إليها ، فلما قتل على كرم الله وجهه بعد هذه الموقعة بحوالى سنتين ، وآل أمر الخلافة إلى بنى أمية أعلن الخوارج أن عداءهم الحقيقى هو لمعاوية ، وأصبحت عمان أهم مركز بالجزيرة العربية لهذا العداء ، وتجمع ضد الأمويين السكان الأصليون ، وعدد كبير من الخوارج الوافدين ، ووجد أهل عمان فى ذلك فرصة لإعلان استقلالهم عن الحكم المركزى ، وهذا الاتجاه الاستقلالى واضح فيهم عبر التاريخ ، وساعدهم عليه مكان بلادهم النائى ، وانشغال الخلافة الأموية بكثير من

---

(١) تحفة الأعيان : جـ ١ ص ٥٣ — ٥٤ .

(٢) ص ٢٢٩ — ٢٦٨ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل القسم الأول ص ١٠٧ .

المشكلات ، كما ساعدهم عليه أن المجتمع العمانى مجتمع قبلى ، لا يقبل بسهولة سيطرة الخلافة النائية ، ثم ان طبيعة عمان الجغرافية تجعل الاتصال بها والتغلغل بداخلها أمرا عسيرا ، وعلى هذا فإن أية حركة انفصالية بعمان تجد أمامها فرصة معقولة للنجاح [١] وعلى هذا أصبح أمر عمان — كما يقول السالمى [٢] — بيد أهلها ، ولم يكن لمعاوية ، ولا لمن بعده سلطان فى عمان حتى عهد عبد الملك •

وفى عهد عبد الملك تغيرت الأمور ، فقد أصبح الحجاج صاحب السلطة فى أرض العراق ، ومن هنا تطلع إلى الخليج ، وبالتالى إلى أرض عمان ، ورأى أن سلطانه بالعراق لا يتم إلا إذا امتد سلطانه إلى الخليج العربى وخليج عمان ، ومن هنا قام صراع طويل بين أهل عمان وبين جيوش الحجاج ، وانتصر الحجاج فى نهاية الأمر ، وفرّ زعماء أسرة الجلندى من وجه الحجاج إلى بلاد الزنج « زنجبار » وكانت لعمان صلة سابقة ببلاد الزنج ، فَنَمَتْ هـذه الصلة ووضَعَتْ أساسا لصلة طـالت وامتدت بعد ذلك بين عمان وساحل إفريقيا الشرقى ، واستعمل الحجاج على عمان الخيار بن صبر المجاشعى ، وعندما آل الأمر إلى الوليد بن عبد الملك عين هذا سيف الهمدانى واليا على عمان ، ثم عين سليمانُ ابن عبد الملك على عمان صالحَ بن عبد الرحمن الليثى ، وبعده زياد بن المهلب بن أبى صفرة من أهل عمان •

واتجه عمر بن عبد العزيز وجهته الإسلامية ، فعين واليا صالحا هو عمر بن عبد الله الأنصارى ، فأحسن السيرة بين الناس ، ومن أجل هذا ظل مكرما محبوبا بين أهل عمـان حتى وفاة الخليفة الزاهـد عمر بن عبد العزيز ، وحينئذ تنحّى هذا الوالى عن الولاية ، وأعاد السلطة لزياد بن المهلب قائلا له : هذه البلاد بلاد قومك فشأنك بها • وخرج عمر بن عبد الله من عمان ، وقام بالولاية زياد بن المهلب [٣] •

---

(١) سلطنة عمان ص ٣٣ بتصرف •
(٢) تحفة الأعيان ج ١ ص ٥٧ •
(٣) السالمى : تحفة الأعيان ج ١ ص ٥٩ •

عمان والمذهب الإباضى :

رأينا فيما سبق أن اثنين من زعماء الخوارج أخذا طريقهما إلى عمان عقب موقعة النهروان ، وأن مذهب الخوارج بدأ ينتشر فى هذه البلاد ، وزاد فى تعميق جذوره أن السكان أخذوه وسيلة ليعلنوا به رغبتهم فى استقلالهم عن السلطات المركزية البعيدة التى تجبى الزكاة وتفرض الولاة ، ورأينا كذلك أن الاتجاه الاستقلالى نجح فى خلال عهد الخلفاء الأمويين الأوائل ، فلما جاء عبد الملك بن مروان صارع الخوارج بالعراق ، وكان يقودهم نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة وعبد الله بن إباض ، وانتصر عبد الملك ، فهرب بعض من نجا من الخوارج عبر الخليج العربى إلى عمان ليكونوا بمنأى عن العراق ، ولكن جيوش الحجاج لحقت بهم فى عمان كما ذكرنا من قبل . . .

وعاش الخوارج فى عمان ، وكان أكثرهم من أتباع عبد الله بن إباض ، وكانوا يضمرون ثورتهم حينا ويعلنونها أحيانا ، حتى جاءت الدولة العباسية فاستعاد أهل عمان سلطانهم كاملا منذ مطلع هذه الدولة .

والذى نريد أن نقوله هنا أن تفاعلا دقيقا حدث فى عمان بين الأمانى الوطنية ، وبين المذهب الإباضى ، وكان المذهب الإباضى فى طبيعته أقرب مذاهب الخوارج إلى أهل السنة . وقد قام الإباضيون فى عمان بدور واسع فى الصراع العسكرى ضد النشاط الأموى ، ومن هنا امتزجت الحركة الاستقلالية العمانية بالفكر الإباضى . وانبثق عن هذا الامتزاج فكر جديد هو الذى ساد عمان منذ ذلك التاريخ حتى العهد الحاضر ، ومن هنا حق لأهل عمان أن يكرهوا أن يقال عنهم أنهم خوارج ، ومما جعلهم يكرهون أن يسموا خوارج أنهم لا يريدون أن يرتبطوا بجماعة خرجوا على الإمام على كرم الله وجهه ، ويفضلون أن يرتبطوا بعبد الله ابن إباض الذى خرج على عبد الملك بن مروان ، ثم إنهم من ناحية المذهب لم يشتطوا كما اشتط بعض الخوارج ، بل كانوا معتدلين جدا ،

واعتبروا أنفسهم ورثة للفكر الإسلامى الأصيل الذى جاء به القرآن الكريم وسنة الرسول ، وتبعه الخلفاء الراشدون من بعده . وقد شرح هذا الفكر بإفاضة المؤرخ العمانى أبو محمد عبد الله بن حميد السالمى (١) .

وجاء فى كتاب سلطنة عمان (٢) ما يلى عن الامتزاج بين المذهب الاباضى والدم العمانى : كان المذهب الأباضى هو النبراس الذى أضاء قلوب العمانيين ، ووحّد بينهم فى كفاحهم لنيل استقلالهم ، وكان العمانيون فى هذا الكفاح يستبسلون فى الدفاع عن عقيدتهم وتقاليدهم .

تعاليم الإباضية فى عمان :

من أبرز التعاليم التى يعتنقها إباضية عمان أن لأى مجتمع إسلامى أن يختار إمامه ممن تتوافر فيهم القوة والعلم والعدالة والفضل والورع ، ولا يشترط أن يكون من قريش ولا من العرب ، ومن الممكن أن يعيش الإباضيون بدون إمام فترة من الزمن ، ومن الممكن أن تتعدد الأئمة بتعدد المجتمعات الإسلامية ، وعلى الإمام أن يستشير ذوى الرأى فيما يلم من أحداث ذات بال ، ومن الواضح أن هذه المبادىء كانت عميقة الاتصال بالفكر الاستقلالى الذى اهتم به العمانيون .

ومن المبادىء الإباضية أن الله لا يُرَى بالبصر ، وأن الثواب والعقاب سيان ، والله يغفر الصغائر ، ولكن الكبائر لا تمحى إلا بالتوبة النصوح .

ومن المبادىء الإباضية أن القرآن والحديث هما مصدرا الشريعة الإسلامية ، ويقول الإباضيون بالرأى لا بالقياس ، ويعتبرون أبا بكر وعمر القدوة الطيبة بعد الرسول ، ويرون صحة مناكحة المخالفين من المسلمين والتوارث معهم ، ويرون أن مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد ،

---

(١) تحفة الأعيان جـ ١ ص ٦٠ — ٦٦ .
(٢) ص ٣٤ .

ويقبلون شهادة مخالفيهم ويقولون إن أفعال العباد مخلوقة لله إحداثاً وإبداعا ، ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازا ، ولا يسمون إمامهم أمير المؤمنين (١) ..... وبسبب هذه المبادىء الإباضية السمحة كان مذهب الإباضية هو الوحيد بين مذاهب الخوارج الذى عاش حتى العهد الحاضر .

والإمام عند الإباضية ينتخب عن طريق مجلس صغير من الشيوخ هم « العلماء » ثم عليه أن يتقدم إلى الشعب للحصول على موافقته (٢) وفى هذا الجمع العام يبايع الشعب الإمام ، ويتعهد الإمام بصيانة كيان الجماعة والذود عنه ، ولم يكن التجاء الإمام الشعب لفتة للمجاملة ، بل كان لذلك نتائج مهمة ، فهناك حوادث مسجلة وثابتة رفض فيها الشعب الأشخاص الذين انتخبهم العلماء ، وكان الإمام المنتخب على هذا النحو يسمى « إمام بيعة » وولاء الشعب قابل للاسترداد إذا ظهر أن الإمام دون المستوى اللائق (٣) .

عمان فى العصر العباسى :

لم تطل مدة ارتباط عمان بالخلافة العباسية ، بل كانت مدة قصيرة سرعان ما استقل أهل عمان بعدها بشئونهم ، ويذكر السالمى أنه لما آل الأمر لبنى العباس وولى السفاح أخاه أبا جعفر شئون العراق الجنوبى استعمل هذا على عمان جناح بن عباد بن قيس بن عمر الهنائى ، فقدم إلى عمان عاملا عليها ، وهو صاحب المسجد المعروف بمسجد جناح بصحار ، ثم عزله المنصور وولى ابنه محمد بن جناح ، وكان هذا سمحا

(١) الملل والنحل : الشهرستانى — القسم الأول ص ٧١ و ١١٣ — ١١٤ ، والفرق بين الفرق للبغدادى ، والملل والنحل لابن حزم .

(٢) ذلك هو الاتجاه الاسلامى الذى وضحه كبار المفكرين المسلمين (انظر كتاب الأموال لأبى عبيد ص ٤ ، والخلافة لرشيد رضا ص ١٢ ، والاسلام والحضارة العربية لكرد على ، والسياسة فى التفكير الاسلامى للدكتور أحمد شلبى ص ٤٩ — ٥٤) .

(٣) السالمى : تحفة الأعيان حـ ١ ص ٦٠ — ٦٦ وسلطنة عمان ص ٢٣ .

عاقلا أدرك رغبة العمانيين فى أن يكون واليهم منهم ، وأن يكون لهم حق انتخابه بأنفسهم ، فوافقهم على ذلك ، فعقدوا الإمامة للجلندى بن مسعود بن جيفر بن جلندى ، وبدأت به الإمامة فى عمان سنة ١٣٥ هـ ولكن أبا العباس السفاح أرسل جيشا بقيادة حازم بن خزيمة الخراسانى للقضاء على هذه الحركة الاستقلالية ، وانتصر العباسيون وقتل إمام عمان فى المعركة التى دارت برأس الخيمة ، وسرعان ما مات السفاح وانشغل المنصور بعمه عبد الله بن على ، وتركت عمان بدون وال أو إمام حتى سنة ١٤٥ حيث عادت الإمامة .

وقد حاول العباسيون استعادة السلطة على عمان ، حاول ذلك المنصور والرشيد والمعتضد ، ولكن هذه المحاولات لم تحقق نجاحا على الإطلاق أو لم تحقق نجاحا ذا بال [١] .

---

(١) انظر تحفة الأعيان للسالمى جـ ١ ص ٧٤ و ٨٩ و ٢٠٦ — ٢٠٨ .

عصور الحكم في عمـــان
عبر التاريخ الإسلامي

١ ــ الأئمة الإباضية : ١٣٥ هـ (٧٥٢ م) حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، مع تسلسل حينا ، وانقطاع حينا آخر ، ومع ظهور آل نبهان الذين كوّنوا لهم ملكا عدة قرون ، ومع قيام أسر ملكية قصيرة العمر ، وحدوث تمزق وتشتت في بعض الأحيان ممـــا مهد لاحتلال البرتغاليين لعمان سنة ٩١٤ هـ = ١٥٠٧ م .

وتشمل هذه الفترة ما يسمى « العصور المظلمة » في عمان ، تلك التى بدأت بقتل الإمام عزان بن تميم سنة ٢٨٠ هـ واستمرت حوالى ستة قرون .

٢ ــ عصر الاحتلال البرتغالى : من ٩١٣ = ١٥٠٧ م إلى سنة ١٠٣٤ = ١٦٢٤ م .

٣ ــ الأئمة من بنى يعرب ، ١٠٣٤ ــ ١١٥٤ هـ (٦٢٤ ــ ١٧٤١ م) مبتدئين بالإمام ناصر بن مرشد الذى خلّص البلاد من حكم البرتغاليين ، وفي آخر حكم اليعاربة خضعت البلاد لنفوذ الفرس .

٤ ــ البوسعيديون : ١١٥٤ هـ (١٧٤١ م) حتى العهد الحاضر ، وهؤلاء هم الذين خلصوا البلاد من نفوذ الفرس .

ويلاحظ أن الإمامة فى أكثر العهدين الأخيرين أصبحت بالوراثة ، أو قل أن الحكم أصبح بالوراثة بدل الانتخاب .

وكانت الإمامة بالانتخاب هى القاعدة الاباضية التى سار عليهـــا الحكم فى عمان ، وقد بلغ الأئمة المنتخبون ٣٤ إماما ، أولهم الجلندى ابن مسعود سالف الذكر ، ولكن نظام الإمامة تحول من الانتخاب إلى

نظام الملكيه الموروثة ثلاث مرات ، وذلك فى عهد بنى نبهان واليعاربة والبوسعيديين (١) .

ومع التعرف على عصور الحكم بعمان التى أوردناها آنفا ، فإن المصادر العمانية تبرز أن فترة غامضة طويلة مرت ببلادهم ، وإن عصورا حالكة شملت تاريخ عمان عدة قرون ،وسنقتبس فيما يلى سطورا عن هذا الغموض الذى لفّ البلاد وأخفى أهم معالم تاريخها :

١ — فى الجبل الأخضر توجد طريق غير معبدة تقع عليها بلدتان صغيرتان هما سمد والمضيبى ، وللأولى مكانة تاريخية مهمة ، لأنها كانت مكان معركة جرت فى منتصف شهر أبريل سنة ٨٩٣ م (٢٨٠ هـ) وقتل فيها الإمام عزان بن تميم الخروصى ، وكان ذلك يوما كالحا أسود فى تاريخ عمان ، إذْ كان بمثابة علامة لنهاية حقبة من السلام ، وبداية فترة من الحرب الأهلية أدت إلى الدخول فى « العصور المظلمة » فى تاريخ البـــلاد .

ولسنا نجد اليوم فى التاريخ سجلا لما جرى فى عمان بين القرن العاشر والسادس عشر بعد الميلاد ، فقد ضاع ذلك كله ، وتلك هى الحقبة التى تعرف بالعصر المظلم (٢) .

٢ — بعد أن ازدهرت عمان فى رحاب الإسلام عاد الغموض يخيم على تاريخها فيما بين القرن العاشر والسادس عشر الميلاديين ، ولم تعد عمان للأضواء إلا عندما وصلت الدول الاستعمارية إلى المحيط الهندى باحثة عن طريق تجارى بديل لذلك الذى سيطر عليه العثمانيون باستيلائهم عـلى القسطنطينية سنة ١٤٥٣ (٣) .

٣ — ومن القرن العاشر راحت عمان تغط فى نوم عميق ، حتى جــاء

---

(١) دكتور أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية جـ ١ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .
(٢) سلطنة عمان ص ٢٣ .
(٣) عمان بالألوان (انظر المقدمة) .

التجار البرتغاليون ومن بعدهم الإنجليز والهولنديون والفرنسيين يطرقون أبواب سواحلها ...

ومع هذا الغموض فإننا سنحاول أن نعطى لمحة تاريخية ما وسعتنا السبل عن عصور الحكم فى عمان بما فى ذلك تلك العصور المظلمة .

الأئمة الاباضية

وأول من يواجهنا من حكام عمان عقب الحركة الاستقلالية التى بدأت مع مطلع العصر العباسى الأئمة الاباضية ، وكان هؤلاء ينتخبون بواسطة أهل العلم على أن يوافق الجمهور على الاختيار ، كما ذكرنا من قبل ، ولم يكن هناك توارث ، وكان الإمام يعزل أحيانا ، والأئمة الاباضية الأول هم :

جلندى بن مسعود بن جيفر بن جلندى الأزدى — من ١٣٥ هـ

قتل بعد سنتين تقريبا من حكمه ، وكان مصرعه فى حربه ضد الجيش العباسى .

ومرت عقب ذلك بعمان فترة شغور وفوضى .

محمد بن عفان الأزدى	١٤٥ هـ
الوارث بن كعب اليحمدى	١٨٥ هـ
غسان بن عبد الله	١٩٢ هـ
عبد الملك بن حميد الأزدى	٢٠٨ هـ
مهنا بن جعفر اليحمدى	٢٢٦ هـ
الصلت بن مالك الأزدى	٢٣٧ هـ
راشد بن نصر (أو النظر)	٢٧٣ هـ
عزان بن تميم	٢٧٧ هـ (قبل سنة ٢٨٠ هـ)
محمد بن الحسن	٢٨٤ هـ
عزان بن خضر	٢٨٥ هـ
عبد الله بن محمد	٢٨٦ هـ
الصلت بن القاسم	٢٨٧ هـ

محمد بن الحسن (للمرة الثانية) ٢٨٧ هـ

الحسن بن سعد (١) ٢٨٧ هـ

ونقف عند هذا الإمام دون أن نتبع سياسة زامباور الذى راح يسرد بعد ذلك عدداً من الأئمة دون أن يحدد تاريخاً لتعيين أكثرهم ، أو يذكر نهاية حكمهم أو مداه بسبب الدخول فى عصر الظلام الذى أشرنا له من قبل ، والذى لم تعد تتبين فيه الحقائق .

وسنعود للحديث عن هذا العصر المظلم فيما بعد ، ولكن ينبغى قبل ذلك أن نقف هنا وقفة نتحدث فيها عن أهم الأحداث التى تتصل بقائمة الأئمة الذين أوردنا ذكرهم آنفاً .

وأول ما نذكره متصلا بعهد هؤلاء الأئمة أن اختيار الإمام لم يكن يتم بالاجماع ، إذ كانت هناك وجهات نظر متعددة ، وهذا كان يفتح الباب من حين لآخر لخلاف قد يتسع مداه ، ويكثر أن يتصدى الإمام المنتخب لمن كانوا يعارضون انتخابه ، أو أن يظل هؤلاء المعارضون على موقفهم دون أن يلتفوا حول الإمام بعد انتخابه ، ومن هنا جاز لنا أن نقول إن الإمام لم يكن إماما للجميع كما تقضى بذلك تقاليد العصر الحاضر التى تجعل الرئيس رئيسا للكل ، من انتخبه ومن انتخب خصمه ، ويورد السالمى صورا من الصراع الذى حصل بين إمام منتخب وبين من عارضوا انتخابه ، كما يورد صوراً من الثورات التى كانت تشتعل لو سقط الإمام فى صراعه مع معارضيه (٢) .

ثم إن كثيرين من الأئمة لم يكونوا محمودى السيرة ، وينسب المؤرخون لهؤلاء صفات غير طيبة ، فيقولون مثلا عن محمد بن عفان إنه أساء

(١) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ج ١ ص ١٩١ .

(٢) تحفة الاعيان ج ١ ص ٨١ ، وانظر كذلك ص ٨٣ .

السيرة ، وبدّل وغير فعزله المسلمون حين لم يرضوا سيرته ولا مذهبه ، ويقولون عن عزان بن تميم إنه لم تحمد سيرته ، وإن التنازع قد كثر بين أهل الديار فى عهده حتى انفض النـــاس عنه ، واختلفوا حول صحـــة إمامته ، وكانوا يقولون عنه إن عقدته مشكلة (١) .

وحدثت أحداث خطيرة فى عهد الصلت بن مالك ، ففى سنة ٢٥١ هـ نزل أمر عجيب فى بدبد والباطنة وسمائل وصحار ، إذ حل بهم دوى وظلمة ، ثم انسكبت الأمطار ، واقتحمتهم السيول فهدمت المنازل وغرقت المزارع وأصبح القوم فى ليلة واحدة أصواتهم خامدة ومنازلهم هامدة (٢) .

ويذكر المؤرخون عن راشد بن النظر أن عهده كان حافلا بالظلم ، فيعرف عنه أنه حبس الكثيرين من مخالفيه ، وأنزل بهم الضر وهم فى سجونه ، وكان كلما سمع عن جماعة يخالفونه فى الرأى أوقع بهم ، وقد عرف عهده ما نعرفه الآن بالسحل (٣) .

وعلى هذا يمكننا أن نقول إن الأحداث التى جرت فى عهد هؤلاء الأئمة ، والخراب والدمار الذى عرفته البلاد فى عهدهم ، كل هذا كان من الأسباب التى مهدت للاضطراب والفوضى فى العهد التالى .

العصور المظلمة

بدأت العصور المظلمة فى عمـــان من نهاية القرن الهجرى الثـــالث وامتدت إلى القرن العاشر (أى من القرن العاشر الميلادى إلى القرن السادس عشر) وتلك الفترة تعد محورا جديرا بأن ندير حوله دراسة دقيقة توضح لنا أسباب الظلام الحالك الذى أحاط بها ، ومداه ، ونتائجه ، لعلنا بذلك نملأ فراغا تركه كثير من المؤرخين الذين كانوا يتخطون هذه

---

(١) تحفة الاعيان : ص ٨٤ ، ١٩٤ .
(٢) المرجع السابق : ص ١٢٥ .
(٣) المرجع السابق : ص ١٧٤ .

القرون باعتبار أنها عصور مظلمة لا يعرف تاريخها ، وفيما يلى دراسة عن أحداث هذه العصور التى قادت إلى الظلام ، وقضت على صوت عمان وحضارته حينا طويلا من الزمان .

أولا : لعل من أهم أسباب العصور المظلمة ، تلك الفترة السابقة التى تحدثنا عنها ، والتى خلفت دمارا أحدثته الطبيعة أو أحدثته الخلافات التى طال مداها بعمان خلال أكثر عهود الأئمة ، ومن الواضح أن الصراع العسكرى يترك أثره على الاقتصاد ، لأن الاقتصاد لا يستطيع أن يعيش إلا فى جو من الأمن والطمأنينة ، وإذا اضطرب الاقتصاد توقفت الزراعة وانكمشت التجارة أو اختفت ، فإن الفوضى يتسع مداها ، والاضطراب يتعمق أثره ، وعلى هذا فقد كان طبيعيا أن يبدأ عصر مظلم بعد عصور الاضطراب التى أسلفنا الحديث عنها .

ثانيا : شهدت العقود الأخيرة فى القرن الثالث صراعا مريرا بين المجموعتين الكبيرتين اللتين تكونان المجتمع العمانى ، وهما النزارية واليمنية ، وقد وصل هذا الصراع قمته فى موقعة « القاع » التى حدثت فى شوال سنة ٢٧٨ هـ وانهزمت فيها النزارية هزيمة لم ير أقبح منها كما يقول السالمى (١) وأسر منهم خلق كثير وقتل منهم فى المعركة ستمائة رجل بعضهم من القادة العظماء ، وقتل من اليمنية خمس وثمانون ، وقد فتحت هذه المعركة الباب لصراع طويل سنشير له فيما بعد .

ثالثا : شهدت منطقة جنوب العراق ومنطقة الخليج صراعا فكريا مريرا طوال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وقد بدأ ذلك بثورة الزنج (٢٥٤ — ٢٧٠ هـ) وما إن انتهت هذه الثورة بعد جهد كبير وتضحيات واسعة حتى هبت ثورة القرامطة فى نفس المنطقة ، وصاح أبو سعيد الجنابى (توفى سنة ٢٨٦ هـ) صيحته المدمرة التى استلزمت جهدا كبيرا من العباسيين لإيقاف نشاطها ، وقد اهتم الخليفة العباسى المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) بمواجهته ، فاختار العباس الغنوى أحد قادته الأشداء ،

---

(١) تحفة الاعيان ص ٢٠٢ .

وأمره بحرب القرامطة فى البحر ..... والمهم هنا أن نشـــاط الزنج والقرامطة قد امتدّ من البحرين إلى عمان ، فأحدث فى عمان مزيدا من الغموض والاضطراب .

رابعا : قام المعتضد العباسى بحركة مهمة من حركات العباســيين لاسترداد سلطانهم على عمان ، وقد ارتبطت حركة المعتضد بالصراع الداخلى الذى حدث فى عمان بين النزارية واليمنية ، فإن النزارية عقب هزيمتهم فى موقعة (القاع) توجه بعض زعمائهم إلى الخليج وقابلوا محمد بن بور عامل المعتضد ، وطلبوا منه الزحف على عمـــان ووعدوه بالتأييد ، وقد استأذن محمد بن بور الخليفة فى ذلك فأذن له ، فسار فى جيش كبير سنة ٢٨٠ وحارب عزان بن تميم وقتله ، وهزم جنده ، ثـــم هب أهل عمان ضده فى معركة شرسة كان له النصر فى نهايتها ، فأوقع بأهل عمان وأذلّهم [١] .

خامسا — كان من عمال المعتضد على عمان محمد بن القاسم السلمى ، وقد استطاع هذا أن يكوّن له دولة فى عمان توارثها أبناؤه من بعده ، ومـــن ملوكهم أحمد بن الخليل (٣٠٠ هـ) وعبـــد الخـــاتم بن ابراهيم (٣١٦ هـ) [٢] .

سادسا : قامت فى بعض مناطق عمان أسرة حاكمة أخرى هى أسرة (بنى وجيه) وقد قويت شـــوكتها حتى تطلع ملوكها إلى السيطرة عـــلى البصرة ضد البريدى ، ولكن هذه المحاولة قد فشلت [٣] وملوك بنى وجيه هم كما جاء فى رواية زامباور [٤] :

يوسف بن وجيه	حتى سنة ٣٣٢
نافع (غـــلام يوسف)	٣٣٣

---

(١) انظر السالمى جـ ١ ص ٢٠٩ .
(٢) زامباور : معجم الانساب — جـ ١ ص ١٩٤ .
(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ١٣٠ (حوادث سنة ٣٣١) .
(٤) زامباور : المرجع السابق ص ١٩٣ .

سابعا : فى سنة ٣٦٣ هـ حدثت بعمان أحداث مؤلمة يرويها ابن الأثير [١] بقوله : فى هذه السنة استولى المطهر بن محمد وزير عضد الدولة على عمان ، وكان يتولى أمرها عمر بن نبهان الطائى ، ولكن الزنج غلبت على البلد ، وقتلوا ابن نبهان ، فأرسل عضد الدولة جيشا كبيرا قتل ودمر ، واستطاع أن يستعيد النفوذ على البلاد بعد سيل من الدماء ، ودمار فى البيوت والمزارع ، وكان أهل عمان يتبعون إماما من أئمة الإباضية كان يقودهم فى هذه المعارك .

ثامنا : وفى وسط هذا الصراع عرفت عمان سلطتين متعارضتين ، فكثيرا ما وجد بعمان سلطان أو ملك فى منطقة ، وإمام فى منطقة أخرى ، ويتحدث السالمى عن يوسف بن وجيه الذى كان قد ملك ناحية من عمان ، وكان معاصرا للإمام سعيد بن عبد الله [٢] ، وعن محمد بن مالك الذى كان ملكا بعمان فى عهد الإمام بن أبى المعالى [٣] ، ويتحدث السالمى عن صراع مستمر بين الأئمة والملوك .

ملوك آل نبهان

ظهر ملوك آل نبهان ولاة للبويهيين فى عمان فى القرن الهجرى الرابع كما ذكرنا من قبل ، وساءت حالة عمان من جراء الأحداث التى ذكرناها آنفا ، واكتملت الفوضى والخراب من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فاستبد آل نبهان بالنفوذ فى أكثر ربوع عمان ، ولكنه فى الحق كان نفوذا على الدمار والخراب ، فقد استبد بنو نبهان بما تبقى فى البلاد من خيرة وتركوا الأهالى للضياع ، ويقول السالمى [٤] ان الملك انتقل إلى آل نبهان وذلك لما أراد الله إنفاذ أمره فى أهل عمان لأنهم افترقوا فرقتين ، وصاروا

(١) الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٢١٣ – ٢١٤ .
(٢) تحفة الاعيان جـ ١ ص ٢٣١ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٧٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٨٦ .

طائفتين ، فنزع الله دولتهم من أيديهم ، وسلط عليهم قوما من أنفسهم يسومونهم سوء العذاب ، وكانت دولتهم مبنية على الاستبداد بالأمر ، وقهر الناس ، ولم نجد لدولتهم تاريخا ولا لملوكهم ذكرا ....

وعلى هذا فإننا نريد أن نقرر أن بنى نبهان ليسوا وحدهم المسئولين عن عصر الظلام كما يظن أكثر من كتبوا عن تاريخ عمان ، وإنما المسئول هو العوامل المتعددة التى ذكرناها فيما سبق ، فعصر الظلام هو نتيجة طبيعية للخلافات فى عهد الأئمـــة الأول ، وللصراع الداخلى ، ولوجود الزنج والقرامطة ، ولهجمات العباسيين ، ولولاتهم الذين كثيرا ما استقلوا بعمان لبعدهم عن مركز الخلافة ، وكان من النتائج الطبيعية لذلك أن خربت البلاد وشملها ظلام دامس .

وأهم ملوك بنى نبهان هم أبو عبد الله محمد بن عمر بن نبهان واخوته والحســين أحمد ، وأبو محمد نبهـــان ، وأبو عمر معمر ، ثم أبو القاسم على بن عمر بن محمد بن عمر بن نبهان ، وأبو الحسن ذهل ابن عمر .... وقد ذكر زامباور (١) ملوكا آخرين مثل الفلاح بن المحسن النبهانى ، وعرار بن الفلاح ، والمظفر بن سليمان ، ومخزوم بن الفلاح .

وقد ظلت حركة بنى نبهان حتى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) حيث عاد معظم النشاط إلى الأئمة من جديد .

الأئمة خلال عهد آل نبهان وبعدهم

لم تنقطع محاولات انتخابات الأئمة بعمان بعد الحسن بن سعيد (٢٨٧) فحتى فى أحلك العصور خلال حكم آل نبهان ظهر بعض الأئمة الاباضية ، ولكن سلسلتهم لم تكن منتظمة ، ولم تكن تواريخهم محددة ، وأحيانا تعدد الأئمة فى وقت واحد ، وأحيانا خلت البلاد من وجود الأئمة

---

(١) معجم الانســاب ج ١ ص ١٩٤ ، وانظــر كذلك تاريخ الدول الاسلامية لأحمد السعيد ج ١ ص ٢٣١ .

تماما ، وفى بعض الأحيان ظهرت فترات يقظة ووحدة لبعض الأئمة ، ومن الأئمة الجديرين بالذكر بعد الحسن بن سعيد نذكر :

الحوارى بن مطرف ٢٩٣ هـ
عمر بن محمد بن مطرف ٣٠٠ هـ
سعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب ٣٢٠ هـ
راشد بن الوليد ٣٢٨ هـ
الخليل بن شاذان بن الصلت بن مالك ٤٠٠ هـ
حفص بن راشـــد ٤٤٥ هـ
راشد بن على ٤٤٥ هـ
موسى بن موسى ٥٤٩ هـ

ومن الواضح أن هناك فترات خلت من الأئمة فى عهد بنى نبهان ، ولكن عندما زالت دولة آل نبهان بدأ الأئمة يظهرون من جديد ، فى سلسلة متصلة تقريبا ، وقد أوردها زامباور كالآتى :

أبو الحسن عبد الله بن خامس بن عامر الأزدى ٨٣٩ هـ
عمر بن الخطاب بن محمد بن أحمد بن شاذان بن الصلت اليحمدى
٨٥٥ هـ
عمر الشريف ٨٩٦ هـ
أحمد بن محمد ٨٩٧ هـ
أبو الحسن بن عبد السلام ٩٠٥ هـ
محمد بن اسماعيل ٩٠٦ هـ
بركات بن محمد بن اسماعيل ٩٣٦ هـ
عبد الله بن الهنائى ٩٦٧ هـ
٩٦٨ (١) هـ

(١) معجم الانساب ج ١ ص ١٩٤ .

وكما ان الأئمة اقتحموا على بنى نبهان حياتهم ولم يسمحوا لهم بالتفرد بالسلطة ، فإن بنى نبهان اقتحموا على الأئمة الذين ظهروا بعد بنى نبهان حياتهم ، وأرادوا سلب السلطة منهم ، فقد خرج سليمان بن سليمان النبهانى على عمر بن الخطاب ، وحاربه سنة ٨٨٥ ، وتم النصر للإمام بعد جهد جهيد ، وفى سنة ٩٦٤ ظهر ملوك بنى نبهان المتأخرون فى نزوى وأصبح لهم جاه وسلطان •

وقد نشأ عن هذا الصراع تمزق شمل البلاد وقطع أوصالها ، فقبل قيام اليعاربة كان بعمان خمسة من صغار الملوك يحكمون فى الرستاق والنخل وسمائل وسمد وأبرا كما كانت بعض الحصون والمدن فى قبضة عدد من رؤساء القبائل بالإضافة إلى الاستعمار الخارجى الذى بدأ يجثم على البلاد ، وسنتحدث عنه بعد قليل •

بقى أن نقول عن بنى نبهان كلمة تصور مظالمهم وقسوتهم على الرعية ، ويَسِمهم السالمى بالجبابرة دائما ، ويصف خردلة بن سماعة أحد ملوك بنى نبهان بقوله : إنه كان يأخذ أموال رعيته ظلما ، ويأكل أموال المساجد والمدارس والمقابر ، ويأخذ نصف مهر المرأة من العاجل إذا تزوجت ، وإذا طلقت خاصم للآجل ، وكان يأخذ نصف الحب والتمر ، ويكلف الناس العنت ، ويأخذ نصف حق المدعى ، ويختم السالمى كلامه عنه بقوله : لقد ابتليت به البلاد لتغير أهل عمان فى الله (١) •

ويقول المؤلف العمانى سالم بن الرزيق عن بنى نبهان : لم يكن بين حكم بنى نبهان إمام أو ملك واحد يرضى عنه الرحمن الرحيم ، بل كان الأمر على العكس ، فكلهم ظالم طاغية ، مما أدى إلى سقوطهم ، فلما شاء تعالى أن ينزل رحمته على أهل عمان مما أصابهم ، ولما شاء أن يضمد جراحهم ويشملهم بعدله ورعايته ، أرسل عليهم شعاعا من نوره خلصهم ، وبدد عنهم سحب الظلم والطغيان •

---

(١) تحفة الاعيان ص ٢٨٨ — ٢٨١ •

عمان هدف لعدوان خارجى

أسفرت هذه الفوضى ، وهذا التمزق بعمان عن استهانة الأعداء بها ، فأصبحت هدفا لعدوانين من الخارج ، وكان أولهما من بلاد فارس سنة ٦٧٤ هـ فى عهد الملك عمر بن نبهان ، فقد هاجم أهل شيراز عمان وكانوا عددا من الفرسان الأشداء واستطاعوا أن يحتلوا نزوى وأن يسلبوا أموال الناس ، وحاصروا بهلى ولكنهم لم يستطيعوا فتحها فارتدوا على أعقابهم بعد احتلال دام أربعة شهور .

أما الاحتلال الثانى فكان احتلالا أوربيا قامت به البرتغال فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى ، ففى القرن الخامس عشر استطاع الرحالة البرتغاليون ، أن يجدوا طريقا إلى الهند بالدوران حول إفريقية وبدون المرور فى البحر المتوسط والبحر الأحمر كما ذكرنا من قبل ، ويعرف الطريق الجديد بطريق رأس الرجاء الصالح ، وقد اشترك عدد من البحارة البرتغاليين فى المحاولة التى أدت لهذا الكشف ، وكان النجاح النهائى على يد فسكودى جاما الذى بدأ رحلته سنة ١٤٩٦ (١) .

وبفتح هذا الطريق بدأ الاستعمار الأوربى للشرق فى العصر الحديث ، وتحولت تجارة الشرق من الطرق البرية — البحرية إلى هذا الطريق البحرى المتصل .

وبفتح هذا الطريق اتصل البرتغاليون بالهند وبالشرق الأقصى ، وأخذوا يبنون لأنفسهم ملكا واسعا على يد مستعمرين معروفين ، وقواد ذوى خطر من أمثال (كيرو) (البوكرك) (Alfonso de Albuquerque) وأصبح المحيط الهندى والهادى تحت سلطانهم وكانت تلك البحار مقصورة على ملاحى المسلمين من عرب وفرس (٢) .

---

(١) انظر موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية المؤلف ج ٥ ص ٢١٣ .

(٢) حسين مؤنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ص ٤٣ .

وحاول البرتغاليون أن يقيموا مراكز للتموين والحراسة على طول الطريق ، فاتجهوا بوجه خاص إلى عمان التى كانت مركزا تجاريامهما ، وكانت فى الوقت نفسه تصلح لحماية الخط البرتغالى إلى أبعد حد ، ومن هنا اتجه البرتغاليون إلى عمان ، فاحتلوا صور وقريات ثم مسقط وصحار سنة ١٥٠٧ ، وكان البوكرك هو قائد الجيش البرتغالى الـذى أسقط مدينة مسقط ، وسرعان ما اتجه هذا القائد إلى تدمير سفن مسقط ومبانيها (١) • واتجه المستعمر لإقامة القواعد والقلاع هنا وهناك ليدعم مركزه ويقوى سيطرته على تلك المنطقة الاستراتيجية ذات الموقع الملاحى الممتاز (٢) •

واستولى البرتغاليون كذلك على بعض الموانى بشرقى إفريقية لتكون محطات لسفنهم فى الذهاب إلى الهند والعودة منها •

وحاول البرتغاليون الاستيلاء على الطريق البحرية البرية القديمة لتصبح جميع المنافذ التجارية فى أيديهم ، فاستولوا على خليج عمـان وعلى جزيرة هرمز مدخل الخليج العربى سنة ١٥٠٧ ، ودمروا مدينة عدن وعقدوا محالفة مع الأحباش ضد مصر ، وكان من أساليبهم لضرب مصر أن يحاولوا تحويل مجرى النيل ، وعلى كل فقد كان صراعا صليبيا مريرا قادته آنذاك البرتغال ضد عدد من المواقع الإسلامية (٣) •

ولنعد للطريق الملاحى الجديد لنقرر أن المماليك لم يستطيعوا أن يتغلبوا على البرتغاليين وأن يعيـدوا الأوربيين إلى الطريق التقليدى القديم ، ولا استطاع ذلك السلطان سليم بعد فتح مصر (٤) • وكانت

---

(١) محمد صبيح : مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية ص ٤٦٧ •
(٢) Stephan and Handy Ronart : Arabic Civilization p. 396.
(٣) شكيب أرسلان : حاضر العالم الاسلامى ج ٤ •
(٤) انظر تفاصيل ذلك فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ للمؤلف ص ٢١٣ — ٢١٦ •

المشكلة بالنسبة لعمان مزدوجـة ، فلم تتوقف عند ضرب الاقتصاد بل امتدت إلى احتلال الأرض ، ومن هنا اتجهت عمان لمصارعة الاستعمار الذى جثم على البلاد ، وكما يقولون إن المشكلة إذا استعصت على قوم خلقت القيادة الرشيدة ، وسنتحدث فيما يلى عن القيادة التى صارعت البرتغاليين وطردتهم من عمان ، وأعادت عمان إلى الاستقلال والضوء :

بنو يعرب (اليعاربة)

١٠٣٤ — ١١٥١ هـ = ١٦٢٤ — ١٧٣٨ م

قبيلة اليعاربة :

تنحدر قبيلة اليعاربة من أصل أزدى ، فهى قبيلة غافرية شمالية ، وكانت هذه القبيلة قبل ظهور الزعيم ناصر بن مرشد قبيلة عادية بين قبائل عمان ، فلما سقطت البلاد ضحية التفكك والانقسام فى الداخل ، والهجوم الاستعمارى من الخارج ، ظهر ذلك الرجل العملاق الذى دفع قبيلته إلى القمة ، وقاد بلاده إلى السلامة ، وكأنما كانت البلاد تنتظر ظهور القائد لتلتف حوله لينقذها مما ألمّ بها من ضيم ، فلما ظهر ناصر ابن مرشد سرعان ما بدا فيه امتيازه ومواهبه وإخلاصه للمهمة الكبرى التى كانت تنتظره ، وكان فى « الرستاق » حيث ظهر ناصر عالم تقى صالح اسمه الشيخ خميس بن سعيد ، وكان هذا الشيخ مسموع الكلمة ، فلما اجتمعت الحلبة لاختيار الإمام ، قاد هذا الشيخ المناقشات والمشاورات ، فأجمع الكل على اختيار ناصر بن مرشد اليعربى إماما لعمان ، فبويع بالإمامة فى الرستاق سنة ١٦٢٤ م وبه بدأت إمامة بنى يعرب ، والأئمة اليعاربة هم :

ناصر بن مرشد بن سلطان بن مالك	١٠٣٤ = ١٦٢٤
سلطان بن سيف بن مالك	١٠٥٩ = ١٦٤٩
بلعرب بن سلطان بن سيف	١٠٩١ = ١٦٨٠

سيف بن سلطان بن سيف	١١٠٤ = ١٦٩٢
سلطان بن سيف بن سلطان	١١٢٣ = ١٧١١
سيف بن سلطان بن سيف بن سلطان	١١٣١ = ١٧١٨
مهنا بن سلطان بن سيف	١١٣١ = ١٧١٨
يعرب بن بلعرب	١١٣٤ = ١٧٢١
سيف بن سلطان (للمرة الثانية)	١١٣٥ = ١٧٢٢
محمد بن ناصر بن غافر	١١٣٧ = ١٧٢٤
سيف بن سلطان (للمرة الثالثة)	١١٤٠ = ١٧٢٧
سلطان بن مرشد	١١٥١ = ١٧٣٨
	الى سنة ١١٥٤ = ١٧٤١ (١)

ويلاحظ على هذه القائمة أنها حصرت السلطة فى أسرة اليعاربة مع أن الفكر الإباضى لا يرى التوارث فى السلطة ، ولكن يلاحظ أن الأئمة الأوائل من اليعاربة كانوا قمما قيادية ، وكانت البلاد محتاجة لهم لطرد المستعمر ، وإعادة الوحدة ، فكانت بيعتهم الواحد بعد الآخر طبيعية . ثم أصبح التوارث عادة بعد ذلك فى هذه الأسرة ، وفى أسرة البوسعيدين ، مما جعل هذا النظام شديد الشبه بالملك والسلطان ، ولهذا حاولت الإمامة أن تقوم من جديد مستقلة عن « السلطان » ولكن هذه المحاولة كانت قصيرة العمر كما سنرى فيما بعد .

وسنتكلم فيما يلى كلمة عن أشهر الأئمة اليعاربة .

الإمام ناصر بن مرشد

كانت بيعة الإمام ناصر بن مرشد عودة للفكر الإباضى المتأصل فى عمان ، والذى غلب أمدا بين طيات الأحداث ، وقد وجد ناصر أن أمامه مشكلات كبرى ليعيد البلاد إلى الوحدة ، حتى يستطيع أن يواجه الغزاة

(١) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة جـ١ ص ١٩٤ — ١٩٥ .

الأوربيين • ومن أبرز هذه المشكلات الملوك الصغار الذين كان كل منهم يحكم فى منطقة من مناطق عمان ، ومن أبرزهم خمسة كانوا يحكمون فى الرستاق والنخل وسمايل وسمد وأبرا ، كما كانت بعض الحصون والمدن فى قبضة عدد من رؤساء القبائل ، أما البرتغاليون فكانوا يحتلون مسقط وغيرها من المناطق الساحلية كما ذكرنا من قبل ، كما كانوا يحتلون جزيرة هرمز حتى سنة ١٧٢٢ م ، وكانوا كذلك يمدون نفوذهم على ساحل إفريقية الشرقى الذى تربطه بعمان روابط عميقة منذ زمن بعيد ، إذ يروى التاريخ أن حكام عمان الذين فروا مـن الزحف الأموى اتخذوا مـن الشرق الإفريقى موطنا لهم ، وكان ذلك أساسا لصلات القربى بين هذين الموقعين •

وخطا ناصر خطوته الأولى نحو توحيد البلاد تحت قيادة واحـدة والقضاء على حكم المناطق ، فاستجابت له البلاد ، والتفت تحت لوائه ، وتجمعت عمان تحت قيادة واحدة بعد فرقة امتدت أكثر من سبعة قرون ، واتجه ناصر عقب ذلك لمصارعة البرتغاليين الذين عاثوا بالبلاد ظلما ، ونهبوا خيراتها أكثر من مائة عام •

ولقد كان ناصر بن مرشد بطلا عظيما بلا شك ، ولكن كانت هنـاك ظروف مهمة ساعدته على تحقيق أمله ، وأيدت خطواته ، ومن هـذه الظروف أن البرتغال سقطت تحت سلطان أسبانيا فيما بين سنتى ١٥٨٠ و ١٦٤٠ وقد أيدت أسبانيا الاستعمار البرتغالى فى الشرق ، ولكن حماسة البرتغاليين تحت الحكم الأسبانى ضـعفت ، واهتزت يدها ، مما هيأ للحركات التحررية فى المناطق المستعمرة أن تنجح •

ومن هذه الظروف كذلك أن الاستعمار البرتغالى لم يبق وحده دون منافس فى مناطق الشرق ، ولم يبق الطريق الجديد وقفا على مكتشفيه ، فسرعان ما ظهرت عناصر استعمارية أخرى نافست البرتغال ، وهى هولندا وبريطانيا ، فإن هولندا بعد أن تخلصت من حكم أسبانيا سنة ١٥٨٨ شجعها هذا الانتصار على خوض المجالات السياسية والاقتصادية الشائكة ،

فوجهت نشاطها التجارى نحو الشرق ، وأسست الشركة الهندية — الهولندية فى عام ١٦٠٢ ٠

واتجهت بريطانيا بحماس تجاه الشرق كذلك فأسست شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، وقام صراع طويل بين هذه الدول الاستعمارية بعضها مع بعض فى مناطق الشرق كان نتيجته إضعاف جبهه البرتغال [١] ٠

جزيرة هرمز وأثرها فى إضعاف البرتغال :

ومن الظروف التى أضعفت البرتغال ضياع جزيرة هرمز من يد البرتغاليين ، مما نقل زمام القوة فى هذه المنطقة من البرتغاليين إلى أيدى أعدائهم ، وجزيرة هرمز تحتاج إلى مزيد من الإيضاح والدراسة يتحتم أن نقوم به ، فقد كانت هذه الجزيرة تتخذ من موقعها فى مدخل الخليج مركزا خطيرا لها ، وهى بذلك تحتل موقعا استراتيجيا مهما للغاية ٠

هل كانت هرمز تابعة للفرس وجزءا من بلاد فارس ؟ ٠

يتجه الكتاب الإيرانيون المعاصرون إلى الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب [٢] ولعل الاتجاه القومى والوضع المعاصر الآن هما من الأسباب التى دفعت المؤرخين الفرس لهذا الرأى ، ويتابعهم فى هذا

Stephan and Handy Ponart

الذى يقول إن البوكرك عقد مع الشاه إسماعيل امبراطور فارس معاهدة لتصبح له مكانة خاصة فى جزيرة هرمز التى كانت تابعة للفرس [٣] ٠

وهناك نظرة تاريخية أخرى [٤] ترى أن هرمز لم تكن دولة عربية أو فارسية ؛ بل كانت دولة إسلامية تضم مختلف الجنسيات الإسلامية

---

(١) لوريمر : دليل الخليج جـ ١ ص ١٦ (الترجمة العربية) ٠
(٢) آدميات : البحرين ص ١٤ ٠
(٣) Encyelopaedia of Arabic Civilizstion p. 190.
(٤) دكتور صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٥ ، ١٠ ٠

التى تسكن دول الخليج من عرب وفرس وهنود وغيرهم ، ولم تتخذ طابعا قوميا ، وإنما كان طابعها محليا ، ونشاطها تجاريا ، فقد حققت كثيرا من الثراء لسكانها ، واستلزم وضعها أن تبسط سلطانها السياسى على أجزاء مترامية من شواطىء الخليج وجزره ، فشملت بعض سواحل عمان وجزر البحرين وجزءا كبيرا من الساحل الشرقى ، ويستدل هذا الرأى على أن هذه الدولة لم تكن جزءا من الفرس بأن الدولة الصفوية الفارسية لم تساعد هرمز عندما احتلها البرتغاليون ، وتركتها مدى طويلا تحت نير الاحتلال .

وعلى كل حال فقد تعاون الإنجليز والفرس ضد البرتغاليين ، وقدمت عمان للقوى المناضلة للبرتغال عونا كبيرا أسفر عن تحرر هرمز سنة ١٦٢٢ وأصبحت هذه الجزيرة تابعة للفرس .

ومن الظروف التى ساعدت ناصر فى نضاله ضد البرتغاليين الاتجاه الدينى ، فقد ظهر التعصب الصليبى فى تصرفات البرتغاليين ، وهذا دفع المسلمين للتجمع والحماسة فيما يمكن أن نسميه « الجهاد » ضد هذا الزحف الصليبى .

ومن هذه الظروف كذلك سوء معاملة البرتغاليين لكل المناطق التى نزلوا بها ، فقد اتسمت أساليبهم فى الحكم بالاستبداد والجور .

وقد انتهز ناصر هذه الظروف فأعلن — بعد توحيده البلاد — الحرب لاستقلال بلاده ، ولما كانت أجزاء كبيرة من عمان تابعة لهرمز وبالتالى للبرتغاليين ، فإن هزيمة البرتغاليين فى هرمز دفعت الإمام ناصر أن يعلن استقلال هذه الأجزاء ، وأن يطرد البرتغاليين منها ، ومن أهمها « صحار » وخاض ناصر حربا ضد الفرس الذين حاولوا أن يرثوا البرتغاليين فى سيطرتهم على البلاد فنجح فى تخليص جلفار « رأس الخيمة » منهم (١) .

---

(١) Badger : History of the Imams and Sayyids of Oman : The Introduction.

واتجه ناصر بعد ذلك لمواجهة البرتغاليين فى مراكزهم الرئيسية بعمان أى فى مسقط ومطرح ، وقد حاصرهم ناصر حصارا طويلا ، ولكن الحامية البرتغالية التى كانت متصلة بالبحر استطاعت أن تصمد لهذا الحصار ، فاضطر الإمام أن يعقد صلحا يحقق له بعض الأهداف ، فعقد صلحا التزم فيه البرتغاليون بدفع الجزية لعمان ، وألا يعترضوا نشاطهم التجارى ، وأن يكفوا عن الاتيان بأية حركة عدائية ضد عرب عمان ، وأن يهدموا التحصينات التى أقاموها فى سمد وقريات [1] .

وقد كسر هذا الصلح قوة البرتغاليين وأذلهم ، وترك ناصر لخليفته وابن عمه أن يجهز على هؤلاء الأعداء كما سنرى .

سلطان بن سيف

بويع سلطان بن سيف سلطانا على عمان عقب وفاة البطل ناصر ، وكان سلطان عونا لابن عمه فى أثناء حكمه ، ومن هنا كانت بيعته دفعة لاستمرار النضال الذى بدأه ناصر ، ومن الواضح أن البيعة لسلطان استمرار للفكر الإباضى الذى لا يمنع اختيار إمامين أو أكثر من أسرة واحدة ما دام ذلك هو رأى أهل الحل والعقد ، وكان سلطان جديرا بالثقة التى ارتبطت به .

واستمرارا للجهود التى بدأها ناصر استطاع سلطان أن يستعيد من البرتغاليين كل ما كان قد تبقى بأيديهم من عمان ، فطردهم سنة ١٦٥٨ من مسقط ومطرح .

ولم يكتف سلطان بذلك بل راح يتتبعهم فى المراكز الأخرى التى أنشئوها فى شرقى أفريقية أو فى الهند ، ففى أفريقية استطاع تخليص جزيرتى بمبا وزنجبار ، ثم اتجه لحصار ممبسة بناء على استغاثة أهلها .

(١) السالمى : تحفة الاعيان جـ ٢ ص ١١ .

وتلقى سلطان بن سيف رسالة سرية من أهل الصومال يشرحون فيهـا ما يعانونه من استعمار البرتغاليين المسيحيين ، فأرسل لهم جيشا كبيرا يقوده بطل اسمه الأمير سالم الصارمى ، وقد حقق هذا الجيش كثيرا من الانتصارات ضد البرتغاليين ، وطردهم من الصومال ، ولم يكن لسلطان عمان مطامع فى الصومال فغادرتها جيوشه عقب النصر بعد أن أسلمت الزمام للأهالى ، وهناك مخطوطة صومالية تصور النصر الذى أحرزه القائد العمانى كما تصور فرح الصوماليين بالاستقلال (١) .

وفى الهند وصل أسطول سلطان إلى ساحل كوجرات بالهند واجتاحت عساكره (ديو) و (دامان) وقفلت بغنائم وافرة .

وكان سلطان بالإضافة إلى قدراته العسكرية رجل تعمير ، فقد وجه همته إلى ترويج التجارة وعمارة الأسواق ، كما كان حسن السيرة فى الرعية ، واتجه كذلك إلى تجديد القلاع والحصون وجلب الأسلحة حتى يحافظ على استقلال البلاد ومكانتها (٢) .

سيف بن سلطان

رأينا سلطان بن سيف يقضى نهائيا على الوجود البرتغالى فى عمان ، ويحقق نصرا ضد البرتغال فى المراكز التى أقاموها فى الهند وفى شرقى إفريقية ، وكانت عمان قوة واحدة خلال هذا الصراع فلما صفا الجو ، وتحقق النصر دب الخلاف وأطلت الأطماع ؛ ولذلك ما ان توفى سلطان ابن سيف حتى تطلع ابناه بلعرب وسيف إلى السلطة ، وكان بلعرب أكبر سنا فأخذ مكانة أبيه باسم السبق فى السن ، ولم يكن ذلك وحده كافيا ، ومن هنا ثار عليه أخوه سيف ، وقام صراع داخلى طويل حسمه موت بلعرب فخلا الجو لسيف بن سلطان .

---

(١) اقرأ بعض ما جاء فيها فى الجزء السادس من هذه الموسوعة ص ٦٥٧ .

(٢) سعيد باوزير : معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ١٦٩ .

وهذه الحادثة تكررت فى التاريخ العربى فى مختلف العصور فـإن العرب تجتمع كلمتهم عند الشدائد ، فإذا حققوا نصرا بسبب وحدتهم أسرعوا إلى الفرقة والخلاف ، وكان جديرا بهم أن يجنوا ثمار تعاونهم فى تعاطف وابتهاج ، ولم ينل الأعداء من العرب أكثر مما نالوا هم من أنفسهم .

جهود سيف الموفقة :

وكان سيف من أبرز القادة والأئمة فى تاريخ اليعاربة وقد وجه عنايته للقضاء على البرتغاليين فى شرقى أفريقية ، فاستعاد الجزر التى كـان البرتغاليون قد استردوها إبـان فترة الخـلاف الداخلى ، وخطا خطوته الحاسمة حينما استولى سنة ١٦٩٨ على ممبسة التى كانت تعد عاصـمة المستعمرات البرتغالية بشرقى أفريقية ، والتى عز الاستيلاء عليها على من سبقه ، وقد استلزم الاستيلاء عليها حصارا دام ثلاثة وثلاثين شهرا بسبب حصنها المنيع ، ولكن قوة العمانيين كانت أعظم من مناعته ، وقد وضع سقوط ممبسة نهاية لتفوق البرتغاليين فى شرقى افريقية (١) وكان أساسا لانهيار آمالهم فى تلك المناطق .

واهتم سيف بالأسطول اهتماما كبيرا ، فقد كان الأسطول أهم وسائل الدفاع عن البلاد ، وأهم وسائل الهجوم على أعدائها ، وقد بلغ عـدد سفن الأسطول ثمانية وعشرين سـفينة كبيرة ، يحمل بعضـها ثمانين مدفعا (٢) مما يدل على تقدم عمان فى فن الملاحة ، وعلى القدرة فى تسليح السفن ، وهو فن كان آنذاك جديدا .

وقد استطاع سيف بهذا الأسطول أن يحتل بعض الجزر القريبة من بومباى بالهند ، وأن يطرد البرتغاليين منها ، ومن بعض المدن التى كانت تحت سيطرتهم .

---

(١) Caupland : East Africa and its invaders pp. 67-77

(٢) السالمى : تحفة الاعيان جـ ٢ ص ٨٩ .

وكان سيف كأبيه محبا للعمران يصفه الأستاذ سعيد باوزر [١] بأنه كان بصيرا بالإصلاح : شديد الاهتمام بمرافق البلاد ومصالحها ، ابتكر حفر القنوات تحت الأرض ليجلب الماء من الأعماق ، مما سبب تطور الزراعة ، واعتنى بغرس النخيل حتى أصبح محصولا يدر على الأهالى كثيرا من الثراء •

سلطان بن سيف (الثانى)

تولى سلطان بعد أبيه ويعتبر آخر الأئمة العظماء ، وقد استطاع أن ينزع البحرين من أيدى الفرس الذين كانوا قد استولوا عليها سنة ١٦٢٢ عند طرد البرتغاليين من هرمز •

بعد سلطان

لم يعمر سلطان بن سيف (الثانى) طويلا ، وتفشت بعده الخلافات ، وكثر الطامعون فى الحكم من أفراد الأسرة ومن خارجها وظهر الصراع القبلى بين العدنانيين والقحطانيين ، وازداد هذا الصراع حدة عندما طُعِّم بالنزاع الطائفى فأصبح النزاريون من أتباع المذهب السنى ، واعتنق اليمنيون المذهب الإباضى ، وكان ذلك يمثل زيتا جديدا يضاف ليشتد اللهب •

وسقط كثير من القادة والجند فى المعارك ، وأعمى الدم والحقد العيون والقلوب ، فلجأ أحد المتنافسين (سيف بن سلطان بن سيف) سنة ١٧٣٧ إلى نادر شاه ملك الفرس يطلب عونه ، وكان هذا شديد الطموح ، فاستجاب لهذا النداء ، وزحف بجيوشه إلى عمان ، ولكن سرعان ما اتضح أن ملك الفرس يعمل لحسابه لا لحساب الذى استنجد به ؛ ولذلك ندم سيف على تصرفه ، وعقد صلحا مع منافسه ، واستعاد العمانيون أكثر بلادهم من الفرس ، ولكن منافسا جديدا اسمه (سلطان

---

(١) معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ١٧٠ .

ابن مرشد) ظهر فى الجو ونجح فى الاستيلاء على أكثر عمان . فعاد سيف يطلب عون الفرس مرة أخرى ، واستجاب الفرس كذلك .. ولكن سيف الذى تولى الإمامة ثلاث مرات لم يعمر بعد ذلك ، ومات تاركا البلاد غارقة فى بحار من الدم والخلافات ، وتاركا الفرس يحتلون بعض المناطق ومنها مسقط أعظم ميناء بعمان ، وقد هيأ ذلك الجو لتظهر أسرة مالكة جديدة تعمل لاستعادة الاستقلال والأمن للبلاد ، وستكون هذه الأسرة موضع حديثنا بعد قليل .

من مآثر اليعاربة

أنشأ اليعاربة جيشا جرارا ضم حوالى ٩٠,٠٠٠ مقاتل ، وأسطولا ضخما بلغ غاية مجده فى عهد سيف بن سلطان كما أشرنا من قبل ، وشيدوا القلاع والحصون فى كثير من المناطق الاستراتيجية ، واهتموا اهتماما بالغا ببناء البلاد وتعميرها بعد ما أحدثه البرتغاليون بها من إهمال ، وبعد التدمير الذى أصاب البلاد فى فترات الصراع ضد هذا العدو ، واهتم اليعاربة بالزراعة فأحيوا البرارى والقفار وغرسوا عشرات الألوف من الأشجار المثمرة ، وشقوا الأفلاج (مجارى المياه) وحققوا منجزات معمارية رائعة فى الفن الهندسى فى نزوى وجبرين ، وبسطوا أيدى العمل فى كل ناحية ، وأقاموا فى قصر جبرين مدرسة فتحت أبوابها لطلاب العلم من عمان ومن سواها من الأقطار ، وأشاعوا مناخات من الاستقرار والأمن أسهمت فى إشاعة الرخاء والتقدم والازدهار فى جميع مرافق الحياة (١) .

---

(١) سالم بن حمود بن شاميس : العنوان فى تاريخ عمان (مقتطفات) .

آل بو سعيد

١١٥٤ هـ = ١٧٤١ م حتى الآن

قبيلة آل بو سعيد :

قبيلة آل بو سعيد قبيلة هناوية جنوبية هاجرت من اليمن إلى عمان منذ عهد بعيد ، وكان اهتمامها محصورا فى التجارة ، ولم يكن لها شأن سياسى ينبىء عن أنها ستصبح من أكثر القبائل شهرة فى مجال السياسة ، سواء فى الجزيرة العربية أو فى العالم الخارجى بوجه عام [١] •

المستشار أحمد بن سعيد :

شهدت السنوات الأخيرة من حكم اليعاربة اضطرابا واسع المدى فى عمان كما ذكرنا من قبل ، وقد شمل هذا الاضطراب صورا من التفكك الداخلى وصورا من تدخل الفرس العسكرى فى شئون البلاد ، وقد كانت الأمور حول سيف بن سلطان الذى تولى الإمامة ثلاث مرات حافلة بالأكدار والدسائس من الداخل والخارج ، فأحس بحاجته إلى مستشار يلجأ لرأيه إذا اشتد الأمر ، فذكر له أحمد بن سعيد ، وقد كان شخصية لامعة له حول واسع فى شئون التجارة والاقتصاد ، وهو فرع من قبيلة عادية ، فعينه مستشارا له ، وعهد إليه بإدارة ميناء صحار ذى الأهمية الكبرى ، وبدأ أحمد بن سعيد بذلك خطواته نحو المجد •

وسار أحمد فى إدارة الميناء بيقظة بالغة وحزم قوى ، وكانت البلاد من حوله تموج بالفتن ، وتئن تحت ثقل الاحتلال الفارسى ، وتجاهد الخلاص منه ، وفى نفس الوقت برز شخص جديد ادعى الإمامة ، وحاول أن ينزعها من سيف بن سلطان ، ذلك هو سلطان بن مرشد ،

---

(١) عمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى : من مطبوعات شركة الزيت العربية الامريكية ص ١٧٤ •

وقد حقق هذا ألوانا من النجاح دفعت خصمه سيف بن سلطان أن يفاوض الفرس لمساعدته على أن يترك لهم صحار ، واستجاب الفرس كعادتهم لهذه الدعوة وأرسلوا جيشا كبيرا غزا البلاد ، واستولى على أكثر مناطقها وظهر أنهم لا يعملون لحساب سيف وإنما لحسابهم هم كما ذكرنا آنفا ، وفى هذه الأثناء مات المتنازعان ، مات سيف حزينا كاسف البال ، ومات سلطان بن مرشد نتيجة جراح ألمت به فى صراعه ضد الفرس ، ولم يبق إلا شخص واحد ، كان اسمه يلمع دون أن تمسه المثالب ، ذلك هو أحمد ابن سعيد حاكم صحار مستشار السلطان الراحل .

أحمد بن سعيد يتزعم عمان :

فى هذه الفترة نشط أحمد ليدافع عن بلاده ، وليعيد لها الوحـــدة والاستقلال ، وقد استطاع أن يحقق خطوات ثابتة فى هذا المجال ، فقد سار من صحار التى حافظ على استقلالها حتى حاصر مسقط ، وهنا لعب الذكاء دوره أو لعبت الحظوظ دورها ، فإن مستشارى شاه إيران كانوا قد نصحوه ألا يستمر فى الصراع مع العمانيين ، وأن يسلم مسقط إلى رجل من اليعاربة متعاون مع الفرس اسمه ماجد ، وهو بذلك يضمن استمرار الصراع الداخلى بين الطامعين فى الحكم ، وبالتالى يجنى لنفسه ثمارا طيبة بدون جهد كبير ، واستجاب الشاه لهذه النصيحة وأصدر أمره إلى الحامية الفارسية بمسقط أن تسلم المدينة إلى ماجد بن سلطان ، بيد أن هذا الأمر وقع بطريق المصادفة فى يد أحمد بن سعيد الذى أرسل مندوبيه إلى الحامية الفارسية متظاهرين أنهم يمثلون ماجد بن سلطان ، وتسلموا منهم المدينة بناء على ذلك ، ولم يدع أحمد بن سعيد سفن الفرس تبحر إلى الموانى الفارسية ، بل تصدى لها وأغرقها واستسلم له أكثر من كانوا بها .

ويروى كذلك أنه دبر وليمة دعا إليها الإيرانيين وفى أثناء الوليمة دفع بعض رجاله فهاجموا الإيرانيين وذبحوهم ، وانتهى بذلك أمر الفرس ببلاد عمان [1] وأصبح أحمد بن سعيد سيد الأمر كله بالبلاد ، وسارع أحمد فعقد

(١) سعيد باوزير : معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ١٧١ – ١٧٢ .

اجتماعا من الرؤساء وشيوخ القبائل لاختيار إمـام للبلاد ، وكان مـن الطبيعى أن اقترح اسمه ؛ لأنه الذى خلص البلاد من استبداد الفرس ، وبايعه الحاضرون بالإمامة (١) .

وسنرى أن لقب الإمامة لم يطل بقاؤه فى بيته ، وأن أكثر قادة هذه الأسرة قنعوا بلقب « السيد » ويعيد بعض المفكرين ذلك إلى أن البيعة التى تمت لأحمد بن سعيد لم تكن على النمط الذى تعوده الإباضيون ، ومن الذين يرون هذا الرأى السالمى فى كتابه « تحفة الأعيان » الـذى يقول : إن عقد البيعة لأحمد جاء بعد فتنة ، وتغلب على الأمر ، ولـم تتوافر فيه الشروط المطلوبة لإمامة إباضية صحيحة (٢) .

ولكنا نرى رأيا يخالف السالمى لأن اليعاربة بويعوا فى ظروف مماثلة ، ولم يعترض السالمى على البيعة لإمامهم الأول ، ثم إن السالمى مشكوك فى رأيه هنا ، لأنه لم يكن له ولاء لهذه الأسرة ، وقد اشترك فى إعلان إمامة الخروصى كما سنرى فيما بعد ، فكان رأيه ضـد إمامة أحمد بن سـعيد متأثرا بميول شخصية .

وسلاطين أسرة آل بو سعيد بعمان هم :

أحمد بن سـعيد	١١٥٤ = ١٧٤١
سعيد بن أحمد	١١٨٨ = ١٧٧٤
حامد بن سعيد	١١٩٣ = ١٧٧٩
سلطان بن أحمد	١٢٠٦ = ١٧٩٢
سالم بن سلطان وسعيد بن سلطان	١٢١٩ = ١٨٠٤
ثوينى بن سعيد	١٢٧٣ = ١٨٥٦

---

(١) J. B. Kelly : Easter Arabian Frantiers p. 53.

(٢) تحفة الأعيان جـ ٢ ص ١٦٣ .

سالم بن ثوينى	١٢٨٣ = ١٨٦٦
عزان بن قيس	١٢٨٥ = ١٨٦٨
تركى بن سعيد	١٢٨٧ = ١٨٧٠
فيصل بن تركى	١٣٠٥ = ١٨٨٧
تيمور بن فيصل	١٣٣٢ = ١٩١٣
سعيد بن تيمور	١٣٥١ = ١٩٣٢
قابوس بن سعيد	١٣٩٠ = ١٩٧٠

وقد أشرنا من قبل إلى الجهود الكبيرة التى بذلها أحمد بن سعيد لينتظم شأن عمان ، وليؤسس أسرة مالكة جديدة فى تلك البقاع ، وقد استحق أحمد بجهده أن يصبح إماما لعمان ، وأن تجتمع حوله الرايات .

بيد أن هذه البلاد كانت كما ذكرنا من قبل تجتمع كلمتها عندما تعصف بها الشدائد ، فإذا هب عليها ريح الرخاء عادت للتمزق والفرقة . وكانت فكرة الإمامة والاختيار لها ، من الأسباب التى تثير الخلاف ، فلم يكن القوم يحترمون رأى الأغلبية فى ذلك الوقت ، وطبيعى أنه من الصعب أن يجمع كل السكان فى أوقات السلم على رجل واحد ، ومن هنا كانت قضية الانتخاب تخلق دائما الفرصة لتعدد الولاة ، والذى يقرأ تاريخ آل بو سعيد تزعجه هذه الخلافات التى لم تهدأ على الإطلاق إلا عندما أصبحت السلطة بالوراثة فى أخريات الدولة ابتداء من عهد تركى بن سعيد ، ومن هنا يحق لنا أن نقول : إن النظام الانتخابى يحتاج إلى احترام رأى الأغلبية ، وهذا يحتاج إلى عقلية متطورة لم تعرفها البلاد خلال حكم آل بو سعيد ، ولا حكم من سبقوهم ، فقد رأينا أن كل جماعة كانت تعين إماما أو ملكا ، ومن هنا كانت البلاد تحكمها الانقسامات والخلافات العميقة ، وسنرسم فيما يلى شجرة الأسرة البو سعيدية ، ونبين عليها أبرز الحركات الثورية والانفصالية التى ظهرت بعمان ، والتى وجدت بين الابن وأبيه ، والاخ وأخيه ، ولنا بعد ذلك تعليق أوسع مدى على أبرز الأحداث التى وقعت خلال هذه الأسرة :

١ ــ احمد بن سعيد (مؤسس الأسرة)

١١٥٤ ــ ١١٨٨ | ١٧٤١ ــ ١٧٧٤م

٢ ــ سعيد بن أحمد
ثائر على أبيه
اتخذ الرستاق عاصمة له
وقنع بالامامة بها حتى مات
سنة ١٧٧٩

٣ ــ حامد بن سعيد
ثائر على أبيه سعيد ، احتل
مسقط ثم مات قبل أبيه

٤ ــ سلطان بن أحمد
ــ ثائر آخر على أبيه أحمد
ــ اتخذ مسقط عاصمة له بعد وفاة حامد
ــ استبد ابناه سالم وسعيد بالسلطة فى حياته
ــ قتل قبل وفاة أخيه سعيد
ــ وبعد وفاته ووفاة أخيه سعيد آل الأمر لابنــه :

٥ ــ سعيد بن سلطان

٦ ــ ثوينى فى عمان

ماجد
فى شطر الدولة
بافريقيا

٧ ــ سالم : اتهم بالتآمر ضد أبيه وقتله

٨ ــ عزان بن قيس : اختير اماما ، ثم زحف وأخذ السلطة من السلاطين

٩ ــ تركى بن سعيد : ثار على سالم بن توينى
هزم وأبعد للهند ثم عاد فى عهد عزان وطرده ، واستولى على السلطة

١٠ ــ فيصل : هو الذى وقع معاهدة الحماية مع انجلترا سنة ١٨٩١ ٠

١١ ــ تيمور : تنازل عن السلطة لخلافاته مع الانجليز الذين زاد تدخلهم فى الشئون ولم يساعدوه ضد الحركات الانفصالية بالبلاد ٠

١٢ ــ سعيد : عهده عهد جمود وتخلف ــ عزله ابنــه قابوس من السـلطة واحتل مكانه

١٣ ــ قابوس : هذا السلطان نافذة خير لبلاد عمان ــ عهد استقرار وتطور ٠

الانقسامات والتفكك :

أشرنا فى شجرة الأسرة التى أوردناها آنفا إلى ألوان من الانقسامات والتفكك التى انتابت هذه الأسرة ، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة ، فقد بدأت هذه الانقسامات فى عهد أحمد نفسه ، فإن ثورات اليعاربة ظلت شـوكة فى ظهره حتى اضـطر أن يترك لهم بعض جوانب النفوذ ، وأن يدع تحت سيطرتهم قلعتين هما قلعتا نخل والحزم ، كما ظل أفراد من أسرة اليعاربة ينعمون بسلطات محلية اقطاعية ، وكان لهم فى ممتلكاتهم بالجبل الأخضر سيطرة ونفوذ (١) .

وبجانب الثورات التى هبت فى وجه أحمد من خارج أسرته هنـاك ثورات هبت ضده من أولاده ، ومن أهمها ثورة ابنيه سعيد وسلطان اللذين تمردا على أبيهما ، ولم يقنعا بما أعده لهما أبوهما من سطوة وسيادة .

ويبدو أن ثورة سعيد وسلطان ضد أبيهما كانت فاتحة صراع طويل من هذا اللون ، وكانت نموذجا اتبعه كثير من أفراد هذه الأسرة ، فعندما تولى سعيد بن أحمد السلطة بعد أبيه ثار عليه ابنه حامد ، واتخذ مسقط عاصمة له ، وعجز أبوه عن إخضاعه ، ولم يرجع الأمر لأبيه فى عاصمته بالرستاق إلا بعد موت حامد نفسه ، على أن موت حامد أبـرز شخصية أخرى فى مدينة مسقط ، تلك هى شخصية سلطان بن أحمد الذى ثار على أبيه من قبل ، ثم ثار على أخيه سعيد بعد موت ابن أخيه حامد ، واستولى على مسقط ، وظل « سلطان » صاحب السلطة فى مسقط من سنة ١٧٩١ حتى قتل فى نوفمبر سنة ١٨٠٤ عندما كان عائدا من البصرة بواسـطة البحر ، ومات بعده الإمام سعيد ، وبعد مناوشات آل الأمر إلى ابنه سعيد ابن سلطان سنة ١٨٠٦ الذى اتخذ زنجبار عاصمة له من سنة ١٨٣٢ والذى تخلى إلى حد كبير عن المناطق الداخلية بسلطنة عمان مقتنعا بالساحل .

(١) Bodger History of jmams and Sayids of Oman p. XLVII.

وبعد وفاة سعيد بن سلطان سنة ١٨٥٦ انقسمت الدولة قسمين بين ولديه ماجد وثويني ، واستقر ماجد فى زنجبار ، واستقل ثويني بعمان ، على أن يدفع ماجد جزية لأخيه ولكنه سرعان ما قطع هذه الجزية .

وثار تركى بن سعيد على أخيه ثويني ولكنه هزم فى هذه الثورة وأبعد إلى الهند ، وثار كذلك سالم بن ثويني على أبيه ، واتهم بقتله ، وتردد الناس فى البيعة له مع وجود هذا الاتهام ، ولكن الانجليز أيدوه ذاكرين أن التهمة لم تثبت عليه .

وقفز شخص طموح آخر من الأسرة اسمه عزان بن قيس ليغتصب الملك من سالم بن ثويني ، فاغتصب مسقط من سالم الذى فر من وجهه ، فعاد تركى من منفاه بالهند وأخذ السلطة من عزان .

فصل ساحل الصلح عن عمان :

وبسبب هذا التفكك وتلك الانقسامات فصل ساحل عمان (ساحل الصلح) عن عمان ، وقسم هذا الساحل إلى سبع إمارات حسب الحكام والقبائل بكل قسم ، وقد كان هذا الساحل جزءا من عمان كما ذكرنا من قبل ، وكان اليعاربة يعينون عليه حاكما من قبلهم ، فلما زالت دولة اليعاربة أعلن رحمة بن مطر الاستقلال ، واتخذ رأس الخيمة قاعدة له واعترف له بالاستقلال أحمد بن سعيد مؤسس دولة آل بو سعيد (١) وسنعطى مزيدا من التفاصيل عن هذا الموضوع عند الكلام عن دولة الإمارات .

وهكذا نجد أن أسرة البوسعيديين عاشت فى صراع مستمر ، وكان العقوق من أبرز مظاهرها ، ولم تعرف الأسرة الاستقرار نوعا ما إلا فى

---

(١) دكتور سيد نوفل : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى ج ٢ ص ٦٣ .

السنين الأخيرة بالقرن التاسع عشر ، ربما بعد أن أصبح الأمر للانجليز ، فلم يعد هناك أمل فى نجاح ثورة ضدهم ، أو ضد من ينال تأييدهم من السلاطين وقد أصبح التوارث منهج القـوم فى الحكم ، ولكن السـلطة الحقيقية أفلتت من أيدى الحكام المتأخرين ، وصارت إلى أيدى الانجليز ، ولم يستعد السلطة حقيقة إلا السلطان الحالى قابوس بن سعيد .

ألقـاب الحكام :

قلنا فيما سبق إن الأصل فى السلطة بعمان أن تكون بالانتخاب تبعا للمذهب الإباضى ، وقلنا كذلك إن نتـائج الانتخاب لم تكن بالاجمـاع بطبيعة الحال ، وهذا خلق عدداً من الأئمة فى وقت واحد كما خلق ملوكا ورؤساء عشائر فى أماكن مختلفة دون حاجة لانتخاب .

ولكن يتضح ابتداءً من أسرة آل بوسعيد شىء جديد أصبح بمثابة قاعدة ثابتة ، فقد كان الإمام يعيش فى الرستاق ، واتخذت الثورات من مسقط مكانا مفضلا لها ، ولم يطمع حاكم مسقط فى لقب الإمامة ، وفى نفس الوقت قنعت الإمامة بالمقاطعات الداخلية فى عمان ، وبالمظاهر الدينية التى ترتبط بالأئمة ، وتركت السلطة لحاكم مسقط الذى كان يباشر الأمور السياسية وأكثر شئون الحكم ، ومما زاد ذلك تأكيدا إن الإباضية كانوا قليلى العدد بالساحل ، وفى نفس الوقت كان سكان مسقط خليطا من الأجناس لا ينضوى أكثرهم تحت المذهب الإباضى ، إذ أن الكثيرين منهم وفدوا من بغداد أو البصرة أو الكردستان أو أفغانستان وسواحل مكران ، وافريقية وغيرها ممن كانوا يرتبطون بالتجارة أو يعملون فى المال .

وقد قلنا من قبل إن إمامة أحمد بن سعيد لم تتوافر فيها الشروط التى يراها أكثر المؤرخين والإباضيين ، فالرجل مع بطولته وجهاده لـم تكن إمامته موضع اتفاق ، ثم إن الاتجـاه للثورات قلل من الاعتراف بهؤلاء الحكام كأئمة . ونشأ عن ذلك حقد وانفصال بين الإباضية فى الجبل الأخضر ونزوى وبهلا وازكى والرستاق وغيرها من مناطق الداخل ، وبين سلاطين

مسقط الذين كان يراهم الإباضيون بعيدين عن نهجهم ، ومن أجل هذا كله قنع سلاطين آل بوسعيد بلقب السيد ، وطرحوا لقب الإمامة ، وكان للقب « السيد » مكانة سامية فى تلك المناطق فرأوا فيه ما يرضى اتجاهاتهم دون حاجة إلى الإمامة التى تستلزم البيعة ولا ترضى بالوراثة ، ثم اتخذ الحكام أخيرا لقب « سلطان » .

وأصبح الاتجاه لترك لقب الإمامة ضرورة لازمة عندما اتصل السلاطين بالقوى الخارجية الأوربية واستعانوا بها ضد الأحداث التى صادفتهم ، فاتسعت الهوة بين الإباضية الذين استنكروا هذه الصلات ، وبين سلاطين آل بوسعيد .

وعلى هذا اختفت الإمامة أمدا طويلا يقرب من قرن ونصف قرن وكانت خلال هذه المدة تظهر أحيانا باهتة لا غناء فيها ، وفى سنة ١٩١٣ بدأت حركة قوية لبعث الإمامة ، فاجتمع زعماء الإباضية ومعهم الشيخ نور الدين السالمى واختاروا راشد بن سالم الخروصى إماما لعمان ، وأيد هذا الاختيار زعماء الغافرية والهناوية جميعا ، مما قوى مركز الإمام الجديد ، وأعلن زعماء الإباضية خلع السلطان فيصل بن تركى ، واعتبار وجوده فى الحكم غير شرعى ، وتطلع الإمام إلى توسيع حكمه وإلى الزحف إلى الساحل لاستكمال السلطة على عمان كلها ، ولكن هذا الإمام قتل فى سنة ١٩٢٠ قبل أن يتم الزحف وبويع محمد بن عبد الله الخليلى إماما ، وتدخل الانجليز لوقف أى محاولة زحف يقوم بها أتباع الإمام للساحل .

اتفاق السيب :

عُقد « اتفاق السيب » فى سبتمبر سنة ١٩٢٠ بين تيمور بن فيصل وبين ممثلى الإمام ، وخلاصة هذا الاتفاق تخفيف الضريبة التى يحصل عليها السلطان فى الموانى عند تصدير السلع العمانية ، وأن ترفع جميع القيود عن العمانيين الذين يمرّون بمدن الساحل ، وأن يتمتع أهل عمان بالأمن والحرية بالمدن الساحلية ، ولا يتدخل السلطان فى الشئون الداخلية للمناطق

الداخلية ، وفى مقابل ذلك تتعهد القبائل بعدم مهاجمة مدن الساحل ، وإباحة الحرية لسكان الساحل فى أن يباشروا التجارة الداخلية وأن يكون الشرع هو الحكم عندما يوجد خلاف بين تجار الساحل وبين أهل الداخل .

ويختلف المفكرون فى قيمة اتفاق السيب ، فيرى البعض أنه يفيد اعتراف السلطان بوجود دولة مستقلة فى عمان ، ويرى آخرون أنه عمل تنظيمى بين السلطان وبين بعض القبائل التابعة له .

وقد ظل محمد بن عبد الله الخليلى يشغل إمامة عمان فترة طويلة حتى سنة ١٩٥٤ ، وحاول فى منصبه أن يبرز عمان فى شكل الدولة المستقلة ، فطالب الانضمام لجامعة الدول العربية ، وأصدر جوازات سفر ، ولكن ذلك لم يبرز عمان كدولة مستقلة ، ولم تقبل جامعة الدول العربية طلبه .

وعقب وفاة الإمام الخليلى سنة ١٩٥٤ اختير غالب بن على إماما لعمان فى نفس العام (سنة ١٩٥٤) ، وفى عهده تفجر الخلاف بين الإمام والسلطان لأن الحكومة البريطانية احتلت واحات البريمى باسم السلطان وبدأ الأمل فى انتاج متدفق من البترول من هذه الواحة ، وطالب الإمام بجزء من عائد البترول ، وكل هذا هيأ لنهاية حاسمة وضرورية للموضوع ، فزحف جيش السلطان سعيد بن تيمور بقيادته وبمعونة قوات إنجليزية قوية ، وهاجم نزوى وحاصرها مدة ثلاثة أيام ثم احتلها سنة ١٩٥٥ وألغى الإمامة ، وهرب غالب بن على إلى السعودية ، وذكر أن هذا اعتداء إنجليزى على الإمامة أخذ ثوب الشرعية ، بوضع القوات تحت قيادة السلطان سعيد بن تيمور ومن أجل هذه النظرة اندفع الإمام غالب وشقيقه طالب لإشعال ثورة جديدة ضد السلطان وكان ذلك فى يوليو سنة ١٩٥٧ واستطاعا أن يدخلا نزوى وأن يرفعا علم الإمام على مدن الجبل الأخضر ومقاطعاته ، ولكن السلطان سعيد قاد جيشا قويا اقتلع به هذه الثورة من أصولها وأعاد سيطرته على الجبل الأخضر فى يناير سنة ١٩٥٩ .

وقد اتجه بعض الباحثين آنذاك إلى مهاجمة السلطان سعيد واعتباره يبطش بيد بريطانيا ، وكان الإمام غالب يحظى لذلك بالعطف والتأييد من هؤلاء ، ولكن الزمن مر ، وأثبتت الأحداث أن التجمع خير من الفرقة وأن فى تلك البقاع دولة واحدة هى عمان ، وأن مسقط عاصمة لها ، ولهذا أصدر السلطان الحالى قابوس بن سعيد قرارا بألا تسمى البلاد سلطنة مسقط وعمان كما اتبع فى عهد سلفه ، وأن تسقط هذه الازدواجية ، وأن تسمى البلاد سلطنة عمان فقط ، وتصبح مسقط عاصمة لها ، وكان هذا التصرف توحيدا لبلاد كانت على وشك أن يثبت تقسيمها ، والاتجاه للوحدة هو اتجاه المخلصين فى الوطن العربى والوطن الإسلامى .

عمان والقوى الأوربية :

تعرضت عمان بحكم موقعها إلى محاولات من بريطانيا وفرنسا لتضمها هذه أو تلك إلى مناطق نفوذها ، وقد كانت بريطانيا أكثر حرصا وأكثر حاجة إلى عمان بسبب مكانة عمان فى طريق المواصلات البريطانية إلى الهند ، ولما بدأ نابليون مغامراته فى الشرق ودخل مصر سنة ١٧٩٨ أسرع بالتطلع إلى عمان ، وكتب رسالة إلى سلطان مسقط يخطب وده ، ومن هنا زاد اهتمام بريطانيا بعمان ، واستطاعت أن تعقد معها أول معاهدة ، وكان ذلك فى عهد سلطان بن أحمد وكانت المعاهدة بين السلطان وبين شركة الهند الشرقية البريطانية ، وتم توقيعها فى أكتوبر سنة ١٧٩٨ وتعد هذه المعاهدة أول معاهدة عقدتها بريطانيا مع الأمراء العرب ، وأول تدخل إنجليزى فى شئون عمان ، وخلاصة هذه المعاهدة تقوية روح المودة بين عمان وبريطانيا ! ! ! والقضاء على النفوذ الفرنسى والهولندى بالبلاد ، وفى سنة ١٨٠٠ وقعت بريطانيا مع السلطان اتفاقية لتأكيد معاهدة ١٧٩٨ ، ونصت هذه الاتفاقية على أن يعين ممثل لانجلترا يقيم فى مسقط ، ويتم عن طريقه الاتصالات بين الدولتين ، كما نصت على استثناء الانجليز من

القوانين المحلية المعمول بها فى السلطنة [١] ونصوص هذه المعاهدة توضح الزحف البريطانى على سيادة عمان •

وقتل سلطان بن أحمد سنة ١٨٠٤ وقام صراع بين ولديه سالم وسعيد ورجحت كفة سعيد ابتداء من سنة ١٨٠٦ وقد حاول أن يتخلص من النفوذ البريطانى ، فعقد معاهدة مع فرنسا سنة ١٨٠٧ ثم عززت بأخرى سنة ١٨٠٨ وبمقتضى ذلك نزل بمسقط أول مقيم فرنسى •

واتجه سعيد كذلك لعقد معاهدة مع الولايات المتحدة الأمريكية لإمداده بما يحتاجه من أسلحة وعون ، نظير منح الولايات المتحدة امتيازات سياسية واقتصادية مهمة ، وقد وقعت هذه المعاهدة سنة ١٨٣٣ م ، وخافت انجلترا أن تفلت عمان من نفوذها فعرضت استعدادها لتقديم ما طلبته عمان من الولايات المتحدة ، وعقدت عقب ذلك معاهدة سنة ١٨٣٦ وأصبحت عمان بذلك تحت الحماية البريطانية ، ثم عقدت معاهدة أخرى بنفس الروح سنة ١٨٩١ •

وفى سنة ١٩١٣ حدث خلاف على السلطنة عقب وفاة فيصل بن تركى وكانت ظروف الحرب العالمية الأولى تدعو للحذر ، فتدخلت بريطانيا فى الحال واحتلت البلاد ، كما احتلت الدول العربية الواقعة على ساحل الخليج العربى ، وأخذت الدولة البريطانية على عاتقها أن تشرف على حكم بلدان الخليج وخفارته بدل الامبراطورية العثمانية التى كان لها هـذا الإشراف من قبل [٢] واستمر هذا الاحتلال حتى سنة ١٩٢١ •

وفى سنة ١٩٢٣ وقع أمير عمان تعهداً للحكومة البريطانية بألا يقوم بالبحث عن البترول أو استغلاله دون استشارة المقيم البريطانى [٣] •

---

(١) Bombay Government Selection from the Records. See also Kelly p. 58.

(٢) عمر رضا كحالة : جغرافية جزيرة العرب ص ٤٤٩ — ٤٥٠ •

(٣) محمد حبيب أحمد : نهضة الشعوب الاسلامية ص ٣٣٤ •

وفى فبراير سنة ١٩٣٩ أبرمت آخر معاهدة بين عمان وبريطانيا ، وجددت هذه المعاهدة سنة ١٩٥١ لمدة خمسة عشر عاما وبمقتضى هـذه المعاهدة قدمت بريطانيا مساعدات للسلطان سعيد ليستعيد نفوذه فى عمان وليقضى على الإمامة سنة ١٩٥٥ ، وعندما رأت بريطانيا أن هذا التدخل أثار ثائرة العرب بوجه خاص ، والعالم بوجه عام تراخت قبضتها عـن عمان ، وكان ذلك طبقا للسياسة البريطانية الجديدة بالنسبة إلى مناطق ما أسمته « مـا بعد السويس » تلك السياسـة التى كـانت مطلع زوال الاستعمار البريطانى من العالم كله .

ويقول الدكتور سيد نوفل [1] إن بريطانيا عقدت مع عمان منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين أكثر من عشرين تعهدا واتفاقا تمنح الرعايا البريطانيين امتيـازات ضخمة ، وتقدمهم عـلى غيرهم فى المعاملات التجارية ، وتقرر لهم فى مسـقط مقيمين ووكلاء فى شـئون السياسة والاقتصاد ، ثم تمنع أيدى السلطة عن التصرف فى أراضيها إلا بموافقة بريطانيا ، وتطلق أيدى الانجليز فى شئون البلاد ومواردها .

وبمرور الزمن تقلص هذا النفوذ الأجنبى حتى زال فى العصر الحالى .

السعوديون وعمان :

تحدثنا عند الكلام عن المملكة العربية السعودية عن الموحدين أتباع الإمام محمد بن عبد الوهاب وشرحنا مبادئهم ، وذكرنا أن أمراء السعوديين استجابوا لهذه الدعوة ، وتعهدوا بحمايتهـا ، والتقى بذلك فكـر ابن عبد الوهاب مع قوة آل سعود فتمت للدعوة خطوات واسعة من النجاح ، وأحيانا يسمى التكتل أو المزيج الذى تكوّن من الدعوة والقوة فى نجد باسم « الوهابيين » وهى تسمية غير مقبولة بالمملكة العربية السعودية وإن اشتهرت خارجها ، وتسمى بالسعودية « دعوة التوحيد » .

ودعوة التوحيد ليست دعوة خاصة لحدود معينة ، بل هى تتطلع إلى

---

(١) الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى ... جـ ١ ص ٦٣ .

الانتشار في العالم الإسلامي ، وإزالة الانحراف الذي كان سائدا ، وبخاصة في الجزيرة العربية ، ومن هنا سارت الدعوة تحث الخطا ، وتدق الأبواب ، وتزيل الحواجز .

وكانت الجزيرة العربية تتحكم في الغالب بنظام قبلي ، إذ تتغلب كل قبيلة على منطقة من المناطق ، وكانت عمان قد انحلت خلال عهد البوسعيديين إلى مقاطعات ومناطق شبه مستقلة ، بسبب الصراعات الضخمة التي انتابت هذه البلاد ، وبسبب الخلافات الحادة التي سادت بين أمراء البيت الحاكم بعضهم والبعض أحيانا ، وأحيانا بين السلاطين وبين الطموحين الذين كانوا يبرزون من حين إلى حين ، ونتيجة لذلك استقلت عن عمان إمارات الخليج التي كانت جزءا من عمان كما ذكرنا من قبل ، كما استقلت بعض مناطق الظاهرة بعد أن تركزت سلطات مسقط في مناطق الساحل .

أضف إلى ذلك أن كثيرين من سكان الظاهرة ، وبعض المناطق الداخلية من عمان تجمعت لديهم أسباب خاصة تدفعهم إلى التخلي عن سلطة البوسعيديين والانضواء في السلطة السعودية الناشئة في الجزيرة العربية ؛ ومن هذه الظروف أن كثيرين منهم ينحدرون من عرب الشمال ، وتربطهم بسكان نجد السعوديين رابطة الدم ، ومنها كذلك أن تنافسا خطيرا كان موجودا بين القبائل التي كانت تعيش في المناطق الداخلية وبين مناطق الساحل ، ومنشأ هذا التنافس أن بعض القبائل كانت تتبع المذهب السني ، وكانت في الوقت نفسه فروعا من الغفارية ، وذلك مثل قبائل نعيم في البوريمي التي كانت على خلاف مستمر مع القبائل الهنادية الدم الإباضية التفكير ، ومثل القواسم سكان الشارقة ورأس الخيمة فقد كانوا كبني نعيم سنيين غفارية (١) .

واحة البوريمي وصراع القوى :

ولكل هذه الأسباب وجد الوهابيون فرصتهم للزحف إلى واحة البريمي

---

(١) L. B. Killy : Eastem Arabian Frantiers p. 52, 55.

فاحتلوها لأول مرة سنة ١٧٩٥ ، كما واصلوا زحفهم حتى وصلوا إلى ساحل الخليج العربى فى عهد الأمير سعود والأمير عبد العزيز ، وسرعان ما أصبحت واحة البوريمى معقلا لهم ، فكان القائد السعودى يتخذ منها مقرا له ، وكان يجبى الزكاة من سكانها ومن سكان القرى المجاورة ، وكان جبى الزكاة رمزا للسلطة والتبعية .

وعندما اشتد ساعد الوهابيين كان المتصارعون على السلطة فى عمان يطلبون العون منهم ، ومن هؤلاء بدر الدين سيف بن أحمد بن سعيد « أحمد بن سعيد مؤسس الدولة » فقد حاول بدر هذا أن يخلع سلطان ابن أحمد ولكنه فشل فى محاولاته ، فطلب العون من السعوديين ، مما فتح الباب للنفوذ السعودى فى عمان ، وبخاصة عقب مقتل سلطان بن أحمد ، وتولية بدر الوصاية على أبنائه (١) ومن هؤلاء كذلك ثوينى بن سعيد الذى استصرخ السعوديين عندما ثار عليه أخوه « تركى » الذى كان واليا على صحار ، وتطلع لنيل السلطة .

وتقول المصادر السعودية إنه بالنسبة لاتساع الصحراء العربية وقلة طرق المواصلات السريعة بها فإن الأمراء السعوديين اكتفوا بالروابط الاجتماعية والاقتصادية بينهم وبين البوريمى ، وكانت الزكاة تدفع للعمال السعوديين ، وكان أمراء البوريمى يعلنون ولاءهم لأمير نجد (٢) .

على أن تدخل محمد على والى مصر وخضوع الدرعية لإبراهيم باشا سنة ١٨١٨ أوقف نشاط السعوديين بواحة البوريمى ، وفى المناطق الواقعة حولها ، ولم يستطع حاكم البوريمى الذى كان يمثل السعوديين أن يستبقى السلطة فى يده ، فسلّم الواحة إلى سلاطين عمان (٣) على أن

---

(١) دكتور زكريا قاسم : دولة بوسعيد ص ٥٢ .

(٢) مشكلة البوريمى : من مطبوعات سفارة المملكة العربية السعودية بجاكرتا .

(٣) J. B. Killy Ibid : p. 57.

منافسَيْن جديدَيْن ظهرا لعمان فى امتلاك هذه الواحة ، أما المنافس الأول فهم بنو ياس الذين كانوا يعيشون فى الداخل غير بعيد من البوريمى ، وكانوا يذهبون للساحل لصيد السمك أو اللآلىء ، فلما ظهر الماء فى أبو ظبى سنة ١٧٦١ رحلوا لها واتخذوها وطنا لهم [١] والمنافس الثانى هو بريطانيا التى اهتمت بالخليج ابتداء من القرن السابع عشر ، ثم رجحت كفتها على كل القوى الأوربية بالخليج العربى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وعقدت معاهدات مع إمارات الخليج فى القرن التاسع عشر أصبحت بمقتضاها تتحدث باسمهم [٢] فلما ظهرت بوادر البترول فى البوريمى سنة ١٩٤٩ أعلنت بريطانيا أن السيادة على هذه الواحة من حق مشيخة « أبو ظبى » وسلطان مسقط ، وهما خاضعان لحماية بريطانيا ، وأعلنت المملكة العربية السعودية آنذاك أن الواحة جزء لا ينفصل من المملكة وأن سكانها يدينون بالولاء للعاهل السعودى منذ زمن بعيد .

وتطورت المشكلة ووصلت إلى درجة خطيرة سنة ١٩٥٣ فقبل الطرفان (بريطانيا والسعودية) إجراء تحكيم دولى لحل المشكلة ، وعقدت لإجراء التحكيم اتفاقية فى ٣٠ يوليو سنة ١٩٥٤ ولكن بريطانيا لم تنتظر نتيجة التحكيم ، وأوعزت لسلطان مسقط أن يزحف بجيشه ، وكان أكبر قواده من البريطانيين فاحتل هذا الجيش منطقة عمان وواحة البوريمى ، وثارت ثائرة السعودية ، بيد أن الأمر قد سوى بعد ذلك بين الأطراف العربية ، وكان أساس هذه التسوية اعتبار الدعوة إلى التوحيد منطلقا فكريا ، وأن اتّباع هذه الدعوة لا يستلزم تبعية سياسية .

البوسعيديون فى شرقى إفريقية :

رأينا من قبلُ الجهود الكبيرة التى بذلها اليعاربة لطرد البرتغاليين

---

(١) Ibid. p. 51.
(٢) Ibid. p. 35.

من شرقى إفريقية ، ولكن اليعاربة اكتفوا بالسلطة الاسمية على هـذه المناطق لشدة ارتباطهم بالجزيرة العربية وحراسة أملاكهم بها ، وعينوا على المناطق الإفريقية أمراء يحكمونها باسمهم ، فعينوا أسرة الحارث لجزيرة زنجبار ، وأسرة النبهـانيين لحكم باتا ، وأسرة المعمودى لحكم ممبسة ، وتلاتها أسرة المزروعى ، وكانت هذه الأسر خاضعة خضوعا اسميا لأئمة عمان ، وعندما سقطت أسرة اليعاربة فى عمان ، وقامت على أثرها أسرة بو سعيد (البوسعيدية) اكتمل سلطان أئمة عمان على الساحل الإفريقى ، وعلى الجزر المواجهة له ولم يقبل البوسعيديون أن ينافسهم الأمراء فى حكم هذه الجزر وبخاصة الأمراء من أسرة المزروعى الذين كانوا قد حاولوا الاستقلال بجزيرة ممبسة ، ولعل السبب فى اهتمام البوسعيديين بالمناطق الإفريقية أن نفوذهم تقلص فى المناطق الآسيوية ، وتفلتت بعض أجزاء عمان عن حكم الدولة ، فاتجـه البوسـعيديون إلى إفريقية بأكثر نشاطهم ، بل نقل سعيد بن سلطان (١٨٠٦ ـــ ١٨٥٦) عاصمة ملكه من مسـقط إلى زنجبار سنة ١٨٣٢ مما يشـير إلى أن البوسعيديين كـانوا يتجهون إلى جعل القسم الإفريقى عماد دولتهم واستطاع سعيد أن يفرض العشور على التجارة الداخلية والخارجية وأن يجعل زنجبار مستودعا هائلا للتجارة ، تخزن فيه البضائع التى تأتى من أنحاء كثيرة بإفريقية ، ومنها توزع على التجار العرب الذين يحملونها إلى سواحل شبه الجزيرة ، وإلى المناطق المختلفة بآسيا وإفريقية ، كما توزع على التجار الأوربيين والأمريكيين الذين يحملونها إلى بلادهم (١) .

وبالاضافة إلى الحركة التجارية والنشاط الاقتصادى اتسع نفوذ زنجبار السياسى فى عهد السلطان سعيد ، فشمل مسافة على السـاحل تقدر بأكثر من ألف وستمائة كيلو متر ممتدة من جنوب مقدشيو شمالا إلى سفالة وتونجى جنوبا ، كما امتد نفوذه أيضا داخل القارة حتى وصل إلى

---

(١) دكتور صلاح العقاد ، والدكتور جمال قاسم : زنجبار ، وانظر موسوعة التاريخ الاسلامى للدكتور أحمد شلبى الجزء السادس ص ٤٠٨-٤٠٩ .

حدود الكونغو وأوغندا وروديسيا ، وانتشرت فى هذه الأجزاء كلها شبكة من خطوط القوافل تربط بين الساحل وبين شواطىء فيكتوريا وتنجانيقا ونياسا ، وتابع سعيد توغله فى الأجزاء الشرقية من الكونغو وعلا صيته حول البحيرات العظمى حتى كان يقال : إن الناس على شواطىء البحيرات يرقصون على أنغام زنجبار (١) .

وعلى هذا فقد صادف السلطان سعيد نجاحا كبيرا على الرغم من أن عصر الاستعمار الأوربى كان قد بدأ ، واتجهت القوى الأوربية لمصارعة السلطان المسلم فى هذه المنطقة (٢) .

وعقب وفاة السلطان سعيد انقسمت دولته إلى سلطنتين مستقلتين ، إحداهما إفريقية حكمها ماجد بن السلطان سعيد ... وقد تكلمنا عنها ، وعددنا سلاطينها عند الحديث عن الدول الإسلامية بإفريقية فى الجزء السادس من هذه الموسوعة ، والثانية آسيوية عاصمتها مسقط حكمها ثوينى ابن السلطان سعيد وهى التى نتحدث عنها الآن .

تعريف بأشهر سلاطين البوسعيديين

لقد تعرفنا خلال الدراسة السابقة على سلاطين هذه الأسرة وتكلمنا بشىء من التفصيل عن مؤسسها أحمد بن سعيد ، ويبقى بعده سلاطين جديرون بشىء من التفصيل كذلك ، وهؤلاء هم :

سلطان بن أحمد	(١٧٩١ — ١٨٠٤)
وسعيد بن سلطان	(١٨٠٦ — ١٨٥٦)
وقابوس (السلطان الحالى)	(١٩٧٠

(١) See Ruete R. : Saiid Bin Sultan, Rulers of Oman and East Afriea

(٢) دكتور عبد العزيز كامل : قضية كينيا ص ٢٣ وانظر الجزء السادس من هذه الموسوعة للمؤلف ص ٤٠٩ .

وفيما يلى كلمة عن كل من هؤلاء وستعطينا هـذه الكلمة فكرة عن سلاطين آخرين سيمتد الحديث إليهم ونحن نتحدث عن هؤلاء السلاطين الثلاثـة :

سلطان بن أحمد :

ثار سلطان بن أحمد على أبيه ، ثم ثار على أخيه سعيد ، واستولى على السلطة منه فى مسقط والسـاحل من سنة ١٧٩١ وقنع أخوه معـه بالنفوذ الدينى بالداخل ، كما كان قانعا بذلك إبان ثورة إبنه حامد عليه ، ومنذ تولى سلطان بن أحمد جعل التوسع الخارجى سياسة ثابتة له ، وبدأ بالجزر المواجهة لساحل عمان وهى قشم وهرمز ، ثم بسط سلطته على الموانى المهمة فى ساحل مكران ، واستولى على مينائى شهبار وجواردور ، وبواسطة هذين الميناءين توثقت الصلات بين بلوخستان وبين عمـان ، واستولى كذلك على بندر عباس ، وهكذا صارت دولة عمان فى عهد سلطان ابن أحمد تتكون من شريط ساحلى فى شبه جزيرة العرب ، ويضاف إليـه عدة جزر وموان حتى حدود باكستان الحالية بالإضافة إلى جزيرة زنجبار .

وهذا التكوين الجغرافى لعمان استوجب أسطولا قويا ، ويبدو أن السفن التجارية كانت أحيانا تستعمل لأغراض الدفاع ، فإذا أخذنا بذلك استطعنا أن نقول إن أسطول عمان فى عهد سلطان بن أحمد كان يتكون من ٦٠٠ سفينة بخلاف السفن الكبيرة المخصصة للحرب ، ومن الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن تنمو العلاقات بين مسقط وبين العالم الخارجى نموا كبيرا [١] .

وانتهز سلطان بن أحمد فرصة وقوع نزاع بين أهالى البحرين وبين حاكمهم الشيخ سليمان آل خليفة فأرسل أسطوله إلى تلك الجزر ، وربما كان ذلك بناء على طلب السكان ، وانتهى الأمر بعقد صلح بين سلطان بن

(١) دكتور صلاح العقاد : الخليج العربى ص ٥٢ ــ ٥٣ .

أحمد وبين آل خليفة سنة ١٧٩٩ نص على أن تمد مسقط سيادتها على البحرين ، وعاد سلطان بن أحمد إلى بلاده بعد أن أخذ أخا حاكم البحرين رهينة عنده ، وبعد أن وضع ابنه سالم ليمثله فى السيادة على البحرين ، ولكن هذا الابن كان لا يزال حدثا فأشرك أبوه معه أحد زعماء الشيعة واسمه محمد بن خلف فى هذه السلطة [١] .

وحدث بعد ذلك أن مات أخو الحاكم الذى كان رهينة فى مسقط ، فتحلل آل خليفة « العتوب » من وعدهم واستعانوا بالسعوديين ضد سيطرة مسقط ، فاستسلم سالم وانسحب ، ولكن مسقط عادت تدافع عن مكانتها متعاونة مع بعض القوات الفارسية واستعادت السلطة فى البحرين من جديد ، ولكن ذلك الوضع لم يدم طويلا بسبب العون السعودى المستمر لسكان البحرين .

وبالاضافة إلى هذه الانتصارات العسكرية والتوسع الخارجى يضيف المؤرخون إلى سلطان بن أحمد فضلا عظيما فى المجال الحضارى ، فقد فتح الباب لألوان من التقدم والمدنية كانت بعيدة عن بلاده من قبل ، كما تعاون مع العثمانيين على حماية البصرة من الفرس ، مما جعل له مكانة خاصة لدى الباب العالى الذى أصدر فرمانا بإعطائه راتبا سنويا نظير هذه المساعدة .

سعيد بن سلطان :

عندما توفى سلطان بن أحمد سنة ١٨٠٤ كان ولداه سالم وسعيد فى سن الحداثة ، لم يصلا بعد إلى سن البلوغ ، وكان سعيد بن أحمد قانعا بمنصب الإمامة فى الرستاق وقيس بن أحمد يسيطر على صحار ، ومحمد بن أحمد يسيطر على السويق ، وكان بدر بن سيف بن أحمد يحاول أن يستولى على مسقط بعد وفاة عمه سلطان ، وكان يعتمد على

---

(١) دكتور جمال قاسم : المرجع السابق ص ٧٧ .

السعوديين الذين وعدوه بالعون والمساعدة ، وكان اليعاربة مستبدين فى نخل ، ووسط هذا التفكك تمكن السعوديون من تأكيد سلطانهم فى الظاهرة و البوريمى .

وحاول كل من إخوة سلطان بن أحمد أن يخلفه فى السلطة وأن يتناسى ولديه الصبيين اللذين آل إليهما ميراث أبيهما الراحل ، وكانت نترعاهما عمة لهما اسمها « معازة » وقد لجأت هذه العمة إلى بدر بن سيف ليساعدها ضد القوى الزاحفة على مسقط ، وكان بدر طموحا من جانب ، وقويا بعون السعوديين له من جانب آخر ، فاستجاب لطلبها وأصبح وصيا على الصبيين ، وتخلت له معازة عن الوصاية ، ولكن بدرا حاول أن يأخذ الأمر لنفسه ، فقوّى صلته بالسعوديين ، وعقد معهم اتفاقية تبيح السلطة لهم فى عمان ، وتبيح أن يكون لهم فى مسقط مندوب يتولى جمع الزكاة باسمهم ، ووضع بدر سعيد بن سلطان فى مقاطعة صغيرة ليشغله بها ، وكانت سنه آنذاك حوالى خمس عشرة سنة .

وكان هذا الشاب فى أول خطواته لمرحلة الشباب ، ولكنه كان شديد البأس عميق الفكر ، فدعا عمه بدر بن سيف لحضور اجتماع فى إقليمه للاتفاق على وسيلة للتخلص من قيس بن أحمد حاكم صحار ، واستجاب بدر لهذه الدعوة ، وكان سعيد قد أعد كمينا له فى القلعة التى يعقد فيها الاجتماع ، وما إن دخل بدر حتى انقض عليه سعيد ورفاقه ، فأجهزوا عليه وخلصت بذلك مسقط لسعيد سنة ١٨٠٦ .

وأخذ سعيد بعد ذلك يتخلص من باقى المنافسين وكانوا أهون عليه من عمه بدر ، ولذلك تهاوت القوى المنافسة له واحدة بعد الأخرى ، ثم استولى على الرستاق بعد وفاة الإمام سعيد بن أحمد ، وبذلك وحّد سعيد المنطقة كلها تحت حكمه .

بيد أن سعيد أدرك أن استمرار الاستقرار فى هذه المنطقة شىء بعيد

المنال ، فإن الخلافات والانقسام كانت لا تتوقف حتى تبدأ من جديد فى الجزيرة العربية ، وبالإضافة إلى هذا فقد ظهر بالجزيرة العربية منافس جديد خطير هو محمد على والى مصر ، وتثبت الوثائق أن محمد على فكر فى الزحف على عمان واتصل بأمير البحرين ، مما جعل حدود عمان تهددها القوة التى حلت محل السعوديين فى الجزيرة العربية لفترة من الزمن ، ومن أجل هذا وجه سعيد عنايته إلى إفريقية ، واسترد ما كان قد ضاع من الساحل خلال الصراعات التى سبقته ، ثم آثر سنة ١٨٣٢ أن ينتقل إلى زنجبار ويتخذها عاصمة له ، وقد سبق أن تحدثنا عن جهود سعيد فى الساحل الإفريقى ، وعن المكانة السياسية والاقتصادية التى حققها هناك .

وكان سعيد معروفا بالتواضع يميل إلى الشورى ، ولا يصدر حكما مهما كان إلا بعد اجتماع مجلس الرؤساء والشيوخ للتشاور فى هذا الأمر ، وكان محبوبا لدى الرعية ، معظما بينهم ، وقد عد أحد المؤلفين السعوديين هذا التعظيم مطعنا فى سعيد وهو فى هذا يقول : إنه الرئيس المعروف عند شعبه بالسيد ، المتقدم فى رياستهم وسياستهم والمطلق فيهم ، ولقد أتى الناس من توقيره وتعظيمه ، والاعتقاد فيه ، ما أفضى بهم إلى طريق الضلال والإلحاد [1] .

وكان سعيد ذكيا مستنيرا حريصا على تنمية معلوماته والتعرف على أعمال الزعماء من معاصريه ، فكان يتابع إصلاحات محمد على ليباشر ما يمكن مباشرته منها فى بلاده وبين رعيته .

ويقول عنه الرحالة Wellested إنه كان يحتفظ بكثير من الصفات البدوية الأصلية ، لا يتحلى باللآلىء والجواهر ، وكان يلبس لباس مواطنيه ،

---

(١) حسين بن غنام : روضة الافكار والافهام جـ ١ ص ٩ .

وكان يظهر فى الاحتفالات والمناسبات بدون المظـاهر التى يحرص عليها السلاطين والملوك ، وكان يزور والدته يوميا كدليل على البر والتقدير [١] .

وتوفى السيد سعيد سنة ١٨٥٦ وهو فى سفينة من مسقط إلى زنجبار ، ودفن فى هذه الجزيرة ، كأن القدر أراد له أن يوارى جسده فى الجزيرة التى أحبها واستوطنها .

السلطان قابوس :

عندما نحاول أن نتعرف على السلطان قابوس وجهده فى خدمة بلاده ينبغى لنا أن نتعرف على أحوال هذه البلاد خلال الفترة التى سبقت حكم السلطان قابوس .

ومن الواضح أن التدخل الانجليزى فى البلاد بعد وفاة السلطـان سعيد كان شديدا للغاية ، وقد انتهز الاستعمار الانجليزى وفاة السلطان سعيد ، وحدوث خلاف بين أولاده فتقدم هذا الاستعمار وحكم بإقامة سلطنتين يحكم إحداهما توينى بن سعيد ويحكم الثانية ماجد بن سعيد كما ذكرنا من قبل ، وقد تسبب عن هذا التقسيم أن حلت بعمان أضرار بالغة ، وبخاصة بالمقاطعات الساحلية بالبلاد ، فقد تدهورت تجارة عمان مع زنجبار ، واضطر عدد كبير من التجار العرب إلى الهجرة من عمان ، وتقلص النشاط الاقتصادى عن البلاد ، وبدأت تعانى أزمة قاسـية ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الاستعمار بدأ يتمكن من البلاد ، وأخذ يتدخل بما يحقق له أهدافه وأطماعه ، وقد دخلت البلاد تحت الحماية بناء على المعاهدات التى حدثت مع الانجليز وكانت النتيجة أن السلاطين لم يعـد فى يدهم سلطة ، وأن السلطة الحقيقية أصبحت فى يد المستعمر ، وفى سنة ١٩١٣ تجدد بعث الإمامة فانشطرت البلاد شطرين ، شطر يحكمه

---

(١) Travels in Arabia vol. I p. 5 ff.

الإمام وشطر يحكمه الانجليز ، وأحس تيمور بن فيصل ألا سلطان له فتنازل عن مكانه لابنه سعيد بن تيمور سنة ١٩٣٢ ، واتجه الحكم فى عهد سعيد بن تيمور نحو العزلة والانغلاق والصمت ، وتحول نشاط الخليج إلى « دبى » ولم يعد لعمان صوت يسمع فى الخارج ، ولا كيان يذكر فى الداخل ، وأخذت البلاد تتأخر يوما بعد يوم نتيجة للقيود العجيبة التى فرضها السلطان على عمان وعلى شعبها ، ومن هذه القيود عدم جواز اقتنـاء المذياع للاستماع للإذاعـة الخارجية إذ لم تكن هناك إذاعـة محلية ، وبالتالى كان امتلاكه محرما حتى لا يتأثر أهالى عمان بمجريات الأمور خارج البلاد ، ومن المحظورات كذلك التدخين ، وقرع الطبول ، وإحياء الأفراح ، والبقاء خارج أسوار المدن بين غروب الشمس وشروقها ، وهكذا أصبحت عمان ، نقطة هامدة على خريطة العالم ، ولم يكن لعمان قبل قابوس عهد بالعلم ، فلا توجد فى البلاد كلها غير مدرستين لا تقبلان إلا عددا قليلا من التلاميذ على أن يكون ذلك بأمر السلطان نفسـه ، ولم يكن بالبلاد مراكز صحية ذات بال ، ولا مستشفيات على الإطلاق ، ولم تعرف التخطيط والنظم الإدارية السليمة ، واقتصاد البلاد كان فى القاع ، وكان الشعب يعيش فى ظلام لا يعرف الأمل .

ووسط هذا الظلام انبثق الأمل متجسـدا فى قابوس بن السلطان سعيد ، وكان قابوس قد عاد من الخارج بعد أن أتم دراسته فى كلية سانت هيرست العسكرية فى لندن ، وطاف قبل عودته بعدد من دول العالم ، وما إن خطت قدماه على أرض عمان حتى أدرك الهوة السحيقة التى تعيش فيها هذه البلاد ، وسرعان ما أحس أن السجن الكبير القائم الذى يضم شعب عمان قد احتواه هو أيضا ، فإن أباه السلطان فرض عليه العزلة حتى لا يختلط بالناس كى لا يتأثر بهم أو يؤثر فيهم ، وعانى قابوس ما يعانيه الشعب ، وبالتالى أحس بإحساسه ، فأخذ يدبر الأمر فى صمت ، ويجرى بعض الاتصالات ببعض العناصر المخلصة بالخارج فلما جاء شهر يوليو سنة ١٩٧٠ كانت الخطة قد أحكمت ، وانبثق يوم الثالث

والعشرين من هذا الشهر على فجر جديد ، فقد هبت ثورة الخلاص ، فأبعد قابوس أباه عن الحكم وتولى مسئولية الحكم بالبلاد ، وكان ذلك مطلع عهد جديد .

وأخذ قابوس يعمل بسرعة هائلة لتعود عمان إلى النور ، فأمر بإزالة القيود التى كان السلطان السابق قد فرضها على الشعب ، وأسرع كذلك فى إقامة إصلاحات فى مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وفى أكتوبر سنة ١٩٧١ دخلت سلطنة عمان الجامعة العربية ، ثم دخلت الأمم المتحدة ، وأقامت علاقات دبلوماسية بينها وبين كثير من الدول العربية ومن دول العالم ، وأخذت تلعب دورها فى الحياة العربية والعالمية .

لقد كان قابوس نافذة نور لعمان ، وكانت يده تعمل فى كل مجال ، فى مجال التعليم ، وفى مجال الزراعة ، والطرق والمواصلات ، والتخطيط ، والتعمير ، والصحة ، والأمل ، وبناء الإنسان العمانى بوجه عام ، ومن هنا فقابوس يستحق تقدير المنصفين لأنه خطا أوسع الخطوات فى أقصر وقت وهو بهذا يفوق الكثيرين من الأنداد .

أما سياسة السلطان قابوس الخارجية فكانت مثالا فى الدقة والحكمة وبُعد الرأى ، فقد خلَّص قابوس بلاده تماما من آثار الاستعمار ، وأمسك بزمام كل الأمور ، ولم يخضع فى تصريف شئون البلاد الخارجية للأهواء أو الانفعالات بل وقف كالطود الشامخ يتدارس المشكلات بعمق وأصالة ليضع بلاده فى الوضع الذى يخدم العروبة والإسلام ويستعيد لعمان ما كان لها من مجد تليد .

لقد رأت عمان فى عهد السلطان قابوس أنضر عهودها فى كل اتجاه ، بارك الله له ، وهيأ الخير على يديه .

مشكلة المقاطعة الجنوبية « ظفار » :

تحكى المصادر العمانية [1] قصــة الصراع فى ظفــار فتقول : إنه عندما تسلم العهد الجديد بقيادة السلطان قابوس مقاليد الحكم وضع فى اعتباره حل المشاكل المختلفة ومن بينها مشكلة ظفار ، وكانت مشكلة ظفار قد ظهرت إلى الوجود فى منتصف الستينات بسبب الأحكام الجــائرة ، والأوضاع غير المقبولة التى فرضها العهــد السابق على أبناء الشــعب فى عمــان ٠

وقد حاول الأهالى أن يرفعوا أصواتهم بالشكوى أكثر من مرة ولكنّ أحدا لم يستمع إليهم ، أو يحاول رفع الظلم عنهم ، لذلك قاموا بانتخاب جماعة من بينهم لتذهب إلى مسقط وترفع شكواها إلى السلطان سعيد لعله يستمع إليهم ، ويحقق رغباتهم ، ويلبى مطالبهم ، ولكن السلطان كان لا يستجيب لشىء ، فاتجه لرفض كل حركات الإصلاح ، ومن هنــا بدأت حركة ظفار ، وكانت الحركــة وطنية خالصة ٠٠ إلا أن بعض الماركسيين والشيوعيين استغلوا هذه الحركة واندسوا فى صفوفها باسم الوطنيــة ليحققوا المخطط الشــيوعى الرامى إلى الاستيلاء عــلى الجزيرة العربية والسيطرة على مقدساتها ٠

وفى سبتمبر سنة ١٩٦٨ بدأ الشيوعيون يخرجون من أثوابهم وتزعموا حركة لتغيير اسم جبهة تحرير ظفار إلى الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى ٠

وانتهجت الحركة الخط الماركسى اللينينى وزعمت أن هذا الخط لا يتعارض مع الإسلام ، أو مــع العقيدة الإسلامية ، وبالطبع كان هــذا الزعم مجرد محاولة لتضليل العناصر الوطنية المنضمة إلى الحركة ٠

---

(١) عمان : الماضى والمستقبل ص ٨٧ ٠

وبدأت أهداف الحركة الدخيلة تتضح أكثر فأكثر عندما عاد بعض افرادها من بكين حيث كانوا فى دورة تدريبية ، وشكلوا مؤتمرا حزبيا فى يونيو سنة ١٩٦٩ •

وهنا اتضح لدى الثوار أن هذا الحزب هو حزب شيوعى قلبا وقالبا ، وأن الحركة خرجت من الخط الوطنى لتسير فى الخط الشيوعى فبدأ الناس ينفضون من حولها وبدأت الجبهة تهتز وتتخلخل •

وفى ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٠ قام السلطان قابوس بحركة التغيير التاريخية ، وفتح الأبواب أمام جميع المواطنين ليمارسوا الحياة الطبيعية التى تمارسها الشعوب الراقية ، وأعلن السلطان قابوس أنه سيعفو عن جميع المتمردين فى ظفار الذين ثاروا ضد سياسة السلطان السابق ، وأنه يفتح أمامهم الأبواب ليعودوا إلى صفوفه ، واستجاب العديد منهم لدعوته ، وحملوا سلاحهم وعادوا إلى الوطن ورفضوا أن يعملوا فى صفوف الشيوعيين •

وأحدث هذا التحول ذعرا ضخما فى صفوف الشيوعيين فلجأوا إلى العنف والإرهاب والتنكيل بالمواطنين الأبرياء وقتل شيوخهم ونسائهم وأطفالهم • وأصبحت أرض ظفار نتيجة لذلك مسرحا للصراع بين الأفكار الوطنية المؤمنة بعروبتها وإسلامها وبين الأفكار الشيوعية المؤمنة بالماركسية واللينينية •

ومن المؤسف والمؤلم فى نفس الوقت أن هؤلاء المارقين المتمردين وجدوا من أرض اليمن الجنوبية قاعدة يحتمون بها ، ويتدربون على أرضها ، وينطلقون منها فى الظلام إلى قرى ظفار المسالمة ليقتلوا الشيوخ والنساء والأطفال ويحرقوا المحاصيل والماشية ، ثم يعودوا من جديد إلى إلى قواعدهم فى اليمن الجنوبية •

وتقول المصادر العمانية (١) : إن السلطان قابوس قد حاول أكثر من مرة أن يلفت نظر جيرانه إلى هذه الأعمال غير الودية ولكنهم رفضوا الاستماع إليه ، والتفاهم معه .

إزاء كل هذا الإرهاب ، وخوفا من خطر التسلل الشيوعى إلى باقى أنحاء السلطنة كان لابد للعهد الجديد فى عمان أن يتحرك ، فقد تأكد قابوس أن حرب هذه الفئات الباغية الخارجة على مبادىء الدين الإسلامى ضرورة دينية ، واضطر لتخصيص نصف ميزانية البلاد للصرف على الحرب والقضاء على الفتنة الحمراء .

وبدأ يُعِدُّ الجيش المدرب على فنون القتال ليحمى حقوق الشعب العمانى ومصالحه وأمنه ، واستطاع فى أقل من عامين أن يجهز القوة الضاربة التى دخلت الحرب ضد المتمردين من أجل نصرة قضايا الحق والعدل .

وتقف إلى جوار القوات المسلحة فرق شعبية قوامها الرجال الذين رفضوا القتال فى صفوف الشيوعيين ، وآثروا العودة إلى صفوف السلطان والقتال تحت رايته .

على أن اتجاهات الإصلاح التى قام بها السلطان قابوس بالبلاد كانت خير رد على هذا التمرد ، فعاد الكثيرون إلى صوابهم وإلى التعاون لتحقيق الأهداف الوطنية التى اتجهت لها عمان فى عهدها الجديد .

وفى العيد القومى لعمان فى نوفمبر سنة ١٩٧٦ ألقى السلطان قابوس فى اجتماع ضخم عقد فى مدينة مسقط خطابا حافلا عدد المنجزات التى حققها والمشروعات التى ينوى السير فى تحقيقها ، وكان أهم ما حققته البلاد الانتصار الشامل على حركة ظفار والعمل بجد لإعادة البناء للديار

---

(١) المرجع السابق : ص ٨٨ .

التى خربتها هذه الحركة ، وإعادة المهجرين إلى دورهم ، وتحدث السلطان كذلك عن النهضة التعليمية الكبرى بالبلاد ، وعن السير نحو إيجاد مكان لكل طفل بعمان فى المدارس ، وعن الاهتمام بالجانب القومى فى التاريخ حتى يكون الجيل الجديد فخورا بما حققه أجدادهم من تطور وتقدم .

وتكلم السلطان عن مشروعات الصحة والإسكان والشباب والبترول ، فرسم للبلاد مستقبلا طيبا ، كما تحدث عن مشاركة عمان للدول العربية فى الجهود التى تبذل لتأييد الحق العربى بفلسطين ولخدمة قضية السلام بوجه عـــام .

والناظر إلى عمان يحس أن نافذة الضوء على عمان التى فتحها السلطان قابوس قد اتسعت ، وتتجه دائما إلى مزيد من الاتساع ، والباخرة تسير .

حضارة عمـــان :

خيمت على عمان سحابة قاتمة من التخلف خلال عهود الظلام التى تكلمنا عنها ، وزاد التخلف عمقا فى عهد الاستعمار البريطانى ، فكـــانت عمان — كما يقول المفكرون العمانيون — نقطة هامدة على سطح الأرض ، ولم يكن لها دور فى حياة العرب أو المسلمين ، ولكن هذه الحالة الطارئة ينبغى ألا تنسينا ما حققته عمان قبل ذلك من أمجاد حضارية ، ولهـــذا نذكر هنا أبرز ما قامت به عمان فى هذا الميدان ، ولعلنا قد أشرنا إلى بعض هذه المنجزات الحضارية فى دراستنا السابقة .

وأول ما نبرزه أن عمان كانت الدولة الوحيدة بين الأقطار العربية التى كانت لها مستعمرات خارج المنطقة العربيـــة ، نالت مكانتها بحـــد السيف بعد أن طردت المستعمر الأوربى منها ، وبقيت عمان فى هذه البقاع برغبة سكانها لتحميهم من أطمـــاع الغرب التى بدأت تظهـــر عقب طرد البرتغال .

ويتصل بهذا أن نذكر لعمان بكثير من الفخر أنها قاومت البرتغاليين بدون معونة من أحد ، وهى بهذا تعد فى صفوف الدول التى حطمت بالسيف تنوى المستعمر الغاشم وأذلته ، وألزمته أحيانا أن يدفع الجزية وأحيانا أن يستسلم •

ومن المواقف الحضارية التى تحسب لعمان دورها التجارى العظيم فى دنيا ذلك الزمان ، فقــد غطت تجارتها أكثر دول آسيا وافريقيــة ، وكانت لها السيطرة على أكثر بحار هــذه المناطق كما كانت لهــا مراكز تجارية على جميع السواحل التى يرسو بها أسطولها التجارى العظيم ، وقد استدعت هذه الحركة التجارية النشطة تطهير ساحل ملبــار من القراصنة الذين ينتمون إلى مختلف الجنسيــات الآسيوية والأوربيــة ، وهكذا سبق العمانيون الإنجليز إلى تلك السياسة التى ترمى إلى تأمين الملاحة التجارية فى المحيط الهندى [١] :

وقد أنجبت عمان صفوة ممتازة من الناس فى مختلف نواحى المجد فمنهم الأبطال ، ومنهم العلماء والقادة ، وفى قمة الأبطال العمانيين الذين عرفهم التاريخ الإسلامى المهلب بن أبى صفرة ، ومن علمائها صحار العبدى صاحب الخلفاء الراشدين ، وكعب بن سور قاضى عمر بن الخطاب على البصرة ، والخليل بن أحمد الفراهيدى واضع علم العروض وصاحب كتاب العين ، ومن خطبائها صعصعة بن صوحان ، ومن أجوادها مرة بن الوليد ، ويقال : إنه لم يكن فى الأرض أجود منه ، وكان رسول المهلب إلى الحجاج ، ومن فصحائها بشر بن المغيرة ولــم يكن فى الأرض أنطق منــه ، ومنهم الربيع بن حبيب الفراهيدى وكان يضرب به المثل فى العلم ، ومنهم حمزة الشارى وهو من بنى ســليمة ، ومنهم أبو بكر أحمد بن دريد صــاحب الجمهرة ، ومنهم أبو العباس المبرد صاحب كتاب الكامل وكثيرون جــدا غيرهم ممن ذاع صيتهم فى ميادين السياسة والبطولة والعلم •

---

(١) السالمى : تحفة الاعيان جـ ١ ص ١٠ وما بعدها •

وقد عرف التاريخ مجموعة عظيمة من نساء مسقط شاركن بنصيب كبير فى النشاط السياسى والاجتماعى ، وقد مر ذكر السيدة معازة التى كانت وصية على سالم وسعيد ابنى سلطان بن أحمد فأحسنت قيادة الأمر ، وظهرت كثيرات من النساء على رأس الثورات التى كانت تشتعل أحيانا ، وكان حجاب النساء فى مسقط أقل مما كان عليه فى البلدان العربية الأخرى (١) .

ويشتهر سكان عمان بالنظافة والدقة ، وقد كان هذا الاتجاه مما لفت أنظار الرحالة الأوربيين فقال Buckingham إنهم أنظف وأشد رقة وأكثر أناقة من جميع العرب الذين صادفهم فى رحلاته (٢) .

(١) Bohem : The Persian Gulf p. 6.

(٢) Travels in Syria, Media and Persia vol 2 p. 413J.

صلات شخصية بعمان

ارتبطتُ بعمان منذ كتبت تاريخها السابق ، ثم تطورت الصلات بعد ذلك ، وأنا بطبيعة عملى شديد الرغبة فى تطوير الصلة بالبلاد التى أكتب عنها ، ففى مطلع حياتى العلمية اكتشفت مجموعةً من الأخطاء وقع فيها الذين يكتبون تاريخ بلادٍ وهم بعيدون عنها ، وقد صححت بعض هـذه الأخطاء عند زيارتى للمواقع التاريخية (١) ، ومن أجل هذا كنت شديد الحرص على زيارة البلاد التى أكتب عنها ، وقد أُتيحت لى والحمد لله فرص متعددة لزيارة كثير من البلاد التى كتبت عنها ، ومن ضمنها سلطنة عمان .

وسلطنة عمان جذابة ، ناسها طيبون ، وتاريخها حافل بالغموض من جانب ، والمفاخر من جانب آخر ، وتاريخ كهذا فيه إغراء للمؤرخ ليحاول أن يكشف ما به من غموض ، وليستمتع بما به من مفاخر ، تضاف للمفاخر العربية والإسلامية .

وقد دُعيت لزيارة عمان عدة مرات سأتحدث عن أهمها فيما بعد ، ولكن الذى يعنينى أن أبدأ به هو أننى خلال هذه الزيارات أو بعضها دُعيت لدخول بيوت بعض العمانيين ، وبهذا أصبحتْ هذه الزيارات بها لمسة عائلية ، وقد تركتْ هـذه الزيارات أثرا كبيرا فى نفسى لأننى جالست العمانيين بعيدا عن الرسميات والفنادق ، فراعنى كرمهم الذى يصل إلى حد البذخ ، وسعدت ببيوتهم التى تحفِل بالطنافس وتزدان بجيد الأثاث .

وهناك نقطة أكثر أهمية هى أن عقل الرجل العمانى متفتح يستقبل أحدث الأفكار فيفكر فيها ويناقشها ، ولا يردها — دون تفكير — كما يفعل غيره ، ومن هنا أتيح لجلساتنا أن تشاهد عرض كثير من الإسرائيليات لتفنيدها ، فناقشناها بصراحة مع أننى لاحظت أنه فى بعض البلاد الأخرى لا يوافقون

---

(١) انظر صورا من ذلك فى كتابى : التربية والتعليم فى الفكر الاسلامى ص ١١٩ — ١٢٠ .

على مناقشة مثل هـذه الأفكار ، ويعدونهـا أصولا إسلامية لا تحتمل المناقشة (١) وفى هذا المجال لابدّ من تسجيل الإعجاب بعالمين جليلين من علماء عمان هما معالى الشيخ محمد بن أحمد مستشار السلطان الشئون التاريخية والدينية ، وهو عالم جليل ، سمح ، واسع الأفق ، كريم المحيا ، وقد زرته فى مكتبه ، ثم زرته مرة أخرى فى المكتبة الحافلة التى أنشأها للاطلاع فى « السيب » .

أما العالم الثانى فهو سعادة الشيخ يحيى بن عبد الله النبهانى ، وقد أمضيت سهرة علمية حافلة بمنزله العامر .

وفى هذا البيت وذاك دار حوار حول مجموعة من القضايا العربية والإسلامية ، فأسعدنى أن العقل العمانى يحسن التلقى ، واختيار مـا يتلقاه ، كما يحسن تصدير ما اقتنع به غير مكبّل بتقاليد ، وغير خاضع لجمود .

تحية العقل العمانى السمح المتفتح .

مازن بن غضوبة والصنم الذى تكلّم

ومن أمتع المواقف التى تدل على سعة أفق الإنسان العمانى أن حلقةً دراسية كانت قد عقدت عن الصحابى « مازن بن غضوبة » أول من أسلم من عمان ، وقد اشتركتُ فى هذه الحلقة وكان النظام يقضى أن يكتب باحثٌ دراسةً متكاملة عن « مازن » وقد كُلّف بهـذا العمل الباحث العمـانى الأستاذ أحمد بن مسعود السيابى ، ثم يقوم كلٌ من الأساتذة الآخرين بكتابة بحث عن جانب من جوانب هذه الشخصية ، أو فى موضوع عمانى على العموم ، وكان الموضو ع الذى اختير لى هو عن « مشاركة العمانيين فى الفتوحات الإسلامية » .

---

(١) انظر بعض هذه القضايا فى « الاسرائيليات والجمود وحرب أعلنها على الجبهتين » بكتابى « رحلة حياة » .

وهناك قضية متواترة عن « مازن بن غضوبة » خلاصتها أنه كان قبل الإسلام سادنَ أصنامٍ ، وأنه فى يوم من الأيام ذهب ليقدّم قربانا لصنمه « ناجر » ولكنه سمع صوتا ينبعث من جوف الصنم يقول له :

يا مازنْ اسمعْ تُسَرْ   تَسلَمْ من حرٍّ سقَرْ
بُعِثَ نبىٌّ من مُضَرْ   بدين اللهِ الأكبرْ
فدعْ نحيتاً من حَجَرْ   تسلَم من حرٍّ سُعرْ

واضطرب مازن عندما سمع هذه الأرجوزة ، ولعله ظن أن القربان كان أقل من مستوى الصنم ، ولذلك أعدّ قربانا أكبر وذهب به إلى الصنم فى يوم تالٍ ، ووضعه بين يديه ، ولكنه سمع الصنم يقول له :

أَقبِلْ إلىَّ أقبلْ   تَسمعْ بما لا تَجهلْ
هذا نبىٌّ مرسَلْ   جاء بحق مُنْزَلْ
آمِنْ به كى تعدِلْ   عن حرِّ نارٍ تُشعَلْ
وقودُها كالجنْدَلْ

وانبرى مازن يحطم الصنم ، واتجه للحجاز حيث قابل الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلم وأعلن إسلامه •

وهذه القصة كانت شائعة ومتواترة ومقبولة لدى الجميع • وتسرّبت إلى بعض المصادر التاريخية ، وليس هناك حوار عنها ، وتعرّض لها أكثر المتحدثين فى الندوة ومن أولهم الأستاذ أحمد بن مسعود •

وقد طلبتُ الكلمة لمواجهة هذه القضية ، وأعلنتُ سخريتى منها ، وذكرتُ أن الصنم لا يتكلم أبدا ، ولو كانت الأصنام تتكلم لكان أولى بذلك أصنام مكة المكرمة ، لتخفف من الاضطهاد والتنكيل الذى نزل بالرسول صلى الله عليه وسلم وبصحبة الأولين •

وقلت إن الشعر الذى رُوِى فى ذلك هو فى الحق يُنسب لمازن نفسه ، وهو عبارةٌ عن حديث لمازن حدثَتْه به نفسُه ، وعندما نضع هذا الشعر فى ميزان النقد الأدبى ونقارنه بما نعرف من شعر مازن يتضح لنا أنه فى نفس مستوى شعره ، وطلبتُ من الزميل الذى كان يتكلم عن أدب مازن أن يضم المقطوعتين اللتين تنسبان للصنم إلى شعر مازن ، فاستجاب لذلك .

وكان هذا موقفا خطيراً لفكرة مرت عليها القرون من مطلع الإسلام حتى الآن ، والعجيب أن العقل العمانى قبلها بهدوء ، وفكر فيها وارتضاها ، وصدرت صحف عمان فى اليوم التالى (الوطن الأسبوعى فى ١/١١/١٩٩٠) تذكر أن الأستاذ الدكتور أحمد شلبى فجر قضية مهمة ...... وجدتْ قبولا لدى السامعين أو أكثر على الأقل ، تحية للعقل العمانى المتحرر .

وقصة مازن وصنمه تذكرنى بقصة مماثلة لعلها تؤكد أن الشعر هو شعر مازن وأنه كان يحدث نفسه بهذه الأفكار .

والقصة الجديدة حدثت فى السودان وكان ذلك عقب عيد الأضحى ، فالرعاة السودانيون كانوا قد وفدوا بقطعان من الخراف والماعز على العاصمة قبيل العيد ليبيعوها إلى الراغبين فى تقديم الأضاحى ، وباع الرعاة الكثير ، ولكن بقى لديهم كثير من الخراف والماعز لم تجد من يشتريها ، فعاد بها الرعاة إلى القرى والنجوع ورأى شاعر سودانى تلك القطعان العائدة فتخيل خزيها وأسفها ، ونظم قصيدة ، نشرت فى حينها بالصحف السودانية ، وكانت القصيدة على لسان الخراف والماعز تبدى أسفها لأنها جاءت للمدن وهى حريصة على أن تمتع أهلها وأن تقدم لهم لحومها وصوفها وجلودها ، ولكن الناس أعرضوا عنها ، فعادت حزينة كاسفة البال راجية ألا يتكرر إهمالها عندما تفِدُ مرة أخرى فى عيد مقبل .

على أن الأدب العربى يعرف ذلك كثيرا فى كتاب « كليلة ودمنة » .

المهم مرة أخرى أن العقل العمانى استجاب بسهولة لفكرة عرضتها تتعارض مع تراث طويل لديه •

ونعود بعد ذلك للحديث عن زياراتى لعمان وعن أهدافها :

الزيارة الأولى : الاشتراك فى ندوة الدراسات العمانية :

فى سنة ١٩٨٠ دعا سمو الأمير فيصل بن على بن فيصل وزير التراث القومى والثقافة مجموعة من المفكرين المسلمين والغربيين للاشتراك فى « مهرجان التراث العمانى » وحضور « ندوة الدراسات العمانية » التى أقيمت فى مسقط من أول نوفمبر إلى الثامن منه سنة ١٩٨٠ وذلك بمناسبة احتفال السلطنة بعيدها الوطنى العاشر فى العهد الزاهر لحضرة صاحب الجلالة السلطان المعظم : السلطان قابوس بن سعيد •

وسرعان ما اخترت موضوعا أسهم به فى هذه الندوة ، وفى الموعد المحدد كنت هناك ، حيث التقيت بعدد كبير من الباحثين والدارسين دُعُوا لهذه الندوة من الأقطار العربية والإسلامية والغربية •

وفى « مسقط » عِشنا فى رحاب وزارة التراث القومى والثقافة فترة رائعة شاهدنا فيها عمان الحديثة ، وهى تصل تاريخها المعاصر بأمجادها القديمة ، ونعمنا بالإخوة العمانيين الذين أحاطونا بكل مظاهر الكرم والحفاوة •

وكلمة حق لابد أن تقال هى أن صاحب السمو معالى فيصل بن على ابن فيصل كان طيلة أيام الندوة يحيط الأعضاء والباحثين بكامل الرعاية ، وكان يعيش معنا ، ويشترك بكل اهتمام فى سير العمل ، مما أضفى على الندوة جوا من الدقة والتوفيق •

وقد بدأت الندوة مساء السبت أول نوفمبر بحفل افتتاح رسمى كبير حضره مجموعة من أصحاب السمو أفراد الأسرة المالكة الكريمة ، كما حضره أصحاب المعالى الوزراء ومجموعة من علماء عمان الأجلاء ومن أعيان البلاد •

وابتداءً من يوم الأحد بدأ إلقاء البحوث والدراسات فى الصباح والمساء وقد وُضع تخطيط دقيق لضمان حسن سيرْ العمل ، فخصصت أربعة أيام هى أيام : الأحد والاثنين ،والأربعاء والخميس لإلقاء البحوث ومناقشتها أما يوم السبت ويوم الثلاثاء فقد خُصّصا لرحلات داخل عمان ، وكان يوم الجمعة يوم راحة •

وقد لوحظ أن البحوث كانت غزيرة المادة ، وأن المناقشات كانت جادة ومثمرة ، مما أضفى على الندوة جوا من الاهتمام والنجاح •

أما الرحلات فكانت ممتعة حقا ، فقد زرنا فيها المناطق العريقة فى عمان ، ورأينا العواصم القديمة ، والقلاع الشاهقة ، وكم وقف الباحثون بإعجاب أمام قلاع جبرين ونزوى وبهلا وببت النعمان وحصن الحزم والرستاق •• ••

على أن إعجابنا بالقديم لم يصرفنا قط عن إعجابنا بالحديث ففى كل خطوة خطوناها ، وفى كل مكان وقفنا به ، كانت معالم النهضة الحديثة تنطق أمامنا بالتحية والإجلال لقائد هذه النهضة ، وباعث هذا المجد حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم ، الذى بعثته الأقدار ليقوم بنهضة شاملة فى هذا القطر العظيم ، وقد استجابت عمان ليد الإصلاح ، فإذا كل شيء نابض بالحركة . وإذا الأمل يفيق ، والخير يمتد ، ويعم الأرجاء •

وقد كانت لمسات التقدم ظاهرة فى كل مكان زرناه ، رأينا هذه اللمسات فى الإنسان العمانى ، وفى العمران ، والطرق ، والحقول ، فى القرى والمدن ، مما دفعنا جميعا للدعاء لصاحب الجلالة بحسن الجزاء من الله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا •

الإشراف على تصنيف وطباعة البحوث :

وكان لى الشرف أن أسند لى الإشراف على طباعة البحوث التى قدمت الندوة ، وهذا التكليف استلزم أن أقوم بالخطوات التالية :

أولا — كتابة تاريخ موجز ومتصل لعمان حتى يستطيع أى قارىء لبحوث الندوة أن يضع كل بحث على خريطة التاريخ بسهولة •

ثانيا — تصنيف البحوث :

رغبة فى أن تخرج هذه البحوث فى شكل علمى اتجهت إلى تصنيفها للمحافظة على التسلسل التاريخى بين بعضها والبعض من جانب ، وعلى الوحدة فى كل مجلد من مجلدات هذا العمل من جانب آخر • ولهذا قسمت البحوث للأقسام التالية :

— عمان فى العصور القديمة •

— تاريخ عمان ونشاطها الداخلى من مطلع الإسلام حتى الآن •

— عمان فى شرقى إفريقية •

— صلات عمان بالمغرب العربى •

— عمان فى مواجهة البرتغال •

— الحصون والعمران فى عمان •

— علاقات عمان الخارجية سياسيا وحضاريا واقتصاديا •

ثالثا — تنفيذ الإصلاحات التى أشار بها الباحثون العمانيون :

كانت البحوث قد أحيلت إلى مجموعة من الباحثين العمانيين لمراجعتها قبل الطبع ، وقد أثبت هؤلاء الباحثون بعض الملاحظات المهمة ، وكان على أن أضع هذه الملاحظات موضع التنفيذ •

رابعا — الإشراف على الطبع والإخراج :

وهذا الإشراف استلزم إعداد الأكلشيهات والخرائط والتنسيق والمراجعة ، ثم عمل الفهارس ، لضمان إخراج هذه المجموعة من البحوث فى شكل يلائم المناسبة العظيمة لهذه الدراسات الرائعة .

ومن الاعتراف باليد لصاحب اليد أن نذكر أن صاحب السمو معالى وزير التراث القومى والثقافة السيد فيصل بن على بن فيصل قد أولى هذا العمل كل العناية ، وكما رعى الندوة رعى إخراج بحوثها فى أحسن ثسوب .

ومما يذكر أن هذه البحوث قد خرجت فى ثمانية أجزاء بعنوان :

حصـــــاد

ندوة الدراسات العمانية

الزيارة الثانية لعمان : تكريم عالم فاضل من علماء عمان :

ومن الرحلات التى قمت بها إلى عمان رحلة للاشتراك فى مهرجـان لتكريم أحد علماء عمان البارزين هو الفقيه الفاضل الشيخ سالم بن حمود السيابى ، وهو مؤلف لعشرات من الكتب فى موضوعات مختلفة وشاملة ، ولعل أهمها كتابه « عمان عبر التاريخ » وهو يقع فى خمسة أجزاء وكتاب « إرشاد الأنام فى الأديان والأحكام » وهو أيضا يقع فى خمسة أجزاء وبعض مؤلفاته فى الفقه مثل : القول المعتبر فى أحكام صلاة السفر ، والعقود المفصلة فى الأحكام المؤصلة . . . . .

وقد كتبت بحثا طويلا عرضت فيه مؤلفات الشيخ وحللت أهم مـا جاء بها .

الزيارة الثالثة : الاشتراك فى كتاب عن « عمان فى التاريخ » :

فى سنه ١٩٩٠ اتجهت عمان للاحتفال بمرور عشرين عاما على نهضتها وارفه الظلال منذ بدأ عهد السلطان قابوس . وكان من الأعمال العلمية التى اتجهت وزارة الإعلام لإبرازها فى هده المناسبه أن دعت" عددا كبيرا من المؤرخين لإعادة كتابة تاريخ عمان . واختير لى موضوع مهم فى هــذا التاريخ هو « تاريخ العواصم العمانيه » .

والحق أن هذا الموضوع كان غامضا تماما ، ولم تسبق الكتابة عنه ، بل إن العواصم لم يكن متفقا عليها . وقد زرت عمان بهذه المناسبة وتجولت فى أنحائها ، واطلعت على كثير من المراجع . وقابلت عددا من علماء عمان وعدت لمصر ، وعشت فى تصوراتى ومراجعى حياة خصبة كان من ثمارها ان كتبت بحثا مهما عن هذا الموضوع . يسرنى أننى أضفته من قبل لهذا الكتاب فى الصفحات من ٢٥٧ إلى ٢٨٧ .

هذا وإذا كانت لى صلات" خاصة بعمان ، فإن لبلادى صلات خاصة بها كذلك ، فالإنسان المصرى لا ينسى أن سفارة عمان ظلت أعلامها ترفرف بالقاهرة . وظلت الصلات الدبلوماسية والثقافية متصلة بين البلدين . يوم انتبعت باقى الدول العربية اتجاه العراق فى مؤتمر بغداد سنة ١٩٧٨ الذى قرر قطع العلاقات مع مصر وسحب السفراء .....

وهذا يدل على عمق الروابط بين مصر وعمان . وعمق استقلال عمان فى اتخاذ القرار .

اليمن :

١ - الجمهورية العربية اليمنية

٢ - جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

ثم الوحدة التى تحققت سنة ١٩٩٠

حـــدود اليمن

إن المحاولات التى تجرى فى العهد الحاضر لتوحيد اليمن الشماليه واليمن الجنوبية ليست إلا عملا يُقصد به إعادة الحق إلى نصابه ، فاليمن الشمالية واليمن الجنوبية يكوّنان على مر التاريخ دولة واحده ولم يوجد الانفصال إلا بفعل تمزق يعم البلاد ، أو قوى أجنبية تحتل بعضها •

والكتب التاريخية التى بين أيدينا تضع حدود اليمن بحيث تشمل اليمن الشمالية واليمن الجنوبية ، ومن هذه المراجع ما يمتد بحدود اليمن الشرقية إلى الخليج العربى ، فيجعل المساحة الجنوبية من الجزيرة العربية الممتدة مع المحيط الهندى من البحر الأحمر إلى خليج عمان تكوّن دولة واحدة هى اليمن (١) وهؤلاء فى هذا الاتجاه يتبعون ما عرف عن حدود اليمن قبل ظهور الإسلام ، فقد ذكر جورجى زيدان (٢) أن اليمن فى التاريخ القديم كان يحدها من الشرق خليج العرب ، ومن الغرب البحر الأحمر ، ومن الجنوب المحيط الهندى ، وذكر الهمدانى (٣) أن بلاد اليمن تمتد من جنوب نجد والحجاز فى الشمال إلى خليج عدن فى الجنوب ، ومن حدود عمان والربع الخالى شرقا إلى البحر الأحمر ومضيق باب المندب غربا ، وهناك نص قديم يرجع إلى عهد الملك شرحبيل بن يعفر (٤٣٥ — ٤٥٥ م) وهو مكتوب بخط المسند ويفيد هذا النص أن هذا الملك الذى امتد حكمه على هذه المناطق جميعا قام بترميم سد العرب (مأرب) وفيما يلى فقرات من هذا النص :

شرحبيل ملك سبأ وريدان وحضرموت ويمنات وأعرابهم فى الطـور وتهامة ، قام بترميم سد العرم أى سد مأرب ، بأن سرّه (طهرّه) مـن

---

(١) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ١٠ •
(٢) العرب قبل الاسلام ص ١١٩ •
(٣) صفة جزيرة العرب : ص ٥١ •

أكداس التراب من أسفله إلى أعلاه ، بغية تحويل المياه إلى العرم ، وقد اشترك فى العمل الكثيرون من قبائل حمير وحضرموت [١] .

وقد امتد اليمن فى التاريخ الإسلامى فشمل حضرموت فى أكثر فترات هذا التاريخ ، فكان عمـال الخلفاء على اليمن يتولون ولاية حضرموت أيضا فى أكثر الأحوال ، ويعينون من قبلهم نوابا عليها [٢] .

ذلك هو الاتجاه العـام بالنسـبة لليمن وحضرموت ، ولكن هنـاك اتجاها آخر يميل له بعض الحضـارمة ، وهـو أن حضرموت غير اليمن تاريخا وحضارة ، وقد تمسك بهذا الرأى الأستاذ صالح بن سعيد . فقد انتهز فرصة رواية تشير إلى أن حضرموت جزء من اليمن فعلق عليها قائلا : لا يفوتنى أن أذكر أنه ليس المراد أن حضرموت جزء من اليمن ، وإن كان بعض المؤرخين يطلقون عليها اليمن بوجـه عام ، ولكن إذا أردنا الدقـة فحضرموت دولة مستقلة لها تاريخها القديم المستقل وعاداتها وتقاليدها ، ومنذ فجر الإسلام كان الرسول يبعث لها بعوثا خاصة غير مكتف ببعوث اليمن [٣] .

ويستدل هذا المؤلف على رأيه برواية يقتبسها من ابن كثير فى البداية ، وفيها يذكر ابن كثير عمال الرسول على اليمن وعلى حضرموت ويختم ابن كثير روايته بقوله : وبعث معـاذ بن جبل معلما لأهل البلـدين : اليمن وحضرموت ، ينتقل من بلد إلى بلد [٤] . فيرى هذا المؤلف أن ابن كثير عدّهما بلدين .

---

(١) انظر النص كله فى كتاب اليمن عبر التاريخ ص ١٢٩ — ١٣٠ .
(٢) صالح بن حامد العلوى : تاريخ حضرموت جـ ١ ص ١٦٨ .
(٣) دخول الاسلام الى حضرموت ص ٢٧ (وانظر الهامش) .
(٤) المرجع السابق ص ٣٠ .

أقسام اليمن الطبيعية :

تنقسم اليمن طبيعيا ثلاثة أقسام هى :

١ — منطقة تهامة ذات المناخ الحار الواقعة على ضفة البحر الأحمر ابتداء من المحيط الهندى إلى « حرض » شمالا بعرض خمسين كيلو مترا تقريبا ، وتمتاز أرضها بالخصوبة ، وتدفق المياه •

٢ — المنطقة الجبلية ذات المناخ الصحى المعتدل ، وتسمى منطقة الجبال « سلسلة جبال السارات » وتبدأ هذه المنطقة من أرض المغافر الحجرية جنوبا إلى الطائف شمالا بعرض حوالى ١٥٠ ك•م ويتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين ١٠٠٠ و ٣٦٠٠ متر ، وهى من أهم المناطق لزراعة البن والحبوب ، وتهطل عليها الأمطار بغزارة •

٣ — المنطقة الصحراوية الشرقية ، وهى منطقة حضرموت حتى عمان شرقا ، وعرضها حوالى خمسمائة ك•م ، وفيها مناطق اليمن الأثرية ، ومدن معين وسبأ وقتبان ، كمأرب ، وصراوح ، وحريب ، •••• ، وقد حظيت هذه المنطقة بازدهار عظيم فى الماضى فى المجال الزراعى والعمرانى ، وتعتبر أقدم منطقة فى العالم عرفت أساليب الرى التى كانت تعتمد على السدود ، كسد مأرب ويسرين وغيرهما ، وفيها الكثير من بقايا القصور والهياكل مما يرجع بناؤه إلى عهد شهرة اليمن وتفوقه (١) •

تاريخ اليمن قبل الإسلام :

إن تاريخ اليمن قبل الإسلام تاريخ حافل ، ومن الممكن أن نقرر هنا حقيقة شهيرة ، هى أن اليمن حملت لواء حضارة مزدهرة فترة طويلة من الزمن ، ولعبت فى التجارة دورا كبيرا ، كما كان لها دور عظيم فى نشر الفكر الحضارى قبل الإسلام وبعده •

---

(١) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ١٧ بتصرف •

وفى اليمن القديمة قامت إمارات كثيرة ، لم يكشف التاريخ بعد عن مكاناتها ، ولكنّ هناك خمس دول ذات أهمية كبرى ، تكلمنا عن أهمها فى الجزء الأول من هذه الموسوعة . وهى بإيجاز كالآتى :

مملكة معين :

أقدم دول اليمن المعروفة هى دولة معين . وقد بدأت من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وظلت حتى ٨٥٠ قبل الميلاد وحلت محلها مملكة سبأ . وكان لمعين عاصمتان إحداهما سياسية وهى « معين » والثانية دينية وهى « بثيل » وسنتكلم كلمة فيما بعد عن هذه الدولة التى وضعت الأساس لحضارة اليمن ، ونشاطها فى الداخل والخارج .

مملكة حضرموت :

وقد بدأت حوالى سنة ١٠٢٠ قبل الميلاد وظلت حتى سنة ٦٥ ميلادية ، وكانت عاصمتها « شبوة » وقد تغلبت عليها سبأ وضمت أرضها .

مملكة قتبان :

وقد بدأت حوالى الألف الأول قبل الميلاد ، وكان لها الإشراف على باب المندب ، وكانت عاصمتها (تمنع) وسقطت سنة ٥٤٠ قبل الميلاد ، وقد ورثتها سبأ كما ورثت دولة معين ودولة حضرموت .

مملكة سبا :

وقد قامت حوالى سنة ٩٥٥ قبل الميلاد وظلت حتى سنة ١١٥ ميلادية ، وكانت عاصمتها مأرب ، واتسع ملكها كما ذكرنا من قبل فشمل مملكة حضرموت ، ومملكة معين وقتبان ، وقد تحدثنا عنها فى الجزء الأول من هذه الموسوعة (١) .

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامى حـ ١ ص ٩٨ من الطبعة الرابعة عشرة .

مملكة حمــير :

وتسمى دولة التبابعة ، وكانت عاصمتها (ظفار) وظلت حتى أسقطها الاستعمار الحبشى سنة ٥٢٣ ميلادية .

حضارة اليمن القديمة

وينبغى أن نقرر أن أقدم سكان اليمن الذين سكنوا مملكة معين جاءوا إلى هذه المناطق وافدين من أرض العراق ، وكانوا هناك من العمالقة الذين نالوا حظــا وفيرا فى دولــة حمورابى ، ثــم وفدوا إلى اليمن ومعهم حضارة زاهرة كانت أساسا للدور الحضـــارى الذى لعبــوه فى موطنهم الجديد .

ومع قيام دولة معين بدأت صلة كبيرة بين هذه المناطق وبين اليونان ومصر ، وكانت موانى اليمن الكثيرة تستقبل الحاصلات من الهند والصين ودول جنوب شرقى آسيا ، وتصدرها إلى اليونان ومصر ، فكانت همزة وصل بين هذه الدول .

وتتحدث النصوص التى عُثِرَ عليها فى مصر عن الصلات التى كانت تربط مصر بالمعينيين ، كما تقرر أن جالية معينية كانت تعيش فى مصر ، وأن المعينيين كانوا يقومون بتزويد معابد مصر بالبخور [١] ، وصــلات اليمن باليونان ومصر وصلاتها بالفرس والهند والشرق الأقصى جعلها على علم بما كان يوجد فى هذه الأقطار من علوم وفنون مما جعل التبادل لا يتوقف عند السلع ، بل يشمل الأفكار والحضارات .

وقد خلّفت سبأ وحمير آثارا تدل على العظمة والرقى ، وهى تشمل كثيرا من الأطلال والنقوش ، كما كان لها أسطول ضخم ينقل البضائع

---

(١) دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ١ ص ٣٩٧ وما بعدها .

بين موانى الهند والصين وسومطرة والصومال بحيث كانت التجارة شبه احتكار فى يدها [١] .

ومن اليمن كانت التجارة تصعد إلى الشمال بقوافل برية تسيطر عليها اليمن أيضا ، قبل أن ينتقل مركز هذه القوافل إلى مكة ، فقد كانت سبأ إبان عظمتها التجارية تسيطر على طرق النقل التى تجتاز الحجاز متجهة شمالا حتى موانى البحر المتوسط ، وكانت لها مستعمرات أنشئت على هذه الخطوط ، ويرى الدكتور حتى أن بلقيس لم تكن ملكة على بلاد اليمن ، وإنما كانت ملكة على أحد معاقل سبأ ومراكزها التجارية سالفة الذكر [٢] .

وقد كان تجار اليمن من الذكاء لدرجة أنهم حافظوا على أسرار تجارتهم ، فلم يعرف أهل الشمال مصادر كثير من البضائع التى كانت ترد إلى اليمن من الهند وإندونيسيا والصين وغيرها حتى ظن بعض الرومان واليونان أن جميع هذه البضائع كانت من إنتاج اليمن [٣] .

وقد كتب الهمدانى (٣٣٤ هـ) مجموعة كبيرة من الكتب وصف فيها حضارة اليمن كما شاهدها ، وتحدث بإفاضة عن آثار سبأ وحمير من الحصون ، والقصور ، والمعابد ، والسدود ، وصهاريج المياه وقنوات الرى ، والأبراج ، وتماثيل الرخام والبرونز ، وجلاميد الصخر الهائلة المنحوتة نحتا فنيا رائعا إلى غير ذلك من زخرفة الحيطان وسقوف الأبنية والمعابد بالذهب والفضة والبرونز ، وغيرها من المعادن التى استطاعوا

---

(١) Peciplus of the Erytarasan Sea Translated from the Greek.

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ١ ص ٥٤ .

(٣) المرجع السابق : ص ٥٩ — ٦٠ .

استخراجها من بطون الأرض ، واستخلصوها مما خالطها ثم استعملوها أروع استعمال [١] .

الأديان فى اليمن قبل الإسلام :

وقد انتشرت فى اليمن الديانة التى كان القمر فيها يعد إلها ، وهى إحدى الديانات الرئيسية التى كانت تسيطر على جنوب الجزيرة منذ عام ألف قبل الميلاد ، أى منذ مطلع عهد مملكة سبأ ، وعاشت بهـذه المناطق حتى دخلت الديانة اليهودية اليمن فى مطلع القرن السادس الميلادى ، ولكن هذه لم تعمر باليمن كثيرا ، فحلت محلها الزراد شتية على يد الفرس ، ثم الديانة المسيحية على أيدى الأحباش ، وظلت المسيحية باليمن حتى جاء الإسلام ، ويبدو أن كثرة الأديان باليمن واضطراب هذه الأديان لم تدع لأى منها فرصة للتعمق فى ذهن اليمنيين ، فلما جاء الإسلام رحبوا به .

وقد عَرَفَ تاريخ اليمن القديم النظامَ الدستورى ، والمجالس النيابية والقبلية التى كانت تمثل بها القبائل تمثيلا يترك لهـا مجالا واضـحا فى السلطات التنفيذية .

كما عرفت اليمن بناء السفن ، وفن الملاحة بما يستتبعه من عـلوم فلكية وطبيعية ، كما كانت قصور اليمن نموذجا ظل بعد الإسلام لمـا كان لـه من جلال وجمال .

اليمن فريسة الاستعمار :

سقطت اليمن فريسة الاستعمار سنة ٥٢٣ ميلادية ، وقد وضحنا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ظروف امتداد نفوذ الحبشة إلى اليمن ، وقد ظل الأحباش باليمن اثنتين وسبعين سنة ، ثم انتصر عليهم الفرس

---

(١) أنظر كتاب : صفة جزيرة العرب ، والاجزاء التى عرفت من كتاب الاكليل للهمدانى ، وحديث الاستاذ أحمد شرف الدين عن الهمدانى وكتبـه .

وطردوهم منها (١) ، وكان مع الفرس أحد أولاد ملوك حمير واسمه سيف بن ذى يزن ، وقد عينه ملك الفرس حاكما على اليمن ، ولكنه قتل على يد الذين استبقاهم لخدمته من الأحباش وقيل قتل بتدبير الفرس ، وتشتت شمل اليمن بقتل سيف بن ذى يزن ، وقامت باليمن طوائف متعددة ، ودويلات كثيرة لكل منها ملك ، وعين كسرى وهرز حاكما لليمن ، وكان سلطانه فوق سلطان ملوك الطوائف (٢) .

وبعد وهرز حكم أبناؤه وأحفاده على ما ذكرناه فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ، حتى آل السلطان إلى يد باذان الذى عينه كسرى ، والذى ظهر فى عهده الإسلام ، وبعث له رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم يطلب دخوله هذا الدين ، فى الوقت الذى بعث فيه للملوك والرؤساء فى مناطق الجزيرة وما حولها ، وتذكر الرواية أن كسرى عندما جاءه رسول محمد ثار وأرسل إلى باذان نائبه باليمن يطلب منه أن يرسل رجلين شديدين إلى مكة ليقبضا على محمد تمهيدا لإرساله إلى كسرى ، وبدأ باذان ينفذ ما أمر به ، فأرسل الرجلين إلى رسول الله ، ودخل الرجلان على محمد وأخبراه الخبر فقال محمد لهما : قولا لمن أرسلكما أن ربى قتل ربه ، وكان قد أوحى للرسول أن شيرويه ابن كسرى قتله ، وعاد الرجلان بهذه الرسالة ، وكان خبر القضاء على كسرى لم يصل إلى اليمن ، فقال باذان : إن صدق محمد فهو نبى حقا ، وبعد فترة قصيرة وردت الأخبار بذلك ، فآمن باذان وآمن معه كثير من السكان ، وبدأ الإسلام ينتشر فى اليمن .

---

(١) تاريخ الطبرى : ج ١ ص ٥٥٨ .

(٢) صالح بن حامد العلوى : تاريخ حضرموت ج ١ ص ١١٣ .

الإسلام فى اليمن

فتح إسلام باذان الطريق لانتشار الإسلام بنواحى اليمن ، وكـان التخلص من نفوذ الفرس من أهم العوامل التى دفعت السكان لاعتناق الإسلام .

وفى عام الوفود قدمت من اليمن ، ومن حضرموت وفود متعددة ، ومنهـا وفود كنـدة وهمدان وخولان والنخع والصـدف وعذره وجهينة ومراد غيرها .

وكان وفد كندة برئاسة الأشعث بن قيس الكندى صاحب مربـاع حضرموت ، وله ولأولاده تاريخ قلق أبرزناه فى الجزء الأول والثانى من هذه الموسوعة ، ويقولون أن وفد كندة كان أهم وفود اليمن للرسول ، وقد كان هذا الوفد مثالا للروعة وحسن الهيئة ، وكان يتكون من ثمانين عضوا ، كل واحد منهم متأنق فى لباسه وهيئته ومركبه ، وكان الأشعث رئيس الوفد من ملوك كندة ، وصاحب مرباع حضرموت .

وكان وفد همدان برئاسة مالك بن الخط الهمدانى ، ومالك بن أيفع الهمدانى .

وكان وفد حمير برئاسة الحارث بن عبد كلال الحميرى ، ونعيم بـن عبد كلال ، وكان وفد مراد برئاسة فروة بن مسيك المرادى .

ومن العظماء الذين وفدوا على الرسول من اليمن وائل بن حجر بن ربيعة وكان من أبناء الملوك باليمن ، فأدناه الرسول منه وأجلسه عـلى ردائه ثم أقطعه الرسول أرضا وأرسل معه معاوية بن أبى سفيان ليسلمها إليه ، فركب وائل ناقته ومشى معاوية خلفه ، ولما شق المشى على معـاوية طلب من وائل أن يردفه خلفه ، فقال وائل : لست كفئا لأن تكون رديفا .

وقد عاش وائل حتى أصبح معاوية خليفه ، فوفد وائل عليه بدمشق ، فأكرمه معاوية وأحسن إليه فقال وائل : وددت لو كنت حملته بين يدى [1] .

ومن مشاهير الذين وفدوا من اليمن أبو موسى الأشعرى ، وأخوه أبو بردة ، وياسر بن عمار العنسى والد عمار بن ياسر [2] .

عمال الرسول على اليمن :

لما أسلم باذان أقره الرسول على مكانته باليمن واليا على جميع مخاليف اليمن ، وقد اتخذ صنعاء عاصمة له وبقى بها حتى مات بعد حجة الوداع ، فقسم الرسول اليمن إلى عشر عمالات ، عين عليها ولاة من قبله كما يلى :

شهر بن باذان على جانب من صنعاء .

وعامر الهمدانى على الجانب الآخر من صنعاء .

وطاهر بن أبى هالة الأسدى على عك .

وزيادة بن لبيد على حضرموت .

والمهاجر بن أبى أمية أخى أم سلمة على كندة وقد تولى زياد بن لبيد إمارة كندة بالنيابة عن المهاجر الذى منعه المرض من الذهاب لها عقب توليته إياها .

وعكاشة بن ثور على السكاسك والسكون .

وأبو موسى الأشعرى على زبيد .

وخالد بن سعيد على نجران .

---

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ، والاصابة .
(٢) تحدث ابن حجر العسقلانى فى كتابه « الاصابة فى تمييز الصحابة » عن أبرز شخصيات هذه الوفود أحاديث واسعة .

ويعلى بن منبه التميمى على الجند .

وعمرو بن حزم الأنصارى على بعض مناطق حضرموت .

وبجوار هؤلاء الولاة أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم دعاة وقضاة إلى اليمن ، ومن هؤلاء : أبو عبيدة بن الجراح الذى أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم مع وفد نجران حينما سأله قادة هذا الوفد أن يبعث لهم إلى اليمن رجلا أمينا ، فنظر الرسول إلى أبى عبيدة بن الجراح وقال له : قم يا أبا عبيدة معهم ، فأنت أمين هذه الأمة (١) .

ومن هؤلاء كذلك على بن أبى طالب الذى بعث به الرسول ليتولى منصب القضاء باليمن ، ولما تردد على خوفا من هذا المنصب قال له الرسول : إن الله سيهدى لسانك ويثبت قلبك ، وكانت وجهته رضى الله عنه صنعاء ومخالفيها ، ومنهم كذلك معاذ بن جبل الذى اتجه إلى الجند ومخاليفه ، وهكذا شمل الدعاة أقسام اليمن الكبرى .

ويتضح مما ذكرناه آنفا عن عمال اليمن أن الانقسام أصبح واضحا فى هذه المنطقة ، ذلك الانقسام الذى عرفه تاريخ اليمن قبل ذلك كما اتضح من الوفود التى جاءت شبه مستقلة لتعلن للرسول إسلامها .

اليمن فى عهد الخلفاء الراشدين

تحدثنا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ، وفى مطلع هذا الجزء (السابع) عن المشكلات التى واجهها الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، وهى المرتدون ، ومانعو الزكاة ، والمتنبئون ، وذكرنا أن عدم تعمق الإسلام فى بعض النفوس جعلهم يستجيبون لكل ثورة تعمل لتخليصهم من تكاليف الإسلام المادية كالزكاة — أو التزاماته العقائدية

---

(١) بدر العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان : مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ جـ ٧ ورقة ٦٥٤ .

كالتوحيد والعبادات ، ونريد هنا أن نقول : إن اليمن أسهم بنصيب كبير فى هذه الثورات المضادة للإسلام ، وإنه قامت به أكثر هذه الحركات ، وكانت باليمن أسباب كثيرة تمهد لهذا التمرد والانحراف عن الإسلام الصحيح ، فقد كانت هناك منافسات عميقة الجذور بين الحضر باليمن والبدو فى وسط الجزيرة ، ورأى اليمن أنه سيفقد سلطانه نهائيا إذا أصبح الحجاز مركز السلطة ، ثم إن ملوك الطوائف باليمن أصبحوا مرءوسين للعمال الذين عينهم الرسول على مناطق اليمن ، وكان هؤلاء الملوك يحرصون على مكانتهم ويرون أن خضوعهم لعمال المدينة فيه مهانـة لهم ، وكانت هناك كـذلك الاضطرابات الفكرية المنتشرة باليمن بسبب الاتجاهات الدينية والفكرية الكثيرة التى عرفها اليمن بسبب موقعه وظروفه ، فقد وفدت على اليمن اتجاهات دينية مع التجار الوافدين أو العائدين من الهند ومن الشرق الأقصى ، وانتشرت فى اليمن اليهودية عندما تهود حاكمها ، وحكم الفرس اليمن فجلبوا الزرادشتية معهم ، وحكمها الأحباش ففرضوا المسيحية ، وكانت الوثنية دينا شائعا بين العرب ، وكل هذه الأسباب حالت دون تعمق الإسلام فى النفوس ، وهيأت لإثارة الشغب فى مناطق اليمن وما جاورها ، وقد هبت الحركات المضادة للإسلام فى أواخر عهد الرسول ، واتسعت فى عهد أبى بكر الصديق ، والحق أنه ليس يعنينا أن تسمى الحركة بمانعى الزكاة أو المرتدين أو المتنبئين ، فكلها تنبع من معين التمرد ، وتصب فيه ، وكانت إذا فشلت حركة انضـم أتباعها إلى أية حركـة أخـرى تحمل لواء العصيان . وفيما يلى كلمة عن أشد حركات اليمن .

الأسـود العنسى :

ادعى الأسود العنسى النبوة فى بلاد مذحج حيث كان يتكهن هنـاك فى أحد الكهوف (١) وكان له مريدون افتتنوا به ، فهب بهم يعلن نبوته وسمى نفسه « رحمان اليمن » وقد استطاع أن يدخل نجران التى تجاور

---

(١) النويرى : نهاية الارب حـ ٣ ص ٣٧٩ .

بلاد الحجاز وأجلى عنها خالد بن سعيد ، وتبعه كثيرون من نجران فاقتحم بهم صنعاء ، وقتل شهر بن باذان وشتت جيشه وتزوج امرأته ، وعلا شأنه فى اليمن ، وكان ذلك فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول آنذاك يعد العدة للزحف على الروم بالشمال وقد طرأت فكرة أن يتجه الجيش الذى أعد للشمال ليضرب الأسود باليمن ، ولكن الرسول اثر ان تبقى خطته كما هى ، إذ ظهرت فى بلاط هذا المتنبى موجه من المؤامرات اغنت عن شن حملة عسكرية عليه ، وكان فى قمة هذه المؤامرات حركة قادتها زوجته وآلتها نقمة عليه بسبب زواجه من امراة شهر بن باذان ، ونجحت هذه المؤمرات ، فقتل الأسود العنسى غيلة بمؤامرة دبرتها هذه الزوجة مع بعض خصومه فى سكون الليل ، وكان ذلك قبل وفاة الرسول بيوم أو يومين (١) وكانت مدة ظهور العنسى حوالى أربعة شهور (٢) .

وبعد مقتل الأسود العنسى ووفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه أرسل أبو بكر أحد جيوشه بقيادة المهاجر بن أبى أمية للقضاء على ما تبقى من أتباع الأسود ، ثم للقضاء على ثورة كندة بحضرموت التى سنتحدث عنها فيما يلى :

الأشعث بن قيس :

أظهر الأشعث بن قيس الكندى التمرد فى حضرموت عقب وفاة الرسول ، ثم حدثت حادثة جعلته يعلن الردة ، فقد كانت طوائف من كندة قد أعلنت ردتها ، فحاربها زياد بن لبيد ، وأسر منها كثيرا من النساء ، وقد مر وفد النسوة بالأشعث فناديته منتحبات باكيات لينقذهن من الأسر ، فهب الأشعث يعلن تمردا شاملا فى كندة وحضرموت ، ويعلن وقف دفع الزكاة ، ولكن قواد المسلمين تدافعوا نحو هذه المناطق بجيوشهم الكبيرة ، فقبضوا على الأشعث وهزموا جيشه ، فشد المهاجر بن أبى أمية

---

(١) انظر ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٢٣٠ وفتوح البلدان للبلاذرى ١٠٦ .

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب القسم الثالث ص ١٢٦٥ .

وثائق الأشعث وأرسله إلى أبى بكر ، وقد صرخ فيه أبو بكر قائلا : أكفر بعد إيمان يا أشعث ؟ فأجاب الأشعث : لا ولكنا شححنا بأموالنا • وتاب الأشعث فقبل أبو بكر توبته ، وتزوج هذا أخت أبى بكر فيما بعد (١) ، وقد أوردنا فى الجزأين الأول والثانى من هذه الموسوعة دراسات عن أخلاق أسرة الأشعث تدل على أن مبادىء الإسلام لم تتعمق فى نفوس هذه الأسر ، وقد اشترك فى حرب الأشعث مع المهاجر زياد بن لبيد وعكرمة ابن أبى جهل •

أهـل مهـرة :

وارتد أهل مهرة فى موجة التمرد التى شملت جنوب الجزيرة ، فأرسل لهم أبو بكر عكرمة بن أبى جهل عقب الخلاص من مسيلمة فتحقق النصر على يديه •

وفاء أهل اليمن إلى الإسلام كما يقول تاج الدين اليمانى (٢) واتجه أبو بكر إلى تجميع وحدات اليمن لتكون تحت أميرين فقط ، فجعل عبد الله بن أبى ربيعة على الجند ومخاليفه ويعلى بن منية التميمى (٣) على صنعاء وأعمالها ، وكان والى صنعاء يتولى حضرموت أيضا ويعين من قبله نوابا عليها •

واستكمالا للحديث عن ولاة اليمن فى عهد الخلفاء الراشدين نذكر أن عمر بن الخطاب أقر عبد الله ويعلى فى عمليهما ، ثم عزل عمرُ يعلى لشكاية فيه واستعمل بدله المغيرة بن شعبة على صنعاء ، فلما عاد يعلى إلى عمر دافع عن نفسه وأظهر بطلان الشكاية فرده عمر إلى عمله بعد سنتين •

---

(١) ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة جـ ١ ص ٦٩ •
(٢) بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥ •
(٣) نسبة الى أمه وأحيانا ينسب الى أبيه فيقال يعلى بن أمية •

وفى عهد عثمان أقر الخليفة الواليين فى مكانهما ، فلما جاء على ابن أبى طالب استعمل ابن عمه عبيد الله بن العباس على جميع اليمن ، ففارق يعلى وعبد الله بن أبى ربيعه اليمن ، وأتيا مكة ، وانضم يعلى إلى طلحة والزبير وعائشة وأعانهم بمال وإبل ، واستمر عبيد الله باليمن حتى أدبر أمر على [١] .

الفتوحات الإسلامية وأهل اليمن

عندما انتهت مشكلات التمرد بالجزيرة العربيه ، وعادت الجزيرة إلى الطاعة ، بدأ التوسع الإسلامى فى الشمال ، وقد حملت اليمن عبئا ضخما فى الصراع ضد الفرس والروم ، ويذكر المؤرخون أنه عندما تلى خطاب أبى بكر داعيا أهل اليمن للجهاد استجابوا بحماسة لهذه الدعوة حتى يخدموا راية الإسلام من جانب وحتى يتجهوا بنشاطهم العسكرى إلى أعداء العرب من جانب آخر ، وسرعان ما نهض عدد كبير من قبيلة ذى الكلاع بقيادة زعيمها ذى الكلاع الحميرى ، ومن قبيلة مذحج بقيادة زعيمها قيس بن هبيرة ومن قبيلة روس (الأزد) بقيادة زعيمها جندب ابن عمر الروسى ، ومن طىء بقيادة زعيمها حابس بن سعد الطائى ، ووصل هؤلاء جميعا إلى أبى بكر فى يوم واحد ، وكان عددهم يزيد على العشرين ألفا بكامل سلاحهم وعتادهم ، فبعثهم أبو بكر إلى العراق والشام فجاهدوا أصدق جهاد ، وأبرزوا أعظم بلاء [٢] .

وكان معظم الجيش الذى اعتمد عليه عمرو بن العاص فى فتح مصر من اليمنيين الذين ينحدرون من عك وغافق ، ومن لخم ، وراشده [٣] ويرجع الفضل فى اقتحام حصن الفرما إلى سميدع بن وعله السبىء ، كما أبلى اليمنيون بلاء حسنا فى حصار حصن بابليون [٤] .

---

(١) تاج الدين اليمانى : فى تاريخ اليمن ص ١٥ .
(٢) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ١٦٨ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٦ — ٥٨ .
(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٢ وما بعدها .

اليمن بين عثمان وعلى :

اختلف اليمنيون إبان الثورة على عثمان ، فمال أكثرهم إلى على بن أبى طالب ، الذى كان يعتبر منافسا لعثمان ، ومن أجل هذا كانت اليمن أحد مراكز الثورة على عثمان ، ولما آلت الخلافة إلى على وعارضه معاوية أخذ اليمنيون مكانهم فى صفوف على ، وكانت همدان شديدة الحماسة لعلى فى صراعه ضد منافسيه .

ومن الشخصيات اليمنية التى برز اسمها فى تاريخ الصراع الذى خاضه على كرم الله وجهه مالك بن الأشتر النخعى اليمانى الذى كان كبير القواد فى جيش على ، وأبلى أحسن البلاء فى موقعتى الجمل وصفين . ومنهم كذلك البراء العذرى الهمدانى الذى كان فى جيش معاوية ثم تركه وانضم إلى جيش على ، عندما رأى معاوية يمنع الماء عن جيش على ، ومنهم سعيد بن قيس الذى يعتبر أحد فرسان العرب المعدودين وأحد الدهاة الخمسة : معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وقيس بن سعد ابن عبادة ، وسعيد بن قيس .

اليمن فى العهد الأموى

كان معاوية يدرك انحياز اليمن إلى على بن أبى طالب ، ومن أجل هذا نجده عندما ضعف أمر على إبان صراعه مع الخوارج والأمويين ، يتجه معاوية لضم اليمن إليه ، واستعمل فى سبيل ذلك صورا من القسوة والعنف ليثبت أمره بهذه البلاد ، فأرسل لها جيشا كبيرا بقيادة رجل عرف بالقسوة والشدة هو بسر بن أرطأة العمرى ، وأمره أن يقتل شيعة على وكل أنصاره ، ولم يستطع عبيد الله بن العباس أن يتصدى لهذا الجيش فترك اليمن عائدا إلى الكوفة تاركا أهله وذويه باليمن ، ودخل بسر صنعاء ، فقتل ولدين لعبيد الله بن العباس ، كما قتل كثيرا من أنصاره ، وقد دفن الولدان فى مكان بنى به مسجد [1] يسمى مسجد الشهيدين .

---

(١) الهمدانى : الاكليل جـ ٨ ص ٦٦ .

ولم يسكت على بن أبى طالب على هذا التصرف فأرسل جيشا كبيرا بقيادة حارثة بن قدامة السعدى ، ولم يستطع بسر أن يلتقى بهذا الجيش الكبير فولى الأدبار ، ولكن وفاة علـى بعد ذلك ضمت اليمن نهائيا إلى معاوية مع أجزاء العالم الإسلامى المختلفة التى دانت لـه .

وقد بـذل الأمويون جهودا كبيره فى تقريب اليمنيين لينتفعوا بهم وبجهودهم ، وليأخذوهم درعـا يستعينون به ضـد غير العرب ، وضـد أعدائهم . وقد تزوج معاوية إمرأة كلبية يمانية ، وأنجب منها إبنه وولى عهده يزيد ، ومن أجل هذا كانت قبيلة كلب اليمانية هى التى استطاعت أن تعيد السلطان إلى الأمويين وكان على وشك أن يزول بقيام ابن الزبير ، فبواسطة كلب قهر مروان بن الحكم عرب الشمال فى مرج راهط وبدأت انتصارات الأمويين على ابن الزبير [1] ولعل هذا هو الذى دفع جورجى زيدان إلى أن يقول : إن أكتاف اليمانية هى التى رفعت عرش الدولـة الأموية [2] .

وقد اتجه اليمنيون بكل قواهم المساعدة فى حركة الفتوح الواسعة التى خاضها الأمويون وبرزت من القادة اليمنيين أسـماء الكثيرين مثل عبد الرحمن الغافقى العكى اليمانى بطل الفتح الإسلامى فى أسبانيا ، وأمير الأندلس السمح بن مالك الخولانى فاتح قرطبة ، وأسد بن عبد الله القسرى الذى كافح بإصرار فى خراسان ليحافظ على ملك الأمويين بهـا ضد حركات الشيعة التى ظهرت هناك .

ويبدو أن نشاط اليمنيين فى الأندلس كان واسعا بدليل ما عرف مـن قلاع تنسب إلى قبائل يمنية مثل قلعة همدان فى قرطبة ، وقلعة خولان فى غرناطة وقلعة يحصب فى أشبيلية ، ولا عجب أن يتقبل اليمنيون عـلى أماكن الخصب بالأندلس أو الشام ومصر ، فقد كانت لهم ولأجدادهم جذور فى معاناة الزراعة والعيش فى رحابها .

(١) انظر كتاب اليمن وحضارة العرب للاستاذ عدنان ترسيس ص ٨٩ .
(٢) التمدن الاسلامى ج ٤ ص ٥٢ .

أما عن ولاة الأمويين فى اليمن فقد تحدث عنها تاج الدين اليمانى ، ومنه نقتبس قائمة هؤلاء الولاة :

عثمان بن عفان الثقفى .

عتبة بن أبى سفيان .

النعمان بن بشير الأنصارى .

سعيد بن دادوية (من أبناء الفرس [1]) .

الضحاك بن فيروز الديلمى .

يزيد بن بوجير الحميرى .

ويلاحظ أن هؤلاء الولاة كان لهم أمر اليمن كله .

وقد ظل الوالى الأخير فى السلطة حتى مات يزيد بن معاوية ، وظهر أمر عبد الله بن الزبير فأطاعه أهل اليمن إلا القليل منهم ، فولى ابن الزبير على اليمن عددا كبيرا من الولاة ، كان بعضهم لا يبقى فى منصبه أكثر من بضعة شهور ثم يعزله ابن الزبير ، ومن ولاة ابن الزبير على اليمن ، عبد الله بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعبيدة بن الزبير .

ولما عاد سلطان الأمويين على اليمن توالى أمراؤهم على النحو التالى :

محمد بن يوسف الثقفى (أخو الحجاج) .

أيوب بن يحيى الثقفى .

عروة بن محمد السعدى .

مسعود بن عوف الكلبى .

يوسف بن عمر الثقفى .

السلطان بن يوسف بن عمر الثقفى .

---

(١) ترى بعض المراجع أن الذى تولى بعد النعمان بن بشير هو مشير بن سعد الأعرج .

مروان بن محمد الجعدى .

الضحاك بن واصل .

القاسم بن عمر الثقفى .

ونشب آنذاك صراع باليمن قاده عبد الله بن يحيى الحضرمى الخارجى ، وقد استنفد هذا الصراع كثيرا من جهد الأمويين ، ولما استعادوا سلطانهم على بلاد اليمن ، ولى مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين الوليد بن عمر ، فكان هذا آخر ولاة الأمويين باليمن .

بين اليمن وحضرموت

رأينا القبائل باليمن الكبرى تشترك بحماسة وافرة فى حركة الفتوح التى بدأت فى عهد الخلفاء الراشدين ، واستمرت فى العهد الأموى ، ولكن يبدو أن هناك فرقا خلقته الطبيعة بين اليمن وحضرموت ، فاليمن استعادت كثيرين ممن خرجوا منها بسبب ما تنعم به من خصب ورخاء ، أما حضرموت فقد دفعت بفلذات أكبادهـا إلى الميادين المختلفة بالأقطار المتعـددة ، واستطاب أكثر هؤلاء تلك المناطق التى نزلوا بها ، فأقاموا فيها ، وتخلوا عن حضرموت إلا بارتباط الذكرى ، وتراث الأجداد ، وتحدد المراجع التى بين أيدينـا تلك القبائل التى نزلت هنا وهنـاك فى رحاب العـالم الإسلامى الذى كان يعد وحدة واحـدة لا يحس الإنسـان بغربة فى أى منطقة من المناطق يعيش بها ، وبناء على المراجع التى نتدارسها سكنت كندة الكوفة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يطول مقامهم بها لأنهم كانوا عثمانية ، وكانت الكوفة شيعية النزعة ، فكان سكانها يتناولون عثمان بمالا يُرضى الكنديين ، فنقلهم معاوية إلى الرها مـن أرض الجزيرة ، ولـم يبق منهم بالكوفة إلا من كان شيعى النزعة .

وفى الشام سكن عدد كبير من كندة ، ومن قبيلة حضرموت كنفير بن مالك الحضرمى ، وعمر بن عبد اللـه الحضرمى وكان ممن قـدم حمص

مع أبى عبيدة ، وقد اتجهت قبيلة السكون إلى حمص فنزلت بها ومن زعمائها صالح بن شريف السكونى ، كاتب أبى عبيدة ، والحصين بن نمير السكونى الذى استخلفه مسلم بن عقبة بعد وقعة الحرة وكثيرون سواهم .

وفى مصر نزل عدد كبير من قبيلة الصدف ، وقبيلة حضرموت والسكون ، ومهرة وكندة ، وقد نزل هؤلاء الفسطاط والفيوم ومنفلوط ، وانتشروا فى محافظتى الشرقية والقليوبية وغيرهما وسارت جماعات من القحطانيين حتى حطت رحالها فى ليبيا ، كما نزل عدد كبير من الحضارمة بالحجاز .

ونبغ فى الفقه الإسلامى عدد كبير من الحضارمة فتولوا مناصب القضاء فى عدة أمكنة ، ففى مصر عين سليمان بن عتر التجيبى للقضاء فى عهد عبد الله بن أبى سرح ، ويونس بن عطية فى عهد عبد العزيز بن مروان وتولى بعد يونس ابن أخيه أوس ، وفى الكوفة تولى سلمة بن كهيل وأوس بن ضمعج .

الحضارمة فى جنوب شرقى آسيا :

وربما جاز لنا أن نقفز قفزة زمنية واسعة لنقرر أن الحضارمة فى العصر الحديث لعبوا نفس الدور الذى لعبه أجدادهم فى الزمن الماضى ، فتركوا حضرموت واتخذوا وجهتهم نحو جنوب شرقى آسيا ، وبخاصة فى إندونيسيا ، وعندما طاب لهم المقام هناك أقاموا واستوطنوا الأرض الجديدة ، وأخلصوا لها وتعاونوا مع أهلها لخدمتها ، والكثرة الغالبة منهم لم تنس وطن الأجداد ، وتحرص على اللغة العربية ، وعلى توثيق الصلات بمن قعدت هممهم عن الهجرة ، أو آثروا البقاء بموطن الأجداد .

أسباب ضعف حضرموت :

ويقول مؤرخ حضرموت الأستاذ صالح بن حامد العلوى : إن حضرموت بسبب الهجرات فى عهد الفتوح خلت من الوجوه والأعيان ،

ولم يبق بها إلا من قعدت بهم عزائمهم ، وأناخت بهم هممهم عن النهوض فى نصرة الإسلام ، وكان جفاف حضرموت والثراء العظيم عند الأمويين ، ورغبة الأمويين فى الاعتماد على العرب فى صراعهم للفتوحات من جانب وللقضاء على ثورات الفرس التى وضعت التشيع لافتة لها من جانب آخر ، كل هذا سبب رحلة أهل حضرموت إلى الشام ، فنتج عن ذلك خراب البلاد ، حتى لم تعد لحضرموت أهمية تذكر ، وأصبحت تابعة لليمن وعدت إحدى بواديه ، وكانت هذه هى الضربة الثانية لليمن بعد ضربة الردة (١) .

وهناك ضربة ثالثة أصابت حضرموت تلك هى ثورة عبد الله بن يحيى الكندى التى أشرنا إليها آنفا ، وقد تعاون هذا مع أبى حمزة الخارجى الذى كان قد استولى على مكة وعلى المدينة ، وقد تعرضت حضرموت لكثير من الخسائر فى أرواح البقية الباقية من أبنائها ، فقد أرسل مروان ابن محمد الخليفة الأموى الأخير جيشا كبيرا بقيادة عبد الملك بن عطية السعدى ، وشعيب البارقى ، وقد استطاع هذا الجيش أن يقضى على الثائرين ، ولكنه فى الوقت نفسه قضى على البقية الباقية من آمال حضرموت فى التقدم والتطور (٢) .

ومرة أخرى نقرر أن هذه الأسباب أضعفت حضرموت وجعلت هذه المنطقة تابعة اليمن ، وهذا يوضح جذور الاتصال والانفصال بين اليمن وبين ما يعرف الآن بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

---

(١) تاريخ حضرموت ص ١٨١ — ١٨٢ ، ١٩٨ .
(٢) تاج الدين اليمانى : تاريخ ص ١٨ .

اليمن فى العصر العباسى

لما بويع أبو العباس السفاح بالخلافة بعث على الحجاز واليمن عمه داود بن على فاستخلف داود على اليمن عمر بن عبد المجيد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب ، وهو الذى بوب جامع صنعاء [١] وسار ولاة اليمن بعد ذلك على النحو التالى :

محمد بن زيد بن عبد الله الحارثى وقد نزل صنعاء وبعث أخا له على عدن .

عبد الله بن مالك الحارثى .

على بن الربيع بن عبد المدان .

عهد المنصور :

عبد الله بن الربيع بن عبد المدان .

معن بن زائدة الشيبانى : وهو من أشهر أجواد العرب ، وأحد الشجعان العظماء ، وكان من خواص المنصور [٢] ، ولما ولى معن بعث ابن عمه سليمان نائبا عنه إلى حضرموت ، فكان بها قاسيا غليظا ، مما دفع أهل حضرموت إلى قتله بقيادة زعماء الإباضية ، وانتفضت حضرموت على معن ، فسار إليها وأوقع بأهلها عدة وقعات ، قيل بلغ من قتله خمسة عشر ألفا فأعظم الناس ذلك ، ولكن المنصور استصوب فعله لأن هؤلاء بقية الخوارج [٣] .

زائدة بن معن : كان أبوه قد ولاه حضرموت عقب الإيقاع بها .

الفرات بن سالم العبسى :

---

(١) القاضى عبد الله الكريم الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ص ٤٩ .
(٢) وفيات الاعيان جـ ٢ ص ١٥٨ .
(٣) تاج الدين اليمانى : تاريخ اليمن ص ١٩ ، ٢٠ .

يزيد بن منصور الحميرى ابن خال المهدى وأقره المهدى

خلافة المهـدى :

يزيد بن منصور الحميرى .

رجاء بن روح الجذامى .

على بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس .

منصور بن يزيد بن منصور الحميرى .

عبد الله بن سليمان النوفلى وكان رجلا خيّرا من أهل العلم .

سليمان بن يزيد بن عبد المدان .

خلافة الهادى :

عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام .

إبراهيم بن سليمان الباهلى .

خلافة الرشيد :

الغطريف بن عطاء : خال الرشيد قدم اليمن والفتنة ثائرة بين الجند وأهل صنعاء فأصلح بينهم .

عاصم بن عتبة الغسانى .

أيوب بن جعفر بن سليمان .

الربيع بن عبد الله الحارثى .

محمد إبراهيم الهاشمى : وقـد جمع لـه الحجاز واليمن فأقـام بالحجاز وبعث ابنه العباس إلى اليمن .

عبد الله بن مصعب بن عبد الله بن الزبير : ويذكر تاج الدين اليمانى أن الرشيد رفع رزق عبد الله إلى ألفى دينار فى الشـهر ، وكان مرتب

الوالى ألف دينار فقط ، فقال له يحيى بن خالد : هذا يفسد عليك من توليه من أهل بيتك • فرد الرشيد رزق عبد الله إلى ألف دينار ، ووصله بصلة جليلة •

أحمد بن إسماعيل بن على الهاشمى •

إبراهيم بن عبد الله بن طلحة بن أبى طلحة •

محمد بن خالد بن برمك •

حماد البربرى مولى الرشيد : جاء إلى اليمن خلال ثورة الهيصم بن عبد الرحمن الهمدانى بجبل سور ، وكان الهيصم قد قام بثورة عاتية زلزلت سلطان بنى العباس فى اليمن ، وامتد نفوذه إلى عدة بقاع ، ولم يستطع ولاة الرشيد التغلب عليه ، فأرسل الرشيد مولاه حمادا البربرى لذلك وقال له : « أسمعنى صوت أهل اليمن » أى اقس عليهم حتى يضجوا بالشكوى ، وقد حقق حماد ذلك بعد صراع طويل ، ويقول الشماحى (١) • وبرغم التغلب على الهيصم فقد كانت ثورته فاتحة لقيام الدول اليمنية ، وفرصة اهتبلتها الشيعة لنشاطهم الذى مهدوا به الطريق إلى ظهور دعاتهم كما حدث أيام المأمون ، وكقدوم إبراهيم الجزار العلوى إلى اليمن كما سنرى فيما بعد ، وبعد الرشيد أقر الأمين حمادا على اليمن (٢) •

خلافة الأمين :

محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعى : عينه الأمين بعد حماد •

سعيد بن السرح الكنانى •

خلافة المأمون :

يزيد بن جرير بن خالد بن عبد الله القسرى •

اسحق بن موسى بن عيسى •

---

(١) اليمن : الانسان والحضارة ص ٨٨ •

(٢) عبد الواسع بن يحيى الواسعى : تاريخ اليمن ص ١٤٩ •

محمد بن على بن عيسى بن ماهان : وقد صارع إبراهيم بن موسى الطالبى الذى يقول عنه ابن خلدون : إن ظهوره باليمن كان سنة ٢٠٠ هـ وإن أمره لم يتم ، وكـان يعرف بالجزار لكثرة ما سفك من دماء [١] ، ويقول عنه الجرافى : إنه دخل صعدة وخربها كما خرب سد الخانق [٢] وكان قد أرسله الحسين بن على الطالبى لما نجحت ثورته الطالبية فى الاستيلاء على مكة والمدينة وقد حدثت وقائع بين محمد بن على بن عيسى وبين إبراهيم بن موسى الطالبى كان النصر فيها لابن ماهان

وقد تركت هذه الوقائع وما سبقها من معارك ، بلاد اليمن فى فوضى شاملة ، فتحت الباب لتقسيم اليمن ، كما فتحت الباب لاستقلاله عن الخلافة العباسية على ما سنرى .

اليمن

ابتداء من عهد بنى زياد فى خلافة المأمون

قلد المأمون محمد بن زياد ، وهو من ولد عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان الأعمال فى تهامة ، وما يستولى عليه من الجبال التى كانت الثورة مستقرة بها ويقول ابن خلدون : إن المأمون اختار ابن زياد لما عرف عنه من شدة البغض لآل على ، فقصد اليمن سنة ٢٠٢ هـ ، واستولى على تهامة بعد حروب جرت بينه وبين أهلها ، واختط مدينة زبيد سنة ٢٠٤ هـ وكان مع ابن زياد مولى له يسمى جعفر ، وهو الذى نسب إليه مخلاف جعفر ، وكان فيه دهاء وكفاية ، حتى كانوا يقولون « ابن زياد بجعفره » واشترط على عرب تهامة ألا يركبوا الخيل ، وقد سير ابن زياد بعد أن استقر له الأمر مولاه جعفر إلى المأمون سنة ٢٠٥ هـ بهدايا جليلة ، وأموال عظيمة فعاد جعفر فى العام التالى ومعه ٢٠٠٠ فارس ، فيهم من

---

(١) العبر ج ٤ ص ٢١٢ .
(٢) المقتطف من تاريخ اليمن : ص ٥٣ .

مسودة خراسان ٩٠٠ ، فعظم بذلك أمر ابن زياد ، واتسع ملكه فشمل المناطق **التالية** :

عدن : وهى مدينة جنوبية ، تهامية ، من أقدم أسواق العرب •

أبين : وهى مخلاف باليمن تعد عـــدن مدينة منه ، ولذلك يقـــال ، « عدن أبين » •

لحْج : بلد بمنطقة أبين •

ديار كنـــدة : وهى من جبال اليمن ممـــا يلى حضرموت وقاعدتهـــا دامون •

حضرموت : وهى ناحية واسعة تقع شرقى عدن قرب البحر ، ولها أعمال عريضة ، وبينها وبين عمان رمال كثيرة تعرف بالأحقاف •

الشَّحْر : وهو ساحل اليمن الممتد بين حضرموت وعمان ، وتسمى هذه المنطقة أيضا مهرة ، وقصبته أيضا تسمى الشحر •

مِرْباط : وهى مدينة منفردة على ساحل البحر بين عمان وحضرموت

الجند : وهى تمثل قسما كبيرا مـــن أقسام اليمن الثلاثة « الجنـــد وصنعاء وحضرموت » •

وملك بن زياد أيضا من الجبال أعمال المعـــافر وهو بلد واســـع ذو مزارع وقرى كثيرة •

وقلـــد ابن زياد جعفرا مناطق الجنـــد ، فاختط جعفر بها مدينـــة « المُذَيْخرة » فى جبل قريب من صنعاء ، به أنهار ورياحين واسعة •

وخـْطِب لابن زياد بصنعاء وصعدة ونجران وبيحان ، ووضع ابن زياد بذلك أساس ملك وراثى باليمن [١] وكان بصنعاء خلال عهد ابن زياد (بنو يعفر) وهم من حمير ، وكـان لهم السلطان بهـا ، ولكنهم كانوا يخطبون للعباسيين ، وأحيانا يذكرون اسم ابن زياد فى الخطبة بعد اسم الخليفة العباسى بها ، وذلك لمكانة ابن زياد من الدولة العباسية .

وفى السنوات الأخيرة من حياة ابن زياد ، وخلال عهد أولاده من بعده بدأ التفكك وكثرت الحركات الانفصالية ، وسرعان ما انقسمت اليمن لا إلى يمن شمالى ويمن جنوبى فحسب بل إلى إمارات وعمالات كثيرة ، وقد بدأ ذلك من القرن الثالث الهجرى ، ويمكن أن يوضح التخطيط التالى صورة سريعة للحركات السياسية باليمن :

---

(١) تاج الدين اليمانى : تاريخ اليمن ص ٢٥ — ٢٦ .

زبيد	صنعاء
— بنو زياد ٢٠٣ — ٤١٢هـ وامتد ملكهم الى مناطق أخرى — بنو نجاح ٤١٢ — ٥٥٤هـ — بنو المهدى ٥٥٤ — ٥٦٩هـ	— عمال العباسيين : ٢٠٣ — ٢٧٢هـ — بنو يعفر : ابتدا ملكهم فى شبام بحضرموت سنة ٢٢٥هـ ثم امتد الى صنعاء سنة ٢٤٧ فى حركة صراع ضد ولاة بنى العباس وبنى زياد فى زبيد ، ثم استقر الامر لهم فى صنعاء وجند من سنة ٢٤٧ الى ٣٨٧هـ — حكم قبلى — الأئمة الزيديون يمدون نفوذهم الى صنعاء حتى سنة ٤٢٩هـ . — بنو همدان (بنو حاتم) ٤٩٢–٥٦٩هـ — بنو صليح ٤٢٩–٤٩٢هـ .

١ — الحدود غير ثابتة بين هذه الممالك بعضها والبعض الآخر ، وكانت كل مملكة تحاول أن تدفع بحدودها لتضم مزيدا من الأرض .

٢ — بعض التواريخ ليست دقيقة وهى على كل حال خلاصة الأبحاث المتعددة .

٣ — بعض هؤلاء الحكام كانوا يكتفون بلقب الإمارة ، وبعضهم اتخذ لقب السلاطين ، أما الأئمة فاحتفظوا بلقب الإمامة .

— الأيوبيـــــــ
— بنـو رســـــــ
— بنـو طاهـــــــ
— المماليك المصريـــــ
— العثمانيــــــ

— الأئمة فى اليمن الشمالية حتى قيام الثورة (١٩٦٢)
— الجمهورية العربية اليمنية بالشمال ثم جمهورية اليمن

صـــعدة

الأئمة الزيديون ٢٨٠ – ١٣٨٢هـ
(بنو طباطبا)

كان سلطان الأئمة محصورا فى صعدة حتى سنة ٧٠٠هـ ثم امتـد الى صنعاء ، وبعض المناطق الأخـرى وانكمش وامتـد عدة مرات ثم خلصت لهم اليمن من سنة ١٠٤٠هـ حتى سـنة ١٣٨٢هـ حيث قامت الثـورة ، وكان آئمـة الزيدية على مـر تاريخهم يصارعون لتثبيت أقدامهم ، أو يطأطئون لقوى أخرى تمد نفوذها عليهم ، ولكنهم على كل صمدوا فى صراع اليـمن ضد العثمانيين ، فبقوا وفنى الآخرون ، ولكن وجودهم باليمن الشمالية وصمودهم كان من الأسباب لفصم العلاقة بين اليمن الشـمالية وحضرموت ، لأن الحضـارمة كانوا سنيين ، وكان الزيدية فرقة شيعية ، وكانت الوحدة تعود غالبا مع الحكم السنى كحكم الأيوبيين والعثمانيين فإذا برز حكم الزيدية بدأ الانفصال .

عـــدن

بنو زريع ٤٧٦ – ٥٦٩هـ
بدأ بنو زريع فى عدن ولاة للصليحيين ، ثم استقلوا عن ملك بنى صليح ، وبقوا بعد سقوط بنى صليح حتى دخلت عدن فيما دخلت فيه ولايات اليمن سنة ٥٦٩ .

ـــــون ٥٦٩ – ٦٢٦ هـ
ــــــول ٦٢٦ – ٨٥٨ هـ
ــــــر ٨٥٥ – ٩٠٤ هـ
ــــــون ٩٠٤ – ٩٥٥ هـ مع التداخل مع بنى طاهر
ــــــون ٩٤٥ – حتى الحـــرب العالميـــــة الأولى
(محاولات لم تنجح أكثرها وصراع ضد الأئمة)
الاستعمار والقبلية فى اليمن الجنوبية حتى سنة ١٩٦٧ .
الديمقراطية الشعبية بالجنوب .

ملاحظات مهمــة :

هناك ملاحظات مهمة نبرزها فيما يلى ، وقد أشرنا لبعضها فى التخطيط السابق ، وهى :

— كان الأئمة الزيديون موجودين مع الحكام الآخرين ، وكانوا يعلنون الولاء أو يثورون حسب الأحوال ، وعندما اختل أمر بنى زياد غلب أهل الأطراف على ما بأيديهم وبدأ بذلك تفكك اليمن •

— كانت الدولة الأيوبية ، والدول التى تلتها تهتم بما يسمى الآن بجمهورية اليمن الشمالية ، وتحاول أن تمد نفوذها لليمن الجنوبية لتعيد وحدة اليمن كله ، ولكن محاولاتها كانت دائما قصيرة العمر فإذا نجحت فى ضم بعض أجزاء مما يدخل الآن تحت اليمن الجنوبية فإن هذه الأجزاء سرعان ما تتحرر وتستقل وبخاصة أن اليمن الشمالية نشط فيها الأئمة وهم شيعة ، أما اليمن الجنوبية فكانت تتبع المذهب السنى ، وهذا كان بمثابة حاجز بين المنطقتين •

— عندما احتل الإنجليز عدن سنة ١٨٣٩ م كان ذلك بمثابة حاجز حصين قسَّم اليمن قسمين ، وكان من آثاره الحالة التى وُجدت بجنوب الجزيرة فترة طويلة •

وسنزيد هذا الموضوع وضوحا فيما بعد تحت العنوان التالى « اليمن يمنان » •

وبعد هذا التخطيط نعود لهذه الدول السابقة لنتحدث عنها بشىء من التفصيل ، وسنتكلم عن زبيد ، فصنعاء ، فصعدة ، فمدن على النحــو السابق حتى تلتقى كلها فى ظل الأيوبيين •

زبيــــد

مدينة من أهم مدن تهامة اليمن ، تقع فى السهل الساحلى فى موضع متوسط بين ميناءى الحديدة فى الشمال ومخا فى الجنوب ، وهى على بعــد

٢٥ ك م من البحر الأحمر ، ومحاطة بسور عظيم وبها كثير من المساجد والدور الكبيرة .

وقد أسسها مؤسس أسرة بنى زياد وجعلها عاصمة ملكه ، وذلك فى خلافة المأمون العباسى .

وكانت زبيد عاصمة لبعض الأسر المالكة فيما بعد كالدولة الصليحية التى نقلت عاصمة ملكها من صنعاء إلى زبيد ، وكبنى المهدى الذين استقروا بها حتى استولى عليها توران شاه عام ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) الذى أسس الدولة الأيوبية باليمن ، ثم أصبحت فى عام ٨٥٠ هـ (١١٤٦ م) عاصمة الطاهريين حتى انتقلت عاصمتهم بعد ذلك إلى عدن .

وفى عام ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) استولى عليها أبو نمى الثانى شريف مكة حتى ضمت مع باقى مدن اليمن إلى الدولة العثمانية .

ويمر بمدينة زبيد وادٍ من أهم وديان اليمن يسمى وادى زبيد ، تسير فيه المياه معظم أيام السنة ، وهو ينبع من الهضبة ، ويمر بمدينة زبيد إلى أن يصب فى البحر الأحمر .

والنسبة إليها زبيدى ، وهو لقب اشتهر به جمع من الفقهاء وعلماء اللغة الذين ينحدرون منها أو ينتسبون لها ، وقد كانت ولا تزال من أهم مراكز العلم باليمن .

بنو زياد فى زبيد (٢٠٣ — ٤١٢ هـ)

تحدثنا من قبل عن ابن زياد وعن نشأة دولته باليمن ونفوذه هناك ، ذلك النفوذ الذى شمل أكثر مناطق هذه البلاد ، وذكرنا أنه بعد عشرين سنة تقريبا من بدء ملكه بدأ لون من استقلال الأطراف ، ثم نما ذلك الاتجاه فى عهد أولاده وأحفاده ، مما سبب حركات انفصالية كثيرة ، وعلى

كل حال فقد ظل ملك الزياديين بين اتساع وانكماش حتى دالت دولتهم بعد حوالى قرنين •

وأمراء بنى زياد هم :

محمد بن عبد الله بن زيـــاد	٢٠٣ ـــ ٢٤٥ هـ
ابراهيم بن محمـــــد	٢٤٥ ـــ ٢٨٩ هـ
زياد بن ابراهيم	٢٨٩ ـــ ٣١١ هـ
اسحق بن ابراهيم	٣١١ ـــ ٣٧١ هـ
عبد الله بن اسحق	٣٧١ ـــ ٤٠٩ هـ
بعض موالى بنى زيـــاد	٤٠٩ ـــ ٤١٢ هـ

ومن الواضح أن عهد محمد بن زياد كان عهد السلطة والنفوذ لهذه الدولة ، وإن كان سلطانه لم يكتمل لاستبداد بنى يعفر بصنعاء العاصمة الرئيسية لليمن ابتداء من ســنة ٢٢٥ هـ ، وهى الســنة التى تعتبر مطلع الضعف •

وبعد ابن زياد زاد الجرح اتساعا ، فلما جاء عهد اسحق بن إبراهيم كمل الخطب ، إذ امتنع عليه أهل الأطراف ، وانقطعت الخطبة له فى الجبال واستولى سليمان بن طرف على المخلاف المعروف بالسليمانى نسبة إليه وجعل السكة والخطبة باسمه ، وخرج أيضا على نفوذ اسحق لحج وأبين وبعض البلاد الشرقية (١) •

ولـما مات اسحق كان ابنه عبد الله طفلا فتولت كفالته أخته هند وعبد لأبيها اسمه الحسين بن سلامة النوبى ، ولكن هذا استبد بالأمر ولم يعد الزمام إلى عبد الله عندما شب عن الطوق ، ويبدو أن عبد الله ترك النفوذ إلى الحسين وقنع بالاسم •

---

(١) تاج الدين اليمانى : تاريخ اليمن ص ٢٧ ـــ ٢٨ •

وفى عهد نفوذ الحسين بن سلامة النوبى استطاع هذا أن يسترد كثيرا من الأطراف المتمردة ، ويستعيد السلطة على الحصون والمخاليف التى كانت قد أعلنت استقلالها ، فاستعاد بذلك مملكة ابن زياد الأولى ، واختط مدينة (الكدراء) وهى الآن من المدن القديمة الخربة ، وكانت لها شهرة كبيرة [١] كما اختط مدينة المعفر ، وأنشأ كثيرا من المساجد والمنارات ، ومهد الطرق فى داخل المملكة ، وبينها وبين مكة المشرفة ، وحفر كثيرا من الآبار ، ونظم البريد .

ولما مات الحسين بن سلامة النوبى قام مولاه مرجان بالأمر ، وكان لمرجان هذا عبدان أحدهما اسمه نفيس ، والثانى اسمه نجاح ، وقد تنافسا فى حياة سيدهما مرجان على السلطة التى آلت إليه ، وتقول الرواية : إن عبد الله بن اسحق وعمته التى كفلته من قبل كانا يميلان إلى نجاح الذى عرف بالعدل والرأفة ، وينقبضان عن مرجان ونفيس ، ولذلك قبض هذان عليه وعلى عمته ، وبنيا عليهما جدارا وتركاهما به حتى ماتا ، ولما عرف نجاح ذلك ثار من أجل سادته بنى زياد ، وكان له الفوز ، ولكنه سرعان ما أقام دولة جديدة لنفسه ولأولاده من بعده ، فأسس بذلك دولة بنى نجاح وسنتكلم عنها فيما بعد .

وبعض المؤرخين اليمنيين يرى أن دولة بنى زياد أول دولة وطنية نشأت باليمن واستقلت به ، وبعضهم لا يراها حكومة وطنية لأنها جاءت إلى اليمن من بغداد ، وظلت تابعة للخلافة العباسية ، وقد عرف بعض ولاتها ووزرائها بالصلاح والإصلاح ، ولكن عهود أكثرهم كانت حافلة بالفوضى ، وأسلموا البلاد فى النهاية إلى طبقة من العبيد (هم بنو نجاح) جعلت الحياة فى اليمن حافلة بالاضطرابات كما سنرى عند حديثنا عن آل نجاح فيما يلى [٢] .

---

(١) الجرافى : من تاريخ اليمن ص ،
(٢) القاضى عبد الله الشماحى : اليمن الانسان والحضارة ص ١١٠ .

بنو نجاح فى زبيد (٤٠٣ ـــ ٥٥٥ هـ)

فى الصراع الذى دار بين موالى آل زياد ونجاح من جانب وبين نفيس ومرجان من جانب آخر استطاع نجاح الحبشى أن يحقق لنفسه الفوز فدخل زبيد ، واستتب له الأمر فى تهامة ، وكتب للخليفة العباسى فى بغداد معلنا ولاءه وطاعته للدولة العباسية ، فأقره الخليفة ونعته بالمؤيد نصير الدين ، وكان حازما سمحا ، يتبع مذهب الإمام الشافعى ، وقد دانت له تهامة طيلة حياته ، وبعد وفاته دار صراع طويل بين أولاده وأحفاده من جانب وبين دولة بنى صليح التى كانت قد نشأت فى صنعاء سنة ٤٢٩ هـ من جانب آخر ، وبعد شد وجذب حول العاصمة زبيد حيث انتصر بنو صليح تارة وبنو نجاح تارة أخرى استقر الأمر لبنى نجاح حوالى سنة ٤٧٢ هـ وبقى فيهم إلى سنة ٥٥٤ هـ وسلسلة أمراء بنى نجاح هى كالآتى :

الأمير نجاح	٤٠٣ ـــ ٤٥٢ هـ
سعيد بن نجاح	٤٥٢ ـــ ٤٨١ هـ
جياش بن نجاح	٤٨٣ ـــ ٤٩٨ هـ
فاتك بن جياش	٤٩٨ ـــ ٥٠٣ هـ
منصور بن فاتك	٥٠٣ ـــ ٥٢١ هـ
فاتك بن منصور	٥٢١ ـــ ٥٤٠ هـ
فاتك بن محمد بن فاتك	٥٤٠ ـــ ٥٥٤ هـ

ومن الواضح أن فترة نجاح كانت أطول الفترات بالنسبة لأمراء هذه الدولة ، وقد عاصر نجاح قيام دولة بنى صليح فى صنعاء ، وبدء المنافسة بين الدولتين ، ويقال إن على بن محمد الصليحى لم يجد وسيلة للتخلص من نجاح إلا بقتله بواسطة سم استطاع أن يدسه فى طعامه ، على يد جارية أهداها إليه .

ولما مات نجاح ، وكان أولاده لم يبلغوا سن الرشد بعد ، قام بأمرهم مولى له اسمه كهلان ، فأتاح هذا فرصة لمحمد بن على الصليحى ، فزحف إلى تهامة سنة ٤٥٥ هـ واستولى على زبيد ، وفرّ من وجهه آل نجاح إلى جزيرة « دهلك » فظلوا بها حتى سنة ٤٥٩ هـ ، وهى السنة التى قتل فيها على بن محمد الصليحى ، فعاد سعيد بن نجاح إلى زبيد ، ولكن مدته لم تطل ، فأخرجه المكرم الصليحى سنة ٤٦١ هـ واستطاع سعيد أن يعود مرة أخرى سنة ٤٧٦ هـ ، وظل سعيد أميرا حتى قتل سنة ٤٨١ هـ فاندفع بنو صليح إلى زبيد مرة ثالثة ، وفر جياش بن نجاح إلى الهند ولكن بقاء بنى صليح فى زبيد هذه المرة لم يزد عن عام ، ثم جاء جياش وطردهم سنة ٤٨٣ هـ ، واستقرت السلطة إلى حد كبير لآل نجاح بعد ذلك .

وجاء سقوط بنى نجاح على يد بنى المهدى ، وهى أسرة حميرية سنتكلم عنها فيما بعد ، وقد هالها تحكم بنى نجاح الأحباش فى اليمن فجمع زعيمها على بن مهدى حوله الجموع ، وغزا مدينة الكدراء سنة ٥٣٨ هـ ولكن أميرها ألحق بهم الهزيمة ، فعاد ابن المهدى يعد نفسه من جديد وانتهز فرصة ضعف الأمير فاتك بن محمد آخر أمراء بنى نجاح ، فاندفع مرة أخرى نحو زبيد سنة ٥٥٣ هـ ، وقد تخلى أهل زبيد عن فاتك ، واستنجدوا بالإمام المتوكل فوعدهم هذا بالنجدة إن تخلصوا من فاتك ، فتخلصوا منه فعلا ، ولكن المتوكل عجز عن نصرتهم ، فأعطى ذلك فرصة لبنى المهدى أن يدخلوا زبيد ويستقروا بها .

وقد اتخذ آل نجاح وزراءهم من الأحباش أيضا وكان أول وزير لهم أنيش الفاتكى وكان جبارا غشوما حاول أن يستبد بالملك ، فقتل منصور ابن فاتك ، ولكنه قتل فيه ، وجاء بعده الوزير منّ الله الفاتكى ، وكان سيىء السيرة ، فمات فى ليلة من ليالى العبث والمجون ، ووزر بعده رزيق الفاتكى ، ثم أبو محمد سرور الفاتكى ولم يكن فى هؤلاء الوزراء صفات الشجاعة أو الشهامة ، فألحقوا بالدولة ألوانا من الضرر ، ومن الواضح أن هؤلاء جاءوا فى عصور الضعف مما تسبب فى نهاية الدولة .

بنو المهدى الحميريون بزبيد
٥٥٣ — ٥٦٩ = ١١٥٨ — ١١٧٤

تبدأ هذه الأسرة بعلى بن مهدى الحميرى ، وهو ينحدر من أسرة الأغلب بن أبى الفوارس بن ميمون الحميرى الروعينى [١] . وكان آل المهدى يعيشون فى قرية اسمها العنبرة من سواحل زبيد . ويسميها ابن خلدون « العنزة » وهو تحريف والتصحيح من معجم البلدان ، ومن مراصد الاطلاع .

ونشأ على بن مهدى نشأة دينية ، حج وزار ، ولقى العلماء والوعاظ وتضلع فى المعارف ، وكان فصيحاً صبيحاً ، حسن الصوت ، طيب النغمة ، حلو التأنّى ، غزير المحفوظات ، يعظ الناس على الطريقة الصوفية ، وقد استمال القلوب حوله بهذه الصفات ، حتى ظهر أمره بساحل زبيد .

ولما ذاع أمره فى الصلاح والتقوى ، قرّبته أم فاتك بن منصور ، وأطلقت له ولأهله خراج أملاكهم ، فأثروا واتسعت حالهم ، وتهيأ لهم الغنى والعلم ، وأمهم الناس من كل صوب فأصبحوا قوة كبيرة [٢] .

وكان حال آل نجاح فى انهيار وانحدار ، وكان اليمنيون يتحدثون عن حكم الأحباش لبلادهم ، وعن سوء سيرة وزراء هؤلاء الأحباش ، وكل هذا دفع بعلى بن المهدى إلى الثورة على آل نجاح ، وقد فشل مرة كما ذكرنا من قبل ، عندما هاجم مدينة الكدراء سنة ٥٣٨ ولكنه عاد بجميع جموعه ويسعد نفسه ، ثم هتف بأصحابه قائلاً : أيها الناس دنا الوقت ، أزف الأمر كأنكم بما أقول لكم وقد رأيتموه عيانا . وبدأ يهاجم زبيد . ودار صراع طويل بينه وبين آل نجاح . واستطاع أن يحاصر زبيد ، حتى ألحق الضر بأهلها ، فاستنجدوا بالشريف أحمد بن سليمان صاحب صعدة ، وشرطوا

---

(١) القاضى حسين بن أحمد : بلوغ المرام ص ١٧ .
(٢) تاج الدين اليمانى : تاريخ اليمن ص ٧٠ — ٧١ .

له أن يملكوه عليهم ، فقال لهم : إن قتلتم مولاكم فاتكا نصرتكم ، فوثب أهل زبيد على فاتك فقتلوه سنة ٥٥٣ ، ولكن الشريف بعد ذلك عجز عن نصرتهم ضد على بن المهدى ، فاستطاع هذا أن يدخل زبيد ويقيم بها دولة بنى المهدى كما ذكرنا من قبل .

وكانت دولة بنى المهدى قصيرة العمر ، فلم تتجاوز مدتها خمسة عشر عاما وبضعة أشهر ، وأمراؤها هم :

على بن مهـــدى	٥٥٣ — ٥٥٣ (٨١ يوما)
مهـــدى بن عـــلى	٥٥٣ — ٥٥٨
عبد النبى بن عـــلى	٥٥٨ — ٥٦٩

مع فترة استولى فيها عبد الله بن على على الملك من أخيه عبد النبى .

ونذكر هنا أن اليمن أحسنت استقبال هذه الأسرة لأنها أسرة وطنية تماما ، ولأن منشـئها كان يمتـاز بالعلم والخلق ، ومن أجل هذا يذكر تاج الدين اليمانى أنه اجتمع لعبد النبى ملك الجبال ، والتهائم ، وانتقل إليه ملك جميع اليمن وذخائرها ، حتى إنه يقال إن ملك خمس وعشرين دولة من دول اليمن قد آلت إليه (١) .

ولكن هذه الدولة كانت قصيرة العمر كما ذكـرنا من قبل لأن الزحف الأيوبى بدأ يمتد إلى اليمن من جهة ، ولأن أمراء الأسرة الذين جاءوا بعد مؤسسها اتجهوا إلى القسوة والشدة ، كما انحرفوا فى أخلاقهم ، مما جعل الناس فى دولتهم يعيشون فى رعب منهم ومن أفعالهم القاسية ، وجعل اليمن تتهيأ لاستقبال أى فاتح ، ومن أشق ما عرف به ابن مهدى أنه كان يكفّر بالمعاصى ويستبيح نساء هؤلاء ، ويسترق ذراريهم ، كما أنه كان

(١) تاج الدين اليمانى : تاريخ اليمن ص ٧٣ .

إذا غضب على أحد من أتباعه عذبه بقسوة . وكان يقتل من انهزم من عسكره ، كما كان يقتل من تأخر عن صلاة الجماعة أو عن مجلس وعظه ، أو من شرب خمرا ، أو من سمع غناء وبخاصة من رجال العسكرية [١] . ولهذا اتجه أهل اليمن لكره بنى المهدى ، لتخوفهم منهم بسبب هذا التصرف وكثرة الفتك بالأهلين [٢] .

ويذكر المؤرخون أن صلاح الدين الأيوبى اتصل به من ينقل له أن عبد النبى بن مهدى يزعم أن دولته تطبق الأرض ، وأن ملكه يسير مسير الشمس ، فجهز صلاح الدين جيشا كبيرا بقيادة أخيه توران شاه ، ومعه خمسة من آل رسول كانوا يقيمون فى مصر ، وبعث بهم إلى اليمن سنة ٥٦٩ هـ فاستطاع أن يدخل زبيد ، وأسر عبد النبى وقتله [٣] .

وزالت بذلك دولة بنى المهدى ، وبدأ ملك الأيوبيين فى اليمن كما سنرى فيما بعد .

---

(١) انظر تاريخ اليمن لعمارة اليمن ص ١٢١ .
(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ١٨٢ .
(٣) على بن الحسن الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٢٨ .

صنعـــاء

صنعاء هى العاصمة الرئيسية لليمن ، وأهم المدن به ، وأجملها ، وهى ترتفع عن سطح البحر ٢٣٥٠ مترا ، ولذلك يضرب المثل بصعوبة الوصول إليها ، فيقال « لابدّ من صنعاء وإن طال السفر » وتقع صنعاء فى منطقة خصبة كثيرة الزرع والفاكهة ، وبخاصة العنب ، وهى ملتقى لكثير من طرق القوافل من جميع أرجاء اليمن ، مما جعلها مركزا تجاريا هاما ، وهى إلى الجنوب من لواء صعدة ، وإلى الشرق من لواء الحديدة ، وإلى الغرب من مأرب والربع الخالى ، ومن أوديتها الرئيسية وادى المواهب ووادى الزبيدى ، وتقع فى السفح الغربى من جبل نُقُم .

ويقول ياقوت (١) إن اسمها كان (أوزال) فلما وقعت اليمن تحت الاستعمار الحبشى ، غير الأحباش اسمها إلى « صنعاء » ومعناها حصينة وذلك لأن جبل نقم يقف منها موقف الحارس ، فهو يرتفع عنها بحوالى ٦٠٠ متر ويشرف عليها بموقعه وقلاعه ومدافعه ، ويقال إن هذا الوضع هو السبب فى المثل الذى أوردناه آنفا وهو (لا بد من صنعاء وإن طال السفر) أى أن الوصول إليها والسيطرة عليها شىء شاق للغاية .

ويمتد تاريخ صنعاء فترة طويلة قبل الإسلام ، ولا يزال هناك عمد وأحجار عليها نقوش وكتابات ترجع إلى ما قبل الإسلام ، وقد أعيد استخدام هذه الأحجار فى بعض المبانى الحديثة ، وبخاصة فى الجامع الكبير ، وقبيل الإسلام بنى بها أبرهة كنيسة القليس ، وموّه جدرانها بالذهب ، وغطّى حيطانها بالفضة ورصّعها بالجواهر ، وكان هدفه أن يجذب العرب إلى الحج إليها بدل حجهم إلى الكعبة بمكة ، ولكن أعرابيا من كنانة دخلها ليلا ولطخها بالقاذورات ، مما كان سببا فى إغارة الحبشة على مكة التى رواها القرآن الكريم فى سورة الفيل .

---

(١) معجم البلدان جـ٥ ص ٤٢٤ .

ومن آثارها القديمة كذلك قصر غمدان ، ولا تزال هناك أطلال تنتسب إليـــه •

وفى العصر الإسلامى ظلت صنعاء العاصمة الأولى لليمن وإن قامت بجانبها عواصم أخرى للولايات المتعددة التى قامت باليمن •

وفى العهـــد الأيوبى أقيم حول صنعاء ســـور ضخم لا تزال آثـــاره موجودة ، وتكثر فى صنعاء الجوامع الضخمة التى يمتاز بعضها بالجمال والروعة ، وبها دور كثيرة ترتفع عدة طوابق مع أنها مشيدة بالحجر الآجر على الطراز الصنعائى الجميل ، وبها بعض الصناعات المعدنية وصناعة الحلى التى تزين بالأحجار الكريمة التى تنســـب لليمن كالجزع اليمـــانى والعقيق •

وسنعيش مع الدول التى قامت بصنعاء ، حتى توحدت اليمن تقريبا تحت سلطان الأيوبيين •

صنعاء فى العهد العباسى

كانت صنعاء عاصمة اليمن خلال العهد العباسى ، فلما بدأ التفكك فى اليمن فى عهد المأمون ، كان أمراء صنعاء لا يزالون على ولائهم للعباسيين ، ولذلك أرسل الخليفة المأمون عبد الله بن زياد ، ليستعيد للعباسيين السلطان فى المناطق المتمردة ، واختط هذا مدينة زبيد كما قلنا من قبل ، وجعلها عاصمة له • وأخذ يوسع منها دائرة سلطانه ، واكتفى من صنعاء بالدعاء له بعد الدعاء للخليفة العباسى •

وعلى هذا فإن سلطان العباسيين قد استمر على صنعاء ردحا من الزمن بعد أن قامت دولة بنى زياد فى زبيد ، وتوالى على صـــنعاء ولاة العباسيين ومن أشهر هؤلاء الولاة نعيم بن وضاح الأزدى ، واسحق بـــن العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، ولكن هذا كان قاسيا

مع أهل اليمن فأثار الحميريين عليه ، وهب أهل صنعاء فى وجهه فعزله المأمون وولى العباس بن عمر الشنهابى •

وفى عهد المعتصم عين جعفر بن على الهاشمى واليا على نجد واليمن ، فأناب هـذا عنـه فى اليمن عبـد الرحيم بـن ابراهيم الحـوالى الحميرى ، ولـا توفى عبد الرحيم قام ابنه يعفر مقامه ، ويعد يعفر مؤسسا للدولة اليعفرية التى آن لنا أن نتكلم عنها •

دولة بنى يعفر بصنعاء

(٢٢٥ — ٣٨٧)

بدأ نفوذ هذه الأسرة فى (شبام) بحضرموت سنة ٢٢٥ هـ • وقـد امتد نفوذ بنى يعفر إلى صنعاء عن طريق جعفر بن على الهاشمى كما ذكرنا آنفا ، فقد ولّى هذا عبد الرحيم بن ابراهيم الحوالى الحميرى اليمن نيابة عنه • ولما توفى عبد الرحيم قام ابنه يعفر مقامه ، وقد صارع يعفر فى عدة ميادين من أهمها صراعه ضد حمير بن الحارث الذى عينه المتوكل ٢٣٢ هـ حاكما على اليمن ، ومنها صراعه ضد ابن زياد الذى كان يتطلع إلى ولاء ولاة صنعاء له ، وفى سنة ٢٤٥ هـ توفى ابن زياد وبعده بحوالى سنتين قتل المتوكل ، وكان ذلك إيذانا بتثبيت سلطان يعفر فى صنعاء ، ويعـد هذا العام ٢٤٧ بدء قيام هذه الدولة بصنعاء ، ويعتبر المؤرخون اليمنيون دولة بنى يعفر دولة حققت الاستقلال اليمن [١] •

وأمراء بنى يعفر بصنعاء هم

يعفر بن عبـد الرحيم	٢٤٧ — ٢٥٩
محمد بن يعفـــر	٢٥٩ — ٢٧٩

---

(١) الشماحى : اليمن الانسان والحضارة ص ٩٩ •

ابراهيم بن محمد بن يعفــــر **٢٧٩ — ٢٨٥**

فترة من الاضطراب تولى فيها جعفر بن ابراهيم
وعبد القادر بن أحمد بن يعفر فترات قصيرة)

أسعد بن ابراهيم بن محمد بن يعفر ٢٨٦ — ٢٨٨

(الإمام الهادى يقتحم صنعاء ويتسلط عليها من
سنة ٢٨٨ — ٢٩٩ ، ثم يدخل على بن الفضل
القرمطى صنعاء ويستقر بها من ٢٩٩ — ٣٠٣)

أسعد بن ابراهيم (مرة أخرى) ٣٠٣ — ٣٣٢

محمد بن ابراهيم ٣٣٢ — ٣٥٢

وقد اختلت الدولة فى عهده اختلالا واسعا نتيجة
لاقتحام الأئمة والقرامطة البلاد وتسرب الملك إلى
ابن أخت أسعد واسمه عبد الله بن قحطــان حتى
سنة ٣٨٧ هـ حيث انحلت الدولة وسيطر الحكم
القبلى فى نواحيها .

وكانت المعارك التى دارت بين الإمام الهادى وبين بنى يعفر معارك كثيرة وقاسية ، وفى إحدى هــذه المعارك كــان النصر حليف بنى يعفر ، فأسروا محمد بن الإمام الهادى وقضوا على جيشه . وقد تعرض أسعد لصراع آخر مع على بن الفضل القرمطى ، وانتصر القرمطى ، ودخل صنعاء وشبام وأخرج أسعد منهما ، ولكن أسعد حاول مرة أخرى أن يستعيد سلطانه وساعده على ذلك وفاة على بن الفضل ، فاستطاع أسعد أن يحقق نصرا كبيرا وأن يقتل من القرامطة عددا هائلا وأن يستعيد سلطات آبائه وأجداده . ولكن الانهيار كان قد بدأ يدب فى الدولة بسبب ما عانت من صراع فتفتتت كما قلنا من قبل ، وأصبحت صنعاء لقمة سائغة لمن يتناولها

القرامطة فى صنعاء :

تحدثنا فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة [1] عن نشاط الشيعة فى الأمكنة النائية عن مركز الخلافة ، ومنها اليمن والشمال الافريقى ، وكان من أهم دعاتهم فى اليمن على بن الفضل الذى تحدثنا عنه آنفا ، وأصله من اليمن ، من حمير ، وينسب إلى « خنفر » وهى قاعدة « أبين » الواقعة فى الجنوب الشرقى من اليمن [2] وكان يعاونه المنصور بن الحسن بن زادان ، وكانا يدعوان لعبيد الله المهدى الذى كان مختفيا فى سلمية بالقرب من حماة . وقد استطاع هذان الداعيان أن يحققا انتصارا واسعا فى اليمن وتمكن على بن الفضل من الاستيلاء على صنعاء كما ذكرنا آنفا . ولكنه عندما تم له ذلك أظهر مذهبه الخبيث وتبعيته للفكر القرمطى ، وادعى النبوة وأباح المحرمات وأسقط اسم عبيد الله المهدى ، مما أثار عليه زميله المنصور بن الحسن ، فوقعت حروب بينهما كان النصر فيها لعلى الذى حاصر زميله فى قرية من قرى اليمن عدة أشهر ثم انصرف عنه . ومات المنصور سنة ٣٠٢ ثم مات على بن الفضل سنة ٣٠٣ وكان موت هذا عن طريق طبيب فصده ومسح بسُمٍّ على موضع الفصد واضمحل أمر القرامطة بعد ذلك . ومبادىء القرامطة تجمعها قصيدة لشاعر من شعرائهم لعنهم الله جاء فيها :

تـولَّى نَبِى بنى هـاشم ... وهـذا نَبِى بنى يعـرب
لكـل نبى مضى شرعـه ... وتلك شريعـة هـذا النبى
لقد حط عنا فروض الصلاة ... وحط الصيام ولم يُتْعِب
وما الخمر إلا كماء السماء ... حلال،فقد سدت من مذهب [3]

وقد حقق على بن الفضل نجاحا كبيرا على معظم اليمن فخضع لـه ملوكها أو أخلوا الطريق له ، ومن هؤلاء بنو يعفر فى صنعاء ، وبنو زياد

---

(١) ص ٣٢٣ وما بعدها .
(٢) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ص ٥٩ .
(٣) تاج الدين اليمانى : تاريخ اليمن ص ٣٩ — ٤٠ .

فى زبيد والأئمة فى صعدة ، وامتدت غزواته إلى حضرموت • ويرى بعض الكتاب أن اتهامه بمذهب القرامطة كان عملا قام به أعداؤه الكثيرون الذين قضى على سلطانهم فأثاروا ضده دعاية راجت بين الدهماء ، وامتد صداها إلى اليوم ، وهى فى الحقيقة لا وجود لها ولا يقبلها ذوق [١] •

وسواء كانت الأشياء التى نسبت إليه حقيقة أو افتعالا فقد التصقت به ، وكان صداها مريرا ، وهذا ساعد على نهاية على بن الفضل ، ومكّن للأمير أسـعد بن أبى يعفر ، من غـزو القرامطة فى المذيخرة وإبادتهم سنة ٣٠٤ هـ •

صنعاء فى الفترة بين بنى يعفر وبنى صليح :

بعد سقوط دولة بنى يعفر بصنعاء قبيل نهاية القرن الرابع الهجرى وقعت صنعاء فريسة الخراب والدمار ، ويقول عنها السيد يحيى الدين بن الحسين [٢] : فى الفترة من ٤٠٥ إلى ٤٤٧ عم الخراب صنعاء وغيرها من بلاد اليمن ، لكثرة الخلاف والنزاع وعدم اجتماع الكلمة ، فأظلم اليمن وكثر خرابه ، وفسدت أحواله ، وكانت صنعاء وأعمالها كالخرقة الحمراء تتخطّفها الحدأة ، لها فى كل سنة أو شهر سلطان غالب عليها ، حتى ضعف أهلها ، وهجروها وتوالى عليها الخراب وقل العمران •

ولا غرو ففى هذه الفترة كان الصراع مريرا حول صنعاء ، اشترك فيه بنو نجاح ، وبنو يعفر الذين تحدثنا عنهم ، وحكام بنى صليح ، والأئمة الذين سيشملهم حديثنا فيما بعد ••• فكل هذه الأطراف بالإضافة إلى القرامطة والصراع القبلى أسهمت فى تدمير صنعاء خلال هذه الفترة إلى أن رسخت دولة بنى صليح فأعادت الحياة للعاصمة اليمنية الكبيرة •

---

(١) القاضى عبد الله الشماحى : اليمن الانسان والحضارة ص ١٠٩ .
(٢) انباء الزمن « نقلا عن اليمن عبر التاريخ » ١٩٣ .

بنو صليح فى صنعاء
ثم فى سواها
٤٢٩ — ٥٣٢ هـ = ١٠٣٧ — ١١٣٨ م

تحدثنا آنفا عن المنصور بن الحسن الذى كان شريكا لعلى بن الفضل فى الدعوة لعبيد الله المهدى ، ثم افترق عنه عندما استبد على بن الفضل بسلطانه ، وادعى النبوة ، أو على الأقل تناسى التزاماته بالنسبة للمهدى ، أما المنصور فقد ظل وفيا بعهده للمهدى ، واقتنع ببسط نفوذه على منطقة مسار ، ولما مات سنة ٣٠٢ خلفه عبد الله الهمدانى ، ولما قتل هذا خلفه ابن الطفيل ٠٠٠٠ ثم سليمان بن عبد الله الحميرى الذى استمال على بن محمد الصليحى إلى مذهب الإسماعيلية ،واستخلفه على هذه المنطقة فبدأ به ملك بنى صليح ، ومما يذكر أن الخلافة الفاطمية كانت قد قامت قبل ذلك بالشمال الافريقى ثم بمصر ، وكان بنو صليح يدينون لها بالولاء .

وسرعان ما علا أمر الصليحى فاستولى على كثير من الحصون ، وتبعه عدد كبير من الناس ، ثم استولى على صنعاء ، ودس السم لابن زياد واستولى على زبيد [1] ، ويقول عنه تاج الدين اليمانى [2] إنه طوى اليمن طيا ، سهله وجبله ، وفى سنة ٤٥٥ هـ ملك الصليحى جميع اليمن إلى حضرموت ، كما ولاه المستنصر الفاطمى أمر مكة ، واتخذ صنعاء عاصمة له ، وبنى فيها عدة قصور ، وأحسن سيرته فى الرعية واستمر على التشيع ، ولكنه سمح لأهل السنة بإظهار مذهبهم ، وأسكن معه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم ، وكان إذا حج اصطحبهم معه حتى لا ينتهزوا فرصة غيبته فيثوروا فى البلاد ، وأمراء الصليحيين هم :

على بن محمد ٤٢٩ — ٤٥٩ هـ

---

(١) انظر حديثنا فيما سبق عن ابن زياد وسبب وفاته .
(٢) تاريخ اليمن ص ٥٣ .

المكرم أحمد بن على	٤٥٩ — ٤٨٤ هـ
شمس المعالى سبأ الصليحى	٤٨٤ — ٤٩٢ هـ
السيدة أروى بنت أحمد الصليحى (زوجة المكرم)	٤٩٢ — ٥٣٢ هـ

ونهاية على بن محمد الصليحى جاءت على يد سعيد بن الأحول النجاحى وأخيه جياش ، وقصة ذلك أن الصليحى كان فى طريقه إلى مكة ومعه بعض الفرسان والاتباع ، ومعه كثير من التحف والهدايا ، فلما وصل قرية المهجم فى تهامة فاجأه سعيد الأحول ، وأخوه جياش وبعض اتباعهما من الفرسان ، وقد دارت معركة بينهم قتل فيها على الصليحى وأسرت نساء بنى صليح ، وفيهن زوجة على (أسماء بنت شهاب) ، وسار ركب المنتصرين إلى زبيد ، ومع الركب أسيرات بنى صليح ، وبدأ التفكك فى دولة الصليحيين .

وعقب مقتل على الصليحى قام بالأمر ابنه المكرم وصارع أعداء الدولة والمنشقين على سلطان أسرته فحقق كثيرا من الانتصارات واتجه لإنقاذ والدته وأسيرات أسرته من بنى نجاح ، ودارت معارك عنيفة بينه وبين النجاحيين سنة ٤٦٠ هـ تحقق له فيها النصر وقتل عدد كبير من جيش بنى نجاح ، ونجا سعيد الأحول زعيم بنى نجاح من الموت بأعجوبة ، وهرب إلى « دهلك » وهى جزيرة بالبحر الأحمر بالقرب من شواطىء زبيد ، واستطاع المكرم بذلك أن يستعيد والدته وأسيرات أهل بيته .

وكان للمكرم زوجة من أسرة بنى صليح أيضا أسمها أروى وكانت خير عون لزوجها فى صراعه الحربى ، وفى إدارته لشئون دولته ، ولما مرض زوجها انتقلت به من صنعاء إلى « ذى جبله » على بعد ٨٠ ك من مدينة تعز فى الشمال الشرقى وبنت بهذه المدينة دارا تعرف بدار العز ، ويتحدث المؤلفون اليمنيون بإعجاب عن السيدة أروى فيقولون : لقد ضربت أروع الأمثال من الحزم والثبات ، والحكمة والعدل ، وكانت إلى جانب هـذا

على مكان عال من الفضل فى الأدب والمعرفة والدهاء ، وسمو التفكير وسداد الرأى ، ولها محاسن فى اليمن كثيرة ،وأعمال خيرية جليلة ، منها بناء جامع « ذى جبلة » وعمارة الجناح الشرقى للجامع الكبير بصنعاء ، وغير ذلك من المساجد والمحاسن ومعاهد العلم ، والوقفيات الكبيرة ، والصدقات ورواتب العلماء والمرشدين والمدرسين ، وكان يقال لها بلقيس الجديدة فى رجاحة عقلها وحسن تدبيرها للملك .

وكان من وزرائها ورجال دولتها سبأ بن أحمد الصليحى ، والمفضل ابن أبى البركات ، وابنه منصور ، وسبأ بن أبى السعود بن الزريع ، وعلى ابن ابراهيم بن بخيت الدولة المصرى مندوب الخليفة الفاطمى فى بلاط بنى صليح .

ولما مات المكرم سنة ٤٨٤ هـ قام بالأمر بعده شمس المعالى سبأ وهو من أسرة بنى صليح ، ومن خاصة المكرم . وقد خطب شمس المعالى السيدة أروى أرملة المكرم فاستجابت إلى ذلك بعد أن أذن الخليفة الفاطمى فى مصر لها ، ولم تنجب منه بل يقال إنه لم يدخل بها ، وإنما كان زواجا سياسيا ليشتركا فى إدارة شئون الدولة .

ولما مات شمس المعالى قامت أروى بالأمر بطريق مباشر .

نهاية دولة بنى صليح :

بدأ انهيار دولة بنى صليح ، عقب اغتيال على بن محمد الصليحى الأمير الأول ، وقد بذل ابنه المكرم وزوجته أروى جهودا كبيرة لاستعادة بناء الدولة ، بيد أن انتقال أروى بزوجها من صنعاء إلى ذى جبلة ، واستخلاف عمران بن أبى الفضل الهمدانى على صنعاء ، خلق الأطماع حول صنعاء . وبعد موت المكرم وقيام أروى وشمس المعالى بالأمر لم تعد المملكة إلى ما كانت عليه ، ولم تستطع السيدة أروى أن تستعيد صنعاء وما إن ماتت سنة ٥٣٢ هـ حتى تفككت المملكة الصليحية .

وسنواصل دراستنا عن صنعاء بعد خروجها من إمارة بنى صليح ، وقبل أن نبدأ ذلك ، نقول كلمة عن صلة اليمن بالخلافة الفاطمية بمصر .

مكانة الفاطميين فى دولة بنى صليح :

كان الصليحيون من دعاة الفاطميين ، ومن أتباعهم كما سبق القول ، وقد قامت دولتهم بعد قيام الدولة الفاطمية فى الشمال الافريقى وانتقالها إلى مصر ، وقد ساعدهم الفاطميون ماديا وأدبيا حتى قامت دولتهم واتسع ملكهم وكان للفاطميين فى بلاط الصليحيين مندوب يمثل النفوذ الفاطمى وقد ذكرنا من قبل ابن بخيت الدولة الذى كان مندوب الخلافة الفاطمية فى عهد السيدة أروى .

ومما يدل على نفوذ الفاطميين فى دولة الصليحيين ما يذكره أحمد حسين شرف الدين [1] من أن هذا المندوب اتهم لدى الخليفة الفاطمى بشىء فأرسل الخليفة يطلب القبض عليه ، ولكن السيدة أروى ترددت فى تسليمه ، ولكن عظماء دولتها عظموا عليها الخلاف مع الخليفة ، فسلمت المندوب وأرسلت معه كتابا إلى الخليفة تستعطفه .

ومما يدل على صلتها بالخلافة الفاطمية كذلك ما ذكرناه آنفا من أن السيدة أروى لم تستطع أن تتزوج من الأمير شمس المعالى بعد موت زوجها إلا بعد أن حصلت على إذن من الخليفة الفاطمى بمصر .

ويتحدث عمارة اليمنى فى كثير من صفحات تاريخه عن الصلة الوثيقة بين دولة بنى صليح وبين الفاطميين فى مصر [2] .

ومن الملاحظ أن الصليحيين بعد أن قامت دولتهم لم يرغموا الناس على التشيع وسمحوا لأهل السنة أن يظهروا مذهبهم كما سبق القول

---

(١) اليمن عبر التاريخ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .
(٢) تاريخ اليمن ص ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٩ .

وكان ذلك متمشيا مع الفكر الفاطمي الذى ارتأى عقب وصوله إلى السلطه فى مصر أن يهدىء من تعصبه للتشيع ليضمن ارتباط الناس به . وقد جاء فى الوثيقة التى كتبها جوهر الصقلى للمصريين ما يلى :

« ... وذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم . فذكرتها إجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، وهى إقامتكم على مذهبكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأئمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، ومن فقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ... » (١) .

وفى هذا المجال يختلف الصليحيون عن الأئمة الزيدية الذين لم يسمحوا بغير المذهب الزيدى ، مما سبب شرخا بين اليمن الشمالية واليمن الجنوبية عاش طويلا .

صنعاء بعد بنى صليح (سلاطين الهمدانيين)
٤٩٢ — ٥٩٦ هـ = ١٠٩٨ — ١١٩٩ م

مرت صنعاء ، عقب وفاة سبأ الصليحى سنة ٤٩٢ هـ بفترة اضطراب مدمرة ، وأول من ملكها بعد سبأ رجل من همدان يعرف بحاتم الهمدانى المغلسى (٢) ويسميه القاضى الجرافى (٣) حاتم بن الغشم الهمدانى ، ويقول تاج الدين اليمانى عنه (٤) انه كان ناهضا كافيا ، وكان له ولد اسمه محمد ة لم يشاركه أحد فى شجاعته وجوده ، ولكن كان فيه لوثة واختلاط عقل . فكان إذا أحب امرأة وتزوجها قتلها ، فأحدث اضطرابا فى الدولة حتى قتله أبوه .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ — ٧٠ .
(٢) القاضى حسين العرشى : بلوغ المرام ص ٣٩ .
(٣) المقتطف من تاريخ اليمن ص ٧١ .
(٤) تاريخ اليمن ص ٦٢ .

وبقيت صنعاء فى أيدى بنى حاتم الهمدانيين حتى سقطت ، وضمها الأيوبيون إلى سلطانهم مع ما ضموه من اليمن •

وسلاطين الهمدانيين بصنعاء هم :

حاتم بن الغشم الهمدانى	٤٩٢ — ؟
عبد الله بن حاتم	لم تورد المراجع
معن بن حاتم	تواريخ محدد
هشام بن القبيب الهمدانى	لأمراء هذه الفترة
حماس أخو هشام	

حاتم بن أحمد بن عمران اليامى الهمدانى ٥٣٢ — ٥٥٠

فترة صراع بين حاتم وبين الأئمة على صنعاء

على بن حـــاتم ٥٥٠

فترة صراع ضد عبد النبى بن مهدى الذى هاجم عدن مهدت الطريق لانتصار الأيوبيين

وهكذا كانت هذه الفترة حافلة بالفوضى والاضطرابات حول العاصمة الرئيسية لليمن ، وقد مهد ذلك لتدخل مصر التى كان الأيوبيون بها يرون أنهم الورثة الحقيقيون للمناطق التى كانت تابعة للفاطميين •

وسنرجىء الآن الحديث عـن الأيوبيين لنواصل حديثنا عن بـاقى المناطق اليمنية ، بعد أن انتهينا من الحديث عن زبيد وصنعاء •

صعـــــدة

صعدة بفتح الصاد وسكون العين كما يقول ياقوت (١) لواء باليمن ، وعاصمتها اسمها صعدة كذلك . ويقع لواء صعدة فى شمالى اليمن متاخما للواء عسير السعودى ويسمى هذا اللواء كذلك الشام أو القبلة ، وهو معقل أئمة الشيعة الزيدية ومركز للعلوم الدينية ، وفى صعدة كثير من المساجد والدور المهمة .

ومدينة صعدة مدينة عامرة ، آهلة بالسكان ، نشاطها التجارى واسع وبها بعض الصناعات وبخاصـــة الجلود . وتكثر فيها الفواكه وبخاصـــة الأعناب ، وسنتدارس فيما يلى تاريخ صعدة ، ونرى الأئمة الزيديين وهم يبنون بها أنفسهم ، ثم يخرجون منها ليوســـعوا رقعة سلطانهم ، وتظل معهم عدة قرون نشاهد فيها حركة المد والجزر ، وصورا من الصراع الطويل .

الشـــيعة :

فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة (٢) تحدثنا بإفاضة عن الشيعة من ناحية العقائد والأفكار ، ومن ناحية الفرق ، كما تحدثنا عن الحركات التى قاموا بها فى العصر الأموى الذى خصصنا له الجزء الثانى سالف الذكر ، ونريد هنا أن نعود مرة أخرى لنقدم إلمامة سريعة عن عقائـــد الشـــيعة وفرقهم ليكـــون ذلك وسيلة لمزيـــد من التفصيل عن الزيديـــة الذين اتخذوا اليمن مركزا لنشاطهم ، ولنعرف مدى ملاءمة اليمن للفكر الشيعى بوجه عام ، وللفكر الزيدى بوجه خاص .

والشيعة هم الذين شايعوا عليا رضى الله عنه (٣) وقد كان لعلى

---

(١) معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٥٧ ــ ٣٥٨ .
(٢) ص ١٤٥ وما بعدها من الطبعة الثامنة .
(٣) الشهر ستانى : الملل والنحل جـ١ ص ١٣١ .

شيعة منذ اللحظات الأولى بعد وفاة الرسول ومن هؤلاء جابر بن عبد الله وحذيفة بن اليمان ، وسلمان الفارسى ، وأبو ذر الغفارى وغيرهم ، وتم الأمر لأبى بكر الصديق ، وجاء بعده عمر الفاروق ، وقد هدأ التشيع خلال عهديهما بسبب ما عرف عنهما من أطيب الخصال ، وأرقى السجايا ، وفى عهد عثمان رضى الله عنه بدأ التشيع ينشط من جديد ، ودخلته أفكار منحرفة على يد عبد الله بن سبأ وجماعته ، كما تسلل لصفوف الشيعة جماعات أسميناهم فى الجزء الثانى « مدعى التشيع » فنفثوا فى صفوف الشيعة بعض سمومهم ، واستطاع الشيعة أن يكشفوا ضلالاتهم أحيانا ، وينزلوا بهم أقسى العقوبات ، كما استطاع مدعو التشيع أن يحققوا النجاح أحيانا أخرى ، وأن يغرسوا أفكارهم الضالة فى عقول الشيعة ، وقد أوردنا تفاصيل لهذا الاجمال فى الجزء الثانى سالف الذكر ، والمهم أن قبول الشيعة للأفكار الوافدة لم يكن على مستوى واحد ، وهذا سبب وجود فرق مختلفة للشيعة باختلاف القدر الذى تأثرت به هذه الأفكار الواردة .

وتتفق فرق الشيعة على عقيدة واحدة هى أفضلية على على جميع الخلق فيما عدا رتبة النبوة التى امتاز بها أنبياء الله ، وفيما عدا هذا فإن الاختلاف يدب بين فرق الشيعة ، وتبرز فى ذلك فرقتان كبيرتان إحداهما الإمامية والثانية الزيدية .

والفرقة الإمامية انقسمت فيما بعد إلى فرقتين هما الاثنا عشرية والإسماعيلية ، ويرى الإمامية جميعا أن الإمامة خاصة بعلى ثم بأولاده من فاطمة أى بالحسن والحسين فأولاد الأخير ، وليس لأولاد الحسن فيها نصيب عندهم لأن تنازل أبيهم لمعاوية عن الخلافة أضاع حقه ، ولا يجوز أن تكون الإمامة — ويدخل فيها الخلافة — لغير هؤلاء المستحقين ، ومن هنا فهم لا يعترفون بخلافة أبى بكر وعمر وعثمان .

أما الزيدية فاعتقادهم أسهل وأيسر فهم يرون جواز إمامة المفضول

مع وجود الأفضل ، فمع أن عليا وأولاده أفضل الخلق إلا أن خلافة غيرهم جائزة ، وعلى هذا فمذهب الزيدية كــان أقرب مذاهب الشــيعة لرأى الجمهور .

ولكن زيدية اليمن انحرفوا عن الفكر الزيدى العام وتمسكوا أن تكون الإمامة فيهم على نحو ما يقول الإمامية ، ويرى المفكرون اليمنيون أن هذا الاتجاه فى زيدية اليمن هو الذى أثار المشكلات ضدهم منذ مطلع عهــد الزيدية باليمن فى أيام الهادى يحيى بن الحسين أول الأئمة بصعدة ، ويقول القاضى الشماحى [1] إن الإمام زيد بن على كان أبعد نظرا من الهادى فقد أبى أن يأخذ بنظرية حصر الخلافة فى أبناء جدته فاطمة الزهراء ، ولقد كان الهادى يحيى بن الحسين ممثلا لصفات القائد والقدوة الحسنة لأتباعه وكان يتمتع بصفات نادرة .. ولكنه للأسف اتجه اتجاه الإمامية فى المذهب ففرض أبناءه وأحفاده رؤساء على الدولة مع أن كثيرين منهم لم يكونوا مثل جدهم الهادى ولم يكونوا أهلا لمكان الصدارة ، ولو أن الهادى سار على مذهب جده زيد وحطم هذه القيود الدخيلة على المذهب لخرج من الدائرة الضيقة التى جرت عليهم وعلى اليمن ألوانا من الخراب والدمار لأن اعتبارهم متميزين عن الآخرين ووضعهم أنفسهم موضع السيد الدائم بالنسبة للناس مهما ضعفت كفاءتهم ومهما سمت كفاءة الآخرين ، هذا الاعتبار أساء لهم ولليمن وكان من أسباب ضعف الزيدية .

اليمن والتشيع :

فى ظروف مختلفة شرحناها فى الجزء الأول من هذه الموسوعة [2] هاجرت جماعات كثيرة من اليمن واتجه بعض هذه الجماعات إلى يثرب قبل الإسلام ، وقد حل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار هؤلاء بالمدينة ،

---

(١) اليمن الانسان والحضارة ص ٩٩ — ١٠٢ .
(٢) ص ٢٥٠ وما بعدها من الطبعة الرابعة عشرة .

وفى ذلك يقول الويبى (١) : نزل بيثرب من القبائل القحطانية قبيلتا الأوس والخزرج وهما بطنان من الأزد ممن نزح من اليمن بعد حادثة سيل العرم ، ثم هاجر الرسول وبعض آله إلى يثرب ، وقامت صلة وثيقة بين الهاشميين وبين الأنصار ، بل بين الهاشميين وبين اليمن الوطن الأصلى للأنصار ، وهذا يفسر لنا كلمات عبد الله بن العباس للإمام الحسين عندما أراد هـذا أن يترك الحجاز إلى العراق فقال لـه ابن عباس : إن أهـل العراق قوم غدر ، فلا تقربنهم ، أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن أبيت إلا الخروج فسر إلى اليمن فإن بها حصونا وشعابا ، وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت من بنى أمية فى عزلة (٣) .

وإذا كان الإمام الحسين لم يستجب لفكر ابن عباس ولم يتجه إلى اليمن ، فإن كثيرين كانوا يرون فى اليمن ملاذا لهم كلما نزلت بهم النوازل فى الشمال ، ومن أجل هذا كان اليمن دائما مكانا مناسبا لدعوة الشيعة ، فإليه لجأ دعاة الفاطميين قبل أن يتجهوا للشمال الافريقى ، وفيـه هب على بن الفضل الخنفرى ، وكان يدعو للاسماعيلية ، واستطاع أن يخضع أسعد اليعفرى ويقهر سلطان زبيـد ويهاجم صعدة ويمد سـلطانه إلى حضرموت ، ولكن كل أعدائه تجمعوا ضده ، ورموه بشتى الانحرافات ، وشرحوا للناس أنه من القرامطة ، وأنه من أعداء الإسلام ، وساعدهم ما انتشر عنه من عبث وسفك دماء ، فانفض الناس عنه وحجمه أحـد الأشراف فوضع السم فى المبضع فمات سنة ٣٠٣ هـ .

ومن الدعاة الاسماعيلية فى اليمن أبو القاسم المنصور حسن بـن حوشك الذى نجحت دعوته فى بعض مخاليف اليمن .

---

(١) اليمن الكبرى ص ٢٥٢ .
(٢) الطبرى جـ٣ ص ٢٨٨ وعقيدة الشيعة تاليف هوايت دونالدش ص ١٥ .

وأيا ما كانت نتائج هذه الدعوات ، فإن الدعوة الزيدية باليمن كانت أكثر الدعوات الشيعية عمقا ورسوخا ، ذلك لكفاءة الإمام الهادى (الإمام الأول للزيدية) ولأن هذا الإمام لم يصل إلى اليمن إلا والدعوة الشيعية قد رسخت فيه تساندها عشائر قوية [1] .

وإذا رجعنا إلى الوراء حوالى قرن من الزمان قبل وصول الهادى أى إذا عدنا إلى العقد الأخير من القرن الثانى الهجرى ، نجد اليمن ثائرة هائجة ضد الخليفة العباسى هارون الرشيد الذى هاله عصيان اليمن ، فأرسل مولاه « حماد البربرى » وأوصاه وصيته الشهيرة التى أوردناها من قبل وهى : أسمعنى صوت أهل اليمن ، وإذا كان حماد قد نجح فى ذلك فإن نجاحه لم يكن إلا كبتا للشعور اليمنى ، وسرعان ما تجددت ثورة اليمن بعد وفاة هارون الرشيد بعام واحد .

وكانت ثورة اليمن آنذاك مرتبطة بظهور محمد بن ابراهيم بن طباطبا ابن إسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بالكوفة يعاونه أبو السرايا السرى بن منصور الذى خرج من جيش هرثمة احتجاجا على ما اتهم به المأمون من تعاطف مع الفرس ضد العرب ، واستولى أبو السرايا على الكوفة والمدائن .. ودعا للطالبيين [2] واظهر ابن طباطبا سالف الذكر ، وسرعان ما اتجه إلى اليمن أحد قادة هذه الحركة وهو ابراهيم الجزار ابن موسى بن جعفر بن محمد على بن الحسين بن على والتف حوله الشيعة الذين كانوا قد كثروا باليمن وبخاصة فى صنعاء وحاربهم حمدويه بن عيسى بن ماهان والى اليمن من قبل المأمون ، وحقق كثيرا من الانتصارات ، وتركز بلواء صعدة وسمى الجزار لكثرة ما قتل ودمر ، إذ أعلن أن كل خارج عن الإمامة الزيدية لا حرمة لدمه ولا لماله .

وتغلب المأمون على هذه الحركة بعد جهد طويل ، ولكنها خلقت

---

(١) القاضى الشماحى : اليمن الانسان والحضارة ص ١٠٦ .
(٢) موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٣ ص ١٧٤ من الطبعة العاشرة .

بصعدة اتجاها زيديا بقى قويا وواضحا ، على أن ما قاساه الشيعة عـلى يد المأمون دفعهم إلى الميل إلى الهدوء وعدم الالتجاء إلى الثورات والاكتفاء بنشر الدعوة وتجميع الأنصار ، وبخاصة أن المأمون عقب ذلك ولى محمد بن عبد الله بن زياد الذى بدأ به الاتجاه الاستقلالى فى اليمن .

الرسّ والأئمة الزيديون

يقال إن «الرس» دار « بالمدينة لأحد زعماء الزيدية ، ويقال إن «الرس» جبل" أسود عند ذى الجحفة بالقرب من المدينة ، والنسبة إليها الرّسّى ولعل أول من نسب لها هو الإمام القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على وكان يلقب « نجم الأئمة » وهو شقيق محمد بن ابراهيم سالف الذكر ، وقد اختفى بعد وفاة أخيه وانتقل مـن قطر إلى قطر ثم لجأ إلى الرس واختارها مكانا له ولشيعته وبـدأ يـُعرَف بالرسى .

وأول من طالب بالإمامة من بنى الرسى هو الهادى يحيا بن الحسين ، وقد ذهب له وفد من شيعة اليمن يطلبه للقدوم لحكم اليمن بعد ما ساءت بـه الأحوال وكثر الصراع واشتدت شوكة الشيعة ، فقدم الهادى اليمن سنة ٢٨٠ هـ ولكنه لم يجد العون الكافى فعاد أدراجه إلى الرس ، وفى سنة ٢٨٤ عاد شيعة اليمن يطلبون مقدمه ويعدون بالتجمع حوله ونصرته ، فجاء ومعه آله ، ومريدوه ونزل صعدة والتف الناس حوله وبدأت بـه ساطة الأئمة باليمن ، ومن صعدة بدأت الدعوة الزيدية تنتشر إلى بقاع أخرى باليمن ، ومن أجل هذا قاد الهادى معارك شرسة قوية ضد كثير من دول اليمن التى كانت موجودة فى عهده وبخاصة بنى يعفر وعلى بن الفضـل .

وكان الهادى شخصية ممتازة جديرة بأن تقوم بهذا الدور الكبير الذى قامت به ، فقد نشأ بالمدينة نشأة فيها ضوء العلم ، وفيها ورع وتقوى ،

ولما اكتمل فكرة كتب عدة مؤلفات فى الدراسات الإسلامية منها الأحكام ، والمنتخب ، والفنون ، وعندما قدم اليمن برز فيـــه جانب القيــادة بروزا واضحا ، وتجمعت فيه صفات القائد الناجح ، فكان مترفعا عن الأهواء والمتع ، شجاعا فى المعارك ، معتدلا حتى مع أعدائه ، لم يمنعه ترفعه بنسبه عن ترويج بناته من غير العلويين [1] .

وعندما بدأ يعد العدة لصراع أعدائه وضع لنفسه نموذجا مثاليا أعلنه على أتباعه فى صورة عهد ، قـــال فيه : أيها الناس إنى أشـــترط لكم أربعا على نفسى : الحكم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والأثرة لكم على نفسى فيما يكون بينى وبينكم ، وأن أقدمكم عند العطاء ، وأتقدم عليكم عند لقاء العدو .

واشترط لنفسى عليكم اثنتين النصيحة لله فى السر والعلانية ، والطاعة لأمرى ما أطعت الله .

كان هذا نهجا رائعا نفذه الهادى أدق تنفيذ مما كسب له النصر فى أكثر ما خاض من المعارك .

ومما يذكر أن الهادى ينتهى نسبه بالحسن بن على ، فهو ليس من أبناء زيد بن على زين العابدين ، ولكنه اعتنق الزيدية كما اعتنقها من قبل أبوه وجده .

وإذا كنا فى حديثنا عن الإمارات التى قامت فى زبيد وصنعاء قـــد توقفنا عنـــد سنة ٥٦٩ هـ وهى الســـنة التى دخل فيها الأيوبيون اليمن ، فإننا مع أئمة الزيدية لن نقف عند ذلك التاريخ لأن هؤلاء الأئمة لم يختفوا كما اختفى سواهم ، بل ناضلوا أو طأطئوا الرءوس للقوى التى تفوقهم ، لكنهم بقوا على كل حال فى أكثر فترات التاريخ حتى سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) عندما قامت الثورة ضد الإمام البدر .

---

(١) القاضى الشماحى : اليمن الانسان والحضارة ص ١٠٠ .

ومما يذكر أن الأئمة الزيدية عاشوا فى صراع مع الدول اليمنية الأخرى من سنة ٢٨٤ هـ حتى سنة ١٠٤٥ هـ ثم خلصت اليمن الشمالية للأئمة الزيدية حتى قيام الثورة ، فيما عدا فترة الاحتلال التركى [١] .

ومما يذكر كذلك أن الأئمة الزيدية اندفعوا فى كثير من الأحوال إلى صراع مرير ضد بعضهم البعض ، فكان كلما مات واحد منهم ادعى عدد من الزيدية حقهم بولاية الأمر ، ويدور بذلك صراع مرير مما يمكن أن يجعلنا نقرر أن أرض اليمن عرفت الدماء والأهوال بسبب الصراع الذى قام بين فرق الزيدية وأحزابها بعضهم والبعض ، وبين الزيدية من جانب والدول اليمنية من جانب آخر .

ويصف المؤلف اليمنى أحمد الجندارى الصراع بين الأئمة بعضهم والبعض أدق وصف حين يقول : وبعد موت المؤيد محمد بن المتوكل إسماعيل ، افترق آل الإمام فرقا ، وملىء بعضهم من بعض فرقا ، فطمع الكل فى الإمامة ، حتى كادت تقوم القيامة .

وكان المؤيد قد أوصى بالإمامة لابنه يوسف لاعتقاده أنه أحسن إخوته ، ولكن آدعى الحسين بن عبد القادر الإمامة بكوكبان ، وادعاها الحسن بن محمد بعمران ، وعلى بن أحمد بصعدة والحسين بن الحسن برداع ، ومحمد ابن أحمد بالمنصورة وسمى صاحب المواهب ، وصارت الأرض جيفة وفى كل قرية خليفة ، ولكن صاحب المواهب هو الذى غلب ، وصال على أنداده ووثب ، وما ظفر سواه بغير اللقب [٢] .

بقى أن نقول عن الأئمة الزيدية : إن سلطانهم ظل محصورا فى المنطقة الشمالية حتى القرن السابع الهجرى ثم بدأ سلطانهم يمتد جنوبا إلى صنعاء وإلى المناطق الأخرى فى اليمن الشمالية .

---

(١) القاضى الشماحى : اليمن الانسان والحضارة ص ٩٥ — ٩٦ .
(٢) الجامع الوجيز فى وفيات أولى العلم والتبريز مخطوط نقلا عن تاريخ اليمن السياسى للدكتور حسن سليمان ص ٢٨٢ وعن اليمن عبر التاريخ للاستاذ أحمد حسين شرف الدين ص ٢٤٧ .

ومنذ أوائل القرن الحادى عشر الهجرى حاول الأئمة أن يندفعوا إلى اليمن الجنوبية ، إلى حضرموت وبخاصة بعد جلاء الأتراك عنها ، ولكن سلطانهم لم يستقر فى تلك المناطق إذ تمسكت منطقة حضرموت بالمذهب الشافعى ، وكان ذلك من أهم الأسباب التى لم تهيىء للزيدية النجاح فى اليمن الجنوبية ، هذا بالإضافة إلى الحياة القبلية التى وَجدت لها فى مناطق حضرموت أرضا خصبة ، فدفعت إلى الوراء كل سلطان حاول أن يقضى عليها من الشمال .

وبعد هذه الدراسة عن الأئمة الزيدية باليمن نثبت فيما يلى قائمة بأسمائهم مع بعض المعلومات المهمة التى ترتبط ببعضهم ، وسنلاحظ من هذه القائمة أن التسلسل غير موجود ، فطالما قفز إمام إلى السلطة من غير أولاد الإمام المعزول أو المتوفى ، وأحيانا يتلاحق بعض الإخوة بعد أبيهم ، وأحيانا كان يقوم إمامان أو أكثر فى وقت واحد فى أمكنة متعددة ، ولكن المؤرخين يذكرون أقواهم أو أحقهم ويهملون الآخرين ، وسنلاحظ كذلك وجود أوقات بدون أئمة على الإطلاق . وملاحظة أخيرة هى الألقاب التى تحدث اضطرابا فى الفهم ، فلكل إمام لقب كالمهدى والهادى والمنصور والمتوكل ، والمؤيد ... وهى تتكرر أحيانا وكانت ألقاب مملكة فى غير موضعها ، وقد حذفتُ الكثير منها طلبا للإيضاح .

وفيما يلى هذه القائمة :

١ — الهادى يحيى بن الحسين ٢٨٤ — ٢٩٨ = ٨٩٨ — ٩١١

٢ — المرتضى بن الهادى ٢٩٨ — ٣٠١ = ٩١١ — ٩١٣
(تنحّى)

٣ — الناصر بن الهادى ٣٠١ — ٣٢٥ = ٩١٣ — ٩٣٤
تغلب على الداعية منصور بن حسين فى موقعة (نغاش) إحدى معاركه ضد الباطنية

٤ — المنصور بن الناصر ٣٢٥ — ٣٦٦ = ٩٣٤ — ٩٧٦

٥ — يوسف بن المنصور ٣٦٦ — ٤٠٣ = ٩٧٧ — ١٠١٢

٦ — المنصور القاسم بن على العيانى ٣٨٩ — ٣٩٣ = ٩٩٩ — ١٠٠٣

الإمامان رقم ٦ ، ٧ قاما فى أثناء حكم الإمام رقم ٥ .

٧ — المهدى الحسين بن القاسم ٣٩٣ — ٤٠٣ = ١٠٠٣ — ١٠١٢

٨ — أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن ٤٢٦ — ٤٣١ = ١٠٣٥ — ١٠٤٠

٩ — أبو الفتح الديلمى ٤٣٧ — ٤٤٤ = ١٠٤٦ — ١٠٥٣

١٠ — المتوكل أحمد بن سليمان ٥٣٢ — ٥٦٧ = ١١٣٧ — ١١٧١

١١ — المنصور عبد الله بن حمزة ٥٨٣ — ٦١٤ = ١١٨٦ — ١٢١٧

ينتهى نسبه إلى عبد الله بن الحسين أخى الهادى يحيى بن الحسين

١٢ — المعتضد يحيى بن المحسن ٦١٤ — ٦٣٦ = ١٢١٧ — ١٢٣٩

١٣ — المهدى أحمد بن الحسين ٦٤٦ — ٦٥٦ = ١٢٤٩ — ١٢٥٨

ينتهى نسبه إلى محمد بن القاسم عم الهادى

١٤ — يحيى بن محمد السراجى ٦٥٦ — ٦٦٠ = ١٢٥٨ — ١٢٦٢

ينتهى نسبه إلى الحسن بن زيد بن على ، سمله سنجر الشعبى عامل المظفر الرسولى .

١٥ — المنصور الحسن بن بدر الدين ٦٦١ — ٦٧٠ = ١٢٦٢ — ١٢٧٢

١٦ — المهدى ابراهيم بن تاج الدين ٦٧٠ — ٦٧٤ = ١٢٧٢ — ١٢٧٦

حارب المظفر الرسولى وانتصر أحيانا ، ولكنه هزم أخيرا ووقع أسيرا وظل فى الأسر حتى مات .

١٧ — المتوكل المطهر بن يحيى ٦٧٦ — ٦٩٧ = ١٢٧٨ — ١٢٩٨

١٨ — المهدى محمد بن المطهر ٦٩٧ — ٧٢٨ = ١٢٩٨ — ١٣٢٧
استولى على صنعاء وعدن ولحج وحصر ملك الدولة الرسولية فى منطقة تعز .

١٩ — المؤيد يحيى بن حمزة ٧٢٩ — ٧٤٩ = ١٣٢٨ — ١٣٤٩
ينتهى نسبه إلى على زين العابدين بن الحسين

٢٠ — الواثق المطهر بن محمد ٧٣٠ — ٧٥٠ = ١٣٣٠ — ١٣٥٠

٢١ — المهدى على بن صلاح ٧٣٠ — ٧٥٠ = ١٣٣٠ — ١٣٥٠

٢٢ — الداعى أحمد بن على الفقى ٧٣٠ — ٧٥٠ = ١٣٣٠ — ١٣٥٠

٢٣ — المهدى على بن محمد ٧٥٠ — ٧٧٣ = ١٣٥٠ — ١٣٧٣

٢٤ — صلاح الدين بن المهدى ٧٧٣ — ٧٩٣ = ١٣٧٣ — ١٣٩٣

٢٥ — على بن صلاح الدين ٧٩٣ — ٨٤٠ = ١٣٩١ — ١٤٣٦

٢٦ — المهدى أحمد بن يحيى المرتضى ٧٩٣ — ٧٩٣ = ١٣٩١ = ١٣٩١

٢٧ — الهادى على بن المؤيد ٧٩٦ — ٨٣٠ = ١٣٩٣ — ١٤٢٧

٢٨ — المتوكل المطهر بن محمد الحمزى (فى ذمار) .
٨٤٠ — ٨٧٩ = ١٤٣٧ — ١٤٧٥

٢٩ — المهدى صلاح بن على (فى صنعاء) ٨٤٠ — ٨٤٩ = ١٤٣٧ — ١٤٤٦

٣٠ — الناصر بن محمد ٨٤٣ — ٨٦٦ = ١٤٣٩ — ١٤٦٢

٣١ — محمد بن الناصر ٨٦٦ — ٩٠٨ = ١٤٦٢ — ١٥٠٣

٣٢ — الهادى عز الدين بن الحسن ٨٧٩ — ٩٠٠ = ١٤٧٥ — ١٤٩٥

٣٣ — الناصر الحسن بن عز الدين ٩٠٠ — ٩٢٩ = ١٤٩٥ — ١٥٢٤

٣٤ — محمد بن على الوشلى ٨٨٠ — ٩١٠ = ١٤٧٦ — ١٥٠٥
فترته متداخلة مع الإمامين قبله ، اعتقله السلطان الطاهرى (على بن عامر) وبقى بسجن صنعاء حتى مات .

٣٥ ـ شرف الدين بن المهدى ٩١٢ ـ ٩٦٥ = ١٥٠٧ ـ ١٥٥٨

اعتزل الإمامة بعد حكمه الطويل

٣٦ ـ المطهر بن شرف الدين ٩٦٥ ـ ٩٨٠ = ١٥٥٨ ـ ١٥٧٣

صراع الأتراك العثمانيين

٣٧ ـ الحسن بن على داود ٩٨٦ ـ ٩٩٣ = ١٥٧٩ ـ ١٥٨٥

استمر فى محاربة الأتراك ولكن هؤلاء قبضوا عليه ونفوه للأستانة

٣٨ ـ القاسم بن محمد ١٠٠٦ ـ ١٠٢٩ = ١٥٩٨ ـ ١٦٢٠

يعرف هو وأولاده بالدولة القاسمية ، قهر الأتراك ، وحصر سلطانهم فى نقاط ضيقة .

٣٩ ـ محمد بن القاسم ١٠٠٩ ـ ١٠٥٤ = ١٦٠٠ ـ ١٦٤٤

تم فى عهده جلاء الأتراك للمرة الثانية

٤٠ ـ اسماعيل بن قاسم ١٠٥٤ ـ ١٠٨٧ = ١٦٤٤ ـ ١٦٧٦

امتد نفوذه فشمل جميع نواحى اليمن ، ومنها حضرموت

٤١ ـ أحمد بن الحسن بن القاسم ١٠٨٧ ـ ١٠٩٢ = ١٦٧٦ ـ ١٦٨١

٤٢ ـ المؤيد محمد بن اسماعيل بن القاسم

١٠٩٢ ـ ١٠٩٧ = ١٦٨١ ـ ١٦٨٦

٤٣ ـ محمد أحمد بن القاسم ١٠٩٨ ـ ١١٣٠ = ١٦٨٧ ـ ١٧١٨

يعرف بصاحب المواهب نسبة لقرية بناها وسماها « المواهب » .

٤٤ ـ الحسين بن القاسم بن المؤيد ١١٢٧ ـ ١١٣١ = ١٧١٦ ـ ١٧٢٠

٤٥ ـ القاسم بن حسين ١١٢٨ ـ ١١٣٩ = ١٧١٦ ـ ١٧٢٧

٤٦ ـ محمد بن إسحق ١١٣٥ ـ ١١٣٥ = ١٧٢٣ ـ ١٧٢٣

٤٧ ـ الحسين بن القاسم ١١٣٩ ـ ١١٦١ = ١٧٢٧ ـ ١٧٤٧

٤٨ ـ عباس بن الحسين بن القاسم ١٦٦١ ـ ١١٨٩ = ١٧٤٨ ـ ١٧٧٥

٤٩ — على بن الحسين بن القاسم ١١٨٩ — ١٢٢٤ = ١٧٧٥ — ١٨٠٩

٥٠ — أحمد بن الحسين بن القاسم ١٢٢٤ — ١٢٣١ = ١٨٠٩ — ١٨١٦

٥١ — عبد الله المهدى بن الحسين بن القاسم

١٢٣١ — ١٢٥١ = ١٨١٦ — ١٨٣٥

٥٢ — أحمد بن على السراحى ١٢٤٧ — ١٢٤٧ = ١٨٣١ — ١٨٣١

٥٣ — على بن المهدى ١٢٥١ — ١٢٥٢ = ١٨٣٥ — ١٨٣٦

بدأ فى عهده غزو الأتراك الثالث لليمن

٥٤ — عبد الله بن الحسن بن أحمد بن المهدى

١٢٥٢ — ١٢٥٦ = ١٨٣٦ — ١٨٤٠

فى عهده احتل الانجليز عدن — قتل فى ثورة همدان سنة ١٢٥٦ .

٥٥ — محمد بن أحمد بن الحسين ١٢٥٦ — ١٢٥٩ = ١٨٤٠ — ١٨٤٣

٥٦ — محمد بن يحيى بن المنصور ١٢٦٠ — ١٢٦٥ = ١٨٤٤ — ١٨٤٩

٥٧ — أحمد بن هاشم ١٢٦٤ — ١٢٦٥ = ١٨٤٨ — ١٨٤٩

٥٨ — العباس بن عبد الرحمن ١٢٦٦ — ١٢٦٦ = ١٨٥٠ — ١٨٥٠

٥٩ — غالب بن المتوكل محمد ١٢٦٧ — ١٢٦٨ = ١٨٥١ — ١٨٥٢

٦٠ — محمد بن عبد الله الوزير ١٢٦٩ — ١٣٠٧ = ١٨٥٣ — ١٨٩٠

٦١ — الحسن بن أحمد ١٢٧١ — ١٢٩٥ = ١٨٥٥ — ١٨٧٨

٦٢ — حسين بن محمد بن الهادى ١٢٧٥ — ١٢٧٩ = ١٨٥٩ — ١٨٦٣

٦٣ — شرف الدين بن محمد ١٢٩٦ — ١٣٠٧ = ١٨٧٨ — ١٨٩٠

٦٤ — محمد بن يحيى حميد الدين ١٣٠٧ — ١٣٢٢ = ١٨٩٠ — ١٩٠٤

٦٥ — يحيى بن محمد بن يحيى حميد الدين

١٣٢٢ — ١٣٦٧ = ١٩٠٤ — ١٩٤٨

جعل صنعاء عاصمة له وانتقل لها من صعدة

٦٦ ــ أحمد بن يحيى ١٣٦٧ — ١٣٨٢ = ١٩٤٨ — ١٩٦٢

٦٧ ــ البدر بن أحمد ١٣٨٢ = ١٩٦٢ (عدة أيام ثم هبت ثورة السلال)

وقد بدأ الأئمة نشاطهم فى صعدة كما قلنا من قبل ، ثم امتد سلطانهم إلى أكثر اليمن الشمالية وبعض بقاع اليمن الجنوبى ، وانتهى الأمر بسيطرتهم على اليمن الشمالى كله ، وعلى انفصال اليمن الجنوبى ، وسنترك الآن الأئمة الزيدية لنواصل حديثنا عن عدن منذ ظهرت بها اتجاهات استقلالية حتى زحف الأيوبيون على اليمن كله .

وبعد الأيوبيين جاء على نظامهم بنو رسول وبنو طاهر والمماليك المصريون ، ثم ظهر الأتراك العثمانيون واقتحموا اليمن ، ولم يقف أمامهم فى حلبة النضال إلا الأئمة ، ولم يجد اليمنيون قيادة غيرهم فى الصراع ضد العثمانيين ، ومن أجل هذا التفوا حولهم ، وظهر بعض الأئمة قادة ممتازين قادوا الشعب بمهارة فى هذا الصراع الطويل .

عـــــدن

عدن — كما يقول ياقوت — مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ، لا ماء بها ولا مرعى ، وعدن مرفأ هام ، وتسمى « عــدن أبين » وأبين مخلاف باليمن عدن من جملته ، وتعد عدن من أقدم أسواق العرب ، وهى تطل على البحر . ويحيط بها جبل لم يكن فيه طريق يصل عدن بما خلف الجبل ، فقطع فى الجبل باب فصار لها طريق إلى البر ، ويورد ياقوت أسبابا عدة من تسمية عدن وأكثرها يتجه إلى نسبتها إلى أشخاص سموا بهذا الاسم [١] .

وفى التاريخ القديم كانت عدن تسمى « آدانا » وكانت أهم الموانى فى جنوب شبه الجزيرة العربية عند مضيق باب المندب حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد ، إبان دولة سبأ التى تحدثنا عنها فى الجزء الأول من هذه الموسوعة . وكانت دولة سبأ تحتكر التجارة بين البلاد العربية وبين البلاد الشرقية (الهند والصين ...) ومن أجل هذا لم تكن تسمح للسفن العربية الهابطة من البحر الأحمر بأن تجتاز المضيق وتواصل سيرها فى الخط التجارى الذى احتكرته سبأ ، وكانت سبأ تشترى التجارة الهابطة وتقوم بتسويقها حيثما تشاء ، وتبيع لتجــار الشمال مــا يحتاجونه من حاصلات الأقطار الشرقية ، وظل الحال على ذلك حينا حتى سقطت سبأ ، وضعفت حمير من بعدها ، ولم يعد فى سلطة حكام اليمن أن يوقفوا السفن عن اجتياز المضيق ومواصلة الرحلة فى المحيط الهندى إلى الشرق .

وفى كلتا الحالتين كانت عــدن أهم ميناء تقف فيه الســفن الهابطــة والصاعدة لتتزود بحاجياتها قبل أن تواصل سيرها فى المحيط الهندى أو البحر الأحمر .

ولم تصبح عدن مملكة قائمة بذاتها إلا ابتداء من دولة بنى زريع سنة ٤٧٦ هـ . وكانت قبل ذلك ولاية تابعة لآل زياد وآل نجاح والصليحيين ، وسنتحدث فيما يلى عن عدن فى فترة استقلالها .

---

(١) معجم البلدان : ج٣ ص ٦٢١ — ٦٢٢ .

بنى زريع فى عدن
٤٧٦ — ٥٦٩ هـ

من بنى صليح إلى بنى زريع :

عندما استولى على بن محمد الصليحى على اليمن مد سلطانه إلى عدن فوجد بها بنى معن الحميريين ، وكان هؤلاء قد تغلبوا على لحج والشحر وحضرموت ، وقد أظهر هؤلاء ولاءهم لبنى صليح وعاونوهم فى حروبهم ضد بنى نجاح ، ومن أجل هذا أبقاهم على الصليحى على ما تحت أيديهم على أن يكونوا نوابا عنه فى حكم هذه البقاع ، والتزم بنو معن بذلك ، وقنعوا بالسلطة فى ظلال التبعية لبنى صليح .

ولما خطب الصليحى الأميرة أروى التى تحدثنا عنها من قبل إلى ابنه المكرم جعل دخل مدينة عدن وما حولها صداقا لها ، كما قرر أن يدفع لها هذا الخراج كل عام هدية لها ، وظل بنو معن يدفعون للسيدة أروى هذا الخراج حتى سقط على بن محمد الصليحى بسيوف بنى نجاح سنة ٤٥٩ هـ فاستبد بنو معن بما تحت أيديهم ، وتوقفوا عن دفع الخراج للسيدة أروى ، ولكن زوجها (السلطان المكرم) انتظر ريثما فرغ من المشكلات التى كانت تحيط به ، فلما جاءت سنة ٤٦٧ هـ هاجم المكرم بنى معن وطردهم من عدن وما والاها ، وقضى على نفوذهم تماما .

بدء سلطة بنى زريع :

لما استقر الأمر للمكرم الصليحى فى عدن وما حولها جعل ولايتها للعباس ومسعود ابنى المكرم الجشمى بن يام بن أصبى الزريعى — ويعرف بابن الذئب مما جعل المؤرخين يطلقون على الزريعيين أحيانا « بنى الذئب » (١) وجعل المكرم الصليحى للعباس حصن التعكر وما يليه من

(١) جمال الدين يوسف بن يعقوب : صفة بلاد اليمن ص ١٢١ .

البر ، وللمسعود حصن الخضراء وما يليه من البحر ، وله كذلك مدينة عدن ، إذ كان هذا قد أبلى بلاء حسنا فى الصراع الذى دار بين المكرم الصليحى وبين بنى نجاح ، والذى استطاع المكرم بواسطته أن ينقذ أمه وصواحباتها من أسر بنى نجاح ، وقد أشرنا لهذا الصراع من قبل ، واستخلص المكرم العباس والمسعود على أن يدفع كل منهما للسيدة أروى مبلغ خمسين ألف دينار كل عام ، وقد استمرا على ذلك طيلة حياتهما وسار على ذلك أبناؤهما من بعدها مع تخلف وانتقاض فى بعض السنوات .

وهكذا أصبح بنو زريع شبه مستقلين فى هذه البقاع ، على أن الزمن قد مر وسقط بنو صليح ، وماتت السيدة أروى وظهر على أثر بنى صليح بنو مهدى وبنو همدان ، ولكن عناصر من بنى زريع قفزت إلى السلطة وقلدها خلفاء الفاطميين سلطة الدعوة باسمهم ، وقد استمر ذلك حتى سقطت الخلافة الفاطمية بمصر ، وقام الأيوبيون مقامهم ، فتطلعوا إلى أن يرثوا أملاك الفاطميين ومن ضمنها اليمن كما سنرى فيما بعد .

وقائمة سلاطين آل زريع هى :

فى حصن التعكر		فى حصن الخضراء وعدن	
العباس بن المكرم	٤٧٠ — ٤٧٧	المسعود بن المكرم	٤٧٠ — ٤٨٠
زريع بن العباس	٤٧٧ — ٤٨٠	أبو الغازات بن المسعود	٤٨٠ — ٤٨٥
أبو السعود بن زريع	٤٨٠ — ٤٩٤	محمد بن أبى الغازات	٤٨٥ — ٤٨٨
		على بن محمد	٤٧٨ — ٤٨٩
الداعى سبأ بن أبى السعود (فى المنطقتين)			٤٨٩ — ٥٣٣

والداعى سبأ هو ابن أبى السعود بن زريع ، وكان عظيم الشخصية فى عهد أبيه ، حارب ابن عمه على بن محمد حاكم حصن الخضراء وعدن ، وانتصر عليه ، واستولى على منطقته سنة ٤٨٩ ﻫ ثم ورث أباه فى حصن

المعكر سنة ٤٩٤ هـ فدانت له المنطقة كلها ، وقلده الخليفة الفاطمى بمصر الدعوة ، وسمى الداعى سبأ ، وظل فى سلطانه إلى أن مات سنة ٥٣٣ .

الداعى محمد بن سبأ	(فى المنطقتين)	٥٣٣ — ٥٥٠
عمران بن محمد بن سبأ	(فى المنطقتين)	٥٥٠ — ٥٦٠
أبو الدر جوهر المعطى وصيا على أولاد عمران		٥٦٠ — ٥٦٩

ويقول تاج الدين اليمانى (١) عن محمد بن سبأ : إن لقبه كان المعظم المتوج المكبر ، وكان ممدحا ، ويقصده الشعراء فيجزل لهم العطاء ، وكان جوادا كريما ، توسع فى الملك ، وغلب على أكثر البلاد ، وعندما توفيت السيدة أروى سنة ٥٣٢ انتقل ما كان بيدها من الحصون والذخائر إلى المنصور بن المفضل ، فابتاع الداعى محمد منه الحصون والبلاد سنة ٥٤٦ وسكن الداعى بذى جبلة — ولما مات سنة ٥٦٠ انتقل الأمر إلى ذرارية ، إلى أن نفاهم سيف الإسلام توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين سنة ٥٦٩ هـ .

(١) تاريخ اليمن ص ٦١ — ٦٢ .

مصر فى اليمن

مطالع الدعوة الفاطمية :

إن الحركة العلوية التى أثمرت خلافة فاطمية بالشمال الافريقى قبيل نهاية القرن الهجرى الثالث ، كانت قد بدأت نشاطها قبل ذلك فى اليمن ، وإذا كانت أضرحة أئمة أهل البيت فى النجف وكربلاء عدّت المكان الملائم لاختيار الدعاة العلويين ، فإن اليمن كانت المكان الملائم لنشاط هؤلاء الدعاة .

وقد سبق أن ذكرنا المميزات التى جعلت اليمن تنعم بهذه المكانة وهى بعدها عن مركز السلطة فى دمشق وبغداد ؛ وكثرة ما بها من أغوار وكهوف ونجاد ، ولما كان بها من مذاهب وفلسفات متعددة قبل الإسلام ؛ ثم لما كان يربطها بالهاشميين من روابط ووشائج ، ويضيف على بن الفضل اليمانى سببا آخر جعل اليمن بلادا مناسبة للدعوة الفاطمية ، وهو فى ذلك يقول : « والله ان الفرصة ممكنة فى اليمن ، وان الذى تدعون إليه جائز هنالك ، وناموسنا يمشى عليهم فإن فيهم ضعف العقول ، وقلة المعرفة بأحكام الشريعة المحمدية » .

وعلى هذا أرسل الفاطميون دعاتهم إلى اليمن ليقوموا بالدعوة للإمام أبى عبد الله المهدى ، وبعد وفاة هذا استمرت الدعوة لابنه عبد الله المهدى (١) .

وكان أول الدعاة الفاطميين باليمن أبا القاسم الحسن بن حوشب وهو من ولد عقيل بن أبى طالب ، وعلى بن الفضل الخنفرى اليمانى ، وقد أوصى أبو عبيد الله المهدى داعيته أبا القاسم بقوله : أجمع المال والرجال والزم الصوم والصلاة والتقشف ، واعمل بالظاهر ، ولا تظهر الباطن ،

---

(١) انظر هذه الموسوعة جـ٤ ص ٣٢٣ وما بعدها .

وأوصاه بعلى بن الفضل قائلا عنه : هو شاب قريب عهد بالأمر ، فانظر كيف تسوس أمره •

ووجه المهدى نصحه لعلى بن الفضل قائلا : إن هـذا الرجل (ابن حوشب) الذى نبعث به معك هو بحر علم ، فانظر كيف تصحبه ، وقرّه ، واعرف له حقه ، ولا تخالفه فيما يراه لك ، انه أعرف منك ؛ وإنك إن خالفت لم ترشد

واتجه إلى الاثنين قائلا : أبعثكما إلى اليمن تدعوان إلى ولدى هذا ، فسيكون له ولذريته عز وسلطان ، وأن الله عز وجل قسم لليمنيين ألا يتم أمره فى هذه الشريعة إلا بنصرهم (١) •

وخرج الداعيان معا حوالى سنة ٢٦٨ هـ ثم افترقا ، فذهب كل منهما إلى مكان باليمن على أن يتصل أحدهما بالآخر من حين إلى حين ، وقد اتجه أبو القاسم إلى عدن ، وأخذ على بن الفضل وجهته إلى بلاد يافع الجبلية بالقرب من الجند •

ونجح الاثنان نجاحا موفوراً للأسباب التى ذكرناها ، وبسبب الاضطرابات السياسية التى كانت سائدة باليمن آنذاك ، وعندما أحس أبو القاسم بما ناله من نجاح تسمى « منصور اليمن » ودانت له بقاع كثيرة باليمن من أهمها ذخار وشبام ••• وحقق على بن الفضل نجاحا واسعا بطريق القوة تارة والدعوة تارة أخرى ، وبطريق التآمر تارة ثالثة ، ودانت له عدن وصنعاء وزبيد •

ولكن النصر العسكرى خلق كثيرا من الغرور والأطماع فى نفس على ابن الفضل ، فبدأ يظهر التمرد والرغبة فى الاستقلال بل اتجه إلى الانحراف

---

(١) نقول من « افتتاح الدعوة الزهراء » مخطوط لمحمد بن منصور التميمى (النعمان) •

والخطيئة كما ذكرنا من قبل ، وتغلبت عليه ثقافة قرمطية قديمة كانت ألقت بذورها فى نفسه ، ولعل هذا هو ما جعل المهدى لا يُقبل على اليمن وآثر أن يتبع أبا عبد الله الشيعى الذى كانت دعوته قد حققت نجاحا عظيما فى الشمال الافريقى ، وقد اغتيل على بن الفضل سنة ٣٠٢ هـ ومات ابن حوشب فى العام التالى سنة ٣٠٣ هـ •

والمهم أن الخلافة الفاطمية قامت فى الشمال الافريقى ولكن الفاطميين كانت لهم دعوة ناجحة فى اليمن ، وانتصارات لا تنسى ، وإذا كان الفاطميون قد شغلتهم الأحداث فى الشمال الافريقى وفى مصر ، فإنهم لم ينسوا اليمن الذى كان على وشك أن يكون قاعدة لسلطانهم •

على أنا نعتقد أن أطماع الفاطميين جعلتهم يؤثرون أن تقوم دولتهم فى الشمال الافريقى وفى مصر ليكونوا على صلة بمناطق النشاط بالعالم الإسلامى ، بدل أن تقوم دولتهم فى اليمن حيث يصعب أن يمتد منها سلطانهم إلى مناطق أخرى •

والمهم أن صلة وثيقة قامت بين مصر التى انتقلت لها الخلافة الفاطمية ، وازدهرت بها ، وبين اليمن منذ ذلك التاريخ البعيد •

تجدد الدعوة الفاطمية باليمن :

عندما قامت الدعوة الفاطمية بمصر تطلع الخلفاء الفاطميون إلى أن يستعيدوا نفوذهم باليمن ، ووجدوا فى بنى صليح وسيلتهم لذلك ، فقد ساعد الفاطميون بنى صلح ماديا وأدبيا حتى قامت دولتهم فى صنعاء واتسعت إلى أماكن أخرى باليمن ، وهذا الوضع وثق الصلة بين مصر واليمن •

الأيوبيون فى اليمن

٥٦٩ — ٦٢٦ هـ = ١١٧٤ — ١٢٢٩ م

لماذا دخل الأيوبيون اليمن ؟ :

إن المراجع التى بين أيدينا تعطى لذلك أسبابا متعددة ، ولكننى لم أستطع تقبل هذه الأسباب . ومع هذا فلنوردها أولا ، ثم نورد بعد ذلك الرأى الذى نراه .

— يقول ابن الأثير (١) : إن السبب فى إرسال صلاح الدين أخاه توران شاه إلى اليمن يرجع إلى أن صلاح الدين كان خائفا أن يأخذ نور الدين منه مصر ، ولذلك فكر فى الاستيلاء على بلد آخر ليلجأ إليه فى حالة استيلاء نور الدين على مصر ، واقتضى هذا أن يُسَيِّرَ صلاح الدين أخاه إلى بلاد النوبة ولكنها لم تعجبه ، فسيره صلاح الدين إلى اليمن .

ويورد ابن الأثير (١) نصا آخر يحمل فكرة أخرى فيقول : إن توران شاه استأذن نور الدين فى أن يسير إلى اليمن لمحاربة صاحب زبيد الذى قطع الخطبة لبنى العباس ، فأذن له بذلك .

ويرى ابن واصل أن قطع الخطبة لبنى العباس كان أيضا السبب فى زحف الأيوبيين إلى اليمن ، وهو فى ذلك يقول (٢) لما ملك على بن مهدى زبيد وقطع خطبة بنى العباس ، وخطب لنفسه ، استأذن صلاح الدين نور الدين أن يسيِّرَ عسكرا إلى اليمن فأذن له بذلك .

وهكذا نرى أن الأسباب التى يوردها المؤرخون لدخول الأيوبيين اليمن تدور فى نطاق قطع الخطبة لبنى العباس ، أو فى نطاق أحاسيس

---

(١) الكامل فى التاريخ ١١ ص ١٤ .
(٢) مفرج الكروب جـ١ ص ٢٣٨ .

الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين ، ولكنى فى الحق لم أقتنع بهذه الأسباب ، ففرار الأيوبيين من مصر لليمن خوفا من نور الدين لن يجعلهم بمأمن منه . فإذا كانت اليد الطولى لنور الدين فإنه يستطيع بسهولة أن يلحق بهم فى اليمن ويقضى عليهم .

أما أن يقوم الأيوبيون بهذه الحملة لأن صاحب زبيد قطع الخطبة لبنى العباس فيناقضه أن حملة الأيوبيين كانت على اليمن كله ولم تقف عند زبيد . ثم إنها لم تكتف بتأديب المتمرد بل استقرت فى اليمن وحكمته .

وعلى هذا فإننى أرى من تتبعى لأحداث التاريخ أن السبب الحقيقى كان يكمن فى اعتقاد الأيوبيين أنهم ورثوا ملك الفاطميين بكل اتساع يشمله هذا التعبير ، ومن أجل هذا الاعتقاد زحف الأيوبيون إلى كل مكان امتد له سلطان الفاطميين ، سواء كان ذلك فى اليمن أو فى الشمال الافريقى . أو فى الحجاز ، أو فى النوبة ، وكان اهتمام الأيوبيين بالحجاز واليمن أكثر ، لأن سلطان الفاطميين كان أطول وأثبت فى هاتين المنطقتين

ومما يؤكد أن ملك الأيوبيين فى اليمن كان امتدادا لسلطان الفاطميين بها ما أورده كاتب يمنى [١] من أن الشريف قاسم بن يحيى ، وهو من كبار أعيان المخلاف السليمانى استنجد بالخليفة العاضد ضد نشاط آل مهدى فى زبيد وجميع المدن والقرى التهامية ، وأن العاضد استجاب لذلك وأمر وزيره صلاح الدين أن يأخذ فى نجدته ، فبعث صلاح الدين أخاه توران شاه الملقب شمس الدين إلى اليمن ومعه قوة كبيرة ... وهذا الرأى يوضح أيضا أن الحملة الأيوبية لم تكن من أجل العباسيين ، بل كانت دفاعا عن سلطان الفاطميين بهذه البلاد ، ذلك السلطان الذى ناله صلاح الدين بعد أن قضى على الدولة الفاطمية .

---

(١) تاج الدين بن عبد المجيد : بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ص ٣٥ وما بعدها .

وقد بدا الزحف الأيوبى على اليمن فى شوال سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) واتخذ رجاله زبيد ، وسرعان ما انتصر على عبد النبى بن المهدى ، وقضى على مقاومته وأسره ، واستولى على أمواله [١] وسار الزحف الأيوبى من زبيد إلى عدن فقضى على آل زريع ، وقبض على القائم بأمر الأولاد المنتصر من بنى زريع [٢] ثم غادرها إلى ذى جبلة حيث أنهم حكم الصليحيين دعاة الفاطميين ؛ لأن سلطان الفاطميين بمصر كان قد أوقف ، وأصبح من الضرورى إيقاف نشاط دعاتهم حتى لا يثوروا من أجلهم . وامتد حكم الأيوبيين إلى صنعاء ، وإلى مناطق كثيرة من حضرموت [٣] وكان الزيدية قد ضعفوا واشتد بينهم الخلاف حتى أنهم لم يستطيعوا أن يعينوا إماما لهم فى المدة بين سنة ٥٦٦ و ٥٩٣ وكان هذا مما يسر زحف الأيوبيين ونجاحهم [٤] .

واسس توران شاه عاصمة جديدة له هى « تعز » واهتم بتعمير اليمن مما قاسى من صراعات وشدائد ، ويروى أنه لما رأى جنده يحاولون تخريب بعض المدن عقب الاستيلاء عليها للتأكد من خلوها من جنود المقاومة صاح فيهم : ما جئنا لتخريب البلاد ، وإنما جئنا لنحكمها ونعمرها .

ولكن مقام توران شاه باليمن لم يطل ، إذ استأذن صلاح الدين فى العودة إليه ، فأذن له ، فعاد بعد حوالى العام ، وولى توران شاه الولاة على نواحى اليمن فجعل على زبيد أبا الميمون المبارك الاكنانى المشهور بسيف الدولة ، وعلى تعز ياقوت التعزى ، وعلى الجند مظفر الدين ، وعلى عدن الزنجيلى .

بيد أن صراعا دار بين هؤلاء الولاة ابتداء من سنة ٥٧٦ فأرسل صلاح الدين أخاه طغتكين للقضاء على الفتن وإعادة السلام والولاء ، وقد استطاع طغتكين أن يستولى على البلاد بكثير من اليسر إذ خضع له مثيرو الفتن ، او فروا من وجهه ، واستولى بذلك على جميع اليمن ، واختط المنصورة

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ص ١٧٨ .
(٢ ، ٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٦ .
(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى جـ١ ص ٣٤١ .

فى جبال المعافر ، وسور زبيد وصنعاء ، وإليه ينسب بستان السلطان فى صنعاء ، وخضعت له عدن وحضرموت [1]

وفيما يلى قائمة سلاطين الأيوبيين باليمن :

السلطان توران شاه بن أيوب	٥٦٩ — ٥٧٠ هـ
ولاة توران شاه على النواحى	٥٧٠ — ٥٧٩
السلطان طغتكين بن أيوب	٥٧٩ — ٥٩٠
المعز اسماعيل بن طغتكين	٥٩٠ — ٥٩٨
السلطان الناصر بن طغتكين	٥٩٨ — ٦١١
السلطان المسعود يوسف بن الكامل	٦١١ — ٦٢٠

عمر بن على بن رسول الغسانى نائبا عن السلطان يوسف ٦٢٠ — ٦٢٦ [2]

ومما يذكر ان المعز اسماعيل كان من أهم أسباب انهيار النفوذ الأيوبى باليمن ، إذ كان مضطرب الاتجاهات ، فقد أعلن التشيع ولكنه فى الوقت نفسه انتسب إلى بنى أمية وانتقص من بنى العباس ، وادعى الخلافة ، كما كان شحيحا مع الجند كثير الغدر ، مما قوى نفوذ إمام الزيدية عبد الله ابن حمزة ، ودفع الكثيرين من قادة اليمن إلى الالتحاق بهذا الإمام [3]

وبمقتل المعز اسماعيل سنة ٥٩٨ هـ عادت الأمور مرة أخرى لصالح الأيوبيين ، وذلك بسبب نفوذ الأتابك الذين كان لهم الاشراف على الناصر أيوب بن طغتكين ، ولكن ذلك الاستقرار لم يطل ، وعادت الاضطرابات لليمن مرة أخرى ، فرأى السلطان العادل الأيوبى خطورة الوضع فى اليمن ، فأنفذ قوة جديدة لاستعادة سلطان الأيوبيين ، وكان يقودها

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ص ٢١٦ .

(٢) زامباور : معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى جـ١ ص ١٥٢ .

(٣) يحيى بن الحسين غاية الأمانى جـ١ ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

المسعود بن الكامل ، وقد استطاع المسعود أن يحقق نصرا على كل أعدائه ولكنه سرعان ما استدعى إلى مصر ، فاناب بها عنه عمر بن رسول [1] .

وبوفاة السلطان المسعود ، وبدء تدهور شأن الأيوبيين فى مصر أخذ امر اليمن ينتقل لبنى رسول . ولكن الباحث المدقق يحس أن الارتباط بين اليمن وبين مصر فى عهد المماليك لم ينقص تماما بانتقال الأمر لبنى رسول ، فقد ظل هناك نوع من الارتباط يلحظه الباحث من قراءته عن رحلات سلاطين بنى رسول لمصر ، ومن الثابت أن السلطان الأخير من سلاطين بنى رسول (المسعود أبو القاسم) قد رحل إلى مصر وكانت رحلته كما سنرى خطوة تحول من بنى رسول إلى بنى طاهر ويتحدث المؤرخ اليمنى أحمد حسين شرف الدين [2] عن هذه الرحلة فيقول : استولى بنو طاهر على زبيد بعد سفر المسعود إلى الديار المصرية للمرة الأخيرة ، وهذه العبارة تدل على تكرار رحلات هؤلاء السلاطين إلى مصر ، وبالتالى على وجود العلاقة .

وسيرا مع هذا الاتجاه يمكن ان نرى فى زحف المماليك الشراكسة من مصر إلى اليمن فى عهد قنصوه الغورى امتدادا لتمسك مصر بالعلاقة بين البلدين الشقيقين .

وقبل أن نترك حكم الأيوبيين لليمن ينبغى أن نقرر أن انضمام اليمن لمصر فى تلك الفترة الحاسـمة فى تاريخ العرب والمسلمين كان عظيم الجدوى ، فقد اشتركت اليمن أرضها وشعبها فى الصراع الذى كان يقوده صلاح الدين وخلفاؤه ضد الصليبيين ، وكان ذلك من أسباب النصر الذى نالته القوى الإسلامية .

وبعد الأيوبيين لم تقم باليمن إلا دولة واحدة وبجانبها القبلية التى انتشرت وبخاصة فى اليمن الجنوبية ، ثم تحولت إلى سلطنات متعددة كانت أساس جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية فيما بعد .

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ٢ ص ٣٣ .
(٢) اليمن عبر التاريخ ص ٢٢٧ .

بنــو رســول

٦٢٦ — ٨٥٨ هـ = ١٢٢٩ — ١٤٥٤ م

إن تسمية بنى رسول لها قصة ؛ فإن نســبهم ينتهى إلى محمد بن هارون الغسانى ، وكان هذا أثيرا عند الخليفة العباسى ، فأرسله عدة مرات إلى سلاطين الأيوبيين بمصر ، فأطلق عليه لقب « رسول » .

ويميل المؤرخون [١] اليمنيون إلى الربط بين هذه الأسرة وبين الوطن اليمنى ، واعتبار دولة بنى رسول دولة يمنية وليست دخيلة ، ولذلك يعتبرون محمد بن هارون من حفدة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة ، وهــذا بدوره ينتهى نسبة إلى زيد بن كهلان بن سبأ الأكبر .

أمــا Stanley Lane' Pool فيرى أن بنى رسول ينحدرون من أصل فارسى ، ودليله على ذلك أن جدهم يسمى « رستم » وهو اسم فارسى [٢] ولكن فاته أن بعض الأسماء الفارســية دخلت بلاد اليمن منــذ احتلال الفرس لليمن فلا ينهض ذلك دليلا .

ويتجه بعض الباحثين إلى أن بنى رسول من أصل « تركمانى » [٣] ودليلهم على ذلك أن محمد بن هارون كان يتكلم اللغة التركمانية ولكنا نرى أن معرفة اللغة لا يعنى ارتباط العرق .

وقد رأينا أن بنى رسول قد بدأوا سلطانهم نوابا عن الأيوبيين وقد قنع عمر بن على أول سلاطين بنى رسول بهذه النيابة منذ عاد السلطان مسعود آخر سلاطين الأيوبيين إلى مصر سنة ٦١٥ هـ حتى وفاة السلطان

---

(١) انظر العقود اللؤلؤية للخزرجى جا ص ٢٦ — ٢٨ .
(٢) Muhammadan Dynasties P. ; 92.
(٣) المقريزى : السلوك ج٢ قسم ١ ص ٢٣٤ .

مسعود سنة ٦٢٦ هـ فأعلن عمر استقلاله بالأمر فى اليمن ، واستصدر بذلك أمرا من الخليفة الظاهر بن الناصر العباسى ، وضرب السكة باسمه ، وأمر الخطباء فدعوا له فى خطب الجمعة ، وبدأ بذلك ملك بنى رسول .

ومما يذكر أن السلطان مسعود عندما أناب عنه عمر بن على خاف أن يطغى بنو رسول على اليمن فقبض على بدر الدين وفخر الدين أخوى عمر وصحبهما معه إلى مصر ليُضعف من شوكة بنى رسول ، وقد ظل هذان فى مصر حتى سنة ٦٤٩ هـ فأعيدا إلى اليمن فى عهد المظفر بن عمر . ولكن هذا أودعهما السجن أيضا ، ولذلك يروى أن بدر الدين قال وهو يُدْفع سجينا إلى القلعة : قبحك الله قلعة ، أخرجنا منك مقيدين وعدنا إليك مقيدين (١) .

وكان عمر بن على يحس بالرهبة تجاه السلطان مسعود لقسوته مع بدر الدين وفخر الدين ، لذلك حرص عمر على التقرب للعامة لعلهم يكونون درعا له إذا غضب عليه السلطان مسعود ، أو لعلهم يؤيدونه بعد مسعود ، وهذا هو الذى يسر الأمر لعمر ، فما كاد يصله خبر وفاة السلطان مسعود حتى استبد بالأمر ، واتخذ الوسائل لذلك كما رأينا آنفا .

وقد طالت مدة بنى رسول باليمن فاستمرت أكثر من قرنين ، واتسع ملكهم فشمل أكثر بقاع اليمن الشمالية والجنوبية بما فى ذلك حضرموت ، وقهروا الأئمة فى كثير من الأحوال وأذاقوهم الويلات .

ولما ضعف شأن الأئمة من طول صراعهم ضد بنى رسول اتجه بنو رسول إلى اهمالهم ، وقنعوا بإرسال الإمدادات إلى منافسيهم ، وإلى بعض عمالهم ليحملوا عنهم عبء هذا الصراع وكان ظاهر بن عامر أحد عمال بنى رسول من أكثر العمال ملاحقة للأئمة ، وقد استطاع أن يستولى على

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٨٥ .

بعض معاقلهم ، ويطرد منها العمال الموالين للإمام على بن صلاح الدين [١] وسلاطين بنى رسول هم :

١ — المنصور عمر بن على بن رسول	٦٢٦ — ٦٤٧ هـ
٢ — المظفر يوسف بن عمر	٦٤٧ — ٦٩٤
٣ — الأشرف (الأول) عمر بن يوسف	٦٩٤ — ٦٩٦
٤ — المؤيد داود بن يوسف	٦٩٦ — ٧٢١
٥ — المجاهد على بن داود	٧٢١ — ٧٦٤
٦ — الأفضل العباسى بن المجاهد	٧٦٤ — ٧٧٨
٧ — الأشرف (الثانى) اسماعيل بن العباس	٧٧٨ — ٨٠٣
٨ — أحمد بن الأشرف الثانى	٨٠٣ — ٨٢٩
٩ — المنصور بن أحمد	٨٢٩ — ٨٣٠
١٠ — الأشرف (الثالث) بن منصور	٨٣٠ — ٨٤٢
١١ — يحيى بن الأشرف (الثالث)	٨٤٢ — ٨٥٠
١٢ — المسعود أبو القاسم بن الأشرف الثالث	٨٥٠ — ٨٥٨

الاتجاهات الحضارية لبنى رسول :

شغف كثير من سلاطين بنى رسول بالدراسة وتأليف الكتب التى تناولت مختلف المجالات ، ومن هؤلاء السلطان المظفر الذى درس الحديث والفقه والنحو وغيرها ، واشتغل منذ شبابه بدراسة الطب .

وكان الأشرف الأول بن السلطان المظفر متضلعا فى بعض علوم الطب ، وفلاحة الأرض ، ومن مؤلفاته (كتاب الجامع فى الطب [٢]) وكتاب (التفاحة فى معرفة الفلاحة) [٣] .

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ج٢ ص ٥٤١ .
(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٦٤ و ٥٤١ .
(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ج١ ص ٤٧٦ .

أما المؤيد بن المظفر فيروى أنه حفظ مقدمة ابن بابشاذ [١] فى النحو وكفاية المتحفظ فى اللغة ، واحتوت خزانة كتبه على مائة ألف مجلــد ، وله مؤلف عن الخيل وأنواعها وصفاتها وبيطرتها .

والأفضل بن المجاهد ألف كثيرا من الكتب منها كتاب : « نزهة العيون فى تاريخ طرائف القرون » وكتاب : « العطايا السنية فى المناقب اليمنية [٢] » وكتاب : « نزهة الأبصار فى اختصار كنز الأخبار » و « بغية ذى الهمم فى أنساب العرب والعجم » .

وكان بنو رسول يهتمون باختيار الوزراء من بين أرباب الأقلام ، وكان الوزير لقب « القاضى » أو « الشيخ » [٣] .

وكان قائد جيش بنى رسول يلقب « أمير القلم » ومن أشهر من تولوا هذه الوظيفة الأمير حسام الدين التوريزى وهو الذى عينه السلطان المظفر مقدما لجيشه ، وقد أنفق على هذا الجيش كثيرا من الذهب والفضة [٤] .

واهتم بنو رسول بتبادل السفارات مع كثير من سلاطين عصرهم ، وكانوا يختارن ذوى القربى والمخلصين لهم ليكونوا سفراء من قبلهم ، ومن أهم الشروط التى كانوا يهتمون بها فى السفير أن يكون مشهورا بالتقوى والاستقامة [٥] .

ومن الحياة الاجتماعية لبنى رسول أنهم كانوا يحرصون على حضور « الكثيب » وهو الاحتفال بليلة ٢٧ من رجب كل عام ، وكانوا يأمرون الحجّاب ألا يحولوا بينهم وبين الناس فى هذه الليلة .

---

(١) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن جـ٩ ص ٢٥٣ حاشية .
(٢) ابن الربيع : بغية المستفيد : ورقة ١٢ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص ٢٨ .
(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٢١٠ .
(٥) أبو مخرمة : قلادة النحر .

موارد حكومة بنى رسول :

يبدو أن مسئوليات الاستقلال الذى أعلنه عمر بن على دفعته لفرض ضريبة إضافية على المزارعين أسماها « المعونه » بالإضافة إلى الخراج الذى كان مفروضا من قبل ، وقد أحس ابنه المظفر بضجر المزارعين لمضاعفة الضرائب فأوقف تحصيل « المعونة » . وكان ذلك فضلا من أفضاله جعله موضع الدعاء والتقدير .

اما أهم مصدر من مصادر الدخل عند بنى رسول فكان ما يجبى من التجار ، وبخاصة من تجارة عدن التى كانت مركزا تجاريا واسع النشاط ، ويبدو أن بعض سلاطين بنى رسول اشتط فى تحصيل الضرائب من تجار عدن فاتجه هؤلاء إلى جدة ليجعلوا منها مركزا لنشاطهم التجارى بدل عدن ، وقد تسبب هذا فى حرمان بنى رسول من أرباح هائلة كانوا يجبونها من تجار هذه المدينة .

أعظم ملوك بنى رسول :

ولنعد إلى عمر بن على لنقرر أننا إذا استثنينا « المعونة التى عدت قسوة منه فإن مؤرخى اليمن يذكرونه بخير ، ويقررون أنه من أهل العزم وقد دانت له البلاد والعباد ، وأدرك فى نفسه المراد ، ومد نفوذه إلى مكة ، وقام بضبط الحرمين الشريفين ضبطا مرضيا وله بهما آثار جليلة ومحاسن عظيمة ، ومن محاسنه فى اليمن مدرستان فى تعز هما الوزيرية والعزابية وثلاث مدارس بزبيد ، ومدرسة بالجند ، وأخرى بعدن ، كما بنى بكل قرية من قرى تهامة مسجدا ، وأوقف عليه وقفا جيدا (١) .

وجاء المظفر يوسف بن عمر بعد أبيه ، فوجد دولة شاهقة البنيان فزادها رفعة ومجدا ، ويعد أكبر شخصية فى الدولة الرسولية ، وكان يقال لـه « التبع الأصغر » وفى أيامه اتسعت المملكة الرسولية حتى شملت

---

(١) ابو عبدون الجندى : السلوك فى طبقات العلماء والملوك .

حضرموت وأعمالها والسهول الداخلية وجبالها ، وصعد ومعظم الجزيره ، ومنها الحرمان ، ولما قتل هولاكو الخليفة العباسى الأخير المستعصم وأنهى الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ م نادى المظفر بنفسه خليفة للمسلمين (١) ولعل هذا هو الذى دفعه إلى التدخل لدى ملك الصين عندما حرم هذا الختان على المسلمين ببلاده فكتب له المظفر فى ذلك ، وأرفق بالكتاب هدية مناسبة فكان لذلك أثره ، وقد شيد المظفر كثيرا من المدارس والمساجد (٢) .

وممن يذكر اسمه فى مجال العمران المؤيد الرسولى الذى بنى القصر المعقيلى سنة ٧٠٨ هـ فى تعز ، وبلغ طول مجلس هذا القصر ٢٥ ذراعا وعرضه ٢٠ ذراعا ، وكان له سقفان بغير عمد ، مطليان بالذهب ، وكان هذا المجلس يطل على بستان جميل المنظر ، وكان لا يرى فى المجلس إلا الرخام والذهب ، وأمامه بركة طولها ١٠٠ ذراع وعرضها ٥٠ ذراعا وعلى حافتيها تماثيل من النحاس الأصفر للطيور والوحوش ، وهى تقذف الماء من أفواهها ، وقد استعان المؤيد بكثير من الصناع اليمنيين والغرباء فى بنائه (٣) .

ويذكر الخزرجى أن الدولة الرسولية تعد أعظم دولة وطنية يمنية عرفها التاريخ منذ سقوط الدولة الحميرية ، وقد قامت بإنهاض البلاد وتعميرها ونشر العلوم بها ، ونبغ من أفرادها علماء عباقرة حتى فى الطب والرياضيات والتاريخ وغيرها من العلوم وساهموا فى إنهاض اليمن على الرغم من معارضة الأئمة الرسميين الذين تمكنوا فى عصر الدولة الأيوبية من تنمية دعوتهم ، وتوسيع رقعتهم ونفوذهم (٤) .

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٢٧٩ .
(٢) أحمد محمد شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ٢٢٩ .
(٣) تاج العروس جـ٩ ص ٣١٦ والقلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٦٣ والخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٣٧٨ .
(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٨٤ ، ٢٧٦ .

الأئمة بعد قيام الأيوبيين :

يبدو أن تجمع اليمن كلهـا تحت سـلطان الأيوبيين وسـلطان من خلفوهم ، وبالتالى اختفاء السلاطين فى المناطق المختلفة ، أتاح الفرصة للأئمة الزيدية أن ينشروا دعوتهم فى غيبة السلطات المحلية المناوئة ، ولذلك كان على ملوك بنى رسول أن يصارعوا الأئمة صراعا طويلا ، وقد كان النصر حليف بنى رسول ، ويعتبر عصر المظفر أهم العصور فى هـذا المجال فقد حارب الإمام المهدى أحمد بن الحسين (٦٤٦ — ٦٥٦ هـ) ثم حارب خلفه يحيى بن محمد السراجى (٦٥٦ — ٦٦٠ هـ) وقد تمكن سنجر الشعبى عامل المظفر أن يسمل عينيه [١] ، فعاش بقية عمره مكفوفا ، وحارب الملك المظفر الإمام المهدى ابراهيم بن تاج الدين سنة (٦٧٠ — ٦٧٤) وتمكن من القبض عليه سنة ٦٧٤ هـ وسجنه فى تعز حتى مات ، ولعل لقب « المظفر » جاء ليوسف بن معمر بسبب هذه الانتصارات .

نهاية بنى رسول :

مما أضعف ملك بنى رسول أن تنافسا قاسيا هب بين الأمراء وبين الطامعين من بنى رسول ، وكان الثائرون على الأمير أحيانا أولاده أو إخوته ، وكانت هذه الثورات المتلاحقة من أبرز الدواعى للقضاء عـلى دولة بنى رسول .

وعندما رحل السلطان مسعود آخر سلاطين بنى رسول إلى مصر ، استبد عبيده بالسلطة وأساءوا التصرف ، فلجأ الناس إلى بنى طاهر أبرز عمال بنى رسول لينقذوهم من عنت هؤلاء العبيد ، وتقدم بنو طاهر فأزالوا سلطان العبيد واستبدوا بالسلطة لصالحهم هم ، فسقطت دولة وقامت دولة .

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع جـ٣ ص ٢٩٩ .

بنـــو طاهـــر

٨٥٨ — ٩٢٣ = ١٤٥٤ — ١٥١٧ م

ينتسب بنو طاهر إلى جدهم الشيخ طاهر بن تاج الدين بن معوضة ، وهم لهذا يسمون أحيانا بنى معوضة ، ويرى بعض النسابة أن بنى طاهر ينحدرون من الأسرة الأموية ، وباسم هذه الصلة طمع بعض سلاطينهم فى الخلافة ، وحمل بعضهم لقب أمير المؤمنين ، وهذا يوضح لنا طموح سلاطين اليمن ، وقد رأينا بعض ملوك الدولة الرسولية يدعى الخلافة بعد نهاية الخلافة العباسية ، ومن الدولة الرسولية من قنع بالارتباط بمصر كما رأينا من قبل ، فهم بين الطموح والقناعة .

وسلاطين بنى طاهر سرهم ما قاله بعض النسابة عن انحدارهم من الأمويين فادعوا الخلافة لذلك ، ولكن اليمن — كما قلنا من قبل — كان بمثابة قلعة هاشمية وبالتالى كان يتمنع على الفكر الأموى وما انحدر منه وقد وجد أعداء بنى طاهر فى هذا النسب طلبتهم ، فأثاروا الناس ضد بنى طاهر لذلك (١) .

وكانت الظروف السائدة فى أخريات عهد بنى رسول تمهد لقيام دولة بنى طاهر ، فقد كانت لهم ولاية عدن ، وكانوا يشغلون مناصب الوزارة والقيادة فى ملك الرسوليين ، ثم جاءت رحلة السلطان مسعود آخر سلاطين بنى رسول إلى مصر واستبداد عبيده بالسلطة فى غيبته ، وانحرافهم بما آل إليهم من نفوذ ، وما تبع ذلك من التجاء الجماهير لبنى طاهر لينقذوهم مما آل له الأمر من فساد وعبث ، كل ذلك دفع عامر بن طاهر أن يهب للأمر ، وقد استطاع أن يدخل زبيد بدون قتال ، وبدأت بذلك دولة بنى طاهر (٢)

---

(١) انظر اليمن الانسان والحضارة للقاضى الشماحى ص ١٢٨—١٢٩ .
(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى جـ٢ ص ٦٦٩ .

ولكن سيطرتها على اليمن لم تكن يسيرة لأن نفوذ الأئمة كان قويا فجعل عهد بنى طاهر عهدا حافلا بالصراع كما سنشير لذلك بعد قليل .

وقد اتخذ بنو طاهر « المقرانة » وهى من بلاد وداع عاصمة لهم . وسلاطين بنى طاهر هم :

الظافر (الأول) عامر بن طاهر	٨٥٧ — ٨٧٠ هـ
المجاهد على بن عامر	٨٧٠ — ٨٨٣
المنصور عبد الوهاب بن طاهر	٨٨٣ — ٨٩٤
الظافر (الثانى) عامر بن عبد الوهاب	٨٩٤ — ٩٢٣
عامر بن داود بن طاهر	٩٢٣ — ٩٤٥

احتفظ بعدن حتى سنة ٩٤٥ بعد أن استولى الجراكسة على باقى ما كان بيد طاهر قبل ذلك .

صراع بنى طاهر مع الأئمة :

كان الصراع بين بنى طاهر وبين الأئمة يمثل الصراع بين الشمال والجنوب ، ومن هنا كان هذا الصراع عنيفا ، فبنو طاهر كانوا يطمعون أن ينالوا ملك بنى رسول شمالا وجنوبا ، والأئمة كانوا يرون أن الأوان قد آن لتتم سيطرتهم على اليمن كله ، وليقضوا على مناوئيهم ، ومن هنا كان الصراع شاقا ومريرا ، وسنعطى فيما يلى لمحات منه :

— تمكن عامر بن طاهر من بسط نفوذه على جنوب اليمن ، فهب يصارعه الإمام الناصر بن محمد من ذمار ، ودارت المعارك بين مد وجزر ، حتى وقع الناصر أسيرا فى أيدى عمال عامر ، وظل فى السجن حتى مات سنة ٨٦٨ وتم استيلاء بنى طاهر على صنعاء عقب القبض على الإمام .

— قام الإمام الجديد محمد بن الناصر بقيادة الأمر بعد أبيه ، وصارع عامر ابن طاهر فى حروب مريرة حول صنعاء ، انتهت بانتصار الإمام ،

وقتل عامر فى المعركة ، ولم يستطيع على بن عامر ولا عبد الوهاب بن طاهر أن يحققا انتصارات ذات بال، وبذلك بقيت كفة الإمام راجحة • وجاء إلى السلطة الظافر الثانى عامر بن عبد الوهاب ، وهو أعظم سلاطين بنى طاهر بأسا ، وأوسعهم رقعة ، وفى مطلع عهده قامت قبيلة الزرانيق بتهامة بثورة ضده ، ولكنــه قابل هذه الثورة بحــزم وقوة ، فقضى عليها قضاء تاما ، ولمــا اطمأن لولاء الجنوب صعد إلى الشمال حيث حارب الإمام محمد بن على الوشلى (٨٨٠ — ٩١٠) فى صنعاء ، واستطاع أن يقبض عليه ويودعه السجن حتى مات ، ودخل السلطان الظافر صنعاء ، ودانت له اليمن فى الشمال والجنوب •

حضارة اليمن فى عهد بنى طاهر :

لبنى طاهر عدة مآثر باليمن ، فقــد انتشرت فى عهدهم المــدارس والمساجد فى عدن وتعز وزبيد ورداع وغيرها ، وهم الذين بنوا مدينة « المقرانة » فى رداع ، وشيدوا بها القصور العظيمة ، وأقاموا الحدائق البديعة ، كما شيدوا بعض المساجد من طابقين وجعلوا الطابق الأول للعبادة والطابق الثانى للتدريس والإقامة الطلبة والمدرسين •

وقد شهدت اليمن فى أيام بنى طاهر نهضة علمية تتمثل فى المحــدث الكبير والمؤرخ الربيع العامرى ومعاصريه فى الشمال وفى قمتهم الإمــام شرف الدين ، كما بلغت العلوم الرياضية والفلكية والبحرية والجغرافية فى أيامهم شأوا بذّت اليمن معاصريها من الدول البحرية مثل البرتغال وتركيا ، ويمثل هذا التفوق العالمان الجغرافيان البحريان أحمد بن ماجد العدنى ، وسليمان المهرى فهما اللذان تتلمذ عليهما البحارة والجغرافيون البرتغاليون والأتراك ، وبأحمد بن ماجد استعان البحار البرتغــالى « دى جاما » فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، واعترافا لابن ماجــد نصب له البرتغاليون تذكــارا ببلدة « مليـنــدى » بكينيا على الســاحل الافريقى ، ولابن ماجد مؤلفات فى الجغرافيا والملاحة ، وأحوال البحار

وطرقها ، ويبلغ الموجود من هذه المؤلفات — كما حكاه الأستاذ محمود كامل فى مؤلفه « اليمن : شماله وجنوبه » — أربعين مؤلفا ، ترجمت إلى عدة لغات ، كما أن له أرجوزة مطولة حوت معلومات ملاحية هامة ،ولسليمان المهرى : « العمد المهرية فى ضبط العلوم البحرية » ويقول الرحالة الانجليزى « رينشارد بيرتون » الذى اكتشف بحيرة تنجانيقا سنة ١٨٥٦ م إن ملاحى عدن كانوا إلى منتصف القرن التاسع عشر ينسبون اختراع البوصلة إلى ماجد ، ويقرءون الفاتحة إلى روحه قبل ركوبهم البحر (١) .

نهاية بنى طاهر :

جاءت نهاية السلطان الظافر على يد المماليك الجراكسة الذين اقتحموا اليمن كما سنرى ، وأوقعوا ببنى طاهر عدة هزائم ، واستطاعوا فى النهاية أن يقبضوا على السلطان ، وتم إعدامه سنة ١٥١٧ وانتهت بمقتله سلطة بنى طاهر ، ولم يبق إلا عامر بن داود بن طاهر الذى ظل فترة ما بعد ذلك محتفظا بعدن حتى قتله الأتراك سنة ٩٤٥ هـ — (١٥٣٨ م) .

اليمن يمنان :

ذكرنا من قبل أن الأئمة قوى سلطانهم فى عهد الأيوبيين ، أى فى عهد اختفاء السلطات المحلية المناوئة لهم ، فلما ظهر بنو رسول بعد الأيوبيين دار صراع طويل بين القوتين ، ولما سقط بنو رسول وقام بنو طاهر متخذين من الجنوب مركزا لهم عظم الأئمة فى الشمال ، واتضح بذلك انقسام اليمن إلى يمنين ، ثم برزت عوامل أخرى قوت هذا الانقسام ، أهمها :

١ — الاختلاف المذهبى الذى أبرزناه أكثر من مرة فإن الجنوب السنى رفض بإصرار الخضوع للشمال الشيعى .

---

(١) القاضى الوشاحى : اليمن الانسان والحضارة ص ١٢٩ .

٢ ــ اتخذ الزحف الخارجي (زحف الشراكسة والعثمانيين وسنتكلم عنهم فيما بعد) من عدن مركزا له ، فتكتلت القوى الوطنية متخذة من الشمال مركزا لها .

٣ ــ استيلاء الانجليز على عدن بعد العثمانيين ، وكان ذلك بمثابة إسفين قوى قام حاجزا بين الشمال والجنوب .

وهكذا ثبت الانقسام ، وثبت بالتالى أمر الأئمة فى الشمال لأنهم هم الذين قادوا القوى الوطنية ضد الزحف الخارجى ، أما الجنوب فقد ترك بعد انعزاله بدون قادة موحدة كما سنرى فيما بعد .

---

(١) القاضى الوشاحى : اليمن الانسان والحضارة ص ١٢٩ .

مماليك مصر (الشراكسة) فى اليمن
٩٢٣ — ٩٤٥ هـ = ١٥١٧ — ١٥٣٨ م

فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى استطاع البحارة البرتغاليون أن يجدوا طريقا إلى الهند والشرق الأقصى بالدوران حول أفريقية بدون المرور فى البحر المتوسط والبحر الأحمر كما كانوا يفعلون من قبل ، ويعرف الطريق الجديد بطريق رأس الرجاء الصالح ، وقد اشترك عدد من الرحالة البرتغاليون فى المحاولة التى أدت لهذا الكشف ، وكان النجاح النهائى على يد « فاسكو دى جاما » الذى بدأ رحلته سنة ١٤٩٦ م .

وقد سبب هذا الكشف لمصر وسوريا خسارة مالية فادحة ، فقد كانت التجارة عبر دولة المماليك رائجة رواجا كبيرا ، وكانت مصر والشام تلعبان دورا مهما فيها بواسطة البحر الأحمر والبحر المتوسط ، وكان كشف الخط الجديد ضربة قوية للاقتصاد المملوكى [١] .

وحاول البرتغاليون تأمين طريقهم الجديد فعمدوا لاحتلال بعض المناطق الاستراتيجية المهمة فيه ، فاحتلوا جزيرة كمران اليمنية وقتلوا عاملها ، كما هاجموا مدينة عدن تمهيدا لاحتلالها .

واتجه سلطان مصر « قنصوه الغورى » لمحاربة البرتغاليين وقطع الطريق الجديد عليهم حتى يعود النشاط للطريق القديم ، ووجد قنصوه الغورى أن مياه اليمن فى المحيط الهندى هى المكان المناسب للصراع ، وتذكر قنصوه الغورى العهود السابقة التى قام خلالها ارتباط وثيق بين مصر واليمن ، فرأى أن زحف مصر على اليمن سيحمى اليمن ، وسيهىء للقوات المصرية وسيلة النجاح ضد البرتغاليين ، وكانت فى اليمن ظروف

---

(١) انظر هذه الدراسة مفصلة فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة ص ٢١٣ وما بعدها .

هيأت الفرصة للزحف المصرى المملوكى ، وتلك هى المنافسة الشديدة بين سلاطين بنى طاهر فى أيامهم الأخيرة وبين أئمة الزيدية الذين كان نفوذهم قد تقلص فى دائرة ضيقة بالشمال خلال عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب وقد استنجد الإمام شرف الدين (١٥٠٧ — ١٥٥٨ م) بالمماليك فانتهزوها فرصة واستجابوا له ، ودخلوا اليمن وقضوا على سلطنة بنى طاهر ، وبخاصة أن بنى طاهر رفضـوا التعاون مع المماليك فى الحرب ضـد البرتغاليين ، بل قام عاملهم بعمل عدوانى هو حجز سفن مصرية بالحديدة كانت تحمل طعاما للجيش المصرى فى جزيرة كمران التى استولى عليها المصريون من البرتغاليين [١] .

وعلى هذا بدأ هجوم المماليك المصريين على اليمن ، ومما ساعد على سرعة انتصار الجيش المملوكى ، أنه كان يسـتعمل البنـادق ، والمدافع النارية ، وكانت هذه لم تعرف بعد باليمن وقد تم انتصار المماليك بعـد معارك عنيفة أبلى فيها قادة بنى طاهر بلاء حسنا ، ومن أشهر المواقع موقعة (الصافية) التى قادها أخو السلطان (عبد الملك بن عبد الوهاب) ولاذ السلطان بالفرار ولكنه وقع أسيرا ، وجاءت نهايته عقب ذلك ، وبدأ بذلك ملك الشراكسة .

بيد أن مماليك مصر آنذاك كانوا فى أيامهم الأخيرة ، لأن الزحف العثمانى بدأ فى نفس الوقت الذى بدأ فيه زحف المماليك لليمن ، وسقط قنصوه الغورى فى مرج دابق سنة ١٥١٦ م كما هزم المماليك كذلك فى موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ م ، ووقوع مصر تحت سلطان العثمانيين جعل المماليك الذين كانوا باليمن يتشبثون بالحياة هناك ، بل دفع بعض المماليك الذين نجوا من معارك العثمانيين إلى الانضمام لزملائهم الذين كوّنوا لهم سلطانا فى اليمن ، ثم وجد مماليك اليمن ألا طاقة لهم فى مواجهـة العثمانيين فاعترفوا بهم ، وخطبوا باسمهم .

---

(١) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ٣٦ .

وأشهر المماليك الجراكسة الذين حكموا اليمن هم :

الأمير حسين الكردى : استولى على تهامة وزبيد ، ولم يستطع أخذ عدن من عامر بن داود وبعد ذلك رحل إلى الحجاز ثم قبض عليه وقتل •

برسباى : استولى على تعز والمقرانة ، وصنعاء •

اسكندر المخضرم : سمى المخضرم لأنه قبل التبعية للعثمانيين ، وخطب لهم ، وكان يحكم ويسيطر على زبيد وتهامة ، قتله كمال بك التركى أحد رجال العثمانيين •

كمال التركى : استولى على زبيد عقب مقتل اسكندر المخضرم ، وقد قتله حسين الكردى وجماعته •

الناخوذه أحمد الجركسى : وفى عهده اشتد الصراع بينه وبين الأئمة الزيدية ، وقد استطاع الناخوذة أن ينتصر على المطهر بن شرف الدين فى معركة زبيد ، ويرده جريحا فاشلا ، وبقى الناخوذة حتى سنة ٩٤٥ (١٥٣٨) عندما انتهى سلطان الجراكسة باليمن ، ومن الواضح أن سلطان الجراكسة باليمن كان فى منطقة تهامة وزبيد حتى تعز •

ولم يمتد حكمهم إلى صنعاء إلا فترة قصيرة ، وكان سلطان الأئمة آنذاك يغمر منطقة الشمال •

وقد بدأ سلطان العثمانيين لليمن خلال عهد الجراكسة •

وفى سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨) قتل الناخوذة غدرا ، وكان قاتله سليمان باشا مملوك السلطان سليم العثمانى ، وقتل غدرا كذلك فى نفس العام الأمير عامر بن داود بن طاهر •

وبنهاية الناخوذة أحمد وعامر بن داود لم يبق فى اليمن إلا قوتان فى ميدان الصراع : أولاهما اليمنيون بقيادة الإمام شرف الدين وابنه المطهر والثانية الأتراك العثمانيون [1] وقد تحدثنا من قبل عن الأئمة ونأخذ الآن فى الحديث عن العثمانيين •

---

(١) القاضى الشماحى : اليمن الانسان والحضارة ص ١٣٥ •

العثمانيون فى اليمن

ابتداء من ٩٤٥ هـ إلى ١٣٣٨ هـ (١٥٣٨ — ١٩١٩ م)

بدون اتصال

تحدثنا عن العثمانيين فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة ، وتتبعناهم وهم يبدءون إمارة صغيرة فى الأناضول ، أصبحت سلطنة بعد نهاية السلاجقة ، ثم رأيناهم وهم يقفزون إلى أوربا فى عهد مراد الأول ورأينا توسعهم فى أوربا ، ذلك التوسع الذى حقق هدفا كبيرا من أهدافه بالاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فى عهد محمد الفاتح ..

واتجه الأتراك بعد ذلك إلى العالم العربى لسبب أو لآخر ففتحوا سوريا ومصر (١٥١٦ — ١٥١٧) ثم احتلوا الجزائر وتونس وتطلعوا لاحتلال اليمن لاستكمال سيطرتهم على البحر الأحمر ، ولتقوية بحريتهم فى المحيط الهندى ، ثم ليمدوا سلطانهم إلى اليمن الذى ارتبط بمصر عدة قرون ، والذى لجأ إليه بعض الأتراك الجراكسة بعد انتصار العثمانيين على جيش المماليك فى موقعتى مرج دابق والريدانية .

وقد بدأ الزحف العثمانى على اليمن سنة ٩٤٥ هـ ولم يكن احتلال الأتراك لليمن مستقرا ولا متصلا ، وقد مر بثلاث مراحل كالآتى :

المرحلة الأولى للغزو العثمانى :

عندما احتلت الامبراطورية العثمانية مصر سنة ١٥١٧ م أحست أن من حقها أن تمد سلطانها لليمن للأسباب التى ذكرناها آنفا ، ثم لأن الامبراطورية العثمانية وضعت يدها على شمال البحر الأحمر ، وبدأت تتطلع إلى جنوبه ليكون هذا البحر خاضعا لسلطان العثمانيين ، ولتستطيع أن تعترض البرتغاليين فى دورانهم حول إفريقية ، إذ أن ذلك سبب خسارة لمصر التى أصبحت جزءا من الإمبراطورية العثمانية ، وأصبحت

مسئولة عن مواصلة الكفاح ضد البرتغاليين ، ذلك الكفاح الذى بدأه المماليك المصريون قبل هزيمتهم أمام العثمانيين ؛ وأخيرا فإن العثمانيين كانوا يحاولون دائما استكمال مد سلطانهم على البلاد العربية .

ومن أجل هذه الأسباب أعد الأتراك العدة للزحف على اليمن وكان ذلك سنة ٩٤٥هـ = ١٥٣٨م وكانت القوى العثمانية بقيادة الأمير سليمان باشا الأرناءوطى . وقد أبحرت هذه القوى من السويس متجهة إلى اليمن ، وكانت الحملة العثمانية مزودة بالأسلحة النارية التى لم تكن آنذاك متوفرة لدى جيش اليمن .

وقد سبق أن ذكرنا عند الحديث عن غزو المماليك لليمن أن الإمام شرف الدين استنجد بهم ضد منافسيه من بنى طاهر ، وأن المماليك استجابوا إلى ذلك ، وساعدوا الأئمة فقضوا على ملك بنى طاهر ، ولم يبق لبنى طاهر ؛ ألا منطقة عدن التى ظلت تحت سلطان عامر بن داود بن طاهر . وقد حذا حذو الأئمة فاستنجد بالعثمانيين ليستعيد بهم ملك آبائه ، وقد تظاهر العثمانيون بالاستجابة له ، ليتمكنوا من النزول بعدن ، ثم قتلوه غدراً ؛ ومن عدن زحف الجيش العثمانى إلى زبيد ، وقضى على أمير المماليك الجراكسة ، ثم استولى على تعز ، ووصل إلى صنعاء حيث دارت معارك عنيفة بين العثمانيين وبين الأئمة الزيدية ، الذين حملوا عبء الصراع ضد الجيش الزاحف ، وقد استمر هذا الصراع حوالى مائة عام ، وتجمعت القوى اليمنية تحت قيادة الإمام ، وبرز من هؤلاء الأئمة الإمام شرف الدين ثم ابنه الإمام المطهر ، وقد أبلى المطهر بلاء حسنا فى صراعه ضد العثمانيين ووقعت بينه وبينهم وقائع هائلة يذكر المؤرخون أنها زادت عن الثمانين موقعة ، وكانت معركة « شعوب » على أبواب صنعاء سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٨ م) هى المعركة الحاسمة ، وقد انتصر المطهر انتصارا رائعا ، وحوصر الأتراك فى صنعاء عدة أيام بعد أن قتل قائدهم مراد باشا ، وبعد هذه الموقعة جلا الأتراك

عن أرض اليمن ، وتسلم المطهر بنفسه تعز وعدن ، ولم يبق فى أيدى الأتراك إلا مدينة زبيد ويعد ذلك نهاية للمرحلة الأولى فى الصراع التركى اليمنى ، كما تعد مدينة زبيد بابا أدى إلى بدء المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية للغزو العثمانى :

كانت مدينة زبيد المركز الذى بدأ حوله الصراع فى المرحلة الثانية ، فإن الإمام المطهر لم يقنع بما وصل إليه من نتائج ، ودفع بجيوشه لتكمل النصر وتحتل مدينة زبيد ، وتقضى على الوجود العثمانى باليمن ، ولكن الأتراك العثمانيين كانوا آنذاك فى فترة ازدهارهم وقوتهم ، ولذلك أعدوا العدة من جديد للزحف على اليمن زحفا واسعا سنة ٩٧٦ هـ (١٥٦٩ م) ودار صراع طويل بين القوتين ، انتصرت فيه القوة العثمانية واحتلت صنعاء بقيادة الوزير سنان ، واستمرت حركة الصراع بين مد وجزر حتى سنة ٩٨٠ هـ ، وفيها توفى الإمام المطهر وكانت وفاته شديدة الأثر على القوات اليمنية ، فاندفع الجيش العثمانى يحرز ألوانا من التقدم .

وفى سنة ١٠٠٦ هـ بدات القوة اليمنية تنفض عنها الغبار ، وتقاوم من جديد بقيادة الإمام (المنصور) القاسم بن محمد الذى دعا قبائل اليمن لمساعدته فى الصراع ضد الأتراك ، فاستجاب له معظم قبائل الشمال ، وخاض الإمام القاسم عدة معارك ضد الأتراك حقق فيها ألوانا من النصر ، وكان أولاده خير عون لـه ، ولذلك يعرف القاسم هو وأولاده « بالدولة القاسمية » وقد تم لليمنيين فى عهد الإمام (المنصور) القاسم بن محمد استعادة أكثر الجهات الشمالية .

وبعد الإمام القاسم قام بالأمر ابنه المؤيد محمد بن القاسم (١٠٠٩ — ١٠٥٤ م) ، وقد واصل حركة النصر ، ودارت بينه وبين العثمانيين مواقع قاسية أهمها معركة (الصافية) التى قدر لها أن تقضى على القوة

العثمانية ما بين قتيل وأسير ، وبعدها رحل الأتراك العثمانيون عن اليمن ، وسلموا اليمنيين كل المدن والجزر .

وانتهت بذلك المرحلة الثانية للغزو العثمانى .

المرحلة الثالثة للغزو العثمانى :

بدأت هذه المرحلة سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) وكان ذلك فى عهد السلطان عبد المجيد بن محمود ، وكان الزحف التركى هذه المرة جارفا شديدا ، سرعان ما احتل الحديدة ، وبسط نفوذه على جميع تهامة ، ولكن هذا الزحف الذى جاء بعد أكثر من قرنين من الاستقلال التام ، أيقظ القادة اليمنيين المعاصرين له ، والذين وجدوا أن من الضرورى أن يحافظوا على استقلال بلادهم ، كما فعل أجدادهم واندفع لقيادة اليمنيين شيخ من شيوخ صنعاء هو الشيخ على الدفعى ، وسرعان ما التفت حوله القبائل ، وأخذ يهاجم الأتراك فى كل جانب أقاموا فيه ، حتى أقض مضاجعهم ، وقد اتخذ الأتراك سبيلا ملتويا للهجوم عليه ، فقد أعلنوا أنه قاطع طريق ، وأنه ليس أهلا للزعامة ، وسقط الدفعى صريعا ، وكانت وفاته شرارة أيقظت ثورة عارمة ضد الأتراك العثمانيين باليمن ، وتقدم الأئمة الزيدية لحمل عبء الصراع واشترك فيه المتوكل المحسن بن أحمد من سنة ١٢٧١ هـ إلى أن توفى سنة ١٢٩٥ هـ وخلفه الإمام الهادى شرف الدين من ١٢٩٦ هـ إلى ١٣٠٧ هـ ثم الإمام المنصور محمد بن يحيى بن محمد حميد الدين من سنة ١٣٠٨ هـ إلى ١٣٢٢ هـ ثم ابنه الإمام المتوكل يحيى (١٣٢٢ — ١٣٦٧ هـ) ويقول المؤرخون اليمنيون [١] إن الإمام المحسن كان أصلب الأربعة مغامرة ، لا مقر له ولا قصر ولا حصن ولا عاصمة إلا سرج حصانة يغادى الأتراك ويراوحهم حتى أقض مضاجعهم ، ومهد لخلفه الإمام الهادى أن يقتطع لواء صعدة ، ويقيم شبها حكومة ، وظل ينازع الأتراك بشجاعة فائقة .

---

(١) القاضى عبد الله الشماحى : اليمن الانسان والحضارة ص ١٦٣ .

وعندما استهل القرن الرابع عشر الهجرى كانت الحرب بين اليمنيين والأتراك على أشدها ، وكان منها جانب يمكن أن يوصف بأنه حرب عصابات وجانب آخر كانت تخوضه الجيوش النظامية ، وقد اتسعت رقعة الأرض التى يسيطر عليها الإمام الهادى ، وعندما مات سنة ١٣٠٧ هـ كانت سيادته تشمل منطقة واسعة ، وأموالا وفيرة ، ومعدات قوية ، ولم يقو ابنه محمد الهادى على حمل تبعات الإمامة فاختير لها محمد بن يحيى حميد الدين الذى ابتدأ به حكم آل حميد الدين ، وقد استمر فى الصراع ضد الأتراك ، ثم جاء بعده ابنه الإمام يحيى فأكمل الشوط ، وكانت معركة « شهارة » من أعظم المعارك التى دارت بين اليمنيين والأتراك وفيها سقط عدد ضخم من الجيش التركى ، وفر القائد مع من نجوا من الموت وترك الجيش المهزوم معدات عظيمة استولى عليها جيش الإمام ، ولم يجد الأتراك بداً من محاولة التوصل إلى تسوية فعقدوا اتفاقية مع الإمام فى قرية دعان تسمى « اتفاقية دعان » سنة ١٩١١ م وبمقتضاها أصبح للإمام الاشراف على شئون الأوقاف والقضاء ، وتعيين الحكام والمرشدين ، وتشكيل هيئة شرعية فى البلاد ، وأن تكون جباية الضرائب على الطريقة الشرعية ، واتفق الطرفان على أن تبقى قوات رمزية تركية باليمن كرمز للوحدة الإسلامية [١] وقد بقيت هذه القوات باليمن حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وهزيمة الأتراك ، وحينئذ صدرت الأوامر من الآستانة بأن تغادر القوات التركية بلاد اليمن ، وأن تعود إلى تركيا بطريق عدن ، وانتهت فى سنة ١٩١٩ م المرحلة الثالثة من مراحل الغزو العثمانى لليمن .

لقد دمر الأتراك العثمانيون كثيرا من المدن والقرى والمزارع باليمن خلال الحروب الطويلة بها ، وأراقوا دماء الكثيرين وسلبوا كثيرا مما كان باليمن من تحف وآثار ، ولكن اليمن ظلت تناضل حتى تم لها النصر المبين .

---

(١) انظر نص الاتفاقية فى : أمين سعيد : اليمن ص ٢٨ — ٢٩ .

آل حميد الدين

١٣٠٧ — ١٣٨٢ هـ = ١٨٩٠ — ١٩٦٢

ينحدر آل حميد الدين من بيت القاسم ، ذلك البيت الذى أنجب عدة أئمة فى سلسلة الزيدية ، فاختيار محمد بن حميد الدين للإمامة عودة بالسلطة إلى البيت القاسمى ، وعندما مات الإمام الهادى سنة ١٣٠٧ هـ لم يطمع ابنه محمد فى الإمامة إذ لم يبلغ درجة الاجتهاد ، وقد اجتمع أعيان الزيدية ، واستعرضوا أسماء كبار الشيوخ الذين يستطيعون تحمل المسئولية ، واستقر رأيهم على استدعاء محمد بن يحيى حميد الدين من صنعاء إلى صعدة ليروا إن كان أهلا للإمامة أولا ، فحضر هذا والتقى بالقادة الزيدية ، وأقنعهم بصلاحيته من مختلف الوجوه ، فقبلوه وبايعوه اماما لهم ، وقد كان واسع الاطلاع بأحوال زمانه ، وسياسة عصره قوى البنيان فى رسائله . شديد التمسك بالمبادىء الزيدية ، نشيط الحركـة ، وقد ظل يصارع الأتراك بمهارة حتى توفى سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) فآل الأمر إلى ابنه لإمام يحيى ، وسنتكلم عنه فيما يلى :

عهد الإمام يحيى :

حكم الإمام يحيى طيلة النصف الأول من القرن العشرين تقريبـا (١٩٠٤ — ١٩٤٨ م) وقد حقق كثيرا من النصر ضد العثمانيين كمـا رأينا ، ولكن قابلته أحداث صعاب لم تظهر فى عهد من سبقوه ، فقـد ظهرت أطماع الانجليز فى اليمن ، وظهر الأدارسة فى المخلاف السليمانى وظهرت القوة السعودية ، وكل هذا جعل عصره شائكا ، ويكفى أن نتذكر أنه خلال حكمه قامت الحربان العالميتان ، ولـم تكن اليمن بمنأى عن الصراع ، ومع هذا استطاع أن يدير دفة الأمر بكثير من الحياد ، ولكنه لم يستطع أن يتطور باليمن تطورا يناسب تطور الزمن ، ويناسب مـا شهده العالم من تغير عقب الحرب العالمية الثانية بوجه خاص ، ولهذا تآمر عليه جماعة من أتباعه ، وقتلوه سنة ١٩٤٨ م كما سنرى فيما بعد .

ولنعد إلى عصر الإمام يحيى لنصور أهم ما برز به من أحداث :

علاقاته مع تركيا :

قلنا فيما سبق ان انتصار الإمام يحيى فى معركة « شهارة » قضى على آمال الأتراك فى النصر ، ودفعهم إلى طلب الصلح الذى تم فى دعان سنة ١٩١١ م بعقد معاهدة اعترفت فيها تركيا باستقلال اليمن ، وأعادت إلى الإمام صورا مختلفة من النفوذ ، ولم يبق فى اليمن من الجنود الأتراك إلا عدد قليل فى صنعاء اعتبر بمثابة ارتباط إسلامى بين اليمن وبين دولة الخلافة .

وبعد سنوات قليلة تأزم الموقف الدولى ، واقتربت الحرب العالمية الأولى وانضمت تركيا لألمانيا فى هذه الحرب وأخذ الشريف حسين جانب بريطانيا متنكرا لتركيا ، كما اتجهت أكثر الدول العربية هـذا الاتجاه ، بحكم عدم رضاها عن سياسة الأتراك بها ، ولكن الإمـام يحيى وقف موقفا محايدا ، بل لم يعارض فى أن يتطوع من بلاده مَنْ يشاء لينضم للدولة العثمانية المسلمة فى صراعها ضد غير المسلمين ، وبعد هزيمة ألمانيا وتركيا فى هذه الحروب ، صدر أمر من تركيا بانسحاب حاميتها من صنعاء باليمن ، فانسحبت فى أمن دون أن يمسها سوء ، وكان ذلك نهاية للعلاقات بين اليمن والأتراك العثمانيين .

علاقاته مع الانجليز :

لم تكن علاقة الإمام يحيى طيبة مـع الانجليز بسبب عواطفه التى كانت تؤيد العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى ، ثم إن الإمام يحيى كان يطمع فى أن تمتد سلطانه فتشمل حدود اليمن القديمة أى أن تشمل اليمن الجنوبية ، وكانت هذه مرتعا خصبا للانجليز ، وأن تشمل منطقة عسير بين اليمن ومكة ، ولكن هذه البقعة كانت أمارة للإدريسى الذى يؤيد الانجليز ، وقد ساعدوه حتى احتل ميناءى اللحية ، والحديدة ، ولم يكن

الإمام يستطيع أن يناضل الانجليز ، ولذلك عقد معهم معاهدة صداقة وتعاون سنة ١٩٣٤ م نصت على الاحتفاظ بالوضع الراهن فيما يتعلق بالحدود ، ريثما تسوى مشكلة الحدود فى معاهدة أخرى ، وكانت مدة هذه المعاهدة أربعين سنة ومعنى ذلك تسليم الإمام بأطماع الانجليز .

علاقاته مع السعودية :

كان الصراع بين السعودية وبين الإمام مرتبطا بمشكلة عسير التى شرحناها من قبل ، فإن الإدريسى وافق على أن توضع إمارته تحت حماية السعودية ثم نكث العهد ، فاقتحمت السعودية هذه الإمارة ، ولجأ الإدريسى لليمن ، وتأزم الموقف ، وكانت السعودية تقرر أن منطقة عسير لم تكن فى يوم من الأيام تابعة لليمن .

وإذا تركنا منطقة عسير مؤقتا فإننا نقابل منطقة أخرى كانت مثار خلاف بين السعودية واليمن ، تلك هى منطقة نجران ، ويقول العارفون ان أيا من الحكومتين لم تكن تسيطر على هذه المنطقة الداخلية ، بل كانت تسكنها قبائل من الإسماعيلية ، وكان شيخها يعتبر زعيما دينيا وسياسيا فى نفس الوقت ، وقد دخلت القوات اليمنية منطقة نجران بحجة مقاومة المذهب الإسماعيلى وإقامة الشريعة الحقة ، ثم أصبح من المتعارف عليه أن تقبل اليمن وجود السعودية فى عسير ، وأن تقبل السعودية وجود اليمن فى نجران (١) .

وحدث بعد أن عقد الإمام يحيى معاهدة صداقة مع انجلترا أن اعتقد أنه تفرغ للسعودية ، فبدأت قواته تتسلل إلى عسير ، وهبت بسبب ذلك معارك طاحنة بين الطرفين ، وكانت القوات السعودية بقيادة الأمير سعود (الملك سعود فيما بعد) وكانت تستعمل أسلحة أحدث من أسلحة اليمنيين ، كما كانت درجة التدريب لديها أوفر وأعظم واستطاعت القوات السعودية

---

(١) دكتور صلاح العقاد : جزيرة العرب فى العصر الحديث ص ٦٧ .

أن تحقق النصر فى نجران وعسير بل احتلت الحديدة ، ولكن هذه القوات لم تطمع فى مواصلة الزحف باليمن ، فقد كان واضحا أن مقاومة اليمنيين بالجبال ، ستكون عنيفة وستستنزف جهود السعوديين ، ولهذا ، وللرغبة المتبادلة فى السلم ، ولوساطة مجموعة من أعلام العرب والمسلمين مكونة من الحاج أمين الحسينى وهاشم الأتاسى ومحمد على علوبة وشكيب أرسلان ، لكل هذا عقدت بين الدولتين معاهدة الطائف [1] فى سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤ م) وبمقتضاها اعترف اليمن بتبعية عسير ونجران للسعودية وأخلت السعودية الحديدة . ووضعت حدود دقيقة بين البلدين . كما تركت منطقة منزوعة السلاح خلف الحدود من الجانبين .

سمات عهد الإمام يحيى :

من أبرز سمات عهد الإمام يحيى العزلة عن العالم ، وسبب العزلة معروف ، فإن الإمام ينتمى إلى سكان الجبال وطبيعة هؤلاء أن يميلوا للعزلة ، وهو كذلك ينتمى إلى الشيعة الزيدية ، وهم أقلية فى العالم الإسلامى ، ثم ان اليمن عانت الكثير من صراعها ضد الأتراك العثمانيين ومن أجل هذا آثر اليمنيون أن يعيشوا بمعزل عن الناس ، فقد أحسوا أن الناس أعداؤهم ، وبخاصة عندما ظهرت قوى جديدة تناصبهم العداء بعد أن تخلصوا من الصراع ضد العثمانيين ، وهذه القوى هى البريطانيون والإدريسيون والسعوديون ، وبسبب سياسة العزلة بقيت اليمن بمنأى عن ركب الحضارة ، وعاشت التاريخ الحديث فى تشكك واضطراب فكرى لا تسمح بأعمال التنقيب أو دخول المخترعات الحديثة ، فقد كان ذلك يعد عند الإمام انحرافا آثر البعد عنه ، وقد كان من مظاهر العزلة والتشكيك أن اتجهت اليمن لعدم المشاركة فى الاعداد لجامعة الدول العربية ، وقنعت بأن يكون مندوبها « مستمعا » وظل الناس يتندرون بالمندوب المستمع مدة طويلة ، ولم تصبح اليمن عضوا كاملا إلا عندما

(١) انظر نصوص هذه المعاهدة وملحقاتها فى أمين سعيد : اليمن ص ١٠٠ — ١١٣ .

اتضح أن جامعة الدول العربية كائن قليل النفوذ وضعيف التأثير ان كان له نفوذ أو تأثير .

وكان الإمام يحيى قليل الثقة بمعاونيه وكبار رجال دولته ، ولذلك كان يسيطر عليهم بطريق أخذ أولادهم رهائن بالقرب منه ، وكان يعلل ذلك فى الظاهر بأنه يجمعهم للتدريب ولتهيئتهم لحمل المسئوليات الكبرى بالدولة : ولكنهم فى الحق كانوا وسيلته ليسيطر على ذويهم .

ومن الأساليب الشاذة التى مارسها الإمام يحيى ما يسمى « التخطيط » ومفهوم « التخطيط » هو دفع إحدى القبائل للسطو المفاجىء على قبيلة أخرى تشكك الإمام فى ولائها ، أو ترددت فى تقديم التزاماتها المادية للإمام ، وكثيرا ما ترتب على ذلك القضاء على القبيلة المعتدى عليها ، ومن الواضح أن هذه التصرفات حبست اليمن فى العصور الوسطى ، ولم تسمح له بأى نوع من الانطلاق نحو التقدم والرقى .

ولم يشهد عصر الإمام يحيى إلا ومضات خفيفة من التقدم كانت أقل بكثير مما يتطلبه العصر ، ومن هذه الومضات من الجانب السياسى أن اليمن أصبحت تدعى « المملكة المتوكلية » ويعتبر ذلك تطورا فى الفكر السياسى ومؤشرا إلى عهد جديد من السلطة قوامه الملك ، فلم يعد الإمام يختار كما اختير والد الإمام يحيى بسبب علمه وفضله ، وإنما وضع الإمام نظام الملك وما يتبعه من توارث ، وتنفيذا لهذه الفكرة حدد الإمام ولى عهده وأعلن ذلك سنة ١٩٤٧ باختيار ابنه أحمد لهذا المنصب ولعل انتقال الإمام يحيى إلى صنعاء واتخاذها عاصمة له عقب اتفاقية « دعان » كان تأييدا لهذا الاتجاه ، فذلك يوضح أن الإمام لم يعد يقنع بعاصمة أجداده ، وإنما أصبح يطمع فى عاصمة عامة ، ومن المؤكد أن صنعاء أنسب مدينة لهذا الغرض ، فطالما كانت عاصمة اليمن كلها فى عهود متعددة .

وهناك ومضات فى الجانب الاقتصادى ، كاستدعاء بعض الخبراء فى الشئون الصناعية والزراعية من مصر وسوريا وغيرهما ـ

وهناك ومضات فى الجانب الثقافى تتركز فى فتح مدرسة « دار العلوم » بصنعاء ، وإرسال بعثات قليلة إلى العراق وإيطاليا للتزود من الثقافة الطبية أو العسكرية .

ولكن هذه الومضات كانت أقل جدا مما تتطلبه الأحوال ، وكان ذلك مما أدى إلى نهاية الإمام يحيى كما سنرى فيما يلى :

نهاية الإمام يحيى :

كان الإمام يحيى حاكما عنيفا مخيفا ، وكان ولى عهده مشهورا بالقسوة والعنف ، وطال عهد الإمام يحيى ، وثقل ظله ، وتقدمت به السن ، ولكن الناس كانوا لا يتوقعون تغييرا على فرض وفاة الإمام يحيى ، لأن السلطة ستئول إلى ولى العهد الذى لم يكن يبشر بالخير ومن هنا كانت المؤامرة للقضاء على الإمام يحيى تتجه كذلك للقضاء على ولى العهد ، بالفتك بالاثنين أو بالفتك بالأول وإبعاد الثانى عن السلطة .

وقد قاد المؤامرة عبد الله بن أحمد الوزير عضو ديوان الإمام ، وزوج ابنته ، وأحد كبار دولته ، وقائد جيوشه بعدة جبهات عسكرية ، وكان يعاونه فيها عدد من أحرار اليمن الساخطين على الحكم والذين كوّنوا لهم جمعية أسموها « الجمعية اليمنية » واتخذت « عدن » مقرا لها وكان يتزعمها أحد أبناء الإمام الساخطين عليه وهو سيف الإسلام إبراهيم ، واشترك فى هذه المؤامرة كذلك حسين بن محمد الكسبى ممثل الإمام فى الشئون الخارجية ، وزيد بن على الوشكى حاكم تعز ، وانضم لهم الضابط العراقى جميل جمال ، والفضيل الورتلانى عضو جمعية الإخوان المسلمين وهو تاجر مغربى قدم لليمن من القاهرة بحجة محاولة القيام بمشروعات اقتصادية باليمن .

وفى يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٤٧ نجحت المؤامرة ، إذ اختبأت المجموعة التى عهد لها بالتنفيذ فى طريق الإمام وهو عائد من بلدة حريز إلى صنعاء ، ووضعوا بالطريق ما يعوق سير السيارة التى يركبها الإمام ، وعندما ظهرت

خرج هؤلاء من مكمنهم وأطلقوا الرصاص على السيارة ومن بها ، وقد قتل الإمام ورئيس وزرائه القاضي عبد الله بن حسين العمرى وسائق السيارة والخادم الخاص للإمام .

وكان المتآمرون قد وضعوا خطة هجوم على ولى العهد عقب الانتهاء من الإمام ، وكانت الجماعة التى أسند لها القيام بذلك تعيش فى تعز حيث يقيم ولى العهد ، ولكن ولى العهد استطاع أن يفلت من تعز فى الوقت المناسب ، ووصل ولى العهد إلى بلدة « حجة » وهى معقل حصين له .

ويبدو أن عبد الله الوزير قنع بموت الإمام ، فبدأ يحاول جذب الناس له قبل أن يتأكد من القضاء على ولى العهد ، وهذا التصرف كان سيىء العواقب ، فقد أعد ولى العهد عدته — ونازل قوات الوزير ، ودارت بين القوتين عدة معارك ، سرعان ما انتهت بفوز ولى العهد الذى أعلن نفسه إماما لليمن ، واتخذ لقب « الناصر لدين الله » كما اتخذ تعز عاصمة له ، وقبض على المتآمرين والمتهمين بمساعدتهم ، فأعدم بعضهم ودفع للسجون عددا كبيرا منهم ، وتمكن الفضيل الورتلانى وقلة معه من الفرار من اليمن ، وبدأ عهد الإمام أحمد فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٨ .

عهد الإمام أحمد :

فى كلمة موجزة يمكننا أن نقول ان الإمام أحمد كان امتدادا لعهد أبيه فى الحقيقة والواقع ، ولكن الإمام أحمد حاول أن يضع طلاء يظهر حكمه بصورة مخالفة لواقعه ، فعمد إلى التظاهر بتأييد حركات الوحدة بالعالم العربى ، بل كان عضوا فى الحلف الثلاثى الذى عقد سنة ١٩٥٦ بين مصر والسعودية واليمن ، وأقام اتحادا مع الجمهورية العربية المتحدة عقب قيام هذه ضامة مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ وعقد اتفاقية تعاون مع الاتحاد السوفيتى ... ولكن هذه الاتجاهات كانت مظاهرة قليلة المدلول ؛ وفى الناحية الداخلية حصلت تغييرات طفيفة ، كانشاء مؤسسة للنقود ، وإعادة تنظيم الجهاز الحكومى ، والقيام ببعض الاصلاحات الخاصة

بانشاء الطرق ، ولكن أمور الدولة كلها بقيت فى يد الإمام كما كانت فى عهد أبيه .

وفى ديسمبر سنة ١٩٦١ أصدرت الجمهورية العربية المتحدة قرارا أعلنت فيه حل الاتحاد ، وكان ذلك عقب الانفصال الذى حدث بين مصر وسوريا .

وقد قامت ضد الإمام أحمد ثورات أو محاولات للقضاء عليه ، أهمها ثورة مارس سنة ١٩٥٥ ، وقد أرغم الإمام فى هذه الثورة على التنازل عن الإمامة لأخيه الأمير عبد الله الذى كان مؤيداً من قادة الجيش ومن كثير من القبائل ويبدو أن أعداء الإمام قنعوا بهذا التنازل ، وراحوا يدبرون أمر المملكة ، ولكن الإمام أحمد كان يعد عدته للثورة عليهم : فكاتب سرا أعوانه وابنه البدر الذى كان بالحديدة ، واستطاع الإمام أحمد أن يدفع ثورة مضادة قضت على أعدائه وقبض على قادتهم حيث نفذ فيهم حكم الإعدام والسجن .

وفى مارس سنة ١٩٦٠ اعتدى عليه بعض ضباط الجيش ، وأطلقوا عليه نيران مدافعهم الرشاشة وهو يزور مستشفى الحديدة ، وقد سقط الإمام من هول ما أصابه ، واعتقد المعتدون أن الإمام قد مات فاختفوا حتى تتضح الأمور التالية لذلك الحدث . ولكن الإمام لم يكن قد مات . وسرعان ما وضع تحت العلاج مما أصابه من جراح ، وألقى القبض على من حامت حوله الشبهات حيث أعدموا .

وقد ظل الإمام متأثرا بآلامه وجراحه ، حتى مات فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٦٢ ، وكان الأمير البدر فى صنعاء فأعلن إمامته .

الإمام البدر :

ليس للإمام البدر عهد نتحدث عنه ، فكل مدته لا تتجاوز أسبوعا ، فقد هبت ثورة ٢٦ سبتمبر ضده ، وأطاحت به ، وكانت بقيادة عبد الله السلال ، وأعلنت الثورة الغاء الإمامة وقيام الجمهورية باليمن .

الجمهورية العربية اليمنية

كانت الثورة التى هبت فى سبتمبر تقوم على عناصر من الجيش ، ومعهم جماعة من المدنيين ، ففى مساء الخامس والعشرين من هذا الشهر ، تحركت قوات عسكريه واتجهت إلى قصر البدر فى صنعاء ، وبدأت تسكب عليه وابلا من رصاصها ، ولكن الإمام البدر استطاع أن يتسلل من باب خلفى وأن يجد طريقة إلى جيزان ، وكان هذا الهروب نذير صراع طويل ، فقد لجأ الإمام البدر إلى القبائل التى تدين بالولاء له ولآله يطلب عونهم وتجمعت بعض القبائل حول البدر ، وخيف أن تفشل الثوره كما فشلت ثورة سنة ١٩٤٨ وثورة سنة ١٩٥٥ ، فلجأت الثورة إلى عبد الناصر بمصر تطلب مساعدته لتأمين الثورة •

عبد الناصر واليمن :

سارع عبد الناصر فى الـزج بجيش مصر فى اليمن دون تفكير فى العواقب ، وبدون استشارة الشعب المصرى أو رضاه ، وسرعان ما قدم للثورة العتاد والرجال ، ولكن حركة البدر طلبت العون من السعودية بسبب تدخل مصر فى المنطقة ، وكانت العلاقة انذاك بين مصر والسعودية فى شبه أزمة ، فقدمت السعودية العون للإمام البدر ، واندفع جمال عبد الناصر يرسل لليمن فرقا مقاتلة من الجيش المصرى ، والذى يتتبع أحداث التاريخ يحس أن عبد الناصر كان متلهفا لدفع الجيش إلى اليمن ، وننقل فقرة من خطابه الذى ألقاه فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٦٢ ونصها : « يوم ٥ أكتوبر كان لنا مائة صف ضابط وعسكرى فى اليمن ، ويوم ٩ أكتوبر أصبحوا ٣٠٠ ويوم ١٠ بعثنا أول قوة من سلاح الطيران ويوم ١٦ أصبح لنا باليمن ألفان ... » وهكذا نلحظ سرعة الاستجابة لطلب ثورة اليمن ، كما نلحظ سرعة تطوير العدد والعتاد •

وكانت مأساة مريرة ، فقد شهدت أرض اليمن مذابح رهيبة ، ودماء بريئة أريقت على تراب اليمن ، دماء مصرية أراقها اليمنيون ، ودماء

يمنية أراقها المصريون ، وقــد تحدثنا بإفاضة عــن صراع اليمن ودور عبد الناصر فيه فى دراستنا عن عهد عبد الناصر ، عهد المظالم والهزائم بالجزء التاسع من هذه الموسوعة •

وقد طال الصراع باليمن واستغرق عدة سنوات واستلزم خســارة هائلة قدمتها مصر من اقتصادها ومن سمعتها ، وكانت حرب اليمن من أسباب هزائم مصر سنة ١٩٦٧ ، إذ كانت مصر تحارب فى جبهتين ، وكانت قد سحبت بعض جيوشها من مواجهة إسرائيل لتصدرهم لليمن •

ولم يتوقف تدخل عبد الناصر فى شئون اليمن إلا بهزيمة سنة ١٩٦٧ الساحقة وبحاجته الماسة للعون المادى من السعودية ودول البترول ، فطُلب إليه فى مؤتمر الخرطوم أن يخرج بجيشه من اليمن فانصـــاع ، وسحبت جيوش مصر من اليمن بعد خسارة جسيمة فى الأرواح والأموال •

ومن الواضح أن تدخل عبد الناصر دفع السعوديين للتدخل فى الجانب الآخر ، وبخاصة لأن هتافات عبد الناصر بالاشتراكية وتصريحاته ضـــد النظم الملكية كانت تجعل دفاع السعودية عن اليمن دفاعا عن النفس حتى لا تمتد لها صيحات عبد الناصر وأهدافه ، والذى يتتبع أحداث الوجود المصرى باليمن يدرك اضطراب عبد الناصر وعدم وضعه خطة دقيقة فى هذا الموضوع ، فقد استجاب عبد الناصر لتأييد الثورة ثم اندفع فى هذا المضمار ، وعادى السعودية ، ولكنه عاد عن هذه السياسة فزار جدة فى أغسطس سنة ١٩٦٥ ، وعقد اتفاقية جدة التى تقرر موافقة مصر على سحب قواتها من اليمن فى موعد محدد على أن يوقف السعوديون تأييدهم لأتباع البدر ، ويتقرر مصير اليمن فى استفتاء حر ، ولكن هذه الاتفاقية لم تنفذ لسخط الجمهوريين باليمن عليها من جانب ، ولتردد عبد الناصر فى سياسته من جانب آخر ، ولم يضع حــدا لهذا التردد إلا هزيمـــة ١٩٦٧ الساحقة وحاجة عبد الناصر للمال السعودى كما قلنا آنفا •

وإذا اتجهنا لقيادة الثورة ، وجدنا أن عبد الله السلال لم ينجح في قيادتها ، ويبدو أن معلوماته السياسية كانت ضحلة ، ومن هنا بدأ حكمه بإعدام عشرين شخصا خلال الأسبوعين الأولين ، وأعلن عن رصد مكافآت مالية سخية لكل من يأتي برأس أحد أعضاء الأسرة المالكة ، ثم اتجه إلى زملائه فأخذ يحقد عليهم ، ويرى في منافستهم له خطرا عليه وبخاصة اللواء حسن العمرى واللواء محمود الجائفى ، ومن أجل هذا اتضح أنه من الضرورى أن يُبْعَد عن اليمن رجاء الوصول إلى استقرار النظام بها ، وفي منفاه بالقاهرة لم تتحسن الأحوال مما جعله يطلب أن يعود إلى سلطانه ويؤكد أن ذلك هو السبيل لاستقرار الأحوال في اليمن ، واستجابت القاهرة وأعادته ، ولكنه سرعان ما اتجه إلى الدم والتنكيل بخصومه ، مما جعل من الصعب أن يستمر في مركزه ، فأبعد نهائيا عن رياسة الجمهورية في فبراير سنة ١٩٦٧ ، وتكون مجلس رياسى بقيادة القاضى عبد الرحمن الإريانى .

على أن تكوين مجلس رياسى بقيادة القاضى الإريانى كان تنفيذا للمحاولات التى اشترك فيها حسن العمرى وأحمد النعمان ، والتى وضعها أحمد النعمان موضع التنفيذ عندما أصدر في مايو سنة ١٩٦٥ قرارا بنظام مؤقت يقضى بأن يعين رئيس الجمهورية ومجلس الرياسة بواسطة المجلس الاستشارى الذى كونه من رؤساء القبائل ، واتجهت اليمن إلى تنفيذ هذه الاصلاحات في نظام الحكم عقب خروج الجيش المصرى منها .

وينبغى أن نذكر أن الوجود الناصرى باليمن كان قليل الجدوى ، بسبب قلة الخرائط ، وبسبب عدم دراسة الطبيعة اليمنية ، وحرب العصابات والكهوف ، ولأن جيش مصر في عهد عبد الناصر كان ضحية للتمزق والقلق بسبب الصراع الذى كان يختفى ويظهر بين عبد الناصر والمشير ، ذلك الصراع الذى سيطر عليه الحقد والتنافس والأنانية من الزعيمين اللذين أثبتت الظروف أنهما كانا بعيدين كل البعد عن المواهب والكفاءات ، ومع الوجود الناصرى باليمن زحف جيش الإمام البدر وجيش عمـه الأمير

الحسن من الشمال ، فحققا نجاحا كبيرا ، واستطاعا أن يسيطرا على أكثر من نصف اليمن ، ولولا موقف أمريكا التى اعترفت بالجمهورية ، ولولا عدم استمرار الدعم السعودى ، لكان من الممكن أن تهوى الجمهورية الناشئة ، وهكذا لم يكن الوجود الناصرى كبير الفائدة ، وعندما انسحب الوجود الناصرى من اليمن كان يظن أن الجمهورية ستسقط وينتصر الملكيون ، ولكن نظام الإمامة كان قد فقد فاعليته نهائيا وبدأت عيون اليمنيين تتفتح ، فلم يكن من الممكن أن تعود الأمور القهقرى .

على أن الوجود المصرى باليمن كان كبير الفائدة من الناحية الحضارية ، فقد شقت طرق وأقيمت مدارس ، وبدىء فى بعض الاصلاحات الاقتصادية ، ودبت روح جديدة فى اليمن لا يمكن أن تزول ، ويتوقف نشاطها على قدرة اليمنيين وإخلاصهم .

ومن القرارات التى أسرعت الثورة باصدارها ، قرار بالغاء الرق وبمبدأ المساواة بين الناس أمام القانون ، وقرار بالغاء الطبقات ، كما أعلنت الثورة أن الأحكام تستمد من الشريعة الإسلامية ، وأنه لا فرق بين الشافعية والزيدية أمام القانون والحقوق .

ثورة جديدة فى اليمن :

فى يونيو سنة ١٩٧٤ قدم رئيس المجلس الجمهورى استقالته إلى القيادة العامة للقوات المسلحة ، وكان الإريانى القائد العام للقوات المسلحة موجودا فى باريس للعلاج ، وكان العقيد ابراهيم الحامدى نائب القائد العام يتولى مهام القائد فى أثناء غيابه ، ولذلك أصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة اليمنية قرارا بتكوين مجلس قيادة من سبعة أعضاء برياسة العقيد ابراهيم الحامدى ، وأعلن المجلس سياسته وهى تتضمن توثيق الروابط الأخوية مع الدول العربية ، ودعم أواصر الصداقة مع كل دول العالم على أساس الاحترام المتبادل ، والمحافظة على استقلال اليمن ، والتمسك بسياسة عدم الإنحياز .

وأعلن المجلس كذلك أنه سيعمل على دعم القضايا العربية والمواثيق الدولية ، وكل الاتفاقيات والمعاهدات السابقة ، والوقوف بجانب القضايا الإنسانية العادلة ، وسيعنى المجلس بتحقيق الوحدة اليمنية ودعم روابط الجوار مع الدول العربية الشقيقة المجاورة ، وسيعمل على القضاء على أسباب الرشوة والسلبيات ، وسيتعاون مع العناصر الوطنية الشريفة القادرة على تسيير الأمور .

وبعد العقيد ابراهيم الحامدى أصبح المقدم حسن الغشمى رئيسا لجمهورية اليمن الشمالية وفى يونيو سنة ١٩٧٨ اغتيل المقدم الغشمى بتدبير سالم ربيع رئيس اليمن الجنوبية ، فقد صدر بيان أذاعه راديو صنعاء يقول ان الحادث وقع عندما دخل مبعوث خاص لرئيس مجلس رئاسة اليمن الديمقراطية (الجنوبية) سالم ربيع إلى مكتب الرئيس الغشمى ليسلمه رسالة خاصة من سالم ربيع وأضاف أن الانفجار وقع عندما فتح ممثل سالم ربيع حقيبته الملغومة التى كان يحملها أمام الرئيس الغشمى فانفجرت وأسفر الانفجار عن مصرع المقدم الغشمى والمبعوث نفسه .

وألقت اذاعة صنعاء مسئولية الاغتيال على « حزب يتنكر لله وللوطن » وقالت اذاعة صنعاء أن اليد الشريرة فى عدن قد اقترفت أسفل وأفظع العمليات الغادرة ونوهت الاذاعة بأنه ينبغى تسوية الحساب . وقال راديو صنعاء أن الشخص الذى نفذ الاغتيال قد نقل إلى الجمهورية العربية اليمنية على متن طائرة خاصة من عدن . وأضاف أن المبعوث قد أخذ إلى مكتب الرئيس الغشمى بكل ثقة وطيب نية بعد مكالمة هاتفية من سالم ربيع رئيس مجلس الرئاسة فى عدن .

وقد ذكرت وكالة الأنباء العراقية نقلا عن مراسلها فى صنعاء أن اليمن الشمالية قررت قطع علاقاتها الدبلوماسية مع اليمن الجنوبية .

وهكذا كانت الأوضــاع المضطربة فى اليمن الجنوبى تمد لهيبها إلى اليمن الشمالى ، فعانى اليمن الشمالى من عبد الناصر ومن أحداث الجنوب .

العقيد على عبد الله صالح :

وبعد هذه الغمة وهذا العدوان من الجنوب .... آلت السلطة للعقيد على عبد الله صالح ، وهو حاكم اليمن عند كتابة هذه السطور .

ســد مأرب :

فى ديسمبر سنة ١٩٨٦ حدث فى اليمن أعظم حادث حضارى ، وننقل الكلمة إلى صحيفة الاتحاد التى كتبت تفاصيل رائعة عن هذا الحــادث عنوانها :

زايد يتوجه إلى صنعاء اليوم لافتتاح سد مأرب

وجاء تحت هذا العنوان ما يلى بإيجاز :

يتوجه صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة ، يحفظ الله ورعايته ، اليوم إلى صنعاء ، فى زيارة رسمية للجمهورية العربية اليمنية تستغرق أربعة أيام بدعوة من فخامة الرئيس على عبد الله صالح . ويشارك صاحب السمو رئيس الدولة الشعب اليمنى فرحته فى الاحتفال غدا بافتتاح سد مأرب التاريخى الذى قام سـموه بإعادة بنائه عـلى نفقته الخاصــة .

كما يجرى صاحب السمو رئيس الدولة مباحثات مع فخامة الرئيس اليمنى مساء اليوم .. ويستقبل سموه بالعاصمة اليمنية السيد تورجوت أوزال رئيس وزراء تركيا الذى يحضر الاحتفال بافتتاح سد مأرب .

وقد أدلى صاحب السمو رئيس الدولة بحديث « للاتحاد » قال فيه أن الذى جعلنى أفكر فى بناء سد مأرب ثلاثة أمور رئيسية مهمة .

*أولها : أن هذا السد هو الذى أحيا اليمن فى الماضى ، وهو الذى تطور اليمن بوجوده .

* ثانيها : ان اليمن كان قد خرج لتوه من حروب طاحنة ابتلى بها من الداخل ومن الخارج واستطالت هذه الحروب وازمنت ، وأصبح الشعب اليمنى مشتتا ، كما أصبحت الدولة اليمنية شبه ممزقة ، وأمسى واضحا العيان ان التخلف فيها أكثر من أى دولة عربية أخرى ..

* ثالثها : ان من يقرأ التاريخ يعرفه ان نسب العرب وحسبهم كله يعود إلى اليمن ، فمنه خرجت الهجرات إلى كل بقاع العرب وبالأخص إلى الخليج العربى .

من هذا المنطلق رأينا ان من واجبنا ان نأخذ بيد اليمن حتى يكون رافدا للأمة العربية فى الحاضر والمستقبل فلم أجد عندئذ أعز وأغلى للمنى من بناء سد مأرب ، فعزمت عى بنائه مـن جديد ، لأن اليمن يعتبر جنـاح الخليج .. فكيف نساعد اخواننا فى كل مكان ولا نساعد الذين دمرتهم الحروب وطحنتهم .

وأضاف سموه قائلا : أن هذا واجب الابد منه ، لأن كل دولة عربية تقوى وتنهض هى سند وقوة للأمة العربية أجمع ، وكل دولة تضعف تضعف الكيـان العربى لذا لـم أتوان ولـم أتأخر فى تلبية نـداء الإخـوة وحرصت على أن يكون هذا العمل سعادة لحـاضر اليمن وقوة ومنعـة لمستقبله .

وكما كان وجود السد القديم يسبغ على اليمن اسم اليمن السعيد فإننى أردت أن يجعل السد الجديد اليمن سعيدا بعون الله وتوفيقه .

وكان هذا السد قد بدىء فى إنشائه فى الثانى من أكتوبر سنة ١٩٨٤ أى أن العمل فيه استغرق أكثر من سنتين ، وكانت تكاليفه باهظة ولكنها حق اليمن على جيرانها الأثرياء .

اليمن الجنـــوبية

قبل وبعد اعلان الجمهورية

وصلنا فى الحديث عن اليمن إلى العهد الحاضر ، ولكن هناك مساحة مهمة يجب أن يشملها حديثنا ونحن نتكلم عن اليمن ، وهذه المساحة هى مـــا قامت عليه جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية •

وقبل اعلان جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية كانت المناطق التى تكونت منها هذه الجمهورية هى :

١ ـــ عدن : وتشمل ثلاث مناطق هى البلدة الأصلية وما حولها من جبال ، والمعلا التى تشرف على شبه البحيرة الموصلة إلى باب المندب ، تلك التى ترسو بها البواخر الصـــغيرة ، ثم التواهى التى يقع بها الميـنـــاء العام حيث ترسو البواخر المختلفة ، ويتبع عدن كذلك بعض الجزر التى تقع فى مضيق باب المنـــدب مثل جزيرة بريم ، وفى المحيط الهنـــدى مثل جزيرة سو قطرة ، وفى أول البحر الأحمر مثل جزيرة كيران •

٢ ـــ المقاطعات الشرقية : وهى أهم مقاطعـــات الجنوب ، وبهـــا مناطق حضرموت ومهرة ، حيث تقع سلطنات ومشـــيخات يبلغ عددهـــا ثمانى ، وأهمها ســـلطنة القعيطى وعاصـــمتها المكلا ، وســـلطنة الكثيرى وعاصمتها سيون ، وسلطنة الواحدى وعاصمتها بلحاف •

٣ ـــ المقاطعات الغربية : وهى كثيرة السلطنات والمشـــيخات ويبلغ عدد هذه وتلك ٢٣ سلطنة ومشيخة ، وهى قليلة السكان ، ويصل تعداد بعض هذه المشيخات ألفى شخص فقط ، وأهم سلطنات المقاطعات الغربية سلطنة لحج وعاصمتها الحوطة ، ثم سلطنة الصبيحة وعاصمتها الطور ، وسلطنة العقارب وعاصمتها بير أحمد ، وهنـــاك سلطنة العوالق العليـــا والسفلى وسلطنة يافع العليا والسفلى ، وإمارة الضالع ، وإمارة بيجان وغيرهـــا •

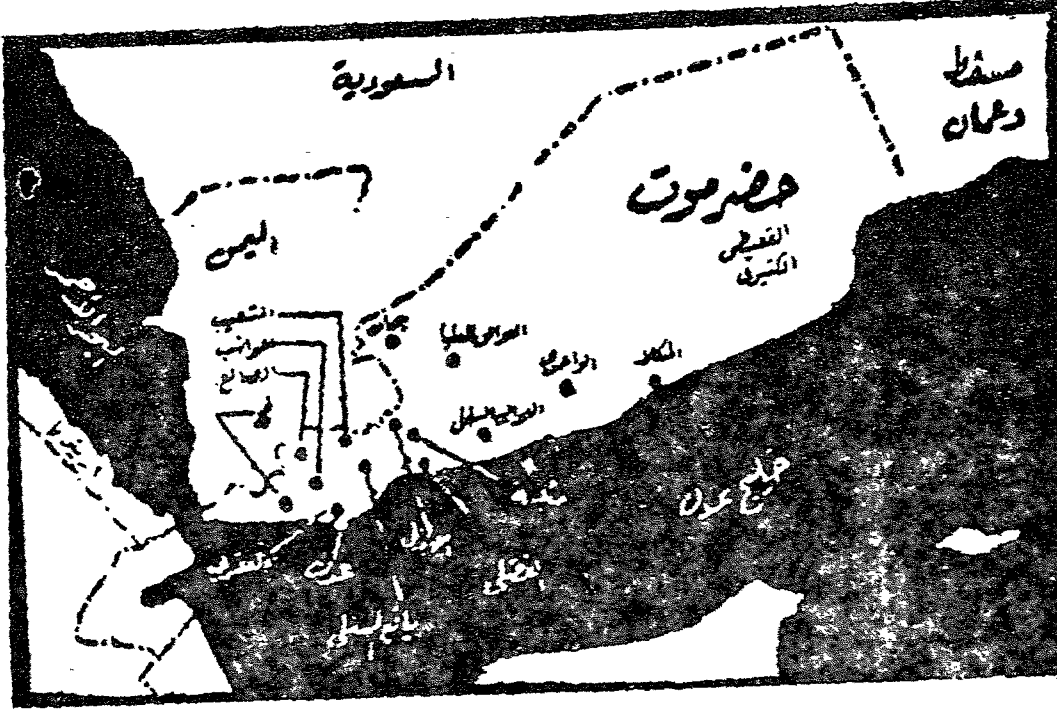
ومن الملاحظ أن الوحـدات اختلفت أسـماؤها ، وبالتـالى اختلفت السلطات بها وفيما يلى تعريف مجمل بهذه التسميات :

المشيخة : القبيلة الواحدة التى يتحول شيخها إلى حاكم سـياسى تسمى مشيخة ، فإذا تجمعت عدة قبائل فى وحدة واحدة ، وكانت واحدة منها أعز شأنا وأقوى نفوذا فإن هذا التجمع يسمى « الاتحاد القبلى » .

السلطنة : نظام أقرب للدولة حيث يوجد شرطـة وجيش وحكـام بالوراثة .

الإمارة : سلطنة صغيرة يعتمد الأمير فيها على مكانة دينية أو يكون تابعا لسلطنة بشكل ما من أشكال التبعية .

وسنعطى كلمة تاريخية لعدن والمقاطعات الشرقية والمقاطعات الغربية فيما يلى :



أهم المناطق التى تكونت منها جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

عدن حتى الاستعمار البريطانى :

كانت عدن جزءا من اليمن فى كثير من الأزمنة — كما ذكرنا من قبل — تابعة للولاة الأمويين ثم العباسيين ، ولما قامت دولة بنى زياد باليمن ، كانت عدن جزءا من هذه الدولة ، وتبعت بعدهم بنى نجاح وبنى صليح حتى دخلت فيما دخلت فيه مناطق اليمن ابتداء من سنة ٥٦٩ حيث تبعت دولة الأيوبيين فبنى رسول فبنى طاهر ، وكان عامر بن داود بن طاهر آخر أمراء بنى طاهر فى عدن حين دخلها العثمانيون بدعوة منه ثم قتلوه واستولوا على المدينة ، ولكن أئمة اليمن قادوا اليمنيين فى الصراع ضد الأتراك العثمانيين واستطاعوا أن يستعيدوا عدن فى عهد الإمام المطهر (١٥٥٨ — ١٥٧٤ م) وظلت عدن تابعة لحكم الأئمة حتى سنة ١٧٣٢ م ، وفى هذا العام قام أهل يافع بقيادة الشيخ فضل بن على العبدلى بثورة ضد الشيخ أحمد الوداعى عامل الإمام المنصور الحسن بن القاسم ، وقد استطاع العبادلة بهذه الثورة أن يطردوا عامل الإمام وأن يستولوا على عدن .

وفى سنة ١٨٢٢ م تم اتفاق بين سلطان عدن السلطان أحمد عبد الكريم بن فضل بن العبدلى وبين شركة الهند الشرقية البريطانية على أن تقيم الشركة محطة للوقود فى خليج عدن فى الطريق إلى الهند [1] ...

وفى سنة ١٨٣٧ غرقت سفينة انجليزية بالقرب من عدن ، وادعى الإنجليز أن رعايا السلطان العبدلى نهبوا ما بها وطالبوا بالتعويض ، فلم يرضخ لهم السلطان ، فأرسلت شركة الهند مركبا حربيا ضربت عدن ، وقد تصدى لها السلطان وساعدته قوات يمنية ، ولكن القوات الانجليزية بمعداتها الحديثة كان لها النصر ، وسقطت عدن تحت الاحتلال الانجليزى .

وقد اعتبرت عدن قاعدة ، زحف منها الاستعمار الانجليزى إلى

---

(١) انظر نص الاتفاقية فى « اليمن » لأمين سعيد ص ١٨ — ٢١ .

المقاطعات الشرقية والغربية ، واعتبرت عدن كذلك عاصمة عامة للجنوب العربى ، وحصل الانجليز على فرمان عثمانى يعترف بالوضع القائم لهم فى عدن (١) .

المقاطعات الشرقية حتى الاستعمار البريطانى :

كانت هذه المقاطعات جزءا من اليمن قبل الإسلام ، وفى عهد الرسول ، وعهد الخلفاء الراشدين ، ودولة بنى أمية ، ومطلع العهد العباسى ، وكان والى اليمن يعين من قبله مَنْ يلى أمر حضرموت ، وقد سبق أن ذكرنا عند الحديث عن « اليمن فى العصر العباسى » أن المنصور ولى معن بن زائدة الشيبانى اليمن ، فبعث هذا ابن عمه سليمان نائبا عنه إلى حضرموت .

وهناك نص يورده المؤرخ الحضرمى سعيد عوض باوزير يفيد أن المنصور ولى مرة عاملا على حضرموت بطريق مباشر وبدون أن يكل هذا إلى والى اليمن ، ويعلق عليه هذا المؤرخ بأن عمال حضرموت كانوا أحيانا يعينون من قبل مركز الخلافة (٢) ، ويتجه باحث حضرمى آخر (٣) إلى أن حضرموت لم تعرف فى تاريخها الطويل حكومة مركزية خضعت لها كل أنحاء الاقاليم إلا فى عهد جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، وكانت تقوم — فى فترات متعاقبة من التاريخ — إمارات فى مناطق متعددة من حضرموت شديدة الشبه بدويلات المدن . أما المناطق المحيطة بالمدن فكانت السلطة فيها متروكة لرؤساء العشائر ، وكانت هناك علاقات لتبادل المنافع بين حكام المدن ورؤساء العشائر وكان حكام المدن يتغيرون من حين إلى آخر ، أما حكام العشائر فكانوا ثابتين ، وما يقال عن ان حضرموت خضعت كلها لهذا الأمير أو لذاك قبل الإسلام أو بعده ، فليس إلا من باب التجوز أو الإفراط فى الأمل .

---

(١) المرجع السابق ص ٢١ — ٢٢ .
(٢) معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ٢٥٢ .
(٣) محمد عبد القادر بامطرف : فى سبيل الحكم ص ١١ وما بعدها .

وفى عهد المأمون — كما ذكرنا من قبل — تولى محمد بن زياد ولاية اليمن فأخضع اليمن جميعها لحكمه ، ودخلت فى طاعته حضرموت ، والشحر وديار كندة . وقد تحدثنا من قبل عن الدولة الزيادية وعهدها باليمن . وفى عهد هذه الدولة عظم شأن الإباضية الخوارج ،فلما ضعف الزيادية فى آخر عهدهم ، بدأ نشاط الإباضية فى الارتفاع ، ودار صراع طويل بين الإباضية من جانب والولاة العباسيين من جانب آخر ، كان من نتائجه أن أصيبت حضرموت بكثير من المصائب والبلاء . وبينما كانت حضرموت غارقة فى هذا الصراع الدامى دخل عنصر جديد زاد الطين بلة ، ذلك هو القرامطة الذين هاجموا حضرموت عدة مرات خلال القرن الرابع والخامس الهجريين ، مما جعل الحياة فى حضرموت ظلاما وضبابا ، ومما أخفى المعالم التاريخية الدقيقة لهذه المنطقة المهمة ، ويصف المؤرخ الحضرمى سالف الذكر هذه الفترة بقوله :

حال بعد المسافة وصعوبة المواصلات وقلة موارد حضرموت وأسباب أخرى كثيرة دون استقرار سلطة الحكومات الإسلامية فى حضرموت ، فبقيت البلاد عرضة لتعاقب سلطات القبائل المحلية التى ليس لأفرادها من المؤهلات ما يمكنها من القيام بواجبات الحكم وتبعاته ، وقد تسبب عن هذه الفوضى والاضطراب اختفاء معالم التاريخ الحضرمى ، وامتد ذلك إلى القرن العاشر الهجرى ، بل ان الفترة بين القرن السادس والعاشر كانت أكثر عهود التاريخ اضطرابا وفوضى (١) .

ومع هذا الظلام سنحاول أن نبرز فيما يلى أهم معالم تاريخ حضرموت

— فى مطلع القرن السابع ظهر آل راشد وهم ينحدرون من قبيلة حمير القحطانية ، ويتزعمهم عبد الله بن راشد الذى كان معروفا بالعلم والورع ، وقد استولى على جميع وادى حضرموت ، وبويع له سنة ٦٠٦ هـ .

---

(١) معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ٢٧٣ .

وفى هذه الفترة كان الأيوبيون قد بسطوا سلطانهم باليمن ومــدوا سلطانهم إلى حضرموت ، ولكن بدون استقرار ، وانتهى ملك الأيوبيين فى حضرموت سنة ٦٣٦ هـ •

— ونحو هذا التاريخ ظهرت أسرة آل كثير ، وعاشت بين مد وجزر ولكنها على كل حال كانت أطول عمرا من سواها حتى قيام الجمهورية •

— وفى تيريم ظهر مسعود بن يمانى الكنانى ، وكون دولة آل يمانى فى منتصف القرن السابع الهجرى ، وقد بقيت دولة آل يمانى فى تيريم حتى قضى عليها بدر الكثيرى سنة ٩٢٧ هـ •

ولم تقبل الدولة التى قامت على أعقاب الأيوبيين أن ينكمش سلطانها عن حضرموت ، ولذلك دخلت حضرموت تحت حكم بنى رسول فتــرة من الزمن •

— وفى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى بدأ تدخل أئمة اليمن فى شئون حضرموت يتخذ شكلا عمليا أيام الإمام الحسين بن القاسم وقــد استطاع الإمام المتوكل أن يزحف إلى حضرموت بجيش كبير سنة ١٠٧٠ هـ بيد أن جموع الشوافع فى حضرموت كانت لا تنقطع ثوراتها ضد الزيدية

— وبينما كانت حضرموت تثور على الزيدية كانت الدولة الكثيرية تتعرض لضغط شديد وصراع مرير حتى قُضِىَ عليها مؤقتا فى عهد جعفر ابن عمر فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى •

— وعلى أثر ذلك أنفكت حضرموت كعقد تهاوى ، وأصبح كل جزء فيها خاضعا لقبيلة من القبائل ، وقد عاشت حضرموت هذه الفترة حتى انبعثت من جديد أسرة آل كثير •

— ثم ظهرت كذلك السلطة القعيطية التى أسسها عمر بــن عوض القعيطى اليافعى فى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى ، وقد عظم نفوذها

واتسعت رقعتها ، وبجوار آل كثير والقيعطى ظهرت سلطنة الواحدى نسبة لعبد الواحد القرشى كما ظهرت كثير من السلطنات والمشيخات التى أشرنا إليها من قبل والتى استغلها الوجود البريطانى فى عدن كما سنرى فيما بعد .

المقاطعات الغربية حتى الاستعمار البريطانى :

كانت المقاطعات الغربية أكثر ارتباطا بالوطن الأم (اليمن) من المقاطعات الشرقية ، وذلك لقرب المقاطعات الغربية لليمن ، وأهم المقاطعات الغربية سلطنة لحج وهى لا تبعد عن عدن إلا بحوالى ٣٥ ميلا ، وحولها تقع باقى السلطنات والمشيخات بالمقاطعة الغربية . ويمكن القول إن المقاطعات الغربية ظلت تابعة للحكم اليمنى فخضعت لدولـه المتعاقبة ، وعند الزحف التركى أيدت الأئمة وكانت تابعة لهم يولون عليها من يحكمها باسمهم ، وقد ولى الإمام الحسين بن القاسم (١٧٢٧ — ١٧٤٢ م) على لحج رجلا من قبيلة العبادلة اسمه فضل بن على ، وأراد هذا الوالى أن يستقل بحكم ولايته فاتفق مع جاره حاكم يافع على الخروج على الطاعة وأن يتعاونا فى الاستيلاء على عدن واقتسام مواردها المالية ، ونجحت المؤامرة حوالى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، ولكن نشب بين الاثنين خلاف ورثته عنهما القبيلتان [1] ، وقد عاش هـذا الخلاف حتى يسر للانجليز التدخل فى تلك البقاع ، وبسبب هذا الخلاف انفصلت عن لحج مناطق كثيرة كانت تابعة لها ، وكان ذلك من أسباب كثرة السلطات والمشيخات فى المقاطعات الغربية ، ومما سبب كثرة المشيخات انشغال الأئمة الذين آل لهم وخدهم السلطان فى اليمن ابتداء من الزحف التركى — بالحرب مع العثمانيين وهذا شجع القبائل على اعلان استقلالها ، وتكوين مشيخات أو سلطنات قبلية مستقلة حتى داهمها جميعا النفوذ البريطانى فلم تستطع وهى أشتات متفرقة ضعيفة أن تصمد أمام جبروته كما سنرى فيما بعد :

---

(١) انظر ملوك العرب للريحانى .

الحياة السياسية والاجتماعية بحضرموت قبل الاستقلال

بين أيدينا كتاب كتبه باحث حضرمى ، وهو يعد مرجعا مهما لتصوير أحوال حضرموت السياسية والاجتماعية [1] ، ومنه نقتبس بعض المعلومات فى هذا المجال :

كان نظام الحكم فى حضرموت متشابها قبل الاحتلال الانجليزى وبعده لأن الانجليز لم يتدخلوا فى الشئون الداخلية بالبلاد ، واتجهت عنايتهم إلى الأمور الخارجية والزام السلطات المحلية بعدم التفاوض أو الاتصال بأية حكومة أجنبية غير بريطانيا .

وكان نظام الحكم كذلك متشابها فى جميع المقاطعات الحضرمية ، وبوجه الاجمال تتكون الحكومة من السلطان والوزير والقاضى الشرعى ، ويعين السلطان الوزير وغيره من الموظفين والولاة وقد يبقى هؤلاء فى مراكزهم عشرات السنين ، وتصدر أحكام الزواج والأسرة والميراث حسب الشرع الإسلامى ، أما ما عدا ذلك من القضايا فإن الأحكام تتبع العرف إذ لا توجد قوانين جنائية أو مدنية ، ولهذا قد تتضارب الأحكام وتختلف شدة ولينا باختلاف الولاة والقضاء ، ولا توجد سجلات تدون فيها الأحكام .

ولا يرتبط الولاة بالسلطان إلا فيما يتعلق بتزويد الجيش بالرجال والمال ، والسلطان هو الذى يزيد عدد الجيش أو ينقصه ، وهو الذى يعلن الحرب أو يوقفها ، وليس هناك دوائر خاصة للقضاء ، وليس للسجون نظام محدد .

والحقوق المدنية غير نافذة فى بعض بلدان الحكومة ، فالضرائب فى كثير من المقاطعات تجبى من فئة دون أخرى فإن كثيرا من العلويين وآل

---

(١) هو كتاب تاريخ حضرموت السياسى للاستاذ صلاح الدين اليافعى .

عمودى وآل باوزير معفون من الضرائب وليس هناك عذر سوى أن هؤلاء من الروحانيين وأصحاب السلطة الروحية ٠

وتتكون الايرادات فى الدولة غالبا من الجمارك ، وليس لهذه الجمارك نظام خاص وقواعد ترتبط بها ، فتثمين البضائع يرجع إلى رجال الجمارك وعرفهم ٠ وتأتى بعض الايرادات من المزارع ٠

أما المصروفات فتشمل مرتبات الوزير والقضاة والجيش والموظفين وهم قليلون جداً ٠ والناس لا يعرفون بالضبط مبلغ ايرادات الحكومة ولا مصروفاتها لأنه ليس لها ميزانية خاصة ولا عامة [١] ٠

ومن ناحية الحالة الاجتماعية ، يذكر الأستاذ صلاح البكرى أنه لم يكن لحضرموت احصاء رسمى عن تعداد السكان ، ويقدر سكان حضرموت بنصف مليون نسمة بما فيهم سكان البادية ٠ ويقسم السكان أربع طوائف هى :

١ — حملة السلاح ٠

٢ — التجار ٠

٣ — الزراع ٠

٤ — الروحانيون ٠

وحملة السلاح يحفظون الأمن وبخاصة فى الحواضر ويحرسون القوافل ومنهم تتكون حاشية السلطان وأعوانه والرياسات القبلية ، ويسمى حملة السلاح فى تعبير الحضارم « القبائل » وربما ترك بعض هؤلاء مهنة حمل السلاح ليصلوا إلى التجارة طمعا فى المال ، أو إلى العلم اجلالا له ٠

وحملة السلاح يحملون نوعا من البنادق والخناجر والسيوف أو

---

(١) تاريخ حضرموت السياسى ج ٢ ص ٨٥ — ٨٧ ٠

الرماح ، وأولاد حملة السلاح يتدربون على أنواع منه من مطلع الصبا ، وبعضهم لهم نظر عميق فى شئون السياسة والاصلاح وكثيرا ما يحدث نزاع بين قبيلتين ، بل بين القبيلة الواحدة بعضها والبعض ، ولكنهم يتعاونون ويتناسون المشكلات الداخلية إذا واجهوا عدوا من الخارج .

أما طائفة التجار ، فيلحق بهم أرباب الصناعات كالنجاريين والبنائين وعليهم يقع النشاط فى الأسواق والمدن . والتجار الحضرميون مشهود لهم بالأمانة والنشاط والصبر والجلد .

أما الزراع فهم يحرثون الأرض ، ويزرعونها بالنخيل وأنواع الحبوب ، وهم أكثر الطوائف الحضرمية عددا ومنفعة للناس ، ومع هذا لا يلاقون احتراما من « حملة السلاح » ومن الروحانيين ، لأنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم لتجردهم من السلاح ومن أجل هذا يسمى هؤلاء « الضعفاء » .

ولعله لهذا السبب لا يحب الفلاح الحضرمى أن يبالغ فى الجهد للحصول على الثراء عن طريق الزراعة لأنه لا يستطيع ان يحمى أى ثراء يملكه ولا تهتم الحكومة بحمايته .

أما الروحانيون ، فأشهرهم آل باعلوى « العلويون » ومن العلويين أفخاذ وبطون شهيرة كأسرة العطاس ، وآل عيدروس ، وحبشى ، وشهاب ، والحضرمى ، والكاف ، والسقاف ، ولهؤلاء نفوذ روحى واسع ومكانة اجتماعية خاصة ، وألقاب يحرصون عليها ، وقد اتجهت بعض هذه البطون لتوثيق علاقاتها بالرؤساء السياسيين ، وتبادل هؤلاء وأولئك المصالح والمنافع .

وبيوت الحضارمة تبنى بالطين المخلوط بالتبن ، وتتكون البيوت من طابقين غالبا ، ويمكن أن ترتفع بيوت الحكام وقصورهم إلى أكثر من ذلك

وأثاث البيوت بسيط جدا ولكن الأغنياء يؤثثون منازلهم بفرش وثيرة ، والنظافة عامل مهم فى كل بيت عظم أو حقر .

وكرم الضيافة من أبرز صفات الحضارمة مهما كلفهم هذا الكرم من جهد أو استدانة .

ويغلب على المرأة الحضرمية أن تكون بيضاء هيفاء ممشوقة القد وهى قنوع صبور — مقتصدة تجيد إدارة المنزل وتربية الأولاد مع عفة وشرف . ولكن الجهل منتشر بين النساء والحجاب كذلك منتشر فى الغالب .

وكان الرق موجودا فى حضرموت حتى تم الغاؤه منـذ مـدى ليس بالبعيد .

وأهم الصناعات فى حضرموت هى صناعة الحلى ، والأسلحة ، ودبغ الجلود ، والنسيج ، وتجفيف السمك .

وكانت الأمية منتشرة بحضرموت انتشارا واسعا ، وكان الاهتمام يتجه لشىء من علوم الدين واللغة العربية ، وكانت الدراسة تتبع الطريقة القديمة فى تقديم هذه العلوم للطلاب (١) .

تلك لمحة سريعة عن الحياة فى حضرموت كما كانت قبل الاستقلال ، ومن الواضح أن الاستعمار حرص على إبقاء هذا الظلام فى البلاد التى كانت يوما مهبط حضارة رفيعة والتى دفعت للعالم نماذج طيبة من العلماء والقـــادة .

بريطانيا والجنوب اليمنى

رأينا كيف احتلت بريطانيا عدن ، وكيف كان الأئمة مشغولين فى الشمال بالصراع ضد العثمانيين وسواهم ، وقد وجد الانجليز حوالى عدن

---

(١) صلاح البكرى : مقتطفات من تاريخ حضرموت السياسى ج ٢ ص ١١٤ — ١٢٨ .

قبائل متناحرة ، فأضافوا المزيد من الزيت ليقوى اللهب ، وفى نفس الوقت لوحت بريطانيا للشيوخ المساكين بأن تمدهم بالمال والسلاح فاستجاب بعضهم وخضع الآخرون تحت التهديد ، وهكذا بدأ التدخل البريطانى فى شئون المقاطعات الشرقية والغربية وبدأ الزحف الاستعمارى بالسياسة والمـال حينا وبالقوة والتهديد أحيانا حتى سقط الجميع ، وكان الثمن رخيصا للغاية فقد قنع الذين قبلوا المال بالقليل منه ، نظير أعطاء الكثير من الحقوق للسلطة الانجليزية .

وكانت أول معاهدة تعقدها بريطانيا مع سلاطين الجنوب تلك التى عقدتها سنة ١٨٤١ م مع سلطان لحج محسن بن فضل العبدلى وتنص على تخويل البريطانيين نفوذا واسعا فى السلطنة نظير مرتب سنوى قـدره ٦٥٠٠ ريال تدفع للسلطان وأعوانه .

ومن عجائب المعاهدات ، تلك المعاهدة التى أمضيت مـع سـلطان الضالع فى أكتوبر ١٩٠٣ وتنص على أن يدفع مندبو بريطانيا من لطف الحكومة وكرمها سبعة ريالات فى الشهر للشـيخ مطهر بن على اعترافا بصداقته وبالخدمات الجليلة التى أداها للحكومة وبالأخص للجنة الحدود ، ويوافق الشيخ المذكور على التمسـك دائما بصـداقة وطاعة الحكومـة البريطانية ومساعدة ضباطها وملاحظة أعمدة الخطوط الموضوعة فى حدود بلاده ، والاعتناء بها وإصلاحها فيما يطرأ عليها من خلل (١) .

وهكذا استسلم كثير من هذه المشيخات بهذا الثمن البخس ، وما كان لهم أن يفعلوا وان غلا الثمن ، ولكن سلاح القوة والإرهاب كان البديل لمن يتردد فى القبول ، ومع هذا فنحن نقرر أن الموت كان أهون من هـذا الخضوع والهوان .

---

(١) أمين سعيد : اليمن ص ١٨٤ وقد حوى هذا الكتاب نماذج كثيرة من المعاهدات المماثلة .

وقد قسمت بريطانيا منطقة الجنوب المغربى ثلاثة أقسام ذكرناهـا سابقا وهى :

١ ـ مستعمرة عدن ، صارت العاصمة الادارية والاقتصادية للبلاد .

٢ ـ المحميات الغربية وهى ٢٣ وكانت تتناقص بعمليات إدماج .

٣ ـ المحميات الشرقية ، وبها ثلاث سلطنات رئيسية بالإضافة إلى المشيخات .

وكانت بريطانيا تحكم الجنوب العربى بواسطة حاكم بريطانى مقره عدن ، وكان هذا الحاكم يتبع وزارة الخارجية البريطانية بلندن ، ولكنه ابتداء من سنة ١٩٣٢ أصبح تابعا لحاكم الهند ، فلما اتضح أن الهند على وشك أن تستقل أعلنت « عدن » مستعمرة تاج سنة ١٩٣٧ فعادت تبعيتها إلى بريطانيا وكان لحاكم عدن ابتداء من هذا العام ممثل فى المحميات الشرقية وآخر فى المحميات الغربية ، وكان حاكم عدن واسع النفوذ ، إذ أن موافقته كانت ضرورية لتنفيذ القرارات المهمة التى يتخذها الحكام ، بل كانت ضرورية عنـد اختيار أى حـاكم جديد ، وبدونهـا لا يتولى منصبه[1] .

اتحـاد الجنوب :

كان قيام اتحاد أو وحدة بين الشتات المتناثرة بالجنوب العربى هدفا مهما للاستعمار ، وهدفا مهمـا للمخلصين مـن المواطنين ، وان اختلفت الدواعى والأسباب ، فالاستعمار كان يرمى إلى دعم نفوذه وتيسير حكمه لتلك المناطق ، أما المواطنون المخلصون فقـد كانوا يتجهون إلى العودة للوطن الواحد وإزالة الحواجز الصناعية التى تقسم الجسم إلى أشلاء لإضعافها ، وكان من الواضح أن مشروعات الاتحاد التى كان يقترحها

(١) انظر تفاصيل علاقات بريطانيا بهـذه التجمعات فى « سياسة بريطانيا فى الجنوب العربى » للدكتور جاد طه ص ١٧٥ وما بعدها .

المستعمر كانت تحوى نصوصا تتنافى مع آمال السكان والزعماء المخلصين ومن هنا كانت تقابل بحركات مقاومة ، ولسنا نحب أن نمشى خلف التفاصيل حول المقترحات ومقاومتها ، وحسبنا أن نقرر أن الاتحاد أعلن كما أراده الاستعمار ومعاونوه الذين انضموا للاستعمار فى مواجهة القوى الوطنية التى كانت تريد الوطن للمواطنين جميعا وليس للحكام السابقين والاقطاعيين كما كان من قبل •

وكان اعلان الاتحاد فى فبراير سنة ١٩٥٩ وتكون آنذاك من ست إمارات من إمارات المحميات الغربية ، ثم تلاحق انضمام المحميات الأخرى إلى أن شملها جميعا ومنها عدن ، وظهر إثر ذلك ما سمى « حكومة الاتحاد » وبمقتضى هذا كان لبريطانيا أن تباشر العلاقات الخارجية لدولة الاتحاد ، وكان لها تدريب جيش الاتحاد ، وتنبيه حكومة الاتحاد إلى أى خطر فى الداخل والخارج ، وكان واضحا من هذا الاتحاد أنه لا يحقق الأمانى الوطنية ، ومن أجل هذا تعاونت فى الجنوب العربى التكتلات والأحزاب التى تقاومه وتنادى بوحدة حرة ، ومن أبرز التكتلات حزب رابطة أبناء الجنوب العربى ، وحزب الشعب الاشتراكى ، وحزب المؤتمر الشعبى ، والمؤتمر العمالى ، وحركة القوميين العرب ، والاتحاد الشعبى •

الاستقلال التام وخطواته :

لم تستطيع حكومة الاتحاد أن توقف غضب المواطنين ، ولم يستطع الاتحاد أن يوارى طاقة الاستعمار التى خلقته ، ثم انضم إلى القوى الداخلية عاملان مهمان أشعلا الثورة المسلحة فى الجنوب وهما :

العامل الأول : قيام الثورة فى شمال اليمن ونجاحها فى ٢٦ سبتمبر من عام ١٩٦٢ ، وقد أتاحت الثورة الفرصة لتشكيل الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمنى المحتل تلك الجبهة التى قادت العمليات العسكرية وكان ذلك فى شهر أكتوبر من العام نفسه ، أى فى الشهر التالى

لنجاح ثورة الشمال ، وظلت مدينة تعز اليمنية مركزا هاما لقيادة ثورة الجنوب طيلة السنوات التالية .

العامل الثانى : الدعم الذى قدمته جمهورية مصر العربية والـذى ساند ثورة الجنوب فى كل مراحلها ، والثابت أيضا أن أول سلاح تلقته الجبهة القومية كان من جمهورية مصر العربية عقب اتصالات جرت فى صنعاء واستكملت فى القاهرة قبل بدء الثورة ، والثابت كذلك أن عـددا غير قليل من ثوار الجنوب تلقوا تدريباتهم فى مصر وتحت إشراف خبراء مصريين ، ولم تكن هذه الحقيقة خـافية على أحد فقـد أعلن جمـال عبد الناصر ذلك أكثر من مرة ، وفى زيارة له إلى تعز أعلن أن مصر تقدم كل صور الدعم لثوار الجنوب ، وأنها لن تتراجع عن موقفها رغم ما أدى إليه من تدهور علاقاتها مع بريطانيا .

عبد الناصر وحركات التحرير :

ولنقف هنا وقفة لنعلق على تصرفات عبد الناصر فى هذا المجـــال ومن المعروف عن عبد الناصر أنه كان يدعم كل ثورة فى الخارج ، وكان يتظاهر بالعمل لتحرير الشعوب ، وفى سبيل ذلك كان يقدم أموال مصر ورجالها بسخاء ولكن ذلك لم يكن ميلا فى الرجل للحرية ، وإنما كان — كما برهنت على ذلك الأحداث التى سنشير لها — أحد وسائله للدعـاية الشخصية وخداع الشعوب ، بدليل أنه كان مع شعب مصر يمثل أعنف حاكم عرفه التاريخ ، فقد عانى شعب مصر منه صورا مريرة من الاستعباد والإذلال والمصادرات والاعتقـال والتنكيل والتعذيب والجـوع وهتك الأعراض ... وقد باشر عبد الناصر بعض هذه المظالم مع الشعوب التى انضمت مخدوعة تحت لوائه كالشعب السورى والشعب اليمنى ، وحاول أن يتدخل فى الشئون الداخلية للجزائر عقب انهاء حكم ابن بيلا ، ولكن قادة الجزائر الجدد ردوه عن هذا الاتجاه .

وهكذا كان عبد الناصر يهتف بالحرية ولكنه كان عمليا يرتكب أبشع

وسائل الاستعباد والإذلال ، وكان يحارب الاستعمار وهو يتطلع ليحل محل الاستعمار .

ولنعد بعد ذلك لنقدم باقى العوامل التى ساعدت على إشعال الثورة فى الجنوب العربى ضد الاستعمار الانجليزى ، فنذكر أن عاملا طرأ على السياسية الاستعمارية العالمية ، وذلك العامل هو الاتجاه إلى القواعد العسكرية البحرية المتحركة دون الارتباط بالقواعد البرية التى تثير سخط المواطنين .

وعامل آخر أضيف إلى هذه العوامل ذلك هو موقف الأمم المتحدة ، فلقد أصدرت لجنة الوصايا التابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا فى أوائل نوفمبر سنة ١٩٦٥ ينص على ضرورة إزالة القواعد العسكرية البريطانية من عدن والمحميات ، وفيما يلى نص هذا القرار الخطير :

« تعرب الأمم المتحدة عن أسفها للمحاولات التى تبذلها الدولة الحاكمة (بريطانيا) لإنشاء نظام حكم لا يمثل الشعب فى المنطقة ، وتناشد جميع الدول ألا تعترف بأى استقلال لا يكون نتيجة للتعبير الحر عن رغبات وأمانى الشعب عن طريق انتخابات تقوم على أساس حق الاقتراع للراشدين ، كما تعرب عن أسفها لرفض الدولة الحاكمة تنفيذ قرارات الجمعية العامة ، وتؤكد الأمم المتحدة حق شعب المنطقة فى تقرير المصير وفى التحرر من الحكم الاستعمارى ، وتعترف بشرعية الجهود التى تبذل لنيل الحقوق التى نص عليها ميثاق الأمم المتحدة ، وترى الأمم المتحدة أن بقاء القواعد العسكرية فى المنطقة يمثل عقبة كبرى فى سبيل تحرير الشعب من السيطرة الاستعمارية ، ويعتبر بقاء هذه القواعد ضارا بسلم المنطقة وأمنها ، ومن ثم فإن إزالتها فورا إزالة تامة أمر ضرورى وتدعو الأمم المتحدة بريطانيا إلى إلغاء حالة الطوارىء وجميع القوانين التى تحد الحريات العامة ووقف أعمال القمع ضد شعب المنطقة ، ولا سيما العمليات العسكرية ، واطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين ، والسماح

بعودة المنفيين أو الذين منعوا من البقاء فى البلاد بسبب نشاطهم السياسى • وتناشد الأمم المتحدة جميع الدول تقديم كل المساعدات الممكنة إلى شعب المنطقة فى مساعيها وجهودها للحصول على الحرية والاستقلال ، وتلفت نظر مجلس الأمن إلى الموقف الخطير السائد فى المنطقة نتيجة الأعمال العسكرية البريطانية ضد شعب المنطقة ، وتطلب من الوكالات المتخصصة تقديم المساعدات إلى الشعب الذى يعانى من العمليات العسكرية ، كما تطلب من يوثانت العمل على ضمان تنفيذ هذا القرار » •

وتأججت الثورة بسبب هذه العوامل ، وضعفت حكومة الاتحاد عن القيام بمهامها ، وجرفت الثورة بعض من اتهموا بالخيانة الوطنية من المواطنين فخروا صرعى ، كما فر عدد من جند الاحتلال ، وأدرك حكام بعض الولايات ما يحيط بهم من خطر ، ففروا إلى السعودية ، ومن هؤلاء غالب القعيطى وحسن بن على الكثيرى وخليفة بن عبد الله حاكم مهرة ، وحلت الجبهة القومية محل هؤلاء الفارين فى السلطة •

جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

إزاء هذه الحركات والتطورات رأت بريطانيا ألا أمل فى البقاء ، فحددت موعدا للجلاء ثم عادت فقدمت هذا الموعد ، وجعلته ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٦٧ وتسلمت الجبهة القومية السلطة فى جميع أنحاء البلاد منذ ذلك التاريخ ، وانسحبت بريطانيا إلى الأبد من هذه البقاع ، ولأول مرة فى التاريخ ، تكونت فى جنوب اليمن دولة واحدة ذات شوكة فعالة ، تشمل كل أنحاء اليمن الجنوبى ، وكان زمام الصراع ضد الاحتلال فى يد « عبد القوى مكاوى » ولكن ما ان تم استقلال البلاد حتى قفزت قيادة جديدة يسارية ، وسميت الدولة الجديدة « جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (١) » وكان يرأسها آنذاك (سنة ١٩٧٦) السيد سالم ربيع . وتوحى تسمية الدولة كما توحى دلائل أخرى باتجاه الدولة الجديدة اتجاها يساريا (٢) ، وإذا صح ذلك فإننا نرجو أن تعود بسرعة هذه البقاع الطيبة إلى رحاب العروبة السمحة والإسلام الحنيف ، وهى نتيجة لا شك آتية إن شاء الله .

بقيت كلمة جديرة بالذكر تتعلق بما ذكرناه آنفا من أن النظام الثورى باليمن الشمالية قدم مساعدات جمة لحركة التحرير فى الجنوب ، ونريد هنا أن نقول إن حركة تحرير الجنوب قدمت مساعدات جمة للنظام الثورى فى الشمال وبخاصة بعد انسحاب مصر من اليمن الشمالية بناء على اتفاق الخرطوم .

نهاية سالم ربيع ثم رياسة عبد الفتاح اسماعيل :

فى يونيو سنة ١٩٧٨ حدثت حركة انقلاب ضخمة فى اليمن الجنوبية قتل فيها سالم ربيع ، وقد كان هذا الانقلاب انقلابا دمويا تقول الأنباء

---

(١) محمد عبد القادر بامطرف : فى سبيل الحكم ص ١١ .
(٢) بيان نشره السيد محمد على الحضرى رئيس رابطة اتحاد الجنوب العربى فى مؤتمر بمكة المكرمة سنة (١٩٧٥) ١٣٩٥ هـ .

أن عبد الفتاح إسماعيل هو الذى قاده بمساندة الاتحاد السوفيتى ، وقد قام الطيارون السوفييت بقذف قصر الرياسة الذى كان يوجد به سالم ربيع رئيس الدولة .

وأعلن عبد الفتاح اسماعيل فى بيان ألقاه عقب الحادث أن اللجنة المركزية والمكتب السياسى للجهة القوميـة قد اتخذتا عـدة قرارات فى اجتماعهما أمس الأول من بينها الموافقة على إعدام سالم ربيع على وجاسم صالح وعلى سالم الأعور رميا بالرصاص . كما تقرر تجريد كل من على صالح عباس وعبد الله الباز وحسن باعوم من كافة المسئوليات الحزبية والرسمية وفصلهم نهائيا من الجبهة القومية .

وآل حكم اليمن إلى عبد الفتاح اسماعيل وأعوانه .

علـى نـاصر :

ولم تتوقف حركات الانقلابات والثورات فى اليمن الجنوبى ، بـل تلاحقت ، وسقط عبد الفتاح اسماعيل ، وأُبعد عن البلاد ، ثم قتل ، وجاء إلى الحكم على ناصر محمد الذى اتُّهم بقتل عبد الفتاح اسماعيل ، ولكنه يدافع عن نفسه وينفى هذه التهمة .

أبو بكر السقّاف :

وفى ١٣ يناير سنة ١٩٨٦ حدثت حركة انقلاب دموية باليمن الجنوبى ضد على ناصر ، ويقول هذا عن هذه الحركة ، ولا نعرف مدى الدقـة فيما يقول :

— القاصى والدانى يعرف ما حدث فى ١٣ يناير والأيام التى تلت هذا التاريخ ويمكن أن أقول بإيجاز لقد قامت المجموعة الانقسامية منذ صباح هذا اليوم بانقلابها الدموى المشئوم والذى راح ضحيته عشرات الآلاف من الضحايا الأبرياء ، ويكفى أن أقول أن هؤلاء الدمويين قتلوا ٢٠٠٠

يمنى فى يوم واحد وألقوا بهم فى مقابر جماعية وقد استمرت القــوات الشرعية تواجه قوات الانشقاق لمدة عشرة ايام • وتمت بعض المفاوضات داخل السفارة السوفيتية إلا أنهم لم يحترموا هذه المفاوضات واستمروا فى تدمير المدينة واطلاق النار ، حتى أنهم حاصروا السفارة السوفيتية نفسها بالدبابات والمدرعات فى الوقت الذى كانت تجرى داخلها المفاوضات وانتهى الأمر بعد عشرة أيام من المعارك العنيفة إلى حسم الصراع عسكريا لحساب هذه القلة التى قامت على الفور بتصفية معـارضيها جســديا فى الشوارع كما اعتقلت أكثر من سبعة عشر ألف مواطن يمنى مارست عليهم أبشع وسائل التعذيب الجسدى والمعنوى • وقد أدت هذه الممارســات القمعية لفرار أعداد كبيرة من أبناء اليمن الجنوبى إلى اليمن لشمالى للحاق بقيادتهم الشرعية حيث بلغ عدد النازحين فى الشهور الأولى حوالى ٢٠ ألفا ثم وصل مؤخرا لأكثر من ٦٠ ألفا منهم وزراء سابقون ودبيلوماسيون وقيادات عمالية ورجال الاعلام وفنانون ، هذا فضلا عن نسبة كبيرة من القوات المسلحة جنودا وقيادات •

وأصبح أبو بكر السقاف رئيسا لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية •

وحدة اليمن الشمالية والجنوبية

تتجه حكومات اليمن بعد الاستقلال إلى إعادة الوحدة بين شطرى اليمن ، فقد أعلنت حكومة الجنوب عقب خروج الانجليز أن اليمن الجنوبية جزء من اليمن ، وأن الوحدة هدف الجميع ، وأعلنت حكومة اليمن الشمالية ذلك أيضا ، والذين زاروا اليمن يقررون أن الزعماء فى الشطرين ينادون بالوحدة ، وكل الحكومات هنا وهناك تطالب بهـا ، وجميع المثقفين ينادون بها ويتناقشون ، ويناضلون لها ومن أجلها ، وأجهزة الاعلام تبشر بها ، ثم ان الشعب اليمنى الجنوبى يملأ المدن الساحلية على شطآن اليمن الشمالية تجارا وفنيين وطلبة ومزارعين وعائلات ، والشعب الشمالى يذهب إلى الجنوب ويجيىء دون أن يعترضه أحد ، بل أن الحزب الحاكم فى الجنوب ينتمى الكثير من أعضائه إلى الشمال ... وتعجب ما الذى يؤخر تلك الوحدة التى ينادى بها الجميع ؟ ؟

وسيرا فى طريق الوحدة اجتمع ممثلون لليمنيين بالقاهرة فى أواخر أكتوبر سنة ١٩٧٢ ، وبعد مباحثات شاملة صدرت صحف الصباح التالى تعلن الآتى :

أعلن قيام الوحدة بين شطرى اليمن مساء أمس فى اتفاق وقعه محسن العينى وعلى ناصر رئيسا وزراء جمهوريتى اليمن ، وحضر توقيع الاتفاق أمناء الجامعة العربيـة وجميع السفراء العرب فى القاهرة وأعضاء مؤتمر المصالحة وأعضاء الوفدين الممثلين لليمن الشمالية واليمن الجنوبيـة .

ويتضمن اتفاق الوحدة ١٥ مادة تحدد شكل الدولة الجديدة ونظام الحكم فيها ، ونص الاتفاق على تعيين ممثلين شخصيين لرئيسى الدولتين لمتابعة تنفيذ الاتفاق ولتنظيم عقد اجتماع لرئيسى الدولتين يوم ٢٥ نوفمبر التالى . وبالنسبة لشكل الدولة الجديدة نص الاتفاق على

أن تقوم وحدة بين دولتى اليمن تذوب فيها الشخصية الدولية لكل منهما فى شخص دولى واحد ، وقيام دولة يمنية واحدة ، ويكون للدولة الجديدة علم واحد ، وشعار واحد ، وعاصمة واحدة ، ورئاسة واحدة ، وسلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية واحدة ، ونظام الحكم فى الدولة الجديدة نظام جمهورى وطنى ديمقراطى • ويضمن دستور الوحدة جميع الحريات الشخصية والسياسية والعامة للجماهير كافة ، ولمختلف مؤسساتها ومنظماتها الوطنية والمهنية والنقابية ، وتضمن دولة الوحدة حماية جميع المكاسب التى حققتها ثورتا سبتمبر وأكتوبر •

ومع كل هذه الآمال وتلك الجهود فإن الوحدة لم تتم ، ربما للفارق الكبير بين الاتجاهين فى الشمال المتحفظ والجنوب التقدمى ، وربما لما يقوله الدكتور صلاح العقاد (١) ونصه :

ان استمرار هذا الانفصال إنما يعبر عن ظاهرة تعم للأسف مختلف أنحاء الوطن العربى ، وهى أن التقسيمات التى وضعها العهد الاستعمارى تظل قائمة بعد الاستقلال لأن المناضلين الذين حصلوا على هذا الاستقلال فى اطار التقسيمات الاستعمارية لا يحبون أن يتنازلوا عن شىء من السيادة التى حصلوا عليها ، وسرعان ما تتحول الوحدة إلى مبادىء نظرية فحسب •

وأخيرا تمت الوحدة بين اليمنين :

ذكرنا من قبل أن المحاولات لم تهدأ لتعود اليمن الموحدة للوحدة ، وكانت أغلب المحاولات تفشل لأن الوحدة تتعارض مع الأطماع الشخصية ، وأخيرا نجحت هذه المحاولات فى الثانى والعشرين من مايو سنة ١٩٩٠ ، وقد تم الاتفاق على أن يكون على عبد الله صالح رئيس اليمن الشمالية رئيسا لليمن الموحدة وحيدر أبو بكر العطاس رئيس اليمن الجنوبية رئيسا لوزراء اليمن الموحدة •

---

(١) جزيرة العرب فى العصر الحديث ص ١٦٠ •

وللأسف يبدو أن روح التقسيم تسيطر على الوحدة ، فكل وزراء الشمال وكل وزراء الجنوب تقريبا وزراء فى الوزارة الموحدة ، فبلغ عدد الوزراء ٣٩ وزيرا •

وندعو الله أن تختفى روح التقسيم تماما ، وأن تصبح اليمن موحدة واقعا وروحا •

وتبعا لقرار الوحدة توحدت الشعارات ، ورفع علم اليمن الجديد على مقر الأمم المتحدة فى نيويورك عقب احتفال حضره بيريز دى كويار السكرتير العام للأمم المتحدة ، الذى وصف هذا الحدث بأنه مناسبة جيدة ومريحة لتحقيق الوحدة بين بلدين عن طريق المفاوضات الودية والمثمرة •

جهود الحضارمة فى نشر الإسلام :

لقد مررنا بتاريخ حضرموت من مطلع الإسلام حتى الآن ، ويجدر بنا قبل أن نرفع القلم عن هذا التاريخ أن نتكلم كلمة عن جهود الحضارمة لخدمة الإسلام • وقد تكلمنا من قبل عن هجرات الحضارمة فى الأزمنة المختلفة إلى بقاع شتى فى العالم ، ونزيد هنا هذا الموضوع وضوحا ، فقد كان للحضارمة دور كبير فى نشر الإسلام وخدمته فى كل مكان نزلوا به ، وأكثرهم هاجر واستقر حيث هاجر ، فكان جهدهم مستمرا • والحضارمة فيهم العلماء الأفذاذ ، ومنهم التجار المهرة الذين ورثوا هذه المهارة عن أسلافهم الذين احتكروا التجارة العالمية فى يوم من الأيام •

ولنعد إلى كتاب تاريخ حضرموت السياسى ليصور جهود الحضارمة فى مجال خدمة الإسلام ونشره ، وهو يقول عن هجراتهم انهم هاجروا إلى الأندلس فى أواخر القرن الأول ، وكان على رأس المهاجرين أسرة خلدون ، بزعامة رئيسها خالد بن عثمان الذى ينتهى نسبه إلى وائل بن حجر الكندى ، وقد علا شأن هذه الأسرة وظهرت بها شخصيات كبيرة شغلت أعظم المناصب فى مختلف العهود •

وممن اشتهر من علماء الحضارمة فى الأندلس محمد بن ابراهيم

الحضرمى ونعمان بن عبد الله الحضرمى فى اشبيلية ، وعبد العزيز بن الحسن الحضرمى الذى نزل قرطبة ، وسواهم كثيرون [١] .

وهاجر كثير من الحضارمة إلى مصر ومن هؤلاء يونس بن عطية بن أوس بن عبد الله ، ويحيى بن ميمون وتوبة بن نمر ، وخير بن نعيم وغوث بن سليمان ، ويزيد بن عبد الملك ، وعبد الله بن لهيعة ، ولهيعة بن عيسى ، وقد ولى هؤلاء مناصب القضاء [٢] . ومن المهاجرين الحضارمة إلى مصر كذلك حفص بن الوليد ، وقد تولى ولاية مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٤ هـ ، وجمع له هشام الصلاة والخراج جميعا ، ولما توفى هشام سنة ١٢٥ هـ أقر الوليد بن يزيد بن عبد الملك حفصا على الصلاة والخراج [٣] .

وهاجر كثير من الحضارمة إلى اليمن فى عهود مختلفة وكانوا يرحلون للتجارة وطلب العلم ، وإن كان التجار لم يطلبوا بقاءهم فى اليمن لاضطراب السياسة وعدم استقرار الأمن فى الشمال [٤] .

وهاجر الآلاف الحضارمة إلى الحجاز ، وأمسكوا بزمام التجارة فترة طويلة من الزمن ، وتولى بعضهم مناصب كبيرة كمنصب الوزارة الذى تولاه السيد عبد الله بامصفر الذى كان وزيرا للمالية فى عهد الأشراف ، وكان وزير المالية فى عهد الشريف عبد الله بن عون حضرميا كذلك هو عبد الله باناعمة ، ثم ابنه على ، وفى عهد الشريف حسين كان وزير المالية السيد أحمد باناعمة [٥] .

وهاجر عدد كبير من الحضارمة إلى شمال إفريقية ، ومن هؤلاء

---

(١) صلاح البكرى : تاريخ حضرموت السياسى ج ٢ ص ٢١٨-٢٢٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٠ - ٢٢٤ واقرأ كذلك تاريخ التشريع والقضاء للمؤلف .
(٣) تاريخ حضرموت السياسى ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٣٥ .

بنو هلال بقيادة زعيمهم « أبو زيد الهلالى » وبصحبته أبناء عمه وهم مرعى ويحيى ويونس أبناء حسن بن سرحان (١) .

وهاجر عدد من الحضارمة إلى الهند ، وهناك اشتغلوا بالتجارة والأعمال ، والتحقوا بجيوش حاكم حيدر أباد ، وأصبح بعضهم من أقرب المقربين إلى ملك تلك البلاد ، وقد استطاع بعضهم أن يصل إلى مكانة عالية فى بلاط الملك ، وحصل آخرون على غنى واسع وثروة طائلة ، ومن هؤلاء القعيطى اليافعى ، وغالب بن محسن الكثيرى ، وقد سبق أن ذكرنا أن زحفا بدأ من حيدر أباد وحقق فى حضرموت انقلابا سياسيا .

ولعل من أعظم هجراتهم التاريخية هجرتهم إلى إندونيسيا فقد حطوا رحالهم فى هذه البلاد تجارا وعلماء ، وقد بدأت وفودهم إلى هذه الجزر فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، أى قبل نزول البرتغاليين بها ، وكانت ديانة بوذا منتشرة فى كل مكان ، واستطاع الحضارمة أن ينتشروا فى كل الجزر ، وفى كل البلدان ، وأن يعاشروا السكان معاشرة أقرب إلى الامتزاج ، وأمسكوا بزمام التجارة فى البر والبحر ، وسيطروا على المواصلات البحرية ابتداء من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر ، وكانت مراكبهم تجوب جزائر إندونيسيا وتبحر إلى الهند وإلى سواحل الجزيرة العربية ، وهى تحمل فى الذهاب وفى العودة ألوانا من البضائع والسلع تشتريها من هنا لتبيعها هناك على طول الطريق .

وكان لهم دور هائل فى نشر الإسلام بإندونيسيا وبالجزر والبلاد المحيطة بها مثل تايلاند والفيلبين وسنغافورة ، ولا يزالون يقومون بهذا الدور حتى كتابة هذه السطور ، وهم يرون فى إندونيسيا وطنا لهم ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٦ .

ويخلصون لهذا الوطن أعظم إخلاص وقد اشتركوا فى حركات التحرير بهمة ونشاط ، وأسهموا فى دفع عجلة التقدم والتطور بالبلاد [١] .

تلك هى اليمن وذلك هو دور الحياة معها ، ونرجو ليمن المستقبل كل ازدهار وخير ، ولشعب اليمن شماله وجنوبه كل رفاهية وتقدم لتحقق اليمن فى المستقبل ما حققته فى الماضى من مجد وعزة .

---

(١) اقرأ ما كتبناه عنهم فى الجـــزء السادس من موسوعة التاريخ الاسلامى ص ١٨١ — ١٨٢ .

الخليج العربي
والدول العربية الواقعة عليه

مقـــدمة :

سنحاول بادىء ذى بدء أن نتكلم كلمة عن الخليج نفســه قبل أن نتكلم عن ساحله العربى فهذا الخليج كبير الأهمية من جهات متعددة ، وترتبط به عدة قضايا ينبغى أن نعرضها وأن نحاول شرحها ، وهــذا مــا سنقوم به فيما يلى :

تسمية الخليج

ولعل أول قضية تواجه الباحث فى هذا النطاق هى تسمية الخليج ، فالمراجع القديمة تسميه الخليج الفارسى أو خليج فارس أو خليج العجم ، وتتجه المراجع العربية الحديثة وبعض المراجع غير العربية إلى تسميته خليج العرب أو الخليج العربى ، وهناك حســاسية دقيقة حول هــذه التسمية ، فالعرب المحدثون لا يقبلون إلا أن يســمى الخليج العربى ، ويتمسك الفرس بأن ينسب إلى بلادهم ، بل راح أحد علمــاء الفرس المحدثين يجمع من مختلف المراجع أى اقتباس ورد فيه ذكر هذا الخليج مرتبطا بكلمة الفرس أو فارس أو العجم ، وهو يريد بذلك تأكيــد هــذه التسمية (١) ، ويقول العرب إنهم ظلوا يسمونه الخليج الفارسى أو خليج العجم ، إلى أن حاولت إيران استغلال الاسم سياسيا ، فاتجه العــرب إلى تسميته الخليج العربى وضــعا للأمور فى نصابها (٢) وقــد لاحظ العثمانيون أن إيران تستغل التسمية استغلالا سياسيا فأسماه العثمانيون « خليج البصرة » •

ونحن دعاة تجمع لا دعاة فرقة ، وتربطنا بإيران روابط عميقة دينية وثقافية وتاريخية ، ومن أجل هذا سنجعل خطتنا فى دراسة هذه القضية

---

(١) عليرضا ميرزا محمد : الخليج الفارسى عبر القرون والاعصار •
(٢) مصطفى كامل الدباغ : قطر ماضيها وحاضرها ص ٢٦ ــ ٢٧ بالهامش •

أن نعرض الآراء والجذور التاريخيــة لها مكتفين بــذلك حرصا عــلى هذه الروابط التى ينبغى الحفاظ عليها .

وقبل أن نسير فى تحقيق التســمية نتساءل : هــل التســمية تمنح حقوقا ؟ وبالتالى يحرص العرب والفرس على تسمية ٍ ينالون عن طريقها حقوقا فى هذا الخليج ؟

إن الاجابة الدقيقة ترى أن التسمية لا تجلب حقوقا ، وتستدل على ذلك بالبحار التى تسمى بأسماء بلاد ولكن هذه البلاد ليس لها فى تلك البحار غير المياه الاقليمية المعترف بها دوليا كالمحيط الهندى الشاسع الذى لا تملك الهند فيه إلا مياها إقليمية محدودة ، ومثل هذا يقال عن خليج عمان وخليج عدن وغيرها من البحار والخلجان .

وهناك بحار كثيرة تسمى بأسماء ذاتية ولا تنسب لأى بلد من البلاد كالبحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الأسود ومع هذا فللبلاد المتصلة بها نفس المياه الاقليمية ، مما يدل على أن التسمية ليست ذات بال .

ولكن العرب يرون أن هناك أهدافا أخطر من ذلك فيما يتعلق بهذا الخليج ، فإن الكاتب الفرنسى « جــان جاك بيربى » ألف كتابا باســم الخليج الفارسى ، وترجمه كاتبان عربيان وجعلا تسمية الكتاب « الخليج العربى » فثارت البعثة الإيرانية الدائمة بالأمم المتحدة لذلك ، ونبهت دار النشر الفرنسية التى أخرجت الأصل لتحتج على ذلك ، وتطلب إعادة الكتاب باللغة العربية ، على أن يكون عنوانه « الخليج الفارسى » ويرى العرب أن ذلك ما كان يحصل لولا أن هناك أطماعا ترتبط بهذه التسمية .

ودليل آخر يثير شكوك العرب هو هذا الجهد الكبير الذى أشرنــا إليه آنفا ، إذ اتجه عالم كبير ليقرأ ويجمع من مختلف المراجع بشــتى اللغات كل الاقتباسات التى يرد فيها ذكر هذا الخليج باسم « الخليج الفارسى » وقد جمع ذلك فى مجلدين نشرهمــا بعدة لغات مــع أن المفكر

العربى يرى ذلك أمرا يسهل الرد عليه ، فإن التسمية كانت كذلك فى المراجع القديمة والوسيطة بدون شك ، فالإلحاح على وجودها أمر يحس العرب بأنه يخفى شيئا .

ما الأهداف التى يرى العرب أن الفرس يتطلعون لها من وراء هذه التسمية ؟ .

يـرى بعض المفكرين (١) أن إيران ترمى مـن وراء ذلك إلى جعل الخليج بحيرة فارسية ، وقد احتلت فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٧١ ثلاث جزر فى مدخل هذا الخليج ، وأعلنت حينا أن « البحرين » جزء منها ، وليس هذا وذاك إلا لتحقيق هذا الهدف .

وعلى كل حال فنرجو أن يكون هذا الاتجاه قد هدأ بعد أن أصبحت عروبة البحرين موضع اتفاق ، والعرب والفرس مسلمون قبل كل شىء وتربطهم روابط الدين والجوار والود وهـذا يخفف من التعصب للتسمية ويجعل الود والقربى تحل محل التعصب والأطماع .

وهذا الأمل لا يعفينا من دراسة التسمية دراسة تاريخية محـاولين التعرف على منشأ هذه التسمية ومدى الدقة فيها ، ويذكر الباحثون أن هذا الخليج كان يطلق عليه فى العصور القديمة اسم « البحر الأدنى » أو « البحر المر » وعندما زحف الإسكندر المقدونى إلى الشرق اكتشف أسطوله بقيادة نيارك « Nearchus » شواطىء آسيا من نهر السند إلى هذا الخليج (٢) ، وقد تعرف على الشاطىء الشرقى (الفارسى) قبل أن يتعرف على الشاطىء الغربى (العربى) فأطلق على هـذا الخليج « الخليج الفارسى » لاتصال الشاطىء الأول ببلاد فارس ، وأصبح هـذا هو الاسم المعروف لهذا الخليج واستعمله المؤلفون والكتاب بعد ذلك .

---

(١) دكتور سيد نوفل : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى ج ١ ص ١٢١ .

(٢) حقائق الاخبار عن دول البحار ج ١ ص ٧ .

ومما ساعد على ثبات هذه التسمية أن البحر الأحمر كان يسمى البحر العربى أو الخليج العربى فى العصور اليونانية والرومانية ، فلم يكن من الممكن أن توضع كلمة « العربى » بدل « الفارسى » فى هذا الخليج حتى لا يحدث اختلاط لو أطلقت كلمة العربى على الاثنين ، ولكن هـذا السبب زال إذ أصبح هذا البحر معروفا بالبحر الأحمر [1] .

ومر الزمن ، وجاءت النهضة العربية ، وأخذ العرب يحيون أمجادهم ويستعيدون حقوقهم ، وكان من ذلك أن أطلقوا على هذا الخليج اسـم « الخليج العربى » لأسباب مهمة أوردوها ، ونذكرها فيما يلى :

١ — إن الساحل العربى يندفع فى فوهة الخليج عند رأس مسندم حتى يصبح كأنه مسيطر عليه ، ثم يتلوى هذا الساحل فى قلب الخليج ليلقى بقطر فى داخله أشبه بمنارة عربية وسط الأمواج ، وبالإضافة إلى هذا توجد بالخليج جزر البحرين وهى حوالى ثلاثين جزيرة وهى جزر عربية اللغة والدم .

٢ — إن طول الســاحل العربى للخليج يمثل ضعف طـول الساحل الفارسى تقريبا مما يعمق صلة الخليج بالعرب .

٣ — سكن العرب شاطىء الخليج العربى منذ الأزمنة القديمـة ، وارتبطت بـه حياتهم بخلاف الفرس الذين تعزلهم عن الخليج سلاسل جبلية .

٤ — إن الساحل الفارسى للخليج آهل بالسكان العرب ولذلك يسميه الفرس « منطقة عربستان » .

٥ — ركب العرب الخليج متاجرين منـذ عهد طويل ، فكـانت لهم السيطرة عليه ، إذ كانوا رواد الملاحة فى العالم ، ولم يكن للفرس شىء يذكر فى هذا المجال .

---

(١) انظر التعريبات الشافية لرفاعة الطهطاوى ص ٢٦

٦ — التزم العرب بالدفاع عن الخليج يـوم اقتحمه الاسـتعمار البرتغالى ، وبفضلهم تحرر الخليج من هؤلاء الغزاة .

وهذا الخلاف حول تسمية هذا الخليج وما يتبع هذا الخلاف مـن حساسية جعل الباحثين الأجانب يدلون برأيهم حول هذه التسمية ، وهل من الأجدر أن يسمى الخليج الفارسى تبعا لاتجاه قادة الإسكندر المقدونى ، ذلك الاتجاه الذى جاء عفوا ، أو أن يسمى الخليج العربى تبعا لطبيعة وضع هذا الخليج الذى شرحناه من قبل .

تعال بنا نقتبس بعض ما ذكره هؤلاء الباحثون :

يقرر Roderic Owen [1] أنه عندما زار الخليج أحس بأنه من الظلم أن يسمى « الخليج الفارسى » لأن واقع الأمر يجعل الخليج منطقة عربية ، وأن هذا المعنى تبرزه الرمال والرجال والمياه واللغة القومية التى تتضح فى الشاطىء الغربى وفى داخل الخليج نفسه ، وإن تسميته بالخليج الفارسى تغضب العرب أشد الغضب ، كما ينكرها الواقع والإنصاف .

ويقول الكاتب الفرنسى جان جاك بيربى : إن هذا الخليج ارتبط بالعرب منذ أمد بعيد ، منذ كانت رحلاتهم البحرية تغمر الطريق بين هذا الخليج وبين بحر الصين ، وكان البحارة الصينيون يختلطون بالبحـارة العرب ويتعاونون معهم ، إذ تربطهم جميعا رابطة الأخطار المشتركة من عواصف ورياح وقراصنة وغزاة ، كما أن استقرار العرب فى الساحل الملاصق لبلاد فارس أكد للخليج صفته العربية من جانبيه ، ثم إن الفتح العربى الإسلامى لبلاد فارس جعل المنطقة عربية تماما ، وقد ظلت كذلك عدة قرون ، وحينما بدأت القومية الإيرانية تستأنف استقلالها وكيانها كانت فى الغالب بعيدة عن هـذا البحر مما أطال عروبـة جانبى هـذا الخليج [2] .

---

(١) The Golden Bubble, Arabian Gull Documentary p.p. 3-16.

(٢) جان جاك بيربى : الخليج الفارسى فى عدة صفحات .

أهمية الخليج ومنطقته

فى الحديث عن أهمية هـذه المنطقة يجدر بنا أن نقـرر أن بعض المؤرخين يرون أن الخليج العربى هو مهد الحضارة ، بل مهـد الجنس البشرى (١) ، وكان أجدادنا فى العصور القديمة قد أدركوا أهمية هذه المنطقة فأقاموا بها حضارة عريقة ، فيرى بعض المؤرخين أن سكان هذه المنطقة هم أول من بنوا السفن ومارسوا الملاحة ، وكانوا صلة وثيقة بين الشرق والغرب ، بل يرى بعضهم أن الفينيقيين كانوا يعيشون على ساحل هذا الخليج ا وكانت أسفارهم تمتد منه إلى الهند والشام ومصر ، ثم نزحوا إلى سواحل سوريا منذ حوالى خمسة آلاف سنة واستوطنوا شاطىء البحر المتوسط ، ويستدل على ذلك بوجود بعض الآثار الفينيقية فى هذه المناطق (٢) .

ونقطة أخرى فكرية ترتبط بهذه المنطقة ، تلك هى أن مواجهة الدول العربية بهذه المنطقة للفرس بعد الإسلام ، وخضوعها أحيانا لسلطانهم ، جعلها تتأثر بالفكر الفارسى تأثرا كبيرا ، فظهرت بها حركات كثيرة مخالفة للإسلام تبعا لهذا التأثر ، فمن الواضح أن دخول الشام ومصر والشمال الإفريقى فى الإسلام كـان اندماجا وتلقيا للفكر الإسـلامى بالقبـول والإيثار ، ولكن الحال كان غير ذلك فيما يتعلق ببلاد فارس ، فإن العناصر التى فقدت سلطانها فى فارس أخذت تكيد للإسلام ، واتخذت الفكـر أحد الوسائل لتنفيذ هذا الكيد ، ومن هنا كانت بلاد فارس والفكر الفارسى مصدر كثير من الحركات الهدامة التى عانى منها الإسلام والمسلمون ،

---

(١) مصطفى مراد الدباغ : قطر ماضيها وحاضرها ص ٢١ .
(٢) الريحانى : ملوك العرب ص ٤٨ .

كحركة الردة والتنبؤ والزنادقة والزنج والقرامطة وغيرها ، وانعكست أقسى هذه الحركات على الساحل العربى كحركة الزنج والقرامطة (١) •

ومن أهمية الخليج أنه اندفاعة ضخمة من المحيط الهندى ربطت بهذا المحيط عدة دول كانت بدون الخليج ستكون منقطعة عن العالم كبلاد فارس ودولة الإمارات والكويت والعراق ، ثم إن هناك بلادا لا تتصل اتصالا مباشرا بالخليج ولكنها تتصل به اتصالا غير مباشر كأفغانستان والهند وروسيا •

ويعتبر الخليج منفذا لمناطق واسعة بالجزيرة العربيـــة كانت لولاه ستكون معزولة •

وللخليج أهمية واسعة فى مجال السياسة وقد عبر Raymondo Shea عن هذه الأهمية السياسية بقوله أنه يتوســـط جميع الخطوط البحريـــة والجوية الرئيسية ، ويحـــوى الموانى والمراكز البحرية ومحطـــات الوقود اللازمة للأساطيل والبواخر والطائرات ، والدولة التى تستولى عـــلى الخليج الفارسى تســـتطيع أن تحكم جزيرة العـــرب والعراق وإيـــران وإفريقية (٢) وقد اقتبس Raymondo هذا التفكير من اتجاه علمـــاء الجغرافيا السياسية الذين كانوا يضعون الخليج فى أهم مواقع الطـــوق الساحلى المحيط بقلب الأرض (٣) وقد تطلعت الـــدول الاستعمارية جميعها لهذا الخليج وحاولت السيطرة عليه لهذا الهدف ، وبذلت أقصى الجهد لمقاومة حركات التحرر حوله ليدوم لها السلطان والسيادة فى المنطقة •

وللخليج أهمية قصوى فى مجال الاقتصاد وقد عبر عن ذلك الباحث

---

(١) عندما نتحدث عن انحرافات وفدت من بلاد فارس الى منطقة الخليج فاننا نقصد بلاد فارس فى مطلع الاسلام ، ونرجو أن يكون ذلك قد توقف فى العهد الحاضر فبلاد فارس تمثل الآن دعامة قوية من دعامات الاسلام والمسلمين •

(٢) ملوك الرمال فى عمان •

(٣) انظر الخليج العربى للدكتور سيد نوفل ج ٢ ص ٢٧ •

الفرنسى جان جاك بيربى فقال [1] : هذا الشرق العجيب الذى كثر عنه الحديث على ألسنة الخبراء إنما ينحصر أغلبه فى الخليج العربى بصورة خاصة ، لأن الخليج هو قلب الشرق الأوسط جغرافيا ، وبابه السحرى وصندوقه الذهبى الرائع الذى يسيل له اللعاب •

ومن الأهمية الاقتصادية للخليج أنه طريق التجـارة بين الغـرب والشرق لكل وسائل النقل ، برية كانت أو بحرية أو جوية ، وهو مصدر مهم لاستخراج اللآلىء ، وقد انبثق البترول تحته وحوله فأصبح باطن الخليج مصدر ثراء واسع لأهله ، ومحـرك الطاقات والآلات بالـدول الصناعية الكبرى •

وللخليج أهمية عظيمة فى الناحية العسكرية ، وكان ذلك واضـحا منذ الزمن البعيد ، فيروى أن الإسكندر بعد أن فتح مصر قال لقواده : إنى لا أستطيع تأمين مقامى فى مصر إذا كانت للفرس السـيطرة عـلى هذه المنطقة البحرية ، وبدأ رحلته إلى فارس والهند [2] ومن أجل هـذا كانت الدول تتطلع إليه وتحاول ربطه بالأحلاف ، ولم يضعف هذا الاتجاه إلا عندما ظهرت الصواريخ عابرة القارات والأقمار الصناعية وأمثالها مما قرب البعيد •

وقد تحدث ابن الوردى عن هذا الخليج فأضفى عليه أطيب الصفات وأكرمها ، قال [3] : هو بحر مبارك ، كثير الخير ، وطىء الظهر ، قليل الهيجان ، قال عنه أبو عبيد الله الصينى : خص الله بحر فارس بالخيرات الكثيرة والبركات الغزيرة ، والفوائد والعجائب والظرف والغرائب ، فيه مغاص الدر يخرج منه الحب الكبير ، فربما وجدت فيه الدرة اليتيمة التى

---

(١) الخليج الفارسى ص ٢٠٤ •

(٢) Arrian's History of Alexander's Expedition vol 1 p. 30.
نقلا عن الخليج العربى للدكتور نوفل جـ ١ ص ٤١ •

(٣) ابن الوردى : جزيرة العجائب ص ٦٢ •

لا تقدر قيمتها ، وفى جزائره معادن تحوى أنواع اليواقيت والأحجار الملونة النفيسة ، ومعادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والعقيق وأنواع الطيب .

ولم يتحدث أبو عبيد الله الصينى عن البترول لأنه لم يكن ظهر فى عصره ، ولم يخطر ببال الصينى أن النفط سيندفع من تحت الخليج فتتهاوى أمام قيمته مكانة هذه المعادن ، بل سيجذب البترول أكثر الأيدى التى كانت تعمل فى صيد اللؤلؤ ، فإن البترول أنفع وأثمن من اللؤلؤ الفريد .

ساحل الخليج : البحرين

كانت المناطق التى تقع على امتداد الساحل الغربى للخليج العربى تسمى قديما البحرين أو الإحساء أو هجر ، يقول ياقوت : البحرين اسم جامع للبلاد على ساحل الخليج بين البصرة وعمان ، وتسمى هذه المنطقة أيضا هجر ، وقيل إن هجر قصبة البحرين ، فيها عيون ومياه وبلاد واسعة ، وربما عد بعضهم اليمامة من أعمالها ، والصحيح أن اليمامة عمل برأسه فى وسط الطريق بين مكة والبحرين (١) .

ويقول سديو (٢) وهو يعدد مناطق بلاد العرب : إن الأحساء — وتسمى البحرين أيضا لأهمية الجزر التى تجاورها — تمتد على طول الخليج الفارسى من حدود عمان إلى الفرات .

وعلى هذا فالبحرين أو الأحساء فى التاريخ تشمل قطر فالأحساء (الحاليين) فالكويت حتى البصرة ثم الجزر التى تعرف الآن بالبحرين

---

(١) معجم البلدان حـ ٢ ص ٧٢ .

(٢) تاريخ العرب العام ص ٢٤ .

ويذكر ياقوت عن سبب تسمية البحرين كلاما طويلا [١] ولكن الذى نرجحه أن سبب التسمية هو اتصال هذه المنطقة ببحرين ينسب أحدهما إلى عمان والآخر إلى فارس ، وعلى مر الزمن أخذت التسمية تنحسر حتى أصبحت كلمة « البحرين » تشمل فقط الجزر المجاورة لقطر .

ومعظم أراضى البحرين صحراوية تنبت الأعشاب والنباتات البرية ؛ ولكن المياه الباطنية تتوفر فى معظم أنحائها ، وهذه المياه قريبة من سطح الأرض ، مما يجعل استغلالها للزراعة ممكنا وميسرا ، هذا بالإضافة إلى المياه التى تتجمع فى بطون الأودية ، وتكفى هذه المياه لزراعة بعض المحاصيل كالحنطة ، والشعير والحنا ، وبعض الفاكهة كالموز والرمان والتين والتمر الذى اشتهرت به منطقة هجر ، حتى ضرب المثل بهذه المنطقة فى وفرة تمرها ورخص سعره ، فقيل كمستبضع التمر إلى هجر [٢] ، وذلك كناية عن الدهشة من أن يرحل إنسان بالتمر إلى منطقة تكثر فيها أنواع التمور .

وعرفت نواحى البحرين بأنواع متعددة من المنسوجات وكان كل اقليم من أقاليم البحرين ينتج نوعا معينا ينسب لهذا الاقليم ، كالثوب الهجرى نسبة إلى هجر ؛ والثوب القطرى نسبة إلى قطر ، ثم أصبحت التسمية علما على الثوب فى العصور المتأخرة ، فلم تعد تدل على مكان الصنع ، بل أصبحت تقوم على أساس الصفات المميزة للثوب [٣] . ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض كبار الصحابة قد لبسوا أردية من صنع البحرين [٤] .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٣ .

(٢) الميدانى : مجمع الامثال جـ ٢ ص ٩٨ ، والزمخشرى : المستقصى من أمثال العرب جـ ٢ ص ٢٣٣ .

(٣) عبد الرحمن النجم ؛ البحرين فى صدر الاسلام ص ٨١–٨٢ .

(٤) ابن حنبل : المسند جـ ٥ ص ٤٣ ، والنهاية فى غريب الحديث لابن الاثير جـ ٣ ص ٢٦٢ .

ومنطقة البحرين كانت آهلـة بالسـكان الذين ينتمى أكثرهم إلى عبد القيس وبكر بن وائل وتميم [١] ، وقد وفـدت عبـد القيس إلى البحرين من تهامة ، وتغلبت على من كان بها من إياد والأزد ، وانتشروا فى أكثر جهات البحرين وبخاصة المناطق الساحلية منهـا ، ونزلوا أهم مدنها ، وقد احتفظت عبد القيس بهذه الأمكنة حتى ظهور الإسلام [٢] ، أما بكر بن وائل وتميم فقد عاشوا غالبا فى المناطق الداخلية ، وبالتالى لم يكن لهم دور كبير فى التجارة وكانتا تعيشان فى حياة بدوية .

وكانت هناك جماعات من « الزط » تعيش فى ساحل البحرين بمنطقة « الحظ » والزط — كما يقول ابن خلدون [٣] — قوم من أخلاط الناس يرجع أصلهم إلى الهنـد (ويعرفون بالنُّوَر) ، وكـان همهم الشغب والخطف .

وبعد هذا التعريف بالخليج وساحله نسير مع منطقة الخليج مسيرة تاريخية من مطلع الإسلام حتى الآن :

الإسلام فى منطقة الخليج

الإسلام حدث دينى وسياسى زحف إلى منطقة البحرين ضمن المناطق التى زحف إليها ، وينبغى أن نتعرف على أحوال هذه المنطقة قبل الإسلام دينيا وسياسيا لنرى كيف استقبل الإسلام فيها :

فمن الناحية الدينية كانت منطقة البحرين واقعة تحت تأثير عوامل متعددة تركت بها آثارا دينية مختلفة ، فأغلب السـكان وافدون من الجزيرة العربية ومن هنا كانت لهم صلات بالوثنية العربية ، ووقوع هذه المناطق

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٤ .
(٢) عبد الرحمن النجم : المرجع السابق ص ٤١ .
(٣) العبر ج ٣ ص ٢٥٧ وانظر الجزء الثالث من هـذه الموسوعة ص ١٧٧ .

فى مقابلة الفرس وتحت سلطانهم فى بعض الأحيان أتاح الفرصة للمجوسية لتجد طريقها إلى البحرين ، وصلة هذه المناطق بالعراق عن طريق البصرة فتح الباب للمسيحية التى كان يدين بها المناذرة ، كما أن المسيحية جاءت أيضا عن طريق البحر وعن طريق الصلات التجارية .

وعندما نتذكر الأهمية الاقتصادية للخليج الفارسى التى تحدثنا عنها من قبل يقفز إلى الذهن ضرورة وجود العنصر اليهودى بهـذه المنطقة ، لأن اليهود يتسللون إلى حيث النشاط المـالى والاقتصـادى ، ويتحدث التاريخ عن وجود جالية يهودية بالبحرين أكثر أفرادها وافدون وقلة منهم من العرب تهودوا ، وقد أشار طرفه بن العبد الذى نشأ فى البحرين إلى يهود هذه المنطقة بقوله فى معلقته :

عدولية أو من سفين ابن يامن   يجور بها الملاح طورا ويهتدى

والعدولية سفن تنسب إلى ميناء عدول بالصومال ، وابن يامن يهودى من أهل هجر كان يمتلك عددا من السفن التى تعمل فى الخليج العربى [١] .

ذلك هو الوضع الدينى بشكل عام لهذه المنطقة عند مطلع الإسلام ، أما الوضع السياسى فخلاصته أن البحرين كانت تابعة للفرس عند ظهور الإسلام [٢] وكان الفرس يحكمون البحرين بحاكم من العرب هو المنذر ابن ساوى وبجانبه يوجـد المرزبان « سيبخت » الذى كان يقود قـوة عسكرية فارسية ويتخذ من هجر مركزا له ، وهذا لا يتدخل فى الأمور الداخلية إلا إذا دعت الضرورة [٣] وعلى هـذا فحكم الفرس لمنـاطق الخليج العربى كان حكما اسميا لا غير .

وعندما استقر الإسلام فى المدينة بعد صلح الحديبية أو بعد فتح

(١) التبريزى : شرح القصائد العشر ص ٣٠ — ٣١ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٧٨ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٧٤ .

مكة حسب الروايات الكثيرة أرسل الرسول العلاء بن عبد الله الحضرمى [١] إلى البحرين ليدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية ، وكتب معه كتابين إلى المنذر بن ساوى التميمى وإلى المرزبان سيبخت يدعوهما إلى الإسلام ، ويبدو أن المنذر أسرع بقبول الدعوة حتى يتخلص من سلطان الفـــرس ، وقد كافأه الرسول بتثبيته فى مكانه ، فظل واليا على البحرين حتى وفـــاته سنة ١١ هـ [٢] ، وفى رواية ياقوت أن سيبخت أسلم أيضا ، وأسلم مع المنذر • ومع سيبخت جميع العرب هناك ، وبعض العجم ، أما الذين بقوا على أديانهم من المجوس واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العـــلاء على دفع الجزية ، وكتبوا معه كتابين بذلك [٣] •

ويقول العلاء بن الحضرمى : إنى كنت آتى الحائط (أى الحديقة أو المزرعة) بين الإخوة قد أسلم بعضهم ، وبقى بعضهم على دينه ، فآخذ من المسلم العشر ، ومن غيره الخراج [٤] •

وبجوار المنذر كان هناك عمال للرسول بالبحرين ، وكان هؤلاء يعملون على نشر الدعوة ، وينظمون الأمور المـــالية دون أن يكون لهم ســـلطان سياسى ، وأول هؤلاء العلاء بن الحضرمى ، ويقال إن الرسول عزله وولى أبان بن سعيد بن العاص ، ويبدو أن أبان لم يظهر كفاءة مثل العلاء ، فلم يستطيع أن ينال رضا القوم ، ولذلك طلب هؤلاء من أبى بكر أن يرد العلاء إلى منصبه فاستجاب لهم ، وبقى العلاء واليا عليهم حتى توفى ســـنة ٢٠ هـ •

وبعد العلاء الحضرمى توالى الولاة على البحرين ، ونذكر فيما يلى أهم هؤلاء :

---

(١) انظر سيرة ابن هشام وزاد المعاد لابن القيم وعيون الاثر لابن سيد الناس والطبقات لابن سعد •

(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٧٤ •

(٤) أبو عبيد : الاموال ص ٣٢ — ٣٣ •

(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٧٤ •

قدامة بن مظعون — أبو هريرة — عثمان بن أبى العاص — مروان بن الحكم — عبيد الله بن العباس — أسيد بن الأخنس بن شريق — زياد بن الربيع الحارثى — الأشعث بن عبد الله بن الجارود — يحيى بن زياد بن الحارث — عبد الله بن شريق — المهاجر بن عبد الله الكلابى (١) .

ومما يذكر هنا أن عثمان بن أبى العاص والى البحرين فى عهد عمر كان من أشهر القواد الذين عبروا إلى بلاد الفرس ، وأسهموا فى فتحها ، وقد ترك أخاه المغيرة بن أبى العاص خليفة له على البحرين إبان جهاده فى فتح فارس .

ومما يذكر أيضا ما رواه محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال : استعملنى عمر بن الخطاب على البحرين ، فاجتمعت لى اثنا عشر ألفا فلما قدمت على عمر قال لى : يا عدو الله والمسلمين ، أخذت مال الله . فقلت لست بعدو الله ولا المسلمين ، ولكنى عدو من عاداهما ، قال : فمن أين اجتمعت لك هذه الأموال ؟ قلت : خيل لى تناتجت ، وسهام اجتمعت قال أبو هريرة : فقاسمنى عمر هذا المال (٢) .

الردة والصراع ضد المرتدين

من الواضح أن بعض سكان هذه المنطقة دخلوا الإسلام دون أن يتعمقوا فى التعرف عليه ، وكان أهم دواعى قبولهم الإسلام رغبتهم فى التخلص من حكم الفرس كما ذكرنا من قبل ، فلما تحقق لهم الاستقلال عن الفرس طمعوا فى أن يكون استقلالهم تاما ، أى أن يستقلوا عن السلطة المركزية بالمدينة المنورة ، وشجعهم على هذا الاتجاه ظهور مسيلمة الكذاب متنبئا فى بنى حنيفة باليمامة غير بعيد عنهم ، وقد بدأ مسيلمة

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٥ .
(٢) ياقوت : المرجع السابق ص ٧٦ .

حركته قبيل وفاة الرسول [١] ، وعظم أمره بعد وفاة الرسول ، ثم ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه عزل العلاء بن الحضرمى وجعل مكانه أبان بن سعيد بن العاص ، وفى فترة مرض الرسول عليه السلام توفى المنذر بن ساوى ، فزال بذلك صمام الأمان ، وارتد مَنْ بالبحرين من ولد قيس بن ثعلبة ، كما ارتد من بالبحرين من ربيعة خلا الجارود ابن بشر العبدى ومن تابعه من قومه • وكان قائد المرتدين يسمى « الحطم » من بنى قيس بن ثعلبة ، وانتهز الفرس حركة الردة فأرسلوا جيشا فارسيا بقيادة رجل اسمه « المكعبَر » لقتال بنى تميم فى محاولة لإعادة احتلال المناطق العربية وضرب الاتجاه الإسلامى ، وكانت حجة الفرس فى هذا العدوان أن بنى تميم تعرضوا لعير كسرى بالزارة ، وانضم إلى المكعبر بعض المجوس الذين كانوا قد تجمعوا بالقطيف وامتنعوا عن أداء الجزية ، وماجت هذه المنطقة بالتمرد والفوضى [٢] •

وخطا المرتدون خطوة زادتهم قوة هى أن الحطم استغوى بعض أهل الخط والقطيف ، وبخاصة من بها من الزط والسيابجة ، ثم أرسل إلى الغَرور بن سويد بن المنذر (وهو ابن أخى النعمان بن المنذر ملك العرب) أن يأتيه بمن معه ، وقال له ان ظفرنا ملكتك البحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة فاستجاب له الغرور •

وتجمعت جيوش المرتدين والمتمردين وحاصرت المسلمين فى جواثا • وطال حصار المسلمين فى هذه المدينة ، واستبسل المسلمون فى الدفاع عن أنفسهم ، ولكن أعداءهم كانوا أكثر منهم عددا وعدة فأرسل المسلمون لأبى بكر يستنجدونه ، ويورد ياقوت مقطوعة من الشعر يهتف بها أحد المسلمين المحاصَرين بأبى بكر والمسلمين أن يمدوا لهم يد العون [٣] •

---

(١) اقرأ الجزء الاول من هذه الموسوعة ص ٢٧٨ ، وما ذكرناه من قبل فى هذا الجزء عن مسيلمة •
(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٥ — ٧٦ •
(٣) المرجع السابق •

واستجابة لذلك أرسل أبو بكر جيشا بقيادة العلاء بن الحضرمى للبحرين ، كما طلب من خالد بن الوليد أن يذهب لمساعدة العلاء عقب الانتهاء من مسيلمة ، وكان بجيش العلاء بعض المسلمين من أهل البحرين وبخاصة الجارود وأتباعه ، والتقى الجيش فى عملية كر وفر نهارا مع الهدوء ليلا [١] . واتيحت للعلاء فرصة فاهتبلها ، ذلك أنه فى ليلة من ليالى الصراع كان الجيشان فى راحة بعد نهار حافل بالطعن والدم ، فسمع العلاء ضوضاء وحركة فى معسكر الحطم فأوفد إلى المعسكر من يأتيه بخبر الضوضاء ، وعاد رسول العلاء ليقول له إن القوم قد شربوا وثملوا فأطبق عليهم العلاء ورجاله ، فهزموهم هزيمة كبيرة وقتل الحطم فى هذه المعركة .

وحضر خالد بن الوليد بجيشه وخططه فاكتسحهم وأدرك المرتدون ألا قبل لهم بالصمود أمامه ففروا إلى الجزر الداخلية (البحرين الآن) وأحرقوا السفن حتى لا تستطيع جيوش المسلمون أن تلحق بهم ، وهنا تحول خالد بن الوليد إلى العراق بناء على طلب الخليفة وترك الأمر للعلاء الذى أصر على ملاحقة الهاربين ، وتقول الرواية إن العلاء وقف بجيشه أمام الماء الذى يحول بينه وبين المرتدين ، وصلى العلاء فى تضرع ، ودعا الله أن يمكنه منهم ، فانحسر الماء فى حركة جزر كثيرا مما تجعل المسافة بين الشاطىء والجزر يمكن خوضها ، وحينئذ زحف العلاء بجيشه ، وداهم المرتدين [٢] وقد ظنوا أنهم آمنون ، فأعلن بعضهم عودته للإسلام وأسفه عما بدر منه ، وقضى العلاء على من بقى على

---

(١) الطبرى : جـ ٢ ص ٥٢١ وما بعدها بتصرف .

(٢) يورد الطبرى موقفا آخر من الكرامات يتصل بهذا الصراع ، فإن جيش العلاء تعرض لعطش قاتل ، فاتجه العلاء الى الله واستجاب الله اليه ، اذ سرعان ما رأوا ماء يلمع فهبوا اليه وشربوا واستراحوا ، بل رأته القوافل فاتجهت اليه من كل صوب . قال أبو هريرة لقد عدت بعد حين لأتأكد من حال هذا الغدير ، وهل هو غدير فعلا أو أنه منحة من الله سخرها لحاجة المسلمين ، فلم أجد غديرا فى المكان ، ولم أجد الا أثرا لغدير وركب ، كان وراح (انظر تحفة المستفيد جـ ١ ص ٩٧) .

كفره ، ثم زحف إلى التجمعات التى التفت حول المكعبر ، ولم يقف العلاء عند هذا الحد ، بل قرر أن يعبر الخليج إلى بلاد فارس ليصارع المركز الحقيقى الذى يثير القلاقل فى المناطق المسلمة ، ويريد أن يقضى على الإسلام ، وعبر العلاء الخليج ، فكان أول من وجه الضربات إلى فارس ، ولكن عمر بن الخطاب استدعاه وعينه واليا على البصرة ، وولى على البحرين عثمان بن أبى العاص الذى ذكرنا من قبل أنه ترك المغيرة خليفة له على البحرين وعبر إلى بلاد الفرس ليرد عدوانهم ، فكان ممن أسهموا فى فتحها ، وبعد عثمان أسندت ولاية البحرين إلى الربيع بن زياد الحارثى .

ولم تغفل عين الخلفاء الراشدين عن هذه المنطقة بسبب ظهور هذه الحركات بها ، وظلت موضع عنايتهم طيلة عهدهم .

البحرين فى العهد الأموى

كانت منطقة البحرين فى العهد الأموى من المناطق التى اهتم بها خلفاء بنى أمية اهتماما كبيرا ، بسبب صلتها ببلاد فارس التى كانت — كما قلنا من قبل — مصدرا لكثير من الانحرافات الفكريـة ، فقد خيف دائما على هذه المنطقة أن تجرفها تيـارات التمرد ، ولهذا ، وللأهميـة الاستراتيجية لهذه المنطقة لم يمتد لها الأهمال الذى امتد لكثير من بقاع الجزيرة العربية فى العهد الأموى ، وكانت اليمامة فى هذا العصر تضم أحيانا إلى البحرين ، وأحيانا تبقى ولاية مستقلة (١) .

فلما جاء عهد مروان بن الحكم وابنه عبد الملك واجه الخليفة الأموى مصاعب جمة لإعادة السلطان الأموى الذى كان قد هزته حركة عبد الله ابن الزبير ، ولهذا انشغل الخليفة عن منطقة الخليج فضعفت المراقبة على هذه المنطقة ، وهنا انتهز الخوارج هذه الفرصة فهبوا فى حركات متتالية قاسية سنتحدث عنها فيما يلى :

الخوارج فى منطقة الخليج

كانت منطقة الخليج منطقة ملائمة لنشاط الخوارج ، فهى تمـوج بالفتن والاضطرابات بسبب العوامل المختلفة التى أشرنا لها من قبل ، ولهذا جذبت هذه المنطقة فرقة مهمـة من فرق الخـوارج هى فرقـة النجدات (٢) وسنتحدث عنها فيما يلى :

فرقة النجدات :

بعد أن افترق الخوارج عن عبد الله بن الزبير انقسموا قسـمين : الأزارقة ، والنجدات ، وقد توجه الأزارقة إلى البصرة ، أما النجدات

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٣ .
(٢) انظر حديثنا عن فرق الخوارج فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة ص ٢٢٩ وما بعدها .

فقد توجهوا إلى اليمامة ، ويقول ابن الأثير « انطلق أبو طالوت من بنى بكر وأبو فديك عبد الله بن ثور بن قيس بن ثعلبة ، وعطية بن الأسـود اليشكرى إلى اليمامة بقيادة أبى طالوت ثم اجتمعوا بعد ذلك على نجـدة ابن عامر الحنفى وتركوا أبا طالوت [1] » وسنذكر بعد قليل سبب هـذا الانتقال .

وأطلق عليهم « النجدات » وليس « النجدية » للفرق بينهم وبين من انتسب إلى أتباع نجدة بن عويمر وهو عامر الحنفى الخارج باليمامة فقد كان هؤلاء يطلق عليهم « النجدية » [2] .

نشاط نجدة بن عامر :

مضى نجـدة يقود الخوارج إلى « الحضارم » فنهبها ، واعترض عيرا كان يراد بها ابن الزبير ، واستولى عليها ، وساقها إلى أبى طالوت فقسمها بين أصحابه ، فاقتسموا المال وقالوا : « نجدة خير لنا من أبى طالوت فخلعوا أبا طالوت وبايعوا نجدة ، وبايعه أبو طالوت كذلك ، وكان ذلك سنة ست وستين [3] » .

وقد تحرك نجدة للسيطرة عـلى المنطقة ، فسـار إلى بنى كعب وهزمهم بذى المجاز ، وكثر أتباع نجدة ، وسار إلى البحرين سنة سبع وستين فسالمته الأزد ، واجتمعت عبد القيس ومن بالبحرين غير الأزد على محاربته ، وقد حاول الأزد اقناع عبد القيس ومن معهم بمسالمة نجدة فرفضوا ، والتقوا مع نجدة فى القطيف ، فهزمهم وقتل منهم جمع كثير ، قال الشاعر :

نَصَحْتُ لعبد القيس يومَ قَطيفها   وما نفعُ نصحٍ قيلَ لا يُتَقَبَّل

---

(١) الكامل : ابن الاثير جـ ٢ ص ٣٣٦ .
(٢) الخطط للمقريزى ص ٣٥٤ .
(٣) راجع الكامل : لابن الاثير جـ ٣ ص ٣٥٢ .

وقد أقام نجدة بالقطيف ، وأرسل ابنه يتتبع فلول المنهزمين ، ولكن ابنه قتل مع نفر من أصحابه ، وأرسل نجدة سرية إلى « الخط » فكتب لها النصر ، وأقام نجدة بالبحرين .

وفى سنة تسع وستين أرسل مصعب بن الزبير عبد الله بن عمير فى جيش إلى نجدة ، ولكن نجدة استطاع أن يدهمهم فى غفلة من ابن عمير ويهزمهم هزيمة بالغة ، وغنم ما فى عسكرهم « وأصاب جوارى فيهن أمّ ولدٍ لابن عمير ، فعرض عليها أن يرسلها إلى مولاها فقالت : لا حاجة لى إلى من فرّعنى وتركنى [1] » .

وبعث نجدة بعد هزيمة ابن عمير جيشا إلى عمان واستعمل عليه عطية بن الأسود ، فاستطاع عطية أن يستولى عليها ويقتل حاكمها عباد ابن عبد الله ، ولكن عطية لم يستمر بها طويلا فخلف عليها رجــلا يكنى أبا القاسم واستطاع ابنا عبّاد أن يقتلا أبا القاسم ، وخالف عطية نجدة ففارقه وانتهى به الأمر إلى السند حتى تمكنت خيل المهلب من قتله هناك

وبعث نجدة إلى البوادى بعد هزيمة ابن عمير من يأخذ من أهلها الصدقة ، وقاتل بنى تميم وأهل طويلع وأخذ منهم الصدقة ، ثم ســـار نجدة إلى صنعاء فبايعه أهلها ، بعد أن ظنوا أن وراءه جيشا كبيرا ، وأرسل نجدة أبا فديك إلى حضرموت فجبى الصدقات من أهلها .

وحج نجدة سنة ثمان وستين ، وقيل سنة تسع وستين ، وصــالح ابن الزبير على أن يصلى كل واحد بأصحابه ، وعندما صدر نجدة عــن الحج ، سار إلى المدينة فتأهب أهلها لقتاله ، وعندما علم نجدة بذلك رجع إلى الطائف ، وأتاه عاصم بن عروة فبايعه عن أهله دون أن يدخل نجدة الطائف ، وعاد نجدة إلى البحرين ،وقطع الميرة عن أهل الحرمين ، ولكنه أعادها عندما كاتبه ابن عباس فى ذلك [2] .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٣ .
(٢) الكامل : لابن الاثير ج ٣ ص ٣٥٣ .

الاختلاف على نجدة وقتله :

وقع خلاف بين نجدة وأتباعه فى أمور كثيرة منها : أنه سير سرية بحرا وأخرى برا ، ففضل سرية البحر فى العطاء ، ومنها أن عبد الملك ابن مروان كاتب نجدة فى الطاعة على أن يوليه اليمامة ، ويهدر لـه ما سفك من الدماء ، ولكن أصحاب نجـدة اتهموه بالاتصال بعبـد الملك ، وبالتردد ، ومنها أن قوما أستتابوه ثم ندموا على استتابته وتفرقوا ، ونقموا عليه أشياء أخرى ، فخالف عليه العامة وولوا أمرهم أبا فـديك واختفى نجدة ولكن أصحاب أبى فديك تمكنوا من القبض عليه وقتله وهو يقول :

وان جر مولانا علينا جريرة ... صبرنا لها ان الكرام الدعائم (١)

أبو فديك فى البحرين :

تولى أبو فديك أمر الخوارج فى الخليج بعد أن اختلفوا على نجـدة وقتلوه ، وكان ذلك سنة ٧٢ هـ ، ويقول الطبرى : « وفى هذه السنة كان خروج أبى فديك الخارجى وهو من بنى قيس بن ثعلبة ، فغلب عـلى البحرين ، وقتل نجدة بن عامر الحنفى » (٢) .

وثبتت قدم أبى فديك فى المنطقة « فوجه إليه عبد الملك أمية بـن عبد الله ، فهزمه أبو فديك وفضحه وأخذ أثقاله وحرمه (٣) » ثم أرسل عبد الملك بن مروان عمر بن عبيد الله ، وقال له : خذ معك أهل المصرين الكوفة والبصرة ، فسار والتقى بأبى فديك وأصحابه فى البحرين ، وحمل عليهم حتى استباحوا عسكر أبى فديك وقتلوه ، وحصروا أصحابه « فنزلوا على الحكم فقتل منهم نحو ستة آلاف وأسر ثمانمائة » (٤) .

---

(١) راجع الكامل لابن الاثير جـ ٣ ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ١٧٤ أحداث ٧٢ .
(٣) اليعقوبى المجلد الثانى ص ٢٧٣ دار بيروت ١٩٦٠
(٤) الكامل . لابن الاثير جـ ٤ ص ٢٨ .

مسعود العبدى ونشاطه فى البحرين :

وفى سنة ١٠٥ هـ خرج مسعود العبدى زعيم الخوارج بالبحرين ، فغلب على المنطقة وظل له النصر بضع عشرة سنة ، ثم سار مسعود إلى اليمامة ، فتصدى له سفيان بن عمرو العقيلى واشتد بينهما القتال ، فقتل مسعود وقتلت أخته ، واضطرب أمر الخوارج ، وقال الفرزدق فى هذا اليوم :

لعمرى لقد سلت حنيفة سلة   سيوفا أبت يوم الوغى أن تغيرا
تركن لمسعود وزينب أخته   ردءا وسربالا من الموت أحمرا
أرين الحروريين يوم لقائهم   ببرقان يوما يجعل الموت أشقرا

وقيل إن مسعودا غلب على البحرين واليمامة تسع عشرة سنة حتى قتله سفيان بن عمرو العقيلى (١) .

وبعد أن أوضحنا نشاط الخوارج فى منطقة الخليج وأشهر قوادهم لابد أن نضع أمامنا الملاحظات التالية .

أولا : إن الخوارج فى منطقة الخليج كانت لهم شوكة قوية فى عهد بنى أمية ، وقد ساعدهم على ذلك ظروف المنطقة المهيأة للفتن والاضطرابات كما أن المنطقة كانت ملائمة لحياة الخوارج البدو فنمت فيها قوتهم .

ثانيا : مما ساعد الخوارج على أن يسيطروا على معظم المنطقة ، اضطراب الأحوال فى الحجاز والشام والعراق ، وانشغال الخلافة الأموية بالقضاء على ابن الزبير وثورات الخوارج فى البصرة وما يليها .

ثالثا : كان ظهور الخوارج وتفوقهم فى منطقة الخليج فى عهد بنى أمية مقترنا بظهورهم وتفوقهم فى منطقة العراق ، وظهور قيادات فذة لهم مثل نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة ، وفى مثل هذا الوقت

---

(١) راجع المرجع السابق ص ٩٠ .

استطاع نجدة أن يبسط سلطانه على معظم منطقة الخليج ، فاستولى على اليمامة ، والبحرين ، والقطيف ، والخط ، وعمان ، ودانت له البوادى وأخذ منها الصدقة ، واستولى على صنعاء وأخذ جبايتها ، كما أرسل أبا فديك إلى حضرموت فجبى صدقات أهلها ، وبايعه أهل الطائف دون أن يدخلها ، وهكذا نرى أن نجدة كانت له قوة عظيمة فى تلك الفترة ، فقد بايع الخوارج نجدة « فأقلقوا اليمامة والبحرين وأثخنوا فى الناس » (١) ويقول اليعقوبى : « ووجه مصعب بن الزبير بخيل بعد خيل ، وجيش بعد جيش إلى نجدة ولم يستطع ابن الزبير القضاء على نجدة أو هزيمته (٢) .

رابعا : استطاعت قوات عبد الملك بن مروان أن تكسر شوكة الخوارج فى العراق وتضعف شأنهم ، وحدث مثل ذلك فى منطقة الخليج فى عهد عبد الملك ، واستتب الأمر لبنى أمية ولم تقم للخوارج قائمة إلا سنة ١٠٥ كما تحدثنا من قبل حيث هب مسعود العبدى ولكن ثورته كانت قصيرة العمر .

البحرين فى العصر العباسى

سيطر العباسيون على العالم الإسلامى الذى كان يحكمه الأمويون باستثناء الأندلس ، ومن هنا كان سلطان العباسيين سائدا على منطقة البحرين ، وكان عمال البحرين فى العصر العباسى على النحو التالى :

السفاح : عين داود بن على واليا على مكة والمدينة واليمن واليمامة والبحرين بسنة ١٣٢ .

ثم عين سليمان بن على واليا على البصرة والبحرين وعمان سنة ١٣٣ .

---

(١) دائرة معارف البستانى ص ٤٩٤ مادة خوارج .
(٢) تاريخ اليعقوبى مجلد ٢ ص ٢٧٢ .

المنصور : عين السرى بن عبد الله الهاشــمى واليا على اليمـامة والبحرين سنة ١٣٦ ثم عين سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبى صفرة سنة ١٣٩ ، ثم ولى على البحرين خاصة قثم بن العباس بن عبد الله ابن على بن عبد الله بن العباس فى نفس العام ثم أضاف إليه اليمامة سنة ١٤٤ هـ .

وفى عهد المنصور ثار فى البحرين سليمان بن حكيم العبدى ، فوجه إليه المنصور عقبة بن مسلم من البصرة ، واستخلف عليها نافع بن عقبة ، وقد انتصر عقبة وقضى على الثورة وقتل سليمان بن حكيم وسبى الكثير من أتباعه وأرسلهم عقبة إلى المنصور ، فقتل بعض قادتهم ووهب الباقين إلى ابنه المهدى فكساهم وأطلقهم .

ومن ولاة المنصور على البحرين فى سنيه الأخيرة تميم بن سعيد وقد ولاه سنة ١٥٧ ثم ولى عليها حمزة الكاتب .

المهدى : عبد الله بن مصعب .

صالح بن داود بن محمد سنة ١٦٤ .

مولاه العلى سنة ١٦٥ وقد ظل فى ولايته حتى عهد الرشيد .

الرشيد : فى عهد الرشـيد خرج بالبحرين سيف بن بكر أحـد بنى عبد القيس فوجه إليه الرشيد محمد بن يزيد بن مزيد فقتله ، ومن ولاة الرشيد محمد بن سليمان بن على وقد وليها مع اليمامة سنة ١٧٠ .

المعتصم : اسحق بن أبى خبيصة ويذكر البلاذرى (١) ان اسـمه حميضة وأنه بنى مسجدا فى الحديقة التى قتل فيها مسيلمة فى عقرباء (٢) .

---

(١) فتوح البلدان ص ١٠٣ .
(٢) محمد بن عبد الله الانصارى . تحفة المستفيد ص ٧٩ — ٨١ .

وبنهاية العصر العباسى الأول ، وبانتقال سلطة الخلفاء الحقيقية إلى الأتراك تفككت الدولة وهبت بها ثورات عنيفة ، ولا عجب أن تجذب منطقة البحرين كثيرا من الحركات المدمرة القوية التى صارعت جيوش المسلمين والتى كان طابعها شديد الانحراف ، وأهم هذه الحركات التى عرفتها منطقة البحرين آنذاك حركة صاحب الزنج وحركة القرامطة ، والحركتان من أقسى الحركات التى هبت بالعالم الإسلامى واستنزفت كثيرا من جهد العباسيين ودماء المسلمين وقد تحدثنا بشىء من الإيجاز عن الزنج والقرامطة فى الأجزاء السابقة من هذه الموسوعة ، ونعيد هنا الكلام عن هاتين الحركتين بمزيد من التفصيل ، فإن هذا المكان هو المكان الطبيعى للحديث عن هاتين الحركتين .

حركـة الزنج

تنسب هذه الحركة إلى الزنج الـذين كانوا يعيشـون فى البصرة والذين استغلهم على بن محمد (أو على بن عبد الله الملقب صاحب الزنج) فى حركة كان يرمى بها إلى تحقيق أطماعٍ وطموحٍ فى نفسه ، وقد سلك هذا الرجل عدة وسائل ، وقام بعدة محاولات لتحقيق هذه الأطمـاع كما سنرى فيما بعد ، ولكن محاولته مع الزنج كانت أنجح وأشهر وأخطر ، ولذلك اشتهر بها .

وصاحب الزنج هذا رجل فارسى ، ولد فى إحـدى قرى الـرى ، ويصفه ابن طباطبا [1] بأنه كان فصيحا ذكيا طموحا ، وكان فى الـوقت نفسه فقيرا قليل المال والعتاد ، وعندما يجتمع الذكاء والطموح والفقـر يصبح الإنسان خطرا على المجتمع الذى يعيش فيه ، وهكذا كان هـذا الرجل الذى عبر عن طموحه بقوله يخاطب نفسه :

وإذا تنازعنى أقول لها اطلبى   موتاً يريحك أو صعودَ المنبر

تحقيق نسـبه :

إن نسب هذا الرجل غير واضح ، فقد ادعى أنـه ينحدر من آل البيت ، وأن اسمه على محمد بن أحمد من ولد على بن أبى طالب ، وقد اتجه أكثر المؤرخين إلى تفنيد هذا الادعاء ، والحكم عليه بالكذب ، وأنه قد اتخذ هذا الادعاء وسيلة لتحقيق أطماعه كما سنرى فيما بعد ، ويرى الطبرى أنه ينحدر من قبيلة عبد القيس وأن اسمه على بن محمد بن عبد الرحيم [2] والذى نميل إليه إن نسبه العلوى ادعاء باطل بدليل أن أتباعه كانوا يلعنون الصحابة ، وفيهم على وعائشة ، وكان هذا يحـدث أمامه فلا يغضب ، وبدليل أن نساء من العلويات تُبِعْن عليهن واعتُدى عليهن ، واستُعبِدن أمام عينه بأمره ، ولو كان فعلا من آل البيت لمـا

(١) الفخرى فى الاداب السلطانية ص ٢٤ .
(٢) تاريخ الطبرى ج ١١ ص ١٧٤ .

سمح بهذه التصرفات ، ولعمل على حماية آل البيت من أتباعه الزنوج والعلوج [١] .

مطلع حياته :

اشتغل على بن محمد فى مطلع حياته أجيرا ، ولكن هذا العمل لم يقنعه فاتجه لتعليم الصبيان ، بيد أن هذا العمل لم يكسب له ما تطلع إليه من مال وشهرة .

ومن هنا آخذ يتطلع إلى القصور ، وكانت لديه وسيلة يمكن أن تصله بالقصور وسكانها تلك هى إجادته للشعر ، فقد كان من الذين يجيدون قول الشعر المطبوع وممن يتصف بفصاحة اللهجة [٢] فمدح جماعة من حاشية الخليفة المنتصر (٢٤٧ هـ) واستمالهم بشعره ، وقد كسب عن هذا الطريق بعض المال ، ولكنه أيضا لم يقنع بما وصل إليه .

ومن أجل هذا اتجه اتجاها آخر هو الاشتغال بالتنجيم والسحر ، ولكن ذلك كله لم يحقق للرجل أطماعه ، وكان لابد من جولة جديدة أو جولات جديدة لعلها تنيل الرجل مأربه .

وقد اتجه على بن عبد الله فى هذه الفترة إلى (البحرين) وقد كانت البحرين كما ذكرنا من قبل جديرة باجتذاب هذا اللون من الطموحين المنحرفين كما كانت ظروف العصر مواتية ، إذ كانت الخلافة العباسية تتجه للانحدار بعد العصر العباسى الأول ، بسبب استبداد المماليك بالسلطان ، وكانت هناك حركات استقلال تغمر العالم فتقطع من جسم الخلافة أجزاء ليستقل بها الطموحون هنا وهناك كما فعل الصفاريون والطولونيون ، فلماذا لا يحاول هذا الرجل مثل هذه المحاولة فى البحرين ليجعل من نفسه سلطانا على هذا الجزء من العالم الإسلامى ؟ وقد دفعه عامل المكان (البحرين) وعامل الزمان (ضعف الخلافة) إلى أن يخطو طامعاً أن يحقق مأربه .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٤ ص ٢٠٨ .
(٢) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة جـ ٨ ص ١٢٧ .

خطوات الثائر

لم تكن الطريق سهلا أمام على بن محمد وبخاصة أنه كانت للرجل سمعة غير طيبة تلاحقه وتعارض أطماعه ، ولذلك كان عليه أن يصطنع الصبر ، وأن يغير خططه من حين إلى حين جريا وراء شعاع جديد كلما خبا أمل سار عليه شوطا من الأشواط ، وسنثبت فيما يلى دراسة عن هذه المحاولات التى قام بها هذا الرجل فى تلك المرحلة :

١ — المهدى المنتظر :

كانت فكرة « المهدية » شائعة عند بعض طوائف الشيعة وكان هؤلاء يعتقدون أن المهدى سيظهر يوما فيملأ الدنيا عدلا ، كما ملئت جورا ، ويزيل الباطل ، وقد رأى على بن عبد الله أن يجعل نفسه هذا المهدى المنتظر ، ومن هنا أعلن أنه ينحدر من آل البيت ، وأنه علوى النسب ليكون ذلك وسيلة لادعاء المهدية ، وقد بدأ هذا الادعاء سنة ٢٤٩ هـ ، وكان هناك أناس يستجيبون لكل ناعق فاتبعه هؤلاء ، وجبوا له الخراج ولكن كان هناك ناس آخرون امتنعوا عليه ، وكذبوه ، وبدأ بذلك صراع بين أتباعه وأعدائه ، ولم يكن أتباعه مخلصين له ، وإنما كانوا يتخذون هذه الحركة وسيلة لتحقيق أطماع خاصة بهم كما فعل الرجل نفسه ، وكان ذلك سببا فى فشل هذه المحاولة ، إذ لم تكن هناك عقيدة ذات بال يجتمع حولها الثائرون • •

٢ — الانتماء للخوارج :

اتجه على بن عبد الله اتجاها جديدا تبنى فيه فكر الخوارج الذى يقرر المساواة والديمقراطية بين المسلمين جميعا ، والمساواة والديمقراطية هدفان تتطلع لهما كل الطبقات الدنيا [1] ومن هنا رأى على بن محمد أن يصطنع هذا الاتجاه ليجذب جماهير الناس إلى دعوته •

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٧ ص ٧٣ وابن العميد : تاريخ المسلمين ص ١٦٢ •

بيد أن الخوارج كانت قد دالت دولتهم ، وأصبح معروفا أن الدماء الغزيرة التى أسالها الخوارج لم تأت بأية فائدة ، ولهذا لم يكن لهـذا الإدعاء صدى ذو بال ، وفشلت هذه المحاولة كما فشلت المحاولة الأولى

٣ ـ علم الغيب والألوهية :

لم ييأس الرجل الذكى الطموح ، وأخذ يبحث عن طريق جديد ، وكان اضطراب الخلافة العباسية يزداد فيزداد الرجل طموحا ، فاتجه فى محاولته الثالثة إلى إدعاء أنه ظهرت له آيات عرف بها ضمائر أصحابه ، وقد استغل وسائل متعددة ليعرف عن طريقها أخبـار بعض أصحابه وميولهم ، ثم أخذ يفاجئهم بهذه الأخبار على أنها من قدراته الخاصة ، وأنها يوحى بها إليه ، ثم تمادى فى ذلك فادعى النبوة ، بل زاد فى تماديه فأعلن أنه يستطيع أن يفعل ما ليس فى قدرة البشر (١) .

ويذكر ابن أبى الحديد من إدعاءاته أنه رغب مرة فى أن يعلم بعض أمور كان يريد معرفتها فسرعان مارآها مكتوبة على حائط أمامه دون أن يرى الكاتب الذى كتبها (٢) .

ومن الواضح أن هذا الادعاء كان عميقا فى مجال الضلال ، ومـن أجل ذلك انكمش عنه العقلاء ممن كانوا معه ، ولم يبق مؤيدا له إلا الأوغاد الذين لا يفكرون ولا يتدبرون ، وفشلت هذه المحاولة الثالثة .

٤ ـ زنج البصرة :

مرة أخرى لم ييأس الرجل ، وأخذ يبحث عن فرصة جديدة يندفع بها إلى أطماعه ، ولعله انتفع بتجاربه السابقة ، فأراد هذه المرة أن يسلك طريقا أقرب إلى النجاح ، وكانت البحرين قد أدركت انحرافات الرجل

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٧ ص ٧٣ وابن العميد . تاريخ المسلمين ص ١٦٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٣١ .

فلم تعد مكانا صالحا لحركته ، فصعد إلى البصرة باحثا عن أمل جديد سنة ٢٥٤ هـ ، وفى البصرة وجد فتنة ناشبة بين بعض القبائل والبعض الآخر فاتجه إلى أن ينضم إلى أحد الفريقين أو أن يبنى له مجدا على أشلاء المتحاربين جميعا ، فبدأ يقوم بدعوة جديدة ، واتخذ من مسجد بالبصرة مركزا لهذه الدعوة ، ولكن عامل البصرة محمد بن رجاء كـان صارما فأمر بالقبض عليه هو وأتباعه . كما أمر بالقبض على بعض زعماء القبائل المتصارعة ليقضى على صراعهم ، ولكن على بن محمد استطاع أن ينجو بنفسه ، وسقط بعض أتباعه فى يد رجال الوالى ، وألقى بهم فى السجن مع من قبض عليهم من أفراد القبائل المتصارعة .

وبعد فترة عزل محمد بن رجاء عن البصرة ، فقام رؤساء القبائل التى كانت متصارعة بفتح السجون واطلاق من كانوا بداخلها ، فعاد أتباع على إليه ، وعاد هو إلى البصرة ليبدأ نشاطا جديدا .

والتقى على بن عبد الله آنذاك بالخيط الذى سيقوده إلى الهـدف الذى يطمع فيه ، التقى بجماعات الزنج التى كانت تموج البصرة بهم ، وكان هؤلاء يشغلون بالبصرة أحقر الأعمال ، كما كانوا يعدون طبقة دنيا تعمل لدى السادة ، وتعطى كل قواها ولا تأخذ شيئا ذا بال ، ومن هنا كانوا يحسون بأنهم مظلومون فى هذا المجتمع ، وكانت فى قلوبهم ثورة مشتعلة ولكنها لا تصل إلى أفواههم ، ولا إلى أيـديهم ، وكأنما كانوا يتطلعون إلى القائد الذى يقود جماعتهم ليخلصهم من الهوان ويقضى على ظالميهم ، ويأخذ لهم حقوقهم ، وكان على بن عبد الله فى الوقت نفسه قيادة كبرى تتطلع إلى الأتباع وتسعى للحصول عليهم بطريق أو بآخر ، وهكذا كانت لهؤلاء عنده حاجة وله عندهم حاجة ، وتصادف أن التقى على بن عبد الله بواحد من الزنوج مسموع الكلمة بينهم اسمه ريحان بن صالح ، وأدرك على بن محمد أن ريحان طالب مال وطالب جاه ، فأغدق عليـه من المال واصطفاه لنفسه ، ومن هنا أخلص ريحان لزعيمه كل الإخلاص ، وراح يجمع له وفود الزنوج ، وفى الوقت نفسه راح « على » يشبع شغف

ريحان بالمال والجاه ويزيد فى إكرامه واستغلاله ، ولما جاءت سنة ٢٥٥ هـ كان قد اكتمل حوله ١٢ ألفا من الزنوج ، وفى يوم عيد الفطر من هـذا العام صلى على بن عبد الله بأصحابه ثم خطب فيهم خطابا حافلا قال فيه : أيها الأحبة ، آن الآوان لتتحرروا مـن الفاقه والظلم ، وان اجتماعكم سيضمن لكم خيرات الأرض ، وستصبحون سادة الأرض التى تعيشون فيها ، وسادة هؤلاء الجبابرة الذين يستغلونكم ويستعبدونكم ، وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئا من الإحسان إلا أتى به إليهم (١) وادعى أنه رسول العناية الإلهية لتخليصهم من الظلم الذى يعانون ومن الرق الذى يكبل رقابهم .

ولما سمع الزنوج ذلك أقسموا له على الطاعة المطلقة ، وسار بهم يبطش ويدمر وينهب ويسلب ، وكان هؤلاء الغوغاء يزدادون به إيمانا كلما نالوا من الخيرات والنعم .

وقد حققت حركات الزنج انتصارات واسعة فاستولت على الآبلة واستسلمت لها عبادان ، ودخلت الأهواز وقتلت الكثير من أهلها ، ودمرت ما شاءت أن تدمر ، كما دخلت البصرة وخربتها وامتد نجاحهم إلى واسط ثم انحدروا إلى منطقة الخليج فاستولوا عليها ، وامتد نشاطهم إلى عمان ، وأقام على بن عبد الله قاعدة حربية هائلة أسماها « المختارة » وكانت المختارة مدينة عظيمة بنيت لتكون عاصمة عسـكرية ، واختار لهـا موقعا تحميـه القنوات والمستنقعات التى تحيط بها ، وزودت بأعظم الأجهزة الحربية ، وكانت المختارة من أسباب صمود الزنج وطول مقاومتهم ، وكان مـن أسباب ما حققه الزنج من نجاح إخلاصهم لقائدهم واختيارهم المستنقعات والأدغال مكانا لحربهم ، وكان للزنج خبرة بالحياة فى هذه المناطق أكثر من سواهم ، وانضم بعض البدو إليهم لينالوا بعض ما يستولى عليه

---

(١) تاريخ الطبرى . ج ١١ ص ١٧٦ .

الجيش الزنجى من الغنائم ، ومن ناحية أخرى كانت الخلافة تعانى صراعا فى أمكنة مختلفة مما قلل الجهد الذى اتجه للزنج فى مطلع حركتهم •

على أن حركات المقاومة جديرة ببعض الدراسة التى سنقوم بهـا فيما يلى :

حركات المقـاومة

أشرنا فيما سبق إلى أن الطريق أمام على بن عبد الله كـان مليئا بالأشواك ، وفى الحق إن مقاومة عنيفة تصدت للرجل فى جميع الخطـوات التى خطاها ، وصارعته ـ كل المراحل التى مرّ بها ، فلم يكد يعلن محاولته الأولى فى البحرين ويذكر أنه المهدى المنتظر حتى هب أكثر النـاس فى وجهه وأرغموه على الفرار إلى البادية •

وعندما تبنى فكر الخوارج وأراد أن يجذب لـه الطبقات الدنيـا صارعه الناس ولم يستجيبوا له ، وأرغموه على التخلى عن هذا الاتجاه •

وفى محاولته الثالثة التى ادعى فيها أنه يوحى إليه وأنه يعرف الغيب لم ينلْ إلا سخط الناس وسخريتهم ، بل تخلى عنه بعض من كانوا قـد خدعوا به وأيدوه •

وإذا جئنا إلى حركته التى حققت نوعا من النجاح بالبصرة نجـد أن حركات المقاومة ضده بهذه المدينة كانت أيضا قوية وصارمة فقد هب أهل البصرة يقاومونه منذ دخل هذا الرجل مدينتهم ، وكان الوالى محمد ابن رجاء مبكرا فى الوقوف فى وجه هذا الرجل والقبض على بعض أتباعه وطرد الباقى •

وبعد محمد بن رجاء تجمع كثير من القبائل للوقوف بحزم أمـام أطماع على بن عبد الله ، وفى القمة من هؤلاء الهلالية والسـعدية وكثير من الهاشميين والقرشيين ، فقد تجمع هؤلاء للقضاء على حركة على بن

ولما قوى أمر صاحب الزنج ، وأحس أهل البصرة بعجزهم عن القضاء عليه طلبوا عون الخلافة العباسية ، وتدخلت الخلافة العباسية للقضاء على حركة الزنج ، وأعدت الجيوش أثر الجيوش لخوض معامع قاسية ضد هذا التجمع الأسود ، وكان من قواد الخلافة العباسية ضد حركة الزنج جعلان التركى ، وسعيد الحاجب ، والمنصور بن جعفر الخياط ، وقد بذل هؤلاء جهودا كبيرة ، ولكنها لم توفق فى القضاء على حركة الزنج ، وكان ذلك سببا فى إحداث تغير واسع فى الحياة السياسية بالعاصمة ، فإن الأتراك الذين كان فى يدهم السلطان أحسوا بفشلهم فى حراسة دولة الخلافة ، فاتفق رأيهم على أن يُعاد السلطان للعباسيين ليتولوا بأنفسهم حماية الديار ، ونتيجة لذلك أصبح الموفق أخو الخليفة المعتمد قائدا عاما للجيوش العباسية ، وصاحب السلطة العامة فى الناحية السياسية ، وتحمل الموفق بذلك كل التبعيات السياسية والعسكرية باسمه واسم أخيه ، ووجه جهودا كبيرة ضد الثائرين على السلطان العباسى ، وبوجه خاص ضد حركات الزنج ..

وقاد الموفق الجيش ضد على بن عبد الله ، ودارت بين القوتين معارك شرسة ، ولم يكن الموفق بالرجل الذى تقهره جماعات الزنج على الرغم من كل الاعتبارات ، فصبر وصابر حتى بدأ النصر يأخذ جانبه ، وبدأت الهزائم تحل بخصمه ، ثم انكمش سلطان صاحب الزنج ، وتقهقر حتى حُصِرَ فى مدينة المختارة ، وأخذ يدافع عنها هو وجيشه بجسارة هائلة ولكن الموفق كان قد قرر ألا يخطو للخلف ، فبنى مدينة مقابلة المختارة ليعلن بذلك عن إصراره على حصار دائم حول المختارة حتى تسقط ، وبدأت المختارة تفقد ذخائرها العسكرية والغذائية ، وعاد الزنج يعانون فى المختارة الجوع الذى دفعهم للالتفاف حول على بن عبد الله ، وكانت بطون هؤلاء الأوغاد تتحكم فى عقولهم وفى حركاتهم ، فلما جاعت هذه البطون أخذت تتخلى عن الزعيم ، وفى معركة مريرة حول المختارة استطاعت

قوى الموفق أن تقتحم المدينة وأن تدمر جوانبها ، وأحس « علىّ » بالنتيجة فولى هاربا ، وألقى بنفسه فى أقرب نهـــر قابلــه ، ولكن جنود الخلافة التقطوه وقضوا عليه ، وحملوا رأسه إلى قائدهم وقضى الموفق على بعض أتباعه ، واستسلم له آخرون فعفا عنهم ، وكان ذلك سنة ٢٧٠ هـ ، وقــد سقط فى حركة الزنج عدد هائل من الفريقين يقدره ابن طباطبا [١] بمليون ونصف مليون ، وهو نفس العدد الذى يقدره السيوطى [٢] .

وقد خلفت حركــة الزنج أضرارا هـــائلة ، وبخاصة فى النـــاحية الاقتصادية بسبب ما دمرت من بلاد ، وما حرقت من مزروعات ، ومـــا أكلت من ثمار ، وبسبب توقف النشاط التجارى الذى كان نتيجة لتدمير الطرق والفزع الذى شمل مختلف البقاع التى شملتها هذه الحركة .

ومن الناحية الاجتماعية عانى الناس كثيرا من الشقاء بسبب حركة الزنوج ، وعرفوا الجوع ، وأكلوا الجيف مما سبب انتشار الأمراض والأوبئة ومما عاناه الناس من الناحية الاجتماعية تلك التصرفات الجـــائرة التى قام بها الزنوج ضد الأحرار والحرائر ، ويوم يتحكم العبيد فى الأحرار تكون الطامة الكبرى .

ومن الناحية السياسية كانت حركة الزنج من الأسباب التى مكنت لتفكك الدولة الإسلامية خلال العصر العباسى الثانى .

وكانت نهاية الزنج نهاية طبيعية إذ لم يكن هناك منهج ولا مبادىء لهذه الدعوة ، وكان الارتباط الذى يجمع بين أفرادها هو ارتباط المنفعة الذاتية والترف المادى ، ومن هنا انهارت هذه الحركة عندما تخلفت المنفعة الذاتيـــة وقـــل الترف ، فانفض الجمع وانحل العقد ، إذ ضـــاع الخيط الضئيل الذى كان يربط بين هذه الجموع .

---

(١) الفخرى ص ٢٢١ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٤

وهكذا منى العالم الإسلامى بهذه النكبة التى استمرت خمسة عشر عاما (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) وأكلت عشرات الألوف من الأنفس ، ودمرت صورا من الحضارة الإسلامية ، وبعثت الرعب فى النفوس والآفاق ، ولم يكن لها من هدف تسعى لتحقيقه ، ولا مأرب تعمل لنيله .

ومن الحق أن نقول إن ظلم كبار الملاك كان من أهم الدوافع التى أثارت عليهم الأرقاء والزنوج ، ولو أن هـؤلاء المترفين أعطوا الزنوج حقوقهم التى فرضها عليهم الإسلام لكان من الممكن ألا تقع هذه المأساة التى دمرت الأغنياء والفقراء جميعا ، وأحرقت الأموال ، وقضت عـلى الثروات .

وفى ختام هذه الدراسة نقرر أن حركات هذا الرجل بدأت فى هجـر بالبحرين ثم انسابت على الخليج كله وكانت بذلك غير بعيدة عن الشاطىء الفارسى الذى كان يوحى بالكثير من الفتن .

القرامطة ودولتهم

التاريخ للقرامطة :

فى مطلع حديثنا عن القرامطة نبرز نقطة مهمة تتصل بالتأريخ لهم ، فهناك بعض الباحثين الذين يتعاطفون مع القرامطة مثل الأستاذ مصطفى غالب الذى كتب عن القرامطة يقول : إن القرامطة فى سلوكهم وفى علاقاتهم بعضهم ببعض وعلاقاتهم مع غيرهم أقرب إلى النزهاء والنساك منهم إلى الإباحية والخلاعة والمجون وغيرها من الصفات التى تذاع عنهم (١) .

وفى اعتقادى أن هذا القول ليس باطلا كله فسنرى فيما بعد ألوانا من النظم السياسية والعسكرية والاجتماعية التى اتبعها القرامطة ، وكان فيها ما يستحق التقدير ، ولكن بجانب هذه الأشياء هناك مثالب قرمطية حفلت بها المصادر التاريخية وهى تبلغ الغاية فى الانحراف والشذوذ .

هل يمكن أن يقال إن تاريخ القرامطة لم يدون بإنصاف ؟ لأن الذين دونوا تاريخهم كانوا يعيشون فى أرض الخلافة العباسية أو الخلافة الفاطمية ؟ وكان العباسيون والفاطميون فى عداء وصراع مع القرامطة ومن أجل هذا كانوا يذيعون عن القرامطة ألوانا من الانحرافات فسجلها هؤلاء المؤرخون دون أن يتعرفوا بطريق مباشر على القرامطة وأفكارهم ؟ ولو كان هناك مؤرخون عاشوا فى البحرين إبان عهد القرامطة لنقلوا لنا حقيقة أمر هؤلاء .

وأليس عجيبا أن دولة ينسب لها كل هذا الباطل تعيش حوالى قرنين من الزمان ، وتحقق كل هذه الانتصارات ؟

وقد عاصر القرامطة عدة دول كالطولونيين والإخشيديين والحمدانيين

---

(١) الحركات الباطنية فى الاسلام ص ١٦٨ .

والصفاريين ، وكان القرامطة أطول عمرا وأثقل وزنا من كل هؤلاء ، وهل يمكن أن يتوفر ذلك لدولة ضربت فى الضلال إلى هذا المدى البعيد الذى يذاع عنها ؟ .

ثم إنه كان للقرامطة وزير ممتاز هو « كشاجم » وكان ابنه أيضا جديرا بالتقدير ولهم تقاليد جديرة بالتقدير كذلك سنراها فيما بعد .

هل يمكن أن يقال أن بعض الانحرافات التى تنسب للقرامطة كانت من باب التحدى ، وكانت مواجهة لتصرفات ضدهم ، وستظهر فى هـذه الدراسة وجهة نظر القرامطة فى بعض ما ارتكبوه مما يؤخذ عليهم .

وينبغى كذلك أن نتذكر موقف المستشرقين من التاريخ الإسلامى ، فإن المستشرقين يهمهم أن يصوروا كثيرا من الفرق الإسلامية فى أسـوأ صورة ، ويرحبون بكل رواية تصف بعض الفرق أو بعض الأشخاص بما يشين ، فيلتقطون هذه الرواية ويبـالغون فى عرضها وإذاعتهـا ليملئوا تاريخنا بما يدعو للنفرة والاشمئزاز .

وعلى كل حال فنحن شديدو الرغبة فى إنصاف التاريخ لو وجـدنا وسيلة لذلك ، ولكن كل ما أمامنا مـن المؤرخين الثقات يدين القرامطـة ويَسِمُهم بأبشع الصفات ، وقد عاصرهم الطبرى (٣١٠ هـ) وكتب عنهم ، وسنقتبس الكثير منه فيما بعد مما يدينهم ، وعاصرهم ثابت بن سفيان (٣٦٥ هـ) وكتب عنهم الكثير مما اقتبسناه منه ، وعاصرهم وعانى شذوذهم أديب ذائع الصيت هو أبو العلاء المعرى (٤٥٠ هـ) وكتب عنهم يقول : « قيل عن أبى طاهر سليمان بن أبى سعيد الجنابى : لو عوقب بلد بمن يسكنه لجاز أن تؤخذ به جنابه ، ولا يقبل لها إنابة ، ولكن حـكم الكتاب المنزل أجدر وأحرى ، فلا تزر وازرة وزر أخرى » [1] .

وقد زارهم الرحالة الفارسى ناصرو خسرو وهو يقدم لنا وصـفا

---

(١) رسـالة الغفران ص ٣٨٤ و « جنابة » هى بلدة أبى سـعيد الجنابى وسنتحدث عنها ص ٥٦١ .

بمشاهداته يدل على ما عانته هذه البلاد تحت حكم القرامطة ، يقول ناصرو خسرو : « دخلت الأحساء سنة ٣٤٢ هـ وكانت محاطة بأربعة أسوار بين كل سورين فرسخ ، وفيها ينابيع المياه العظيمة ، ويوجد بها كل ما يوجد فى البلاد المتمدنة ، ولكن ليس فيها مسجد تقام فيه الصلاة ، وتباع فى الأحساء لحوم جميع الحيوانات حتى الحمير والكلاب ، ومن عوائدهم القبيحة المشهورة ليلة « المشوش » وهى ليلة عيد يجتمع فيها الرجال والنساء فيعبثون ويلعبون ويشربون الخمور ، وتدور رءوسهم فيفعلون القبيح [1] .

ذلك مطلع حديثنا عن القرامطة نثير فيه مختلف الاحتمالات ، ولكننا عندما نجىء لدراسة تاريخهم نجدنا ملتزمين باحترام التراث الذى سطره عنهم شيوخ الباحثين والمؤرخين ، والذى يوحى بانحراف القرامطة عن الإسلام والبعد عن صراطه المستقيم ، فذلك هو الطريق الذى لا طريق لنا سواه .

---

(١) ناصر وخسرو : سفر نامة ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص ١٣٠ .

البـــاطنية

مذهب تتحتم دراسته للتعرف على القرامطة

ما الباطنية ؟

تحدثنا عن الباطنية فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة (١) ، ووضحنا أن الباطنية تعنى أن كثيرا من آيات القرآن ، وكثيرا من الفرائض الإسلامية لها معنى ظاهر ومعنى باطن ، فمعنى الصيام فى الظاهر الإمساك عن الطعام وعن المعاشرة من الفجر حتى غروب الشمس ولكن معناه فى الباطن كتمان أسرار الأئمة ، ومعنى الحج فى الباطن زيارة الشيوخ وهكذا (٢) ، والباطنية يظهرون أمام العامة بالمظهر الإسلامى ، ولكنهم يستعملون الفكر الباطنى أمام خاصتهم ، وعلى هذا فهم قوم يظهرون الإسلام ولكن عقائدهم واتجاهاتهم الفكرية تخالف الإسلام فى كل أسسه ، فهم لا يعترفون بالخالق ، وهم يبطلون النبوة ، وينكرون العبادات والبعث ، ولكنهم لا يظهرون هذه الاتجاهات فى أول أمرهم (٣) .

ومذهب الباطنية ينحدر من الفكر الفارسى ، وهو حيلة ابتكرها المجوس لينالوا من الإسلام دون مواجهة صريحة للمسلمين ، فقد كانوا يكرهون الإسلام ، ولكنهم لا يستطيعون إعلان كراهيتهم فلجأوا إلى تأويل آيات القرآن ، وسنن الرسول بما يفسد الإسلام ، ويرضى هواهم (٤) .

وكان الباطنية يقدمون أفكارهم بحذر ، وكانوا يخطون خطواتهم بالتدريج ، فهم أولا يختارون ضحاياهم من العوام والجهلة والمتشككين ، وهم ثانيا يبدأون بإثارة شكوك حول الإسلام ، كأن يتساءلوا : لماذا

(١) ص ١٨٤ وما بعدها .
(٢) انظر أربع رسائل اسماعيلية لعارف تامر ص ٩٢ — ٩٧ .
(٣) ابن الجوزى : تلبيس ابليس ص ١٠٢ .
(٤) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٨٥ .

اختلفت ركعات الصلوات ؟ ولماذا يقبل الناس الحجر الأسود مع أن الإسلام أبطل الأوثان ؟ وما معنى الغسل ؟ ولماذا يجب الغسل من نزول المنى وهو طاهر دون البول وهو نجس ؟ ••• وهم ثالثا لا يسلكون بالجميع مسلكا واحدا ، ويحتمون على الداعى عدم إفشاء أسرارهم إلا للخواص المستجيبين لدعوتهم ، وينقل الإمام الغزالى نصيحة زعماء الباطنية لدعاتهم الا يسلكوا بالجميع مسلكا واحدا ، وأن يخاطب الدعاة الناس على قدر عقولهم واستجابتهم (١) •

وينبغى أن يتضح أنه مع الجهد الكبير الذى قام به الباطنية لم يستجب لهم إلا قلة دفعتهم دوافع العصبية أو الشعوبية أو الجهل إلى الانحراف بالإسلام إلى هذا الاتجاه •

والباطنية أساس حركتين كبيرتين إحداهما قامت على شاطىء الخليج العربى ، والأخرى قامت فى الشمال الإفريقى ، وكان القرامطة ثمرة الأولى ، وكان الفاطميون ثمرة الثانية ، ومن هنا سارت الحركتان على نمط واحد تقريبا ، وحملتا فكرا يكاد يكون متفقا ، ويقول الشيخ محمد أبو زهرة : إن الإسماعيلية والقرامطة من الشيعة الغلاة الذين خالط مذهبهم بعض آراء من عقائد الفرس القديمة ، ومن الأفكار الهندية فانحرفوا تحت تأثير ذلك (٢) •

وجاء فى كتاب « كلش خلفا » أن هذه الطائفة ظلت تخرج فى كل زمان ومكان بأسماء مختلفة ، فكانت فى مصر وحلب وأطرافهما تسمى الإسماعيلية ، وفى فارس وطبرستان السبعية ، وفى بغداد وما وراء النهر القرامطة ، وفى الأحساء والبحرين القرامطة أو الجنابية ، وفى أصفهان الباطنية (٣) •

---

(١) فضائح الباطنية : ص ١٢٧ •
(٢) تاريخ المذاهب الاسلامية ج ١ ص ٦٤ •
(٣) نقل الشيخ ذلك عن كتاب كلشن خلفا تأليف نظمى مرتضى تعريب موسى كاظم ص ٧٤ •

ولكن ينبغى أن يتضح أن هناك فرقا كبيرا سرعان ما انبثق واتسع بين أفكار الباطنية هنا وهناك ، وقد نتج هذا الفرق عــن سببين كبيرين همــا :

الأول : نوع الدعاة الذين حملوا الفكر الباطنى بمنطقة الخليج كانوا غالبا ينحدرون من أصل فارسى ، وعلى هــذا كانوا شديدى التمســك به والاخلاص له ، وقد وصل بهم الحال إلى اعتباره الفكر الصحيح ، ونسوا أنه كان فى الأصل وسيلة مزيفة للعدوان على الإسلام ، أما الدعاة الذين حملوا الفكر الباطنى بالشمال الإفريقى فلم يكونوا ينحدرون من أصل فارسى ، وبالتالى لم يكونوا أعداء للإسلام وكانوا طلاب سـلطة فحسب ، ودعاة من الشيعة الذين يرون أن أبناء علىّ أحق بالخلافة من العباسيين .

الثانى : مركز الدعوة : فالدعوة الباطنية التى قامت بمنطقة الخليج نشأت وترعرت فى منطقة حفل تاريخها بانحرافات متتالية إذ ظهرت بها الردة وحركات التنبؤ والخوارج الغلاة ، وغيرها من الحركات المعــادية للإسلام ، ولم يكن ذلك مصادفة بل إن المنطقة كانت مهيأة لهذه الحركات للأســباب التى ســبق أن شرحناها حــول هذه المنطقة ، أمــا الدعوة الباطنية التى قامت بالشمال الإفريقى والتى سرعان ما انحدرت إلى مصر ، فقد قابلت بهذه المناطق وبخاصة بمصر شعوبا لها تاريخ حضارى عميق ، ولها بالإسلام إيمان ثابت ، وكانت مدرسة الدراسات الإسلامية بمصر مزدهرة منذ عهد الولاة ، وقد اشترط ممثلوا الشــعب المصرى على جوهر الصقلى قائد الجيوش الفاطمية الزاحفة من الشمال الإفريقى ألا يتدخل فى عقائد المصريين الذين كانوا يتبعون المذهب السنى ويتمسكون بــه [1] .

وقد رأى الفاطميون أن من الأسلم لهم أن يستبعدوا المبالغــات

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفاء ٦٧ — ٧٠

والانحرافات بقدر الامكان لتثبيت دولتهم ، وقد شرحنا ذلك وأعطينا لـــه نماذج في كتابنا « تاريخ التربية الإسلامية » .

ونعتقد أن الخلاف بين فرقتي الباطنية أو قل بين القرامطة والفاطميين كان من الأسباب التي أدت في النهاية إلى المواجهة العسكرية بين الطائفتين اللتين تنحدران من أصل واحد .

وبعد هذه الدراسة عن الباطنية نتجه للقرامطة وهم الفرع الـــذي إعتنق الفكر الباطني ، وسار فيه إلى أبعـــد الشوط ووقف من المسلمين موقفا شديد القسوة والعداء .

تسمية القرامطة :

عندما ندرس تاريخ القرامطة تقابلنا قضية التسمية ، ونبحث فيها فتواجهنا آراء متعددة سنسردها فيما بعد ، ولكن تعدد الآراء يوحي للباحث بأن في القضية غموضا والتواء ، وهو شأن مثل هذه المذاهب التي تنشأ في الظلام ، وتلتوي أفكارها ، ولا تجتمع على شيء إلا على مناهضة الإسلام وعقيدته ومبادئه ، ولنسر مع الباحثين على كل حال لنرى مـــا يقولون حول هذه التسمية :

١ ـــ ترجع التسمية إلى رجل بإحدى القرى بسواد الكوفة اســـمه حمدان بن الأشعث ويلقب « كرميتة » لحمرة عينيه ، وكرميتة بالنبطية أحمر العينين ، وقد التقى هذا الرجل برجل من الباطنية وافد من الأهواز اسمه حسين الأهوازي ، وكان هذا يتظاهر بالورع والزهد والتقشـــف وبكثرة الصلاة ، ويدعو لإمام من أهل البيت ، وكان هذا الرجل مريضا فحمله « كرميته » إلى منزله وعني به ، وبدأ المذهب ينتشر من هـــذا البيت ـــ كما سنرى فيما بعد ـــ ونسب المذهب إلى كرميته باعتباره الذي آوى الداعية ، وحث الناس على اتباع مذهبه ، أو نسب الداعية إلى كرميته

لأنه يعيش فى حماه وينطلق بدعوته من بيته وعن طريق الجموع الـذين جمعهم كرميته للالتقاء بالداعية [١] .

٢ — ينسب القرامطة إلى حمدان بن الأشعث نفسه ، وهو رجـل كان يعيش بسواد الكوفة ولقب قرمطا لأنه كان قصيرا ، وكانت رجـلاه قصيرتين ، وكان خطوه بذلك متقاربا ، فنعت بالقرمطى لذلك ، وكـان هذا الرجل قد أظهر الورع وأضمر المكيدة والخبث [٢] .

٣ — ذكر بعض العلماء أن لفظة قرامطة نسبة إلى مذهب يقال له القرامطة ، وهو مذهب خارج عن مذاهب الإسلام ، وهو بهذا نسبة إلى مذهب باطل وليس منسوبا إلى رجل [٣] .

٤ — يرى الدكتور فيليب حتى أن لفظ « قرمط » معناها المعلم السرى [٤] وكانت دعوة القرامطة حافلة بالأسرار .

تلك خلاصة ما ذكرته أدق المراجع عن التسـمية وأبرزها يـدور حول داعية شيعى فارسى التقى بحمدان (قرمط) وكان هذا يظهر النسك ويضمر المكيدة والخبث ، وقد نفث كل من الرجلين فى صاحبه ألوان الشر ، فكل منهما سىء العقيدة ذكى ، يعـرف الطريق لنشر الفكر المنحـرف ، والبيئة حولهما كانت مستعدة للاستجابة لهذا الانحراف .

من الأهوازى إلى حمدان :

والتقى الأهوازى بحمدان كما سبق القول ، وسأل الأهوازى حمدان عن الطريق إلى بلدة يقال لها « قس بهرام » فقال له حمدان : أنا قاصدها .

---

(١) انظر تاريخ أخبار القرامطة لثابت بن سنان ص ٨ و ٩ .

(٢، ٣) ابن النـديم : القرمطى صاحب الخـال من كتاب « تاريخ أخبـار القرامطـة » ص ٧١ والمقـريزى : الحسـن الاعصـم من الكتـاب السـابق ص ١٠٩ .

(٤) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٨٩ بالهامش .

فسارا معا ، وأدرك الأهوازى من حديثه مع حمدان أن هذا يمكن استغلاله ، وأن به صفات من الخبث وضحالة العقيدة ترشحه لمزيد من التعاون ، وبعد شوط من الطريق عرض حمدان على الأهوازى أن يركب وراءه شوطا من الطريق ، فرفض الأهوازى قائلا : لم أومر بذلك . فعجب حمدان من هذه الإجابة وسأل الأهوازى : كأنك تعمل تبعا الأوامر تقدم لك ؟ فقال الأهوازى : نعم . فسأل حمدان : ومن الذى يأمرك ؟ فأجاب الأهوازى : مالكى ومالكك ومن له الدنيا والآخرة . فبهت حمدان وقال : يا هذا ما يملك ما ذكرت إلا الله فقال الأهوازى : نعم ، والله يهب ملكه لمن يشاء .

وأدرك حمدان أن هذا الرجل ليس عاديا فسأله : ما تريد من القرية التى سألتنى عنها ؟ وأدرك الأهوازى أن الزمام أصبح بيده ، وأنه يمكن أن يبدأ الشوط الثانى من التأثير بعد أن نجح فى الشوط الأول فقال لحمدان : دُفع إلىّ جراب فيه علم وسرّ أُمرت أن أغنى به هذه البلدة وأملكهم أعظم الثروات وان أخرج أهلها من الجهل إلى العلم ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى السعادة [1] . وتفتحت آمال حمدان أن يكون ضمن من يناله الغنى والثراء ، فتضرع إلى الأهوازى أن يضمه إليه ، وأن ينقذه مما به من بؤس وفاقة ، فقال الأهوازى : لا يجوز ذلك حتى آخذ عليك العهود والمواثيق ، فوافق حمدان وأقسم على السمع والطاعة فى السر والعلانية ، وطلب حمدان من الأهوازى أن ينزل بيته ، فقبل لأنه أصبح مريدا مخلصا لدعوته ، وفى بيت حمدان توافد إخوانه حيث أعطوا العهود والمواثيق للأهوازى وبدأت دعوته فى الانتشار ، وعندما حضرته الوفاة أوصى بعده لحمدان وقضى نحبه ، وكان حمدان أوفى خلفة لهذه الدعوة الضالة [2] .

---

(١) الامام الغزالى : فضائح الباطنية ص ١٤ .
(٢) المقريزى : الحسن الاعصم من كتاب « أخبار القرامطة » ص ٩٦ — ٩٧ .

مصادفة خطيرة :

أصبح منزل حمدان مركزا خطيرا للدعوة الجديدة ، وقد اتبع حمدان سيرة سلفه فحث الناس على العبادة المتصلة والصدقة بكل أمــوالهم استعدادا للملك الأرض الذى سينساب لهم ، وقد تسبب عن تفرغ عدد كبير من الناس للعبادة أن قل العاملون فى ضياع « الهيصم » فسأل عن سبب ذلك فأخبر بخبر حمدان ومريديه ، فألقى الهيصم القبض على حمــدان وسأل عن مذهبه فأدرك انحرافه وضرره بالمجتمع ، فحكم عليه بالاعدام ، وحدد لتنفيذ ذلك صباح اليوم التالى ، فأودع حمدان فى حجــرة أحكم الهيصم قفلها ووضع المفتاح تحت وسادته ، واشتغل بالشراب ، وكان فى بيت الهيصم جارية تتبع المذهب الشيعى فرقت لحال حمدان ، وانتظرت حتى نام سيدها ، فأخذت المفتاح وأخرجت حمدان وأعادت قفل البــاب ووضعت المفتاح حيث كان •

وفى الصباح فتح الهيصم ليقتل حمدان فلم يجده ، فشاع ذلك فى الناس ، وقال بعضهم : إنه (رُفع) وظهر حمدان فى ناحية أخرى ، وقال إن الإغلاق لا يمنعه ، فأصبح ذلك كرامة لدى الجماهير ، والتف حــوله عدد أكبر من الأتباع [1] ولكن قرمط عنى باختيار مريديه فلم يكن يقبل فى جماعته أحدا إلا بعد اختبارات طويلة ومراسم خاصة تؤكــد لـــه قبولهم التام لتعاليم المذهب ، وتفانيهم فى سبيل قيادته دون تردد أو تفكير •

وادعى قرمط أنه الإمام ، واختار من مريديه اثنى عشر نقيبا أمرهم أن يحملوا الدعوة إلى الناس ، وبقى هو أسطورة يختفى فيتحدث عنه أتباعه ، ويظهر فيركعون له ، وهو فى الحالين يأمر فيأتمرون بأمره •

وعن طريق ادعاء الشيخ نشر القرامطة ضــلالاتهم واســتقطبوا

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ١٤٨ • حســين النجفى : تاريخ الكوفة ص ٣٧٣ •

جماعات من الشيعة والمنحرفين وذوى الأطماع ، وقد ساعدهم ذلك على أن يخطوا خطوة جديدة هى التحول إلى نشاط سياسى عسكرى كما سنرى فيما بعـــد •

عقائـــد القرامطة :

قلنا من قبل إن القرامطة ينحدرون من الباطنية ، واقتبســـنا من الإمام الغزالى ومن غيره صورا من الفكر الباطنى ، ونريد هنا أن نقول إن القرامطة بحكم انتمائهم للفرس ، وبحكم البيئـــة التى نشروا بهـــا مبادئهم وهى بيئة الخليج ، طوروا أفكار الباطنية وأضافوا الكثير إلى ضلالاتهم ، إذ كانت الاستجابة لهم مشجعة على المزيد من التطرف ، ومن أجل هذا نورد هنا تصويرا لعقائد القرامطة :

كان القرامطة بحكم انتمائهم للمذهب الباطنى يرون إن للقـــرآن والسنة معنى ظاهرا ومعنى باطنا ، وقد راح القرامطة يتوسعون فى هذا المعنى الباطن ، ويضيفون له الكثير مما يفسد الإسلام والمسلمين ، وبهذا قالوا بحل الخمر ، وبأنه لا غسل من الجنابة ، وبأن الصلاة فى اليوم أربع ركعات ، ركعتان قبل الشروق وركعتان بعد الغروب ، وأن الصوم يكون يومين فى السنة : يوم المهرجـــان ويوم النيروز ، ثـــم حط زعيم القرامطة عن مريديه الصوم والصلاة وجميع الفرائض وقال لهم : هـــذا كله موضوع عنكم ، ومعرفة الإمام تغنيكم عن كل شىء •

وكان القرامطة يرون أن دم مخالفيهم حلال ، وأن أموال مخالفيهم حلال كذلك (١) •

وكان القرامطة على دين المجوس ، ويستدل البغدادى عـــلى ذلك

---

(١) أبو الحسن الملطى : التنبيه والرد على أهل الاهواء والبـــدع ص ٢٨ •

بقوله : مما يؤكد ميل الباطنية إلى دين المجوس أنا لا نجد على ظهر الأرض مجوسيا إلا وهو شديد الود لهم (١) .

وقال القرامطة بالشيوعية فى النساء والأموال ، وكان مما استند إليه زعيم القرامطة فى شيوعية الأموال قوله لرفاقه : ما حاجتكم إلى الأموال الآن ، وستنهال عليكم الثروات وتكون لكم كل الأرض بما عليها من نعيم ، وقال لهم : هذه محنتكم التى امتحنتم بها ليظهر مدى استجابتكم ، فاستجابوا له وجمعوا الأموال فى موضع واحد من كل قرية ، وأقام فى كل قرية رجلا من الثقات يرعى هذه الأموال من غنم وبقر وحلى ومتاع وغير ذلك ، ويقدم للناس جميعا الطعام والكساء بما يكفيهم ويسد حاجتهم حتى لم يبق فيهم فقير ولا محتاج (٢) .

من حركة دينية إلى مذهب سياسى :

ذكرنا فيما سبق أن حركة القرامطة بدأت فى ثوب الدين بشكل ما أى بدأت باسم الإمام واسم المهدى ، ويقول الدكتور برنارد لويس « إن قرمط له صلة نسب بالإسماعيلية (٣) أو أنه فى الحق كان ينسب نفسه لآل البيت فيدعى أنه من نسل الإمام جعفر الصادق ، يقول ابن العديم عن القرمطى صاحب الخال إنه ادعى أن اسمه أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق (٤) وعن طريق التشيع جمع القرامطة حولهم كثيرين من الشيعة ، وكثيراً ممن كانوا يندسون فى الشيعة لإحداث اضطرابات فى الدولة الإسلامية ممن أسميناهم « مدعى التشيع » (٥)

---

(١) الفرق بين الفرق : ص ٢٨٦ .

(٢) المقريزى : الحسن الاعصم من كتاب تاريخ القرامطة ص ٩٩ وابن الجوزى تلبيس ابليس ص ١١٠ وابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٧٠٥ .

(٣) The Origin of Ismailism p. 122:

(٤) تاريخ أخبار القرامطة ص ٦٩ .

(٥) انظر الحديث عن مدعى التشيع فى الجزء الثانى من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف .

وعندما كثر عدد القرامطة ، وقوى جانبهم وتخلصوا من المنافسات حول الأموال وتوقعوا خيرات الأرض تنهال عليهم بدأوا ينتجهون اتجاها سياسيا يحققون به هذه الأحلام ، ويضربون الأمة الإسلامية التى كان الكثير منهم يطمع فى تحطيمها ، ويبدو أن قوة القرامطة بلغت شأوها قبيل نهاية صاحب الزنج ، إذ يروى أن زعيم القرامطة قابل يوما صاحب الزنج ، وقال له : إنى على مذهب ورأى ، ومعى مائة ألف ضارب سيف ، فتناظرنى فإن اتفقنا على المذهب ملت لك ، وإن تكن الأخرى انصرفت عنك ، فتناظرا فاختلفت آراؤهما فانصرف القرمطى عنه [١] ولكن يبدو أن زعيم القرامطة أدرك أن حركة الزنج كانت تميل للمغيب فلم يشأ أن يربط نفسه بها ولا شك أن هذا اللقاء يوحى بالروابط بين الحركتين الفاسدتين .

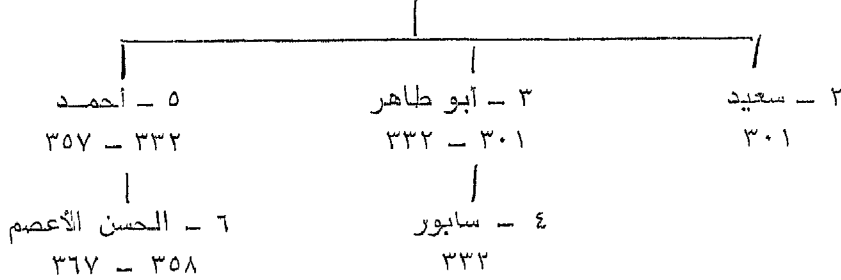
ومن معالم الوصول إلى الهدف السياسى وإقامة دولة أن اهتم القرامطة بالسلاح ، وسمح زعيم القرامطة لأتباعه — بعد أن تخلصوا من كل ممتلكاتهم — أن يمتلكوا ما يشاءون من السلاح ، ثم اتفقوا على بناء دار هجرة فأقاموا سورا فى إحدى القرى بسواد الكوفة ، وجعلوا عرضه ثمانية أدرع ، ومن ورائه خندق عظيم ، وبنوا داخل السور المبانى الكثيرة ، وتحول الرجال والنساء إلى دار الهجرة سنة ٢٧٧ هـ كل ذلك والخليفة فى بغداد مشغول بصاحب الزنج وكثرة الفتن ، وقد تسبب عن نمو قوة القرامطة أن الذين لم يتبعوا مذهبهم من الناس خافوهم وانضموا إليهم ، فلم تكن هناك قوة تحمى الناس منهم ، إذ أحل زعيم القرامطة دم المخالفين — كما ذكرنا من قبل — ولم يبق أمام القرامطة بذلك إلا أن يظهر القائد الذى يقود هذه الجحافل ليكوّن منهم دولة قوية ، وكان أبو سعيد الجنابى هو القائد القوى المتحمس الذى قدر له أن يقود هذه الجماعة ، وأن يؤسس دولة وراثية بمنطقة البحرين هى دولة القرامطة ، ورؤساء هذه الدولة كانوا ينعتون « السادة » وشجرة نسبهم كالآتى :

---

(١) كتاب أخبار القرامطة ص ١٢ .

١ ـ أبو سعيد الجنابى

حوالى سنة ٢٨٦ ـ ٣٠١ هـ



ويلاحظ أن دولة القرامطة بدأت قبل الجنابى بأكثر من عشر سنوات واستمرت بعد الحسن الأعصم حتى سنة ٤٦٩ هـ أى أن عهدها كان حوالى قرنين •

وبعد الحسن الأعصم انتقلت السلطة إلى رجلين من القرامطة اسمهما جعفر وإسحق الهجريان ، أو إلى جماعة كما يقول زامباور [1] ، وسنتكلم عن هؤلاء الحكام واحدا بعد الآخر •

أبو سعيد الجنابى

من حمدان إلى أبى سعيد :

قلنا من قبل ان حركة القرامطة بالبحرين ارتبطت فى مطالعها برجل فارسى من الباطنية اسمه حسين الأهوازى ، وأن هذا التقى بحمدان بمنطقة الكوفة التى كانت حافلة بالسخط والثورة والتشيع والانحراف ، فألقى إليه فكره واتجاهاته ، ووجدت هذه فى طبيعة حمدان أرضا خصبة فنمت وترعرعت ، وأصبحت داره ـ كما قلنا من قبل ـ مركزا يموج بالدعوة وبالمريدين ، وخطا حمدان خطوة أخرى لنشر الدعوة فاختار الدعاة والنقباء من بين أتباعه •

---

(١) معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ج ١ ص ١٨٠ •

وكان من بين الدعاة رجل داهية طموح شديد الانحراف عن الإسلام هو أبو سعيد الجنابى ، وهو ينسب إلى بلدة « جنابة » وهى بلدة صغيرة على سواحل فارس بينها وبين سيراف أربعة وعشرون فرسخا (١) ويروى ثابت بن سنان أن هذا الزعيم قدم من خوزستان (٢) ولا خلاف بين الروايتين فالأولى تنسبه إلى القرية التى نشأ بها والثانية تنسبه إلى الإقليم ، وقد أحسن هذا استقبال دعوة حمدان وأصبح من أشد المتحمسين لها ، ولكن أبرز شىء ننسبه إليه هو حسن اختيار المكان الذى ينشر فيه دعوته فقد اتجه دعاة حمدان ونقباؤه هنا وهناك فخفتت أصواتهم ، وقتلتها المقاومة التى كان يقوم بها المسلمون صادقو الإسلام وحماته ، أما أبو سعيد فاختار منطقة البحرين على مقربة من بلاد فارس حيث الأرض الخصبة للدعوات الشاذة ، وانحدر أبو سعيد إلى القطيف ليغرس هذه الدعوة التى وجدت لها أخصب البقاع .

وهكذا نجدنا أمام تحول هائل للدعوة القرمطية ، تحول وضع حدا للكوفة وبقاعها لتبرز بديلا عنها منطقة البحرين ، وتحول عن حمدان ودعاته إلى أبى سعيد الجنابى الذى أصبح محور الدعوة وأساس نجاحها .

أبو سعيد فى القطيف :

نزل أبو سعيد القطيف حوالى سنة ٢٨٦ هـ وكانت القطيف آنذاك — كما يقول المقريزى (٣) — مدينة عظيمة واسعة ، وكان رجالها أشداء جهالا ، وفى القطيف جلس أبو سعيد يبيع الدقيق ، واصطنع حسن المعاملة مع الناس ، ليختار منهم من يقدم له دعوته ، واستطاع أن يعثر

---

(١) المقريزى : الحسن الاعصم ص ٩٥ من كتاب (تاريخ أخبار القرامطة) وياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٤٢ .
(٢) تاريخ أخبار القرامطة ص ٧ .
(٣) اتعاظ الحنفا : ص ٢١٢ .

بسهولة على طلبته ، وكان أول من استجاب له بنو سنبر [1] ويوما بعد يوم ذاعت دعوة أبى سعيد بين الناس ، ووجدت قبولا عند الكثيرين ، فتفرغ لها أبو سعيد ، وترك التجارة ، وأخذ ينفق على الدعوة مما كان عنده من مال ، ومما قدمه له الطامعون من أتباعه .

وتقدم أبو سعيد خطوة أخرى فاتجه إلى الأعراب والنبطيين الذين يعيشون حول منطقة البحرين ومناهم بالغنى والجاه ، وكان الغنى والجاه أهم ما يسعى إليه هؤلاء الناس ، فاستجابوا بحماسة للدعوة الجديدة فى انتظار أن يحققوا بذلك أحلامهم ، وقدم لهم أبو سعيد هدية اتفقت مع ميولهم هى إعفاؤهم من التكاليف الدينية ، وكان ذلك تبعا للفكر الذى يقرر أن معرفة الإمام تغنى عن التكاليف الدينية الأخرى .

وكان فى هذه المنطقة بقايا من الزنج الذين فشلت حركتهم فعادوا إلى العناء وشظف العيش ، وقد وجد هؤلاء فى دعوة أبى سعيد تجديدا لآمالهم وبخاصة أنه لم يكن لهؤلاء مبادىء ، وكان المال كل هدفهم ، وكان أبو سعيد يمنّى أتباعه بالجاه والمال — كما سبق — فانحاز إليه هؤلاء وأخلصوا لدعوته [٢] .

وأصبح لأبى سعيد بذلك أتباع كثيرون يرون فى انتصاره نصرا لهم ، فاستطاع أبو سعيد أن يستولى بهم على القطيف وعلى ما جاورها من مدن وقرى ، وترك لأتباعه أن يسلبوا من الأموال ما شاءت لهم نفوسهم ، وكان ذلك أعظم تشجيع يقدمه أبو سعيد لأتباعه فزاد هؤلاء له إخلاصا ولمبادئه تأييدا .

وأخذ أبو سعيد يضرب هنا وهناك ، وكان النصر حليفه فى أكثر

(١) المقريزى : الحسن الاعصم من كتاب تاريخ أخبار القرامطة ص ١٠٣ .
(٢) انظر دول الاسلام الذهبى (عهد المعتمد العباسى) .

المعارك التى خاضها وقد استطاع بذلك أن يوسع دائرة نفوذه حتى شملت منطقة البحرين ، وامتدت امتدادا فسيحا على الخليج العربى وضمت بعض مناطق البدو المجاورة لمنطقة الخليج •

وقد اتجه أبو سعيد إلى مهاجمة مناطق متعددة فى العراق والشام وعمان والحجاز ومصر ، وربما لم يكن يطمع فى الاستيلاء على كل هذه المناطق ، ولكن كان على الأقل يرمى إلى السلب والنهب لإشباع مطامع أتباعه ، كما كان يرمى إلى تهديد الخلافة العباسية ، وكان بعض أتباعه من أمثالَ زكرويه اللعين يعشقون إراقة الدماء لذاتها تنكيلا بالمسلمين ، وسعيا وراء إيقاف ما يستطيع إيقافه من مبادىء الإسلام كتعطيل الحج بانتهاكَ حرمة البيت الحرام ، والعدوان على الحجاج ، وتعطيل الصلاة بتدمير المساجد •

ويصف المؤرخون الفظائع التى ارتكبها زكرويه مع الحجاج رجالا ونساء وأطفالا ، فيذكرون أنه كان يسد الآبار بجيف القتلى حتى يموت الحجاج عطشا ، وكان بعد المعارك يأمر نساء القرامطة أن يدرن بالماء بين الجرحى ليتعرفن بذلك على الجرحى الذين لم يموتوا بعد ليقتلهم [(١)] •

أما تنكيل القرامطة بالمسلمين فى البلاد التى دخلوها فيرويها ثابت ابن سنان بقوله إن القرامطة دخلوا حماة ومعرة النعمان وغيرها فقتلوا أهلها ، وقتلوا النساء والأطفال ، ودخلوا بعلبك فقتلوا أهلها ولم يبقوا منهم إلا القليل ، وصالح أهلُ سلمية زعيمَ القرامطة بعد أن أمنهم فلما دخلها قتل جميع مَنْ فيها من بنى هاشم ولم يُبْقِ منهم أحدا ، وقتل النساء والصبيان والفقهاء والشيوخ والبهائم وخرج القرامطة منها وليس

---

(١) ثابت بن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص ٣٢ ـ ٣٣ •

بها عين تطرف ، ودخلوا فى القرى المجاورة يسلبون ويقتلون وينهبون ويأتون من المنكرات مالا عين رأت ولا أذن سمعت (١) .

وقد حاولت الخلافة العباسية إيقاف هذا الباطل بقدر طاقتها فخرجت جيوشها لمواجهة اللعين زكرويه بعد الذى قام به ضد الحجيج ونشبت معركة هائلة فى ربيع الأول سنة ٢٩٤ هـ بين الفريقين وقد انتصر جند الخلافة انتصارا باهرا فى هذه المعركة ، وسقط من القرامطة عدد لا يحصى ، وضُرب زكروية ضربة سقط منها يتلوى وحمل هو وآله أسرى ، ومات بعد خمسة أيام (٢) .

وإذا كانت الخلافة العباسية حققت نصرا فى هذه الموقعة فإن القرامطة طالما حققوا انتصارات ضد الآمنين وضد الجيوش العباسية على السواء .

وقد استطاع أبو سعيد بالدعاية تارة وبالحروب تارة أخرى أن يكوّن دولة فسيحة فى منطقة البحرين ، وفيما جاورها من مناطق الأعراب حكمها هو وأولاده من بعده حوالى قرنين من الزمان .

نهاية أبى سعيد :

وفى سنة ٣٠١ هـ قتل الجنابى وكان قاتله خادما صقليا كان ضمن الأسرى الذين حصل عليهم القرامطة فى صراعهم ضد جيوش الخلافة العباسية فى البصرة ، وكان هذا الخادم يبدو عليه النشاط والذكاء ، فاصطنعه ابو سعيد ، وجعله من المقربين إليه ، وبمرور الزمن تحقق الخادم مما كان يشاع عن القرامطة من الانحراف الدينى ، إذ لم يشاهد سيده قائما للصلاة أو صائما فى رمضان ، ومن هنا أسرّ الخادم

---

(١) ثابت بن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص ٢٠ — ٢١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٥ .

فى نفسه أمرا ، فانتهز فرصة دخول سيده الحمام ، وكان هو حارس باب الحمام لسيده فاندفع الخادم نحو سيداه ومعه خنجر حاد وقضى عليه ، ثم خرج الخادم وهمس فى أذن قائد من خاصة أبى سعيد كأنما يطلبه لمقابلة الحاكم ، ولما خلا الخادم بهذا القائد قتله أيضا ، وفعل ذلك بأربعة آخرين من رؤساء القرامطة ، ولم يفطن للخطر إلا الخامس فقبض على الخادم وقتله [1] .

سعيد بن أبى سعيد

سعيد هو أكبر أبناء أبى سعيد ، وبه كان أبوه يكتنى ، وكان أبو سعيد قد عهد له بالأمر من بعده ، ولكن كفاءته لم تكن تملأ الفراغ ، فعجز عن القيام بالأمر ، وتقدم أخوه أبو طاهر سليمان فامتلك زمام الدولة وأصبح الحاكم الجديد لها .

أبو طاهر سليمان

إذا كان أبو سعيد الجنابى قد أقام دولة القرامطة بالبحرين ، فإن ابنه أبا طاهر سليمان اتجه لتثبيت الدولة ، ووضع نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى سنبحثها فيما بعد ، ولكن تثبيت الدولة لم يكن يسيرا ، فالخلافة العباسية لم تدع له فرصة للاستقرار ، وأرادت القضاء على انحرافه وانحراف دولته ، ومن ثم قام صراع مرير بين القرامطة والعباسيين ، وكان أبو طاهر فيما يبدو محبا للدماء ، فاتجه بشراسة إلى سفك الدماء ونهب الأموال ، والقتل والتدمير دون وازع أو ضمير ، ومما يروى من شعره فى ذلك قوله :

أنـا بالله وبالله أنـا   يخلق الخلق وأفنيهم أنا [2]

(١) المرجع السابق ص ٣٦ والكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ٨٤ .
(٢) حسين أحمد النجفى : تاريخ الكوفة ص ٣٧٥ .

ومع أن اتجاهنا فى هذه الدراسة لا يميل إلى تفاصيل الأحـــداث فى الحروب ، فإن دراسة تاريخ القرامطة تحتم أن نتخطى هذا الاتجاه ، وأن نعطى بعض التفاصيل عن المعارك ، لأن تاريخ القرامطة ، وبخاصة فى هذه الفترة ليس إلا تاريخ الدم المراق ، والقرى التى التهمتها النيران ، والمال المسلوب ، وقد اتسع صراع أبى طاهر ، فشمل عدة مناطق ، ولكن البصرة والكوفة والحجاز نالت من العسف والعدوان أكثر مما حل بسواها ، ولذلك نتكلم عن كل من هذه البلاد كلمة بقدر ما يتسع المجال .

وقد ابتدأ أبو طاهر صراعه ضد البصرة سنة ٣٠٧ هـ حيث هاجمهـــا بقواته واستباحها ثم رجع عنها ، أما الجولة العاتية التى عانتها البصرة من أبى طاهر فقد حدثت سنة ٣١١ هـ ويحكى ابن الأثير قصتها فيقول : سار أبو طاهر فى قوة قوامها ١٧٠٠ رجـــل ، حيث تمكنوا من دخـــول المدينة بعد أن تسلقوا سورها ، ونجحوا فى فتح بابها وقتلوا الموكلين به ، وعلم والى البصرة بما كان من القرامطة فتوجه إليهم فى قوة من جنده ، واشتبك معهم فى قتال عنيف ، تمكن القرامطة خلاله من قتله ، ووضع السيف فى رقاب أهل البصرة ، وأسفرت الموقعة عـــن انتصار ســـاحق للقرامطة ، فقتل من أهل البصرة الخلق الكثير ، واندفع بعضهم إلى الماء فغرقوا فيه ، وظل أبو طاهر وجنده فى البصرة سبعة عشر يوما جمعوا خلالها ما استطاعوا جمعه من المال والأمتعة والسبايا ، ثم عـــادوا إلى هجـــر (١) .

وبعد البصرة اتجه أبو طاهر إلى الكوفة سنة ٣١٢ هـ ، وقد استطاع أن ينتصر على جند الخلافة ، وكان يقودها جعفر بن ورقاء الشيبانى ، ودخل أبو طاهر وجنده الكوفة وسلب منها ودمر كما شاء ، وعاد أبو طاهر للكوفة مرة أخرى سنة ٣١٥ هـ ، فأرسلت الخلافة العباسية جيشـــا لمقابلته بقيادة يوسف بن أبى الساج ، ولكن القرامطة دخلوا الكوفة قبل

---

(١) الكامل فى التاريخ : جـ ٨ ص ١٤٤ .

أن يصل هذا الجيش ، وسلبوا ما كان بها من طعام وأموال ، ولما وصل جيش أبى الساج قابله القرامطة ، ودارت بين الفريقين معركة كبيرة انتصر فيها القرامطة ، وقتلوا ابن أبى الساج وأسروا عدداً كبيراً من جنده (١) .

وإذا انثنينا إلى الحجاز وجدنا هجمات القرامطة متصلة وقاسية على مكة المكرمة ، وعلى الطرق المؤدية لها ، وعلى الحجاج الوافدين من مختلف البقاع ، ففى سنة ٣١٢ هـ اعترض أبو طاهر وأتباعه الحجاج ، وهم فى طريق عودتهم من مكة ، وأنزلوا بهم السوء وأخذوا أموالهم وأمتعتهم وقتلوا منهم عدداً يقدره (ابن تغرى بردى) بأكثر من ألفين ، وأسروا مثل هذا العدد ، وعاد أبو طاهر بالأموال والأسرى إلى هجر (٢) .

وفى سنة ٣١٧ هـ دخل أبو طاهر سليمان مكة ، فأوقع بأهلها وهاجم الحجاج وهم متعلقون بأستار الكعبة ، فقتل منهم وأسر ، واقتلع الحجر الأسود ، كما اقتلع أبواب الكعبة وجردها من كسوتها ، واستولى على ما كان بها من آثار وتحف ، كما استولى على أموال أهل مكة وعاد بكل ذلك إلى هجر (٣) .

وكان اقتلاع الحجر الأسود والعدوان على الحجاج فاجعة كبرى أثارت سخط المسلمين فى كل جانب ، وضاعفت كراهية الناس للقرامطة ، وأكدت انحرافهم عن الإسلام ، وجهودهم لتدميره ، وتعطيل ركن مهم من أركانه .

هل قصد القرامطة من اقتلاع الأسود ومن العدوان على الحجاج أن يظهروا الخلافة العباسية بمظهر الضعف ليثبتوا بذلك مكانهم ؟

(١) المرجع السابق ص ١٦٢ .
(٢) النجوم الزهرة : جـ ٣ ص ٢١٢ .
(٣) غريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى جـ ١٢ ص ٧٠ .

هل قصدوا بذلك المساومة على الحجر لينالوا المال نظير إعادته ؟ .
هل كان أبو طاهر يرمى إلى جذب الحجيج إلى هجر بدلا من مكة ؟ .

يمكن أن نجد فى التاريخ إجابات مختلفة لهذه الأسئلة ، ولكن الذى نعتقده أن القرامطة فى هذه الآونة كانوا يتصرفون بدون أهداف واضحة إلا هدف السلب والنهب والتدمير ، ليرضى الرعاع والغوغاء الذين كانوا يكوّنون الجزء الأكبر من القرامطة .

ومع أن الخلافة الفاطمية كانت قد قامت آنذاك فى الشمال الإفريقى ، ومع أن هذه الخلافة كان يهمها تدمير سمعة العباسيين وتدمير هيبتهم ، ومع انه كانت هناك صلات بين الفاطميين وبين القرامطة ، مع هذا فإن الفاطميين ساءهم أن يصل الأمر بالقرامطة إلى اقتلاع الحجر الأسود وأخذه من مكانه بالبيت الحرام إلى هجر ، فكتب الخليفة الفاطمى إلى أبى طاهر يلومه على فعلته ويأمره أن يرد الحجر الأسود إلى مكانه ويرد على أهل مكة ما أخذه منهم . وختم الخليفة الفاطمى رسالته إلى أبى طاهر بقوله : وإن لم تفعل ذلك فأنا برىء منك فى الدنيا والآخرة (١) .

ويبدو أن أبا طاهر كان قد اتجه التمرد على كل القوى ، فاطمية كانت أو عباسية ، ولذلك لم يستجب لطلب الخليفة الفاطمى كله ، واقتنع بأن رد بعض الأموال إلى أصحابها ، ولم يرد الباقى مدعيا أنه أنفق على الجند ، كما لم يرد الحجر الأسود ، بل استبقاه ليهدد به . وليساوم به . ولم يعد الحجر الأسود إلى مكانه إلا بعد وفاة أبى طاهر بسبع سنوات وكان ذلك فى عهد أحمد أخيه سنة ٣٣٩ هـ ، وكان ذلك إجابة لطلب فاطمى جديد تقدم به الخليفة المنصور الفاطمى (٢) . وقال القرامطة أخذناه

(١) ابن الاثير : جـ ٨ ص ٢٨٠ .
(٢) دكتور محمد جمال الدين سرور . سياسة الفاطميين الخارجية ص ٤٤ .

بأمر ونعيده بأمر ، وقد بقى عندهم اثنين وعشرين عاما (١) .

بقى أن نذكر التعليل الذى يقوله القرامطة لعدوانهم على بيت الله الحرام وعلى مساجد المسلمين ؟

يقول القرامطة إن سبب ذلك أننا وجدنا أن الحجاج يرتكبون الكثير مما يخالف الإسلام ، وأن الأموال التى يحجون بها فيها الكثير من السحت وأموال اليتامى ، وأن المساجد يدرس فيها الكثير من الأحاديث المكذوبة على الرسول ، ويجلس للتدريس بها شيوخ فجرة يؤيدون كل خليفة مهما جار أو غشم ، ولا يحفظون هيبة العلم (٢) .

وفيما يلى كلمات أبى طاهر سليمان يشرح فيها الخليفة الفاطمى بإفريقية سبب ما أنكره عليه فى هذا الشأن : أما ما ذكرت من قتل الحجيج ، فوالله ما فعلت ذلك إلا بعد وضوح الحجة كاتضاح الشمس ، فقد ادعى هؤلاء أنهم أبرار وعاينت فيهم أخلاق الفجار ، فحكمت عليهم بحكم الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وأما ما ذكرت من إحراق المساجد ، فأى أماكن أحق بالخراب من مساجد إذا توسطتها سمعت الكذب على الله تعالى وعلى رسوله بأسانيد عن مشايخ فجرة بما أجمعوا عليه من الضلالة وابتدعوا من الجهالة (٣) .

وقد نظم الشاعر العيونى « ابن مقرب » قصيدة طويلة ذكر فيها آثام القرامطة ، وذكر جهد أسرته « الأسرة العيونية » التى سنتكلم عنها فيما بعد ، وفى هذه القصيدة يصف الشاعر موقف القرامطة من المساجد بقوله :

---

(١) انظر الكامل لابن الاثير جـ ٧ ص ١٦٢ وما بعدها و جـ ٨ ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) انظر كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة للحماد اليمانى ص ١٤ .

(٣) على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى ص ٤٤٨ .

وما بنو مسـجدا لله نعرفه   بل كلما أدركوا قائما هدما

بقيت كلمة عن المعارك الدموية الأخرى التى خاضها القرامطة ، وفى هذا المجال نذكر ان أحاديثنا عن معارك البصرة والكوفة والحجاز ينبغى ألا تنسينا أن القرامطة هاجموا مناطق أخرى فى الجزيرة العربية والعراق سالبين ومدمرين ، ومن هذه المناطق عين التمر والأنبار ، بل هددوا بغداد نفسها ، وأصبح اسمهم يثير الخوف والذعر فى جميع الأنحاء .

القرامطة والفاطميون فى عهد أبى طاهر :

مما يذكر عن أبى طاهر أن علاقة القرامطة فى عهده بدأت تسوء مع الخلافة الفاطمية ، وقد سبق أن ذكرنا أن الإسماعيلية والقرامطة شعبتان من الباطنية ، وان الشعبتين كانتا تتفقان فى محاولة النيل من الخلافة العباسية ، فلما قامت دولة القرامطة فى البحرين ، والدولة الفاطمية فى الشمال الإفريقى بدأت المنافسة بين الدولتين الجديدتين ، وكان الفاطميون يطمعون فى ولاء القرامطة لهم ، ولكن القرامطة كان موقفهم متذبذبا بين الولاء والتمرد وكان إلى التمرد أقرب .

ولعلنا نسبق الأحداث فنقرر أنه عندما امتد نفوذ الفـاطميين إلى مصر والشام ، وامتد نفوذ القرامطة عبر الحجاز إلى الشام كذلك ، بدأ صراع عسكرى بين القوتين ، ولم يهدأ هذا الصراع إلا مـع ضـعف القرامطة ، بعد أن نزلت بهم بعض الهزائم التى جعلت نشاطهم ينكمش وقواتهم تتراجع .

هزائم القرامطة فى عهد أبى طاهر :

لم تكن حياة أبى طاهر انتصارا كلها ، بل نزلت بالقرامطة فى عهده هزائم قاصمة ، ومنها هزيمته سنة ٣١٦ هـ حيث اجتمع بسواد الكـوفة حوالى عشرة آلاف من القرامطة بقيادة حريث بن مسعود ، واجتمع بعين

التمر جمع كبير منهم بقيادة عيسى بن موسى ، وقد أرسل الخليفة العباسى المقتدر هارون بن عريب إلى حريث ، وأرسل صافى البصرى إلى عيسى واستطاع جيشا الخلافة أن يدمرا قوة القرامطة ، فقتلا عددا كبيرا من محاربيهم ، وأسر أكثر من نجا من القتل ، ويقال ان خروج أبى طاهر سنة ٣١٧ هـ للعدوان على مكة كان محاولة للثأر لجماعته التى هزها انهزام أتباعه .

بيد أن انتصار أبى طاهر فى مكة لم يكتمل على النحو الذى أراده ، فإن جموعا من قبائل هذيل بن مدركة قابلوا جنود القرامطة وهم عائدون من مكة بالأسرى والأموال ، واشتبكوا معهم فى قتال استطاعوا به أن يستولوا على كثير مما كان لدى القرامطة من مال مسلوب ومتاع منهوب ، كما هيأت هذه المعركة الفرصة لبعض الأسرى ليفروا من أسر القرامطة .

نهاية أبى طاهر :

فى سنة ٣٣٢ هـ مات أبو طاهر ميتة مزرية ، إذ أصيب بالجدرى ، فأكله هذا المرض يوما بعد يوم حتى قضى عليه .

سابور

قلنا من قبل أن أبا طاهر سلب السلطة من أخيه سعيد الذى كان أبوه قد عهد له بها ، ودار الزمن دورته وجاء أوان الانتقام بنفس الصورة التى فعلها أبو طاهر ، فإن أبا طاهر عهد بالأمر إلى ابنه سابور ، وتولى هذا فعلا بعد أبيه ، وأحس سابور أن عمه أحمد قد يحاول أن يغتصب الأمر منه ، فألقى القبض عليه وسجنه ، ولكن سابور لم يستطع أن يدير دفة الأمر ، كما أن حيلا قوية أطلقت أحمد بن أبى سعيد من سجنه ، ومكنته من الاستيلاء على السلطة من سابور ، ووضع أحمد ابن أخيه سابور فى السجن الذى كان هو فيه من قبل ، ولاقى سابور نهايته فى السجن ، فلم ير النور بعد ذلك ، وزيادة فى الحرص نفى أحمد بن أبى سعيد أولاد أبى

طاهر (اخوة سابور) وأشياعهم إلى جزيرة (أوال) (البحرين الآن) واستقر الأمر لأحمد بن أبى سعيد .

أحمد بن أبى سعيد

قلنا آنفا ان أحمد بن أبى سعيد استولى على الحكم بالقوة والحيلة ومع هذا فقد سارع القائم بأمر الله الفاطمى فى اصدار قرار بتولية أحمد بن أبى سعيد أمر البحرين ، وكان القائم يرمى بذلك إلى خلق جو من الود بين الحركتين المتحدتى الأصل بالشمال الإفريقى وبساحل البحرين ، كما كان يرمى بطريق غير مباشر إلى ابراز سيادة الفاطميين على القرامطة ، وأن القرامطة أتباع للقوى الفاطمية ، وقد سار الفكر الفاطمى آنذاك على محاولة احتواء الفاطميين للقرامطة ، فجدد الفاطميون الإصرار على ضرورة رد الحجر الأسود إلى مكانه ، وكتب الخليفة المنصور الفاطمى بذلك إلى أحمد بن أبى سعيد — كما ذكرنا من قبل — وقد استجاب هذا ورد الحجر إلى مكانه سنة ٣٣٩ هـ وكان الذى حمله سنبر بن الحسين بن سنبر [١] .

وعلى العموم لقد كان عهد أحمد بن أبى سعيد عهد هدنة بالنسبة للفاطميين ، وكان بالنسبة للعباسيين عهدا قليل الحركات العدائية ، ومن ثمّ فأهم ما يمتاز به هذا العهد هو تنمية النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى عنى بها القرامطة عناية كبيرة والتى سنتكلم عنها فيما بعد .

الحسن بن أحمد (الحسن الأعصم)

جاء الحسن بن أحمد وهو المسمى الحسن الأعصم بعد أبيه ، وقد شهد عهد الحسن الأعصم تحولا خطيرا فى علاقات القرامطة بالخلافة

---

(١) المقريزى : الحسن الاعصم ص ١٠٤ .

العباسية والخلافة الفاطمية ، وقد سبق أن ذكرنا أن القرامطة هاجموا الشام ضمن ما هاجموا من أقاليم تابعة للخلافة العباسية ، وثمنـــا لانتصاراتهم وتجنبا لإراقة الدماء تعهد والى الشـــام التابع للخلافـــة العباسية أن يدفع لهم إتاوة سنوية ، وكانت هذه الإتاوة جزءا من الكسب المادى الذى كان القرامطة يحرصون عليه •

وفى مطلع عهد الحسن الأعصم مدّ الفاطميون سلطانهم إلى مصر فالشام ، وبالتالى قطعت الإتاوة التى كانت الشام تدفعها للقرامطة ، وكان ذلك جانبا مما حول العلاقة بين القرامطة والفاطميين إلى الحـــدة والتوتر •

وهناك جانب آخر مهم هو أن الفاطميين كانوا يشجعون القرامطة فى صراعهم ضد العباسيين ويشجعونهم فى حركاتهم المدمرة بالمنـــاطق المختلفة بالجزيرة العربية ، وكان هدف الفاطميين من ذلك أن يشغلوا العباسيين حتى يكوّنوا دولتهم فى الشمال الافريقى وفى مصر والشام ، والخلافة العباسية فى شغل شاغل عنهم •

وهناك نقطة ثالثة كبيرة الأهمية أشرنا لها من قبل وهى أن الدعوة الفاطمية ودعوة القرامطة بينهما صلة مشتركة وأصل واحد ، وبالتـــالى كانا يقفان فى كفتى الميزان موقفا متعادلا ، ثم حقق الفاطميون انتصاراتهم الهائلة فى الشمال الافريقى وفى مصر والشام ، وأعلنوا خلافتهم ، وفى الوقت نفسه كانت حركات القرامطة حركـــات تدميرية تشبه الثورات الطارئة التى لم يوضع لها أساس متين ، وبالتالى حـــاول الفـــاطميون احتواء القرامطة ، وجعلهم جزءا من خلافتهم وممتلكاتهم ، ولم يـــكن قبول ذلك الوضع هينا على القرامطة !

من أجل هذا اتجه القرامطة أن يحوّلوا سياستهم تجاه الفاطميين من تعاون وودّ إلى صراع وحروب ، وقد تم ذلك التحول فى عهد الحسن

الأعصم واستلزم ذلك التحول أن يحاول الحسن مهادنة العباسيين ، والانضمام لهم فى صراعهم ضد الفاطميين ، ويروى فى ذلك أن الحسن الأعصم سأل الخليفة المطيع الله على لسان عز الدولة بختيار البويهى — أن يوليه أمر الشام ومصر ، أو يمده بالمال والرجال ليحارب الفاطميين ، ويُخرج المعزّ لدين الله من القاهرة ، فرفض الخليفة ذلك ، قائلا : كلهم قرامطة وعلى دين واحد ، ولكن عز الدولة بختيار ساعد الحسن الأعصم بالمال والسلاح ليقوم بالصراع ضد الفاطميين ، وحينئذ كتب المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم كتابا يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته ، وأن دعوة القرامطة كانت له وإلى آبائه من قبل ، ودعا القرامطة إلى الطاعة ، وتوعدهم وهددهم إن استمروا فى عصيانهم ، وسيّر الكتاب إلى القرامطة ، فكتب إليه الحسن بن أحمد ردا نصه « وصل جوابك الذى كثر تفصيله وقل تحصيله ، ونحن سائرون إليك على أثره ... » (١) ، وهكذا أسفر العداء بين القرامطة وبين الفاطميين ، وأسقط الحسن بن أحمد اسم المعز لدين الله من الخطبة فى بلاد البحرين وأقامها باسم الخليفة العباسى المطيع (٢) ، بل أمر الحسن بن أحمد بأن يلعن المعزّ لدين الله هو وأبوه على المنابر ، وكان يقول : هؤلاء من ولد القداح كذابون أعداء الإسلام ونحن أعلم بهم (٣) .

والمهم الآن أن نذكر أن صراعا طويلا مريرا قام بين القرامطة وبين الفاطميين فى خلال عهد الحسن الأعصم ، وشهدت سنة ٣٦٠ هـ جولات هائلة فى هذا الصراع كانت الشام الفاطمية مسرحا لها ، ولم يكتف القرامطة بالشام ، وإنما اندفعوا نحو مصر ، وانضم لهم كثيرون ممن كانوا يتبعون العباسيين من أهل الشام ، واتجه القرامطة إلى مصر التى

---

(١) دكتور محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٤٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

(٣) تاريخ اخبار القرامطة ص ٥٩ — ٦٠ .

تحصن فيها جوهر الصقلى ، وأقام الاستحكامات اللازمة ، ثـم التقى جوهر بالقرامطة فى عدة وقعات فى منطقة عين شمس وغيرهـا ، حقق القرامطة النصر فى بعضها ، ولكن نزلت بهم هزائم قاصمة فى البعض الآخر ، وكانت هذه الهزائم مما أوقف خطر القرامطة إلى الأبد .

مصر تقضى على القرامطة :

قامت مصر بدور كبير فى الحروب الصليبية ، وفى الصراع ضد التتار ، واشتهر هذا الدور عند القراء والمفكرين ، ولكن لمصر دورا كبيرا فى حروب القرامطة لم يأخذ نصيبه من الشهرة ؛ وقد وضحه ثابت بن سنان فى كتابه عن تاريخ القرامطة ، ونحن نقتبس منه بعض كلماته فى هـذا المجـال :

ــ فى شهر جمادى الأولى سنة ٢٩٠ حاصر القرمطى مدينة دمشق وضيق على أهلها وقتل أصحاب طنج بن جف واليها ، وأشرف أهل دمشق على الهلاك .. فأمد المصريون أهل دمشق بمجموعة من الجنود والقادة فقاتلوا القرامطة وهزموهم أشد هزيمة وقتلوا زعيمهم الذى كان يزعم أنه إذا أشار بيده إلى الجهة التى فيها محاربوه انهزموا ، وكان يكنى « أبو يحيى : الشيخ » (١) .

ــ فى شوال من السنة نفسها وقعت محاربة بين القرمطى وجيش مصر فى عهد أحمد بن طولون ، فانهزم القرمطى ولم يقدر على المقـاومة لشدة بأس جيوش مصر وجسارتهم وصبرهم على القتال وما أظهروه من الشجاعة ، ففتكوا بالقرامطة فتكا ذريعا ومزقوهم كل ممزق (٢) .

ــ وصل القرامطة فى مصر إلى مدينة تقرب من « عين شمس » سنة ٣٠٦ هـ فخرج لهم جند مصر وحملوا على القرامطة من الميمنة فانهزم

---

(١) المرجع السابق ص ١٩ .
(٢) تاريخ أخبار القرامطة ص ٢٣ .

من بها وتراجعوا إلى خيام القرامطة ، ولحق بهم جند مصر فدمروا خيامهم ، وكبسوهم فيها ، فاضطروا إلى الهزيمة وولوا الأدبار راحلين إلى الشام (١) .

ويذكر المؤرخون أن الجيوش الزاحفة من مصر ضد القرامطة قامت ببعض الحيل العسكرية التى يسرت انتصارها ، فقد استطاع جوهر أن يدس رجالا من عنده من الذين يثق فيهم بين جموع القرامطة ، وهناك تظاهر هؤلاء بالسخط على الفاطميين وعلى كراهيتهم ، ولكنهم كانوا يعملون فى الخفاء على إحداث أنواع من الخلاف والنزاع بين جموع القرامطة ، كما أنهم كانوا عيونا لجوهر فى صفوف القرامطة فنقلوا لـه — سرا — خطط هؤلاء وأحوالهم ، مما مكن لجوهر من إفساد خططهم والإيقاع بهم (٢) .

وهناك حيلة مماثلة قام بها المعز لدين الله بأن راسل حسان بـن الجراح الطائى أمير العرب بالشام الذى كان قد انضم إلى القرامطة فى هجومهم على مصر ، وقد استطاع المعز أن يستميل حسانا إلى جانبه سرا ، وقدم له عطايا مالية سخية — وتم الاتفاق بين الاثنين على أن يتظاهر حسان بتأييد القرامطة ثم ينهزم عنهم فى لحظة معينة ويتركهم هو ورجاله نهبا لجيش المعز ، وقد نفذ حسان هذا الاتفاق ، فاضطرب القرامطة وانهزم جيشهم هزيمة ساحقة ، وسقطوا بين قتيل وأسير (٣) .

ولما جاء العزيز بالله مال إلى سياسة المهادنة مع القرامطة واتجه لجذبهم لجانبه حتى لا يستمروا قوة هائلة فى جانب أعدائه العباسيين ، ومن أجل هذا راسلهم ، واتفق معهم على العودة للعلاقات الطيبة مـع

---

(١) المرجع السابق ص ٥٨ .
(٢) دكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٥٩ .
(٣) تاريخ أخبار القرامطة : ص ١٠٧ .

الفاطميين ، على أن يكون هناك صفح شامل لكل ما ارتكبه القرامطة من مخالفات وما أسالوه من دماء ، وعلى أن يخلى القرامطة الشام ويعودوا إلى البحرين ويقدم الفاطميون للقرامطة مساعدة مالية تقدرها ثلاثون ألف دينار ، وقد تم الاتفاق على ذلك ، وأمن العزيز بالله بذلك جانبهم ، وانحسرت قوات القرامطة فى الإحساء (١) .

وعلى هذا فقد كان عهد الحسن الأعصم عهدا حافلا بالتحركات والاتجاهات ، ولكنه وضع القرامطة فى مواجهة لمصر ألحقت بهم أشد الهزائم مما جعل دولتهم تتجه للفتور ، وتميل نحو النهاية .

أدب الحسن الأعصم :

كان الحسن الأعصم شاعرا مجيدا ، يروى أنه لما نزل الرملة أحضر إليه الخدم فى بعض الليالى شموعا ، فقال لكشاجم كاتبه : يا أبا نصر ، ما يحضرك فى صفة هذه الشموع ؟ فقال كشاجم : إنما نحن فى مجلس السيد لنسمع من كلامه ونستفيد من أدبه ، فقال الحسن بن أحمد فى الحال مرتجلا :

ومجدولة مثل صدر الفتاة
تعرت وباطنها مكتسى
إذا غازلتها الصبا حركت
لسانا من الذهب الأملس

ومن شعره قوله :

إنى امرؤ ليس من شأنى ولا أربى
طبل يرن ولا ناى ولا عود

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠ .

ولا اعتكـاف على خمـر ومجمـرة
وذات دل لهـا سـحر وتجـديد
ولا أبيتُ بَطينَ البطن من شبعٍ
ولى رفيقٌ خفيصُ البطن مجهـود
ولا تسامت بى الدنيـا إلى طمع
يوما ولا غرنى فيهـا المواعيـد

ومن مختار شعره أيضا :

لـه مقلـة صـحّت ولكنْ جفونهـا
بهـا مرض يسبى القلـوبَ ويتْلف
وخدٌ كورد الروض يجْتَنى بأعينٍ
وقد عـزّ حتى أنـه ليس يُقطَف
وعطفة صـدغ لو يعـلّم عطفُهـا
لكـان عـلى عشـاقه يتعطف (١)

بعد الحسن بن أحمد

ذكرنا من قبل أن أحمد بن أبى سعيد نفى أولاد أخيه أبى طاهر سليمان إلى جزيرة أوال ، وكان ذلك العمل مطلع انقسام داخلى خطير فى جبهة القرامطة ، وقد اتضح ذلك إبان الصراع بين الحسن الأعصم وبين الفاطميين ، فقد انتهز كثير من القرامطة الفرصة ليتجهوا نحو اخراج الأمر عن أولاد أبى سعيد جميعا ، وأن يتمردوا على الحسن الأعصم نفسه ، وبوفاة الحسن الأعصم نجح هذا الاتجـاه ، إذ اختير رجلان من هجر هما جعفر واسحق الهجريان ، فقاما بأمر القرامطة ، وعادا للولاء الشامل مع الفاطميين ، وبالتالى لمصارعة العباسيين .

(١) المقريزى : المرجع السابق ص ١١٠ — ١١١ .

وكان هذا الانقسام بين أبناء أبى سعيد الذين يعيشون فى الإحساء والذين يعيشون فى أوال ، ثم كان التنافس بين القادة الجدد ، كان هـذا وذلك بالإضافة إلى الهزائم التى مُنِيَ بها القرامطة ، من أسباب الانحدار بهم نحو النهاية التى سنتحدث عنها فيما يلى :

نهاية القرامطة :

ليس هنـاك تاريخ محدد لنهاية القرامطة ، ويقولون إنه لا يزال هناك بعض القرامطة يعيشون فى الأحساء حتى العهد الحاضر ، أمـا دولة القرامطة فقد كانت نهايتها بطيئة ، ولم تسقط دفعة واحدة ، وإنما ظهرت عليها علامات الضعف ، واستمر الضعف يزداد والمشاكل تتجمع مـدة طويلة حتى كانت النهاية الحاسمة ، وسنحاول فيما يلى السير مع دولة القرامطة ، وهى تضعف ثم تكبو ثم تختفى :

ولعل من أهم أسباب ضعف القرامطة وقوعهم بين أعظم قوتين فى العالم الإسلامى ، وهما القوة العباسية والقوة الفاطمية ، ولم يكن فى طوق القرامطة أن يقاوموا هاتين القوتين الكبيرتين .

ثم كان هناك الانقسام الذى حدث فى صفوف القرامطة ، ويذكر التاريخ أن صفوف القرامطة عرفت الانقسام فى عهد مبكر ، فيروى ابن الأثير أنه فى سنة ٣٢٦ هـ أوقع الله بين القرامطة فتحاربوا فقتل أشرارُهم كفارَهم ، ولو يعودوا يخرجون من هجر للعدوان على الآخرين (١) .

ومن الواضح أن هذا الانقسام حدث فى السنين الأخيرة من عهـد الطاغية أبى طاهر ، وكان ذلك مطلع انقسام لم تختف معالمه ، فبعـد أبى طاهر استطاع أحمد أخوه أن يسلب السـلطة من أولاد أخيه وأن ينفيهم إلى جزر (أوال) كما ذكرنا من قبل .

ومن ثم أصبحت هذه الجزر مركزا للمناوءة ضد القرامطـة فى

(١) الكامل فى التاريخ : حوادث سنة ٣٢٦ هـ .

الأحساء ، ولمـا أسفر الحسن الأعصم عن عدائه للفاطميين أيد الفاطميون أحفاد أبى طاهر ضد الحسن الأعصم ، وانتهزت العناصر غير الشيعية بجزر أوال فرصة الانقسام بين جماعات القرامطة ، فأيدت أحفاد أبى طاهر الذين أبدوا نوعا من الابتعاد عن الانحراف القرمطى ليتسنى لهم التعاون مع العناصر المعادية للحسن الأعصم .

ومن الانقسام كذلك مـا حدث بين جعفر واسحق اللذين آلت لهمـا السلطة فى الأحساء بعد الحسن الأعصم ، ومن الطبيعى أنه يوم تكـون هناك سلطة لرئيسين أو عدد من الرؤساء فى وقت واحد سرعان ما يبرز الانقسام واختلاف الرأى فالخصام .

ومن أسباب ضعف القرامطة صراعهم ضد مصر الذى تحدثنا عنه من قبل ، وما أنزلته بهم مصر من هزائم قصمت ظهورهم ، وجعلتهم إلى حد كبير يوقفون هجومهم على الآخرين .

وفى سنة ٣٧٨ هـ جمع رجل من بنى المنتفق يعرف بالأصفر جمعا كبيرا من الرجال ، وقصد بلاد القرامطة فخرج القرامطة للقائه ، وكان بينه وبينهم وقعة شديدة قتل فيها قائد القرامطة وانهزم جيشه وأسر منه عدد كبير ، وسار الأصفر إلى الأحساء فتحصن منه القرامطة ولم يستطيعوا الخروج للقائه ، فعدل إلى القطيف ، وأخذ ما كان فيها للقرامطة من الأموال والعبيد والمواشى ، وسار بهم إلى البصرة ، ويقول ابن الأثير بعد أن روى خبر هذه الموقعة : إن القرامطة بعد هذه الموقعة لم ينتصر لهم جيش ، ولزموا أراضيهم [1] .

وإذا كان القرامطة قد لزموا أرضهم ولم يعودوا يستطيعون الخروج منها للغزو ، فإن ذلك فتح بابين كبيرين ساعدا فى القضاء عليهم ، أما الباب الأول فهو تخلى البدو الغوغاء عنهم ، هؤلاء الذين كانوا يؤيدون القرامطة سعيا وراء مشاركتهم فيما يحصلون عليه من غنائم .

---

(١) الكامل فى التاريخ : حوادث سنة ٣٧٨هـ .

وأما الباب الثانى فهو إتاحة الفرصة لبعض البلاد التى كانت خاضعة لهم لتخرج عليهم ، وتعلن استقلالها عنهم وذلك مثل عمان التى هب أهلها من الإباضية ومن الأزد معلنين ثورة عارمة ضد القرامطة حتى أخرجوهم من البلاد ، وأعادوا لبلادهم استقلالها (١) .

ومع مطلع القرن الخامس الهجرى كان الانقسام الذى أشرنا إليه من قبل بين أوال والأحساء قد اتجه بأوال إلى الاستقلال عن الأحساء ، وبنى بها سكانها مساجد ، وأقاموا خطب الجمعة باسم الخليفة العباسى ، وسرعان ما تحررت هذه الجزر من حكم القرامطة .

بل أصبحت أوال مركزا للصراع ضد الأحساء فقد أرسلت الخلافة العباسية جيشا ليساعد أوال فى الهجوم على الأحساء ووقعت موقعة خطيرة فى الأحساء سنة ٤٦٩ هـ بين جيش أوال مؤيدا بجيش العباسيين وبين القرامطة ، ونزلت بالقرامطة فى هذه الموقعة هزيمة قاصمة كانت أساسا لنهاية دولة القرامطة ، وتسمى هذه الموقعة « موقعة الخندق » (٢) .

وقد وضعت (موقعة الخندق) الأساس لنهاية القرامطة الذى سنرويه فيما يلى :

- عندما ضعف القرامطة تصدى قادة العرب فى منطقة البحرين للقضاء عليهم ، وقد اشترك فى ذلك ثلاث فرق عربية كبيرة :

— الفرقة الأولى بقيادة عبد الله بن على العيونى وهو رجل من بنى عبد القيس ، يسكن مشارف العيون بالأحساء ولذلك سمى العيونى : فطمع فى أخذ الأحساء من القرامطة ، وثار عليهم ، ودارت بينه وبينهم عدة معارك أذعنوا فى نهايتها وذلوا وسلموا الأحساء لعبد الله بن على العيونى .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩٣ .
(٢) دكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٢٥٠ .

— الفرقة الثانية بقيادة البهلول محمد بن يوسف ، وكان البهلول في جزر البحرين ضامنا لمكوس هذه الجزر للقرامطة ، فلما ضعف شأن القرامطة بسبب الصراع بين أوال والأحساء طمع في الاستقلال بهذه الجزر عن هؤلاء وأولئك وأظهر العصيان ، فأرسل القرامطة إلى قبائل عبد القيس وقالوا لهم استرجعوا هذه الجزر لكم لا لنا ، ونحن نساعدكم في ذلك ، فخرج جيش من عبد القيس ومن القرامطة ، ولكن البهلول استطاع أن يقضى على هذا الجيش ، فاستقر له الأمر في هذه الجزر .

— الفرقة الثالثة بقيادة يحيى بن عياش ، وقد ثار في القطيف وطرد منها عمال القرامطة ، واستولى عليها وقويت شوكته وعجز القرامطة عن استرجاع القطيف منه .

وكان العالم الإسلامي قد انقسم إلى دويلات ، وكان المنتصر في أرض يستولى عليها ويعد أميرا لها ولا يربطه بالخلافة العباسية إلا خيط ضئيل . ومن هنا فإن هؤلاء المنتصرين لم يسلموا الأرض التي خلصوها من القرامطة إلى الخلافة ، بل كون كلّ منهم لنفسه إمارة في منطقة ، وانتهت بذلك دولة القرامطة سنة ٤٦٩ هـ بعد حوالى قرنين من التدمير وسفك الدماء ، ولابدّ لليل من آخر .

نظم القرامطة
السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية

على الرغم مما عرف عن القرامطة من حب للتدمير وسفك للدماء ، كانت لهم نظم سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية جديرة بالدراسة ، وأغلب الظن ان حركة التدمير التي قاموا بها كان جديرا بها أن تقضى على دولتهم في وقت قصير ، كما حدث للزنج ، لولا هذه النظم التي حمت الدولة ، وأطالت عمرها إلى حوالى القرنين [1] .

---

(١) انظر تحفة المستفيد لمحمد بن عبد الله الانصارى ج ١ ص ١٠٠ وملوك العرب للريحانى ج ٢ ص ٢٥٠ .

وفى ختام دراستنا عن القرامطة نعطى لمحة عن هذه النظم :

ففى مجال النظام السياسى كان هناك مجلس شورى هو الذى يدرس أمور الدولة السياسية والاقتصادية والعسكرية ، ويتخذ فيها القرارات التى يراها ، وكان هذا المجلس يسمى مجلس « القعدانية » ويتكون من أبرز الشخصيات فى النواحى السياسية والادارية ، وكان عدد أعضائه اثنى عشر عضوا [١] أو ستة فى بعض الروايات [٢] .

ومن الناحية الاقتصادية وضع القرامطة نظاما أقرب إلى ما يسمى الآن بالنظام الاشتراكى ، أو حتى النظام الشيوعى ، فقد جعلوا الدولة تملك كل شىء ، وتنفق على الرعايا حسب حاجتهم ، وقد سبق أن ذكرنا أن القرامطة جمعوا أموال كل قرية فى موضع واحد منها ، وأقاموا رجلا من الثقات ، يرعى هذه الأموال من غنم وبقر وحلى ومتاع وغير ذلك ، ويقدم للناس جميعا الطعام والكساء بما يكفيهم ويسد حاجتهم ، حتى لم يبق فى البلاد فقير ولا محتاج .

ويذكر عارف تامر [٣] أن القرامطة لم يكن عندهم ضرائب ولا أعشار ، وإذا احتاج أحدهم إعانة أعانه الآخرون ، وكل غريب ينزل أرض القرامطة وله صناعة كان يعطى ما يكفيه من المال ليشترى ما يلزم لإنهاض صناعته من مال وآلات ، وكانت عندهم بيوت لسكنى الغرباء على حساب الجميع .

وفى الناحية العسكرية أدرك القرامطة أن إخلاص الجند يرتبط بمدى إغداق الأموال عليهم ، ومن هنا كان سخاؤهم الواسع على رجال جيشهم ، وعلى البدو الذين كانوا يساعدونهم فى الحروب .

---

(١) دكتور عبد العزيز الدروى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٢٧ .

(٢) المقريزى : الحسن الاعصم ص ١٠٤ .

(٣) القرامطة ص ٧٧ .

أما الجيش القرمطى ، فقد عنى أبو سعيد بوضع الأسس التى توفر له جيشا يجمع بين الإخلاص والولاء وحسن التدريب ، وعلى هذا كان يختار من سن الرابعة من تبدو عليه الصحة والعافية ، ويجمعهم فى دور محصنة لذلك ، ويعين لهم المشرفين والمعلمين ، وكان يَسِمُ هؤلاء الأطفال بسمة على الخدود حتى لا يختلطوا بغيرهم ، فإذا شبوا قدم لهم دراسات فى ركوب الخيل والطعان ، فكان هذا النظام أشبه بما أسماه الأتراك فيما بعد بالجيش الانكشارى ، ولم يكن جيش القرامطة على هذا النمط يعرف إلا الولاء الكامل للدولة وللزعيم (١) .

وفى الناحية الاجتماعية عرف المجتمع القرمطى نظام الطبقات ، وكان يتكون من طبقة الحكام ، ولهم السيطرة على النظم الادارية وقيادة الجيش ، وطبقة العرب وكانوا يكونون العنصر العسكرى فى الدولة ، وطبقة العمال والفلاحين ، وهؤلاء يزاولون التجارة وبعض الحرف ، ومن أهمها الزراعة .

وكان فى المجتمع القرمطى آلاف الزنوج يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين (٢) .

وكان للمرأة نصيب موفور فى المجتمع القرمطى لا يقل عن نصيب الرجل لولا ما أبيح فى هذا المجتمع من شيوعية فى النساء ، مما خلق تدهورا واسعا فى نطاق الدولة .

كشاجم والقرامطة :

كان كشاجم (أبو الفتح حسن بن محمود) كاتب القرامطة وهو من أعلام الشعراء والأدباء ، وكان بغدادى المولد ، وقد ذكره الثعالبى فى يتيمة الدهر ، والحصرى فى زهر الآداب ، وبعده كتب لهم ابنه

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢١٦ .

(٢) عارف تامر : القرامطة ٧٧ .

أبو الفتح نصر ، ولقب كشاجم مثل أبيه ، وقد سبق أن ذكرناه عند حديثنا عن « أدب الحسن الأعصم » .

وكشاجم هو الذى ألف كتابا يعد من أروع الكتب فى بابه وهو كتاب « أدب النديم » وقد اقتبسنا منه اقتباسات مهمة فى كتابنا « التربية الإسلامية ص ٧٤ وما بعدها » وفيه يقول : إن على الجليس أن يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن الكلام ، وحسن الاستماع إمهال المتحدث حتى ينقضى حديثه والإقبال عليه بالوجه والنظر ، والوعى لما يقول ، فلا يشغل السامع طرفه عن المتحدث بنظر ، ولا أطرافه بعمل ، ولا قلبه بفكر ، ولا يسابقه إلى حديث يبدأ به (١) .

وإذا كان هذا الكتاب قد ألف ليتبع فى بلاط القرامطة فإن ذلك يوحى بما كان لهذا البلاط من نظم وتقاليد عالية .

وبعد ، فهذه دراسة عن القرامطة نأمل أن تفتح الباب لدراسة أوسع ، والحق أن انحراف القرامطة الدينى جعل أكثر الكتاب يتدارسونهم كثورة أو حركة باطلة وقل من درس تاريخهم كدولة لها كيان داخلى ، ولها نظمها وقوتها ، ولعل هذه الدراسة تفتح الطريق لإحقاق الحق ، وابراز دولة القرامطة فى وضعها الحقيقى بكل مالها وما عليها .

---

(١) أدب النديم : ص ٣٢ وما بعدها .

العيونيون فى البحرين

ينسب العيونيون — كما ذكرنا من قبل — إلى فرع من بنى عبد القيس كان يسكن مشارف العيون بالأحساء ، وكان من هذا الفرع عبد الله بن على العيونى الذى ثار على القرامطة فى الأحساء واستطاع أن يقضى عليهم فيها ، وقد ذكرنا من قبل كذلك أن أميرين آخرين من أمراء العرب هما يحيى بن عياش والبهلول محمد بن يوسف قد قضيا على سلطان القرامطة فى القطيف وجزر البحرين ، وأنهى هؤلاء بذلك دولة القرامطة .

ثم حدث تنافس قوى بين هؤلاء الزعماء انتهى بسيطرة العيونيين على المناطق الثلاث وكانت مراحله كالآتى :

— حاول يحيى بن عياش أن يستولى على جزر البحرين ولكنه عجز عن ذلك ، ولما مات خلفه فى الإمارة ابنه زكريا الذى استطاع أن يحقق الأمل الذى رسمه أبوه ، فقد زحف على جزر البحرين وظفر بالبهلول وقتله وضم هذه الجزر إلى ولايته بالقطيف .

— دفع هذا النصر صاحبه إلى طلب المزيد من التوسع ، فاتجه زكريا إلى مهاجمة الأحساء رجاء الظفر بها والقضاء على عبد الله العيونى فخرج بجيش عظيم ، ولكن عبد الله قابله بجيش جرار فهزمه فى اللقاء الأول ، ثم عاود الكرة فقتله فى اللقاء الثانى ، وضم العيونى منطقة القطيف وجزر البحرين إلى إمارته بالأحساء ، وتكون من هذه المنطقة الإمارة العيونية ، وهى إمارة وراثية دامت أكثر من قرن ونصف قرن (٤٧٠ — ٦٣٠ هـ) ويقول ابن مقرب شاعر آل العيونى فى ذلك :

وصار ملك ابن عياش وملك أبى الـ
بهلول مع ملكنا عقدا لنا نظما (١)

---

(١) انظر تحفة المستفيد ص ١٠٠ وملوك العرب ج ٢ ص ٢٥٠ .

من أمراء الأسرة العيونية :

هناك مخطوط مجهول المؤلف بدار الكتب المصرية (المكتبة التيمورية) (رقم ٦٣٧ تاريخ) يتحدث عن أمراء العيونيين ، وقد نشر هذا المخطوط فى ملاحق كتاب « تحفة المستفيد » وهو يتحدث عن عشرين أميرا ابتدأ حكمهم سنة ٤٦٧ وشمل هذا الحكم ثلاث مدن هى : هجر « الأحساء » وأوال « البحرين » والخط « القطيف » ونذكر فيما يلى أهم هؤلاء الأمراء بعد عبد الله بن على :

الفضل بن عبد الله بن على وكان شجاعا كريما ، بعيد الهمة ، كثير الأسفار والتنقلات والتجول فى البرارى لتعقب المفسدين والأخذ على أيدى الأعراب الذين يرتزقون من قطع الطرق ، فاستقرت البلاد فى عهده وازدهرت .

ومنهم ابنه محمد بن الفضل وكنيته « أبو سنان » وكان يسكن جزيرة « أوال » وكان نائبه فى الأحساء عمه على بن عبد الله ونائبه فى القطيف ابنه غرير — وكان الكرم من أبرز صفات محمد بن الفضل .

ولما مات أبو سنان حاول عمه أن يخلفه باعتباره أكبر أفراد الأسرة ، وحاول ابنه أن يخلفه باعتباره ابنه وقام صراع بين الاثنين عانى كل منهما من نتائجه ، وأخيرا قتل العم (على بن عبد الله) ولكن « شكر » ابن على بن عبد الله أخذ مكان أبيه وكان عالما كريما وفارسا شجاعا فرجحت كفته .

وبعد شكر آل ملك العيونيين إلى محمد بن أحمد بن عبد الله بن على وقد اتسع ملك العيونيين فى عهده ، وامتد نفوذهم إلى نجد مما جعل الناصر لدين الله سلطان مصر يوكل لهذا الأمير خفارة الحجيج من بغداد إلى مكة .

وبعد ذلك وقعت خلافات وأحداث أضعفت الجبهة العربية وهيأت لتدخل الفرس فى هذه البقاع [1] .

(١) تحفة المستفيد فى تاريخ الاحساء القديم والجديد ص ١٠١-١٠٤ .

بعد أسرة العيونيين

فارس فى البحرين :

عندما وقع الخلاف والضعف بين أمراء العيونيين انتهز ملك العجم الفرصة وتدخل فى شئون البحرين ، فدخل هذا الملك جزيرة قيس واحتلها من العرب ، ثم اجتاز بجنوده البحر إلى جزيرة البحرين فأخذها ، واستولى بعدها على الأحساء والقطيف وغيرهما من بلدان الخليج ، واضطر الأمير العربى أن يذعن للملك الفرس فوقع معه صلحا غير كريم أملى فيه ملك الفرس شروطه وقد ذكرها محمد بن عبد الله الأنصارى •

وكان ملك الفرس يولى على البحرين ولاة من العرب يحكمون باسمه •

والذى نريد أن نقوله بعد هذه الجولة أن منطقة البحرين الواسعة قد بدأت فى التفكك والانحلال منذ قامت بها الولايات الثلاث بعد القرامطة ، وكان ذلك أساس ما يوجد الآن فى هذه المنطقة من دول ودويلات •

المغول فى البحرين :

فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) بدأ زحف المغول المدمر إلى أرض الإسلام ، وقد حارب المغول حضارة الإسلام ، وأراقوا دماء الآلاف من المسلمين ، وكانوا كالقرامطة قسوة وإذلالا للمسلمين ، وسيكون لنا معهم حديث فى الجزء الثامن من هذه الموسوعة والمهم أن منطقة البحرين خضعت للموجة الثانية من موجات المغول ، وهى الموجة التى قادها هولاكو وكمل بها أعمال جده جنكيز خان البعيدة عن الإنسانية ،

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب جـ ٢ ص ٢٥١ وانظر كذلك تاريخ البحرين للشيخ خليفة بن محمد النهيان •

(٢) تحفة المستفيد جـ ١ ص ١٠٨ •

ونجا العالم العربى من سطوة المغول بالهزيمة الكبرى التى أنزلها المصريون بهم فى عين جالوت سنة ١٢٦٠ م وفيما تبعها من هزائم ، ولكن البحرين بعد أن نجت من المغول عادت إلى الخلافات والتفكك التى كانت قد بدأت عقب نهاية القرامطة ، وكثر الطامعون فى مناطقها ، فظهرت قوى متعددة تحكم كل منها منطقة بالبحرين ، وممن حكم فى هذه المنطقة آنذاك أولاد مانع بن عصفور ودارهم الأحساء والقطيف ، ومنهم كذلك بنو الحسين وبنو عامر بن عوف وبنو مغامس .

نفوذ مصر فى البحرين :

وكان لمصر التى هزمت المغول نفوذ فى دول الخليج التى قامت بعد هزيمة المغول ، وفى ذلك يقول صاحب تحفة المستفيد : إن آل عامر وفدوا على السلطان بيبرس بالديار المصرية ، وفى مقدمتهم محمد بن أحمد العقدى ، فقرّبوا بأتم الاكرام ، وأفاض عليهم سابغ الانعام ، ولوحظوا بعين الاعتناء ، قال فى مسالك الأبصار : وتوالت وفادتهم على الأبواب العالية الناصرية ، وأغرقتهم الصدقات والعطايا بديمها ، فاستجلبت النائى منهم ، وبرز الأمر السلطانى إلى آل فضل رؤساء بوادى الشام بتسهيل الطريق لوفودهم ، وتأمينهم فى صدورهم ووورودهم .

وعلى هذا كان حكام هذه المناطق يعترفون بالولاء لمصر طيلة عهد المماليك تقريبا حتى جاء القرن السادس عشر ومعه الزحف العثمانى والزحف الأوربى .

---

(١) محمد الانصارى : تحفة المستفيد جـ ١ ص ١١٩ — ١٢٠ .
(٢) محمد الانصارى : تحفة المستفيد جـ ١ ص ١١٩ وهو ينقل بعض الفقرات من مسالك الابصار جـ ٤ ورقة ٣٠ مخطوط بدار الكتب .

صراع النفوذ

ابتداء من القرن السادس عشر

صورنا من قبل خطورة الخليج العربى وخطورة منطقته ، وذكرنا أهميتها السياسية والعسكرية والاقتصادية حتى قبل الكشف عن البترول ، ولا عجب إذن أن تجذب هذه المنطقة أنظار الطامعين ، وقد بدا ذلك مع دخول العثمانيين أرض العرب فى أوائل القرن السادس عشر وبدأ كذلك مع كشف طريق رأس الرجاء الصالح قبل ذلك بقليل .. وبذلك اعتبرت منطقة الخليج العربى بالغة الأهمية بالنسبة لاستعمار الهند والهند الصينية والملايو وسنغافورة وإندونيسيا ، وعلى هذا اشترك فى الصراع عليها البرتغالون والانجليز ، ورأت روسيا وهى مجاورة لإيران التى تطل على الخليج أن وجود الدول الأوربية بالخليج يهدد سلامتها فتطلعت إلى مد نفوذها إليه ، وفى نفس الفترة تطلعت القوة العثمانية للمنطقة باسم الإسلام وبخاصة بعد أن دخلت العراق إذ اتصلت بالخليج عن طريق البصرة ، وأصبح وجود الأوربيين به يهدد سلامتها ، ودخلت فرنسا حومة الصراع إذ كانت لها تطلعات فى الهند الصينية ، ثم كانت تحاول أن تدخل نفسها فى هذه المعمعة لتساوم بهما ، وانتهزت بلاد فارس فرصة هذا الصراع فزجت بنفسها فيه ، تحالف هذا أو ذاك كلما حانت لها فرصة لعلها تستعيد مكانها فى تلك المناطق .

العرب يواجهون قوى الاحتلال :

واجه سكان المنطقة من العرب هذا الصراع بجأش ثابت ، وخاضوا معامع هائلة ليحققوا النصر ، وحملوا العبء كله ليخلصوا بلادهم من الطامعين ، ويمكن القول بادىء ذى بدء أنهم طردوا البرتغاليين والهولنديين والعثمانيين والفرس . ولكن قناتهم لانت أمام الانجليز لقدرة الانجليز السياسية من جانب ، ومن جانب آخر كانت قناة العرب قد لانت من كثرة الصراع ومن التفتت كما سنرى فيما بعد .

ذلك موجز القول عن الصراعات التى حلت بالخليج ابتداء من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين ، وسنعطى فيما يلى بعض التفاصيل لهذا الإجمال :

البرتغاليون :

كان البرتغاليون أسبق الأوربيين صلة بمنطقة الخليج ، فقد وفدوا إليه عقب انتصاراتهم ضد المسلمين فى الأندلس ، وقد بدأت صلاتهم بهذه المنطقة عقب نجاح رحلة فاسكودى جاما التى بدأت سنة ١٤٩٦ وطاف بها حول رأس الرجاء الصالح فكشف طريقاً للهند والشرق الأقصى دون المرور بالبحر الأبيض والبحر الأحمر •

وفى سنة ١٥٠٧ بدأ البرتغاليون زحفهم على جزيرة هرمز وأخضعوا حاكمها وألزموه بدفع جزية سنوية ، ولكنهم لم يقنعوا بهذا النصر ، بل احتلوا الجزيرة سنة ١٥١٥ ثم احتلوا « صحار » ومسقط وعبروا مضيق هرمز واحتلوا جزر البحرين ثم القطيف وقطر ، ولكنهم لم يتمكنوا من احتلال الأحساء لأن العثمانيين كانوا قد سبقوهم إليها ، وهكذا نزلت أقدام الأوربيين لأول مرة بتلك المنطقة واستبدت بها ، ولكن أقدام البرتغاليين لم تثبت بها لأن قوى متعددة عارضتها كان فى قمتها العرب الذين هبوا يدافعون عن بلادهم ، وقاموا بعدة انتفاضات وحركات جريئة ، وفى إحدى هذه الحركات قتل أخو نائب ملك البرتغال بالهند سنة ١٥٢٨ ، وتتالت الحركات طيلة القرن السادس عشر •

وكانت هرمز تمثل أهم مركز برتغالى فى الخليج ، وقد استطاع العرب أن يواصلوا صراعهم ضدها دون انقطاع ، وعندما عمدت البرتغال لتعزيز حاميتها سنة ١٥٨٥ قتل العرب ٢٥٠ جنديا برتغاليا وهم يتجهون لتعزيز هذه الحامية ، فلما جاء القرن السابع عشر أنزل العرب وبخاصة أهل عمان بالبرتغاليين هزائم خطيرة بمنطقة الخليج فقد طردوهم من البحرين سنة ١٦٠٢ واستولى سلطان عمان على « صحار »

ثم حاصر العرب مسقط واستولوا عليها ، وهكذا لم تأت سنة ١٦٢٢ حتى كان البرتغاليون قد فقدوا كل ممتلكاتهم بمنطقة الخليج العربى ، ثم فقدوا ممتلكاتهم بخليج عمان فلم تأت سنة ١٦٥٠ حتى كان نفوذهم قد زال من المنطقة نهائيا ، وقدمت انجلترا وغيرها بعض المساعدات للعرب فى الصراع كما سنرى .

الفرس والانجليز والهولنديون :

فى سنة ١٥٨٣ حمل ثلاثة من المغامرين الانجليز رسائلَ من الملكة اليزابث إلى ملك كمبوديا وإمبراطور الصين لإقامة علاقات تجارية وودية بين الإنجليز ودول الشرق الأقصى ، وقد سار حملة هذه الرسائل براً إلى البصرة ثم أبحروا فى الخليج إلى هرمز ، ومن هناك ذهبوا إلى الشرق الأقصى ، وعادت هذه البعثة فقدمت تقارير مشجعة للغاية عن الامكانيات التجارية العظيمة فى تلك المناطق ، وبناء على هذه التقارير أنشئت شركة الهند الشرقية الانجليزية سنة ١٦٠٠ وبدأت ترسل أساطيلها التجارية إلى الخليج العربى والشرق الأقصى .

وكانت البرتغال قد سبقت إلى هذه المناطق كما قلنا آنفا ، فحدث صراع بين القوتين الأوربيتين ، وانضم الفرس إلى الانجليز لما لاقوه من عناء مع البرتغاليين ، وبينما كان الصراع يدوز ظهرت قوة الهولنديين فى الخليج فتعاونت هذه أيضا ضد البرتغاليين ، فكان هذا التحالف مؤيدا للنشاط العربى وواضعا نهاية للوجود البرتغالى بالخليج كما ذكرنا من قبل .

ثم لعبت السياسة الانجليزية دورها ، فاتجهت إلى التخلص من قوة العرب الهائلة أو اضعافها ، واتخذت الفرس وسيلة لذلك ، فرمت العرب بالفرس ، ثم تحالفت مع الفرس لتكون عونا لها فى الصراع الذى توقعت

أن يدور فى المنطقة لتحديد مستقبلها ، وللحصول على موافقة فارس جعلت لها السلطة على البحرين عقب خروج البرتغاليين منها سنة ١٦٠٢ .

وأصبح الخليج العربى به قوة العثمانيين ، وبه الهولنديون ، والفرس والانجليز ، بالإضافة إلى القوة العربية الأصيلة ، التى تعمل بجد لحماية الديار والدفاع عن الوطن .

ولنعايش فيما يلى ما دار من صراع فى هذه المنطقة :

الصراع فى الأحساء :

لعل الأحساء كانت أشق أنواع الصراع وأطوله فى هذه الفترة ، وتعرضت لحركات وقوى كثيرة ، وسنكتفى بإعطاء قائمة بهذه الحركات القاسية فيما يلى :

— استولى العثمانيون على الأحساء أول مرة سنة ٩٦٣ هـ وولوا عليها على بن أحمد البريكى ، وجاء بعده ابنه محمد ثم ولى العثمانيون عمر باشا على الأحساء .

— استولى آل حميد على الأحساء بقيادة براك بن غرير سنة ١٠٨١ هـ وآل حميد بطن من بنى خالد الحجاز ، وسموا خالد الحجاز تمييزا لهم عن بنى خالد حمص ، وكان استيلاء آل حميد فى فترة ضعف العثمانيين ، ومن ولاة آل حميد محمد بن براك وسعدون بن محمد بن براك وسليمان أخوه ، وعرعر بن دجين بن سعدون بن محمد وسعدون ابن عرعر .

— حصل صراع بين الإمام سعود الكبير وبين بنى خالد ونجح الإمام سعود فيه ودخل الأحساء وغيرها من المناطق التى كانت تابعة لبنى خالد ، ولكن انقلابا سريعا وقع ضده عقب رحيله من الأحساء وأصبحت أمور الأحساء مضطربة .

ـ غزا العثمانيون الأحساء مرة أخرى عن طريق العراق لتثبيت سلطانهم وكان ذلك سنة ١٢١٣ •

ـ لما غزت مصر بلاد نجد انضم محمد وماجد أبناء عرعر إلى ابراهيم باشا فى هذا الزحف ضد السعوديين ، وطلبا من ابراهيم باشا بعد استسلام الدرعية أن يوليهما الأحساء ففعل لسابق صلتهم بها •

ـ فى عهد الإمام تركى استعاد السعوديون الأحساء من بنى خالد •

ـ لما زحف جيش مصر سنة ١٢٣٨ بقيادة خورشيد إلى نجد ودخل الرياض استولى أيضا على الأحساء وعين أحمد بن محمد السديرى أميرا للأحساء •

ـ فى سنة ١٢٨٧ استولى السعوديون على الأحساء وذلك فى عهد سعود بن فيصل •

ـ صدرت أوامر القسطنطينية بزحف القوات العثمانية إلى الأحساء فسارت واحتلتها سنة ١٢٨٨ هـ ، ومن ولاة الأحساء العثمانيين محمد نافذ باشا ومدحت باشا ثم صالح باشا •

ـ اقتحمها الملك عبد العزيز فى الدولة السعودية الثانية واستسلم له العثمانيون كما ذكرنا عند الحديث عن المملكة العربية السعودية (١) وانتصر العرب فى ساحة الأحساء بعد طول عناء وأصبحت الأحساء جزءا من المملكة العربية السعودية •

الصراع فى البحرين :

قلنا من قبل إن الفرس عادوا للسيطرة على جزر البحرين عقب خروج

---

(١) اقرأ تحفة المستفيد ص ١٢٣ وما بعدها واقرأ الجبرتى فى الحملات المصرية تحت السنوات التى أشرنا لها •

البرتغاليين منها سنة ١٦٠٢ وأخذوا يعينون ولاة من العرب عليها ولكن الحكم الفارسى فى البحرين تسرب له الخلل الذى اعترى الحكم فى بلاد فارس نفسها ، حتى أن آخر عامل عربى للفرس بالبحرين ، وهو الشيخ نصر آل مدكور استنجد حكومة إيران فى حملته على آل خليفة فى الزبارة (وهى بلد على شاطىء قطر مواجهة لجزر البحرين) فلم تنجده إيران ، وعلى هذا هزم فى المعركة سنة ١١٩٧ هـ (١٧٨٢) وفر هذا العامل إلى بوشهر ، ودخل آل خليفة جزر البحرين منتصرين (١) .

وانتصر العرب على الفرس فى ساحة البحرين واستقلوا بها عنهم .

الصراع ضد هولندا :

حمل العرب نصيبهم وافرا فى الصراع ضد هولندا ، وربما يقال ان انجلترا ساعدت فى هذا الصراع ، وهذا حق ، ولكن النصيب الأكبر حمله العرب ، أما الفرس فقد ارتبطوا بصداقة وطيدة مع انجلترا ولم يقوموا بجهد ذى بال فى الدفاع عن الخليج ، وكانت هولندة تنافس انجلترا فى الخليج منافسة حادة ، وكان لها التفوق التجارى خلال القرن السابع عشر ، ورأت هولندا أن تحذو حذو بريطانيا فى التحالف مع إيران ضد العرب فساعدت إيران فى حملة ضد عمان ، كما تطوعت هولندا لإخضاع البحارة العرب الذين تمردوا ضد قادتهم فى اسطول إيران أيام نادر شاه (٢) ولكن الهولنديين لم يستطيعوا بذلك أن يكسبوا صداقة إيران التى كانت متجهة اتجاها تاما لانجلترا ، وزاد هذا التصرف من كراهية العرب للهولنديين فأشعلوا صراعا طويلا أذاقوا خلاله الهولنديين ألوانا من المتاعب ، وكان الصراع العربى بقيادة الأمير ناصر وابنه الأمير مهنا فى « جزيرة خارج » صراعا مريرا وطويلا ومثابرا ،

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب جـ ٢ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) من مقال عن « الأوربيون فى الخليج » للاستاذ أحمد العنانى ٨٠ — ٨٢ بمجلد الدوحة عدد يناير سنة ١٩٧٧ .

وقد عين الهولنديون حاكما آخر لجزيرة « خارج » فبادر هذا بالهجوم على مهنا ، وهناك استدرجه العرب إلى مكان وجد نفسه فيه مطوقا ، وشب قتال دمر الهولنديين فسقط منهم من سقط وفرت فلولهم ، ولكن القائد العربى لحق بهم وما زال يهاجمهم حتى صفى وجودهم فى آخر مركز لهم بالخليج سنة ١٧٦٥ (١) .

إنجلترا :

فى خلال الصراع السابق كانت انجلترا تتدخل أحيانا ، وتصارع القوى الاستعمارية الأخرى ليخلوا لها الجو ، ولكنها لم تكن قط صديقة للعرب ، بل كانت تعمل لمصالحها الخاصة بالتعاون مع الهولنديين ضد البرتغال ، وبالتعاون مع إيران فى أغلب الأحوال ، وعلى هذا حمل العرب عبء أكثر الصراع لإزالة القوى الأجنبية عن الخليج ، وبخاصة أن انجلترا شغلت عن الخليج حينا من الزمن ، بسبب صراعها فى أوربا ضد العثمانيين وضد أطماع نابليون التى نشطت فى أوربا وفى الشرق ، فلما فرغت من ذلك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عادت للخليج لتستكمل فيه نفوذها ، ومما ساعدها على النجاح أن الدول العربية كانت قد ضعفت من طول الصراع ، وكان قد أصابها التفكك والتفتت ، وانتهز الانجليز هذه الفرصة فعقدوا اتفاقات غير متكافئة مع قادة الدويلات التى أظهرها التفكك فى منطقة الخليج ، وقد ظلت هذه الاتفاقات سارية المفعول حتى أزيلت فى العقد السابع ومطلع العقد الثامن من القرن العشرين وحققت هذه الدول استقلالها ، وقد بدأ ذلك بتغير السياسة العالمية الذى قضى أن تنكمش بريطانيا ، ولم يسمح لها بالاستمرار فى السيطرة على الشعوب ونهب ثرواتها ، كما أن الثورات العربية بالمناطق المختلفة فى الخليج وفى الجنوب العربى وغيرها أبرزت أن تكاليف الاحتلال ستكون باهظة ، وظهرت القوى العالمية الأخرى التى جعلت بريطانيا تحس أنها لم يعد لها أن ترتع فى العالم كذئب كاسر مع

---

(١) المقال السابق بتصرف .

وجود الآساد ، وتجلت أسباب أخرى كثيرة جعلت بريطانيا تعلن سنة ١٩٦٨ اعتزامها الجلاء عن الخليج العربى قبل نهاية ١٩٧١ ، وقد فتح هذا الاعلان الباب لقوى أخرى لتحاول مد نفوذها بطريق أو بآخر لتملأ هذا الفراغ ، ولكن حركة تجمع ويقظة ظهرت فى المنطقة فأوقفت محاولات الغزو الجديدة أمريكية كانت أو إيرانية ، وتتمثل حركة التجمع فى الاتجاه لتكوين دولة من إمارات ساحل عمان ، كما تتمثل حركة اليقظة فى نشاط الدول العربية وتحركات الجامعة العربية .

ولنعد الآن للوراء قليلا لنتحدث عن الدول الجـديدة التى نشأت فى هذه المنطقة ، ولنسر مع تاريخها حتى العهد الحاضر ، ومن الواضح أن الساحل العربى للخليج يشمل الآن الدول التالية :

١ — دولة البحرين .

٢ — دولة قطر .

٣ — دولة الإمارات العربية المتحدة .

٤ — دولة الكويت .

أما الأحساء — وهى أيضا من أهم مناطق الساحل — فقد تحدثنا عنها من قبل وقد دخلها الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩١٣ وأصبحت جزءا من المملكة العربية السعودية .

وسنتكلم عن الدول الأربعة السابقة بترتيبها السابق ، فنبدأ بدولة البحرين لنواصل حديثنا السابق عن البحرين ، ثم يجىء حديثنا عن قطر فقد كان قدرها شديد الارتباط بقدر جزر البحرين ، وبعدها نتكلم عن دولة الإمارات ، فقد عانت هذه الإمارات صور الحياة التى عانتها البحرين وقطر مع الاستعمار والمستعمرين .

أما الكويت فينبغى أن يطول معها حديثنا بعض الشىء لأنها لـم ترد فى أحاديثنا السابقة ، ولأنها سبقت هذه الدول الثلاث فى دورها السياسى والحضارى فى العصر الحديث .

دولة البحرين

لقد تحدثنا عن البحرين فيما سبق حديثا طويلا ، ووضحنا أن كلمة « البحرين » كانت تطلق على اقليم ساحلى فسيح يشمل المساحة من قطر إلى البصرة ، ويضرب فى الداخل مسافات يختلف عمقها باختلاف قــوة الدولة التى تحكم الساحل ، ويشمل كذلك الجزر التى تسمى الآن « البحرين » وقد تتبعنا تاريخ البحرين الكبير مــن مطلع الإســلام حتى تفككت المنطقة وانحلت ، وأصبحت جزر البحرين دولة قائمة بذاتها ، وهنا يبدأ تاريخها الخاص ، أما بالنسبة للتاريخ العام فقد كانت « جزر البحرين » جزءا من دولة البحرين الكبرى التى أوردنا تاريخها فيما سبق •

وسنقص فيما يلى تاريخ دولة البحرين :

تتكون دولة البحرين من مجموعة من الجزر تقع بين شبه جزيرة قطر وبين ساحل الأحساء السعودى ، ومساحة هذه الجزر حوالى ٢٣٠ ميلا مربعا ، وأهم جزر البحرين كانت تسمى (دلمون) ثم سميت (أوال) وأخيرا سميت البحرين لتكون امتدادا تاريخيا للقطر الكبير الذى تقلص وأصبح متمثلا فى هذه الجزر وبخاصة فى جزيرة البحرين •

وطول جزيرة البحرين حوالى ٢٧ ميلا وعرضها عشرة أميال وهى كثيرة العيون والنخيل والفاكهة ، وأشهر مدنها « المنامة » وهى عاصمة الدولة وتقع فى الطرف الشمالى للجزيرة •

ومن جزر البحرين كذلك جزيرة « المحرق » ويصلها بجزيرة البحرين جسر طويل ، وبها مطار من أكبر مطارات الخليج ، ومنها كذلك جزيرة النبى صالح •

وسكان دولة البحرين حوالى ربع مليون نسمة ، والأكثرية الغالبة منهم عرب ، وهناك أقليات هندية وإيرانية •

تاريخ جزر البحرين :

ذكرنا فيما سبق أن الفرس استولوا على البحرين عقب إخــراج البرتغاليين منها ، وأخذوا يعينون لحكمها ولاة من العرب يخضعون لهم

ولكن الحكم الفارسي لجزر البحرين لم يستقر ، فقد كانت الحشود العربية تندفع للبحرين من حين إلى آخر فتتغلب ، ثم يتصدى لها الفرس فيعودون لحكمها ، وممن انتزعها من الفرس فى هذه الفترة الشيخ محمد الجبرى من بنى عامر ، ولكن الصفويين سرعان ما استعادوها ، وبعد ذلك استولى عليها جبارة الهولى ، ولكن الفرس عادوا لها أيضا بعد حين ، بيد أن الحكم الفارسى كان قد تدهور فلم يستطع أن يحمى جزر البحرين من قوة العرب ، ولم يقدم الحكم الفارسى للوالى التابع له وهو الشيخ نصر آل مدكور ما طلبه من قوة وتأييد فى المعركة سنة ١١٩٧ هـ (١٨٧٢) وفر هذا العامل إلى بوشهر [1] كما ذكرنا من قبل ، ودخل آل خليفة من الزبارة بقطر إلى البحرين منتصرين ، ووضعت البحرين أقدامها نحو الاستقلال عن الفرس ، وأصبحت قطر تابعة للبحرين ، ولكن البحرين واجهت صورا من المتاعب حتى قدر لها النجاح ، وفيما يلى لمحات عن مراحل الحياة فيها بعد معركة الزبارة :

ـ انتقل آل خليفة إلى البحرين بعد معركة الزبارة — وجمع الشيخ أحمد بن محمد بن خليفة محارم الشيخ نصر وأولاده وأرسلهم إلى بوشهر ، وتوفى الشيخ أحمد سنة ١٢٠٩ هـ وخلفه فى حكمها ابنه الشيخ سلمان .

ـ فى سنة ١٢١٥ هـ غزا سلطان بن أحمد حاكم مسقط جزر البحرين وأخذها عنوة .

ـ فى سنة ١٢٢٤ استنجد الشيخ سلمان بالقوة السعودية التى كانت قد أخذت تنساب فى الجزيرة العربية والتى كانت قد فتحت الأحساء ، فقدم الإمام سعود للشيخ سلمان جيشا بقيادة ابراهيم بن عفيصان ، واستطاع هذا الجيش طرد العمانيين من البحرين ولكن ابن عفيصان بقى بالجزيرة ممثلا للسعوديين ولم يسلمها لآل خليفة وذهب آل خليفة إلى نجد ليستطلعوا الأمر فأكرمهم الإمام سعود ، ولكنه احتجزهم عنده .

---

(١) مدينة على الشاطىء الفارسى .

— قام جيل الشباب من آل خليفة بجمع الجموع من هنا وهناك واستنجدوا بأخوالهم واستطاعوا أن ينتصروا على ابن عفيصان ، فهرب إلى قطر ، ولما سئل الشيخ خليفة بن الشيخ سلمان عن تصرفه ذلك مع أن كبار الرجال من آل خليفة فى حجز ابن سعود أجاب : لا حاجة لنا بآبائنا ، وقد سمينا بأسمائهم (عبارة عن عدم الأمل فيهم) (١) .

وتسلسل الحكام من آل خليفة كالآتى :

توفى الشيخ سلمان سنة ١٢٣٦ .

خلفه الشيخ عبد الله بن أحمد وظل يحكم حتى توفى سنة ١٢٦٥ .

وخلفه الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان وفى عهده أسفر الانجليز عن تدخلهم فى شئون البحرين ، وكانت البحرين كما رأينا تتقاذفها الأيدى ولا تعرف الاستقرار ، فوقعت اتفاقية بين القنصل الانجليزى وبين حاكم البحرين على أن يكف أسطول البحرين عن الصراع فى الخليج العربى ومقابل ذلك تتعهد بريطانيا بحماية البحرين ، ولكن البحرين هوجمت من قطر بعد ذلك بمدة وجيزة . ولما دافعت عن نفسها اعتبر الانجليز ذلك خرقا للاتفاقية قام به الشيخ محمد فعزلوه كما عزلوا نائبه الشيخ على بن خليفة ، وجاءوا إلى الحكم بالشاب عيسى ابن على وعمره إحدى وعشرون سنة ، وظل يحكم حتى توفى سنة ١٣٥١ .

وجاء بعده ابنه الشيخ حمد بن عيسى إلى أن توفى سنة ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) .

ثم الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة إلى سنة ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م)

ثم ابنه الشيخ عيسى الذى يحكم البحرين حتى الآن (١٩٧٧ م) .

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ص ٢٦١ .

وفى عهده استقلت البحرين عن بريطانيا سـنة ١٩٧١ وأصبحت دولة ذات سيادة ، وانضمت لجامعة الدول العربية ولهيئة الأمم المتحدة ، ومنذ ذلك التاريخ أخذت تلعب دورها كاملا فى الساحة العربية والساحة الدولية .

وكان هذا الاستقلال نتيجة لجهود كبيرة سبقته سنسجل فيما يلى خلاصة لها :

الخطوات نحو الاستقلال

يمكن القول أن مجتمع البحرين كان أقرب مجتمعات الخليج إلى البيئة الصناعية ، وذلك بسبب الاهتمام بصناعة اللآلىء ، إذ أن البحرين كانت أخصب من سواها فى الغوص على اللؤلؤ وفى صناعته ، وعندما يوجد مجتمع صناعى يوجد بالتالى جو من الحضارة والفهم السياسى ، وهذا ما نعمت به البحرين إذا قيست بسواها من نواحى المنطقة .

ومن نتائج المجتمع الصناعى كذلك بالبحرين أن ضعفت العصبية القبيلة ، فقد جمعت المصانع أفرادا من مختلف القبائل وتكونت فى المصانع مجتمعات وروابط أخذت مكان القبيلة إلى حد كبير ، ولكن البحرين عرفت الطائفية الدينية إذ وجد بها شيعة وأهل سنة ، ولكن لم توجد خلافات طائفية تهدد مجتمع البحرين ، بدليل أن كثرة هائلة من شيعة البحرين لم يدفعهم التشيع لمحاولة الارتباط بإيران على حساب الوطن وانضمت جماهير الشيعة إلى أهل السنة فى تأييد استقلال البحرين .

وفى مجتمع صناعى هدأت أو اختفت فيه الروح القبلية ظهرت المدارس ، وكان ظهورها طبيعيا لتمد البيئة الصناعية بحاجتها من المثقفين ، وهكذا عرفت البحرين المدارس العصرية التى تخرج فيها مجموعة من المثقفين قادوا الحركة الوطنية وحملوا عبء الصراع والاستقلال .

وظهرت الصحافة كذلك فى البحرين قبل ظهورها فى المناطق المجاورة ، وحملت الصحافة مشعل النور إلى الشعب ، وتحدثت باسمه مهاجمة الاستعمار ومعاونية ، ومن أبرز الصحف مجلة « القافلة » ومجلة « صوت البحرين » التى اهتمت بالقضايا الاجتماعية ليس فى نطاق

البحرين فحسب بل فى النطاق العربى ، فهاجمت الرق وطالبت بإلغائه لأنه يتنافى مع الإسلام ، وهاجمت شركات النفط التى تستولى ظلما على الكثير من حقوق الشعب والتى تظلم الأيدى العاملة (١) •

تلك أبرز الأسباب التى دفعت البحرين لتسيير خطواتها نحو الاستقلال ، وقد بدأت الحركات الايجابية نحو هذا الهدف سنة ١٩٢٠ ، وكانت زعامة هذه الحركة للشيخ عبد الوهاب الزيانى الذى قاد وفدا إلى أمير البحرين الشيخ عيسى آل خليفة ، وطالبه بإسقاط القوانين المدنية والجنائية التى كانت مطبقة بالبلاد منذ سنة ١٩١٤ بناء على قرار الحكومة البريطانية الذى لم يدع للتشريع الإسلامى إلا موضوع الأحوال الشخصية ، وطالب هذا الوفد أن يحل التشريع الإسلامى محل هذه القوانين الوضعية فى جميع القضايا •

ويلاحظ فى هذا المطلب أن الشيخ عبد الوهاب اتجه إلى أمير البلاد ليأخذ هذا جانبه فى المطالبة بتطبيق الشرع الإسلامى ، ولم يتجه تفكير الشيخ إلى معارضة الأمير ، وإنما إلى معارضة الاستعمار ، وقد خلق هذا أنواعا من التعاون بين الأمير وبين الشعب ، مما دفع الانجليز إلى المطالبة بأن يتخلى الشيخ عيسى عن السلطة لابنه حمد سنة ١٩٢٣ ، وقد تم لهم ذلك •

وقد اهتمت النقابات والصحافة بموضوع عزل الأمير ، فأثارت الرأى العام ضد المستعمر ، واستمرت حركة المثقفين والصحافة والنوادى فى نمط مطرد حتى جاءت ثورة سنة ١٩٥٢ بمصر التى كانت فى مطلعها معبرة عن آمال الشعب المصرى والشعب العربى كله نحو الاستقلال والحرية والتطور ، فظهر رجع الصوت المصرى فى مناطق الخليج قويا واضحا ، ثم جاء الاعتداء الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ ، فزاد النار

---

(١) انظر التيارات السياسية فى الخليج العربى للدكتور صلاح العقاد ص ٢٧٠ •

اشتعالا ، ولم تعد الكلمات كافية بل انطلقت القوى العربية فى البحرين كما انطلقت فى سواها تدمر أنابيب البترول ، وتمتنع عن التعاون مع المستعمرين .

واتجهت السياسة الاستعمارية ناحية العنف فى مواجهة هذه الحركات التحررية ، فنفت بعض القادة ، واعتقلت بعضهم ، وكان هذا التصرف دافعا لمزيد من الغليان .

وجاءت سنة ١٩٦٨ حيث أعلنت بريطانيا عزمها على الجلاء عن مناطق ما بعد السويس فى أواخر سنة ١٩٧١ ، ومن هنا أصبح استقلال البحرين عن بريطانيا أملا متحقق الوقوع ، ولكن ظهرت فى الجو الموجة التى ادعت أن البحرين جزء من إيران ، لكن صوت هذه الموجة اختفى بين قوة العدل والتاريخ .

وجرت مفاوضات متعددة ترمى إلى قيام اتحادات بين إمارات الخليج السبع وقطر والبحرين والكويت ، ولكن هذه المفاوضات سرعان ما اتجهت إلى إمارات ساحل الصلح وحدها لتبقى الإمارات الأخرى مستقلة .

وفى عهد الشيخ عيسى بن سلمان تم استقلال البلاد سنة ١٩٧١ كما ذكرنا من قبل وأعلن الأمير هذا الحادث العظيم ، ثم صدر دستور البحرين سنة ١٩٧٢ ، وهو ينص على قيام سلطة تنفيذية ، وسلطة تشريعية غير خاضعة لها ، وإن كان بعض أعضاء هذه السلطة تعينهم السلطة التنفيذية .

والباحث المسلم العربى يدرك أن البحرين ، ورثت تراثا حافلا بالمشكلات من العصور السابقة ، ولذلك يرجو كل مخلص أن تتغلب البحرين على هذه العوائق ، وأن تكمل مسيرتها نحو بناء الانسان العربى المسلم على خير وجه وأقوى .

إيران والبحرين :

فى فترة ما من التـاريخ قبل الميلاد وبعده كان لإيران امتـدادات ومستعمرات على ساحل الخليج وفى مناطق أخرى من البلاد العربية ، وعلى عكس ذلك خضعت إيران نفسها كلها أو أجزاء منها إلى كثير مـن القوى الأجنبية عبر التـاريخ كالميديين والفينيقيين واليونان والرومـان والعرب والمغـول والبرتغـاليين والهولنـديين والفرنسيين والانجليـز والروس ، ثم انتهت إيران إلى وضعها الحالى ، وذلك شـأن كثير مـن الدول عرفت الاتساع والانكماش ، والنصر والهزائم ، ولكن يؤخذ على إيران أنها تنسى هزائمها وانكماشـها وتتطلع إلى عهد توسـعت فيـه فتطمع فى استغلاله ، والبحرين بالنسبة لإيران مطمع من هذا النوع ، فقد أعلنت إيران احتجاجها على كل معاهدة عقدتها البحرين مع أيـة دولة ، وادعت إيران أن حكومـة البحرين لا تملك هـذا التصرف لأن البحرين جزء من إيران ، وتوالت حكومات إيران على هذا النمط ، بـل بالغت الحكومة الإيرانية سنة ١٩٥٨ إذ أعلنت انضـمام البحرين إلى أراضيها ، ولم يكن لهذا الإعلان من قيمة إلا تكدير العلاقات بين إيران وبين البحرين بوجه خاص ، وبينها وبين العالم العربى بوجه عام .

وحجج إيران كانت دائما واهيه ، فهى عبارة عن خضوع البحرين لإيران بعض فترات التـاريخ ، وعبـارة عن اعتـراف وزير خـارجية بريطانيا سنة ١٨٦٩ بتبعية البحرين لإيران ، ثم إن أكثر السـكان من الشيعة والشيعة فرس قبل كل شيء .

وهذه الحجج واهية جدا ، فإن الاستعمار فترة من الزمن لا يستلزم التملك والتبعية كما قلنا ، ولا وزير خارجية بريطانيا يملك السلطات على الأرض فيوزعها كما يشاء ، وليس مذهب الشيعة وقفا على ايران .

وقد أدرك أحد الكتاب الغربيين الدوافع الحقيقية لموقف إيران فقال إن إيران رأت عاصفة العروبة تجتاح الجو ، فخافت أن يطالب العراق

ببعض المناطق العربية الخاضعة حاليا لحكم إيران ، فأسرعت إيران تسبق الحوادث وتدّعى المطالبة بالمزيد حتى تصرف النظر عن المناطق العربية التى تحت يدها وتوجه كل الاهتمام للبحرين [1] .

ولكن هــذا الصراع حــول البحرين توقف الآن بعد أن قام ممثل للأمم المتحدة بتقصى الحقائق ، فعاش فترة فى البحرين واتصل بالأفراد والهيئات ، فرأى ما يشبه الاجماع على عروبة البحرين ، وعلى الرغبــة فى الاستقلال ، واعترفت إيران باستقلال البحرين خضوعا لهذا الاجراء .

محاولات إيرانية جديدة للسيطرة على البحرين :

ولكن الذى يبدو من تتبع الأحداث أن إيران تدبر أمرا جديدا وتعمل بهمة لا تعرف التوالى ، فأكثر العــرب قنعوا بهــذه النتيجة واعتبروا المســألة منتهية ، ولكن إيران تفكر فى المســتقبل وتعمل لــه فهى تدفع المتســللين بطريق أو بآخر ليصــلوا إلى البحرين ، وهى تنشر هنــاك لغتها ، وتنشىء مدارس فارسية ، ومستشفيات ، وتقيم صحـــافة ، وتجذب لها العديد من الشباب العــرب ليتعلموا فى جامعاتها ، وتمنحهم كثيرا من التسهيلات ، وفى كلمــة موجزة تتطلع إيران إلى اســـتفتاء آخر يرجح كفتها ، وحينئذ ترى إيران أن العالم يجب أن يخضع لهــذا الاستفتاء كما خضعت هى للاستفتاء الأول . واحتلال إيران للبحرين يعد خطرا بالغ الأهمية ضد العرب وضد الجزيرة العربية ، لأن البحرين تبعد عن الساحل العربى بحوالى ستة عشر ميلا فى حين تبعد عن الساحل الفارسى بحوالى مائة وثمــانين ميلا ، واحتلال إيران للبحرين سيهدد الســاحل العربى وشبه جزيرة قطر ودولة الامــارات التى تكونت من إمارات ساحل الصلح ، ولذلك ينبغى أن تتيقظ البحرين ، وتتيقظ الدول العربية نحو هذا الخطر ، وبخاصة أن الأنباء تقرر أن إيران تعد جيشا هائلا يخشى يوما ما أن يتجه بالعداء تجاه الجيران العرب فى الخليج ، او فى الشمال

(١) جان جاك بيريبى : الخليج الفارسى ص ٢٢٨ .

والمغرب من الخليج ، وهـــذه صيحة نرجو أن تدق أسماع مـــن يعنيهم الأمـــر •

مزيد من المعلومات عن « البحرين »

نسجل فيما يلى بعض معلومات حديثة ، وبالتالى لم تشملها الطبعات السابقة لهذه الطبعة الرابعة :

١ ــ البحرين عبر العصور :

فى سنة ١٩٨٥ نظمت حكومة البحرين مؤتمرا عالميا للمؤرخين استغرق أسبوعا وقدمت فيه عشرات الأبحاث العلمية الموثقة فى مختلف مـــراحل تاريخ البحرين الذى يتوغل فى الزمن قرابة الخمسة آلاف عام منذ عهد دلمون التى تعاصر سومر فى بلاد ما بين النهرين وعصر بناة الأهرام فى مصر ، فكان مؤتمر « البحرين عبر العصور » الذى حضره مئات العلماء احتفالا علميا جليلا أضفى مزيداً من المهابة على هذا القطر وتاريخه •

٢ ــ من حضارة البادية إلى حضارة الكومبيوتر :

يقول الباحثون إن دولة البحرين خلال فترة الاســـتقلال القصيرة استطاعت أن تنقل البلاد من حضارة البادية إلى حضارة عصر الطائرة النفاثة والكومبيوتر ، ومن جو العصور الوسطى إلى الجو الذى يناسب استقبال القرن الحادى والعشرين •

٣ ــ النفط وثراء البحرين ؟

كـــانت البحرين شـــديدة الحرص عـــلى عدم الارتبـــاط الـــدائم بالنفط ، وربط حياتها به ، فهو يتعرض لذبذبات الأسعار ، ولهذا فقـــد اتجهت البحرين إلى خلق بعض الصناعات بها كصناعة الالومنيوم حيث تستورد مواده الخام من استراليا وتصنعه بالداخل ثم تعرضه للبيع • واهتمت البحرين كذلك بترشيد الإنفاق ووضع جدول للأولويات بحيث تستطيع مواجهة أى انخفاض فى أسعار البترول •

جسر الملك فهد وأثرة :

تكلمنا ضمن حديثنا عن المملكة العربية السعودية عن جسر الملك فهد الذى ربط بين السعودية بالبحرين ، وكان له أثر سياسى كبير ، فقد قضى على المحاولة الإيرانية التى كانت تدعى أن البحرين جزء منها ، فقد أصبحت البحرين — بهذا الجسر — شديدة الاتصال بالجزيرة العربية ، وقد ذكرنا هناك أن طول هذا الجزء حوالى ستة وعشرين كيلو مترا •

وكان لجسر الملك فهد آثار اقتصادية واجتماعية بالإضافة للآثار السياسية ، فهذا الجسر يمر عليه الآن آلاف السيارات من وإلى المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والإمارات العربية المتحدة ، وهذا خلق رواجا اقتصاديا بالبحرين ، كما قضى بخفض أسعار الخضراوات والفواكه واللحوم لإمكان الحصول عليها من تلك الدول ، ثم إن الفنادق شهدت نشاطا ملحوظا بأكثر مدن البحرين •

مدينة حمد :

يقول شاهد عيان عن مدينة حمد :

ومن أعظم المشروعات التى انجزتها البحرين فى السنوات الأخيرة انشاء مدينة « حمد » التى تحتل مساحة شاسعة جنوبى العاصمة « المنامة » ، وكانت هذه المساحة من قبل صحراء جرداء وهى الآن مدينة متسعة الارجاء تضم آلاف المنازل البيضاء التى تتكون من طابق واحد أو طابقين ، على نمط متشابه تتخلله الحدائق والميادين ، ويستطيع رب أسرة بحرينية الحصول على منزل مناسب من بين عدة نماذج مقابل قسط معتدل لا يتجاوز على أقصى تقدير ربع مرتبه ، بلا مقدم وبدون انتظار طويل •

وقد ساهمت مدينة «حمد» مع سابقتها مدينة « عيسى » فى حل أزمة الاسكان بالبحرين نهائيا تقريبا ، وأصبحت معظم الشقق الجديدة فى

المنامة والمحرق وكثير من الشقق القديمة خالية ، معتدلة الأسعار ، تحمل لافتات « للايجار » •

جامعة الخليج العربى :

وقد كان من الذكاء والتوفيق أن اتفقت دول الخليج العربى (السعودية — قطر — البحرين — الإمارات — عمان — الكويت) على إنشاء جامعة الخليج العربى بالبحرين ، وهى خطوة أخرى لإبعاد أية شبهة قد تتعلل بها إيران لضم البحرين لها •

وقد اتخذ مجلس التعاون الخليجى قرارا بأن تكون البحرين مركزا لهذه الجامعة التى تسهم كل دول مجلس التعاون الخليجى فى نفقاتها ، وقد خصصت دولة البحرين مليونى متر مربع لإقامة الجامعة فى منطقة تبعد عن العاصمة (المنامة) حوالى خمسة وعشرين كيلو مترا •

ومبانى الجامعة تضم مبانى الكليات والادارة والمعامل ومساكن الأساتذة ، ومساكن الطلبة والطالبات والموظفين ، كما تضم سوقا مركزية وساحات رياضية ، وغير ذلك مما تحتاجه الجامعة •

يلتحق بجامعة الخليج العربى طلاب من مختلف الدول العربية

دَولة قطـر

دولـــة قطـــر

شبه جزيرة قطر قفزة هائلة داخل الخليج العربى كأنها مَعْلَم عظيم يرفع راية العروبة وسط الخليج ، وفيها تقع دولة قطر وعاصمتها الدوحة ، ومن أشهر بلدانها الزبارة ، ودخان وهى منطقة حقول الزيت •

وإلى قطر تنسب الثياب القطرية وكانت تنسج فيها ، وتنسب لها كذلك النجائب القطريات التى تحدث عنها شعراء العرب •

لمحـــة تاريخية :

إن حديثنا عن « البحرين » القديمة شمل قطر ، فقد كانت شـــبه جزيرة قطر جزءا من البحرين التاريخية ، وينبغى علينا الآن أن نذكر بعض ملامح من تاريخ قطر لنصل بتاريخها إلى العهد الحاضر ، ولا بأس من عودة سريعة إلى الوراء لنستعين بها على التسلسل التاريخى الـــذى يصلنا بالحاضر •

كانت قطر جزءاً من البحرين أو الأحساء يحكمها حاكم خاص مـــن قبل الخلافة ، وفى كثير من الأحوال كانت منطقة البحرين تابعة للبصرة أو اليمامة كما سبق القول •

وفى القرن الثامن الهجرى استولى بنو نبهان العمانيون على قطر ، ولم يطل مقامهم بها ، ومن بعدهم تناوب على قطـــر وغيرها من منـــاطق البحرين كثيرون من أهل البلاد •

وفى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧) استولى البرتغاليون على قطر مـــع د استولى عليه من مناطق الخليج •

وفى سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٧ م) أرسل السلطان سليمان القـــانونى أسطولا بقيادة سليمان باشا والى مصر لمحاربة البرتغـــال وطردها ،

ونجح هذا الأسطول فى مهمته ، فطرد البرتغال من البحرين والقطيف وقطر ، واستولى عليها كما استولى على الأحساء ٠

وعندما ضعفت الدولة العثمانية استطاع آل حميد من بنى خالد أن يطردوا العثمانيين سنة ١٠٨٠ هـ ، ويصبحوا ملوك الأحساء ٠

وعندما ظهرت الدولة السعودية الأولى مدت سلطانها إلى قطر فى عهد عبد العزيز بن محمد ، وأرسلت لذلك حملتين احداهما سنة ١٢٠٢ بقيادة سليمان بن عفيصان ، والثانية سنة ١٢٠٨ هـ بقيادة ابراهيم بن عفيصان ٠

وبعد سقوط الدرعية مد آل خليفة أمراء البحرين سلطانهم إلى قطر ٠

ثم أعاد السعوديون غزوهم لقطر فى عهد الإمام فيصل بن تركى سنة ١٢٦٧ هـ ، وقد استطاع جيشه أن يطرد آل خليفة من شبه الجزيرة ، ويستولى على قصورهم وذخائرهم بها ، وحينئذ طلب أهل قطر بزعامة آل ثانى الأمان من الأمير السعودى فأمنهم ، وعقب ذلك قام صراع بين عبد الله بن فيصل ، وبين أخيه سعود فاستدعى عبد الله بن فيصل العثمانيين لمساعدته ضد أخيه ، فاستجابوا له ، واستولوا على الأحساء وقطر وجعلوا قطر « قائم مقامية » تابعة للأحساء ٠

آل ثانى فى قطـر

كان الشيخ ثانى بن محمد مؤسس عائلة آل ثانى خير عون لآل خليفة أمراء البحرين الذين مدوا سلطانهم إلى قطر عقب سقوط الدرعية ، وعندما هبت حرب التحرير بين البحرين وبين بلاد فارس كان الشيخ ثانى بن محمد من خيرة قواد آل خليفة فى هذه الحروب مما حقق انتصار البحرين على بلاد الفرس سنة ١٧٨٢ م ، وحدث عقب ذلك ان الشيخ سلمان آل خليفة نقل عاصمته من الزبارة بقطر إلى جزيرة المنامة بالبحرين ،

فلما انتقل آل خليفة إلى البحرين جعلوا آل ثانى حكاما لقطر ، يحكمونها باسمهم وهكذا أصبح آل ثانى هم زعماء الشعب فى قطر ، وقد حافظوا على زعامتهم الشعبية منذ ذلك الحين ، وكان محمد بن ثانى حاكم قطر لا يمضى أمرا إلا بموافقة آل خليفة ، وكان ابنه الشيخ قاسم نائبا له فى أثناء حياته ، ولكنه كان من عظماء الساسة ، ومن كبار الآمال ، فبدأ يستقل بالأمر دون أن يعود لاستشارة آل خليفة ، فطلب آل خليفة من والده الشيخ محمد أن يرسل لهم ابنه الشيخ قاسم (لتجديد الصحبة ولإزالة الشبهة) (١) فاستجاب لهم ، وأرسل الشيخ قاسم ، وهناك ألقى آل خليفة القبض على الشيخ قاسم ، وقامت حروب بين آل ثانى وآل خليفة وتدخلت بريطانيا فى الأمر ، وانتهت المشكلة بعقد اتفاق بضمان بريطانيا يحدد الروابط بين قطر والبحرين ، وقد وضع هذا الاتفاق أساس استقلال قطر عن البحرين ، وكان عليها فقط أن تدفع ضريبة لحاكم البحرين ، وكانت هذه الضريبة هى كل الالتزام ، ولم يعد لحاكم البحرين مندوب فى قطر كما كانت الحال من قبل ، وعندما توفى الشيخ محمد بن ثانى سنة ١٢٩٥ هـ ، أصبح الشيخ قاسم أميرا لقطر .

قاسم بن محمد آل ثانى

١٢٩٠ هـ — ١٣٣١ (١٨٧٨ — ١٩١٣ م)

يعتبر الشيخ قاسم من عظماء الساسة وكبار القادة وهو مؤسس إمارة آل ثانى المستقلة بعد انتصاره على البحرين فى الحروب التى أشرنا لها سابقا ، وسرعان ما امتنع عن دفع الضريبة التى كان عليه أن يدفعها لحكام البحرين ، وبذلك دعم استقلاله (٢) .

وقد وحد الشيخ قاسم قطر ، وقضى على مناوئيه ، فتألف نجمه

(١) مصطفى كامل الدباغ : قطر ماضيها وحاضرها ص ١٧٧ .
(٢) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث ص ١١٣ .

وعلت مكانته ، ومن هنا خاف العثمانيون أن ينقض عليهم كما فعل مع آل خليفة ، فأرسلت الدولة العثمانية جيشا للقضاء عليه ، وطلبت الدولة من الكويت أن ترسل جيشا للمساعدة فى هذا الغرض ، وسار الجيشان ، ولكن جيش الكويت توانى فى السير قصدا ، فقامت المعركة قبل وصوله ، وكتب النصر للشيخ قاسم ، وعندما عرف الجيش الكويتى ذلك عاد أدراجه واستقر الأمر للشيخ قاسم ، واضطر العثمانيون للتراجع ولتثبيته فى مكانه .

وكان الشيخ قاسم سىء العلاقة بالانجليز يعارض سياستهم ولا يسير فى فلكهم ، وهو لكل هذه المواقف يعد أعظم قطرى فى النصف الأول من القرن العشرين . وتوفى الشيخ قاسم سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) .

الشيخ عبد الله بن قاسم (١٩١٣ — ١٩٤٩)
وخلفاؤه حتى الآن

كانت الحكومة العثمانية مشغولة بتسوية علاقاتها مع دول البلقان سنة ١٩١٣ ، فرأت أن تتقرب من بريطانيا لعلها تساعدها فى ذلك الشأن فتنازلت لها عن حقوقها فى قطر ، وكان ذلك ضمن الاتفاقية البريطانية العثمانية التى وقعت فى العام الذى توفى فيه الشيخ قاسم ، وقد جاء فى هذه الاتفاقية ما يلى « تتنازل الدولة العثمانية عن جميع حقوقها فى شبه جزيرة قطر التى سيستمر فى حكمها الشيخ قاسم بن ثانى وخلفاؤه من بعده ، وتعلن الحكومة البريطانية أنها لن تسمح بتدخل شيخ البحرين فى أمور قطر الداخلية ، أو ضمها إلى أراضيها » .

ولم يكن الشيخ عبد الله فى حزم أبيه ومكانته أو قل : إن النفوذ البريطانى أصبح عنيفا فى المنطقة فى ذلك الحين ، ومن هنا اضطر الشيخ عبد الله إلى أن يعقد معاهدة مع بريطانيا كتلك المعاهدات التى أعطت

نفوذا لبريطانيا فى تلك المناطق ، وفى عهد الشيخ عبد الله اكتشف البترول فبدأ ثراء الذهب الأسود ينساب فى شبه الجزيرة .

وتنازل الشيخ عبد الله لأسباب صحية إلى ابنه الشيخ على سنة ١٩٤٩ وقد ظل الشيخ على فى الحكم حتى سنة ١٩٦٠ ، وفى عهده حدثت زيادة هائلة فى البترول فى قطر مما سبب زيادة فى التعمير ، وارتفاعا فى مستوى المعيشة .

الشيخ أحمد والشيخ خليفة

وفى سنة ١٩٦٠ تنازل الشيخ على لابنه الشيخ أحمد ليصبح أميرا لقطر ، ونصت وثيقة التنازل على أن يكون الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى (ابن أخى الشيخ على) وليا للعهد ونائبا للحاكم الجديد ، وقد ظل الازدواج قائما حتى سنة ١٩٧٢ حيث عزل الشيخ أحمد ، وأصبح الشيخ « خليفة بن حمد » نائب الحاكم هو الأمير .

ويقول المطلعون : إن السر فى الازدواجية أن الشيخ على بن عبد الله تولى الإمارة سنة ١٩٤٩ بعد وفاة شقيقه الأكبر الشيخ حمد بن عبد الله والد الشيخ خليفة الذى كان صغير السن عندما توفى والده ، ولذلك رأى أهل الحل والعقد فى أسرة آل ثانى عندما تنازل الشيخ على عن الحكم لابنه أحمد سنة ١٩٦٠ ، أن تسند نيابة الحكم إلى الشيخ خليفة تعويضا له عما فاته من قبل ، ومنعا لحدوث أى انقسام فى الأسرة .

وقد عنى الشيخ على بتشييد قصور ضخمة له فى قطر وسويسرا وبيروت وبلغ ثراؤه حدا كبيرا لدرجة أنه قدم للملك سعود عندما زاره عقب تنظيم الحدود بين البلدين هدية تبدو للقارىء سخية الغاية ، فقد كانت عبارة عن سيارة كاديلاك وسيارة أوستن صنعت بعض أجزائها من الذهب ، وعشر حقائب من المجوهرات الثمينة [1] .

---

(١) مصطفى كامل الدباغ : المرجع السابق ص ١٩٤ .

وحتى سنة ١٩٧٠ كان للحكومة البريطـانية نفوذ كبير فى قطر ، وقد أذاع راديو لندن سنة ١٩٥٩ عقب زيارة الملك سعود لقطر التى أشرنا لها آنفاً أن هذه الزيارة تمت بعد موافقة الحكومة البريطانية عليها (١) •

وفى خلال فترة الازدواجية وضح التناقض بين الرجلين • ويقـول الأستاذ نجيب الريس (٢) : إن الشيخ خليفة كان أميل لفهم التغييرات التى طرأت على قطر وعلى المنطقة ، ولذلك كان هناك صراع دائم مستتر بين الزعيمين ، وقد برزت مواهب الشيخ خليفة فى المدة بين ١٩٦٨ و ١٩٧١ م فى أثناء المباحثات لقيام دولة اتحاد الإمارات العربية ، فقد حاول أن يحتفظ لبلاده بمركزها ، ثم أعلن استقلال قطر فى سبتمبر سنة ١٩٧١ •

وقد وضحت الخلافات بين الشيخ أحمد وبين ولى عهده ونائبه ، حينما عطل الشيخ أحمد تنفيذ النظام الأساسى للدولة على الرغم مـن اصداره ، إذ كان يخشى من تنفيذه أن يفقده هو وأعوانه العصبية القبلية التى كانوا يتمتعون بها فى الحكم ، ومع ذلك فقد كان الشـيخ احمـد منصرفا تماما عن مهام الحكم ، إذ كان مغرما برحلات القنص التى كان يقوم بها فى إيران ، وكثيرا ما كان يقضى أشهر الصيف فى قصره الذى بناه فى سويسرا حتى انه لم يكلف نفسه عناء العودة من جنيف ليعلن استقلال بلاده ، مما اضطر السير « جيفرى ارثر » المقيم السـياسى البريطانى فى الخليج إلى مقابلته فى جنيف ، ليوقع معه مراسيم انهاء معاهدة الحماية بين بريطانيا وقطر ، وكان ذلك موقفا مفيداً للشيخ خليفة الذى قام بإعلان استقلال بلاده ، فظهر بمظهر الحاكم الحقيقى لقطر (٣) •

ولعل قيامه بهذه الخطوة هو الذى مهد له الظروف لتنفيذ حركتـه

(١) المرجع السابق : ص ٧١ •
(٢) صراع الواحات والنفط • ص ٢٢٠ •
(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة •

الانقلابية فى فبراير سنة ١٩٧٢ ، ليصل بها إلى الحكم ، واستطاع أن ينفرد بالسلطة ، وبالتالى ، ينتهى عهدا من الازدواجية فى حكومة قطر ، استمر ما يقرب من اثنى عشر عاما ، وقد تم هذا الانقلاب بينما كان الشيخ أحمد فى رحلة قنص بين بندر عباس وشيراز ، واستطاع الشيخ خليفة أن يحظى بتأييد أعضاء الأسرة الحاكمة ، بالإضافة إلى قواد الجيش ، وبمجرد وصوله إلى السلطة استهدف بها تحديث الدولة وإقامة الحكومة على أسس عصرية .

ولا يزال الشيخ خليفة فى مكانه حتى اليوم يمارس عمله بكل وعى وحكمة ، وتتطور البلاد فى عهده تطورا سريعا عميقا .

ولى عهد قطر :

وفى مايو سنة ١٩٧٧ أصدر الشيخ خليفة بن حمد مرسوما بتعيين ابنه الشيخ حمد وليا للعهد ووزيرا للدفاع ، وكان منصب ولى العهد شاغرا منذ فبراير سنة ١٩٧٢ ، وولى العهد فى السابعة والعشرين من عمره ، وله ثقافة مدنية وعسكرية عالية .

اشهر المدن فى قطر :

أشهر المدن فى قطر هى الدوحة ، وتقع فى منتصف الساحل الشرقى للجزيرة ، وهى مدينة عصرية الآن اتضحت بها معالم التقدم والرقى ، فطرقاتها واسعة مرصوفة وعلى جانبيها المتاجر العظيمة والفيلات الجميلة ، والدوحة مرفأ هام لقطر ومن أبرز معالم الدوحة مستشفاها العظيم وبرج الساعة الذى يرتفع ٧٢ قدما عن سطح البحر ، والقلعة التى بنى عليها قصر لمكاتب الحاكم ، وفى الدوحة عدة من المساجد العظيمة وكثير من المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية وبعض المعاهد الصناعية .

ومن أشهر المدن مدينة دخان ، وهى مدينة البترول ، وتقع على

مسافة ستين ميلا فى الشمال الغربى للدوحة ، وقد شيدت فيها شركة البترول المكاتب والمنازل والفيلات لموظفيها وعمالها على أحدث طراز .

ومن المدن الهامة مدينة أم سعيد ، وهى منطقة المخازن الرئيسية للشركة ، وتقع بالجنوب الشرقى للدوحة على بعد ٢٥ ميلا ، وتوجد بها مصبات البترول المنقول إليها بالأنابيب من آباره فى دخان ، وقد أقامت فيها شركة بترول قطر بناياتها وفيلاتها للعمال والموظفين ، وأم سعيد هى ميناء قطر منذ سنة ١٩٥٢ م .

ومن قرى قطر الريان والخور والخوير والوكرة وأم أصلال وزكريت وميسمة والعريش .

ومن أشهر المدن بقطر الزبارة وكانت عاصمة البحرين ، نزل بها آل خليفة والجلاهمة وآل ابن على فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وقد ظلت الزبارة عاصمة لآل خليفة حكام البحرين إلى أن حوّل الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة (١٧٩٤ — ١٨٢٠ م) عاصمته لتكون فى جزر البحرين نفسها وبذلك أصبحت الزبارة مقاطعة تابعة للبحرين ثم استولت عليها قطر .

قطرى بن الفجاءة :

ومن أشهر رجالات قطر قطرى بن الفجاءة أحد أبطال الخوارج ، وقد ولد قطرى فى الخوير بالمعدان واسمه جعونة بن مازن وأمه من بنى شيبان ، وأخوه اسمه (الماحون) ولكن هذا كان من أهل السنة والجماعة ومن أصحاب المهلب ، ولذلك حارب « الماحون » أخاه « قطري » حربا طويلة . ويروى ياقوت [1] أن « قطرى » قال لأخيه وكانا قد تقابلا فى صفين يحارب أحدهما الآخر : أرأيت إذ كنت أنا وأنت نتدافع على ثدى أمنا بالمعدان ؟

---

(١) معجم البلدان : جـ ١ ص ٢٢٠

ويقول ابن خلكان [1] : إن اسمه جعونة بن مازن ، وقطرى ليس باسم له ، ولكنه نسبة إلى قطر ، وقد اشتهرت النسبة وحلت محل الاسم ، وأبوه كذلك فتقد اسمه ، لأنه كان غائبا عن أهله باليمن وطالت غيبته ، ثم عاد فجأة فأطلق عليه فجاءة ، ومكانة قطرى بن الفجاءة فى ميادين القتال مكانة رائعة ، فيحكى أنه خرج فى بعض حروبه وهو على فرس أعجف وبيده عمود من الخشب ، فدعا إلى المبارزة ، فبرز إليه رجل استهان بفرسه وبعمود الخشب الذى بيده ولكن « قطرى » فاجأه بأن حسر اللثام عن وجهه ، فلما رآه الرجل ولى مدبرا ، فقال له قطرى : إلى أين ؟ فأجاب الرجل قائلا : لا يستحى الانسان أن يفر منك .

وقد تحدثنا بإفاضة عن قطرى بن الفجاءة فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة .

---

(١) وفيات الاعيان : ح ٢ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

دولة الإمارات العربية المتحدة

ذكرنا عند حديثنا عن عمان أن الإمـارات التى تكونت منها دولة الإمارات العربية المتحدة كانت جزءا من عمان ، وأنه فى أثناء التفكك الذى انتاب عمان وأخضعها إلى عدد من الطموحين والقبائل ، ظهرت هـذه الإمارات مع مـا ظهر من مناطق مستقلة أو شبه مستقلة .

ويقول الدكتور سيد نوفل (١) : إن ساحل عمان أو إمارات ساحل عمان كما يسميه أهله العرب ، أو ساحل القرصنة أو الهدنة كما دعـاه البريطانيون ، هو أحد الأقسام الثلاثة التى انقسمت لها عمان وهى عمان ومسقط وساحل عمان ، وكان هذا الساحل بعد فصله عن عمان يمارس فيه أهله الشجعان دورب النشاط البحرى ، فلما جاء الاستعمار البريطانى جرده من قوته البحرية ، ثم انتهى بـه إلى سبع وحـدات إمعـانا فى إضعافه ، ورغبة فى تيسير التحكم فيه ، كما فعل الاستعمار فى مناطق مختلفة من العالم ، وهذه الأقسام السبعة هى : أبو ظبى ، ودبى ، والشارقة ، وعجمان ، وأم القوين ، ورأس الخيمة ، والفجيرة .

ويقول الدكتور صلاح العقاد : إنه منذ قيام حكم البوسعيد فى عمان انفصل القسم الشمالى من ساحل عمان عن التبعية لمسقط ، وأخذت نواة قوى قبلية جديدة تظهر هناك مثل بنى ياس والقواسم ، أما فى عهـد اليعاربة ، فكان من المتعارف عليه أن عمان تمتد من اقليم ظفار المتاخم لحضرموت حتى قطر فى وسط الخليج العربى (٢) .

ويمكننا أن نعطى مزيدا من الشرح لاستقلال منطقة الإمارات عن عمان ، فإن قبيلة القواسم نزلت ساحل عمان فى القرن السابع عشر ، ووطدت أقدامها به فى مطلع القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت قوة بحرية هائلة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وفى مطلع القرن التاسع

---

(١) الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى ج ٢ ص ٤٥ .
(٢) التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٥٢ .

عشر ، وهذه القبيلة وقفت قوية أمام الصراع الذى كان يدور فى المنطقة ، والذى كان السعوديون والإباضية والانجليز أطرافا فيه ، واستطاع القواسم أن تكون لهم السيطرة البحرية على هذه المنطقة ، وفى سنة ١٧٤١ أعلن رحمة بن مطر زعيم القواسم الاستقلال بهذه المنطقة ، واتخذ رأس الخيمة قاعدة له ، واعترف له بالاستقلال أحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيديين .

وإذا كان القواسم قد أصبحوا قوة بحرية هائلة فى المنطقة ، فقد ظهرت بالمنطقة قوة برية خطيرة هى قوة بنى يساس وحلفائهم الذين يتزعمهم آل بو فلاح ، وكان مقرهم الظفرة والبريمى وجزيرة أبو ظبى .

ولما كانت هذه الإمارات فى الأصل جزءا من عمان ، فإن تاريخ عمان هو تاريخ هذه الإمارات حتى تم انفصالها عن عمان ، ومن هنا فإن الباحث عن تاريخ هذه الإمارات لا يبدأ رصد تاريخ مستقل لها إلا منذ انفصالها عن عمان ، أما قبل ذلك فإن تاريخ عمان ينسحب عليها وهو تاريخها .

وقد بدأ استقلال هذه المنطقة فى منتصف القرن الثامن عشر كما ذكرنا آنفا ، وكانت رأس الخيمة عاصمة المنطقة ، وفى عهد الشيخ سلطان ابن صقر الأول نقلت عاصمة القواسم من رأس الخيمة إلى الشارقة ، ثم حدثت بعد ذلك أحداث سياسية كان الاستعمار أهم أطرافها ، وقد خاضت بريطانيا حروبا طاحنة ضد هذه المنطقة ، وأذاعت على العالم أن سكانها قراصنة ، وأن التجارة العالمية فى حاجة لإزالة القرصنة من المنطقة ، وراحت تضرب بعنف حتى استطاعت أن تحتل أهم الموانى فى المنطقة فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر ، وعقدت مع الحكام راضين أو كارهين معاهدات أخطرها معاهدة سنة ١٨٢٠ التى أدخلت المنطقة كلها تحت السيطرة البريطانية ، ثم تجددت المعاهدات بعد ذلك مع الشيوخ فى المنطقة مما وضع الأساس لقيام إمارات متعددة فى ساحل عمان ،

وكانت كل المعاهدات تسير على نمط واحد تقريبا ، إذ كانت عبارة عن التعهد بعدم عقد اتفاقيات إلا مع الحكومة البريطانية ، وكذلك عدم إرسال مراسلات لغير هذه الحكومة ، كما شملت تعهدات بعدم السماح لأية دولة غير بريطانيا بأن تقيم لها تمثيلا بهذه الإمارات ، وكذلك التعهد بعدم التنازل عن أى جزء من أجزاء الإمارة لأية دولة غير الدولة البريطانية .

وهكذا انقسم ذلك الساحل إلى الإمارات السبع ، وأصبح السلطان الحقيقى فى يد المستعمر البريطانى .

مشكلات الإمارات :

إن قيام هذه الإمارات أبرز كثيرا من المشكلات التى توحى بصعوبة قيام هذه الإمارات منفصلة بعضها عن بعض ، فبعضها لا يبلغ تعداد سكانه أكثر من تعداد بلدة صغيرة ، وبعضها لا يملك موارد تيسر وسائل العيش ، وليست هناك حدود فاصلة بينها ، ومن هنا كان التنازع واسعا بين هذه المشيخات أو الإمارات بعضها والبعض ، فقد كانت هناك مناطق تتنازع عليها عمان ورأس الخيمة والفجيرة ، ومناطق تتنازع عليها عمان وعجمان وأبو ظبى ودبى والشارقة ، وليس فى استطاعة الانسان ان يصل من بلد « الشارقة » فى إمارة الشارقة إلى بلدة أخرى فى نفس الإمارة هى « خور فكان » دون أن يمر بأرض كثير من الإمارات الأخرى ، وذلك بسبب تداخل أقسام كل إمارة فى أراضى الإمارات الأخرى [1] .

ومن أجل هذا حاولت الإمارات أن تنظم الحدود بينها ، وأن تنظم وسائل التعايش ، ولكنها أخيرا وجدت أن أيسر طريق لحياتها جميعا هو أن تتجمع لا أن تتفرق ، فاتخذ زعماؤها القرار التاريخى بإقامة دولة الإمارات العربية المتحدة لتشملها جميعا كما سنرى فيما بعد .

---

(١) دكتور سيد نوفل : الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربى جـ ١ ص ١٥٥ .

تعريف بالإمارات

يمكن تقسيم الإمارات أو المشيخات من ناحية المساحة إلى أنواع ثلاثة : مشيخات كبيرة وهى أبو ظبى ودبى ، ومشيخات متوسطة وهى الشارقة ورأس الخيمة ، ومشيخات صغيرة وهى أم القوين والعجمان والفجيرة ، وسنورد فيما يلى كلمة عن كل مشيخة من هذه المشيخات .

أبـو ظبى :

• إمارة أبو ظبى [1] أكبر إمارات ساحل عمان ، تبلغ مساحتها ٨٠ ألف كيلو متر ، وامتدادها على ساحل الخليج يصل إلى ٢٥٠ ميلا ، أما امتدادها فى الداخل فيتراوح بين مائة ومائة وخمسين ميلا ، وهى مساحة هائلة بالنسبة لإمارات ودول المنطقة ، وحدود الإمارة تبدأ من قطر فى الغرب إلى دبى فى الشرق ، وتتبعها جزر كثيرة فى الخليج وسكانها حوالى ربع مليون .

وحرارة الجو فى إمارة أبو ظبى رهيبة جدا ، وتصل أحيانا إلى خمسين درجة مئوية فى الظل .

وقد تفجر البترول فى المناطق التابعة لأبو ظبى فى الخمسينات فملأ الإمارة خيرا وبركة ، وهناك واحات تابعة لأبو ظبى تنتشر فيها الخضرة والمزارع مثل واحة ليوا والبوريمى ، وفيما عدا هاتين الواحتين ، فإن النباتات الصحراوية هى التى تظهر هنا وهناك فى مناطق الإمارة .

وكان اللؤلؤ والتمور من أهم محاصيل أبو ظبى ، ولكن انبثاق البترول جذب الأيدى العاملة ، فاتجه أكثر النشاط للذهب الأسود .

---

(١) آثرنا ان نذكرها هكذا (أبو ظبى) فى حالات الرفع والنصب والجر .

لمحـــة تاريخية :

تذكر المصادر الأولى أنه بينما كانت القبيلة الكبيرة بنى ياس تتجول فى ديرتها ، عثر أحد رجالها من آل بوفلاح عام ١٧٦١ على بئر ماء فى جزيرة أبو ظبى • وقد دفع هذا بعض أفراد بنى ياس إلى أن يهاجروا إلى الجزيرة ، وأن يبنوا حول البئر بعض أكواخهم ، وسرعان ما انتشر نبأ العثور على بئر فى جزيرة أبو ظبى ، مما دفع موجة أخرى من بنى ياس إلى الهجرة إلى الجزيرة المطلة على مياه الخليج ، والقريبة من مغاصات اللؤلؤ ، وهكذا تم بناء عشرين كوخا من سعف النخيل • وأصبح لبنى يـــاس مســـتعمرة ســـاحلية •

فى هذا الوقت — أواخر القرن الثامن عشر الميلادى — اســتطاع الشـــيخ عيسى بن نهيـــان أن يجمع بنى ياس تحت لوائه ، وهـــو ، بذلك يعتبر أول حكام آل نهيان • وخلفه دياب بن عيسى الذى يعتبر مؤسس المستعمرة الساحلية ، ولكنه ظل مقيما فى الداخل ، وكان يزور بين الفينة والفينة رعاياه القليلين المستوطنين حديثا جزيرة أبو ظبى •

ومات دياب بن عيسى ، فتولى زعامة آل بو فلاح ابنه شخبوط الأول « ١٧٩٣ — ١٨١٦ » الذى كان من طراز الزعماء الواسعى الأفق ، وفى عهده تأكدت زعامة آل بو فلاح على بنى ياس [1] •

وفى عام ١٨١٦ عزله ابنه الأكبر محمد وتولى بدله مدة سنتين •

وفى عام ١٨١٨ استطاع طحنون بن شخبوط أن يعزل أخاه محمدا وأن يتولى أمر أبو ظبى متعاونا مع ابيه ، أو منفردا بالسلطة بعد أن تنازل له الأب ، وقد امتد حكم الشيخ طحنون من سنة ١٨١٨ إلى ١٨٣٣ ،

---

(١) أبو ظبى : من مطبوعات دار الهلال للتعرف بالبـلاد العربية بتصرف •

وفى خلال هذا العهد زاد التدخل البريطانى ، وأرغم الشيخ شـخبوط « وقت أن كان لا يزال يحكم مع ابنه طحنون » على قبول معاهدة يناير سنة ١٨٢٠ التى وضعت القيود على نشاط أبو ظبى ، واتجه الانجليز كذلك إلى شيوخ المشيخات ليعقدوا معها معاهدات مماثلة ٠

وقد وضعت هذه المعاهدات ، وتلك التجزئة أساسا للمصارعة بين الشارقة مركز القواسم التى كانت تتطلع لزعامة المنطقة وبين أبو ظبى مركز بنى ياس ، وأعوانهم من المناصر ، ومما قوى هـذا الصراع أن القواسم كانوا ينحدرون من (الغافرية) وأن بنى ياس ينحدرون من (الهناوية) ، وقد سبق أن ذكرنا عند الحديث عن عمان كثرة الصراع والتنافس بين هاتين القوتين ٠

وشهد عهد الشيخ طحنون الصراع الذى دار بين القوة السعودية بالجزيرة وبين أبو ظبى حول واحة البوريمى ، تلك الواحة التى كانت محل أطماع السـعوديين وعمـان وأبو ظبى والانجليز ، والتى انتهت لوضعها الطبيعى جزءا من أبو ظبى ٠

وبعد الشيخ طحنون قام صراع بين أخويه خليفة وسـلطان ، ثم استطاع خليفة أن ينفرد بالحكم وحده ، وقد ظل حاكما حتى توفى سنة ١٨٤٥ وشهد عهده كثيرا من الصراع بين مشيخات المنطقة ٠

بعد وفاة الشيخ خليفة بن شخبوط تولى الشيخ سعيد بن طحنون حتى سنة ١٨٥٥ ، وسعيد هذا هو الذى نازل السعوديين سنة ١٨٤٨ بعد أن استمال إلى جانبه قبائل الظواهر والنعيم والقبائل العمـانية على السـاحل ٠

وفى سنة ١٨٥٥ تولى الشيخ زايد بن خليفة مشيخة أبو ظبى بعد وفاة الشيخ سعيد ، وفى عهد الشيخ زايد أصبحت أبو ظبى من أكبـر إمارات ساحل عمان من حيث المساحة والقوة السياسية ، وقد امتد حكم

الشيخ زايد حتى عام ١٩٠٩ ، ويعتبر عصره من أزهى عصور الإمارة ، وقد اجتمعت له الشجاعة والرأى وحسن التصرف ، وحالفه توفيق كبير فى سياســته الداخلية والخــارجية .

ويقول المصدر الذى أشرنا إليه آنفا [1] العبارة التالية التى توضح حالة البوريمى منذ ذلك التاريخ :

اتجه زايد بــن خليفة ببصره نحو البوريمى التى سيطر عليهــا النفوذ السعودى فى أواخر عهد سعيد بن طحنون ، وقد استطاع زايد أن ينتصر على الحامية السعودية فى معركة كبيرة ، أجلى بعدها عن الواحة مَنْ بقى منهم على قيد الحياة ، ومنذ ذلك التاريخ عادت البوريمى إلى أبو ظبى .

وقد شهد عهد الشيخ زايد عقد اتفاقية بين أبو ظبى وبين بريطانيا سنة ١٨٨٧ وتسمى الاتفاقية (الاتفاقية المانعة) وتدور نصوصها فى نطاق النصوص التى تحدثنا عنها من قبل لمثل هذه الاتفاقيات .

وبعد الشيخ زايد بن خليفة توالى حكم أبو ظبى فى أسرة آل نهيان على النحو التــالى :

طحنون بن زايد	١٩٠٩ — ١٩١٢
حمدان بن زايد	١٩١٢ — ١٩٢٢
سلطان بن زايد	١٩٢٢ — ١٩٢٧
صقر بن زايد	١٩٢٧ — ١٩٢٨
شخبوط بن سلطان بن زايد	١٩٢٨ — ١٩٦٦ عزل
زايد بن سلطان	١٩٦٦ — حتى العهد الحاضر

---

(١) أبو ظبى : ص ٥٧ ، ٥٨ .

وينبغى أن نذكر أن شخبوط بن سلطان تولى المشيخة وهى فى مطلع الشباب ويمتاز عهده بالهدوء والسكينة بفضل القسم الذى أخـذه أمراء أسرة آل نهيان على أنفسهم ، وكانت الشيخة المصونة (سلامة) والـدة شخبوط هى التى استطاعت أن تأخذ الأسرة بهذا القسم بعد فتـرة الاضطراب التى سبقت الشيخ شخبوط ، وفى عهد الشيخ شخبوط انبثق البترول فى الإمارات ، وانبثق معه الخير الوفير ، ولكن الشيخ شخبوط انتصح بنصيحة الأجانب الذين باعدوا بينه وبين العرب ، وحذروه من التقدم ، وحببوا إليه اكتناز الأموال ، ولم يصنعوا من المشروعـات العمرانية إلا بمقدار ما يخدم العاملين الأجـانب فى اسـتغلال البترول وييسر لهم وسائل الإقامة والراحة (١) وكان هذا التزمت وسوء العلاقة مع بعض الجيران من أسباب عزل الشيخ شخبوط سنة ١٩٦٦ .

زايد بن سلطان :

كان الشيخ زايد خير عون لأخيه شخبوط إبان حكمه ، فقد تولى ادارة شئون المنطقة الشرقية منذ سنة ١٩٤٦ ، وفى خلال هذه المـدة تمرس الشيخ زايد بالعمل السياسى والإدارى بالإضافة إلى ما يمتاز به من ذكاء ، وشخصية ، وقوة واعتزاز بالنفس ، وحسن مكانة بين قبائل المنطقـة .

ويمتاز الشيخ زايد بن سلطان كذلك بالحكمة البالغة ، وكان مجلسه للقضاء ينتهى بالتوفيق بين المتقاضين والمحبة بينهم ، وفى كل المشكلات التى خاضها الشيخ زايد كان يبدو نموذجا ممتازا بين الرجال وقـدوة صالحة بين المصلحين والحكام .

وقد استطاع الشيخ زايد أن يحقق لإمارته ألوانا من التقدم والنظام لأول مرة فى تاريخ هذه الإمارات ، فقـد نظم الإدارة الحكوميـة وعين

(١) دكتور سيد نوفل : الاوضاع السياسية حـ ٢ ص ٥٠ .

الوزراء أو من يقوم مقامهم ونظم ديوان الحاكم ، وأنشأ مجلسا للتخطيط ، ودائرة للشئون الاجتماعية ، ونظم الشرطة والأمن والدفاع وشئون الصحة والعلم ، وفى كلمة مجملة نقل الشيخ زايد الإمارة من عصر إلى عصر ، ودفع بها شوطا هائلا فى مجالات التقدم والرقى ، ووجه ثروتها لخدمة أبنائها ، وفتح الأبواب للعرب من مختلف البلاد ليقدموا خبرتهم وتجارتهم متعاونين مع الحاكم ورجاله لخير الإمارة وللخير العربى العام [1] ، واتجه زايد إلى التوسع فى برامج الخدمات والإنشاءات ، لا بالنسبة لإمارته فقط بل امتد بهذه الخدمات إلى جيرانه ، وقدم المعونات لدول عربية أخرى [2] •

دبى :

تقع دبى بين أبو ظبى والشارقة ، وتبلغ مساحتها ١٥٠٠ ميل مربع ، ويبلغ سكانها حوالى مائة ألف شخص ، ومشيخة دبى قاحلة بوجه عام وتوجد بها بعض القرى الخضراء والمزارع حول العيون بالصحراء ، وتقع مدينة « دبى » على جانبى خور طوله عشرة أميال ، وأحد جانبى هذا الخور يعرف ببر ديره ، ويعرف الجانب الآخر ببر دبى ، وينتقل الناس بين البرين على جسر أقيم سنة ١٩٦١ أو بالمراكب الشراعية ، ومن هنا فإن هذا الموقع يسمى « فينسيا الخليج » وقد أقيم حديثا نفق تحت الماء يربط بين البرين •

ودبى هى المركز التجارى لساحل عمان ، وميناؤها أهم ميناء بالمنطقة ، وكذلك مطارها أعظم مطار بها ، وقد أنشئت بها مجموعة من المنازل ، والفنادق الحديثة ، ووصلت صادراتها أخيرا إلى مستوى رفيع •

---

(١) المرجع السابق ص ٥١ •

(٢) دكتور صلاح العقاد : التيارات فى الخليج العربى ص ٢٨٩ •

وفى أثناء الحرب الداخلية بلبنان جذبت دبى أوجه النشاط التجارى والفنى الذى تعودت لبنان أن تحتضنه •

وقد شهدت دبى أولى المدارس العصرية فى المنطقة •

والحكم فى دبى فى أسرة آل مكتوم وهى فرع من فروع بنى ياس ، وهى بذلك تمت بصلة القرابة إلى الأسرة الحاكمة فى أبو ظبى ، ولو أن الصلات لم تكن طيبة بين الأسرتين فى العهود الماضية •

ويرجع الفضل فى تقدم دبى إلى الشيخ سعيد آل مكتوم الذى حكم المشيخة من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٥٨ فقد عنى الشيخ بتنظيم مشيخته وجعل دبى تمثل المنفذ الرئيسى لتجارة الساحل ، وبعد الشيخ سعيد آل الحكم فى المشيخة للشيخ راشد بن سعيد ، وهو معروف بجده ونشاطه واقباله على العمل فى المشروعات العامة للإمارة ، وتربطه صلات مصاهرة وتعاون بحاكم قطر ، ولهذا تستثمر فى دبى أموال قطر فضلا عن أموال الكويت وغيرها •

وقد تدفق البترول فى دبى ابتداء من سنة ١٩٦٨ فحمل للأهلين الخير والرخاء •

الشارقة :

تقع الشارقة شرقى دبى ، ومساحتها تقرب من مساحة دبى ، وعاصمتها مدينة « الشارقة » وهى تبتعد عن دبى بحوالى عشرة أميال ، وتعتبر إمارة الشارقة أعرق مشيخات الساحل لأنها تعد نفسها وريثة لدولة القواسم القديمة •

وتنقسم الشارقة قسمين : القسم الغربى وهو الأكبر وفيه العاصمة وأماكن التنقيب ، والقسم الشرقى وهو يقع شمالى سهل الباطنة الخصب ولذلك يمتاز هذا القسم بخصبه وكثرة فاكهته • ويشمل هذا القسم

حصن « دبا » و « خورفكان » وهناك مناطق متنازع عليها بين الشارقة والإمارات الأخرى ومسقط .

وقد ضعف شأن الشارقة منذ وفاة سلطان بن صقر الثانى سنة ١٨٦٦ ثم استعادت الإمارة مكانتها بعد حربها المظفر مع رأس الخيمة التى تنتمى أيضا إلى قبيلة القواسم ، ثم زادت شهرة الشارقة عندما أقامت بريطانيا بها قاعدة جوية سنة ١٩٣٧ اعتبرت من أكبر القواعد الحربية بالخليج .

ومن أمرائها المشاهير الشيخ صقر بن سلطان القاسمى (١٩٥١ — ١٩٦٥) وكان أديبا وشاعرا وعمل على تطوير إماراته وربط نشاطه بالخط العربى مما أثار عليه بريطانيا فأدى ذلك إلى عزله سنة ١٩٦٥ [١] وتولى ابن عمه الشيخ خالد بن محمد القاسمى ولكن الأمير الجديد بذل جهدا واضحا لتطوير الإمارة فمهد الطرق واهتم بالأمن وأنشأ الموانى ، وعمق صلته بالجامعة العربية ، ولذلك يمكن القول أن القوى العربية بالإمارة هى التى جاءت به إلى الحكم وليس بريطانيا لأنه لم يسر فى فلكها .

ويتبع الشارقة جزيرتان تقابلان شاطىء الشارقة هما جزيرة أبوموسى وجزيرة صير بو نعير ، ويوجد بالجزيرة الأولى الماء العذب ، كما يوجد بالجزيرة الثانية الأوكسيد الأحمر .

عجمان :

استمرارا لمسيرتنا تجاه الشمال الشرقى نواجه عجمان بعد الشارقة ومشيخة عجمان أصغر الإمارات السبع ، وسكانها حوالى عشرة آلاف نسمة ، وتكثر المناطق التى تتنازع عليها عجمان مع بعض الإمارات

---

(١) دكتور سيد نوفل : الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربى ج ٢ ص ٥٣ والخليج العربى للدكتور صلاح العقاد ص ٢٩١ .

الأخرى ، ويعتمد السكان على صيد السمك وعلى التجارة ، كما يعملون فى بعض الإمارات الأخرى التى انبثق فيها البترول ، ومعظم سكان الإمارة من قبيلة النعيم آل بو مهير والسودان •

وحاكم عجمان من سنة ١٩٢٨ هو الشيخ راشد بن حميد النعيمى وعاصمة الإمارة عجمان وبها أكثر سكان الإمارة •

أم القوين :

تقع أم القوين إلى الشمال الشرقى من الشارقة أيضا ، وهى مثل عجمان فى المساحة وفى عدد السكان تقريبا ، ويقال أن اسمها تحريف من « أم القوتين » لشدة بأس أهلها وشجاعتهم التى عرفوا بها إبان الصراع ضد القوى المعتدية ، وأرض الإمارة ملحة وتتبعها جزيرة (السينية) حيث يكثر الغزلان التى تجذب الناس للصيد ، وحاكمها منذ سنة ١٩٢٩ هو الشيخ أحمد بن راشد المعلا من قبيلة آل على •

رأس الخيمة :

تقع رأس الخيمة إلى الشمال الشرقى من أم القوين ، وتبلغ مساحتها مساحة عجمان وأم القوين جميعا ، ويقدر سكانها بحوالى أربعين ألف نسمة ، وتنقسم رأس الخيمة قسمين أحداهما يقع على الخليج العربى ، والثانى يقع فى الجهة الشرقية ويفصله عن القسم الأول بعض الأراضى التابعة للشارقة وعجمان وعمان •

ومشيخة رأس الخيمة كثيرة المياه خصبة التربة ، ومن هنا تكثر فيها الأشجار والحبوب والخضر ، ومن أخصب أراضيها وادى الحويلات ويعمل سكان رأس الخيمة فى الزراعة والتجارة وصيد الأسماك ، والغوص

---

(١) د• سيد نوفل : الأوضاع السياسية : جـ ٢ ص ٥١ وما بعدها بتصرف •

لاستخراج اللؤلؤ ، ويذكرون أن سبب تسميتها رأس الخيمة أن أميرها كان يقيم فى خيمة على مرتفع ، وكان المرتفع يمثل خيمة عربية تقع خيمة الأمير فى قمتها ، وكانت أضواء الخيمة تظهر للقادمين فى البحر ، فأطلقوا عليها هذا الاسم ، وحاكمها منذ سنة ١٩٤٨ هو الشيخ صقر بن محمد بن سالم القاسمى .

وتمتاز رأس الخيمة ببعض الآثار التاريخية وأهمها « الصبرة » وهو حصن لاتزال آثاره موجودة و « جلفار » وهى مدينة شمالى رأس الخيمة ينسب اليها الملاح العربى الشهير شهاب الدين أحمد بن ماجد مرشد فاسكودى جاما فى رحلته حول إفريقية .

الفجيرة :

تقع مشيخة الفجيرة على ساحل خليج عمان ، وبذلك فهى تطل على سهل الباطنة ، وسكانها حوالى عشرين ألفا ، ومعظمهم يعيشون عيشة البدو فيشتغلون بالرعى وصيد الأسماك ، وقد ظلت فى عزلة فلم يدخلها التعليم إلا منذ سنوات ، وحاكمها منذ سنة ١٩٤٠ هو الشيخ محمد بن حمد الشارقى [١] .

تلك لمحة قصيرة عن هذه الإمارات ، وهذه اللمحة ترينا أن من المستحيل أن تعيش كل إمارة مستقلة بصغر حجمها وقلة موارد بعضها وقلة عدد سكانها ، وكانت بريطانيا تمثل الأم لكل هذه الإمارات ، وتحمى تفككها ، فلما أعلنت فى مطلع سنة ١٩٦٨ قرارها بالجلاء عن شرقى السويس قبل نهاية ١٩٧١ أى فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩٧١ أصبح من المحتم أن يوجد كيان جديد قوى بالمنطقة ، فبدأت المشاورات والمفاوضات لذلك كما سنرى فيما يلى :

---

(١) د. سيد نوفل : الأوضاع السياسية : جـ ٢ ص ٥١ وما بعدها بتصرف .

قيام دولة الإمارات

قلنا آنفا إن إعلان بريطانيا عن الجلاء هو الذى آلزم قيام نوع من الارتباط بين هـذه الإمارات ، ولكن من الحق أن نقرر أن الرغبة فى الارتباط كانت حديث المثقفين من أبناء الخليج منذ أمد طويل ، فمن المعروف أن هذه الإمارات كانت جزءا من عمان ، وكانت أحوال عمان قبل السلطان قابوس لا تشجع المثقفين بهذه الإمارات أن يحاولوا العودة لربط إماراتهم بعمان ، ومن هنا اتجهوا لمحاولة الربط بين هذه الإمارات بعضها والبعض ، فهى فى الحقيقة أجزاء من وطن واحد .

وحاولت بريطانيا سنة ١٩٥٢ أن تقيم اتحادا بين هـذه الإمارات ، ولكن المحاولة نظر إليها على أنها مشروع استعمارى يرمى لخدمة بريطانيا بوضع القوى الموالية لها فى قمة الاتحاد الجديد ، كما فعلت بريطانيا فى الجنوب العربى (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) .

بيد أن اعلان بريطانيا الجلاء أزال الشبهة الاستعمارية ، ووضع هذه الإمارات أمام مسئوليتها لتواجه مستقبلها ، ومن هنا قامت مباحثات نشطة لخلق اتحاد بين هذه الإمارات ، وكانت هذه المباحثات ترمى فى كثير من الأحوال إلى ضم قطر والبحرين إلى إمارات الساحل العمانى ليتكون من المناطق التسع اتحاد واحد ، ولكن يبدو أن العمق التاريخى لعب دوره ، فقطر والبحرين ينتميان إلى منطقة البحرين القديمة « الأحساء » وأما الإمارات السبع فتنتمى إلى عمان ، ومن هنا لم يتحقق النجاح للمفاوضات التى حاولت ضم الأجزاء المتباينة تاريخيا لتشملها دولة واحدة .

وسارت الخطوات حثيثة لتحقيق الاتحاد ، وقد قام الشيخ زايد بن سلطان أمير أبو ظبى بنشاط كبير فى هذا المجال يعاونه الشيخ راشد المكتوم أمير دبى ، وتعاقبت اللقاءات بين الأميرين ، ثم أعلن قيام

اتحاد بين الإمارتين فيما يسمى (اتفاق سميح) وهى القرية التى أعلن فيها اتفاق على إقامة اتحاد بين أبو ظبى ودبى ، ومن هذه البداية كان التحرك الواسع الذى شمل المنطقة كلها من أجل توسيع الاتحاد ليشمل الإمارات السبع ، وقد نجح هذا المسعى إلى حد كبير ، فأعلن قيام الاتحاد بين ست إمارات فى ١٨ يوليو سنة ١٩٧١ ، وهذه الإمارات هى أبو ظبى ودبى والشارقة والفجيرة وأم القوين وعجمان ورفضت رأس الخيمة الالتحاق بهذا الاتحاد آنذاك ، ولكنها عادت فقررت الالتحاق به عندما أعلن قيام دولة الإمارات العربية المتحدة فى الثانى من ديسمبر سنة ١٩٧١ ، وبذلك كمل اتحاد هذه الإمارات واختير الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيسا للدولة الجديدة مدة خمس سنوات ، وعند نهاية سنة ١٩٧٦ جدد انتخابه مدة أخرى ، ثم تجدد انتخابه بعد ذلك حتى الآن (١٩٩١) .

وهكذا قامت دولة الإمارات العربية المتحدة لتضم هذه الإمارات جميعا ، ومنذ قيامها خطت للأمام خطوات واسعة لتحقق الرخاء والتقدم للجميع ، بل لعبت دورها فى الحقل العربى فسرعان ما أصبحت عضوا فى جامعة الدول العربية ، وعندما جاءت حرب التحرير سنة ١٩٧٣ كانت هذه الدولة فى العام الثانى من عمرها ، ولكنها بدت فى أعظم مراحل الشباب والقوة فوقفت من مشكلات المعركة موقفا رائعا جعل العالم العربى والعالم كله يحس أن دولة الإمارات ولدت فتية ، وأنها منذ ولادتها كانت قوة هائلة للمجتمع العربى والمجتمع الانسانى بوجه عام .

جهود دولة الإمارات :

كان العمل الذى أنجزته دولة الإمارات على الصعيدين الداخلى والخارجى أوسع جدا من سنى عمرها ، وكان تجسيدا للقيم والمبادىء التى تؤمن بها وللمستقبل الزاهر الذى يشرف على منطقة الخليج على

الرغم من الحقيقة التى وضحها الشيخ زايد بقوله : إننا نبدأ من لا شىء ، فنحن لا نقوم بإصلاحات معينة ، ولكننا نقوم بعملية بناء من العدم ، ولا نأخذ دورنا فى بلادنا فحسب ، ولكننا نلتزم بالخير لدول الخليج ولدول الوطن العربى كلـــه .

وقد وضعت دولة الإمـــارات ملامح دقيقـــة لسياســـتها الداخلية والخارجية نالت إعجاب الهيئات العربية والعالمية ، وأشادت بها الصحافة المصرية ، وفيما يلى تسجيل سريع لهذه الملامح :

فى مجال السياسة الخارجية :

تؤمن دولة الإمارات أن الاتحاد الذى قامت على أساسه هو نقطة ابتداء وانطلاق نحو اتحاد أوسع وأشـــمل فى المنطقة .. ويؤكد هذا الإيمان دستور الدولة الذى ترك الباب مفتوحا لكل الأشقاء الراغبين فى الانضمام إلى الاتحاد ، وتؤمن دولة الإمارات كذلك إيمانا عميقا بالوحدة العربية وتتوق إلى يوم تتحقق فيه الوحدة العربية الشاملة ، كما تؤمن بأنها — تاريخيا ونضاليا ومصيريا — جزء لا يتجزأ من الوطن العربى الكبير ، ومن ثم فإنها تلتزم كليـــة بالمواقف المبدئية والأساســـية التى تتخذها الدول العربية ، وتساند القضايا المصيرية للأمة العربية بكـــل ما تملك من امكانيات وطاقات ، وتؤيد النضال العادل للشعب الفلسطينى الشقيق وحقوقه المشروعة فى تقرير مصيره واستعادة أرضه .. وتؤمن دولة الإمارات بأن موقعها الجغرافى فى منطقة الخليج يفرض عليهـــا اهتماما خاصا بصيانة السلام العالمى واقراره ، وانطلاقا من هذا الإيمان عملت دولة الإمارات على توثيق علاقاتها مع جيرانها على أساس الاحترام تبادل لاستقلال كل دولة ووحدتها الإقليمية .

وبالنسبة لقضايا السلام العالمى رحبت دولة الإمارات بســـياسة الوفاق بين القوتين الكبيرتين ، بشرط أن لا يأتى هذا الوفاق عـــلى حساب مصالح الدول الصغيرة .

وتقف السياسة الخارجية لدولة الإمارات موقفا واضحا وحازما فى محاربة الاستعمار بكل صوره القديم منه والجديد ، ومناهضة التفرقة العنصرية وحروب الإبادة ضد الشعوب الإفريقية .

السياسة البترولية والتنمية :

تدرك دولة الإمارات أن المشكلة التى تواجه الدول المنتجة والمصدرة البترول تتركز فى اعتمادها على مصدر واحد لدخلها القومى من « عوائد البترول » .. وتتفرع عن هذه المشكلة مشكلة أخرى تتمثل فى أن صادرات البترول تذهب كمادة خام غير مصنعة ، وذلك يؤدى إلى خفض قيمتها ويؤدى — بالتالى — إلى أن تذهب قيمتها الحقيقية بعد تصنيعها إلى الأقطار المتقدمة صناعيا ، وتحرم الدول المنتجة والمصدرة من فوائد التصنيع الأخرى التى كان يمكن أن تحصل عليها لو تم تصنيع البترول فى بلادها . والحل لهذه الخسارة يتمثل فى ضرورة أن تعمل الدول المنتجة والمصدرة للبترول على تنويع مصادر دخلها القومى تحاشيا لأخطار الاعتماد على البترول وحده كمصدر قابل للنضوب .. أو لتوقف عائده فى بعض الظروف .. وكيف يتاح لهذه الدول أن تنوع فى مصادر دخلها ؟ أن ذلك يعتمد فى المقام الأول على الجهود التالية :

١ — تنمية الزراعة .

٢ — الاستفادة من الثروات الطبيعية الأخرى غير البترول .

٣ — العمل على بناء صناعة متطورة تتمشى مع امكانيات وطبيعة هذه البلاد .

نظرة إلى الجهود الداخلية بالدولة الجديدة :

إن الزائر لدولة الإمارات العربية المتحدة يستطيع أن يرى بعينيه منذ الوهلة الأولى كيف تتضافر جهود أجهزة الدولة كلها فى عزم وطموح من أجل بناء حياة جديدة لإنسان الخليج .. كل ميدان من ميادين الحياة

فى الدولة الفتية الصاعدة يشهد جهدا مكثفا .. وعملا لا يتوقف ففى مجال التعليم مثلا يتمتع الطالب فى دولة الإمارات بمزايا ومنح يتمناها أى طالب علم فى أى مكان من العالم ، وهناك أكثر من ١٠٠ مدرسة مختلف المراحل والتخصصات تفتح أبوابها لكل الراغبين فى العلم من أبناء الدولة ، وبعثات" توفد إلى الجامعات والمعاهد العليا فى الدول العربية الشقيقة وفى دول العالم الخارجى .. ومع نور العلم .. يأخذ نور الكهرباء أيضا طريقه اليوم إلى كل بيت فى كافة أنحاء البلاد .. والمشروعات المائية تتوالى ، والمشروعات الصحية تأخذ طريقها إلى حيز الوجود تباعا ، فقد ضمنت الدولة الخدمات الصحية لكل المواطنين ، وعملت على رفع مستواها وزيادة عدد العاملين فيها من أطباء وممرضات ، مع مضاعفة طاقة المستشفيات ، وبناء مستشفيات وعيادات جديدة وتجهيزها بالمعدات الحديثة اللازمة ، وأعدت الدولة اهتماما فائقا بالطب الوقائى ومكافحة التدرن الرئوى ، وقامت بحملة تطعيم عامة لوقاية البلاد من الأوبئة .

وفى مجال الخدمة الاجتماعية تؤمن دولة الإمارات أن العدالة الاجتماعية هى إحدى الدعامات الرئيسية التى تصنع المجتمع القوى ، وأن من أول واجبات الدولة رعاية المجتمع والطفولة والأمومة والعاجزين عن رعاية أنفسهم بسبب المرض أو العجز أو الشيخوخة أو البطالة الاجبارية .

وفى مجال الزراعة هناك محاولات طموحة وناجحة لاستصلاح مساحات جديدة من الأراضى لزيادة الرقعة الزراعية ، وتحقيق نوع من الاكتفاء الذاتى من المحاصيل الزراعية .. وتقوم سياسة الدولة الزراعية على التوسع فى تقديم الخدمات للمزارعين ، فى صورة بذور ومبيدات حشرية ، وقيام فرق المكافحة المجانية برش المزروعات ، وتقديم القروض الزراعية ، وحفر الآبار وتطهير الموجود منها .. وهكذا .

وفى كل مجالات الحياة فى الدولة الجديدة ، نشهد جهدا مكثفا ، وسباقا مع الزمن لإقامة صروح الدولة العصرية ، وإعادة صياغة الحياة على ضفاف الخليج ، وبناء الانسان الجديد فى هذه المنطقة العربية الاستراتيجية البالغة الأهمية .

تحية لدولة الإمارات العربية المتحدة مع أخلص الدعاء إلى الله أن يكلل خطا رئيسها الشيخ زايد بن سلطان وخطا جميع الزعماء بالنجاح والتوفيق ، لتحقيق كل الآمال التى يعقدها شعب الخليج ، وتعقدها الأمة العربية كلها ؟

والباخرة تسير باسم الله مجريها ومرساها .

دولة الكويت

مقـــدمة :

فى تقديرى أن الحديث عن الكويت يستلزم أن نراجع ما كتبناه عن الدولة العثمانية (١) وعن علاقتها بالبلاد العربية ، وقد ذكرنا فيما سبق عند الحديث عن الجزيرة العربية أن العثمانيين عندما انتصروا على قوات المماليك بمصر فى موقعتى مرج دابق والريدانية شمل نفوذهم سوريا ومصر وسرعان ما استولوا من الناحية الرسمية على الحجاز حتى يحققوا أحلامهم بتكوين امبراطورية إسلامية ، وامتد نفوذهم من أجل هـذا الحلم إلى العراق وإلى الشمال الإفريقى ، وقلنا كذلك إن زحفهم كان إسلاميا أو أخذ شكل الوحدة الإسلامية ممـا جعل الدول العربية لا ترى بأسا مـن الاندماج فى هذه الوحدة ، بل تسعى لها راضية سعيدة .

وقلنا أيضا إن العثمانيين لم يهتموا بباقى الجزيرة العربية ، فلم تكن بها قـوى تخيفهم ، أو ثراء يجتذبهم ، فتركوا هذه الأرض الفسـيحة القبائل تروح فيها وتغدو كما كانت قبل الإسلام ، وكما أصبحت بعد أن أدار لها الأمويون والعباسيون ظهورهم .

لقد كان موضع الكويت الحالية جزءا من هذه الفلاة الفسيحة ، فلم يرد لهذا الموضع ذكر فى التاريخ ، ولا لفت هذا المكان الأنظار ، ولم يكن به سكان يقيمون ؛ بل كان العرب يضربون الخيام به عدة أشهر عندما يبدأ موسم هطول الأمطار بهذه المنطقة ، ويظلون بهذا المكان يشربون المـاء ويرعون العشب الذى ينمو على أثر الأمطار ثم يرحلون ، وظل الحال كذلك حتى مطلع القرن الثامن عشر حيث بدأت تظهـر الحياة المسـتقرة فى هذا المكان ، ثم علت مكانته رويدا رويدا حتى أصبح من أهم الأمكنـة فى العالم من ناحية الثروة ومن الناحية الاستراتيجية . ولنعد للكويت لنأخذ فى الحديث عنها من البداية .

---

(١) انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

معلومات عامة عن الكويت :

الكويت كلمة تعنى مجموعة من البيوت الصغيرة ، وإذا كانت مجموعة البيوت فى هذه المنطقة بيوتا بسيطة بالإضافة إلى صغرها ، فقد استحقت أن يطلق عليها اللفظ المصغر وهو الكويت ، وبقى الاسم بعد ذلك مع زوال سبب التسمية ، فقد أصبحت هذه البقعة من العالم عامرة بأفخم القصور والعمائر الشاهقة ، ولكن التسمية بقيت وان فقدت مدلولها اللغوى .

وتقع الكويت فى أقصى الخليج العربى فى الزاوية الشمالية الغربية وهى على شكل مثلث تقريبا ، ويكون هذا الخليج الحد الشرقى فى للدولة ، وتقع العراق إلى الشمال ، وفى الجنوب تقع المملكة العربية السعودية (اقليم الأحساء) والمنطقة المحايدة بين الكويت والمملكة العربية السعودية ، ومساحة المنطقة المحايدة تساوى ثلث مساحة الكويت (١) ، وقد حددت معاهدة العقير فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ حدود الكويت الحالية ، وحدود المنطقة المحايدة بين الكويت ونجد .

وهناك ذراع من الخليج العربى يمتد داخل الكويت ويأخذ شكل هلال ويسمى (جون الكويت) وتقع به جزيرة الشويخ بالقرب من الشاطىء .

وتوجد عدة جزر فى مياه الكويت الاقليمية بالخليج العربى ، وأكثرها قليل السكان ، وبعضها يحيا به صيادو اللؤلؤ والأسماك حياة غير منتظمة ، وهناك قلة من هذه الجزر عامرة بالسكان ، وأكبر جزر الكويت جزيرة بوبيان ، ومساحتها ٤٨٠ كم مربع ، وهى خالية من السكان تقريبا إلا من بعض الصيادين الذين يفدون لها فى فصل الصيف ، ولكن

---

(١) دكتور سيد نوفل : الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة جـ ١ ص ١٥٥ .

لها أهمية استراتيجية هى أنها تسيطر على مدخل (خور عبد الله) وهناك كذلك جزيرة مسكان وهى جزيرة صغيرة وأهميتها ترجع إلى وجود فنار بها لإرشاد السفن ، ومن أهم الجزر فى الكويت جزيرة فيلكه وهى عامرة بالسكان الذين يشتغل بعضهم بزراعة الحبوب والخضروات ، ويشتغل آخرون بالصيد والتجارة ، وبها بعض المدارس وأنواع من المرافق الأخرى ، وأخيرا هناك جزيرة الشويخ سالفة الذكر .

وأعظم ميناء بالكويت هو ميناء الشويخ ، وتعد من أعظم الموانى العالمية فى الوقت الحالى ، إذ يمكن أن ترسو بها السفن الكبيرة .

مدن الكويت :

أشهر المدن فى دولة الكويت هى مدينة الكويت ، وهى العاصمة والمدينة الكبرى بالدولة ، وتقع على بعد ثمانين ميلا جنوب شرق البصرة ، ومائتين وثمانين ميلا إلى الشمال الغربى من البحرين ، وهى تمتد على شاطىء الخليج مسافة خمسة أميال تقريبا .

وقد كانت مبانى الكويت كما يصفها الشيخ حافظ وهبة (١) من الطين أو اللبن أو من الصخور ، وكان قصر الشيخ أحسن المبانى مع أنه كان مبنيا من الآجر ، وكانت المدارس قليلة بالعاصمة ، كما كان بها بعض الكتاتيب .

ولكن الكويت الحديثة شىء آخر تماما ، فالعمائر الشاهقة تمتد امتدادات واسعة وتناطح السحاب أحيانا فى ارتفاعها ، وتقف هذه العمائر على حافتى الشوارع الفسيحة المشجرة .

وبالكويت مجموعة كبيرة من المساجد الضخمة التى تعلو مآذنها لتنافس العمائر فى ارتفاعها ، وبالكويت أسواق غنية يعرض بها كل

---

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٩٤ .

مما يخطر بالبال من وسائل الترف والنعيم بالإضافة إلى ضروريات الحياة ، وفى العاصمة دور السينما والمسارح وتكثر المكتبات فى جوانبها المختلفة كما تكثر بها الأندية والملاعب والحدائق ، وتقف جامعة الكويت شامخة وحولها عشرات المدارس والمعاهد مختلفة المستويات والتخصصات .

والمدينة الثانية فى الكويت هى السالمية ، وكان اسمها قبل سنة ١٩٥٣ « دمنة » ثم اطلق عليها اسم السالمية نسبة للشيخ سالم المبارك الصباح ، وقد أصبحت السالمية مدينة على أحسن طراز تخترقها شبكة من الشوارع المعبدة التى تقف على جوانبها المبانى الفخمة ، كما تكثر بها المرافق مختلفة الأنواع .

ومن مدن الكويت كذلك كاظمة ، والجهرة ، وأم الروس ومدينة الأحمدى التى أنشئت حديثا لتكون عاصمة النفط فى منطقة البرقان وهى على بعد ثلاثين ميلا جنوبى العاصمة .

وسكان الكويت الآن حوالى نصف مليون منهم حوالى الربع ينحدرون من القبائل العربية التى سكنت الكويت منذ وقت مبكر ، والتى سنتكلم عنها فيما بعد ، والباقون جذبهم العمل إلى الكويت من الأقطار العربية ومن بلاد فارس ومن بعض أقطار أوربا .

والاتجاه السنى هو المنتشر بين مسلمى الكويت على مذهب الإمام مالك ، وهناك بعض الحنابلة ، وقلة من الشيعة ، وأكثر السكان يعيشون فى مدينة الكويت وحول آبار النفط ومسئولياته ، ولا يزال هناك بعض عرب العشائر يسكنون فى داخل البلاد .

وتعانى الكويت من مشكلة رئيسية هى مشكلة المياه العذبة ، إذ لا يوجد بها إلا آبار قليلة لا تفى بحاجة السكان كما يقول عبد العزيز الرشيد (١) ، ولذلك كانت الكويت تحضر الماء بالسفن من شط العرب

(١) تاريخ الكويت ص ٥٢ — ٥٣ .

الذى يبعد عنها بحوالى مائة ميل ، كما تم الاتفاق بين حكومتى الكويت والعراق على جلب ماء شط العرب بواسطة الأنابيب ، وذلك بناء على اتفاق عقد فى فبراير سنة ١٩٦٤ ، ولم تكتف حكومة الكويت بذلك خوفا من الاعتماد على هذه الاتفاقية التى قد تتأثر بضباب يمتد للعلاقات السياسية بين البلدين ، فأنشأت أجهزة لتقطير مياه البحر ، وقد أصبحت آلات التقطير تنتج ما يحتاجه السكان بوجه عام ، ولكن يبدو أن المياه العذبة لا يعدلها شىء ، وفى زيارتى لبعض منشآت استخراج البترول فى مصر على البحر الأحمر رأيت المياه التى تنتجها آلات التقطير تستعمل فى الغسيل والاستحمام وليس فى الشرب ، فيبدو أن العملية الطبيعية من آبار أو سحاب فأمطار فأنهار لا يعد لها شىء فسبحان من قسم الأرزاق .

تاريخ الكويت :

لعل أقرب الروايات دقة عن تاريخ الكويت هو ذلك الرأى الذى يرويه حاكم الكويت السابق الشيخ عبد الله السالم الصباح ، ولعل هذا الرأى رواية متسلسلة يحكيها الأحفاد عن الأجداد ، تقول الرواية إنه فى مطلع القرن الثامن عشر دفع قحط طويل مجموعة من عائلات قبيلة عنزة [1] إلى الهجرة من وسط نجد بحثا عن موطن أيسر حياة ، وأهم هذه العائلات آل الصباح وآل خليفة والجلاهمة . وتحرك هؤلاء فى البداية نحو الجنوب إلى وادى الدواسر ، فوجدوه أقسى حالا ، فارتحلوا إلى شبه جزيرة قطر ، فلم يجدوا بها ما يغرى بالاستقرار ، فتحركوا بماشيتهم ومتاعهم حيث حطوا الرحال فى منطقة الكويت [2] ، ويقال ان حكام

---

(١) قبيلة عنزة تنتمى اليها الاسرة الحاكمة بالسعودية والكويت والبحرين .

(٢) نقلا عن « الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة » للدكتور سيد نوفل ص ١٦٥ .

قطر من آل مسلم خشوا سطوة آل الصباح وطموحهم فألجئوهم إلى الخروج [١] .

وبعد أن اتخذت هذه القبائل الثلاث الكويت موطنا لهم اتفقوا سنة ١٧١٦ على أن يتولى آل الصباح شئون الحكم ، وآل خليفة شئون التجارة ، والجلاهمة العمل فى البحر ، على أن يقتسم الجميع الأرباح بالتساوى [٢] .

ولم يكن بد من تأمين مقامهم لدى الأتراك الذين كان من المسلم به أنهم أصحاب السيادة على المناطق العربية كما قلنا ، ثم ان الأتراك كانوا يحتلون العراق ولهم فى البصرة جيش كبير غير بعيد عن الكويت ، ومن ثم أجمع هؤلاء الذين حطوا بالكويت أمرهم أن يبعثوا رسولا منهم للباشا التركى يبين لهم أنهم فقراء نزحوا فى طلب العيش ولا يبغون ضرا بأحد وأنهم يقدمون الولاء للدولة العلية ، واختير لذلك الشيخ صباح وكان ميمون النقيبة فنجح فى سفارته [٣] .

وهكذا بدأت الكويت الظهور . وفى سنة ١٧٥٠ قرر المقيمون فى الكويت تعيين شيخ لتصريف شئونهم ، ولتمثيلهم فى التعامل مع الخلفاء العثمانيين ، فوقع الاختيار على صباح الثانى ليكون أميرا عليها ، وفى ظل سلالة آل الصباح ازدهرت الحياة واستقرت بهذه الجماعات [٤] .

وفى سنة ١٧٦٦ عرض زعيم آل خليفة على حلفائه أن ينفصل عن الحلف ويترك نصيبه من الربح على أن يسمح له بالاستقرار فى الجزء المجاور لمغاص اللؤلؤ ، فوافق الحلفاء على ذلك ، فسار آل خليفة ونزلوا

---

(١) دكتور أحمد الشرباصى : أيام فى الكويت ص ١٠ .

(٢) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١١٥ .

(٣) Dicksen : Kuwait and her Neighbours.

(٤) تقويم البلدان الاسلامية ص ٣٦٣ .

« الزبارة » التى تحدثنا عنها من قبل ، وبعد فترة استطاع آل الصباح أن يطردوا الجلاهمة من الكويت وبقيت الكويت مقرا لهم وحدهم (١) .

ويتضح من هذا أنه حتى نهاية الربع الثالث من القرن الثامن عشر كانت علاقة الكويت علاقة تبعية واضحة للعثمانيين ، وقد رأينا أن أهل الكويت هـم الذين بادروا بإعلان هـذه التبعيـة ، حتى قبل أن تطلب منهم ، لأن هذا كان آنذاك وضعا طبيعيـا لا مفر منه ، وكان أسـلوب العصر بالنسبة لهذه المناطق .

ومن مطلع الربع الأخير من القرن الثامن عشر دخل عنصر جديد على علاقات الكويت الخارجية ، ذلك العنصر هو بريطانيا التى كانت تحكم الهند ، وتتخذ لها طريقا بريا تجاريا بين البحر المتوسط والبصرة فشـط العرب فالخليج العربى إلى الهند ، وكانت التجارة البريطانية تصـل عن هذا الطريق إلى بغداد ودمشق وحلب ، وحدث سنة ١٧٧٥ أن نشبت حرب بين الأتراك العثمانيين والفرس استولى فيها الفرس على البصرة مدة أربع سنوات فحولت بريطانيا تجارتها إلى الكويت بدل البصرة لتظل فى حدود الدولة العلية ، واحتلت الكويت عند بريطانيا لذلك مكانا مرموقا وبدأت المنافسة بين القوتين الكبيرتين على الكويت .

وحوالى ذلك التاريخ أيضا كانت دعوة التوحيد تنتشر فى نجد على حدود الكويت ، وكانت لم تصل بعد إلى الحجاز ، وبالتالى لم تتحرك الدولة العلية لمقاومتها ، وخاف زعماء الكويت من زحف هذه الدعوة ، وأدركوا أن حاجة الانجليز إليهم ماسة بسـبب أمن الخط التجارى السـابق ، فتقدموا للانجليز سنة ١٨٠٥ يطلبون أن تكون الكويت فى حمايتهم ، ولم تكن بريطانيا تستطيع الموافقة على هذا حتى لا تغضب الدولة العلية التى

---

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١١٥ وانظر كذلك تاريخ الكويت السياسى لخزعل جـ ١ ص ٤٦ .

يسير الخط التجارى مسافات طويلة فى الأراضى والبحار التابعة لها ، ولكن ذلك على كل حال قوى العلاقات بين الكويت وبريطانيا .

وشهد القرن التاسع عشر صراعا يدور حول الكويت ، وعلاقات شد وجذب من هنا ومن هناك ، فالأتراك انتبهوا إلى أهمية الكويت وأطماع بريطانيا فيها ، وشكوا فى الوقت نفسه فى عمق ولاء أمراء الكويت ، فمنحوا أمير الكويت لقب باشا ، ولقب « قائمقام » تابعا لوالى البصرة سنة ١٨٧١ ، ومنحت تركيا العائلة المالكة بالكويت أراضى واسعة بالبصرة ومنطقة الفاو ، وكان تمرد آل الصباح على العثمانيين معناه فقدان هذه الثروة ، واهتم السلطان عبد الحميد بتثبيت النفوذ العثمانى فى مناطق الخليج [١] .

ولم تجد بريطانيا وسيلة لانكار تبعية الكويت للعثمانيين ، ولكنها حاولت أن تحصل على نفوذ فى هذه المنطقة مقابل اعترافها بهذه الحقيقة ، وكانت صلتها بأمراء الكويت ورقة مهمة فى يدها تعتمد عليها ، فعرضت حكومة الهند سنة ١٨٧٨ أن تعترف الحكومة البريطانية بسيطرة السلطان على الأراضى الواقعة جنوب البصرة على ساحل الخليج بشرط أن تستمر السيادة البريطانية على مياه ذلك الساحل [٢] ، ووافق اللورد سوانديرى على هذه الفكرة .

ومعنى هذا أن اعتراف بريطانيا بحق الدولة العثمانية فى الكويت لم يعد شيئا مسلما به ، ولابد من ثمن غال مقابل هذا الاعتراف .

وفى سنة ١٨٩٦ أصبح الشيخ مبارك الصباح حاكما للكويت وسرعان ما اتضح أنه ذو ميول بريطانية ، ولذلك لم تحسن السلطات العثمانية استقباله ولم تعينه « قائمقام » إلا فى العام التالى مما جعله يخشى

---

(١) دكتور محمود على الداوود : الخليج العربى والعلاقات الدولية ص ١١٠ ، ١١٥ .

Government of India to Indian Office 17/9/1878. (٢)

جانب العثمانيين ، وقد حاول الشيخ مبارك أن يحصل من العثمانيين على اعتراف باستقلاله الذاتى ، ولكنه لم ينل ذلك الاعتراف ، فأعلن ميوله البريطانية ، وأرسل برقية سنة ١٨٩٧ إلى الحكومة البريطانية يطلب منها أن تكون الكويت فى حماية بريطانيا ، وقد أرسلت وزارة الخرجية هذه البرقية إلى حكومة الهند ، ونصحت بعدم الاستجابة لطلب الشيخ •

ولكن حكومة الهند كتبت لوزارة الخارجية البريطانية عقب ذلك تؤيد الاستجابة لطلب الشيخ وشرحت المزايا السياسية والاقتصادية لذلك ، وقالت إن مسألة مقاومة تجارة الرقيق يمكن أن تكون سلاحا فى يد بريطانيا تسترضى به الرأى العام العالمى •

ونتيجة لذلك وافقت وزارة الخارجية فى ديسمبر سنة ١٨٩٨ على اقتراح حكومة الهند بشرط عدم اللجوء فى الوقت الحاضر إلى ترتيبات عسكرية وبوليسية جديدة •

وهكذا وجدت بريطانيا أن الأوان قد آن لقبول ما ترددت فى قبوله من قبل ، وحتى تأمن العواقب قنعت بإتفاق مرن وجعلته فى الوقت نفسه سريا ، وينص هذا الاتفاق الذى عقد فى يناير سنة ١٨٩٩ على تعهد الشيخ مبارك بألا يتنازل عن أى جزء من مقاطعته لدولة أجنبية وألا يستقبل أى ممثل لدولة أجنبية بدون موافقة السلطات البريطانية ، وأن يحصل الشيخ مبارك مقابل هذا على وعد السلطات البريطانة بأن تكون الدوائر البريطانية فى الخليج على استعداد لخدمته وأن تدفع له خزينة دار الاعتماد البريطانى فى كل شهر مبلغ ١٥٠٠٠ روبية (١) ، وكان المندوب البريطانى الذى باشر هذا التعهد هو الليفتنانت كولونيل مالكولم جون ميد Malcolm John Meade •

(١) O'Cenar to Lord Salispury, 1890.

وقد فاحت رائحة هذه الاتفاقية ، واحدثت كثيرا من الاضطراب ، ثم تعقدت قضية النزاع حول السيادة على الكويت عندما ظهرت الشركة الألمانية التى عهد لها بالاشراف على خط السكة الحديدية الممتد من الأناضول إلى بغداد ، فقد تقدمت هذه الشركة بطلب لبناء ميناء على خليج كاظمة بالكويت ، وقد أثارت هذه الأنباء خوف بريطانيا ، وبخاصة أن الشركة تجاهلت الشيخ مبارك واتصلت بالسلطان مباشرة ، ثم إن هذا المشروع سيجلب قوى متعددة إلى الخليج العربى الذى كانت بريطانيا تعد نفسها سيدة الوضع فيه . وفى ضوء ذلك بدأت بريطانيا تفكر فى إعلان الحماية على الكويت بشكل واضح ، وشاع هذا الاتجاه ، فأبرق توفيق باشا رئيس وزراء تركيا إلى وزارة الخارجية البريطانية يتساءل عن حقيقة الإشاعة [١] وفى الوقت نفسه حشدت تركيا بعض قواتها فى الفاو فاحتجت بريطانيا ضد هذا الاستعداد ، فرفضت تركيا هذا الاحتجاج مؤكدة أن الكويت جزء من ولاية البصرة ، وأن جميع الأدلة التاريخية والقانونية تؤكد هذا الحق .

وتدخلت ألمانيا فى الأمر ، فقد تسلم السفير الألمانى فى استانبول معلومات من حكومته تؤكد وجوب قيامه بالاعلان عن وجهة نظر الحكومة الألمانية التى ترى أن أعلان الحماية البريطانية على الكويت أمر يتناقض مع مقررات مؤتمر برلين ، ونظرا للمصالح الألمانية فى الكويت ، ومستقبل نهاية خط حديد الأناضول فإن الحكومة الألمانية سوف تعتبر مثل هذا خطوة غير ودية ، وكان الجواب الذى حمله السفير البريطانى للحكومة الألمانية يقرر أن حكومته لا تنوى اعلان الحماية على الكويت إلا إذا أجبرتها تركيا على ذلك بأعمالها تجاه الكويت [٢] .

وفى سنة ١٩٠٠ هجم الشيخ مبارك والأمير عبد الرحمن الفيصل آل

---

(١) Te gram no. 12 in 29 August 1901.

(٢) دكتور محمود داود : المرجع السابق ص ١٣٨ .

سعود على إمارة ابن رشيد بنجد ، وقامت معركة عنيفة خسر فيها المهاجمون خسارة فادحة ، وكان هجوم الكويت على ابن الرشيد يحمل معنى التحدى للسلطات التركية التى كانت تمد حمايتها لابن الرشيد وتشمله بعنايتها .

وفى سنة ١٩٠١ بلغت العلاقات بين الكويت وتركيا غاية التوتر ، فقد وصلت البارجة التركية (زحاف) إلى الكويت منذرة بعزل الحاكم ان لم يسمح لجنود الأتراك بالنزول إلى الكويت ، كما أعدت للهجوم على الكويت حملة مشتركة من الترك ومن جنود ابن الرشيد انتهازا لفرصة الهزيمة السابقة ، وقد فشلت المحاولتان بسبب وقوف القوات البريطانية منذرة بالتدخل .

وانتهزت بريطانيا هذه الفرص فتقدمت خطوة أثر خطوة لتمكن لنفسها فى الكويت كما يلى :

— زار اللواء كيرزوف الكويت فى نوفمبر سنة ١٩٠٣ ، وكان يتولى منصب نائب الملك فى الهند وبقى فى ضيافة الشيخ مبارك يومين ، وقد مكنت هذه الزيارة العلاقات بين البلدين .

— فى سنة ١٩٠٤ تم تعيين معتمد سياسى بريطانى فى الكويت ، وكان هذا يعنى الاعتراف باستقلال الكويت عن الامبراطورية العثمانية ، وقد احتجت تركيا عقب ذلك فسحب هذا المعتمد ثم أعيد .

— فى سنة ١٩٠٦ اقترحت حكومة الهند على الشيخ مبارك أن يرفع علم الكويت الخاص ، وذلك لأجل محاربة تجارة الأسلحة ففعل ، وكان وجود علم خاص للكويت له مغزى التمرد على تركيا .

— وفى سنة ١٩٠٧ وافق الشيخ مبارك على تأجير قطعة من الأرض جنوب بندر شويخ إلى بريطانيا نظير ٦٠٫٠٠٠ روبية فى العام ، وجعل الحق لبريطانيا فى إنهاء هذا العقد وقتما تشاء .

— وفى سنة ١٩١١ تعهد الشيخ مبارك كتابة ألا يسمح لأحد بالبحث عن اللؤلؤ أو صيد الأسفنج فى مياه الكويت الاقليمية إلا بعد مشورة المقيم السياسى البريطانى فى الكويت .

وهكذا قويت العلاقة بالتدريج بين الكويت وبريطانيا ، ولم يعد فى مقدور تركيا أن تتجاهل كل هذه العلاقات والمعاهدات ، ولذلك نراهـــا تتراجع عن موقفها المتشدد وتقنع بأن تتصيد بقية من الارتباط بينهـــا وبين الكويت بشكل يستر هذه النتيجة ، ولذلك توصلت بريطانيا وتركيا إلى مسودة معاهدة نصت المادة الأولى منها عـــلى اعتراف بريطانيا بأن الكويت جزء من الامبراطورية العثمانية ، ونصت المادة الثانية منها على التزام الامبراطورية العثمانية بعدم التدخل فى الشئون الداخلية للكويت بما فى ذلك مسألة الوراثة ، على أن يرفع الكويت العلم العثمانى ، وأن يكون الشيخ فى وظيفة « قائمقام » بالكويت لتكون له السلطة لحمـــاية الرعايا العثمانيين فى المنطقة .

وفى المادة الثالثة اعترفت الحكومة العثمانية بالاتفاقات البريطانية السابقة مع الكويت .

فى المادة الرابعة تعهدت بريطانيا بألا تقوم بإعلان الحماية على الكويت (١) .

ويلاحظ على هذه المسودة أنها لم يتم التصديق عليها وإن كـــانت اعتبرت نافذة من يوم الاتفاق عليها ، وفيما يتعلق بالمادة الرابعة فإن بريطانيا فسرتها بأن لها أن تباشر الحماية على الكويت وإن كانت لا تعلن ذلك .

وبعد ذلك بقليل طلب من الشيخ أن يقدم تعهـــدا بألا يمنح حق

---

(١) دكتور محمود على الداود : المرجع السابق ص ٢٠٢ بتصرف .

استغلال البترول فى أراضيه إلا لمن تزكيه الحكومة البريطانية ، فقدم الشيخ ذلك التعهد فى تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٣ .

وقامت الحرب العالمية الأولى فأخذت الكويت جانب بريطانيا ضد تركيا ، وفى مقابل ذلك ضمنت بريطانيا لأمير الكويت حقوقه فى حدائق الفاو ، وبعد الحرب وهزيمة تركيا تخلت هذه فى معاهدة سيفر عن كل ما كان لها من حقوق أو ما آدعته من حقوق أو سيادة على المناطق العربية ومن بينها الكويت ، وأصبح لا ينافس بريطانيا منافس فى مكانتها بالكويت .

وفى حديثنا عن السلطات بالكويت ينبغى أن نعود للوراء لنثبت أنه فى سنة ١٨٣٨ عندما وصل الجيش المصرى إلى شواطىء الخليج إبان حربه مع السعوديين ، وضعت مصر لها مندوبا فى الكويت ؛ وكانت وظيفته سياسية ، وكان شيخ الكويت فى ذلك الوقت هو الشيخ جابر بن عبد الله ثالث أمراء الكويت [١] .

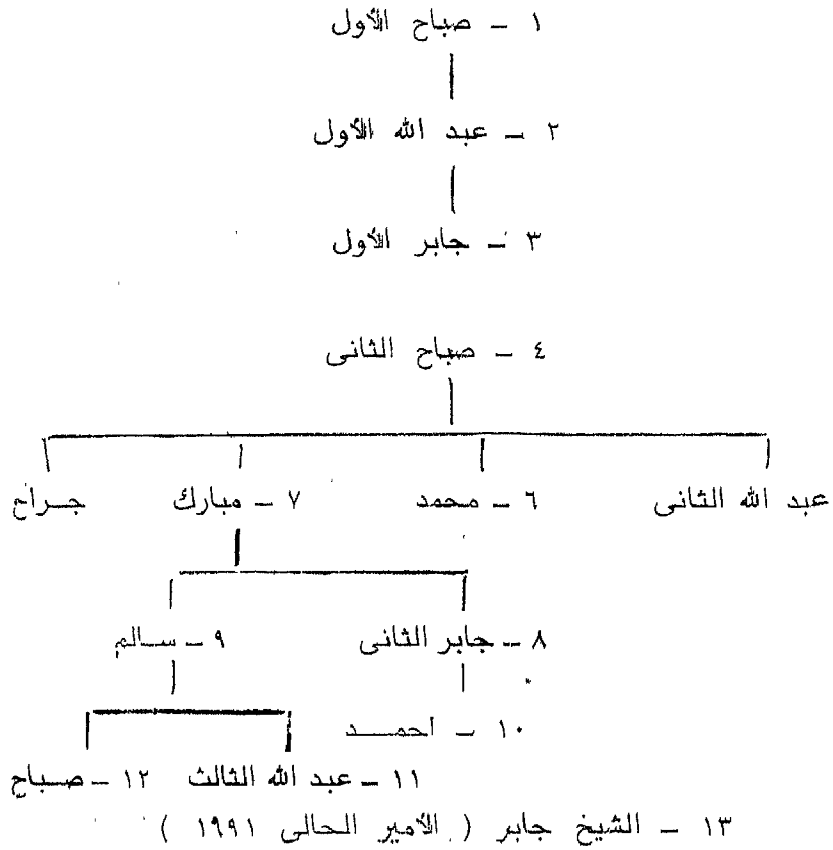
أمراء الكويت :

وأمراء الكويت هم :

صباح الأول	١٧١٨ — ١٧٧٦
عبد الله بن صباح	١٧٧٦ — ١٨١٤
جابر بن عبد الله	١٨١٤ — ١٨٥٩
الصباح الثانى بن جابر	١٨٥٩ — ١٨٦٦
عبد الله الثانى	١٨٦٦ — ١٨٩٢

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٩٧ .

محمد الصباح	١٨٩٢ — ١٨٩٦
مبارك الصباح	١٨٩٦ — ١٩١٥
جابر بن مبارك	١٩١٥ — ١٩١٧
سالم بن مبارك	١٩١٧ — ١٩٢١
أحمد بن جابر	١٩٢١ — ١٩٥٠
عبد الله بن سالم	١٩٥٠ — ١٩٦٥
صباح بن سالم المبارك	١٩٦٥ — ١٩٧٦
الشيخ جابر الأمير الحالى (١٩٩١)	١٩٧٦


١ – صباح الأول
٢ – عبد الله الأول
٣ – جابر الأول
٤ – صباح الثانى
عبد الله الثانى
٦ – محمد
٧ – مبارك
جـراح
٨ – جابر الثانى
٩ – سـالم
١٠ – احمـد
١١ – عبد الله الثالث
١٢ – صـباح
١٣ – الشيخ جابر (الأمير الحالى ١٩٩١)

كلمة عن أمراء الكويت :

يمكن مما سبق أن نقول ان أساس دولة الكويت وُضع فى عهد الشيخ مبارك ، وكان الشيخ يمتاز بالذكاء والطموح ، ولكنه لم يكن يبالى بالدم ليحقق طموحه ، فقد قتل أخوته محمدا وجراحا حتى يتخلص من منافساتهما ، وأرغم وجهاء الكويت على الخضوع له واستطاع أن يتصدى لأولئك الذين حاولوا أن يثأروا منه ، وكان فى قمتهم يوسف بن عبد الله الذى لجأ له أبنـاء أخوى مبـارك القتيلين ، ولكن هؤلاء لـم يستطيعوا أن ينالوا منه منالا .

ويقول عبد العزيز الرشيد أن عهد الشيخ مبارك فى تاريخ الكويت عهد حافل بالأحداث والأعمال ، بـل يعتبر هـذا العهد نقطة تحـول فى تاريخ البلاد ، فقد برزت الكويت إلى الوجود بفضله ، وأصبح لها كيان معروف ليس فقط فى منطقة الخليج بل على الصعيد الدولى (١) .

ولابدّ من وقفة أطول مع الشيخ مبارك وابنه جابر ، وعنهما نقتبس من الشيخ حافظ وهبة الكاتب الثقة بضعة سطور ، يقول الشيخ حافظ وهبة :

فى سنة ١٩١٥ كنت فى حديث مع الشيخ جابر ولى عهد الكويت فى فترة إمارة الشيخ مبارك ، وقلت له : إننى أنكر على الشيخ مبارك فداحة الضرائب وطريقة صرفها ، فإن الشيخ مباركا لخرج على كل مألوف مـن التقاليد الدينية والعربية ، وأخذ يستهتر بكل شىء ، كما أنه وضع ضرائب على البيوت تقضى بدفع ثلث قيمة كل بيت يباع مما لم يعرف من قبل فى بلاد العرب ، وكنت أشرح للشيخ جابر حديث : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، وإنى فى نفس الوقت لم أنس أن أذكر بعض الصفات الطيبة التى امتاز بها الشيخ مبارك من غيرته على الكويت وأهلها ودفاعه عـن مصالح أهلها والعمل لاستقرار الأمن وزيادة حركة التجارة فيها ، فقال

(١) تاريخ الكويت : ص ١٩٤ — ١٩٥ .

الشيخ جابر : إن كلامك كلام مطاوعه (أهل الدين) ما هى ميزة الأمير على الباعة وأصحاب الدكاكين يا شيخ حافظ ؟ خذها كلمة جامعة : الرعية مثل الغنم كلما طال صوفها جذذناه ، فقلت له : ولكن الغنم يا حضرة الشيخ تحتاج إلى من يعنى بها كى يتكاثر نسلها ، وأنتم لا تكتفون بالصوف فإن المقص كثيرا ما يصيب الجلد . فقال : إن الحاكم يجب أن تكون يده مطلقة فى كل شىء ؛ فى المال وفى الأرواح (١) .

ومن الممكن أن نقفز أميرين من أمراء آل الصباح هما جابر الثانى بن مبارك (١٩١٥ — ١٩١٧) وسالم بن مبارك (١٩١٧ — ١٩٢١) لقصر عهدهما ، ولعدم وجود عناصر خطيرة فى تاريخ الكويت خلال هذين العهدين ، ونصل بذلك إلى الأمير أحمد بن جابر الصباح (١٩٢١ — ١٩٥٠) الذى يوصف بأنه كان فى غاية الذكاء ، وكان يميل إلى الأناة والتبصر فى أعماله وفى عهده (سنة ١٩٤٠) عقدت ثلاثة اتفاقات بين الكويت والمملكة العربية السعودية ، وكان الشيخ حافظ وهبة ممثلا للسعودية ، وهو يتحدث عنها فى كتابة « جزيرة العرب فى القرن العشرين » .

وهذه الاتفاقات هى :

١ — معاهدة صداقة وحسن جوار .
٢ — معاهدة تجارية .
٣ — اتفاقية لتسليم المجرمين .

وتبودلت الزيارات بين أمراء الكويت وملك السعودية ، وفى سنة ١٩٤٧ عقدت معاهدة الدفاع المشترك بين البلدين .

وبعد الأمير أحمد بن جابر تولى الشيخ عبد الله السالم الصباح سنة ١٩٥٠ ، وظل أميرا حتى توفى سنة ١٩٦٥ ، وإذا كان البترول قد بدأ يتدفق فى الكويت قبل ذلك ، فإن نتائجه الحقيقية ظهرت فى عهد الشيخ عبد الله ، وبالتالى بدأت الكويت تأخذ طابعها الجديد فى ناحية السياسة

---

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين : الشيخ حافظ وهبة ، ص ١٥٥

والاقتصاد والناحية الاجتماعية ، وفى عهد الشيخ عبد الله قضى على الجهل والفقر والمرض بالكويت ، وبدأ شعب الكويت يسير نحو التقدم الواضح .

وفى ١٩ يونيو ١٩٦١ ألغيت الحماية التى كانت مفروضة على الكويت تبعا لاتفاقية ٢٣ يناير سنة ١٨٩١ ، وأعلنت الحكومة البريطانية الغاء هذه الاتفاقية ، واعترافها بسيادة الكويت الكاملة ، وبأن حكومة الكويت تتحمل وحدها جميع مسئوليات تسيير شئون الكويت الداخلية والخارجية .

وفى ١٦ يوليو سنة ١٩٦١ قرر مجلس جامعة الدول العربية الموافقة على طلب الكويت الانضمام لهذه الجامعة .

وفى ٧ أكتوبر من نفس العام صدر قانون انشاء المجلس التأسيسى .

وفى ديسمبر من نفس العام أجريت انتخابات لاختيار عشرين عضوا للجمعية التأسيسية التى صنعت دستور البلاد .

وفى ٦ يناير سنة ١٩٦٢ صدر الدستور المؤقت لدولة الكويت .

وفى يناير سنة ١٩٦٣ أجريت انتخابات أول مجلس نيابى بالكويت ، وتم تكوين مجلس للوزراء فى الشهر نفسه .

وفى مارس سنة ١٩٦٣ أصبحت الكويت عضوا فى هيئة الأمم المتحدة .

وهكذا نجد أنه فى عهد الشيخ عبد الله السالم الصباح أصبحت دولة الكويت دولة واضحة المعالم ، ليس فقط فى عالم الاقتصاد ، بل فى عالم السياسة .

وعندما نصل إلى أمير الكويت الشيخ صباح السالم الصباح نقرر حقيقة مهمة هى أنه كان أبرز القوى الفعالة فى عهد أخيه الشيخ عبد الله ، وأن ما تحقق فى عهد الشيخ عبد الله كان إلى حد كبير بيد

الشيخ صباح الذى كان يتولى أهم المناصب التنفيذية ، والذى حمل العبء لاقتراح هذه الانجازات وتحقيقها فقد كان أول وزير للخارجية فى أول وزارة تشكلت بالكويت سنة ١٩٦٢ ، وعين وليا للعهد ونائب رئيس الوزراء فى أكتوبر سنة ١٩٦٤ وكانت رياسة الوزراء للأمير ، وهكذا نجده واضع أساس الانجازات السابقة ، وهو بهذا أجدر من استطاع أن يعمل لاستكمالها حين أصبح أميراً الكويت عقب وفاة أخيه فى نوفمبر سنة ١٩٦٥ .

اقتصاد الكويت :

لقد غطى البترول بالكويت على كل مصادر الثروة وأصبحت كلمة الكويت توشك أن تعادل كلمة النفط ، فإذا ذكرت الكويت امتلأ الجو بصخب الماكينات وبرائحة البترول ، وعلى هذا حجب البترول سواه من المصادر وأثر عليها ، بل أوشك أن يقضى عليها .

والحق ان للكويت مصادر ثروة كانت قبل البترول ذات بال ، فموقع الكويت الاستراتيجى يجلب لها عديدا من الطائرات والبواخر كل يوم ، وتعود على الكويت فوائد مالية عظيمة مباشرة بسبب هذا الموقع ، وبسبب ما يجلبه من رسوم وأعمال لآلاف الأيدى العاملة .

وموقع الكويت دفع السكان منذ مدة طويلة إلى استغلال الخليج العربى الذى يكثر فيه اللؤلؤ الطبيعى ، ويكثر فيه الاسفنج ، وكان اللؤلؤ والاسفنج مصادر ثروة للكويتيين ، ولكن ظهور اللؤلؤ الصناعى قلل من أهمية اللؤلؤ الطبيعى ، ثم إن تدفق النفط جذب الأيدى العاملة للاثراء السريع بدل الغوص خلف اللؤلؤ والاسفنج .

ومما اشتهرت به الكويت من قبل صناعة بناء السفن ، وكانت سفن الكويت مشهورة بحسن شكلها وجودة صنعتها ، وهى على أنواع : فمنها نوع للعبور والتنزه ، ومنها سفن الغوص ، ومنها السفن التجارية الكبيرة التى كانت تشق العباب إلى مدغشقر وزنجبار والهند . وهذا دفع

أهل الكويت إلى إجادة التجارة العالمية بالإضافة إلى عملهم للنقل بين العواصم التجارية المختلفة ويمكن للقارىء أن يتصور مدى ما كان للكويت من نشاط بحرى إذا لاحظ أن السكان عندما كان عددهم عشرة آلاف نسمة كانوا يملكون ٨٠٠ سفينة [1] تباشر مختلف الأغراض السابقة .

ومن مصادر الثروة بالكويت كذلك صيد السمك ، وفى مياه الكويت أنواع مهمة من الأسماك كالسردين والطون والقرش والزبيدى ، وكانت صناعة صيد السمك تمثل مصدرا مهما من مصادر الثروة .

ولدى الكويت محاولات للزراعة وبخاصة لزراعــة الخضر ، ولكن قلة الأمطار لا تساعد على الاتساع فى الزراعة ، وعندما تهطل الأمطار تخضر الأرض وتكون مرعى طيبا لقطعان الماشية ببادية الكويت ، ولذلك كان صوف الماعز والجلود من بين الصادرات الكويتية للخارج .

على أن الذهب الأسود عندما تدفق غير مجرى الحياة ، وجــذب الأيدى العاملة من المدن ومن الخيام والبادية كما سبق القول ، فقــل الاهتمام بالصناعات الأخرى واتجه كل الاهتمام إلى المعدن الجديد الذى جلب الخير دون عناء كبير .

ولست أسترسل فى الحديث عن كمية النفط الهائلة التى تنتجها آبار الكويت وآبار المنطقة المحايدة . وبترول الكويت يمتاز بأنه قريب من سطح الأرض فلا يحتاج إلى عناء أو ضغوط ليتدفق .

وإذا لوحظت النسبة بين عدد السكان وبين كميات النفط التى تقذف بها أرض الكويت أدركنا أن الكويت دولة ترفيهية وأنها تصل إلى درجة عالية جدا من الغنى والثراء .

الحياة فى الكويت :

ان أثر النفط واضح تمام الوضوح على حياة الكويت شعبا وحكومة ،

---

(١) تقويم العالم الاسلامى ص ١٦٣ .

فالتعليم فى كل مستوياته بالمجان ، ويصرف للطلاب ما يحتاجونه من طعام وشراب ولباس وكتب •

وقد ازدهرت المدارس فى الحضر والبادية ، ونالت المرأة نصيبها كاملا من الثقافة بعد أن كانت محرومة من التعليم ، وفتحت جامعة الكويت فى العقد السادس ، وسرعان ما علا شأنها وارتفع مستواها ، ولم تقنع بالدرجات الجامعية فى حدود الليسانس بل تقدمت تجاه الدراسات العليا •

وقد منح التقدم العلمى للمرأة مجالا واسعا من التطور ، فبعد أن كانت المرأة الكويتية لا تخرج من بيتها إلا لماما ولا تتعرض لمقابلة الرجال الأجانب ويقتصر خروجها من البيت على زيارة النساء من أقاربها (١) • أصبحت تقتحم ميادين العمل وتباشر مختلف الأعمال والوظائف ، فأصبحت طبيبة فى المستشفيات ومدرسة فى المدارس ، ومذيعة بالمذياع والتليفزيون ، وصحفية ، وقلما بقى ميدان من ميادين العمل إلا اقتحمته

ومن العادات الطيبة فى الكويت عدم المغالاة فى مظاهر الحزن عند الوفاة بل أنها إلى حد كبير تتبع الفكر الإسلامى عندما تحل هذه الأحداث •

وتمتاز الكويت باستتباب الأمن بها إلى درجة كبيرة وذلك يرجع إلى وفرة الرخاء ، فكثيرا ما يكون المال هو السبب فيما يحدث من صراع ، على أن طبيعة الرجل الكويتى نفسه كانت من أهم أسباب استتباب الأمن فهو بطبيعته ميال للهدوء وعدم الالتفات لما يعكر صفوه ، ولهذا يغلب فى الحوادث التى تقع فى الكويت أن تكون هناك أصبع أجنبية دفعت لوقوع هذه الحوادث •

وتنعم الكويت بنظام تأميم الطب ، والمستشفيات الكويتية أعدت

---

(١) لميس الطحاوى : المراة فى الكويت •

أعظم اعداد ، وبها أحدث الأجهزة العلمية ، وهى تقدم العلاج والوقاية المجانية للمقيمين فى الكويت من المواطنين والوافدين [١] .

وفى الكويت حركة تعمير مزدهرة وهى تشمل اعداد أضخم المبانى للحكومة ، وأضخم المبانى للمؤسسات التى استلزمها التطور العام فى جميع مجالاته ، فقصور الأمراء تعد من الفن الحديث ، وأبنية الحكومة شاهقة رفيعة العماد والأثاث .

والمستشفيات والمدارس والمساجد تتنافس فى جلالها وجمالها .

الكـويت والعـرب :

اتجهت الكويت منذ وقت مبكر إلى التعاون مع شقيقاتها الـدول العربية فى مجال التنمية الاقتصادية ، فأسست « الصـندوق الكويتى للتنمية الاقتصادية العربية » وكان تأسيس هذا الصندوق سـنة ١٩٦١ وغرضه مساعدة الدول العربية فى تطوير اقتصادياتها ، وفى مدها بالقروض اللازمة لتنفيذ برامج التنمية فيها .

وكان رأس مال الصندوق خمسين مليون دينار ، ثم زيد بعد ذلك وهو يقدم قروضا فى حدود نصف تكاليف المشروع الذى يطلب القرض له وقدم هذا الصندوق بالفعل قروضا لبعض الدول العربية للمساهمة فى بعض المشروعات الاقتصادية زراعية كانت أو صناعية ، وفى نفس العام تقدمت الكويت بعون ثقافى إلى إمارات ساحل الصالح التى كان التعليم فيها يسير على النمط القديم ، فأنشأت الكويت بها مـدارس حديثة ، وأمدتها بالمدرسين والأدوات والكتب فرفعت بذلك مستوى التعليم فى هذه الإمارات إلى درجة كبيرة . قبل أن يتدفق النفط فى هذه الإمـارات فيضمن لها استقلالا اقتصاديا وحياة مترفة .

---

(١) دليل الكويت العـام .

وفى سنة ١٩٦٣ أنشىء البنك العربى الافريقى برأسمال مشترك بين مصر والكويت ، والهدف منه ايجاد أسس للتعاون بين البلدين فى مجال المال والتجارة ، والتعاون كذلك مع الدول الافريقية الصديقة لمواجهة التسلل الإسرائيلى الذى يتخذ الاقتصاد أحد وسائله .

وافتتحت الكويت مدرسة فى بومباى وأخرى فى كراتشى لتعليم اللغة العربية والتاريخ الإسلامى لأبناء العرب المقيمين هناك ، ولمن شاء أن يتلقى هذه الثقافات من أبناء الهند والباكستان (١) .

ومع أن هذا النشاط جدير بالتقدير فإنى أرى أنه ما يزال بعيدا عما يجب أن يكون ، فليس من صالح الكويت أن تضع نفسها فى حياة ترف وبذخ بسبب ما تدفق بها من النفط وبجوارها دول عربية لاتزال تعيش دون الوصول إلى الكفاية ، ودون تحقيق ضروريات الحياة .

وإذا كانت الكويت تنعم بالمال ، فلدى الدول العربية الاخرى مصادر ثراء تاريخى أو بشرى ، ومن اللازم أن تتبادل هذه المصادر والمنح بشكل متناسب ، وتنقل قيمة التعاون إذا ربطها القاموس العربى بكلمات قاسية ككلمة المنح والدعم ونحن نتطلع إلى عهد يقرب بين الشعوب العربية فى مختلف المجالات ، ويخلق شعورا حقيقيا بأن من العيب أن يعيش عربى فى ترف وآخر فى حرمان ، فسلامة العرب فى تعاونهم ، ولا يتم التعاون مع انتشار الترف فى مكان والفاقة فى مكان آخر .

الغنى والفقر

فى الطبعات السابقة لهذا الكتاب كنا نختم حديثنا عن الكويت بالفقرة الذى رآها القارىء آنفا ولا مانع من إعادتها مرة ثانية لنعلق عليها :

---

(١) دكتور ابراهيم عبده : دولة الكويت الحديثة ص ٥٥ — ٥٦ .

ليس من صالح الكويت أن تضع نفسها فى حياة ترف وبذخ بسبب ما تدفق بها من النفط ، وبجوارها دول عربية لاتزال تعيش دون الوصـــول إلى الكفـــاية ودون تحقيق ضرورات الحياة .

ذلك ما قلته فى الطبعات السابقة ثم جاء الزحف العراقى الذى اجتاح الكويت ، وأعلن عودتها جزءا من لواء البصرة كما كانت من قبل كما يرى ذلك الجانب العراقى .

وهذا الزحف سنخصص له دراسات كافية فيما بعد ، ولكننا هنـــا نقرر أن الغنى والفقر كانا من الأسباب الحقيقية التى دعت لهذا الزحف أو أيدته ، فقد ادعى العراقيون أن العراق مدينة للكويت بمبلغ يزيد عن ١٢ بليونا (مليارا) من الدولارات دفعتها للعراق إبان حربها مع إيران ، ورفضت الكويت التنازل عن هذا المبلغ واعتبرته قرضا ، وترى العراق أنه إسهام فى الحرب التى كان خطرها سيمتد بدون شك للكويت ولغيرها من دول الضفة الغربية للخليج لو قدر لإيران أن تنتصر ، واتجهت دول ومؤسسات عربية لتأييد العراق ربما بدافع الغنى والفقر أيضا .

ثم كشف الغزو العراقى للكويت عن ثراء خطير تتمتع به هذه الدولة الصغيرة التى يصل تعداد سكانها من الكويتيين حوالى نصف مليون فقط ، وهـــذا العـــدد القليل يملك أرقـــاما قياســـية مـــن الثـــراء وبخـــاصة أمراؤه وأثرياؤه ، فقـــد ذكرت الأنبـــاء أن أمير الكويت الأمير جـــابر يمتلك ٢٠٠ مليار من الدولارات ويمتلك أخوه وأسرته مثل ذلك أو أكثر من ذلك ، وأن دولة الكويت لها استثمارات فى دول العالم الغنية تصـــل إلى أرقام خيالية .

وهناك الأمير الكويتى طلال الصباح الذى ذكرت الصحف أنه ينفق على الهروين ١٥٫٠٠٠ دولار كل يوم عدا البذخ الذى يعيش فيه ، وعدا

محاولته قتل المطرب « أحمد عدوية » تلك المحاولة التى نجا منها عدوية ، ولكنها تركته أقرب للفقر والحطام •

ويقال إن الانسان العادى فى الكويت عندما يريد أن يتزوج يقدم لخطيبته « حزام جابر » فى شكل « شبكة » وهذا الحزام يختلف ثقله ونـوع الجواهر به باختلاف مستوى العريس والعروس ، وهـو يحيط بخصر الفتاة وتتدلى فيه الجواهر والجنيهات الذهبية ، ويتكرر « حزام جابر » لو أنجبت العروس ابنا ذكرا لزوجها ••••• هذا بخلاف السيارات الفارهة التى يُصْنع بعضها خصيصا لأمراء الكويت وأثريائه وبخلاف القصور التى تنزوى أمامها قصور ألف ليلة وليلة •

وهناك ثراء كهذا أو قريب منه يوجد فى الولايات المتحدة وفى اليابان وألمانيا ، ولكنه جاء نتيجة جهد وعرق ، أما ثراء الكويت فقد جاء من تدفق النفط الذى يوشك أن يفوق مياه الخليج •

ومع هذا فإن الولايات المتحدة واليابان وألمانيا تقدم للدول المحتاجة التى لا تربطها بها رابطة غير رابطة الانسانية قدرا كبيراً من العون ، أما الكويت فإنها تحيط بها مجاعات قاتلة ، وتصحر مهلك فى البلاد العربية والإسلامية ، وتضطر الكويت لتقديم عون يوصف بأنه « بالقطارة » أى أنه قدر زهيد ، وأنه محفوف بالمن والأذى •

ليس معنى هذا أننا نقر زحف العراق على الكويت ، فهذا شىء نستنكره ، ولكننا فى الوقت نفسه نستنكر الحرص الشديد الذى تعيش فيه الكويت مغمضة العين عن كل ما حولها ومن حولها •

وكلمة حق إنها ليست الكويت وحدها فى مكان النقد وإنما بعض دول الخليج الأخرى تشترك مع الكويت فى هذا الوضع ، وإن كان ثراء الكويت فيما يبدو أعظم وأخطر •

وقد تعرضت الكويت عام استقلالها سنة ١٩٦١ إلى نوع مما تعرضت سنة ١٩٩٠ فقد أعلن عبد الكريم قاسم رئيس العراق آنذاك أن الكويت جزء من العراق ، وبدأ يعد العدة للزحف على الكويت ، فأرسل عبد الناصر رئيس مصر آنذاك إنذارا بأن مصر ستتدخل لحماية الكويت .

ماذا قدمت الكويت لمصر نظير ذلك ؟

إنها بالتأكيد لم تقدم شيئا يتناسب مع موقف مصر منها وحمايتها لها ، ونسيت الكويت أنها إن كانت تملك المال فهى فى حاجة إلى ما يملكه الآخرون من قوة ومواهب .

ولا يزال يعيش فى مصر شيخ تقدمت به السن ، وهو يروى أنه كان ناظر المدرسة الوحيدة التى كانت بالكويت ، وكانت مدرسة مصرية ، ويذكر هذا الشيخ أنه فى مطلع العام الدراسى كان يرحل بالباخرة للكويت على حساب مصر ، ومعه المدرسون والطباشير والسبورات ..... ، فهل يذكر الكويتيون ذلك ؟

نحن لا نمنّ ولا نملك أن نمنّ ، فهو دورنا فى الحياة ، فتح أجدادنا الأزهر منذ أكثر من ألف عام وأنشئوا فيه الأروقة لكل الأقطار ، وقدموا العلم والمسكن والطعام والكساء للطلاب ، ولا تزال الأروقة تؤدى نفس الدور حتى الآن .

إننا فقط نتذكر هذه الأشياء ، لنذكّر من قست قلوبهم فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة .

وأخيرا فإننا لو وضعنا ثراء الكويت فى جانب وأطفال السودان الجياع فى جانب آخر لسخطنا على من لم يؤد حق المال لمن حوله من المحتاجين .

وقد أجمع علماء الغرب على أن نظام الزكاة الإسلامى هو الـــذى حرس العالم الإسلامى مـــن ثورات الفقراء ضد الأغنيـــاء ، فإذا بخل أغنياء المسلمين بأموالهم فليستعدوا لثورات لا تبقى ولا تذر ، وإننا نرفع أصواتنا بذلك لينعم الأغنياء والفقراء جميعا بمال الله .

أما قضية الحرب بين العراق والكويت ونتائجها فلنا وقفة طويلة معها بعد حديثنا عن العراق ، وستشمل هذه الدراسة تلك القضية من الألف إلى اليـــاء .

العـــــراق

مقـــــدّمة

عندما نصل فى دراستنا إلى العراق نجدنا واقفين أمام طريق طويل من الحضارة والمجد ، وأمام أحداث حفلت بالزهور والأشواك . وفى الحق إننى كباحث يطيب لى أن أطيل وقفتى مع العراق ، ودراستى مع بغداد ، وحياتى مع البلاد التى عاش فيها المنصور والرشيد والمأمون ، والتى أنبتت خيرة المفكرين والباحثين والتى ازدهر فيهـــا بيت الحكمة والنظـــامية والمستنصرية وغيرها من مراكز العلم والمعرفة .

لقد قام عصر صدر الإسلام بمهمته فى تقديم الإسلام وشرحه والدفاع عنه ، وحَمَل العصر الأموى مسئولية اتساع الرقعة الإسلامية ؛ وجـــاء العصر العباسى ليقوم بدوره الحضارى العظيم بالنسبة للعالم الإسلامى الفسيح ، بل بالنسبة للجنس البشرى كله .

وتخطيط هذه الموسوعة يضع العراق فى مكانه الجغرافى بهذا الجزء السابع ، وربما كان من حق العراق أن يأخذ نصيبا كبيرا فى هذا الجزء ، ولكن إيضاح التاريخ المبهم فى الجزيرة العربية وفى منطقة الخليج الْتَـهَمَ أكثر الصفحات .

وفى هذا الجزء (السابع) قد ادّخرتُ قدْراً مناسبا من الفراغ لأعرض تاريخ العراق متسلسلا من مطلع الإسلام حتى الآن ، وأن أوضح ما غمض من هذا التاريخ ، وأعلق ولو بإيجاز على أحداثه ، وكتابةُ تاريخ العراق كله على هذا النمط عمل يحتاج لمساحة واسعة جدا ، ولكن مما ساعدنى على الإيجاز هنا أننى خصصت العراق بالجزء الثالث من هذه الموسوعة وكتبت عنه كثيرا فى الأجزاء الأخرى منها .

ومراجع تاريخ العراق وفيرة ، وتوشك أن تكون كلها أو جلها بين يدى ، وقد قرأتهـــا جميعا واستوعبتها ، وكان من الممكن أن أكتب عن العراق كتابة مستفيضة ، ولكن نطاق الموسوعة لا يحتمل التفاصيل حتى

لا تزيد الأجزاء عن العشرة ، وحتى لا يزيد حجم كل جزء عن القــدر المتعارف عليه .

وفى البدء والختام نرجو من الله العون والتوفيق .

تعريف سريع بالعراق

نبذة عن التاريخ القديم :

يُعتبر العراق من أعرق دول العالم ، فقد قامت به حضارات يرجع عمرها إلى حوالى ٥٠٠٠ ق.م ، ومن أشهرها حضارة السومريين فى جنوبى العراق ، ثم حضارة الأكاديين ، ولا تزال لهم آثار جنوبى بغداد الحالية وبعدهم أسس البابليون دولتهم ، وكانت عاصمتهم تسمى بابل ، ولا تزال آثارها قريبة من مدينة الحلة ، ومن أشهر ملوكها حمورابى العظيم الذى عاش حوالى ١٩٤٠ ق.م وغلب الملوك الذين حوله وبسط نفوذ بابل على المنطقة الشمالية من بلاد مـا بين النهرين ، فأسس بـذلك امبراطورية كبيرة ، ويعتبر قانونه رائدا يدل على استنارة القائد ونضج عقله ، وهو عمل خالد لـه وللشرق ، وبعد البابليين قامت المملكة الأشورية ، وكانت نينوى التى تقع قريبا من مدينة الموصل عاصمتها الرئيسية ، وقد امتـد سلطان الامبراطورية الآشورية امتدادا واسعا ، وأشهر ملوكها سرجـون الثانى (٧٢٢ — ٧٠٥ ق.م) وسنحاريب (٧٠٥ — ٦٨١ ق.م) وآشـور بانيبال ، (٦٦٩ — ٦٢٦ ق.م) وجاء الكلدانيون بعد الآشوريين ، وأشهر ملوكهم نبوخذ نصر الثانى (٦٠٥ — ٥٦٢ ق.م) ، الذى سيطر على مملكتى إسرائيل ويهوذا ودمر الهيكل وسبى أكثر السكان اليهود إلى بابل وبعد ذلك غزا الفرس بلاد العراق حتى طردهم الاسكندر ، وجاء بعد الاسكندر الفرثيون ، فالحكم الساسانى الفارسى الذى قضى عليه المسلمون فى موقعة القادسية كما سنرى فيما بعد .

موقع العــراق :

يقع العراق بين خطى عرض ٣٠و٥ر٣٧ درجة شمالا وخطى طــول

٣٨و٤٨ درجة شرقا بوجه التقريب ، ويحد العراق من الشمال تركيا ومن الشرق إيران ، ومن المغرب سوريا والأردن والسعودية ، ومن الجنوب الخليج العربى والكويت والسعودية ، وتبلغ حدود العراق البرية ٣٥٥٠ كيلو مترا والحدود البحرية (على ساحل الخليج العربى) ٦٠ كيلو مترا تقريبا ، ومساحة العراق ٤٣٨٤٤٦ كيلو مترا مربعا ، وهى تشمل مساحة العراق البرية ومساحة المياه الاقليمية .

سطح العـــراق :

ينقسم سطح العراق ثلاثة أقسام كبرى : القســـم الأول السهل الرسوبى الذى يتكون من سهل طولى يمتد فى جنوبى العــراق ووســطه ويخترقه نهر دجلة والفرات وفروعهما ، وبه أكثر من ٦٠٪ من السكان ، وأرضه خصبة ، وبســـبب وفرة المياه وخصوبة الأرض ازدهرت بـه الزراعة ، ونشأت على ضفاف الأنهار أعظم مدن العراق .

والقسم الثانى يمثل الهضبة الصحراوية التى تمتد فى غربى العراق ، وتوجد بها مجموعة من الوديان تجرى فيها المياه فى مواسم الأمطار وهذا القسم قليل السكان ، إذ لا يوجد به أكثر من ٣٪ مـــن سكان العــراق وأكثرهم من البدو الرحل .

والقسم الثالث المنطقة الجبلية التى تقع شمالى العراق وشمـــال شرقى العراق ، وتهطل أمطار تكفى للزراعة ، ومن أجل هذا تكثر بهـا زراعة القمح والتبغ والبنجر والكروم والزيتون ويقطنها حوالى ثلث سكان العراق ، ومن المدن الهامة بهذا القسم الموصـــل وكركوك والسليمانية وأربيل وخانقين .

ومناخ العراق حار جاف فى الصيف بارد رطب فى الشتاء بوجـــه عــام .

وبالنسبة لمياه الأمطار العراقية اهتمت الحكومات الوطنية ببناء السدود للتحكم فى هذه المياه ولحسن الانتفاع بها ومنها سد الكوت الذى ينظم مياه دجلة ، وقد تم إنشاؤه سنة ١٩٣٩ ، وسد منصورية الجبل الذى تم إنشاؤه سنة ١٩٤٠ لتنظيم مياه نهر ديالى ، ومنها سدود تمت عقب ذلك أو مشاريع سدود لا يزال العمل جاريا فيها .

السكان فى العراق :

يبلغ مجموع سكان العراق سنة ١٩٧٥ حوالى ١٢ مليونا حسب ما تقوله النشرات الرسمية ، منهم ١٥٪ من الأكراد الذين يعيشون فى الأقسام الجبلية الشمالية الشرقية ، وهم أكبر الأقليات ، وسنتكلم عنهم بعد قليل ، وهناك أقليات أخرى كالتركمان وهم بقايا العشائر التركمانية التى حكمت العراق بعد الجلائريين كما سنرى فيما بعد ، ويعيش التركمان فى قرى ومدن تقع بين المناطق الكردية والعربية وهناك أقليات أخرى بالعراق من الفرس والزيدية والصابئة والأشوريين واليهود وغيرهم ، أما باقى السكان فهم عرب وفدوا على شكل هجرات متتالية منذ زمن طويل ، وقد استقر بعضهم فى المدن والقرى ، ولايزال بعضهم بدوا يعيشون رحلا من مكان إلى آخر ، وتبذل الحكومة العراقية جهودا كبرى لتوطين هؤلاء البدو .

كلمة عن الأكراد :

والأكراد بالعراق جديرون بكلمة خاصة ، وهم جزء من الأكراد الذين يعيشون فى هضبة فسيحة هى هضبة كردستان ويقع بعضها الآن فى تركيا وفى أرمينيا السوفيتية وشمال شرق العراق وشمال غرب إيران ، وفى العراق يتركز الكرد حول الموصل وكركوك والسليمانية ، وسكان السليمانية كلهم من الأكراد تقريبا ، والأكراد مسلمون سنيون ، وهم شعب قوى محارب يعمل للاستقلال بجد وقوة ، وقد منحتهم ثورة ١٧ يوليو ١٩٦٨ الحكم الذاتى ، وبعض الأكراد وصل إلى درجة عالية فى الثقافة العربية ،

وفى هذا المجال لابد أن يتذكر العالم اللغوى الكبير محمد كرد على مؤلف (خطط الشام) و (الإسلام والحضارة العربية) وغيرها ، وهو سورى الجنسية .

والزراعة هى الحرفة الرئيسية لمعظم العراقيين ، وأهم المزروعات بالعراق القطن والذرة والعدس والسمسم والخضروات والفواكه ، ويعتبر العراق من أهم الأقطار التى ينمو بها النخيل ، ولذلك يحتل العراق مرتبة عالية فى إنتاج التمور ، وبعد الزراعة تجىء الصناعة . وأهم الصناعات بالعراق صناعة النفط ثم صناعة النسيج والصناعات الغذائية وصناعة التبغ والسجاير وحليج الأقطان والجلود .

نفط العراق :

يعتبر العراق فى المرتبة السادسة بين الأقطار المنتجة للنفط فى العالم ، ويوزع النفط فى أرض العراق توزيعا أقرب ما يكون للعدالة فهو يوجد فى منطقة كركوك وفى منطقة الموصل وفى منطقة البصرة ، وسنرى أن الحكومات الوطنية حررت ثروات القطر النفطية من سيطرة الاحتكارات الدولية .

وبعد هذا التعريف السريع بالعراق نتجه لدراسة تاريخه وحضارته فى جميع عصوره الإسلامية فيما يلى :

العراق فى صدر الإسلام

تحدثنا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة (١) حديثا مجملا عن فتح العراق وفارس ، ونريد أن نعطى بعض التفاصيل عن فتح العراق ثم نواصل دراستنا عن تاريخه •

وبادىء ذى بدء نقرر أن العراق الحالى يشمل مملكة الحيرة التى ذكرنا فى الجزء الأول (٢) أنها كانت على حافة البادية غرب الفرات كما يشمل أرض السواد وهى التى كانت تسمى « العراق » والتى تضم الجزء الجنوبى من العراق الحالى ، ويشمل كذلك أرض الجزيرة أو ما يسميه اليونان ميسوبتاميا Mesopotamia وهى جزء من المنطقة الشمالية الخصبة بين دجلة والفرات تجاور بادية الشام وقد فتح العراق على مراحل تتناسب مع هذه الأقسام الثلاثة :

كانت المرحلة الأولى فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ودارت رحاها فى الغرب من الفرات ، وكانت فى بادىء الأمر بقيادة المثنى بن حارثة الشيبانى ، ولما شاهد أبو بكر نجاح المثنى مع قلة من معه أرسل جيشا عظيما بقيادة خالد بن الوليد ، وكتب أبو بكر للمثنى يأمره بتلقى خالد والسمع والطاعة له (٣) وكان خالد آنذاك قد فرغ من حروبه ضد المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة ، وعلى هذا فقد بدأ زحف خالد من الجنوب ، وان كانت هناك رواية تتجه إلى أن خالد بن الوليد زحف إلى العراق من المدينة بعد عودته إليها (٤) ، ولما وصل خالد إلى أرض الحيرة بدأت تتساقط مواقعها بالصلح أو بعد بعض

---

(١) ص ٧٥٦ وما بعدها من الطبعة الرابعة عشرة
(٢) المرجع السابق ص ١٠٧ ــ ١٠٨ •
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٢ •
(٤) انظر حركة الفتح الاسلامى فى القرن الاول للاستاذ شكرى فيصل ص ٦٢ •

المناوشات ، ولذلك ثار الفرس وأعدّوا عدتهم حتى يقاوموا هذا الزحف الناجح ، والتقى بهم خالد عند « الأبلة » حيث خاض معهم معركة هائلة تسمى معركة « ذات السلاسل » [١] لأن الفرس ربطوا جنودهم بالسلاسل حتى لا يفروا ، ولكن ذلك لم يغنهم شيئا ، فقد فر منهم من استطاع أن يفر ، وسقط الباقون صرعى ، واستولى الجيش الإسلامى على ميناء « الأبلة » على الخليج العربى [٢] ، وبعد ذلك صدرت أوامر أبى بكر لخالد أن يغادر العراق إلى الشام فاستخلف خالد المثنى بن حارثة وتراجعت الجيوش الإسلامية عن مواقعها المتقدمة ، وتحصنت بالصحراء مكتفية ببعض الاغارات والمناوشات .

الفرس يحتلّون أرض السواد أكثر من ألف عام :

وكانت المرحلة الثانية فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد استعاد المسلمون فى هذه المرحلة مملكة الحيرة ثم اندفعوا فى أرض السواد ، وكانت أرض السواد قبل الفتح الإسلامى جزءا من بلاد فارس ، **إذ كان الفرس قد احتلوها عقب سقوط الكلدانيين سنة ٥٣٧ ق.م ، وظلوا بها إلى الفتح الإسلامى سنة ٦٣٣ ميلادية أى أكثر من ألف سنة** ، وفى تلك الفترة الطويلة استطاعت الحضارة الفارسية أن تغمر أرض السواد ، كما نزح لها عدد كبير من الفرس ، وقد أقام بها ملوك الفرس مدينة طيسفون التى تقع جنوب بغداد الحالية على ضفتى نهر دجلة ، وكانت العاصمة الشتوية للأكاسرة ، وفيها أنشأ كسرى إيوانه المشهور الذى كان يستقبل فيه زواره من العرب ومن غيرهم ، وقد سمى العرب هذه العاصمة « المدائن » لكثرة ضواحيها حتى بدت للعرب وكأنها مدائن متعددة .

وقد استغرق الصراع فى هذه المنطقة عدة سنوات ، وتولى قيادة

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ٢ ص ٣٦٣ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص ٨٩ .

جيوش المسلمين فى هذه المرحلة عدد كبير من خيرة القادة والأبطال منهم ، المثنى بن حارثة وأبو عبيد بن عمر الثقفى : وجرير بن عبد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وينسب لسعد أنه فاتح أرض السواد لأن الذين سبقوه كانت جهودهم فى هذه المنطقة محدودة ، وكان مع سعد صفوة من القادة المشاهير عاونوه فى معاركه ، منهم : المغيرة بن شعبة ، وقيس بن هبيرة ، وطليحة بن خويلد الذى كان قد ادعى النبوة ثم تاب وأناب . وقد خاض سعد أقسى المعارك ضد الفرس ومن أهمها معركة القادسية ومعركة المدائن وجلولاء ، وعقب الانتهاء من جلولاء دانت للمسلمين كل أرض السواد ، وكانت القادسية تعرف عند العرب بأنها باب فارس (١) ، لأن الفرس حشدوا فيها كل قواهم ، وأثاروا المتاعب ضد المسلمين فى كل البلاد التى كان المسلمون قد احتلوها ، وقد أحس المسلمون بأهمية اللقاء مع الفرس فى معركة فاصلة فتراجعوا غرب الفرات لتدور المعركة فى الصحراء حيث تكون الطبيعة فى جانب العرب ، وكان استعداد العرب للقادسية هائلا حتى ليروى أن العربى كان يعرض له الأمر المهم فيقول : لا أنظر فيه حتى نرى ما يكون من أمر القادسية (٢) وقد انتصر المسلمون فى القادسية فاندفعوا يستعيدون الأرض التى كانوا قد أخلوها ويضمون لها أرضا جديدة من يوم إلى يوم ، وفى هذه المرحلة سقطت طيسفون فكان سقوطها ضربة شديدة أصابت الفرس ، إذ وضع المسلمون أيديهم على كنوزها وإيوانها وقصورها ، وكان الانتهاء من هذه المرحلة فى السنة السادسة عشرة من الهجرة .

ويدخل فى هذه المرحلة كذلك جهود المسلمين فى جنوب العراق ، وكانت قبائل بكر بن وائل فى الجنوب تواصل هجماتها على الفرس ، ولكن هذه الهجمات كانت غير منظمة ، فأرسل عمر بن الخطاب رضى الله عنه قائدا يقودها ويوجه هجماتها وهذا القائد هو شريح بن عامر وقد

---

(١) تاريخ الطبرى : جا ص ٢٢٢٨ .
(٢) الطبرى : جا ص ٢٣٦٤ .

سقط هذا القائد فى إحــدى المعارك ، فأرســل عمــر جيشا بقيادة عتبة ابن غزوان ، وقد استطاع هذا الجيش أن يحقق انتصارات باهرة فى هذه المنطقة .

وكانت المرحلة الثالثة فى عهد عمر بن الخطاب أيضا ، وقــد ضــم المسلمون فى هذه المرحلة أرض الجزيرة ، وكانت أرض الجزيرة موضع صراع بين الفرس والروم ، وقبيل الزحف الإسلامى إلى هذه المناطق كانت الجيوش البيزنطية تحتفظ فيها ببعض المواقع ، فلما سقطت أرض الشام فى أيدى المسلمين وسقطت كــذلك أرض السواد لم يكن بــد أن ينهى المسلمون الجيوب الفارسية والبيزنطية بأرض الجزيرة ، وليس بعيدا أن تكون الجيوش الإسلامية زحفت إلى الجزيرة من الشام ومن العــراق ، وكان ذلك سنة ١٨ هـ كما جاء فى رواية البلاذرى[١] أو فى سنة ١٩ هـ كما جاء فى رواية ابن الأثير[٢] .

وكانت جيوش المسلمين بقيادة عياض بن غَنْم ، وقد استطاع أن يستولى على مدنها المهمة مثل : الرقة على الفرات ، وحرّان القديمة ، والرّها (تسمى أيضا : أورفا أو إديسا) ، وقد اتخذت هذه مراكز تجمعت فيها الجيوش الإسلامية التى اندفعت فيما بعد إلى منطقة أرمينية وما حولها .

كلمة عن البصرة والكوفة والموصل :

ولنعد إلى أرض السواد لنقرر أن هذه المنطقة كانت شديدة الأهمية بالنسبة لبلاد فارس وللمنطقة الشرقية بوجه عام ولذلك ما إن حقق سعد ابن أبى وقاص انتصاراته فيها حتى كتب له عمر بن الخطاب يقول : اتخذ للمسلمين دار هجرة ، ومدينة يسكنونها بحيث لا يكون بينى وبينكم بحر ولا جسر فبنى مدينة الكوفة على الجانب الغربى لنهر الفرات إلى الجنوب

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٢ .
(٢) الكامل فى التاريخ : جـ٢ ص ٣٩٤ .

من موقع بابل التى تقع على الجانب الشرقى ، وتقع الكوفة على أرض مرتفعة بحيث تصبح بمنجى من فيضان دجلة ، أما الجيوش الإسلامية التى كانت فى جنوب العراق فقد بنى لها قائد جيوش المسلمين بالجنوب عتبة بن غزوان مدينة أسماها البصرة ، ويقال ان اسمها مأخوذ من « البصرة » وهو نوع من الحجر الأبيض الذى استعمل فى بناء المدينة ، وهى أيضا على حافة الصحراء أى غرب شط العرب بمعنى أنه لا يفصل بينها وبين العاصمة الإسلامية « المدينة » نهر ولا جسر ، وقد بنيت الكوفة والبصرة سنة ١٦ هـ وعقب إنشائهما أوفد عمر العلماء المسلمين لتقديم الإسلام للمسلمين الجدد بها ، فكان أبو موسى الأشعرى مبعوثه إلى البصرة وعبد الله بن مسعود مبعوثه إلى الكوفة ، وقد حققت البصرة والكوفة الهدف الذى بنيتا من أجله ، فقد جذبتا عددا من الأبطال العرب ، واندفع هؤلاء يواصلون الفتوحات فى فارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر فى عهد عمر وبعده .

وقد بنيت البصرة والكوفة على النسق الإسلامى أى كان المسجد مركز المدينة ، وبجواره مقر القائد ، ويحيط بهذين معسكرات الجيش ، وكان بناؤها أول الأمر متواضعا ، وكان هدفه إيواء المجاهدين ، وكانت المنازل من القصب ، فلما وفدت أسر المحاربين تحول البناء إلى اللبن وبخاصة أن حريقا شب فى بيوت القصب فأكل الكثير منها كما يذكر الطبرى (١) ، وبذلك تحول المعسكر إلى مدينة عامرة ، ثم خطا البناء خطوة مهمة ، فيروى أن سعد بن أبى وقاص ابتنى داره على شكل القصر الملكى فى المدائن ، ونقل إلى الكوفة أبواب المدائن (٢) وكان هذا من أسباب عزل سعد لبعده عن البساطة والزهد اللذين عرفت بهما الخليفة طيب الذكر ، وبعد عزل سعد عين عمر النعمان بن مقرن ثم حذيفة بن اليمان ،

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ٤ ص ٤٤ .
(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ١ ص ٢١٣ .

وسرعان ما جذبت منطقة العراق أنظار القبائل وأنظار الشخصيات البارزة ، بل وصل الأمر بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه أن نقل عاصمته من المدينة المنورة إلى الكوفة ليكون على مقربة من العالم الفسيح الذى امتد له الإسلام فى أواسط آسيا ، وقد ظل الإمام على فى الكوفة حتى استشهد سنة ٤٠ هـ فى مسجدها ، وكان قائما يصلى ، وبوفاته انتقلت الخلافة إلى دمشق .

وعندما انتقل مركز الخلافة بعد على إلى الشام اتجهت المدينتان للجانب الثقافى ، وهو اتجاه يجذبنا إلى أن نستطرد فى الحديث عنهما لأن نشاط هذه المدن كان متصلا وبعيد الأثر فى الحياة الإسلامية .

الثقافة فى الكوفة والبصرة :

وقد أصبحت البصرة والكوفة مهدا للدراسة اللغوية والنحوية والتقت فيهما حضارة الفرس بحضارة العرب ، ولم تفقد المدينتان أهميتهما الثقافية عندما أنشئت بغداد بل حافظتا عليها حتى اجتاحتهما الفتن والاضطرابات كما سنرى بعد قليل .

وقد وفد على البصرة كثيرون من أساطين العرب حتى سميت « خزانة العرب » وكان انتعاشها الاقتصادى الذى تسبب عن الحركة التجارية بها ، بالإضافة إلى انتعاشها الثقافى سببا فيما ارتبط بها من حياة لاهية ورد ذكرها فى قصص ألف ليلة وليلة .

وكانت البصرة مركزا مهما من مراكز العلم والأدب ، فكان يفد لها الطلاب الذين ينشدون العلوم والمعارف (١) .

ومن علماء البصرة المشاهير عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، وعيسى بن عمرو ، والخليل بن أحمد : والأصمعى ، وسيبوية امام

---

(١) الغزالى : الاحياء جـ٣ ص ٥٩ .

النحاة بالبصرة ، ومن مفكريها الحسن البصرى ، وواصل بن عطاء ، ومن شعرائها الفرزدق ، وبشار بن برد ، ومسلم بن الوليد ، وأبو نواس ، ويروى المرزبانى أن مسلم بن الوليد كان يجلس فى مسجد البصرة يملى من شعره ، وفى إحدى الجلسات كان يملى قصيدته الدالية التى مطلعها .

لا تدع بى الشوق إنى غير معمود ٠٠٠

إذ أقبل أبو نواس فاستشرف له القوم ، فدنا فسلّم ، فقطع مسلم الإملاء ورفعه فى المجلس ، واقبل عليه يسأله أن ينشد من شعره ، وأبو نواس يأبى ذلك ، ثم سأله أبو نواس أن يبتدىء القصيدة من أولها ففعل ... (١) .

ومن أدبائها المشهورين الحريرى صاحب المقامات .

ويتحدث الجاحظ عن أن البصرة فى عهده كان بها رجلان ليس هناك من هو أدرى منهما بصنوف العلم وحسن البيان ... (٢) ويذكر أنه دخل البصرة مرة ثم خرج منها بثروة كبيرة بعد فترة قصيرة : فسأله ميمون ابن هارون : أَلَكَ بالبصرة ضيعة ؟ فتبسم وقال : أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبى داود فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنحل إلى إبراهيم ابن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلافا دينار ... (٣) .

وكانت الكوفة تزدان بمدرستها النحوية التى اشتهر من زعمائها الرؤاسى مؤسس المذهب النحوى بالكوفة ، والكسائى والفراء ، وثعلب ،

---

(١) الموشح ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .
(٢) البيان والتبيين جـ١ ص ١٤٠
(٣) معجم الأدباء جـ٢ ص ٧٥ — ٧٦ .

ومن أدباء الكوفة ابن المقفع والكميت بن زيد وحماد الراوية وكان الكميت وحماد يلتقيان فى مسجد الكوفة ويتناظران ويتنافسان (١) •

وكانت البصرة والكوفة من ناحية أخرى مراكز للفتن والثورات وقد تحدثنا من قبل عن الزنج والقرامطة وعن حركة التشيع ، وكانت البصرة والكوفة أهم المراكز لهذه الحركات •

ولنصعد إلى الجزيرة التى فتحها عياض بن غنم لنقرر أنه بنى بها مدينة على الضفة اليمنى لنهر دجلة فى سهل زراعى واسع ، وفى منطقة عامرة بالعرب والأكراد ، وهى مدينة الموصل ، وتقع فى الضفة اليسرى أمامها أطلال مدينة نينوى التى كانت عاصمة الآشوريين ، وسميت الموصل لوقوعها فى طريق المواصلات التجارية النشطة بين الشرق والغرب ، وتقع الموصل حاليا على السكة الحديدية التى تربط العراق بتركيا •

وتشتهر الموصل بنسيج ثمين عرف باسمها وحرف فأصبح « الموسلين » وفيها ضريح الشاعر المشهور أبى تمام الذى قضى أيامه الأخيرة فى الموصل ومات بها •

واشتهرت الموصل بدار العلم التى أنشأها جعفر بن حمدان الموصلى ، وجعل فيها خزانة للكتب من جميع العلوم وقفا على كل طلاب العلم لا يمنع أحد من دخولها ، وإذا جاءها غريب يطلب العلم ، وكان معسرا أنفق عليه وكانت تفتح فى كل يوم ، ويجلس فيها ، ويجتمع إليه الناس فيملى عليهم من شعره وشعر غيره (٢) •

وكانت الموصل عاصمة الحمدانيين (٣١٧ — ٣٩٤ هـ) والعقيليين (٣٨٦ — ٤٨٩ هـ) ومركز أتابكية آل زنكى (٥٢١ — ٦٣١) ، وكانت سلطات هذه العاصمة تمتد أحيانا إلى الغرب فتشمل حلب •

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٣ — ١١٤ •

(٢) ياقوت : معجم الأدباء جـ٢ ص ٤٢٠ •

وبعد هذه الكلمة عن العراق فى صدر الإسلام وعن المدن التى أنشئت فى هذا العصر المبكر ، ننتقل خطوة أخرى لنتحدث عن العراق فى عصر آخر من عصوره .

العـــراق فى العهد الأموى

كانت البصرة والكوفة فى العصر الأموى (٤١ — ١٣٢ هـ) تمثـــلان العراق ، ولهذا كانتا تسميان العراقين ، وفى الوقت نفسه نشأتا فى أرض كانت أرضا فارسية مدة أكثر من ألف عام كما ذكرنا من قبل ، وكان الفرس يغمرون هذه المناطق ، ويذكر Wellhausen [1] أن الكوفة والبصرة كان يغمرهما عدد كبير من الأجانب وبخاصة جماهير الإيرانيين الذين كانوا أسرى حرب ثم اعتنقوا الإسلام .

أثر الفرس على الإسلام واللغة العربية :

وكان الفرس جنسا آريا وليس ساميا ، وهذا كان من دواعى توسيع الخلاف بين الفرس والعرب ، ثم كان الفرس حضارة واسعة وامبراطورية فسيحة قبل الإسلام ، فلما سقطوا بسيوف العرب هالهم هذا الوضع ، وعزموا على الثأر لكرامتهم ، ولم يكن فى مقدورهم أن يواجهوا العرب فى ميدان حرب ، فاتجهوا إلى ميدان الفكر يصارعون فيه دين الإسلام ولغة العرب ، وانتهى الأمر بأن حققوا نصرا واضحا فى هذا الميدان : فأصبح الإسلام فى بلاد فارس وفى كثير مـــن مناطق العراق تشـــيعا ، وأصبحت اللغة العربية قواعد وقوانين وبعدت عن اللغة نفسها .

الصراع بين العراق والأمويين وسببه :

وبسبب تأثر العراق بفارس اتخذ العراق جانب العداء ضد دولة الخلافة بدمشق ، وحملت البصرة والكوفة لواء التمرد ، واتجهت الدولة الأموية بالتالى

---

(1) Arab Kingdom and its Fall p : 71.

إلى ضرب العراق لتخضعه ولتذلل قياده ، وقد وضحنا فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة ألوان العصيان التى شنتها العراق ضد بنى أمية ، وألوان الضربات التى كالها الأمويون للعراق ، وسنشير فيما يلى اشـارات خاطفة لأبرز الحركات فى العراق خلال العصر الأموى :

— دخل معاوية الكوفة سنة ٤١ هـ حيث التقى بالحسن والحسين ، وذلك بعد الصلح الذى تنازل فيه الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وبايع الناس معاوية ، وبايع معهم الحسن والحسين .

— عين معاوية أهم رجاله ولاة على البصرة والكوفة ، فعين المغيرة بن شعبة واليا على الكوفة ، وزياد بن أبيه واليا على البصرة : ولما مات المغيرة ضم معاوية الكوفة إلى زياد سنة ٥١ هـ ، وكان زياد أول من تولى البصرة والكوفة معا ، وامتد حكم زياد بذلك إلى نصف الامبراطورية الشرقى برمته ، ، إذ كانت العراق قاعدة للزحف الذى اتجه إلى الشرق ، ومن ثم كانت العراق خلال فترة طويلة عاصمة للنصف الشرقى للعالم الإسلامى .

— تولى عبيد الله بن زياد البصرة عقب وفاة أبيه ، وتولى النعمان بن بشير ولاية الكوفة ، ثم ضمت الكوفـة إلى عبيد الله فى عهـد يزيد بن معاوية .

— فى عهد يزيد بن معاوية قتل الإمام الحسين رضى الله عنـه فى كربلاء غير بعيد من الكوفة ، وكان أهل الكوفة قد طلبوا أن يحضر لهم الإمام الحسين ووعدوه بالعون ، ثم تخلوا عنه فسقط فى معركـة غـير متكافئة .

— كانت الكوفة مثار ثورات تكاد تكون متصلة خلال العهد الأموى وقد رحبت بالمختار بن أبى عبيد ليقود ثورتها دون أن تكون لـه أهـداف واضحة ، وكان المختار عدوا لابن الزبير ولعبد الملك بن مروان زعيمى العصر ، وقد ولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة وأمره بالزحف على المختار بالكوفة ففعل ، وسقط المختار بسيوف مصعب ، ولكن عبد الملك سار فى جيش كبير استطاع به القضاء على مصعب .

ـ تجددت الفتن بالعراق بعد ذلك ، فعين عبد الملك لولاية العراق أخطر وأشهر الولاة الأمويين وهو الحجاج بن يوسف الثقفي .

ـ حدثت ثورة ابن الأشعث ضد الأمويين ، وكان الحجاج قد عين ابن الأشعث قائدا لجيش كبير من البصرة والكوفة ليحارب في سجستان باسم الأمويين ، ولكنه سرعان ما استدار ليضرب الحجاج ، وقد قضى الحجاج على أشراف العراق عندما أصبح له النصر في هذه المعارك القاسية ، وأشرف الحجاج على قتل الأسرى ، وكان ذلك مما أضعف حركات الفتن بالعراق .

ـ وفي عهد يزيد بن عبد الملك حدث صراع بين يزيد بن المهلب وبين جيوش الأمويين التي كان يقودها مسلمة بن عبد الملك ، وقد انتصر مسلمة وقتل عددا كبيرا من أهل العراق في موقعة العقير .

ـ ومن ولاة العراق المشاهير خالد بن عبد الله القسري وهو من ولاة هشام بن عبد الملك .

ـ في أثناء الصراع الذي دار بين خلفاء بني أمية المتأخرين بعضهم والبعض نشطت الفتن بالعراق وخراسان وكان ذلك من أسباب سقوط دولة بني أمية .

ـ اتخذ الشيعة ومدعو التشيع من البصرة والكوفة مركزين مهمين لنشاطهما ليظل هؤلاء على مقربة من الجزيرة العربية لينفثوا فيها سمومهم وانحرافاتهم .

وكان للخوارج نشاط كبير في العراق خلال عهد الدولة الأموية .

وهكذا حفل تاريخ العراق خلال العهد الأموي بصراع يكاد يكون متصلا ، وكانت الفتن أبرز مظهر في العراق طيلة هذا العهد .

العــراق فى العهــد العباسى

أصبح العراق عاصمة العالم الإسلامى خلال العصر العباسى ، فقد اتخذ العباسيون الكوفة عاصمة لهم عقب زحفهم الناجح من خراسان ، ومن الكوفة انتقلوا إلى الحيرة فالأنبــار ، ثم بنوا العاصــمة التليــدة « بغداد » وفى هذه العاصمة تجمعت كل أفانين المجد والعظمة حتى أصبحت بغداد رمز الزهو والجلال فى كثير من البقاع ، فاشتق من اسمها كلمات تحمل معانى الجلال والترف مثل « **تبغدد** » « **البغددة** » •• وحول بغداد قامت الكرخ والرصافة حيث مظاهر البذخ والنعيم •

وقد خصصنا الجزء الثالث من هذه الموسوعة للحديث عن الخلافة العباسية : فاتجه أكثر هذا الجزء بذلك للحديث عن العراق ، وقــد وضحنا به أن العراق عرف فى العصر العباسى الطويل (١٣٢ — ٦٥٦) صنوف المجد وألوان الشقاء ، عرف الغنى والترف ومسه الضر والعوز ، وذلك تبعا للحركات السياسية التى غمرت العراق خلال هذا العصر •

وكان العصر العباسى الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) قمة بين العصــور الإسلامية ، فقد استكملت الدولة فيه استقرارها السياسى ، وامتــدت حدودها امتدادا بعيدا ، حتى روى أن هارون الرشيد كان يرى السحابة تمر ، فيقول لها : اذهبى حيث شئت فسيأتينى خراجك • وقام العصر العباسى الأول بالدور الرئيسى فى تحضير العالم الإسلامى ، ففى خــلاله حدثت النهضة الثقافية الكبرى ، وكانت العراق مركز هذه النهضة ، وقد شملت النهضة جوانب ثلاثة مهمة هى :

١ — حركة التصنيف •

٢ — تنظيم العلوم الإسلامية وتدوينها •

٣ — الترجمة من اللغات الأجنبية •

وقد تحدثنا بإفاضة عن هذه الجوانب فى الجزء الثالث سالف الذكر ، وازدان العصر العباسى الأول بكفاءة المنصور وإصلاحات المهدى ، وحزم الهادى وأبهة الرشيد ، وثقافة المأمون ، وقوة المعتصم ، وفى خلال هـذا العصر ازدهرت بغداد بأسَرٍ كان لها نصيب وفير فى حضارة العصر وكلّ عصر ، فى قمتها أسرة البرامكة وبنو سهل .

ودارت الأيام ، ولكل شىء فى هذه الحياة نهاية ، وتجمعت ظروف متعددة لتحمل إلى العراق السحب الداكنـة والحيـاة المكفهرة والآلام والأشجان ، فبعد العصر العباسى الأول ظهرت قوى استطاعت أن تتحكم فى الخلافة : وعندما سقطت هيبة الخلفاء انفرط العقد الذى كان يجعل من بغداد واسطته ومركزه ، فبليت بغداد بالأتراك (٢٣٢ — ٣٣٤ هـ) الذين كان الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧) قد جلبهم إلى أرض الإسلام لأسباب ذكرناها فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة (١) ، وقد بـدأ طغيان الأتراك يظهر فى عهد المعتصم : فاعتدوا على كثيرين من الناس فى بغداد ، واعتدى الناس عليهم ، ولما كثرت الشكوى منهم ، بنى المعتصم مدينة سامرا (سُرَّ مَنْ رأى) وانتقل إليها ، ونقل إليها جيشه ، وظلت سامرا عاصمة الخلافة العباسية حتى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩) فأعاد المعتمدُ الخلافة إلى بغداد .

ومنذ عهد المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) بدأ تمرد الأتراك يبرز ، واتسع سلطانهم وطغيانهم حتى شمل الخلفاء أنفسهم ، وكان الخليفة المتوكل ضحية من ضحاياهم ، فقد اغتالوه وعينوا خلفه ، وصار لهـم السلطان يولون الخلفاء ويخلعونهم طيلة هذا العهد فيما عدا الفترة التى تسمى صحوة الخلافة فى عهدى المعتمد والمعتضد .

وفى عهد نفوذ الأتراك تدهورت الخلافة إلى مدى بعيد ، وصـار

---

(١) ص ١٩٤ — ١٩٥ .

لنساء القصر ، وكلهن من أمهات الأولاد نفوذ واسع ، وتجمع ثراء الدولة فى يد الأتراك ، وفى يد هؤلاء النساء ، فيروى أن ثروة أم المعتز بالله بلغت مليون دينار وكان لها مع ذلك جواهر لا تقدر بثمن .

وعلى هذا الوجه كان تاريخ الخلافة المتدهور خلال هذا العصر ، فكان يعتلى العرش خلفاء بلا قوة تسندهم ، ويعزلون أو يقتلون غير مأسوف عليهم ، ولم يكن هناك أمن الا فى بعض المناطق البعيدة عن العاصمة التى كان يحكمها أحيانا حكام مستقلون تقريبا ، وفى هذا العصر اشتعلت ثورة الزنج فى جنوب العراق ، وقد تحدثنا عنها من قبل ، وقد خلقت هذه الثورة أبشع دور فى تاريخ العراق كله .

وقبيل نهاية حكم المماليك عين الخليفة قائدا فارسيا هو أحمد بن بويه فى منصب ظهر حديثا آنذاك هو منصب أمير الأمراء [1] ، وزحفت أسرته بعد ذلك على سلطة الخليفة ، ولم يبق للخلفاء خلال عهد البويهيين (٣٣٤ — ٤٤٧) إلا الاسم المجرد من السلطة ، وكان البويهيون شيعة فأسرفوا فى امتهان الخلفاء لأنهم سنيون . وعلى هذا لم يكن لدى البويهيين باعث دينى يحثهم على طاعة الخليفة واحترامه [2] وربما خطر ببال البويهيين أن يلغوا الخلافة العباسية تماما ولكنهم آثروا أن يبقوا عليها لاعتبارات سياسية فقط ، وقد بلغ من امتهان البويهيين للخلفاء أن وصل الحال إلى أن اثنين من الديلم تقدما من الخليفة المتكفى بالله وجذباه فى حضرة معز الدولة وطرحاه على الأرض ووضعا عمامته فى عنقه ، وساقاه ماشيا إلى دار معز الدولة حيث اعتقل فيها ، ثم أحضر

---

(١) انظر الحديث عن هذا المنصب فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة ص ٤٠٨ — ٤١١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حـ٨ ص ١٧٧ .

معز الدولة الفضل بن المقتدر : وبايعه بالخلافة ولقبه المطيع لله (١) والمراجع التاريخية تشمل العديد من الأمثلة التى تدور فى هذا الإطار (٢) •

ولم يتوقف الطغيان البويهى إلا عندما اشتد التنافس بين أمـراء بنى بويه على السلطة وأساء بعضهم التصرف ، واشتغل باللهو واللعب وسماع الغناء ، كما كان حال بختيار بن معز الدولة الذى وصل من سوء تصرفه ولهواه أن تعرضت خزانة الدولة للإفلاس أكثر من مرة مما اضطره إلى مصادرة أموال كبار الرجال فى الدولة بـل صادر أموال الخليفـة نفسـه (٣) •

وقد أدى الاضطراب الاقتصادى ، والصراع الطويل بين أمراء بنى بويه إلى كثرة الثورات من الجنود والأهالى ، وبالتالى غلت الأسعار ، واختفت الأقوات ، وكثر السلب والنهب (٤) ، وكلّ هذا آذن بانهيار بنى بويه ،وأعطى الفرصة لزحف جديد عـلى العاصمة العراقية قام بـه السلاجقة سنة ٤٤٧ هـ كما سنرى بعد قليل •

ومع ما يؤخذ على البويهيين من مثالب فإن لهم بعض الإصلاحات فى بغداد ، فقد أنشأ عضد الدولة مستشفى كبيرا عيَّن فيه أكثر من عشرين طبيبا ، كما أنشأ مدرسة ضمت خزانة كتبها عشرة آلاف مجلد ، وكـان لكل نوع من الكتب فهارس خاصة فيها عناوين الكتب (٥) •

---

(١) ابن الجوزى • المنتظم حـ٦ ص ٣٤٢ — ٣٤٣ •

(٢) اقرأ فى ذلك الحياة السياسية ونظم الحكم فى العراق للدكتور فاضل الخالدى •

(٣) ابن مسكوية : تجارب الأمم حـ٢ ، ص ٣٠٧ والسيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ٢٧٦ •

(٤) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزهرة حـ٤ ص ١٠٨ •

(٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٤٤٩ •

وبعد البويهيين طرق السلاجقة بقيادة طغرك بك أبواب بغداد ودخلوها سنة ٤٤٧ كما أشرنا من قبل ، وقد أصبح السلطان منذ ذلك التاريخ للسلاجقة ، وكان هؤلاء السلاجقة أول من عمل على تتريك آسيا الصغرى التى نشأت بها فيما بعد دولة الأتراك العثمانيين .

وفى عهد السلاجقة أصبحت العراق تابعة لحكومة السلاجقة فى أصفهان ، ومع أن بغداد فقدت قدرها السياسى فقد استعاد الخلفاء فى هذه الفترة سلطتهم الروحية ، وقد نعمت العراق خلال عهد السلاجقة بكثير من الأمن والرفاهية ، وبخاصة فى عهد ملك شاه وكان ملك شاه نصيرا وحاميا للشاعر عمر الخيام ، ومما يرويه التاريخ أن عمر الخيام زامله فى أيام الدراسة اثنان من أعلام الرجال هما : نظام الملك ، والحسن الصباح ، وقد تعاهد هؤلاء الثلاثة فيما بينهم وهم طلاب على أن من يسبق منهم إلى المجد يشرك معه صاحبيه فى رزقه وفى نعمته ، ولما أصبح نظام الملك وزيرا الملك شاه ذكره رفيقاه بعهده ، فلم يتأخر عن الوفاء بما وعد ، ودفع لكل منهما حصة كبيرة من ماله ، فاتجه عمر الخيام إلى الانتفاع بما ناله من مال فى أن يحيا حياة هادئة ، وأن يشتغل بالشعر والفلك ، أما الحسن الصباح فقد استغل حصته من المال فى تنظيم فرقته التى عرفت بالاسماعيلية أو الحشاشين والتى سنتحدث عنها عند حديثنا عن المغول (١) .

وبعد عهد السلاجقة العظام بدأ النظام السلجوقى ينهار بسبب عوامل داخلية وعوامل خارجية أوضحناها فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة (٢) وكان من أهمها تمرد بعض الحكام الذين كانوا عبيدا لسلاطين السلاجقة وولاة لبعض الولايات ثم تمردوا عليهم وأعلنوا استقلالهم كشاهات خوارزم وشاهات الغور والأتابكيات المتعددة .

---

(١) انظر الترجمة العربية لكتاب (الرافدان) تأليف سيتون لويد ص ٢٢٧ .

(٢) ص ٤٣٥ — ٤٣٦ وانظر تاريخ آل سلجوق .

ووسط هذا التفكك أعلن الخليفة الناصر استقلاله ببغداد وما حولها وحاول إنعاش الخلافة [1] ، ولكن أطماع الدولة الخوارزمية هزت كيان بغداد وآمالها الجديدة ، ثم جاء زحف المغول فقضى على الدولة الخوارزمية وعلى الخلافة العباسية ، كما سنشرح ذلك بعد قليل .

تلك كلمة سريعة جدا عن العراق فى العصر العباسى ساعدنا على ايجازها أننا خصصنا الجزء الثالث لهذه الفترة من تاريخ العراق ، ففى هذا الجزء تفاصيل دقيقة لقضايا العصر ومشكلاته ، فليرجع إليه من يشاء ليجد صورة متكاملة أغنتنا عن العودة إلى التفاصيل .

---

(١) انظر تفاصيل مهمة لجهود الناصر فى الجزء رقم ٦٣ من « المكتبة الإسلامية لكل الأعمار » للمؤلف .

المغـــول

سقطت الخلافة العباسية عـلى أيدى المغول كمـا ذكرنا من قبل ، وحكمت العراق عقب ذلك بالمغول • ومن هنا كان لابد أن نتكلم عن المغول كلمة نتناول تاريخهم من جوانب متعددة :

التتـــار والمغـول :

يمكننا أن نقول فى إيجاز دقيق إن المغول جزء من شعوب التتار ، وإن جنكيز خان ، وهو أبرز قائد فى جماعة المغول ، استطاع أن يرغم أكثر جماعات التتار على الاعتراف بسلطانه • ومن هنا برز اسم المغول حتى أصبح مرادفا لكلمة تتار ، وأصبح أكثر التتار ينسبون أنفسهم للمغول مما يجعل من الممكن أن نتحدث عن المغول أو التتار دون خلاف ذى بال •

أصل المغـــول :

والمغول قوم من الرعاة عاشوا فى الهضبة الآسيوية ، الفسـيحة التى تعرف باسم هضبة منغوليا التى تمتد من أواسط آسيا إلى جنوبى سيبيريا وشمالى التبت وغربى منشوريا وشرقى التركستان •

وكانت جماعات المغول متفرقة ، تعيش كل جماعة منها حياة تناسب المكان الذى تعيش فيه بهذه السهول الواسـعة ، ففى القرن السـادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) كـان منهم جماعة الرعـاة التى تعيش بجوار المراعى ، ومنهم صيادو السمك الذين يعيشون بجوار البحـار والأنهار ، وصيادوا الحيوانات فى الأدغال والغابات [1] •

وبينما كان المغول يعيشون هذه الحيـاة التى كان طابعهـا العنف والصراع ضد بعضهم البعض وضد من حولهم ، كانت تعيش بجوارهم

---

(١) دكتور فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٣٠ و ٣٢ .

حضارات وممالك لها شأن فى التاريخ ، وكان المغـول يهاجمون هـذه الممالك كلما استطاعوا ذلك ، ثم يعودون أدراجهم إلى الفيافى الفسيحة .

ديانات المغـــول :

كان المغول من الوثنيين ومن عبدة قوى الشر كالجن والشياطين ، واعتنق بعضهم الديانة البوذية التى دخلت هذه الأصقاع من الهند عندما طردت من شبه القارة الهندية (١) ولكن هؤلاء كانوا قليلين ، أما الغالبية **العظمى فكانت ترى أن الأديره والمعابد تورث وداعة الأخلاق وتدعو إلى العطف والإنسانية ، وأن هذه الصفات لا تدفع للسيادة لأنه لن يســود البشر غير المقاتل الشرس ، ومن هنا قل منهم من اعتنق الديانات السماوية .**

أشهر زعمـاء المغول :

عاشت قبائل المغول حيـاة صراع داخلى مرير ، وكانت قبـائلهم تغير على أطراف الممالك المجاورة لهم كما ذكرنا آنفا ، ولكن هذه الغارات كانت ترمى للخطف والســلب دون أن تفكر فى احتلال هـذه الممالك أو القضاء عليها ، حتى ظهر جنكيز خان فغير من أهداف المغول ومن حياتهم تغييرا كبيرا كما سنرى فيما بعد .

وزعامات المغول التى ترتبط بالعالم الإسلامى هى :

١ — جنكيز خان : فى القرنين الثـانى عشر والثالث عشر ، وقـد دمر الدولة الخوارزمية . وأوشك أن يدق أبواب بغداد .

٢ — هولاكو : فى القرن الثالث عشر ، وهو فاتح بغداد ، وقـاتل آخر الخلفاء العباسيين ، ومدمر الشام .

---

(١) انظر أديان الهند الكبرى للمؤلف .

٣ — تيمورلنك : فى القرن الرابع عشر ، وقد اكتسح بلاد فارس والعراق والشام وتركيا وقد تحدثنا عنه فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

٤ — بابر : فى القرن الخامس عشر والسادس عشر ، وهو مؤسس امبراطورية المغول فى الهند وقد ظلت هذه الامبراطورية من سنة ١٥٢٦ إلى سنة ١٨٥٧ م .

وفى حديثنا عن المغول وعلاقاتهم بالعراق يتجه بحثنا إلى الكلام عن جنكيز خان وهولاكو وهو ما سنشرع فيه :

جنكيز خان :

جنكيز خان هو الاسم الذى أُطلق على تيموجين ابن أحد زعماء قبيلة « التمرجى » وقد مات الأب غدرا وكان الابن فى سن الصبا ، فانتقلت زعامة القبيلة إلى شخص آخر ، ولكن الصبى تيموجين تقدم نحو مرحلة الشباب ، وبدأ يجمع حوله الأنصار والأتراب ، فاتجه الزعماء له بالتحدى والنكاية مما ملأ نفس تيموجين ثورة وحنقا ، وانتقل الحنق إلى صراع نجح فيه تيموجين ، وأثبت فى هذا الصراع أنه بطل الأبطال فخافه الزعماء وخضعوا له بعد سلسلة من الحروب والغارات ، والتف حوله شعب التتار معتقدين أنه منقذهم من المذلة والفرقة ، وقائدهم إلى العزة والنصر ، وبدأت بذلك دولة جنكيز خان سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) ، وهدد جنكيزخان بالويل والثبور من تخلف عن الطاعة المطلقة له ، وبين الوعيد والتهديد التف أكثر المغول حوله وأعلنوا الطاعة له ، ووعدهم جنكيز خان بأنه سيفتح بهم الأرض ، ويملكهم الثراء الذى يحيط بهم ، وبدأ بذلك عهد جديد للمغول .

وفى سنة ٦٠٣ (١٢٠٦) أصدر جنكيز خان دستوره الشهير المعروف

باليasa وسنتكلم عنه فيما يلى ، فاستحق تيموجين اقب جنكيزخان أى السيد الغالب وامبراطور البشر جميعا (١) •

الياســـا :

كانت هناك آداب وتقاليد يتبعها المغول قبل عهد جنكيز خان ، فلمـا جاء جنكيزخان وضع قوانين محددة ربط بها علاقة الفرد بالفرد ، وعلاقة الفرد بالمجموع ، وعلاقة المجموع بالملك ، وسُمِّيت هذه القوانين (ياسا) أو (يساق) وقد أصدر جنكيز خان اليســاق سنة ٦٠٣ هـ ، وقد أورد المقريزى (٢) ملخصا للياسا نقتبس منه بعضه •

يقول المقريزى أخذاً عن نسخة من الياسا كانت فى خزانة المدرسة المستنصرية ببغداد : إن مما شرعه جنكيز خان فى الياسا أن من سحر أو تجسس أو كذب قتل ، ومن أعطى بضاعة للتجارة فخسر فيها ثلاث مرات قتل فى الثالثة ، وأن ذبح الحيوان ممنوع ، ولكن يقتل الحيوان بطريقة أخرى ، وأعفت الياسا الفقهاء والقراء والأطباء من الضرائب • وشـرطت الياسا تعظيم جميع الملل من غير تعصب ، وحذرت أن يأكل أحد من يـد أحد حتى يأكل المعطى أولا من الطعام ، ولا يتميز أحد على أصـحابه بالشبع ، ولا يجوز غسل الملابس ، بل تلبس حتى تبلى ، وعلى نساء العسكر القيام بما على الرجال من أعمال فى غيبة أزواجهن •

وتقرر الياسا أن من سرق يقتل ، وتنهى عن الإغراق فى شرب الخمر •

ويعلق الباحثون على أن ما جاء فى الياسا كـان بالنسبة للعلاقـات الداخلية بين المغول بعضهم والبعض ، فالكذب فيما بينهم كان جريمـة عقابها القتل ، ولكن الكذب كان طبيعة المغول فى الحروب : فهم لم يعرفوا الوفاء

(١) دكتور فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٤٩ •
(٢) الخطط : الجزء الأول ص ١٤٦ ، ١٤٧ •

بعهد ، وكانت طبيعتهم اللؤم والغدر ، ونقض العهود ، وإراقة الدماء ، وسلب الأموال ، والعدوان على الأعراض (١) .

جنكيزخان وأرض الإسلام :

بعد أن استقر الأمر لجنكيزخان وخضعت لـه الغالبية العظمى مـن قبائل التتار ، راح يمد سلطانه ليشمل الممالك المجاورة ، وقـد اسـتطاع جنكيزخان أن يقيم امبراطورية واسعة تشمل الصين الشمالية ، وأواسط آسيا ، وإيران ، على أن أهم ما يعنينا من هذه الامبراطورية هو زحفه على الدولة الخوارزمية التى شملت بلاد ما وراء النهر ، وأكثرية بلاد إيران ، والتى كان بها المدن الإسلامية الشهيرة بعلمائها وفقهائها مثـل : بخارى وغزنة وبلخ ونيسابور وسمرقند .

ولمـا كانت الدولة الخوارزمية شديدة الاتصال بالصراع المغـولى الإسلامى فإنه ينبغى أن نتكلم عنها كلمة توضح لنا أسس هذا الصراع .

تعريف بالدولة الخوارزمية :

مؤسس الدولة الخوارزمية مملوك تركى من غزنة اسمه (أنوشتكين) وكان قد التحق بخدمة ملكشاه (من سلاجقة خراسان) ثم عينه هذا حاكما على إقليم خوارزم سنة ٤٩٠ هـ — ١٠٩٦ م وبعد وفاته خلفه ولده قطب الدين الذى لقب خوارزمشاه ، وجاء بعده (آتسز) الذى حاول الاستقلال بخوارزم عن السلاجقة وقد نجحت جهوده بعد صراع طويل ، واستطاع أن يمد نفوذه حتى مدينة (جند) على نهر سيحون سنة ٥٥٢ ، ولمـا آل الأمر إلى علاء الدين تكش (٥٦٨ — ٥٩٦) حقق نصرا عظيما حين قضى على ملك السلاجقة فى إيران وحل محلهم ، وهذا الانتصار وضع الدولة الخوارزمية فى مواجهة الخلافة ، فطالب خوارزمشاه بامتيازات

---

(١) دكتور فؤاد الصياد : المرجع السابق ص ٣٤٥ .

السلاجقة فى دولة الخلافة كذكر اسمه فى الخطبـــة ، وفرض نفـــوذه السياسى على بغداد [١] شأن الأتراك والبويهيين والسلاجقة الـــذين حرصوا على هذه الامتيازات .

ومما يذكر أن الحكام فى البلاد التى تقع غرب العراق وهى الشام ومصر لم يطالبوا بهذه الامتيازات ؛ إذ كان التعاطف العربى يتجه إلى الحفاظ على هيبة الخلافة [٢] .

ولما آل السلطان إلى أشهر سلاطين الدولة الخوارزمية وهو علاء الدين محمد (٥٩٦ — ٦١٧) استطاع أن يوسع رقعة مملكته بأن هزم مـــلوك مـــا وراء النهر وضم بلادهم إلى سلطنته سنة (٦٠٧) وفى سنة (٦١١) انتصر على الغوريين واحتل غزنة وضمها إلى مملكته فوصلت البلاد إلى أقصى اتساعها [٣] .

ويتجه كثير من المؤرخين إلى لوم علاء الدين لأنه قضى على ملوك ما وراء النهر ، فهدم بذلك السور الذى كان يحول بين المغول وبين البلاد الإسلامية [٤] ، ولكننا لا نوافق على هذا الاتجاه ، فإن بلاد مـــا وراء النهر التى لم تقو على صد خوارزمشاه ، ما كان يمكن أن تقف سورا أمام المغول ، والذى يمكن أن يقال هو أن علاء الدين لم يُعِدّ تحالفا يستطيع به أن يقف فى وجه المغول الذين تهيأوا بقيادة جنكيزخان للزحف فى كل اتجاه ، وبدل إعداد تحالف كهذا راح علاء الدين يطالب بمزيد من القوة فى العالم الإسلامى فطالب بما طالب به أسلافه بأن تكون له امتيازات الســـلاجقة فى عاصمة الخلافة .

ولم يستجب الخليفة العباسى لمحاولات سلاطين الدولة الخوارزمية ،

---

(١) حافظ أحمد حمدى : الشرق الاسلامى ص ٤

(٢) دكتور بدوى محمد فهد : تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير .

(٣) انظر استانلى لين بول : تاريخ الدول الاسلامية جـ٢ ص ٣٧٥ .

(٤) دكتور جعفر حسين : العراق فى عهد المغول الايلخانيين ص ٥ ، ودكتور ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٤١ .

فقد كان يريد أن ينعم بالاستقلال بعد نهاية سلطان السلاجقة ، ولم يقنع سلاطين الدولة الخوارزمية بما وصلوا له من ملك فاندفعوا يصارعون الخلافه العباسية ، وفى سبيل ذلك استصدر علاء الدين فتوى بأن خلافة بنى العباسى غير صحيحة وأن أبناء الحسين أولى بها ، وأن من الخير الرجوع للصواب وإعادة الخلافة إلى هؤلاء ، وحاول عقب ذلك العثور على خليفة علوى [1] ، ثم اتجه علاء الدين للصراع العسكرى فزحف على رأس جيش كبير تجاه بغداد سنة ٦١٤ هـ ، ولكنه لم يحقق أهدافه بسبب العواصف التى واجهت جنده ، وبسبب القبائل الكردية التى اعترضت طريق الجيش الزاحف •

جنكيزخان يهاجم بلاد الإسلام :

فى هذا الجو من الخلافات والهزائم بدأ جنكيزخان يمد نشاطه إلى بلاد الإسلام ، وقد بدأ بأن أرسل إلى علاء الدين خوارزمشاه رسالة يطلب إليه فيها أن يفتح بلاده لعلاقات تجارية بين الدولة الخوارزمية والمغول ، وكان خطاب جنكيزخان شديد اللهجة ، وصف ملك خوارزم بأنه مثل ابن من أبنائه ولم يضعه فى مكان الأخ ، ولكن خوارزمشاه على كل حال خضع للأمر الواقع ووافق على قيام علاقات تجارية بين الدولتين •

بيد أن حاكم (أترار) أحد الثغور الواقعة على نهر سيحون أدرك أن تجار المغول يقومون بعمليات تجسس مريبة فمنعهم فى إحدى جولاتهم ، وصادر أموالهم وقتل بعضهم ، وقد كان ذلك الحادث فاتحة شر وبيل على الدولة الخوارزمية ، فسرعان ما زحفت جحافل المغول سنة ٦١٦ هـ تدك الأرض دكا ، وتدمر وتحرق ، وكانت (أترار) أولى المدن التى اقتحمها المغول حاملين معهم خصائصهم التى امتازوا بها وهى سفك الدماء ، وتدمير البناء ، وحرق المزارع ، وإشاعة الذعر ، والقسوة البالغة •

---

(١) Juveini : The History of world Conquerers :
نقلا عن : تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير ص ٦٥ •

وهناك قول يقرر أن الخليفة العباسى هو الذى أغرى المغول بالزحف على الدولة الخوارزمية لتمردهم عليه ، ولعل مصدر هذا الاتهام هو كلام منكبرتى الذى يقول عن الخليفة الناصر « إنه كان السبب فى هلاك أبى ومجىء الكفار إلى البلاد ، وقد وجدنا كتبه إلى الخطا وتواقيعه إليهم بالبلاد والخيل والخلع [١] » . ومن الواضح ان هذا النص الذى اتخذ أساسا لهذا الاتهام على فرض صدقه يذكر أن الخليفة كتب لملوك الخطا وليس للمغول ، أى أنه كتب لهؤلاء الملوك قبل خضوعهم للمغول ، بدليل أن هذا الخليفة عرف « بموقفه الصريح المعادى للمغول [٢] » .

ويجمع المؤرخون الموثوق بهم على أن هذه الفرية إشاعة أطلقها جلال الدين منكبرتى ابن علاء الدين ليتخذها وسيلة للزحف الذى قام بـه على بغداد سنة ٦٢٣ هـ [٣] .

وبعد سقوط أترار اتجهت فيالق الجيش المغولى اتجاهات متعددة فى بلاد مـا وراء النهر تقتحم المدن وتقضى على الزرع والضرع ، وقد عانت بخارى المدينة الإسلامية ذائعة الصيت شر ما تعانيه مدينة مهزومة ، يروى الجوينى [٤] . أن جنكيزخان دخل المدينة ليتفقد ما فيها بعد أن استسلمت له بعد صمود شامخ ، ومقاومة طويلة ، فدخل المسجد الجامع وسأل عما اذا كان هذا هو قصر السلطان ، فقيل له انه بيت الله ، فترجل عن حصانه وصعد المنبر وصاح قائلا : كانت الصحراء خالية من العلف ، أما الآن فاملئوا بطون خيولكم ، وكان ذلك يفيد الإذن فى السلب والنهب فلا يمكن أن تملأ بطون الخيل دون أن تملأ بطون الخيالة ،

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ قسم ٢ ص ٦٣٤ .

(٢) دكتور جعفر حسين : العراق فى عهد المغول الايلخانيين ص ١٤ .

(٣) انظر تغير هذا القول فى « تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير » ص ٤٣ ــ ٧٤ .

(٤) تاريخ جهانكشاى : جا ص ٨٠ ــ ٨١ نقلا عن المغول فى التاريخ ص ١١٦ .

وعلى الفور قام الجند بنهب المدينة ، ثم تحولوا للعبث بالمقدسات الإسلامية فحملوا إلى فناء المسجد عدة صناديق تحوى المصاحف التى كتب فيها القرآن الكريم بخطوط ممتازة ، وألقوا بها تحت حوافر الخيل ، ثم أحضروا كئوس النبيذ والمغنيات ، وصاروا يشربون ويرقصون ويسمعون .

ويذكر ابن الأثير سقوط بخارى فيقرر أن المغول لم يتركوا بخارى ألا وهى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، وأشعلوا النار فى البيوت وفى المدارس ، وقتلوا بعض الناس وعذبوا آخرين أشد العذاب (١) .

والذى حدث لبخارى حدث لسمرقند ولغيرها من بلاد ما وراء النهر ولما انتهى جنكيزخان من بلاد ما وراء النهر بقى بها يرعى فتوحاته الجديدة وعبرت جيوشه نهر جيحون ، وراحت تحرق وتدمر هنا وهناك داخل الدولة الخوارزمية ، وقد استولت على هراة وطوس والرى وغيرها وبعث فيلقا يتعقب السلطان علاء الدين الذى فر أمام هذا الزحف العاتى ، وقد أخذ هذا السلطان ينتقل من مكان إلى مكان حتى انتهى به المطاف إلى جزيرة صغيرة فى بحر قزوين ، وفيها وصلته الأنباء بأن أولاده الصغار قد قتلوا ، وأن نساءه قد وقعن فى الأسر ، فلم تحتمل صحته هذه الأنباء ، وأسلم الروح سنة ٦١٧ بعد أن عين ابنه جلال الدين منكبرتى وليا لعهده رجاء أن يستعيد مملكته .

وعادت الجيوش المغولية عقب ذلك التدمير إلى سمرقند حيث التقت بجنكيزخان الذى كان قد أحال منطقة ما وراء النهر إلى خرائب ينعق بها البوم ، واحتفظ المغول بإقليم ما وراء النهر وأخلوا ما سوى ذلك من أملاك الدولة الخوارزمية مما أتاح لجلال الدين منكبرتى أن يستعيد سلطانه فى تلك البقاع ، كما سنرى فيما بعد .

---

(١) الكامل فى التاريخ : حوادث ٦١٦ .

وعندما التقى المغول بزعيمهم فى بلاد ما وراء النهر ، لم يطل بقاء الزعيم بهذه المناطق ، بل انه سرعان ما أعد العدة للعودة إلى منغوليا إذ علم بقيام ثورات ضده فى التبت وشمالى الصين ، وكانت رحلته إلى منغوليا بطيئة ، فلم يصل إليها إلا فى سنة ٦٢٢ وسرعان ما سقط مريضا ثم مات فى رمضان سنة ٦٢٤ هـ ، وانتهى بذلك عهد الطاغية الأول الذى ملأ الأرض بالدماء البريئة ، ولم يترك الا أسوأ الذكريات كنهاية كل جبار أثيم .

جلال الدين منكبرتى :

انتهز جلال الدين منكبرتى فرصة عودة المغول وسقوط الطاغية ، فعاد من الهند سنة ٦٢٢ هـ وأخذ يلم شعبه ، ويؤلف جنده ، ويستعيد قوته ، وكان عليه فيما نعتقد أن يتعلم من الدرس الذى أهمله أبوه ، فيقوى ارتباطاته بجيرانه المسلمين وبالخليفة العباسى بوجه خاص ، ليستعد هؤلاء لمواجهة زحف جديد على تلك البقاع قد يقوم به المغول ، ولكن جلال الدين — للأسف — اتجه لمصارعة جيرانه لسبب أو لآخر ، فغزا أرض الخلافة ، وفتح بلدة « داقوقا » وأوقع السيف فى أهلها ، وسبى حريمهم ، وأحرق بلدهم وهدم سوره[1] ، وضعفت بذلك قوة المسلمين ، كما أخذ يحارب فلول المغول ، ويهاجم المناطق المغولية المتصلة بمملكته ، وكان ذلك سببا فى أن المغول أعدوا عدة كبيرة للهجوم على الدولة الخوارزمية مرة أخرى ، والقضاء عليها نهائيا ، وبخاصة أنهم قد استعادوا مكانتهم بعد الهزة التى حلت بهم بموت جنكيزخان ، فقد تم انتخاب (أوكتاى) خانا أعظم للمغول بعد فترة من وفاة جنكيزخان ، واندفع هذا يثأر من جلال الدين الذى كان يتجه للعدوان ، وقد سارت القوات المغولية تكتسح أرض الدولة الخوارزمية ، فاستولت على الرى وهمدان حتى وصلت إلى حدود أذربيجان سنة ٦٢٨ هـ وعندما أحس

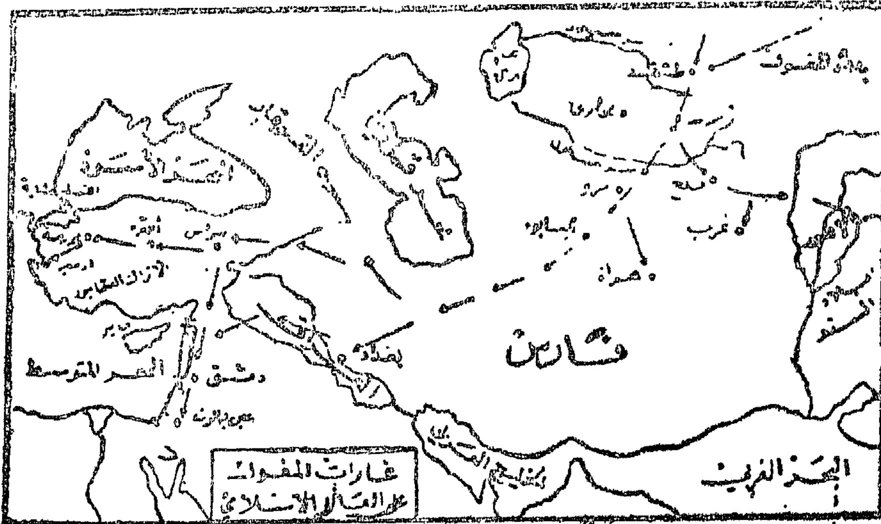
---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ قسم ٢ ص ٦٣٤ .

جلال الدين بالخطر ، راح يدعو أمراء المسلمين للتعاون معه لصد التيار الزاحف الذى وصفه بأنه كالنمل من حيث العدد وكالثعابين من حيث القوة ، ولكن صيحته لم تجد آذانا صاغية ، إذ كانت علاقاته سيئة مع من حوله ، وقد اضطر جلال الدين إلى التقهقر مرحلة أثر مرحلة ، حتى وصل إلى جبال كردستان ، وهناك لقى مصرعه على يد أحد الأكراد سنة ٦٢٨ ، وانتهت بموته الدولة الخوارزمية .

المغول يتجهون صوب العراق :

فتح سقوط الدولة الخوارزمية الباب لزحف مغولى جديد على العراق



والشام وكان هذا الزحف متوقعا عند قادة المسلمين آنذاك ، فلقد هنـأ جماعة من الأعيان الملك الأشرف صاحب دمشق على الهزيمة التى أنزلها المغول بعدوه جلال الدين خوارزمشاه فأجابهم الملك الأشرف قائلا : تهنئونى بهذا ؟ ! ! سوف ترون غبة ، والله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتار بلاد الإسلام ، وما كان الخوارزمى إلا مثل السد الذى بيننا

وبين يأجوج ومأجوج [١] . وقد أثبتت الحوادث صحة قول الأشرف ، وبُعد نظره ، فإن المغول بعد أن تمكنوا من إمارات فارس اتجهوا غربا وحققوا بعض انتصارات فى شمال العراق ، فاستولوا على ماردين ونصيبين والموصل ، ثم أخذوا إربل ، وكانت تعد مفتاح العراق من الجهة الشمالية ، ومن اربل واصلوا زحفهم تجاه سامرا سنة ٦٣٤ هـ وازاء هذا هب الخليفة المستنصر يعد نفسه لمواجهة هذا الزحف المدمر ، وكان الخليفة على وشك أن يقود حجاج المسلمين إلى الأرض المقدسة ، ولكنه استفتى العلماء فيما إذا كان من الأفضل أن ينفق أموال الحج فى الجهاد وصد العدو ، ففضلوا له ذلك ، وهب العلماء والكبراء يستعدون لمواجهة الزحف المغولى ، وكان الفقهاء يخرجون كل يوم من بغداد إلى معسكرات الجنـد ، لحث الجنود على الجهاد ، وتشجيعهم ، والاشـتراك معهم فى التدريبـات العسكرية ، وقد استطاع جند الخلافة بذلك أن ينزلوا بالمغول هزيمة شديدة عند جبل « حمرين » بالقرب من نهر دجلة [٢] .

وفى حوالى سنة ٦٣٨ وما بعدها اتجه المغول لاستكمال الزحف الذى كان جنكيزخان قد بدأه فى أوربا ، وقد أعد أوكتاى لهذا الزحف جيشا كبيرا جعل على رأسه « سبوتاى » وقد استطاع هذا الجيش أن يستولى على شبه جزيرة القرم ، وأحرق موسكو واستولى على البلاد الروسية عاما بعد عام حتى أصبحت روسيا كلها تحت أيديهم وظلوا يحكمونها حوالى قرنين ونصف قرن (٦٣٦ — ٨٨٦ هـ) وبعد أن تم لهم الاستيلاء عـلى روسيا زحفوا على بولندا والمجر وكانوا على وشك السيطرة على أوربا كلها لولا توقف الحرب بسبب وفاة أوكتاى سنة ٦٣٩ هـ [٣] .

ومع الزحف المغولى على أوربا كان هناك فيلق يزحف على أرمينية

---

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٢ ص ٦٧١ .

(٢) ابن القوطى : الحوادث الجامعة ص ١٣٣ .

(٣) دكتور فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٨٦ — ١٧٨ باختصار .

وآسيا الصغرى ويستولى على هذه البقاع (٦٤١ — ٦٤٢ هـ) وبسقوط آسيا الصغرى أصبح العراق مطوقا من الشرق والشمال ، ولكن المغول كانوا يحسبون للهجوم على عاصمة الخلافة حسابها ، ولذلك تجدهم يقومون بمحاولتين مهمتين رجاء تحقيق النصر ، وكانت المحاولة الأولى هى تعاونهم مع الصليبيين ، والثانية هى القضاء على دولة الاسماعيلية بشمال فارس ، وتستحق كل من هاتين المحاولتين أن نخصص لها كلمة موجزة :

التحالف مع الصليبيين :

توقع المغول أن يتجمع العالم الإسلامى ضدهم إذا هددوا الخلافة الإسلامية ، ومن هنا اتجهوا إلى التحالف مع الصليبيين الذين كانت لا تزال لهم بعض الجيوب والإمارات فى بلاد الشام ، وكان ذلك سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) وكانت زعامة المغول قد آلت إلى أوكتاى ، وكان الصليبيون آنذاك يتلقون عونا جديدا بسبب زحف لويس التاسع لمساعدة الصليبيين فى مصر والشام ، ويقول الأستاذ براون ان الظاهر أن المسيحيين جميعا كانوا على استعداد لأن يتغاضوا عن الشناعات التى ارتكبها المغول ليحطموا قوة العرب والإسلام (١) . ولكن هذا التحالف لم يكن ذا بال ولم يثمر أية نتائج ، لأن مصر سرعان ما ضربت الصليبيين ضربة قاضية وأسرت لويس التاسع مما جعل المغول يتجهون للاعتماد على أنفسهم فى هذا السبيل .

المغول والإسماعيلية :

أما المحاولة الثانية التى اتجه لها المغول لضمان النصر فهى القضاء على طائفة الإسماعيلية حتى لا يكون الإسماعيلية شوكة فى ظهر المغول عند زحفهم إلى العراق ، وحتى لا يقع المغول وهم بالعراق بين عدوين أحداهما الإسماعيلية بالخلف والثانى جيش الخلافة إلى الأمام .

---

(١) تاريخ الأدب فى ايران من الفردوسى الى السعدى ص ٥٧٥ .

وكان زحف المغول على الإسماعيلية بقيادة هولاكو الذى كان كجده جنكيزخان فى بطشه وطغيانه وحبه لسفك الدماء .

وطائفة الإسماعيلية كانت تسمى النزارية نسبة إلى نزار بن المستنصر الفاطمى ، وقد رأى هؤلاء أنه أحق بالخلافة من أخيه المستعلى ، واستطاع أتباع نزار أن يكونوا لهم مملكة فى بلاد فارس عمرت ١٧٠ سنة [١] ، وأشهر زعماء هذه الطائفة الحسن الصباح الذى تحدثنا عنه من قبل ، وكان الإسماعيلية يعرفون بالحشاشين ، ويتخذون مركزهم قلعة «ألموت» جنوب بحر قزوين ، وكان نفوذهم قد امتد إلى الشام فلما بدأ المغول زحفهم على تلك المناطق وتوقعوا مقاومة الإسماعيلية الذين كانوا يرون أن مطامع المغول لا تقف عند حد ، وأن فتوحاتهم فى الصين وأوربا وخراسان وإيران ستمتد لهم وتقضى عليهم ، ومن هنا اتجه الإسماعيلية إلى جمع الجموع لمواجهة المغول ، بل أخذوا يرسلون رسلهم إلى انجلترا وفرنسا طالبين معونة الأوربيين فى هذا الشأن ، وكل ذلك أثار عليهم المغول فقرر هولاكو ضرورة التخلص منهم قبل أن يواصل زحفه إلى العراق ، وعلى هذا حاصر حصونهم بجيوشه الجرارة ثم استعمل معهم سلاح السياسة والخديعة واستطاع بذلك أن يقضى عليهم ويدمر حصونهم .

وقد نجا من المغول فى قلاع الإسماعيلية الخواجه نصر الدين الطوسى الذى كان زعيم الإسماعيلية قد قبض عليه وأودعه السجن ، لأنه لم يكن يدين بالفكر الإسماعيلى .

وبالتخلص من الإسماعيلية لم يعد أمام هولاكو عقبات فى طريقه إلى العراق .

هولاكو وسقوط بغداد :

عندما قضى هولاكو على كل العقبات فى طريقه إلى العراق ،

---

(١) موسى كاظم نورس : كاش خلفا ص ١٣٨ .

وعندما أوشك أن يدق أبواب العراق أخذ يعد عدته لنجاح مهمته ، فجهز آلات الحرب أعظم تجهيز ، وهيأ جنده ، أقوى تهيئة ، وساعده الحظ حينما تمكن من الاستيلاء على قافلة كانت متجهة إلى حران وهى تحمل ٦٠٠ر٠٠٠ دينار من الذهب ، فساعده هذا المبلغ على تقوية الجيش وتوسعه العطاء لجنده وبعث الأطماع فيهم لدخول الأرض التى تخيلوها أرض الذهب والثراء ، وعندما تهيأ هولاكو لدخول بغداد أرسل للخليفة خطابا سنورد موجزه فيما بعد ، وأهم ما يعنينا منه هنا أن المغول طمعوا فى السيطرة على الخلافة العباسية ، شأن حكام الشرق من بويهيين وسلاجقة وخوارزمية ، ولم يستجب الخليفة لهذه الأطماع ، بل رد ردا عنيفا ففتح الباب لزحف ساحق ، وفيما يلى موجز خطاب هولاكو والرد عليه .

يقول هولاكو : لابد أنه قد وصل إلى سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدى الجيوش المغولية منذ جنكيزخان ، وعلمت أية مذلة لحقت بأسر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة . ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط ، فى وجه أية طائفة من تلك الطوائف التى تولت هنا السيادة ، فكيف يغلق هذا الباب فى وجوهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان ؟ .

واعلم اننى إذا غضبت عليك وقدت الجيش إلى بغداد فسوف لا تنجو منى ، ولو صعدت إلى السماء ، واختفيت فى باطن الأرض ..

أما رد الخليفة فقد جاء فيه قوله :

أيها الشاب الحدث الذى لم يخبر الأيام بعد ، والذى غرته مساعدة الظروف فتخيل نفسه مسيطرا على العالم ، وحسب أن أمره قضاء مبرم ... ألا تعلم أنه من الشرق إلى الغرب ، ومن الملوك إلى الشحاذين ، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعتنقون الأديان كلهم أتباع وجنود لى ، غير أنى لا أود الحقد والخصام ، ولكنك إن كنت تريد الحرب

فإن لى ألوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة ، هم على أهبة الاستعداد للقتال (١) .

ولم تجد هذه الرسائل ، فأرسل هولاكو سنة ٦٥٥ هـ أحد جواسيسه إلى علاء الدين بن العلقمى ، وزير الخليفة العباسى المستعصم بالله ، وكان هذا الوزير شيعيا ، ويقال انه كان يستجيب لكل ما ينزل الضرر بأهل السنة ومن أجل هذا استجاب ابن العلقمى لدعوة التتار ، وقام بما يسمى فى العصر الحاضر بدور الطابور الخامس ، فأثار الفتن فى العراق ، وحث الخليفة على التفاهم مع المغول (٢) .

ومما ينسب لابن العلقمى ما يذكره موسى كاظم من أن الخليفة عندما أراد أن يعد العدة لمواجهة التتار ثبطه الوزير ابن العلقمى وقال له : إن سلاطين الدنيا وخواقينها كلهم خدم لمركز الخليفة ، وإنهم على استعداد للمجىء بأدنى إشارة من الخليفة ، على أن نســاء بغداد وحدهن قادرات على رد الاعتداء (٣) .

ولعمرى كيف جاز للخليفة أن يصدق هذا الكلام ؟ .

ويستمر موسى كاظم متحدثا عن خيانات ابن العلقمى ، فيذكر أنه أرسل إلى هولاكو رسالة يشكو فيها من سوء الأحوال ببغداد ، ويبدى فيها إخلاصه له وطاعته ، ويرحب بمقدمه ويقول له : إنه قد دبر الأمر بحيث إذا ما وصل سيجد بغداد مفتوحة الأبواب ، وسيتولى أمورهــا ويحكمها بلا حرب ولا نزاع (٤) .

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ : الترجمة العربية ص ٢٦٧ ومــا بعدها ، وفى الأصل « عبيد » بدل « أتباع » .

(٢) دكتور ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٨١ .

(٣) موسى كاظم نورس : گلشن خلفا ص ١٢٩ .

(٤) المرجع السابق ص ١٣٩ .

وانتفاعا بهذه الثمار تقدم هولاكو نحو بغداد فى جيش عرمرم لم يستطع جيش الخليفة أن يوقفه ، ولما انتصر جيش هولاكو فى الجولة الأولى حث ابن العلقمى الخليفة على أن يخرج لملاقاته ، والاتفاق معه على ما يصلح شأن الرعية : وفى جو من تأثير الهزيمة استجاب الخليفة لذلك فخرج إلى معسكر التتار ، وهناك نزل فى خيمة منعزلة ، ثم عاد ابن العلقمى فاستدعى الفقهاء والأعيان للحاق بالخليفة ، وخلت بغداد بذلك من القادة والمدافعين ، فأذن هولاكو لجنده باقتحام المدينة والتصرف فيها على ما يشتهون ، أما أولئك الذين وفدوا إليه فقد أعمل السيف فى رقابهم ، ولما فرغ من الفقهاء والأعيان جاء دور الخليفة ، ولم يقو هولاكو على القضاء عليه بسرعة بل يروى أنه تردد فى ذلك ودعا إليه منجما ليسأله هل تثور الطبيعة إذا قتل الخليفة ؟ فأجاب المنجم بعد تدبر وإمعان : « لم يحدث شىء من ذلك عند ما قتل يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) أو المسيح أو الإمام الحسين (١) ، وحينئذ أمر هولاكو بقتل الخليفة وولده شر قتلة ، وكان ذلك سنة ٦٥٦ هـ ، وقد استمر القتل والسلب فى بغداد حوالى أربعين يوما ، وبلغ عدد القتلى فى هذه الحملة مليونا وثمانمائة ألف (أى ما يقرب من مليونين كما ذكره بعض المؤرخين (٢) وأشعلت النيران فى المبانى ، واستباح هولاكو غنائم بغداد التى لا تحصى ، وكنوزها العظيمة ، ويقال ان حلى الذهب والفضة كدست أمام خيمة هولاكو حتى أصبحت كالتل المرتفع ، وتحولت بغداد إلى خرائب ، وتحولت الكتب إلى رماد وتلال ، وخفت صوت المدينة التى كان يملأ الأسماع ويغمر كل القلوب .

ومن الحق أن عوامل خطيرة ساعدت على سقوط العراق هى التفكك

---

(١) ستون لويد : الرافدان ص ٢٣٠ من الترجمة العربية وانظر التاريخ الغياثى ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) انظر تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير للدكتور بدوى محمد فهد ص ٩٥ .

الذى شمل العالم الإسلامى آنذاك ، وحكم النساء ومراكز القوى ، وحرص **أصحاب السلطان على جمع الأموال التى كدسوها ثم آلت للفاتحين ، وكم نتمنى أن نتعلم من التاريخ ، فالتاريخ درس لا يهمله إلا الجاهلون .**

دفاع عن ابن العلقمى :

بين أيدينا كتاب يدافع عن ابن العلقمى دفاعا طويلا ، يبرئه من كل شىء ، تبرئة الذئب من دم ابن يعقوب كما يقولون : ذلك هو كتاب « العراق فى عهد المغول الإيلخانيين » للدكتور جعفر حسين فهو يعقد فصلا طويلا يورد فيه مناقب ابن العلقمى التى تضعه فى القمة بين الرجال [١] ، ثم يقتبس اقتباسات متعددة من المؤلفين الذين عاصروا الأحداث ، والذين أخذوا عنهم ، وهى كلها تدين ابن العلقمى ، وتقرر أن التتار استولوا على بغداد بمكيدة دبرت مع وزير الخليفة [٢] وهذه الخيانة التى أوجزها أبو شامة فصلها كثير من المؤرخين مثل : البعلبكى فى (ذيل مرآة الزمان) ، ومثل الذهبى فى (دول الإسلام) ومثل الشيرازى فى (تاريخ وصاف الحضرة) ومثل ابن شاكر الكتبى فى (فوات الوفيات) ومثل ابن خلدون فى (العبر) وغيرهم كثيرين . ولكن المؤلف لا يقتنع بهذه الأقوال ويتجه للدفاع عن هذا الوزير ، ويورد فى دفاعه آراء ليس فيها فيما نرى ما يرجحها على الاتهام ، فهو كما سبق وصف الوزير بأعظم الصفات وأسمى السجايا ، ولكنه فى سبيل الدفاع عنه يصفه بأنه كان ضعيفا غير مسموع القول ، وليس له نفوذ على الخليفة [٣] .

ومن أهم الأسباب التى تذكر لإدانة ابن العلقمى أنه كان شيعيا ، وأن الشيعة نجوا من التدمير بعد دخول التتار بسبب تعاون ابن العلقمى

---

(١) ص ٣٦ .

(٢) أبو شامة (ت ٦٦٥) تراجم رجال القرنين السادس والسابع ص ١٩٨ .

(٣) ص ٣٦ .

مع هؤلاء ، ويرد المؤلف هذا القول بأن المغول قتلوا العديد من العاويين مثل نقيب العاويين على بن النقيب ، وعمر بن عبد الله بن المختار وغيرهم • ولا نرى فى ذلك دليلا حاسما ، إذ أن العلقمى لو صحت خيانته لا يمكن أن يتبعه فى هذه الخيانة جمهور الشيعة ، فكم فى الشيعة من رجال سمت وطنيتهم وترفعوا عن شبهة التعاون مع المغول ، فأوقع بهم المغول كما أوقعوا بسواهم •

على أن دفاع هذا المؤلف عن ابن العلقمى يمتد ليصبح تقريبا دفاعا عن المغول أنفسهم ، فهو يقول : ((إن المغول بدأ غزوهم للعالم الإسلامى سنة ٦١٦ ، ولم يستولوا على العراق إلا بعد أربعين سنة ، نشأ خلالها منهم جيل جديد انهالت عليه الثروة من كل جانب ، واحتك بالمدنيات القديمة فى الصين وأواسط آسيا ، وإيران ، ولذلك فانه (هذا الجيل) كان أخف من آبائه فى معاملته للسكان المفتوحين [١] •

وهذا كلام خطير ، مردود بما ذكره كل المؤرخين دون استثناء ، فكأن المؤلف كان يتوقع لبغداد تدميرا أقسى من الذى حدث ، ولا نكاد نعرف فى التاريخ تدميرا أشد قسوة ووحشية من ذاك الذى أنزله المغول بعاصمة الخلافة العباسية •

وعقب الانتهاء من العراق تقدم التتار فاستولوا على حلب ودمشق ، ولم يتوقف زحفهم ، ولا كلت عزيمتهم ، إلا بعد ما حققه المصريون من نصر عليهم فى عين جالوت فى ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وقد تحدثنا عن هذا النصر عند حديثنا عن المماليك فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة •

الإسلام يغلب المغول :

بقيت كلمة نقولها عن المغول قبل أن نتركهم لنتحدث عن تاريخ العراق من بدء عهدهم ، وهذه الكلمة نقتبسها من باحث مسيحى أشرنا

---

(١) مقدمة كتاب العراق فى عهد المغول الايلخانيين •

إليه آنفا هو « سيتون لويد » الذى يقول : « وقد اعتنق المغول الإيلخانيون فيما بعد الإسلام، فإذا بنا نشاهد حدثا عجبا لم يقتصر على جمع الذئب والحمل فى مكان واحد ، بل إن الذئب أفنى نفسه فى الحمل ، فإن المغول فى الواقع عملوا على هضم ما تبقى من المدنية التى دمروها ، واندمجوا فى جمع العالم الإسلامى ، ولم يبق لهم كيان قائم بنفسه بالمرة » (١) .

العراق ابتداء من حكم المغول

مر العراق ابتداء من حكم المغول بعصور حافلة بالآلام والظلام ، وقرون مليئة بالجراح والأشجان ، وقد امتدت هذه العصور إلى القرن العشرين ، وكان العراق فى بعضها ولاية تابعة لقوة أعظم ، مغولية أو صفوية أو عثمانية ، وأحيانا كان يُحكم من الداخل كالعصر الجلائرى ولكن بحكام أقرب للفوضى أو الخيانة منهم إلى النظام أو المسئولية ، ويمكن سرد هذه العصور فيما يلى :

١ ـ حكم المغول الإيلخانيين من سقوط بغداد	٦٥٦ ـ ٧٣٦ هـ
٢ ـ الجلائريون (ثم فترة صراع)	٧٣٦ ـ ٨١٣ هـ
٣ ـ حكم القرة قوينلو (التركمانية الأولى)	٨١٣ ـ ٨٧٢ هـ
٤ ـ حكم الآق قوينلو (التركمانية الثانية) (بدأ تأسيس الأسرة بالموصل سنة ٨٠٦ هـ)	٨٧٣ ـ ٩٠٨ هـ
٥ ـ الصفويون	٩٠٨ ـ ٩٤١
٦ ـ العثمانيون	٩٤١ ـ ١٣٣٧
٧ ـ العراق الحديث	من سنة ١٣٣٧

وسنتكلم عن كل من هذه العصور كلمة فيما يلى :

---

(١) الرافدان : ص ٢٣٢ .

المغول الايلخانيون

تلقب هولاكو عقب انتصاراته السابقة بلقب « إيلخان » أى الخان الكبير ، وصار هذا اللقب وراثيا ، وأصبحت العراق تحت حكم الإيلخانيين ولاية ضمن الولايات الكثيرة التى كانت خاضعة لهم ، وكانت أذربيجان عاصمة الإيلخانيين ، ولم تكن الامبراطورية الإيلخانية التى كانت العراق جزءا منها محبوكة النسيج ، بل كانت سيئة الإدارة ، كما كانت بعيدة عن الوئام ، فقد كان المغول بارعين فى الفتح ، ولكنهم كانوا متخلفين فى تأسيس الامبراطوريات وإداراتها ، ولذا طبعت قوتهم العظيمة بطابع عدم الثبات وعدم الاستقرار ، وظهرت نقاط ضعفهم هذه بوضوح عند حكمهم فى العراق ، ففى حكومات بغداد والبصرة والجزيرة التى أصبحت وحدات متناثرة ، انتشرت بها الدسائس ، وبرز الجهل فى تسيير الأمور [١] .

وولاة بغداد فى هذه الفترة هم :

على بهـــادر	سنة ٦٥٦ هـ
علاء الدين عطا	« ٦٦١ (وتوفى سنة ٦٨١)
بيدو	« ٦٨٣
توجو	« ٦٩٤
على شاه	« ٧٣٦ [٢] (توفى بعد ستة شهور)

وكان الوالى يلقب بلقب « صدر » و « صاحب الديوان » ويعتبر الممثل الشخصى للسلطان الإيلخانى ، وكان يتمتع بسلطة واسعة تكاد تكون مطلقة ، كما كان مسئولا عن تقديم قدر من المال إلى خزانة السلطان

---

(١) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٦ .
(٢) زامباور : معجم الانساب جـ ١ ص ٦١ .

فى أذربيجان ، وكان السلطان المغولى من حين إلى آخر يرسل موظفا كبيرا إلى صاحب الديوان ، ليتعرَّف على أحوال البلاد ، وسير الحكم فيها ، وابنقل للوالى تعليمات السلطان وأوامره ، ثم يعود للسلطان بصورة عما وجده فى البلاد ، ويقدم معها نصائحه وتعليقاته ، وكان هذا الموظف يسمى « المشرف » .

وتجمع المصادر التاريخية على أن الفساد وعدم الاستقرار وإهمال مصالح الرعية كانت أبرز مظاهر إدارة العراق الإيلخانية ، وقد امتد الإهمال إلى الديوان نفسه ، فقد دبت فيه الدسائس ، وانتشرت المؤامرات ولم يكن أحد من رجال الديوان آمنا على نفسه أو ماله ، بل كان كل منهم يتوقع السجن والتعذيب والقتل فى أية فترة من الفترات ، وإذا كان هذا شأن الديوان ، فقد كان شأن البلاد أخطر وأشد سوادا .

ولم يكن هم سلاطين المغول متجها إلا إلى جمع المال ، فقد رأوا فى البلاد التى فتحوها القصور الشامخة ، والحدائق الفينانة ، فطاب لهم أن يشيدوا مثلها ، ويعيشوا فى حياة الرفاهية ، بعد ما عانوا من حياة الخشونة والتقشف ، ومن أجل أن يحققوا هدفهم اتجهوا لجمع المال من الرعية بوسائل مختلفة ، كان منها فرض الضرائب والإلزام بسداد ديون يفرضها الوالى ، وكان فيها أيضا المصادرات فى كثير من الأحوال .

وإذا كانت هذه صفة سلاطين المغول بوجه عام ، فإنه قد وجد منهم أحيانا من اتجه للإصلاح وتحسين الأحوال ، مثل السلطان محمود غازان (٦٩٥ — ٧٠٤ هـ) ، ويقول عنه الغياثى [١] : إنه شرفه الله بالإسلام والعدل ، وعظم المهابة ، فأحبه أهل الإسلام ، ووجدوا فيه مظاهر البر وأعمال الخير ، ومن آثاره نهر شقه من الفرات إلى دجلة عند بغداد ، ويسمى بالنهر الغازانى ، وشق من الفرات نهرا يصل إلى مشهد الشيخ

---

(١) التاريخ الغياثى : ٥١ وما بعدها .

أبى الوفاء ، كما يتحدث الغياثى أيضا عن إصلاحات كثيرة قام بها السلطان غازان فى نواحى الإمبراطورية : فقد أنشأ فى تبريز مدرسة وخانقاه ، ودارا للحديث ، ودارا للقرآن ، وأنشأ فى بغداد والحلة وتبركز وأصفهان وشيراز والموصل مكانا أسماه « دار السيادة » خصصه لآل البيت ، وجعل وقفه يصل إلى الفقراء والمساكين من العلويين .

ومما يذكر عن غازان أنه عندما كان واليا على خراسان فى عهد خاقان التتر (بايدوخان) ابن طرغاى بن هولاكو ، أبطل غازان الاعتراف بالخاقان ، وعدل عن نقش اسمه على السكة لأنه كان يعتبره كافرا ، فأدى ذلك إلى هجوم التتر على خراسان ، ولكن غازان تمكن من طردهم وردهم إلى بلادهم [١] .

ويتحدث لونكريك [٢] عن العراق فى عهد غازان وفى عهد المغول بوجه عام بقوله : كان غازان ممن أفادوا بغداد عن حب وإخلاص ، فإن إصلاحاته للقانون والحكومة ، وورعه الشيعى ، وتردده الكثير إلى العراق ، كانت كلها من الأمور التى تبعث الأمل فى الإحياء والتجديد ، غير أن هذا الأمل كان صعب التحقيق لأن سطوة الايلخانيين لم تتعد حدود المدن : فلم يكن تأمين الطرق ممكنا ، مما أثر على النشاط التجارى ، وقلل الاهتمام بالزراعة لأن من زرع أرضا كان غير مطمئن إلى حصاد زرعه ، وقد ارتكب هولاكو تخريبا شاملا فى السدود والأنهار التى كان تشييدها المحكم منذ القدم هو المنبع الوحيد للثروة فى البلاد ، وقد تعذر القيام بإصلاح تلك التخريبات بسبب استمرار الاضطراب فى البلاد ، وفقدان روح العمل عند من بقوا على قيد الحياة من السكان بعد المذابح الرهيبة ، وهذا أدى إلى أن الأنهار أصبحت مطمورة بسبب تكاثر الطمى ، ولم يعد من الممكن ضبط الأنهار عند الفيضان ، مما سبب ضعف النشاط

---

(١) رزق الله الصدفى : تاريخ دول الاسلام : جـ٢ ص ٢٧٦ — ٢٨٧ .
(٢) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٦ — ٢٧ .

الزراعى ووضع العوائق دون أن تستعيد البلاد سابق مجدها الزراعى ، وقد خلّفت هذه العصور للعراق الحديث تركة مثقلة ، تبذل أقصى الجهود للتغلب عليها .

وقد حاولت بغداد بعد أن أفاقت من هول الدمار المغولى أن تستعيد شيئا من مكانتها ففتحت المستنصرية أبوابها ، ونشطت بعض الجهود الثقافية ، ولكن ذلك كان ضئيلا ، وكانت اللغة الفارسية تنافس اللغة العربية .

وهكذا عاشت العراق فترة حالكة كانت أشعة النور فيها ضئيلة خلال هذا العهد الرهيب .

الجلائريون

فى سنة ٧٣٦ ﻫ توفى أبو سعيد بهادرخان : وهو الخاقان الثامن من نسل هولاكو ، وآخر من حكم من أحفاده ، ولم يعقب أبو سعيد ذرية ، ففتح ذلك الوضع الباب لصراع بين طوائف الطامعين ، وبين هذا الصراع استطاع الشيخ حسن بن حسين ابن عمة أبى سعيد أن يستقل بملك العراق ، وجعل بغداد عاصمة لملكه .

وحسن هذا أمير مغولى ليس من أحفاد هولاكو ، ويدعى حسن جلائر ، وقد أعاد للعراق استقلاله ، ولبغداد بعض جمالها .

وفى عهد ابنه ووارثه الشيخ أويس استطاع هذا أن يستولى على أذربيجان وتبريز سنة ٧٥٩ وجعل تبريز عاصمة صيفية له وبقيت بغداد عاصمة شتوية ، ثم ألحق بمملكته الموصل وديار بكر سنة ٧٦٦ ﻫ وحارب خلفه حسين بن أويس المظفرين جيرانه بشرقى إيران ، كما حارب التركمان (القرة قوينلو) الذين كانوا يحكمون أرمينية حتى قبلوا سنة ٧٧٩ ﻫ أن

يكونوا تابعين للجلائريين ، وكان الجلائريون يتبعون المذهب الشـيعى ، وحكام آل جلائر هم :

الشيخ حسن بن حسين ٧٣٦

الشيخ أويس بن حسن ٧٥٧

حسين بن أويس	٧٧٦	(صراع بين الإخوة)
أحمد بن أويس	٧٨٤	(قتله قرم يوسف من القرة قوينلو)
شاه ولد	٨١٣	(اغتالته زوجته تاندو وحكمت فترة)
محمد بن ولد	٨١٤	(تحت وصاية أمه)
أويس بن ولد	٨١٨	
محمد بن ولد	٨٢٤	

حسين بن علاء الدولة ٨٢٧ (قتله اسكندر قره قوينلو سنة ٨٣٥ [١]) .

وكان حسين ثالث حكام السلالة أضعف ممن سبقه فى الحكم ، ولذلك لاقى المشاكل العظمى لامبراطورية كان يهددها أعداء طامعون ، وكان فى قمة أعدائه أخوه على الذى اغتصب الملك منه ، ولكن هذا سرعان ما سقط تحت أقدام أخيه أحمد الذى أدمج ولاية العراق مع ولاية تبريز ، وكوّن منهما حكومة واحدة [٢] .

تيمور لنك وآل جلائر :

وفى عهد آل جلائر مرت بالعراق عاصـفة مغولية جديدة ، كـان قائدها هذه المرة تيمورلنك آخر عظماء المغول : وكان هذا يمر من فتح إلى فتح على رأس جيوش جرارة من الشرق ، وفى سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م) ظهر على أبواب بغداد ، وقد حاول السلطان أحمد رده عنها ولكنه انهزم

---

(١) زامباور : معجم الأنساب جـ٢ ص ٣٧٧ .

(٢) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٨ .

ففر من البلاد ، ثم انتهز أحمد الجلائرى فرصة بُعدْ تيمورلنك عن بغداد ، فعاد لها وطرد ممثل الحاكم التيمورى واسترد سلطانه ، ولكن فى سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م) عاد تيمورلنك من جديد ليعاقب أحمد الجلائرى على تصرفه ، فأوقع ببغداد كارثة مروعة ، ذبح الألوف من الناس ، وهدم المساجد والمدارس والمساكن ، وأعاد الخراب إلى العاصمة التى كانت قد استردت بعض نشاطها عقب الدمار الهولاكى ، ولم يستطع أحمد الجلائرى أن يقف فى وجه تيمورلنك ففر ولجأ إلى السلطان برقوق بمصر (١) .

الدولة الجلائرية بعد تيمورلنك :

لما توفى تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٥ م) وتفككت امبراطوريته عاد أحمد الجلائرى إلى العراق ، ولكنه قطع علاقاته « بقرة يوسف بن القرة قوينلو » وغزا أذربيجان : ولكنه غُلب وأسر فأعدمه القره قيونلو وأعدم معه ولده علاء الدين ، وبعض أولاده الآخرين سنة ٨١٣ هـ .

ويمكن القول بأن الدولة الجلائرية فقدت أهميتها بعد وفاة أحمد ، ولئن كان بعض أفراد الأسرة قد حكموا منفردين فى أماكن متفرقة بعد أحمد : فإن ما كان بينهم من خصومات ووقائع ، جعل إدارتهم بعيدة عن أن تكون إدارة دولة بالمعنى الحقيقى ، ويروى المؤرخون قصة الدولة الجلائرية فى اضمحلالها هذه روايات مختلفة ، ويمكن أن يستدل من الروايات باختصار على أنه بعد وفاة أحمد أجلس على العرش شاه محمد بن شاه ولد ، وهو لا يزال صبيا ، وحكم شاه محمد بغداد حتى ورود القرة قوينلو على بغداد سنة ٨١٤ ولذلك اعتبر هذا التاريخ هو تاريخ انقراض الدولة الجلائرية .

وقد حكمت (تاوندوخاتون) أرملة شاه ولد — منطقة واسط

---

(١) سرجى كانلم نورس : كلشن خلفا ص ١٦٧ وما بعدها .

والبصرة إلى أن توفيت سنة ٨١٩ هـ ، وجلس بعدها على العرش ولدان آخران من أولاد (شاه ولد) هما أويس ومحمد ، وبعد ذلك حكم حفيد أحمد الجلائرى حسين بن علاء الدولة جزءا من العراق لم يشمل بغداد التى كانت تحت سلطان القرة قيونلية ، وقد قضى عليه هؤلاء سنة ٨٣٥ هـ ، وبهذا لفظت دولة بنى جلائر آخر أنفاسها (١) .

ومن الواضح أن عهد الجلائريين بالعراق كان عهد صراع ودمار بسبب خلافاتهم الداخلية : وبسبب هجوم تيمورلنك ، وبسبب الصراع المدمر بينهم وبين القرة قوينلو ، وقد تعرضت بغداد خلال هذا العهد لعدة أوبئة : وغرقت غرقا شديدا بسبب إهمال السدود والأنهار ، ولا يذكر بالخير من هذا العهد إلا (خواجة مرجان) الذى ثار على بنى جلائر ، واستولى على الحكم فترة ، فقد أنشأ « جامع مرجان » وجعله مدرسة على غرار المدرسة النظامية .

القرة قوينلو (ذوو الخراف السود)
أو الأسرة التركمانية الأولى

قرة قوينلو معناها ذوو الخراف السود ، لأن هذه القبيلة كانت منذ عهد بعيد تعنى بتربية هذا النوع من الخراف ، فسميت بذلك ، ثم لصقت بها هذه التسمية ، وهى قبيلة تركمانية جاءت فى الأصل من تركستان الغربية ، وكان جد هذه القبيلة (بيرام خواجه) يعمل فى خدمة السلطان أويس بن حسن الجلائرى .

وبعد وفاة أويس سنة ٧٧٦ هـ استولى بيرام على الموصل ، وبعض المناطق المجاورة لها ، وأصبح حاكما لها حتى وفاته سنة ٧٨٢ هـ ، وجاء بعده ابنه محمد الذى التحق بخدمة السلطان أحمد بن أويس وتزوج

(١) ستانلى لين بول : تاريخ الدول الاسلامية جـ٢ ص ٥٢٣ .

بنته ، وأصبح رئيس العشيرة ومات سنة ٧٩٢ هـ ، وجاء بعده ابنه قره يوسف الذى عاصر الاضطراب العام إبان العهد التيمورى ، ولجأ مع أحمد الجلائرى إلى مصر .

وبعد تيمورلنك استعاد يوسف كل ممتلكاته سنة ٨٠٨ ثم غلب أبا بكر حفيد تيمور واستولى على أذربيجان ، وحدث خلاف بين قرة يوسف وأحمد الجلائرى ، فقتل قرة يوسف رفيق محنته أحمد الجلائرى واستبد بالأمر فى أكثر المناطق التى كانت خاضعة للجلائريين ، وكان ابن قرة يوسف واسمه بير بوداق يحكم معه حتى توفى الابن سنة ٨١٧ ، فاستقل الأب حتى سنة ٨٢٣ هـ ثم توالى على حكم المملكة ولداه اسكندر فجيهان شاه ، ثم حسن على بن اسكندر ، وحسن على بن جيهان شاه .

أما بغداد فكان يحكمها شعبة من شعب العشيرة بدأت بابن قرة يوسف « شاه محمد » ، ولما توفى سنة ٨٣٧ هـ خلفه أسبان ثم فولاد ابن أسبان بعد أبيه ٨٤٨ هـ .

وفى أيام حسن على استولى أوغورلى محمد بن أوزون حسن وهو من عشيرة الآق قوينلو (ذوى الخراف البيض) المعادية للقرة قوينلو على أملاك حسن على ، وانقرضت دولة القرة قوينلو .

وعلى هذا فحكام هذه العشيرة هم :

قره محمد بن بيرام خواجة	٧٨٢
قره يوسف (للمرة الأولى)	٧٩٢
استيلاء تيمورلنك	٨٠٢
قره يوسف (للمرة الثانية)	٨٠٨
قره يوسف وابنه بير بوداق معا	٨١٠
اسكندر	٨٢٣

جيهـــان شـــاه	٨٤١
حسن على بن اسكندر	٨٧٢
حسن على بن جيهان شاه	٨٧٢ — ٨٧٤ [١]

ولم يختلف هذا العهد عن العهد الجلائرى من الناحية الحضارية إلا قليلا ، وقد نعمت بغداد على أى حال بشىء من السلم بعد أيام عاصـفة من الفزع والحيرة ، وقد اتسع ملك هذه العشيرة فى عهد جيهان شـاه باختفاء أسرة تيمورلنك ، فامتد ملك جيهان من تبريز إلى شط العرب وصار هذا الملك غير تابع للتيموريين : وأصبحت فارس وكرمان تابعـة لهذه المملكة ، وبذلك أصبح للقرة قوينلو مملكة غنية مترامية الأطراف بعد أن كانت قبيلة مجهولة ، وكانت تبريز عاصمته الرئيسية ، أما بغداد فقد احتفظت بمركزها عاصـمة للعراق الذى كان ولاية من الولايـات التابعة لهذه العشيرة ، وللأسف ختم عهد جيهان شاه بصور من الصراع ، وضعت الأساس لنهاية هذه الدولة إلى الأبد [٢] .

الآق قوينلو (ذوو الخراف البيض)
أو الأسرة التركمانية الثانية

دولة تركمانية أخرى حكمت بالعراق أكثر من قرن ، ولم يعرف العراق الاستقرار خلال هذا العهد الأسود ، بل كان التطاحن مسـتمرا والصراع قاسيا بين أمراء الدولة بعضهم والبعض الآخر ، وبينهم وبين جيرانهم ، أما الجانب الحضارى فكان مهملا تماما فجهل الحكام انعكس على الشعب ، وتنوسى تاريخ العراق العظيم ، وأصبحت ولاية ضـمن الولايات الكثيرة التى امتد لها ملك هؤلاء التركمان .

---

(١) لين بول جـ٢ ص ٥٣٧ .
(٢) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٩ .

ونذكر فيما يلى حكام هذه الدولة لعل قائمة الأسماء تساعدنا عـلى تصوير هذا العهد البغيض :

بهاء الدين عثمان	٨٠٦ هـ	
جلال الدين على بن عثمان من سنة ٨٣٨ هـ		
نور الدين حمزة بن عثمان من سنة ٨٣٨	منافس وثائر	
معز الدين جهانكير بن على من سنة ٨٤٨		
حسن أوزون (الطويل) بن على من سنة ٨٧١		أشهر حكام الدولة اتخذ تبريز عاصمة له
خليل (حفيد جهانكير)	من سنة ٨٨٢	فى ماردين وآمد
يعقوب (حفيد جهانكير)	من سنة ٨٨٣	فى ماردين وآمد
بايسنقر ميرزا بن يعقوب	من سنة ٨٩٦	
رستم (حفيد أوزون)	من سنة ٨٩٧	

كودة أحمد بن أو غورلى (حفيد جهانكير) من سنة ٩٠٢ (كان أوغورلى صهر محمد الفاتح وعلى هذا فإن كوده أحمد هذا كان حفيد محمد الفاتح وكان حكمه فى كو) .

الوند (حفيد أوزون)	من سنة ٩٠٣	فى أذربيجان
محمدى ميرزا (حفيد أوزون)	من سنة ٩٠٣	فى يزد
مراد (حفيد جهانكير)	من سنة ٩٠٣	فى شيروان [1]

والعشيرة بوجه عام وافدة من تركستان إلى أذربيجان ، ثم إلى ديار بكر ، ثم استقرت فى آمد والموصل حيث بدءوا يكونون لهم دولة فى آخر القرن الثامن الهجرى .

---

(١) لين بول : تاريخ الدول الاسلامية جـ٢ ص ٥٤٢ من الترجمة العربية .

والمؤسس الحقيقى للدولة التركمانية الثانية هو بهاء الدين عثمان الذى اشتبك فى حروبه ضد قره يوسف من القرة قوينلو ، وضد القاضى برهان الدين سلطان سيواس ، وقد انتصر عثمان فى هذه الحروب فتهيأ له بذلك أن يكون دولة فى منطقة الموصل ويصبح هو حاكمها .

وسرعان ما انتشر الآق قيونلو فى العراق وإيران ، وقاومت بغداد مدة من الزمن ، إذ كان حاكمها من القره قيونلو قد دحر القائد الـذى بعث به أوزون حسن (حسن الطويل) لاخضاع بغداد ، واضطر حسن أن يحضر بنفسه إلى بغداد ، وبعد حصار وحروب استطاع أن يستولى على المدينة الجريحة ، فاختفت بذلك عشيرة القره قيونلو إلى الأبد ، وامتد حكم الآق قيونلو فشمل بلاد فارس والعراق وديار بكر وأذربيجان [1] ، ولكن هذه العشيرة لم تعرف الوئام والتعاون بل كانت حياتها صراعـا متصل الحلقات بين أمير وأمير ، فشاع التفكك فى الدولة ، ووقف عدد من الأمراء حكاما لعدد من الإمارات ، وإذا أضفنا إلى ذلك موقف الآق قيونلو من القوى الخارجية تبين لنا أن عصر هذه الدولة كان حالك السواد وأن العراق قاسى إبان حكمها صور الحياة المرة التى عاشها قبلها وبعدها

علاقات الآق قوينلو مع القوى المجاورة

كانت هذه المنطقة عاصفة كثيرة الحروب فى تلك الآونة ، وكانت القوى المتصارعة فيها قوى كبيرة جبارة كالمغول فى موجتهم التيمورية ، وكالعثمانيين والصفويين ، وقد اجتذبت المعارك الآق قوينلو طائعين أو كارهين ، فانغمسوا فيها وكسبوا أحيانا ، ولكنهم أخيرا خسروا كـل شىء ، وقد تحدثنا آنفا عن صراع الآق قيونلو ضد أبناء عمومتهم القره قوينلو وضد الجلائريين ، وهو صراع حقق فيه الآق قوينلو نجاحا ، وآن لنا بعد ذلك أن ندرس مواقفهم مع التيموريين والعثمانيين والصفويين وهو ما سنشرع فيه :

(١) لوكنريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٣٠ .

الآق قيونلو والتيموريون :

يمكن القول أن الآق قيونلو بنوا أمجادهم بالانضمام إلى التيموريين فإن تيمورلنك عندما دخل الأناضول فى مطلع العام التاسع الهجرى ، انحاز له قره عثمان وصحبه فى معاركه بالشام والأناضول ، فكافـأه تيمورلنك على حسن خدمته بأن أعطاه ولاية ديار بكر ، وقد اتسع ملك الآق قيونلو فى كل اتجاه عقب ذلك حتى أصبحت لهم امبراطورية فسيحة ، ولكن التيموريين على كل حال هم الذين نقلوا الآق قيونلو من حكـام المقاطعات إلى أصحاب الامبراطوريات .

الآق قوينلو والعثمانيون :

عرفت العلاقات بين الآق قوينلو وبين العثمانيين العداء القاسى ، كما عرفت الود والمصاهرة ، ومن الواضح أن انضمام الآق قوينلو إلى تيمورلنك فى هجومه على الأناضول قد كان مرحلة من مراحل العـداء بين هؤلاء وبين العثمانيين ، وكان العداء هو فى الغالب أساس العلاقات بين الجماعتين ، ولكن الخلافات الطويلة والمستمرة بين أمراء الآق قوينلو بعضهم والبعض أغرى بعضهم بالاستعانة بالعثمانيين ، ضد البعض الآخر ، كما دفع بعضهم للجوء للعثمانيين ، ويذكر « لين بول » إن جلال الدين على بن عثمان (والد حسن الطويل) لجأ هو وعائلته فى عهد مراد الثانى إلى العثمانيين ، لأنه كان يخشى أخاه يعقوب ، أما حسن الطويل بن على بك سالف الذكر الذى كان معاصرا لمحمد الفاتح فقد كانت علاقته عدائية معه ، وقد خاض ضده ثلاث معارك كبرى ، ففى الأولى كان قائده ابن عمه يوسفجه ميرزا ، وقد أرسله إلى الأناضول فاستولى أول الأمر على توقات وسيواز سنة ٨٧٧ هـ ١٤٧٢ م ولكن المعركة انتهت بانتصار مصطفى جلبى ابن محمد الفاتح ، ووقوع يوسفجه فى الأسر ، وفى الثانية توجه حسن الطويل نفسه عقب هزيمة ابن عمه إلى حدود ارزنجان ، وشتت الجيش العثمانى وأسر قائده وأعدمه ، وفى الثالثة كان لقاء القمة بين محمد الفاتح

وحسن أوزون ، وقد هزم حسن أوزون هزيمة منكرة سنة ٨٧٨ هـ (١٤٧٣م) وتسمى هذه الموقعة موقعة ترجان لوقوعها فى وادى ترجان بولاية أرضروم ، ولم تقم لدولة الآق قوينلو قائمة بعد هذه الهزيمة .

والعجيب أن محمد ناصر الدين الابن الأكبر لأوزون والذى كان واليا على أصفهان ، لجأ إلى محمد الفاتح عقب الهزيمة التى نزلت بأبيه فى ترجان ، وقد رحب به محمد الفاتح وزوجه بنته (كوهر خان سلطان) ، وعينه واليا على الأناضول ، وقد مات هذا الابن قتيلا سنة ٨٨٢ هـ وتختلف الآراء حول قتله ، فيتجه بعضها إلى أن محمد الفاتح خاف غدره بعد أن رآه قد غدر بأبيه ، وتتجه آراء أخرى إلى أن قتله كان بيد من بنى جنسه عقوبة له على غدره بأبيه . . .

وعند نهاية العقد الثامن ومطلع التاسع كان رستم (حفيد أوزون) هو سلطان الآق قوينلو : وقد ثار عليه بعض أمراء الأسرة والتمسوا من بايزيد الثانى أن يؤيد (كودة أحمد) عسكريا ليستولى على إيران من رستم ، واستجاب بايزيد الثانى لذلك ، ووقعت بين الاثنين معركتان انتصر رستم فى الأولى ، ولكن الأمراء من آل بيته سرعان ما انفضوا من حوله ، فهزم فى الثانية وقتل ، وتولى « كوده أحمد » عرش الآق قوينلو سنة ٩٠٢ هـ ولكن حكمه لم يطل لأن الأمراء ثاروا عليه وحاربوه فى معركة بالقرب من أصفهان هزم فيها وسقط قتيلا (١) .

بقيت حلقة من حلقات الصلات بين الآن قوينلو والعثمانيين ، فإن مرادا (حفيد جهانكير) فر من وجه الصفويين ، ولجأ إلى مصر سنة ٩١٤ (١٥٠٨) وهو ما سنشرحه عند الكلام عن « الآق قوينلو والصفويون » ودخل العثمانيون مصر سنة ١٥١٧ ففكروا فى مناوأة الصفويين ، وكان

---

(١) لين بول تاريخ الدول الاسلامية جـ٢ ص ٣٥٩ وما بعدها من الترجمة العربية بتصرف واسع يشمل التقديم والتأخير واعادة تنسيق الأحداث .

من أول مراحل هذه المناوأة أن يرسلوا مرادا هذا سنة ٩٢٠ على رأس فرقة عثمانية لاسترداد ديار بكر من الصفويين ، ولكن هذه الفرقة هزمت وقتل مراد هناك فى رمضان سنة ٩٢٠ [1] .

الآق قوينلو والصفويون :

كانت العلاقات بين الآق قوينلو والصفويين الذين سنتكلم عنهم فيما بعد علاقات عدائية ، فالصفويون قوة جديدة قامت فى بلاد فارس ، واتجهت إلى الاستيلاء على ما كان بأيدى الآق قوينلو ببلاد فارس والعراق وقد بدأ الصراع بين القوتين منذ ظهور الصفويين ، وكانت كفة الصفويين ترجح دائما ، وبخاصة أن ظهورهم بدأ فى فترة كان الخلاف واضحا بين أفراد أسرة الآق قوينلو ، وسنتتبع مراحل هذا الصراع فى الخطوات التاريخية التالية .

— سنة ٩٠٦ هـ عقب مقتل محمدى ميرزا عقدت معاهدة بين المنتصرين ألوند ومراد ، بمقتضاها أصبحت أذربيجان وديار بكر إلى ألوند وأصبحت العراق وفارس لمراد .

— سنة ٩٠٧ هـ انتهز الشاه اسماعيل الصفوى فرصة الخلاف والانشقاق فهاجم ألوند فى أذربيجان واضطره للفرار إلى بغداد ثم إلى ديار بكر وتوفى سنة ٩١٠ هـ .

— سنة ٩٠٨ هـ انثنى الشاه اسماعيل إلى مراد فالتقى به فى معركة بالقرب من همدان هزمه فيها شر هزيمة ، وأرغمه على الفرار إلى العراق .

— سنة ٩١٤ هاجم الشاه اسماعيل بغداد فاضطر مراد هو وحاكم

(١) المرجع السابق ص ٥٤١ .

بغداد (باديك) إلى الفرار إلى مصر كما سبق القول ، وسقطت بغداد فى يد الصوفيين وتعتبر سنة ٩١٤ (١٥٠٨) تاريخا لانقراض دولة الآق قوينلو ، وأصبحت العراق تابعة للصفويين الذين سنتحدث عنهم بعد قليل (١) .

وإذا كان حكم التركمان للعراق قد انقضى منذ عدة قرون ، فإن العراق لا تزال به جماعات من التركمان تعيش فى تلعفر ومنطقة كركوك ، ولا تزال محافظة على أصلها (٢) .

وهكذا كان عصر الآق قوينلو عصرا حافلا بالاضطراب والحروب والفساد ، فكثرت فيه المجاعات وانحلت الإدارة ، وآذن ذلك بفاتح جديد سيكون موضع حديثنا فيما يلى :

الصفويون

ينسب الصفويون إلى جدهم الأعلى الشيخ صفى الدين الذى ينتسب فيما يقال إلى الإمام موسى الكاظم ، فالأسرة بذلك من أولاد الإمام الحسين ومن ذرية الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وقد اتجهت هذه الأسرة اتجاها صوفيا فأصبح لها مريدون وأتباع فى موطنهم الأصلى « الأردبيل » ولما كثر هؤلاء الأتباع خافهم حاكم المنطقة فطردهم ، فلجأوا إلى ديار بكر فأصبحوا فى رعاية حسن أوزون ، وتزوج زعيمهم بنت حسن أوزون ، وقاد جيوشه ، وكان اسماعيل الصفوى (الشاه اسماعيل فيما بعد) ثمرة هذا الزواج ، وقد استطاع اسماعيل أن يجمع أشتات أسرته وأن يجمع أشتات أتباعه ، وبعد أن كان رجل دين أصبح قائدا عسكريا ، واستطاع

(١) المرجع السابق مع تصرف واسع .
(٢) سيتون لويد : الرافدان ص ٢٣٨ من الترجمة العربية .

أن يعود إلى بلاده ، وأن يبدأ فى تكوين مملكة كان لها شأن كبير فى التـــاريخ •

وحدث الصراع بين أمـــراء الآق قوينلو الذى ذكرناه مـــن قبل ، فانتهز اسماعيل الصفوى هذه الفرصة وأخذ يكوّن له دولة عـــلى حساب هؤلاء المتصارعين ، وقد تحقق لاسماعيل الصفوى ما أراد ، فأسس الأسرة الصفوية ، ثم أخذ حكمه يتسع حتى امتد من جيحون إلى خليج البصرة ومن أفغانستان إلى الفرات ، واستولى على بغداد سنة ٩١٤ هـ كما ذكرنا من قبل ، وأصبحت العراق ولاية تابعة للملك الصفويين الفسيح •

وتبعية العراق لبلاد فارس حدث خطير من الناحية الحضارية ، فقد أصبح العراق بذلك تابعا لدولة مسلمة ، بعد أن ظل عدة قرون تحت حكم جماعات أقرب إلى الوثنية ، وبهذا بدأ الطابع الإسلامى الحقيقى يعود إلى العراق • وهذا الجانب طيب حققه الزحف الفارسى ، وهناك جانب آخر مضاد هو أن الفرس اتجهوا بالعراق اتجاها فارسيا ، وكان هذا الاتجاه على وشك أن يعيد العراق إلى ما كان عليه قبل الإسلام ، فارسى اللغة والتقاليد ، ولولا الزحف العثمانى الذى أخذ العراق من الفرس لتحققت هذه الغاية الكريهة ولأصبح العراق فارسيا •

ولما كان الصفويون شيعة فقد اتجهوا باهتمامهم إلى مناصرة التشيع ونشره بالعراق ، وقد بدأ الشاه إسماعيل بذلك ، فإنه عقب فتح بغداد أسرع بزيارة العراق ، ووفد له شيعة العراق فأكرم وفادتهم • وزار كربلاء والنجف فى إجلال ظاهر ، وشيد بناية فخمة على قبر موسى الكاظم : وانثنى إلى قبور أئمة السنة فهدمها وقتل جماعة من السنيين • وبذلك أحيا الصراع الطائفى الذى عرفه العراق بين السنة والشيعة منذ العهد الأول للإسلام •

والولاة الصفويين لبغداد هم :

لا لا حسين (أول وال فارسى)	٩١٤
قنعرز سلطان	٩٢١
ثورة ذى الفقار نخود الذى إنحاز للعثمانيين	٩٣٠
محمد خان بن شرف الدين عقب قضاء الفرس على هذه الثورة	٩٣٦
تكلو محمد خان	٩٤٠ — ٩٤١

وكان هناك حاكم عربى للبصرة ، ولكنه كان يدفع إتاوة سنوية إلى الشاه : ونَدَب الشاه أحد الخانات ليحكم الموصل .

وكان عهد الصفويين بالعراق عهد استقرار نسبى ، وقد تقاطر التجار الفرس إلى بغداد وسكنوها ، وبدأ النشاط الاقتصادى يأخذ طريقه ، ولكن فترة الصفويين بالعراق كانت قصيرة ، وكان الأتراك العثمانيون قد مكّنوا لأنفسهم فى أوربا ، وامتدت حدودهم فى آسيا حتى تاخمت حدود الصفويين ، وكان الخلاف الطائفى بين أهل السنة والشيعة حادا فاستلزم صراعا بين القوتين الكبيرتين ، ورجحت فيه كفة الأتراك العثمانيين كما سنرى فيما يلى :

العثمانيون فى العراق

تحدثنا فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة حديثا مفصلا عن الامبراطورية العثمانية ومراحل تاريخها ، ونريد هنا أن نتحدث عن علاقة العثمانيين بالعراق ، وقد أشرنا آنفا إلى أن العراق كان يقع بين هاتين القوتين الكبيرتين ، وكان بموقعه وتاريخه وإمكاناته مُطمع هؤلاء وأولئك ، ومن هنا امتد الصراع بين الصفويين والعثمانيين على العراق ، وكانت الدولة العثمانية قد وصلت بفتوحاتها بأوربا إلى مدى بعيد ، وواجهت قوى كبيرة رأت أن من العسير التغلب عليها فاتجهت نحو آسيا ، هذا من جانب ومن جانب آخر فقد أصبح للدولة العثمانية من جهة الشرق

جار واسع الرقعة ، قوى الشكيمة ، يمكن أن يهدد الحدود الشرقية للدولة العثمانية وهذا الجار هو الدولة الصفوية التى كانت تدين بالمذهب الشيعى وتتعصب ضد أهل السنة ، والتى دمرت قباب أئمة أهل السنة ، وقتلت الآلاف من العلماء السنيين ، وكل هذا اتجه بالدولة العثمانية إلى أن تنزل حومة الصراع ضد الصفويين .

وكان الشاه اسماعيل (١٥٠٠ — ١٥٢٤) منشئا للدولة الصفوية كما ذكرنا من قبل ، وكان واسع الأطماع مما دعا السلطان العثمانى ليكوّن جيشا كبيرا ، ويزحف به لمهاجمة الدولة الصفوية سنة ١٥١٤ ، وقد اتخذ السلطان سليم تبريز عاصمة الصفويين هدفا له ، وحاول الشاه اسماعيل تجنب مواجهة الجيش العثمانى فانسحب أمامه ، وأتلف الطرق لتعرقل حركة السلطان سليم ، ولكن الجيش العثمانى تخطى هذه العقبات وأشرف على تبريز ، وحدثت بين القوتين معركة كبيرة فى وادى (جالديران) انتصر فيها الجيش العثمانى أعظم انتصار : وجُرح الشاه وفر من المعركة ، ودخل العثمانيون تبريز ظافرين ، وعاد الجيش العثمانى بعد هذا التهديد مارا بشمال العراق دون أن يطيل بقاءه فى بلاد فارس أو فى العراق ، لأنه كان يتجة لفتح الشام ومصر قبل أن يتعمق فى الساحة الشرقية ، ولما تم له فتح الشام سنة ١٥١٦ وفتح مصر سنة ١٥١٧ ، اتجه العثمانيون لضرب الصفويين مرة أخرى ، وقد استطاع سليمان القانونى أن يحتل بغداد على يد أحد أتباعه دون قتال ، ولكن الحكومة الصفوية لم تدع النفوذ العثمانى يستقر فى بغداد ، فزحف الشاه طهماسب على بغداد وحاصرها واستعادها ، وتأزمت العلاقات من جديد بين الصفويين والعثمانيين ، فزحف السلطان سليمان القانونى على الدولة الصفوية واستطاع أن يحتل المناطق الشمالية من بلاد فارس ، ثم اتجه إلى العراق عن طريق همذان وواصل زحفه حتى دخل بغداد سنة ١٥٣٤ .

وامتدادا للصراع بين الصفويين والعثمانيين على بغداد نذكر أن

الحكم الصفوى استطاع ان يعود مرة أخرى سنة ١٦٢٣ م ، وكان ذلك فى عهد الشاه عباس الذى شجعته على أطماعه صور الضعف التى كانت تمر بها الدولة العثمانية فى عهده ، وقد حاصر الشاه بغداد حصارا طويلا ، مما دفع أهلها الجائعين إلى أن يأكلوا لحوم البشر ، وفى وسط هذه الأزمة الطاحنة حدثت حوادث مفزعة بين أهل السنة والشيعة ، فقد صلب أهل بغداد الفرس الشيعيين وألقوا برءوسهم إلى المحاصرين وعلقوا أجسامهم على الأسوار ، وانتقاما لذلك قضى جنود الشاه عندما استولوا على بغداد على أهل السنة قضاء تاما ، ولم يدعوا أثرا لأبنية بغداد الشاهقة ، وحتى جامع أبى حنيفة وعبد القادر الجيلانى أصبحا أنقاضا (١) .

على أن عمر هذا النصر الصفوى كان قصيرا ، إذ استطاع السلطان العثمانى مراد الرابع استعادة بغداد لآخر مرة سنة ١٦٣٨ وأوقع الجيش الزاحف بالشيعة مثل ما أوقعه الفرس بأهل السنة من دمار ، ثم تم صلح مع الصفويين ثبت الحدود بين الدولتين ، وأصبحت العراق جزءا من الامبراطورية العثمانية ، وقد ظلت كذلك مدى أربعة قرون تقريبا وقد اتجه العثمانيون لإعادة تشييد ما دمره الصفويون من قباب لأئمة أهل السنة ، وأعادة بناء جامع أبى حنيفة ، وفى الوقت نفسه أبدى السلاطين العثمانيين إجلالا للعتبات المقدسة الشيعية فى مناطقها المختلفة .

الإدارة التركية بالعراق :

طبقت بالعراق نظم الإدارة التركية التى طبقت فى مختلف الولايات تقريبا ، وقد شرحنا هذه النظم فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة (٢) ، فكان الباشا رأس الحكومة المحلية ، والقاضى رئيس السلطة القضائية ، والدفتردار رئيس الدوائر المالية ، وكان كل هؤلاء من الأتراك ، وكان

---

(١) سيتون لويد : الرافدان ص ٢٤٣ .

(٢) انظر ص ٢٥٤ وما بعدها .

قواد الجيش يعاونون الباشا فى « مجلس شورى الباشا » الذى يعرف بالديوان ٠

ولكن الشيعة لم يبدوا ولاءهم للأتراك ، وقاوموا أحيانا حكمهم ، مما جعل المدن المقدسة الشيعية لا تخضع لنفوذ الأتراك ، وانتشر التمرد على الأتراك بين رجال القبائل فى الأرياف ، وحاولت الولايات المختلفة أن تنفصل عن الحكومة المركزية ، ولم تستعد بغداد نفوذها على هذه المناطق إلا فى عهد أحمد باشا الذى ربى جيلا من المماليك استعان به على استعادة سلطان بغداد على أكثر القبائل وعلى ولايات البصرة والموصل وكركوك وغيرها ٠

ولاة العراق فى العهد التركى :

قلنا فيما سبق إن العراق أصبحت ولاية عثمانية ابتداء من سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٤) ، وقد ظلت تابعة للعثمانيين حتى الحرب العالمية الأولى ، عندما احتلت بريطانيا البصرة سنة ١٩١٤ وبغداد سنة ١٩١٧ والموصل سنة ١٩١٨ ، وفى خلال الحكم العثمانى كانت بغداد يحكمها الباشوات الذين يعينهم السلاطين فيما عدا الفترة التى استبد بها المماليك بالحكم تقريبا ، والتى تمتد اثنتين وثمانين سنة (من سنة ١٧٤٩ إلى ١٨٣١) ، وسنتحدث عن فترة المماليك فيما بعد ، ولكننا هنا نريد أن نتكلم عن الولاة العثمانيين الذين كان السلاطين يعينوهم بطريق مباشر ٠

وباشوات بغداد الذين عينهم السلاطين يبلغ عددهم سبعة وستين واليا ، منهم ستة عينوا أكثر من مرة ، وقد أورد زامباور أكثر أسماء هؤلاء الولاة ، حتى ولاية مدحت باشا (من سنة ١٢٨٦ هـ إلى ١٢٨٩ هـ = ١٨٦٩ إلى ١٨٧٢ م) [١] وأورد لونكريك أسماء عشرة ولاة بعد مدحت باشا حتى قرب نهاية العصر العثمانى بالعراق ٠

---

(١) الرافدين ص ٣٤١ ، ٢٤٧ ٠

وإذا استعرضنا باشوات بغداد تتضح لنا المعلومات التالية :

— يذكر زامباور أكثرهم باسم مفرد قليـل الدلالة على شـخصية الباشا كأن يقول : دلاوة ، أو عبد الرحمن ، أو على وهكذا .

— بعض الباشوات تولى مرتين مثل كوجك حسن ومرتضى وكيلاتى مصطفى وبعضهم تولى ثلاث مرات مثل قرة مصطفى وعمر .

— ستة من الولاة شغلوا منصب الصدر الأعظم قبل أن يصـبحوا باشوات بغداد أو بعد ذلك .

— هناك والٍ صدر قرار بتعيينه باشا لبغداد ، ولكنه لم يصل لمقر عمله واسمه قاسم .

— هناك ثائر أورد زامباور اسمه بين باشوات بغداد وهو أحمـد طويل ويذكر عنه لونكريك أنه فى سنة ١٠١٦ هـ (١٦٠٨ م) استأثر بالسلطة العليا فى بغداد ، وكان أحد الرؤساء الانكشاريين فى حامية المدينة ، وقد تم استيلاؤه على السلطة فى ظروف غامضة ، فأرسلت الدولة إلى نصوح باشا حاكم ديار بكر والذى كان صدرا أعظم قبل ذلك ليسير إلى بغداد ، ويخضع هذا الثائر . ومع أن نصوح باشا قد انهزم فى أول معركة ، فإن الثائر خر صريعا بضربة خنجر من أحد أعدائه (١) .

وأكثر باشوات بغداد لم تكن لهم أهمية ذات بال فى التاريخ ولذلك نكتفى بأن نعرّف بأشهر هؤلاء الباشوات .

وأول من نتحدث عنه هو سليمان باشا بن قباد ، وهو أول حاكم عثمانى لبغداد ، وكان عصره حافلا بالقلاقل بسبب القبائل نصف المتوطّنة التى كانت لا تحتمل الإذعان للحكومة المركزية ، كما عانى هـذا الباشا حـدة الصراع بين السنة والشيعة .

---

(١) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٥٢ — ٥٣ .

وبعد سليمان جاء إياس الذى وقع على عاتقه واجب أتعب باشوات بغداد من بعده مدة تمتد حتى القرن السابع عشر الميلادى ، ألا وهو واجب إخضاع البصرة ، وقبائلها المتمردة .

ومن باشوات بغداد الذين خلّدوا ذكرهم بها سنان باشا جيفا لزاده (٩٩٩ هـ) فهو الذى شيد خانة للمسافرين وبنايات أخرى عرفت باسمه مدة طويلة ، ولهذا امتد الوقت الذى كان يقترن فيه اسم جيفا لزاده العظيم ببغداد ، وقد عيّن هذا الباشا صدرا أعظم بعد ذلك ، وقد أصبح ابنه محمود واليا لبغداد بعد بعض الصراعات والثورات التى تلت عهد والده : ويرتبط باسم محمود بلدة المحمودية التى أسسها على بعد مرحلة جنوب بغداد .

ومن باشوات بغداد الذين يجدر ذكرهم ابراهيم باشا الذى عين فى خريف سنة ١٠٥٦ هـ (١٦٤٦) وكان جذابا بصباه وشكله ، ولكنه كان مغرورا وعنيدا فزادت القلاقل والفتن فى عهده ، ودبّ الخلاف بينه وبين أغوات الحامية ، وانتهت هذه القلاقل بإعدامه .

ومن باشوات بغداد أحمد باشا الذى كان ورعا ومحبوبا حتى أنه لقب بالملاك ، والذى استمرت ولايته عاما واحدا (١٠٥٨ هـ) ثم ترك بغداد ليصبح صدرا أعظم ، وقد حاول وهو فى منصبه الجديد أن يقوم بإصلاحات فى بغداد لسابق معرفته بها ، ولكن الحال كان قد تعذر على الإصلاح .

ومن باشوات بغداد حسن باشا وهو شخصية مهمة جديرة بشيء من التفصيل ، وقد حكم بغداد عشرين عاما ، وجاء بعده ابنه أحمد فحكم مدة مثل هذه تقريبا ، وجاء بعدهما المماليك الذين أشرنا إليهم من قبل وقد تكوّن من حسن باشا وابنه ومماليكه سلسلة من الحكام المتصلين كانوا أشبه بنظام الوراثة خلال مدة امتدت إلى مائة وثلاثين عاما ، وكان حسن

باشا ينتمى إلى أسرة عسكرية ، ونشأ فى بيت أفراده من الموظفين الرسميين فى استانبول ، ولهذا كان ملماً بما جرى عليه السلاطين من استخدام العبيد البيض فى أعقد مشكلات الدولة ، وبذلك انتهى إلى هذا النظام ، فوضع أساس نظام المماليك بالعراق : وبذلك انتهى عهد تبديل الباشا وتعيينه من استانبول ، وأصبحت حكومة بغداد فى أيدى سلالة مستقلة من الحكام ليس لها إلا الولاء الاسمى للعاصمة العثمانية ، وقد جب هذا النظام الاستقرار النسبى إلى بغداد ، ووسع دائرتها فشملت مناطق متعددة من العراق ، وأنقذت البلاد من التهديدات الفارسية المتكررة ، ومن ثورات القبائل الخطرة (١) .

وقد اتجه حسن باشا فى أول عهده إلى تأديب اللصوص تأديبا صارما ، كما أنه عُنِيَ بنشر الأمن فى مختلف الربوع ، ووجه كثيرا من الحملات للقبائل المتمردة على حدود بغداد ، فقضى على الخزامل ومن انضم إليهم من قبائل شمر ، كما قضى على ثورة مغامس ، وبهذا مد حسن باشا نفوذه إلى البصرة ، وتسلم فرمانا من استانبول بضمها إلى ولايته ، واهتم حسن باشا بتشييد المساجد وتعيين الأوقاف عليها ، حتى عرف بلقب « أبو الخيرات » .

وقد استعان حسن باشا على تحقيق هذه المآثر بالمماليك الذين اشتراهم ورباهم لهذا الغرض تمشيا مع النظام الذى كان معمولا به فى القسطنطينية ، حتى أصبح هذا الكيان العسكرى يمثل الولاء الكامل للباشا ، والقوة الهائلة التى حسب الجميع حسابها ، ويقول ظريف الأعظمى : إن حسن باشا اعتمد على الكيان العسكرى الجيد فى إصلاح القبائل ، وتوطيد الأمن فى البلاد ، ونشر السلام والسكينة فى ربوع العراق (٢) .

---

(١) ستين لويد : الرافدين ص ٢٤٧ .
(٢) مختصر تاريخ بغداد ص ١٩٧ .

وتعرضت إيران فى عهد حسن باشا لفترة ضعف شجعت الافغان على غزوها ، وقد احتل الأفغان كرمان وروعوا إيران ، وأشاعوا الرعب فيها ، فانتهزت القسطنطينية هذه الفرصة ، وعهدت إلى حسن باشا أن يهاجم إيران أيضا ، فاستجاب لذلك وهاجم الأراضى الفارسية ، واستولى على همدان ، ولكنه مرض هناك سنة ١٧٢٣ وتوفى فى بلاد فارس متأثرا بمرضه وتقدم سنه : وقد حملت جثته إلى بغداد حيث دفن فى جامع أبى حنيفة (١) ، وعين أحمد أبو حسن واليا لبغداد ، ولكن الباشا الجديد واجه يقظة فارسية استطاعت أن تصد الأفغان ، وأن ترد الجيش العراقى ، بل سارت القوات الفارسية بقيادة نادر شاه ، متخطية حدود العراق حتى حاصرت بغداد ، وأصبح العراقيون بين هجوم من الخارج وذعر من الإيرانيين بداخل بغداد أن يضربوهم من الخلف ، وفى هذا الموقف الحرج ظهر على مسرح العراق شخصية يسميها المؤرخون (رومانتيكية) هى شخصية عثمان باشا الأعرج ، فقد قاد جيشا كبيرا قاصدا إنقاذ بغداد ووصل بجيشه إلى الموصل ثم انحدر إلى بغداد ، وقام بعدة حيل عسكرية فى طريقه ، ثم التقى بجيش الإيرانيين ، ودارت معركة رهيبة امتدت عدة ساعات ، وانتهت باندحار الجيش الإيرانى وانتصار الباشا الأعرج ، وقد خسر الإيرانيون فى هذه المعركة ثلاثين ألف قتيل : وثلاثة آلاف أسير ، وفر نادر شاه منسحبا إلى مملكته (٢) .

ويمكن القول إن نظام المماليك قد انتضح فى عهد أحمد باشا ، إذ أنه اهتم بتربيتهم تربية علمية وعسكرية ، وكان يضعهم فى المدارس حتى يبلغوا مبلغ الرجال ، ثم يستغلهم فى المؤسسات الحكومية المدنية حسب قدراتهم ، وكان زعيم المماليك فى عهد أحمد باشا مملوكا اسمه

---

(١) علاء نورس : حكم المماليك فى العراق ص ١٨ .

(٢) الشيخ رسول الكركوكلى : دوحة الوزراء ص ٣٣ — ٣٤ .

سليمان ، وقد تدرج فى المناصب الحكومية حتى أصبح (كتخدا) أى نائب الوالى ، وبلغ من تقدير أحمد باشا له أن زوجه بنته « عادلة خاتون » [1] سنة ١١٤٥ هـ ، وفى سنة ١١٦٠ زوج ابنته عائشة هانم من مملوك آخر هو أحمد أغا [2] ، وكل هذا هيأ لقيام دولــة المماليك فى العراق عقب وفاة أحمد باشا سنة ١٧٤٧ ، إذ أن الباشا لم يعقب ابنا ولا حفيدا . ومن عجب أن أحمد باشا توفى بعد أيام من مقتل خصمه العنيد نادر شاه ، وترك أحمد باشا فى العراق أطيب الذكريات [3] .

دولة المماليك فى العراق

حاولت القسطنطينية عقب وفاة أحمد باشا أن تستعيد سلطتها المباشرة على العراق ، وأن تتخلص من النظام الاستقلالى الذى وضــع حسن باشا وابنه أحمد أساسه ، فأصــدرت فرامانات بإناطــة ولاية بغــداد لوالى ديار بكر الحاج أحمد باشا ، وولاية البصرة للحاج أحمد الكسرية لى ، وعينت سليمان أغا واليا لإيالة أدنه كمحاولة لإبعاده عن العراق ، ولتقليص نفوذ المماليك الذين أصبحوا يشكلون قــوة مرهوبة الجانب فى نظر الدولة العثمانية ، وبخاصة أن العراقيين كانوا ينظرون إلى سليمان أغــا كوالٍ مرتقب ، فقد خبروه خلال حكم سيده أحمد باشا [4] .

ولكن تخطيط القسطنطينية فشل بسبب صرامة المــاليك ، وثورات العشائر ، واضطراب الانكشارية ، وضعف كفاءة الباشوات الجدد الذين أرسلتهم القسطنطينية : فاضطر الباب العالى تحت وطأة هذه الظروف أن يصدر فرمانا بتعيين الكتخدا سليمان لباشوية بغداد ســنة ١٧٤٩ ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٣ .

(٢) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ١٩٦ .

(٤) عــلاء موسى نورس : حكم المماليك فى العــراق ص ٢٦ — ٢٧ وريتشارد كوك : بغداد مدينة السلام جـ٢ ص ٨٦ .

واتجه الوالى الجديد إلى قطع الطريق على القسطنطينية حتى لا تعود لمناوءة المماليك ، فاقتنى عددا كبيرا منهم أكثر مما فعل صهره ، وألف منهم جيشا درّبه على الفنون العسكرية ، وجهزه بالأسلحة الحديثة ، فأصبح هذا الجيش دعامة قوية تثبت حكم المماليك فى بغداد (١) .

ولم يقنع سليمان باشا بقوة المماليك العسكرية ، بل اتجه إلى وضعهم فى المناصب الإدارية ، فاستبعد الموظفين العرب والأكراد من المناصب العالية ، وعين مكانهم بعض زعماء المماليك ، وبهذه السياسة ثبت حكمُ المماليك فى العراق واستمر أكثر من ثمانين عاما (٢) .

وفيما يلى قائمة بأسماء الباشوات من المماليك كما أوردها زامباور (٣) .

سليمان باشا أبو ليلة	١١٦٥ هـ
على باشا الأول (كيابا)	١١٧٥
عمر باشا (زوج الابنة الصغرى لأحمد بن حسن)	١١٧٧
عبد الله باشا الأول ؟	
حسن باشا ؟	
سليمان باشا الكبير	١١٩٤
على باشا الثانى	١٢١٧
سليمان (ابن أخى على الثانى)	١٢٢٢
عبد الله باشا الثانى	١٢٢٥
سعيد باشا	١٢٢٧
داود باشا	١٢٣٢ — ١٢٤٧

ونقدم فى الصفحات التالية تعريفا بأشهر هؤلاء المماليك :

(١) أحمد الصوفى : المماليك فى العراق ص ١٧ .
(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ٦ ص ٣٣ .
(٣) معجم الأنساب والاسرات الحاكمة جـ٢ ص ٢٦٠ .

سليمان باشا أبو ليلة :

لقب سليمان بأبى ليلة لأنــه كان يخرج بنفســه فى أثناء الليــل ليطوف مع الحرس الذى كان يراقب الحالة فى بغداد ، وكانت حملاتــه الليلية كثيرة على العشائر المتمردة : وعرف كذلك بلقب (دواس الليل) و (أبو سمرة) و (سليمان الأسد) (١) وقد واصــل سليمان باشــا سياسة صهره أحمد باشا فى إخماد ثورات القبائل فغزا عشيرة ربيعــة والشيخ سعدون شيخ المنتفق وعشائر قشعم ، كما أرسل قوات عسكرية تأديبية إلى القرى والأرياف (٢) وضرب على أيــدى العابثين فشــمل الأمن البلاد ونشطت التجارة ، وأصبحت البصرة ميناء مهمة جذبت لها نشاط شركة الهند الشرقية البريطانية ، وكان ذلك من الأسباب التى جعلت السلطان العثمانى يهديه وساما تقديرا لنجاحه فى الداخل والخارج (٣) .

وتوفى سليمان باشا ١٧٦١ م ، وعلى أثر وفاته حدث صراع بين المماليك الذين يرغبون فى أن يخلفوه ، وانتهزت استانبول هــذه الفرصة فعينت سعد الدين باشا والى الرقة على بغداد ، فاضطر المماليك أن يعقدوا اجتماعا يتفقون فيه على ترشيح « على » وكتبــوا بذلك الى الباب العالى فاستجاب لهم ، ولكن عهد « على » كان حافلا بالمؤامرات والاضطرابات ، وكثرت الثورات ضده ، وكانت « عادلة » أرملة سليمان باشا هى وأختها زوجة عمر تؤيدان هذه الثورات وقد استطاع الثــوار اقتحام قصر الباشا ولكنه استطاع الهــرب متنكرا بزى امرأة ، بيد أن الثوار علموا بمقره فقبضوا عليه وقتلوه .

وأصبح عمر باشا واليا على بغداد بعد ذلك ، وليس هنــاك شىء

---

(١) رحلة انيور الى العراق فى القرن الثامن عشر ص ٥٩ من الترجمة العربية عن الألمانية التى قام بها محمود حسين الامين .

(٢) الشيخ رسول الكركوكى : دوحة الوزراء ص ٤١ وما بعدها

(٣) علاء نورس حكم المماليك فى العراق ص ٣١ .

ذو بال يذكر عن عمر ولا عن الواليين بعده : عبد الله باشا الأول وحسن باشا ، الا الفجائع المتصلة والاضطرابات المتكررة ، وحـــركة البصرة الانفصالية العنيفة ، بالإضافة إلى الطاعون الشامل الذى أصاب البلاد فى عهد عمر باشا .

سليمان باشا الكبير :

ثم آلت السلطة إلى سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ — ١٨٠٢) وقـــد كان هذا واليا على البصرة ، وكانت إمارة بغداد إلى الحاج محمد باشا ، الذى عينته استانبول لتقطع سلسلة الوجود المملوكى ، ولكن الحـــاج محمد باشا لم يستطع القيام بالأمر فأصدر الباب العالى أوامره بعـــزل محمد باشا وتعيين سليمان باشـــا بدلا منـــه واليـــا على بغداد وعـــلى البصرة [١] وقد نال سليمان باشا لقب الكبير لما بذل من جهود مضنية لنشر الأمن فى البلاد وإيقاف تمرد العشائر ، وإعادة النظـام فى كـــل الأرجاء ، وقد حقق سليمان باشا الكبير هذه المآثر بالجيش الكبير الذى أعده من المماليك ، وأجاد تدريبه .

وكان سليمان الكبير رفيع المواهب : جم الأدب ، نَعِمَ العـــراق فى عهده بالسلم والاطمئنان ، ولكن حادثة مهمة هزت أركانه هى الزحف الوهابى على كربلاء ، وقد تحدثنا عن هذا الزحف وعن نتائجه فيما سبق عند الكلام عن الحركة الوهابية بالجزيرة العربية [٢] .

ويمكننا أن نتخطى خلفه على باشا الثانى الذى شـــغل عهـــده بمقاومة الوهابيين وبمحاولة مهاجمة إيران ، وقد قتل على باشا وهو يصلى الصبح سنة ١٨٠٧ فآل الأمر إلى شخصية مملوكية أخرى هى سليمان باشا الصغير ، وسنتحدث عنه فيما يلى :

---

(١) الشيخ رسول الكركوكى : دوحة الوزراء ص ١٠٦ .

(٢) اقرأ فى هذا الموضوع « لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث للدكتور على الوردى جـ١ ص ١٩٢ وما بعدها .

سليمان باشا الصغير :

كانت فترة حكم سليمان باشا الصغير قصيرة (١٨٠٧ — ١٨١٠) ولكنه اتجه خلالها إلى مقاومة كل نفوذ خارجي ليكون لبغداد شخصية استقلالية ، وتنفيذا لذلك اعترض على النفوذ البريطانى الذى كان ينمو فى البلاد عن طريق المقيم البريطانى فيها ، ففرض الإقامة الجبرية على هذا المقيم فى منزله ، ومنع الناس من زيارته ، حتى لا يتمكن من التدخل فى الشئون الداخلية للولاية ، وخافت حكومة الهند عاقبة ذلك ، فأجرت مفاوضات مع سليمان باشا الصغير ، وانتهت بعقد معاهدة تعهد فيها المقيم البريطانى بعدم التدخل فى الشئون الداخلية ، وتعهد سليمان باشا بحماية أموال الرعايا البريطانيين ومصالحهم ، وامتدادا للنزعة الاستقلالية فى سليمان باشا الصغير أوقف إرسال الأموال التى كانت ترسل سنويا إلى الأستانة ، ونتيجة لذلك أرسل الباب العالى جيشا احتل بغداد وقضى على سليمان باشا الصغير .

وبعد سليمان باشا الصغير جاء عبد الله باشا الثانى ثم سعيد باشا ، ولا يستحقان وقفة معهما ، وينبغى أن نتخطاهما إلى شخصية شهيرة فذة هى شخصية داود باشا .

داود باشا :

كان داود باشا (١٨١٧ — ١٨٣١) آخر باشوات المماليك فى العراق ، وكان يتمتع بموهبة أدبية ومقدرة إدارية ، وكفاءة عسكرية رائعة ، وقد واجه فى مطلع عهده اضطرابات واسعة من العشائر التى كانت متمردة هنا وهناك ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها وأن يقضى على كل حركات التمرد .

وهناك إصلاحات مهمة قام بها داود باشا ، فقد أنشأ المدارس لنشر العلم والثقافة ، كما تنسب له نشاط عمرانى واسع النطاق ، وشمل نشاطه

استصلاح الأراضى ، والعناية بالرى ، وتأمين طرق المواصلات ، وإنشاء الأسواق والخانات .

وحاول الفرس أن يقتحموا العراق فى عهده بقيادة الشاه فتح على ، ولكن الظروف ساعدت على هزيمة ذلك الجيش إذ تفشى فيه مرض الطاعون وهو يحاصر بغداد ، فلمّ شعثه وعاد إلى بلاده ، واتجه داود باشا الاتجاه الاستقلالى الذى ابتدعه سليمان باشا الصغير : وكان هذا الاتجاه ذا شعبتين يرمى فى إحداهما إلى القضاء على النفوذ البريطانى ، ويرمى فى الثانية إلى القضاء على التسلط العثمانى على البلاد ، وقد انتهز داود باشا اتجاهات الاستانة للقضاء على الجيش الانكشارى ، فوضع خطة محكمة للقضاء على الانكشارية فى بغداد ، فأمر بإعداد استعراض لقواته فى ساحة السراى ، ووضع الجيش الانكشارى فى مركز الدائرة ، يحيط بهم جنود المماليك من أتباعه المخلصين له ، ثم قرأ مرسوم الباب العالى الذى يخيّر الانكشارية بين أمرين : الموت أو الانخراط فى الفرق العسكرية الجديدة والتخلى عن الامتيازات الانكشارية ، وقد اضطر هؤلاء أن يعلنوا تخليهم عن امتيازاتهم ، وأن يقبلوا الاندماج فى الخدمة العامة فراراً من الموت الذى يحيط بهم ، وكان التخلص من الانكشارية وسيلة من وسائل داود باشا ليقف من الباب العالى موقف الند للند ، غير خائف من طعنة من الخلف يقوم بها الانكشاريون ضده ، واستطاع داود باشا بذلك أن يقف حازما فى وجه بريطانيا ، وفى وجه الدولة العثمانية ، أما بريطانيا فقد رأى داود باشا المحاولات التى كان يقوم بها المقيم البريطانى للتقرب من القبائل ، وربطهم بالسياسة البريطانية ففرض عليه الإقامة الجبرية فى بيته ، ومنع الناس من زيارته ثم طلب أن يستبدل به غيره ، فاستجابت حكومة الهند البريطانية لذلك وطأطأت للعاصفة .

أما عن علاقته مع الدولة العثمانية : فإن داود باشا رفض طلب الباب العالى ليساعد الدولة العثمانية فى حربها ضد روسيا ، هذا من

جانب ، ومن جانب آخر فقد أدرك السلطان محمود الثانى أن مماليك العراق يتخذون طابعا استقلاليا ، ويتطورون فى ذلك مما يهدد كيان الامبراطورية ، فاتخذ السلطان محمود قرارا بعزل داود باشا ، وأرسل جيشا بقيادة على رضا لينفذ هذا القرار ، وقد قاومت بغداد بصرامة ولكنها عجزت عن مواصلة المقاومة إذ تعرضت لصور مريرة من الكوارث شملت الطاعون والفيضان والمجاعات ، وسطو اللصوص ، وكل ذلك هيأ لانتصار على رضا بعد جهد طويل ، وانتهى بذلك عهد المماليك بالعراق •

نهاية المماليك :

يقول سيتون لويد : لقد استسلمت بغداد لجيش على رضا بعد أن فقدت كل وسائل الدفاع عن نفسها ، وعومل داود باشا بشفقة واحترام بالنسبة لما قام به من مقاومة ، إذ أرسل إلى استانبول يحمل توصية بالرأفة به ، وعاش بعد ذلك متقلدا كثيرا من المناصب المهمة منها حامى حرم المدينة حتى مات ، ولم تكن عاقبة أنصاره المماليك على هذا المنوال ، فإن على رضا جمعهم فى ديوان عام وقرأ عليهم مرسوم السلطان القاضى بإلغاء امتيازاتهم ، وكان نهوضه ليترك المكان علامة اتفق عليها للبدء بالفتك بهم جميعا ، وهكذا فنى هؤلاء المماليك فى النهاية ، وانتصرت استانبول [1] وكانت نهاية مماليك العراق شديدة الشبه بنهاية مماليك مصر على يد محمد على قبل ذلك بعشرين عاما ، وهى على العموم نهاية كل المتسلقين الذين لا جذور لهم •

مصر ومصير مماليك العراق :

أصبح محمد على واليا على مصر باختيار شعب مصر سنة ١٨٠٥ ، واتجه محمد على اتجاها استقلاليا منذ سنيه الأولى ، وعمل على توسيع سلطانه فى آسيا وفى إفريقية ، وكان هذا الاتجاه يزعج السلطات

---

(١) الرافدان ص ٣٥٤ •

الحاكمة فى استانبول ، ووصل الأمر مداه حينما تطلع محمد على لتصبح له ولاية الشام مكافأة له على الجهد الذى بذله فى حرب اليونان ، ولكن الباب العالى كان يعمل لهدم محمد على وانتقاص سلطانه ، لا ابنائه ومد ملكه ، فرفض ملتمسه . ولم يقبل محمد على هذا الرفض فراح يعمل لينال ما يريده معتمدا على القوة ، واكتسحت الجيوش المصرية سنة ١٨٣١ م غزة ويافا وحيفا وعكا . . وبعد أن أتمت فتح الشام اتجهت إلى آسيا الصغرى ، فدحرت جيشا كبيرا يقوده الصدر الأعظم رشيد باشا (١) .

والمهم هنا أننى أرى أن الباب العالى خاف أن توجد بالعراق قوة استقلالية تقلد الحركات التى قام بها محمد على فى مصر ، وإذا كان الباب العالى يحتمل استقلال مصر فإن الوضع يختلف بالنسبة للعراق ، لأن حدود العراق تتاخم حدود تركيا ، ولا يحتمل الباب العالى قيام حكم استقلالى بالعراق .

وهذا يفسر لنا تحديد الوقت للقضاء على المماليك بالعراق ، وهو سنة ١٨٣١ أى نفس السنة التى بدأ فيها محمد على زحفه على الشـــام والأناضول ، ولم يشفع لمماليك العراق أن الحكم كان فى يد داود باشـــا الذى كان يعد من أحسن الباشوات ، وكان جهده لاستقرار الأحوال يفوق جهود كثير من الباشوات قبل المماليك وبعدهم .

وعلى كل حال فإن عهد المماليك بالعراق لم يضمن للبلاد استقرارا متصلا ، فقد كان بعض الباشوات يبذل الجهد للحصول على الأمن والتقدم ولكن سرعان ما كان يفلت الزمام من يده . ثم إن الباب العالى كان يتدخل باستمرار لوضع حد لحكم باشوات المماليك ، حتى يستعيد حكمه المباشر على البلاد ، وكان موقع العراق بين العشائر التى تنشد حياة الاستقلال

---

(١) انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة ص ٣٦٥ وما بعدها .

وتكره السلطات المركزية ، وبين البدو ، والقبائل العربية المتاخمة ، وبين قوتى الفرس والعثمانيين المتصارعين ، كل هذا جلب للبلاد صورا من الكوارث ، فإذا أضيف لذلك الخلاف بين أهل السنة والشيعة ، والصراع بين الطامعين من المماليك فى السلطة يتبين لنا أسباب ما أصاب العراق من جراح غائرة مدى عدة قرون .

إصلاحات المماليك :

عند الحديث عن باشوات المماليك أوردنا ما ينسب لكل منهم من إصلاحات ، ولا تزال هناك أشياء ، عنى بها مماليك العراق عناية كاملة تستحق أن نختم بها دراستنا عن عهدهم .

قام سليمان أبو ليلة ، وسليمان الكبير وداود بمجهودات عظيمة استهدفت تحسين الاقتصاد فى العراق ، فقد عملوا على تنشيط التجارة بتأمين الطرق وتيسير المواصلات النهرية والبرية ، وأولى سليمان الكبير وداود الزراعة اهتماما كبيرا وذلك بإحياء بعض الأنهار المندثرة ، وتطهير القنوات والترع المهملة ، واستغلال خامات العراق الزراعية (١) .

وعنى سليمان الكبير بتشييد الأسوار ، وتعمير ما خرب منها ، وإقامة الأسواق والخانات ، وشمل ذلك مدينة بغداد والبصرة والحلة ، وكانت عنايتهم أكبر بتشييد المساجد ، فقد أقاموا منها عددا كبيرا ، وكان بعضها غاية فى الفخامة كمسجد الإمام الأعظم الذى طليت منارته بالذهب فى عهد سليمان الكبير وكان اهتمام داود باشا بالمساجد وأئمتها وخطبائها اهتماما بالغا (٢) .

واهتم المماليك بالنهضة الثقافية ، فأنشأوا عددا من المدارس

---

(١) علاء موسى نورس : حكم المماليك فى العراق ص ١٣٨ .

(٢) الالوسى : غرائب الاغتراب ونزهة الالباب ص ٤٠ وما بعدها .

والمكتبات ، وكان بعضهم عالما تلقى العلم على مشـايخ العصر ، ومـن هؤلاء داود باشا الذى تلقى العلم عن مشاهير العلماء ونال منهم إجازات علمية ، فلا عجب أن يكون عهد داود باشا عهد علم وفكر ، وأن تكثر به المدارس والأوقاف عليها ، وتنتشر فى بغداد والسليمانية وكركوك والموصل والنجف والحلة وكربلاء والكاظمية وسامرا والبصرة (١) .

وعرف عن داود باشا سخاؤه العظيم مع الشعراء والمؤلفين والنقباء وأرباب الطرق الصوفية ، وقد نال كل هؤلاء الجوائز السخية والهبـات الوفيرة ، حتى اتجه شعراء هذا العصر إلى مدحه والثناء عليه (٢) .

باشوات بغداد بعد المماليك

كان على رضا أول باشوات بغداد بعد المماليك ، ويصف رينتشارد كوك الحياة فى عهده بقوله (٣) .

فى خلال سنين قلائل من حكم على رضا السـمح — وإن شـابه التسيب — أخذت الحياة تدب فى المدينة عودا على بدء كما ينبثق الشجر الأجرد عن ورق أخضر ، وتتدفع العصارة الحية فى الشجرة اليابسة ، وذلك كله على الرغم من استمرار الاضطراب فى البلاد بوجه عام .

وبعد على رضا عينت استانبول عددا من الولاة ، ويسردهم لونكريك ساخرا من أكثرهم ، فيقول : ان منهم رديف باشا ، وكان نظاميا صارما ، وعبد الرحمن باشا وكان متعصبا ، وعاكف باشا وكان فى غاية الفسـاد والتفسخ (٤) ... ويغنينا فى الحديث عن الباشوات فى هذه الحقبـة أن نتكلم عن رجل بلغت شهرته الآفاق ، ولعب دورا كبيرا فى حيـاة

(١) الغزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ٦ ص ٢٦٣ ، ٢٩٩ ، ٣٣٤ .
(٢) انظر حكم المماليك فى العراق ص ١٤٣ ، ٢٤٤ .
(٣) بغداد مدينة السلام جـ٢ ص ١٥٨ من الترجمة العربية .
(٤) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٣٦١ .

الامبراطورية العثمانية وهو مدحت باشا ، الذى كان يلقب « أبا الدستور » وقد تحدثنا عن مدحت باشا بشىء من التفصيل فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

وقد جاء مدحت باشا إلى العراق سنة ١٨٦٩ ، وكان قبل ذلك واليا فى ولايات الدانوب ، فحقق فيها نوعا من التقدم والازدهار ، وحكمها حكما نظيفا نزيها ، ونقل من ولايات الدانوب إلى استانبول فبغداد ، وبقى فى بغداد ثلاث سنوات بذل خلالها كثيرا من الجهود لإصلاح أحوال العراق ، وتقول المصادر العراقية الرسمية إنه قام بالإصلاحات التالية :

١ — أكمل الأبنية التى بدأ سلفه فى تشييدها ، وأضاف إليها الشىء الكثير .

٢ — أصدر جريدة الزوراء .

٣ — أسس معامل عسكرية لتزويد الجيش بما يلزمه من عتاد .

٤ — بنى المستشفيات ودورا للعجزة والأيتام .

٥ — شيد عددا من المدارس .

٦ — خطط وأنشأ مدينتى الرمادى والناصرية .

٧ — مد خط ترامواى بغداد — الكاظمية .

٨ — أسس البلديات لتقدم إلى الموظفين خدماتها فى الإنارة والسقاية والنظافة والحراسة .

٩ — أسس المجالس المحلية لإدارة شئون الولاية .

١٠ — فرض التجنيد الإلزامى .

١١ — قسم العراق إلى ثلاث ولايات هى بغداد والموصل والبصرة ،

وقسم الولاية إلى عدد من الألوية ، وكل لواء إلى عدة سناجق ، وكل سنجق إلى عدد من النواحى .

١٢ — اهتم بتوطين القبائل وتوزيع الأرض عليها (١) .

ومن الواضح أن هذه إصلاحات عظيمة متنوعة ، ولكنها لم يكتب لها النجاح كل النجاح ، بسبب قصر مدة مدحت باشا ، وبسبب الفساد الذى تركته الأحداث السابقة فى الإدارة ، مما عاق هذه الحركة التقدمية عن السير والازدهار .

من القرن التاسع عشر للقرن العشرين

يصور سيتون لويد العراق سياسيا ، وهو ينتقل من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين فيقول عن تاريخ العراق السياسى : إن أهم ما وقع فيه فى هذه الفترة هو المحافظة على التوازن القلق بين الوالى الذى كان يمثل نوعا من حكومات القرون الوسطى المطلقة التى كانت تكافح لتصل إلى روح العصر الحديث ، وبين دار الإقامة البريطانية التى تمثل الطموح التجارى وما يلزمه من تدخل سياسى ، وذلك كان اتجاه الغرب آنذاك (٢) .

ويصور لونكريك العراق اجتماعيا فى هذه الفترة بقوله : « إن العراق انتقل من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين والبلاد ما تزال متفسخة وفى حالة من الجهل وعدم الكفاية للحكم الذاتى ، ولم تكن بأقل فسادا عما كانت عليه عند حلول القرن السادس عشر ، كما أن أحوالها المادية لم تكن بأحسن من أحوالها العقلية والخلقية ، فقد بقيت مواردها غير مستثمرة بالرغم مما كان يدل عليه تاريخها طوال الأجيال الماضية ،

(١) انظر الجزء الثانى من كتاب « بغداد : مدينة السلام » تأليف ريتشارد كوك ص ١٦٨ — ١٧٠ .
(٢) الرافدان ص ٢٥٤ .

ولم تهتم الحكومة بواجبها الأساسى فى توجيه القبائل والمدن إلى طريق التقدم والارتقاء ، كما أن الحكومة فشلت فى أوضح واجباتها وهو ضمان حرية الرعية وحقوقها على الرغم من أن كثيرا من هذه الأهداف تحققت فى أوربا وفى الهند ، وهى تعود على الشعب وعلى الحكومات بالفوائد المادية (١) .

بريطانيا والعراق

فى القرن التاسع عشر تمكن الحكم البريطانى فى الخليج العربى وأبدى اهتماما كبيرا بالبصرة ، وبالتالى كثرت المشروعات الأجنبية بالبلاد ، كالاهتمام بالطرق النهرية وبأنواع المواصلات الأخرى كالتلغراف والسكة الحديدية .

وفى أواخر القرن التاسع عشر اتجهت أنظار انجلترا إلى النفط بالعراق ، فتعددت مصالح بريطانيا بالعراق وحاولت فرض سيطرتها على القسم الجنوبى المتصل بالخليج العربى ، وبينما كانت بريطانيا تقدم رجلا وتؤخر أخرى حرصا على الاتجاهات الدولية ، اندلعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) وانضمت الامبراطورية العثمانية لألمانيا ، وبهذا وضح العداء بين بريطانيا وبين الأتراك ، وأسرعت بريطانيا بالزحف على العراق فأرسلت أولى حملاتها التى استطاعت أن تدخل الفاو سنة ١٩١٤ ثم دخلت مدينة البصرة ، وبعد عدة معارك استطاعت هذه القوات أن تستولى على لواء البصرة كله ، وواصلت زحفها شمالا محققة تقدما واضحا على الرغم من الخسائر التى خسرتها ، وفى سنة ١٩١٧ احتلت مدينة بغداد ، وأصدر القائد البريطانى منشورا يذكر فيه أن الانجليز دخلوا بغداد محررين لا فاتحين ، وكان هذا القول زيفا استدعته الظروف ، ولذلك هب الشعب يناضل المحتل الأجنبى بقوة واصرار .

(١) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٣٨٧ باختصار .

وتقدمت القوات البريطانية بعد بغداد فاحتلت سامرا ، وتكريت ثم أعلنت الهدنة فى ١٩١٨/١١/١١ فاحتلت القوات البريطانية الموصل بدون حرب ، وتم بذلك احتلال الانجليز للعراق ، ثم أمضيت معاهدة سيفر بين تركيا وبين الحلفاء ، وبمقتضاها تخلى الأتراك عن كل البلاد العربية [١] .

وعملت بريطانيا على أن تمكن لنفسها فى العراق فاستصدرت قرارا من عصبة الأمم بانتدابها على العراق ، وكان معنى الانتداب نظريا أن تشرف على العراق إشرافا مؤقتا يعد البلاد لحمل مسئولية الاستقلال ، ولكن المعنى الحقيقى للانتداب كان رعاية مصالح المستعمر على حساب الوطن والمواطنين .

وإذا كان العراق أو غيره من الدول العربية احتمل العلاقات مع الامبراطورية العثمانية باسم الإسلام فإن أيا من الأقطار العربية لم ينخدع بالتعبيرات المختلفة التى تربط الوطن العربى بالقوى الأوربية ، ومن هنا قامت فى العراق كما قامت فى سواه حركات وثورات هائلة ، وضحى الشعب بأغلى ما يملك حتى استعاد الحرية وطرد الغاصب المحتل .

وفيما يلى موجز للأحداث الكبرى منذ ذلك الحين :

الاستعمار والملكية بالعراق :

عملت الحكومة الاستعمارية على تأليف حكومة مؤقتة عراقية ، لتقوم هذه الحكومة بإجراء انتخاب عام ، لتأليف مجلس تأسيسى ليقرر شكل الحكم بالعراق ، فتألفت هذه الحكومة برياسة السيد عبد الرحمن النقيب سنة ١٩٢٠ ولكن سرعان ما أدركت الحكومة البريطانية أن المجلس

---

(١) انظر الحديث عن هذه المعاهدة بالجزء الخامس من هذه الموسوعة ص ٧٠٨ — ٧٠٩ .

التأسيسى سيتجه اتجاها وطنيا خالصا ، يتنافى مع أطماع المستعمر ، فعملت على تأجيل الانتخاب ، وكبديل لذلك عملت الحكومة البريطانية على تعيين فيصل بن الحسين ملكا على البلاد . (وقد تحدثنا عنه ضمن حديثنا عن الأشراف فيما سبق) ، وكان قد عين قبل ذلك ملكا على سوريا ، ولكنه سرعان ما فقد عرشه ، وأجرى استفتاء شكلى حول هذا التعيين فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢١ أعلنت بمقتضاه موافقة الشعب على تعيين الملك ! !

واستكمالا للحديث عن الملكية بالعراق نذكر أن الملك فيصل بن الحسين مات سنة ١٩٣٣ ، فخلفه ابنه الملك غازى الذى قتل فى حادث سيارة غامض سنة ١٩٣٩ (١) فخلفه ابنه فيصل الثانى (ابن غازى) وكان يبلغ من العمر أربع سنوات فعيّن خاله عبد الإله وصيا على العرش حتى وصل سن الرشد سنة ١٩٥٣ فتولى سلطاته الدستورية وعين خاله وليا للعهد ، وقد ظلّ الملك فيصل الثانى ملكا على العراق حتى قتل هو وخاله فى ثورة ١٩٥٨ وبموته انتهت الأسرة المالكة بالعراق ، وقام النظام الجمهورى .

ومن الواضح أن النظام الملكى كان هبة الانجليز لفيصل وأولاده ، ومن أجل هذا لم يكن معبرا عن آمال البلاد ، وكان يسير فى فلك الاستعمار ، وفى ظله وظل الاستعمار كان لكل وزير عراقى ولكل محافظ مستشار بريطانى يدير الشئون ، فلم يكن الموظفون العراقيون إلا واجهة يعمل الاستعمار من خلفها ، وقد أثار هذا الوضع المواطنين ، وظهرت حركات سخط وتمرد وثورات سنعرض لها فيما بعد ، وقد اتجهت بريطانيا إلى عقد معاهدات مع العراق لتوهم المواطنين بأن إقامتها غير مستقرة ،

---

(١) انظر تفاصيل هذا الحادث واتهام الانجليز بتدبيره فى « العراق فى مذكرات الدبلوماسيين الأجانب » ص ١٣٥ وما بعدها (مذكرات وزير المانيا المفوض) .

وأنها ستجلو عن العراق بعد مدة ، وقد توالت هذه المعاهدات على هــذا النمط فأبرمت معاهدة سنة ١٩٢٢ ، ومعاهدة أخرى سنة ١٩٢٦ ، ولكنهما لم تحققا آمال العراق ، وكانتا تدوران فى فلك واحد هو تثبيت الملكية ، وإشراف بريطانيا على الشئون الخارجية ، وتقديم المشورة فى الشـــئون الداخلية ، واحتلال بعض المناطق العراقية ، ثم جاءت معاهدة ١٩٣٠ التى تلزم العراق بتقديم تسهيلات واسعة للقوات البريطانية عند اقامتها أو مرورها فى أراضيه ، وكانت هناك فائدة مظهرية لهذه المعــاهدات فبسببها أنتهى الانتداب البريطانى فى أكتوبر سنة ١٩٣٢ ودخلت العراق فى عصبة الأمم كدولة مستقلة ، ولكن العراقيين أدركوا أن الحرية الحقيقية لا تنال بالمفاوضات ، وأن الاستقلال يحتــاج لثورات وتضــحيات حتى تتحقق للشعب حريتــه وللمواطنين حقوقهم ، وقام الشــعب العراقى بالثورات التالية حتى تحقق لــه مــا أراد :

ثورات العــراق

حفل تاريخ العراق الحديث — كما قلنا آنفا — بالثورات ضد المستعمر وضــد أعوانه ليتخلص العراق من النفوذ الخارجى ومن الذين ينفــذون هذا النفوذ أو يدورون فى فلكه ، ومن أجل هذا قامت بالعراق الثــورات التــالية :

ثورة سنة ١٩٣٠ :

كان اشتعال هذه الثورة مبكرا إذ لم يطل انتظار العراقيين عقب الاحتلال البريطانى ، بل سرعان ما اشتعلت الثورة فى آخر يونيو سنة ١٩٢٠ ، وقد استطاعت هذه الثورة أن تبرهن على بسالة أهل العراق ، واستهانتهم بالتضحيات ، ويقول المؤرخون انه ليس ثمة رمز للحريــة الوطنية فى العراق الحديث أبدع وأروع من ثورة عام ١٩٣٠ ، وكان من أسباب قيام هذه الثورة انتشار الوعى القومى بين المواطنين ، وتصريحات

الحلفاء فى أثناء الحرب العالمية الأولى وعند نهايتها بحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، ثم كان من أسبابها سوء الإدارة البريطانية ، وعملها على خدمة الأغراض الاستعمارية ، وإهمال مصالح الشعب العراقى ، وقد حملت الجمعيات الدينية مسئولية كبرى فى هذه الثورة ، فقد ألهبت أحاسيس الناس ودفعتهم لمقاومة المستعمر المسيحى الغريب .

وكان السبب المباشر لهذه الثورة قيام السلطات البريطانية فى الرميثة باعتقال الشيخ شعلان أبو الجون ، وقد هبت عشيرة الشيخ عقب ذلك فى ثورة هائلة ، فقامت بمحاصرة الحامية البريطانية واستطاعت إخراج الشيخ بالقوة ، ثم اندفعت الثورة تعرقل طرق المواصلات البريطانية بالعراق ، وتتحدى السلطات الاستعمارية ، وسرعان ما امتد صدى الثورة إلى جميع الأرجاء ، فقامت ثورات مماثلة فى نواحى العراق المختلفة مما أوقع بقوات الاحتلال كثيرا من الخسائر ، ومما حرك الرأى العام الانجليزى إلى ضرورة الجلاء عن العراق حتى لا تكثر ضحايا الانجليز هنـــاك .

وقد استطاعت قوات الاحتلال البريطانى أن تقضى على هذه الثورة ، ولكن روحها كمنت فى نفوس أهل العراق ، وانتظرت الفرص لتنبعث من جديد .

ثورة ١٩٤١ :

خلقت بريطانيا فى العراق تكتلات وأحزابا وعشائر ، ودفعتها لنضال داخلى مرير ، وكانت تؤيد جماعة على حساب أخرى ، ثم تتخلى عنها لتؤيد جماعة أخرى وهكذا ، وفى مثل هذا الجو كثرت الاضطرابات والفتن الداخلية ، وبالتالى هبت انقلابات عسكرية قام بها الجيش ليزيل حكومة ويقيم أخرى ، ومن الحركات التى قام بها الجيش حركة بكر صدقى وكيل رئيس أركان الجيش سنة ١٩٣٦ الذى طلب من الملك اقالة

وزارة ياسين الهاشمى رئيس حزب الإخاء الوطنى ، وتكليف حكمت سليمان بتشكيل وزارة جديدة ، وقد أرغم الملك على ذلك ولكن وزارة حكمت سليمان لم يطل عمرها وقد قتل بكر صدقى بعد وقت قصير من ثورته .

ويقول الدكتور فريتز غروبا القائم بأعمال ألمانيا بالعراق ثم وزيرها المفوض (١٩٣٢ — ١٩٤١) عن سبب مقتله ، إنه اتخذ جانب الأكراد وعمل سرا على تكوين دولة كردية مستقلة ، وقرب الضباط الأكراد وأحلهم محل العرب مما أثار النقمة عليه من بعض القوميين العرب ، فدبرت مؤامرة لاغتياله فى الموصل حيث كانت الحراسة عليه قليلة (١) .

واستقالت وزارة حكمت سليمان ، وأعقبتها وزارة جديدة يرأسها جميل المدفعى ، ثم وزارة أخرى يرأسها نورى السعيد سنة ١٩٣٨ ، وقد اتجه نورى السعيد اتجاها واضحا للتعاون مع بريطانيا ودول الغرب ، وقدم كل التسهيلات اللازمة لبريطانيا فى الحرب العالمية الثانية ، مما أساء إلى القاعدة الشعبية بالبلاد ، وحرك قوى المناضلين ضد نورى السعيد والاحتلال البريطانى ، وتحت ضغط هذه الأحداث استقالت حكومة نورى السعيد ، وشكل رشيد عالى الكيلانى وزارة جديدة سنة ١٩٤١ ، وكانت هذه الوزارة مؤيدة من الجيش والشعب ، إذ أنها عبرت عن أمانيه فى حيدة العراق ، وفى مطالبة الانجليز بالجلاء ، وفى وضع برنامج شامل للاصلاحات الداخلية .

وكان واضحا أن كل هذه الاتجاهات مضادة للسياسة البريطانية فطلبت بريطانيا من عبد الإله الوصى على العرش آنذاك إقالة الحكومة ولكن الوصى أدرك أن ذلك بعيد عن استطاعته ، فغادر بغداد سرا إلى شرق الأردن واختارت الحكومة وصيا آخر على العرش ، وتأزمت

---

(١) نجدة فتحى صفوة : العراق فى مذكرات الدبلوماسيين الأجانب ص ١٢٦ وما بعدها .

العلاقات بين العراق حكومة وشعبا وبين بريطانيا ، وأعلنت حكومة العراق رفض إنزال قوات بريطانية جديدة بالبلاد ، وتمسكت بريطانيا بمعاهدة ١٩٣٠ التى تلزم العراق بتقديم تسهيلات واسعة للقوات البريطانية عند إقامتها أو مرورها فى أراضيه ، كما سبق القول . وهكذا تفاقمت الأمور حتى قامت معركة عسكرية بين العراقيين وبريطانيا خلال شهر مارس سنة ١٩٤١ ، وقد أبدى الجيش العراقى ألوانا من البطولة ، ولكن المعركة كانت غير متكافئة فتغلب الجانب البريطانى ، وعلى أثر ذلك عاد الأمير عبد الإله للعراق بولاء أكثر لبريطانيا ، وراحت القوى البريطانية والموالون لها تقتل بعض العناصر الوطنية ، وتزج ببعضها فى السجون والمعتقلات ، ومن شهداء هذه الفترة فهمى السعيد وصلاح الدين الصباغ ويونس السبعاوى وكامل شعيب ومحمود سلمان ، وقد استطاع رشيد على الكيلانى أن يفر من البلاد .

بعد الثورة :

بعد أن فشلت ثورة ١٩٤١ ، عملت بريطانيا على تسخير كل القوى بالعراق لخدمة أغراضها ، وأبعدت خيرة الشباب عن الوظائف ، وخيرة الضباط عن الجيش ، فتأزمت الأمور بالبلاد ، وأدركت بريطانيا أن تغييرا كبيرا لابد أن يتم بالعراق ، وكانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها فسمحت بريطانيا بإجراء تغيير فى سير الأمور بالبلاد ، وتشكلت وزارة برئاسة توفيق السويدى ، فأطلقت الحريات السياسية والاجتماعية ، مما بعث روحا جديدة بالبلاد ، فانطلقت الصحافة والأحزاب تطالب بإصلاحات فى مختلف النواحى ، ولكن سرعان ما تراجعت الحكومة فى موقفها ، وسحبت خيط الحرية الذى أطلقته ، وتسبب عن ذلك قيام انتفاضتين شعبيتين هما انتفاضة ١٩٤٨ و — ١٩٥٢ ، وقد قامت الأولى عقب إعلان معاهدة ١٩٤٨ التى أجراها صالح جبر ، وأدرك الشعب أنها كالمعاهدات السابقة لا تحقق أمانى الشعب فثار الشعب ضدها ، ولم تجد الحكومة بدا من إعلان تجميد هذه المعاهدة ، وقامت انتفاضة سنة ١٩٥٢

فى شكل مظاهرات صاخبة تصر على الاستقلال التام وتحقيق آمال البلاد فى الداخل والخارج ، وأدرك القائمون بالأمر أنه ليس فى مقدورهم إسكات ثورة الشعب ، فسلموا البلاد لحكم عسكرى أعلن الأحكام العرفية ، وحاول تخفيف متاعب الشعب الاقتصادية ، ولكن هذا العلاج لم يكن حاسما ، وبدلا من أن تتجه الجهود للإصلاح اتجهت لربط العراق بعجلة الاستعمار فيما كان يسمى حلف بغداد سنة ١٩٥٥ ، وتلى ذلك العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ ، وكل هذا هيأ للثورة الكبرى التى قام بها الشعب والجيش فى ١٤ يولية سنة ١٩٥٨ م ، وسنتكلم عنها بعد قليل . ومما يذكر عن حلف بغداد أنه كان يضم تركيا وبريطانيا وباكستان وإيران ، وأن بريطانيا عقب تكوين هذا الحلف وافقت على إنهاء معاهدة ١٩٣٠ ، وأخلت القواعد الجوية فى الشعيبة والحبانية إذ أصبح الحلف الجديد يحل محل الاستعمار البريطانى الذى كانت تهتز أركانه .

وفى فبراير سنة ١٩٥٨ أعلن العراق والأردن الاتحاد العربى الذى أعطى الرياسة للملك فيصل الثانى ، وكان ذلك ردا على الوحدة التى قامت بين مصر وسوريا .

ثورة سنة ١٩٥٨ (*) (نهاية الملكية وإعلان الجمهورية) :

كانت ثورة ١٩٥٨ حركة تاريخية كبرى وانتقالا بالعراق من عهد إلى عهد ، من عهد التبعية إلى عهد الاستقلال ، ومن عهد الملكية إلى النظام الجمهورى ، ومن التخلف الاقتصادى إلى محاولة التطور والتقدم ومن الضعف الفكرى والثقافى إلى وثبة هائلة فى العلم والمعرفة ، وكل هذه الاتجاهات عبر عنها البيان الأول لهذه الثورة ، يقول البيان :

(*) فى الحديث عن هذه الثورة وما بعدها اعتمدنا على المراجع الرسمية ، مع التصرف الكامل فى الأسلوب وسرد الاحداث .

بعد الاتكال على الله ، ومؤازرة المخلصين من أبناء الشعب والقوات المسلحة أقدمنا على تحرير الوطن العزيز من سيطرة الطغمة الفاسدة التى نصبها الاستعمار لحكم الشعب ، والتلاعب بمقدراته لمصلحتهم وفى سبيل منافعهم الشخصية ..

ويتحدث البيان عن حيلولة الاستعمار دون تسليح الجيش العراقى ، وعن الحديد والنار ، والسجون والمعتقلات التى نصبها الاستعمار وأعوانه للأحرار ، وعن سرقة خيرات الشعب وحرمانه من الازدهار الثقافى والاقتصادى .

واستطاعت الثورة أن تقضى على أعوان الاستعمار ، فسقط فيها الملك فيصل الثانى وعبد الاله الذى كان وصيا على العرش فوليا للعهد ونورى السعيد رئيس الوزارة آنذاك ، وأعلنت الثورة عن قيام جمهورية شعبية تتمسك بالوحدة العراقية الكاملة ، وبالتعاون الشامل مع الدول العربية والإسلامية ، كما أعلنت تمسكها بمبادىء الأمم المتحدة ، والتزامها بالعهود والمواثيق التى تخدم مصلحة الوطن ، والتزامها كذلك بمقررات باندونج .

وفى مجال السياسة الداخلية ألفت الثورة مجلس سيادة يتمتع بسلطة رئيس الجمهورية ، حتى يختار الشعب رئيسا له ، ثم أصدرت دستورا مؤقتا يعلن أن الدولة العراقية جمهورية مستقلة ذات سيادة ، وأن العراق جزء من الأمة العربية ، وأن حقوق المواطنين مكفولة ضمن الوحدة العراقية ، وأن الإسلام دين الدولة الرسمى .

وأصدر مجلس السيادة قانون الاصلاح الزراعى الذى ألغى نظام الإقطاع ، وأصدر قانون إلغاء نظام دعاوى العشائر ، وقوانين أخرى لتطهير أجهزة الدولة وحماية الفلاحين والعمال .

وفى المجال الخارجى أعاد العراق صلاته الطيبة بجمهورية مصر ، كما أعاد العلاقات الدبلوماسية بالاتحاد السوفيتى واعترف بالصين الشعبية ، ثم أعلن خروج العراق من ميثاق حلف بغداد ومن الكتلة الاسترلينية .

وانحرف عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة بهذه الثورة ، وتنكر لقادتها وأهدافها ، وأخذ يبتعد بالعراق عن الخط العربى ، ونتيجة لذلك ثار ضده اللواء الخامس المرابط فى مدينة الموصل فى ٨ مارس سنة ١٩٥٩ وكان العقيد عبد الوهاب الشواف قائد هذه الثورة ، ولم تستطع هذه الثورة أن تحقق انتصارا على القوة الكبرى التى زحفت من بغداد ، وعلى أثر فشلها حدثت مذابح رهيبة فى مدينة الموصل واعتقلت حكومة قاسم الألوف من المواطنين من مختلف النواحى .

وفى احتفالات ١٤ يوليو سنة ١٩٥٩ حصلت مذبحة فى كركوك ، جاوزت فى أهوالها مجازر التتر كما تقول المصادر العراقية ، وأقام عبد الكريم قاسم محكمة عسكرية كان قاضيها يحكم بما يريده الزعيم الأوحد كما سمى قاسم آنذاك وكل هذه الانحرافات دفعت لقيام ثورة ١٩٦٣ لتضع حدا لهذه الانحرافات التى ناء بها الوطن والمواطنون . وسنتحدث عن هذه الثورة فيما يلى :

ثورة فبراير ١٩٦٣ (١٤ رمضان ١٣٨٣) :

فى فبراير سنة ١٩٦٣ اندلعت فى بغداد ثورة اشترك فيها الجيش والشعب ، وهاجمت عبد الكريم قاسم ، الذى كان يتخذ وزارة الدفاع مقرا له ليعيش فى حمى السلاح ، بعد أن انفض الشعب عنه ، وقد قاوم عبد الكريم قاسم وأعوانه مقاومة عنيدة ، ولكنه هزم فى النهاية ، وجرت محاكمة سريعة له ، أعدم بمقتضاها ، وأصبح رئيس الجمهورية عبد السلام عارف ، وأعلنت الثورة أنها تهتم اهتماما حاسما بوحدة الشعب

الوطنية ، وبمشاركة الجماهير فى توجيه الحكم ، كما أعلنت أنها تسعى لاستكمال الوحدة العربية ، وتحافظ على مكاسب الجماهير وفى مقدمتها قانون الإصلاح الزراعى ، وعلى العموم فقد اعتبرت هذه الثورة عـودة لثورة ١٩٥٨ : وإزالة الانحرافات التى طرأت على هذه الثورة المجيدة .

وعنما توفى عبد السلام عارف فى حادث سقوط طائرته فى سـنة ١٩٦٥ ، تولى أخوه عبد الرحمن عارف مقـاليد الحكم فأصبح رئيسـا للجمهورية ، وتقول المصادر العراقية إنه حدثت فى عهده أحداث تسىء إلى الشعب بالعراق وتمس اقتصاده ، كما أن الجيش أهمل ، وجمدت طاقاته العسكرية ، فلم يستطيع أن يقوم بدوره فى حرب ١٩٦٧ ، وإزاء ذلك وسواه هبت ثورة جديدة ستكون موضع حديثنا التالى :

ثورة سنة ١٩٦٨ :

كانت هذه الثورة — كما قيل فى سابقتها التى حدثت سنة ١٩٦٣ — تصحيحا للأوضاع ، وتحقيقا للأهداف التى أعلنتها الثورة الأم سنة ١٩٥٨ ، وكانت بقيادة مجموعة من القادة فى قمتهم :

أحمد حسـن البكـر وصـدام حسـين ، وقد حدثت هـذه الثورة فى ١٧ يوليو سنة ١٩٦٨ ، ولكن سرعان ما ظهرت « ملامح سود » كما تقول المراجع الرسمية وكانت هذه الملامح تنذر بالخطر ، ومن أجل هذا أبعد المندسون على الثورة الذين أرادوا أن ينحرفوا بها ، وكان ذلك فى يوم الثلاثين من نفس الشهر ، وتولى أحمد حسـن البكـر رياسـة الجمهورية وقيادات القوات المسلحة ، وكان صدام حسين نائبا لـه .

وهذه الثورة هى التى يعيش العراق معها حتى كتابة هذه السطور ولها منجزات تذكرها المراجع العراقية كالآتى :

فى المجال السياسى : أطلقت سراح المعتقلين السياسيين : وأعادت

المفصولين إلى وظائفهم ، وأعلنت بيان ١١ مارس فحل المسألة الكردية حلا سليما ديمقراطيا ، ومنح الحقوق القومية للأكراد وكل الأقليات .

وفى المجال الزراعى : ألغت الثورة التعويض الممنوح للاقطاعيين ، واسست المزارع التعاونية الجماعية ، وأنجزت العديد من مشروعات الرى والصرف ، وأكملت عملية توزيع الأراضى ، وأعلنت عملية الاستزراع التى ترمى لزيادة الانتاج الزراعى .

وفى مجال الصناعة والنفط : طورت الثورة شركة النفط الوطنية ، واستثمرت النفط وطنيا ، وأصدرت قرارها بتأميم عمليات شركة نفط العراق فى أول يونيو سنة ١٩٧٢ وبهذا أنهت السيطرة الأجنبية على موارد العراق الاقتصادية .

وفى المجال الصحى : أنشأت الثورة المستشفيات والمراكز الصحية ، ونشرت العيادات الشعبية التى تقدم العلاج والدواء بأقل التكاليف ، كما اهتمت الثورة بنشر الوعى الصحى .

وفى مجال التعليم : اهتمت الدولة بانشاء العديد من المدارس والجامعات ، كما اهتمت بتأميم التعليم الخاص والأهلى وبمحو الأمية ، وأولت عنايتها لتعديل البرامج والمناهج لتناسب العهد الفكرى الجديد .

صدام حسين رئيسا للجمهورية :

يمكن القول إنه فى عهد أحمد حسن البكر كان الزمام الحقيقى فى يد صدام حسين ، وكان أحمد حسن البكر واجهـة فقط ، وربما جـاز القول إن أحمد حسن البكر كان صمام أمان لأن السلطة الكاملة عندما انتقلت سنة ١٩٧٩ إلى صدام حسين بدأت الأعاصير تجتاح العراق والمنطقة كلها فقد سولت الأوهام لهذا الرجل أنه يستطيع أن يسيطر على المنطقة كلها ، وقد بدأ بالصراع ضد مصر لإبعادها عن الصف العربى بحجة اتجاهها لعقد معاهدة مع إسرائيل ، وسخر المصريون بهذا الموقف لأن مصر ترفض بكل الشمم والإباء أن تكون تحت وصاية أحد ، فمصر لها تاريخها ومكانتها ولا تقبل أن تجلس مجلس التلميذ وتمسكت مصر باتجاهها فى عهد البطل أنور السادات الذى حارب اليهود وانتصر عليهم ، وفاوضهم وانتصر عليهم أيضا ، وإذا كانت مصر رفضت الموقف العربى الذى تزعمه صدام حسين فى مؤتمر بغداد سنة ١٩٧٨ فإن الدول العربية الأخرى استجابت للأسف لاتجاه صدام بحكم الغيرة أو الخوف ، وقطعت علاقاتها بمصر بعد أن تمت المعاهدة مع إسرائيل وعلقت عضويتها بجامعة الدول العربية ، ونقل مقر الجامعة إلى تونس وتقرر وقف القروض والمساعدات إلى مصر من كل الدول العربية •

ويقرر زعماء العرب أن الهدف الرئيسى من نتائج مؤتمر بغداد كان إبعاد مصر عن دول الخليج لتصبح لقمة سائغة لصدام حسين ، فمصر هى التى هددت العراق فى عهد عبد الكريم قاسم عندما فكر فى اقتحام للكويت •

الحرب مع إيران :

فى سنة ١٩٨٠ اصطنع صدام حسين أسباباً واهية ، وادّعى أن إيران هاجمت بلاده ، والحق أنه كان يطمع فى ضم بعض المناطق من إيران متوهما أن إيران ضعفت بعد طرد الشاه وبعد الصراع الداخلى عقب ذلك ، وقد تكلمنا بإفاضة عن هذه الحرب فى الجزء الثامن من هــذه الموسوعة ، والمهم أنه فى هذه الحرب لجأ إلى مصر فتناست موقفه ضدها وقدمت له الأسلحة والذخائر والخبرات ، كما أخــذ من عــرب الخليج مليارات الدولارات ، وقد صرح الملك فهد ملك السعودية أن بلاده دفعت لصدام ٢٧ مليارا من الدولارات ، فقد أوهمها صدام أنه الحارس لدول الخليج من زحف تتجه إيران لتقوم به عليها •

واستمرت هذه الحرب ثمانى سنوات (١٩٨٠ — ١٩٨٨) وسقط فيها مليون شهيد وجريح ودمّرت مدن وأحرقت مزارع ونخيل ، ويئست العراق من النصر فاتجهت لاستجداء وقف إطلاق النار •

والعجيب أنه بعد أن توقفت الحرب سنة ١٩٨٨ وبعد أن اتجه صدام حسين إلى حرب مدمرة أخرى هى زحفه على الكويت ذلك الزحف الذى سنتكلم عنه فيما بعد ، بعد هذا عاد صدام حسين يعلن الموافقة على معاهــدة الجزائر التى كان قد ألغاها وأعلن الحرب بسببها ، كما أخلى كل المناطق الإيرانية التى كان قد استولى عليها •

والإنسان يتساءل : لماذا كانت إذَنْ حرب الثمانى سنوات والمليون شهيد وجريح ؛ ولماذا كان التدمير الذى حل بالبلدين المسلمين

صراع صدام بعد إيران :

ولم تطل مدة السلام بالعراق بعد توقف الحرب مع إيران ، فإن

صدام سرعان ما خاصم مصر ، وتوقف عن دفع أجور المصريين الذين كانوا يساعدون العراق أيام محنتها ، بل أغرى بعض العراقيين بقتل بعض العمال المصريين ، فكم من إنسان مصرى عاد لمصر فى تابوت الموتى ، ثم اتجه صدام للزحف على الكويت وتهديد دول الخليج وضرب السعودية ، وذلك ما سنشرحه فى الدراسة التالية :

أحـــــداث العـــــراق والـــكـــويت

١٩٩٠ – ١٩٩١

مقـــدمة :

عن أحداث العراق والكويت كتبت كتابا مستقلا عنوانه :

أحداث العراق والكويت

ماذا أبرزت من آلام ؟ وما السبيل لحلّها ؟

دراسة تاريخية نفسية محايدة

وتعاقدت مع الأستاذ أحمد رائف مدير مؤسسة الزهراء للإعلام العربى على نشره ، وكان ذلك فى ١٩٩١/٦/١ ولأنه كتاب متصل بأحداث الحرب كان الواجب أن ينشر فورا ، ولكن هذا الناشر نشر فى ذلك الموضوع حوالى مائة كتاب ، ولم يكن كتابى هذا من بينها ، ولما حادثته فى ذلك تبين أنه يعمل بعلاقة خاصة مع الكويت ، وبالتالى يريد حذف عدة صفحات من الكتاب ، ورفضت طبعا باسم الحيدة التى أدين بها دائما ٠

ولا تزال المشكلة بدون حلّ حتى الآن (أوائل سنة ١٩٩٢) وأنا هنا أكتب موجزا لأحداث العراق والكويت استكمالا لهذا الجزء السابع من « موسوعة التاريخ الإسلامى » الذى يشمل تاريخ هاتين الدولتين ضمن دولّ الجزيرة العربية ٠

وينبغى أن يتضح أن هذا الموجز لا يغنى عن الدراسة الشاملة بالكتاب الذى ذكرناه آنفا ، ففى الكتاب دراسات تفصيلية مهمة ، وإحصائيات خطيرة ، وخرائط توضح الأمور ، وصور تشدّ القارىء ، وليس ما أكتبه هنا إلا إشارة سريعة لهذا الموضوع ٠

والخلاف بين العراق والكويت قديم نوعا ما ، وكان يثور ثم يهدأ ، ولكنه فى هذه المرة ثار ولم يهدأ ، وكان مدمرا للعراق والكويت جميعا ، فما الأسباب الإجمالية لهذا الصراع ؟

فى تقديرى إن أهم الدوافع لهذا الصراع هى كما يلى :

١ ــ **المنفذ على الخليج** : فمنفذ العراق للخليج ضيق جدا ، أما الكويت فكلها تقع فى قلب الخليج ، وبسبب ضيق منفذ العراق لم يحسب العراق من دول الخليج .

٢ ــ **الحق التاريخى** : تدّعى العراق أن الكويت كانت جزءا من لواء البصرة ، ولم أر فى المصادر التاريخية ما يؤيد هذا الادعاء ، بل إن الكويت قد وجدت وشدّت الأنظار قبل أن يتكون العراق بألويته المختلفة .

٣ ــ **الثراء الكويتى** : وهو ثراء باهظ يسيل له اللعاب ، ولو كانت الكويت صحراء جرداء كما كانت قبل البترول ما اهتم العراق بها .

ولكن الحق أن ثراء الكويت لم يَبْنِ مواطنا صالحا بالكويت فى الكثير الغالب ، وكثير ممن ينسبون للكويت اتجهوا للعبث واللهو فى الأقطار المختلفة خلال المحنة .

٤ ــ **الجشع العراقى** : العراق بلاد غنية جدا بمصادر ثراء متعددة ، ولكنها رأت أنها تحتاج لمزيد من الغنى فهاجمت الكويت لتضيف ثراء إلى ثراء .

وهكذا بدأت مشكلة العراق والكويت هذه المرة فى ١٨ يونيو حين أثار العراق هذه القضية ، وفجّر بعنف ذلك الموضوع لدى الجامعة العربية ، وقد حاولت هذه الجامعة كما حاول الزعماء العرب العثور على حلّ ، ولكن فى الثانى من أغسطس سنة ١٩٩٠ فوجىء العالم بزحف العراق على الكويت ، وطارت أسرة الصباح إلى السعودية ، وسرعان ما ادعت العراق أن الكويت جزء من العراق ، ثم قامت بسلب ما غلا ثمنه وقلّ حمله أو قلّ ما غلا وما رخص ، ونقلته إلى العراق وقد قدم مندوب الكويت بالأمم المتحدة قائمة طويلة عن هذه المسلوبات سجّلتها بكتابى عن هذه الحرب ، كما ارتكبت العراق كثيرا من الظلم والقسوة ضد شعب الكويت المهزوم .

وثار العالم كله تقريبا ضد العراق وضد قسوتها على الكويت ، وقرر مجلس الأمن إدانة العراق وطالب بالانسحاب الفورى ، وجرت محاولات عديدة لإقناع العراق بالانسحاب ولكن دون جدوى ، فإن العراق لم تسمع لأى نصح ، ولم تهتم بأى تهديد ، كأن الأمر لا يعنيها ، أو كأن عندها قوة تهزم العالم .

الحـــرب :

ولم يبق إلا الحرب وسيلة لإخراج العراق ، وقد تزعمت الولايات المتحدة بحماسة هذا الموضوع ودعت العالم للمشاركة فيه : فاستجابت لها سبع وعشرون دولة بعضها من الدول العربية والإسلامية . ومنها انجلترا وفرنسا وايطاليا كما دفعت ألمانيا واليابان جزءا كبيرا من تكاليف المعركة .

وقد تحدد يوم ١٥ يناير ١٩٩١ موعدا لبدء المعركة إذا لم تخرج العراق من الكويت ، ولم تهتم العراق بهذا التحديد ، وجاء الموعد المحدد فاندفعت أسلحة الدمار تضرب العراق بقسوة كأنها كانت تنتظر هذه الفرصة لتقضى على العراق الذى هدد إسرائيل يوما من الأيام .

وقبل أن تبدأ المرحلة الأخيرة من مراحل الحرب وهى المرحلة البرية جربت محاولات جديدة لإقناع العراق بالخضوع لقرارات مجلس الأمن بعد ما نزل بها من دمار ولكنها رفضت ، فبدأت المعركة البرية التى استغرقت مائة ساعة جعلت العراق تستسلم تماما لقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، وعلى هذا الأساس توقفت الحرب .

ضحايا الحرب :

كانت ضحايا هذه الحرب عنيفة وقاسية وأخطر ما بها ما يلى :

— تدمير شبه شامل للعراق ويقال انها عادت للوراء خمسين عاما .

— ١٠٠,٠٠٠ قتيل من الجيش العراقي ٠

— عشرات الآلاف من الأهالي العراقيين قتلى من غارات جيوش التحالف ٠

— عدد هائل من الأسرى العراقيين سلموا أنفسهم ٠

— ومن الكويت سقط حوالي ثلث السكان بما يقدر بنحو ٤٠,٠٠٠ قتيل

— تدمير شامل لحقول البترول وإشعال النار في آبار البترول بالكويت

ونجيء هنا نقطة مهمة شرحتها بإفاضة في الكتاب المستقل عن هذه الحرب وهي : الإسلام والاستعانة بغير المسلمين في حالة العدوان ٠

وهي دراسة فقهية شافية لا تحتمل الإيجاز ولذلك أشير لها هنا ، وعلى الراغب في التعرف عليها أن يعود لذلك الكتاب ، وهي تشمل بوجه خاص الاستعانة بغير المسلمين ضد المسلمين ٠

صمود جيش العراق !!!

ظهرت كتابات تقرر أن جيش العراق صمد لكل دول التحالف حوالي شهر ، وفي تقديري إن هذه مغالطة ، لأن جيش العراق لم يظهر في أية معركة ، ولا قاوم الزحف العاتي بأية صورة من الصور ، ولذلك لا أستطيع أن أصفه بالصمود ، وإنما بالاستسلام للأقدار من أول ضربة إلى آخر ضربة ٠

تاريخ رجل :

الحديث عن هذه الحرب والحروب التي سبقتها ضد إيران والحروب الداخلية بعدها ضد الأكراد والشيعة التي أشعلها صدام حسين عقب إعلان الاستسلام لشروط دول التحالف ، هذه الحروب تحتم أن نتحدث عن الانطباع الذي تتركه هذه الحروب في ذهن المفكر والمؤلف : وهذا الانطباع استدعى أن يشمل الكتاب الذي أشرنا إليه دراسات عن تاريخ صدام حسين والوسائل التي يصطنعها لحمايته وأهمها :

— يستعين صدام حسين بأهله لحمايته من الجماهير ٠

ـ يحتفظ برهائن عنده حتى يضمن ولاء الأسر والقبائل .

ـ يحكم بالإعدام على منافسيه وينفذ الحكم .

ـ أعد لنفسه مخبأ أسطوريا .

تسلسل عدوان صدام :

ـ ضد مصر التى استبعدها فى مؤتمر بغداد سنة ١٩٧٩ من المحيط العربى .

ـ حرب قاسية ضد إيران استمرت ثمانية سنوات وسقط فيها حوالى مليون شهيد وجريح من الطرفين ، وقد تحدثنا عنها آنفا .

ـ بعد وقف الحرب مع إيران عاد لمشاغبة مصر وتهديدها بأن تضرب بواسطة السودان من الجنوب .

ـ هاجم الكويت ، ذلك الهجوم المدمر والبعيد عن الخلق والشهامة

ـ هدد السعودية ثم ضربها .

ـ وبعد فشل هذه الحروب اتجه لضرب العراقيين فى الشمال والجنوب

عناوين مهمة فى هذا الموضوع :

بعد هذا تجىء دراسات خطيرة ومهمة ، وأنا هنا أدون عناوينها فقط فهى لا تحتمل الإيجاز :

ـ العراق وما فعله فى بترول الكويت .

ـ العراق والمبانى الشاهقة بالكويت .

ـ العراق والدم : تسلسل المعارك الدموية طيلة تاريخ العراق بدءاً من حرب الجمل فى البصرة حتى قتل عبد الكريم قاسم فى التاريخ الحديث .

ـ العراق تتحكم فترة طويلة بقوى ليست عربية ولا إسلامية .

ـ العراق وإسرائيل ، وقضية ضرب إسرائيل بالصواريخ .

ـ العراق وإيران ٠

ـ العراق ومنظمة التحرير ٠

ـ العراق ومصر ٠

كلمات ختامية :

تشمل هذه الكلمات اقتراحاتنا حول الوسائل التى يمكن أن نتقى بها أمثال هذه الحروب والصراعات ، وفى تقديرى أن الوسائل هى :

١ ـ الديمقراطية الحقيقية ، فلو كان بالعراق ديمقراطية حقيقية ما استبدّ صدام حسين بالأمور بها ٠

٢ ـ القوة : يتحتم أن توجد عند العرب والمسلمين قوة ذاتية لحمايتهم ، فالمال بدون قوة تحميه لا قيمة له ٠

٣ ـ العدالة الاجتماعية : فلا يمكن فى نظر الإسلام أن توجد دولة كالكويت تمتلك المليارات وسط محيط من الجائعين وسكان القبور ٠

وأخيرا موضوع مهم هو :

مجرم حرب ٠٠٠ من ؟

هل هو صدام حسين لأنه فعل ما شاهدناه فى الكويت والعراق جميعا ؟

أو هو زعيم أمريكا الذى انتهز هذه الفرصة لتدمير دولة عربية إسلامية من أجل حماية إسرائيل كما صرح هو بذلك ؟

أو أن مجرم الحرب هو أسلوب الحياة فى الكويت ، ذلك الأسلوب الذى عمد لجمع مليار فوق مليار وإن جاع الناس جميعا حوله ٠

وعن هذا الموضوع سيجد القارىء فى هذا الكتاب دراسة واسعة ٠

شذرات ختامية :

تحت هذا العنوان عرضت الأضرار الاقتصادية التى نزلت بـــدول المنطقة •

وتكلمت كذلك عن أمريكا التى تكيل بمكيالين

ثم تكلمت عن الفكر الإسلامى فى الموقف بعد الحرب ، ودعوت إلى عدم المبالغة فى التعويضات ، فاليتامى الذين أوجدتهم هذه الحروب سيصلون إلى الرشد يوما ، ونخشى إن توجد فى نفوسهم روح الثأر والانتقام إن لم نخفف الضغط عليهم •

وبعـــــــد

كانت كلمة الختام لهذا الكتاب هى :

لقد كتبت هذا البحث بكل الصدق والإخلاص ، وكان قلبى يخفق مع الأحداث التى مرت ببلادى العربية ، وكان يخفق مرة أخرى وأنا أدون هذه الأحداث وأعلق عليها ، ولعله اتضح من هذا البحث أن المشكلات التى احتواها لم تبدأ فقط فى الثانى من أغسطس سنة ١٩٩٠ بل بدأت قبل ذلك ، ولم تنته فى فبراير سنة ١٩٩١ بل استمرت بعد ذلك ، إنه عرض لأحداث ومواقف خطيرة مرت ولا تزال تتوالى على عالمنا العربى والإسلامى •

إننى إذ أقدمه للأجيال الحاضرة وأجيال المستقبل أتمنى أن تنتفع به هذه الأجيال ، والخير أردت وما توفيقى إلا بالله •

وأخيرا أيها القارىء الكريم أذكر لك أن الناشر أحمد رائف لم يطبع الكتاب حتى الآن ، وكأنه اشتراه لا لينشره بل ليسجنه أو يقتله ، وقد كتبت إليه أقرر أن مال الأرض ما كان يكفينى لو كنت أعرف أنه أخذ الكتاب لسجنه ، وأنا الآن أحاول أن استعيد هذا الكتاب ، وقد توسط الكثيرون لهذا ، ولعلنا ننجح ، وإلى اللقاء فى الجزء الثامن والله المستعان •

ثبت المراجع

ملحوظتان :

١ – المصادر المذكورة هنا هى التى اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت فى ذيل صفحاته ، اما المراجع الأخرى التى أسهمت فيه بطريق غير مباشر فلم نذكر فى هذه القائمة ٠

٢ – الطريقة التى اتبعت فى تنظيم هذه القائمة سيرت على عدم اعتبار الملحقات (ابن وال) ٠

١ – مجموعة وثائق لدى وزارة الخارجية البريطانية والخارجية السعودية ٠

٢ – تقويم البلدان الإسلامية من عمل المؤتمر الإسلامى بكراتشى ٠

٣ – سلطنة عمان من مطبوعات وزارة الثقافة العمانية ٠

٤ – عمان الماضى والمستقبل من مطبوعات وزارة الثقافة العمانية ٠

٥ – عمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى من مطبوعات شركة الزيت العربية الأمريكية ٠

٦ – مشكلة البوريمى من مطبوعات سفارة المملكة العربية السعودية بجاكرتا ٠

٧ – دليل الكويت العــام ٠

٨ – Encyclopaedia of ISLAM

٩ – Encyclopaedia Britannica

١٠ – معاهدات ووثائق ٠

١١ – صحف ومجلات ودوريات كثيرة ٠

١٢ – احد علماء الاباضية   كشف الغمة الجامع لأحكام الأمه ٠

١٣ – مقابلات شخصية لزعماء اسهموا فى صنع التاريخ ٠

١٤ – لقطات مما اذاعه الزعماء بالاذاعة والتليفزيون ٠

١٥ – آن بلنت   رحلة الى نجد ٠

١٦ ـ ابراهيم رفعت	مرآة الحرمين
١٧ ـ ابراهيم بن صالح	
ابن عيسى	تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد
١٨ ـ ابراهيم عبده	دولة الكويت الحديثة
١٩ ـ ابراهيم العدوى	العرب والتتار
٢٠ ـ ابن أبى الحديد	نهج البلاغة
٢١ ـ ابن الأثير	النهاية فى غريب الحديث
٢٢ ـ ابن الأثير	الكامل فى التاريخ
٢٣ ـ أحمد أمين	زعماء الاصلاح فى العصر الحديث
٢٤ ـ أحمد حسين شرف الدين	اليمن عبر التاريخ
٢٥ ـ أحمد الشرباصى	أيام فى الكويت
٢٦ ـ أحمد شلبى	موسوعة التاريخ الإسلامى (الأجزاء الأخرى)
٢٧ ـ « «	موسوعة الحضارة الإسلامية (١٠ أجزاء)
٢٨ ـ « «	اليهودية من سلسلة مقارنة الأديان
٢٩ ـ « «	المسيحية « « « «
٣٠ ـ « «	الإســلام « « « «
٣١ ـ « «	اديان الهند الكبرى
٣٢ ـ أحمد عطية الله	القاموس الإسلامى
٣٣ ـ الأزرقى	أخبار مكة وما جاء فيها من آثار
٣٤ ـ الاصطخرى	المسالك والممالك
٣٥ ـ أمين الريحانى	نجد الحديث وملحقاته
٣٦ ـ أمين سعيد	اليمــن
٣٧ ـ ابن اياس	بدائع الزهور
٣٨ ـ بدوى محمد فهد	تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير
٣٩ ـ Palgrane	Narrative of a year's journey :
	through Central and Eastern Africa
٤٠ ـ Bad ger	History of Imam and Sayyids of Rman
٤١ ـ Bohen	The persian Gulf :
٤٢ ـ Buckingham	Travels in Assyria, Micca, and Persia
٤٣ ـ برنارد لويس	The Origin of ISMAILISM
٤٤ ـ البغـدادى	الفرق بين الفرق
٤٥ ـ أبو بكر بن العربى	العواصم من القواصم
٤٦ ـ البلاذرى	فتوح البلدان
٤٧ ـ البلـوى	سيرة احمد بن طولون
٤٨ ـ Browne	تاريخ ايران الأدبى

٤٩ — تاج الدين بن عبد المجيد اليمانى بهجة الزمن فى تاريخ اليمن
٥٠ — التبريزى شرح القصائد العشر
٥١ — تريتــون ظهور أئمة صنعاء
٥٢ — ابن تيمية رسالة معراج الوصول
٥٣ — « « القصيدة الواسطية
٥٤ — « « قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة
٥٥ — ثابت بن سنان تاريخ اخبار القرامطة
٥٦ — الجاحظ البيان والتبيين
٥٧ — جاد طه سياسة بريطانيا فى الجنوب العربى
٥٨ — جان جاك بيربى الخليج الفارسى
٥٩ — الجــبرتى تاريخ الجبرتى (عجائب الآثار)
٦٠ — جعفر حسين العراق فى عهد المغول الأيلخانيين
٦١ — جمال الدين الشعرانى التاريخ السياسى للمملكة العربية السعودية
٦٢ — جمال الدين يوسف ابن يعقــوب صفة بلاد اليمن
٦٣ — جواد على تاريخ العرب قبل الإسلام
٦٤ — جورجى زيدان التمدن الإسلامى
٦٥ — « « العرب قبل الإسلام
٦٦ — ابن الجوزى تلبيس ابليس
٦٧ — « « المنتظم فى أخبار الملوك والأمم
٦٨ — جون فيلبى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية
٦٩ — Gerald de Gaury Rulers of Mecca :
٧٠ — Jovaini The History of world conquerers :
٧١ — حافظ أحمد حمدى الشرق الإسلامى
٧٢ — حافظ وهبه جزيرة العرب فى القرن العشرين
٧٣ — ابن حجر العسقلانى الاصابة فى تمييز الصحابة
٧٤ — ابن حــزم الملل والنحل
٧٥ — حسن ابراهيم حسن تاريخ الإسلام
٧٦ — « « « الفاطميون فى مصر
٧٧ — أبو الحسن الملطى التشبيه والرد على أهل الأهواء والبدع
٧٨ — حسين بن أحمــد بلوغ المرام
٧٩ — حسين بن غنام روضة الأفكار
٨٠ — « « تاريخ نجــد
٨١ — حسين مؤنس الشرق الإسلامى فى العصر الحديث
٨٢ — حسين محمد نصيف ماضى الحجاز وحاضره

٨٣ – حسين النجفى	تاريخ الكوفة
٨٤ – حماد اليمانى	كشف أسرار الباطنية
٨٥ – ابن حنبل	المسند
٨٦ – ابن حوقل	كتاب صورة الأرض
٨٧ – خزعل	تاريخ الكويت السياسى
٨٨ – ابن خلدون	العبر
٨٩ – ابن خلكان	وفيات الأعيان
٩٠ – الذهبى	دول الإسلام
٩١ – ابن الربيع	بغية المستفيد
٩٢ – » »	قرة العيون
٩٣ – Ruets	Said bin Sultan, Ruber of Oman and East Africa :
٩٤ – رزق الله الصدفى	تاريخ دول الإسلام
٩٥ – رشيد الدين	جامع التواريخ
٩٦ – رشيد رضا	الخلافة
٩٧ – رفاعة الطهطاوى	التعريفات الشافية
٩٨ – رفيق العظم	أشهر مشاهير الإسلام
٩٩ – Radric Owel	The Golden Bubble, Arabian Gulf : Documantary.
١٠٠ – الريحانى	ملوك العرب
١٠١ – زامباور	معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى
١٠٢ – الزبيرى	تاريخ العروس
١٠٣ – زكريا قاسم	دولة بوسعيد
١٠٤ – الزمخشرى	المستقصى من أمثال العرب
١٠٥ – ساطع الحصرى	البلاد العربية والدولة العثمانية
١٠٦ – سالم بن حمود	العنوان فى تاريخ عمان
١٠٧ – السالمى	تحفة الأعيان فى تاريخ عمان
١٠٨ – ستانلى لين بول	تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة
١٠٩ – ستيون لويد	الرافدان
١١٠ – Stephen and Handy Ronart :	Concise Encyclopadia of Arab civilization
١١١ – السخاوى	الضوء اللامع
١١٢ – سعيد باوزير	معالم تاريخ الجزيرة العربية
١١٣ – سليمان بن سحمان	الهدية السنية
١١٤ – » » »	تبرئة الشيخين

١١٥- ابن سمرة	طبقات فقهاء اليمن
١١٦- سيد نوفل	الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة
١١٧- السيوطى	حسن المحاضرة
١١٨- «	تاريخ الخلفاء
١١٩- أبو شامة	تراجم رجال القرنين السادس والسابع
١٢٠- شكرى فيصل	حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول
١٢١- شكيب أرسلان	حاضر العالم الإسلامى
١٢٢- الشماخى	اليمن الإنسان والحضارة
١٢٣- الشهاب	لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب
١٢٤- الشهرستانى	الملل والنحل
١٢٥- صالح بن حامد العلوى	تاريخ حضرموت
١٢٦- صالح بن سعيد	دخول الإسلام الى حضرموت
١٢٧- صلاح البكرى	مقتطفات من تاريخ حضرموت السياسى
١٢٨- صلاح العقاد	جزيرة العرب فى العصر الحديث
١٢٩- « « وجمال قاسم	زنجبار
١٣٠- صلاح الدين المختار	تاريخ المملكة العربية السعودية فى ماضيها وحاضرها
١٣١- صلاح الدين المنجد	فيصل بن عبدالعزيز من خلال أقواله وأفعاله
١٣٢- صلاح الدين اليافعى	تاريخ خضرموت السياسى
١٣٣- ابن طباطبا	الفخرى
١٣٤- الطبرى	تاريخ الأمم والملوك
١٣٥- عارف تامر	أربع رسائل اسماعيلية
١٣٦- ابن عبد البر	الاستيعاب
١٣٧- « «	الاصابة
١٣٨- ابن عبد الحكم	فتوح مصر
١٣٩- أبو عبدون الجندى	السلوك فى طبقات العلماء والملوك
١٤٠- أبو عبيد	الأموال
١٤١- عبد الرحمن الرافعى	عصر محمد على
١٤٢- عبد الرحمن النجم	البحرين فى صدر الإسلام
١٤٣- عبد العزيز كامل	قضية كينيا
١٤٤- عبد الله الجعراتى	المقتطف من تاريخ اليمن
١٤٥- عبد الواسع بن يحيى الواسعى	تاريخ اليمن
١٤٦- عثمان بن بشر	عنوان المجد فى تاريخ نجد

١٤٧- عدنان ترمسيس — اليمن وحضارة العرب
١٤٨- ابن العديم — القرمطى صاحب الخال
١٤٩- عريب بن سعد — صله تاريخ الطبرى
١٥٠- أبو العلا المعرى — رسالة الغفران
١٥١- علير ضارزا محمد — الخليج الفارسى عبر القرون والأعصار
١٥٢- على بن الحسن الخزرجى — العقود اللؤلؤية
١٥٣- على سامى النشار — نشاه الفكر الفلسفى
١٥٤- عمارة اليمنى — تاريخ اليمن
١٥٥- عمر رضا كحالة — جغرافية شبه جزيرة العرب
١٥٦- العينى — عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤)
١٥٧- الغزالى — فضائح الباطنية
١٥٨- « — الاحيـــاء
١٥٩- الغياثى — تاريخ الغياثى
١٦٠- فاضل الخالدى — الحياة السياسية ونظم الحكم فى العراق
١٦١- أبو الفدا — كتاب البلدان
١٦٢- فريدون باى — مجموعة منشآت السلاطين
١٦٣- ابن فهـد — اتحاف الورى
١٦٤- فهد بن أحمد بن عيسى — تاريخ المخلاف السليمانى
١٦٥- فؤاد حمزة — قلب جزيرة العرب
١٦٦- فؤاد الصياد — المغول فى التاريخ
١٦٧- فؤاد كرم — ثورة ظفـار
١٦٨- ابن الفوطى — الحوادث الجامعة
١٦٩- فيليب حتى — تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين
١٧٠- فيليب حتى — لبنان فى التاريخ
١٧١- ph. Hitti — History of the Arab Arabs
١٧٢- ابن القلانسى — ذيل تاريخ دمشق
١٧٣- القلقشندى — صبح الأعشى
١٧٤- ابن القـيم — زاد المعـاد
١٧٥- كارل توتشل — المملكة العربية السعودية
١٧٦- Killy — Eartern Arabian Frontiers :
١٧٧- ابن كثير — البداية والنهاية
١٧٨- ابن الكلبى — كتاب الأصنام
١٧٩- الكنـدى — تاريخ مصر وولاتها
١٨٠- لميس الطحاوى — المرأة فى الكويت

١٨١ــ لونكريك	أربعة قرون فى تاريخ العراق الحديث
١٨٢ــ لوريمل	دليل الخليج
١٨٣ــ الماوردى	الأحكام السلطانية
١٨٤ــ أبو المحاسن بن تغرى بردى	النجوم الزاهرة
١٨٥ــ محمد جمال الدين سرور	سياسة الفاطميين الخارجية
١٨٦ــ محمد حبيب أحمد	نهضة الشعوب الإسلامية
١٨٧ــ محمد أبو زهرة	ابن تيمية
١٨٨ــ « «	تاريخ المذاهب الإسلامية
١٨٩ــ محمد صبيح	مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية
١٩٠ــ محمد طارق الافريقى	المملكة العربية السعودية بين الأمس واليوم
١٩١ــ محمد بن عبد القادر بامطرف	فى سبيل الحكم تحفة المستفيد
١٩٢ــ محمد عبد الله الأنصارى	كتاب التوحيد
١٩٣ــ محمد بن عبد الوهاب	مختصر تفسير ابن كثير
١٩٤ــ « « «	كتاب المسائل التى خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية
١٩٥ــ « « «	
١٩٦ــ « « «	مختصر زاد المعاد
١٩٧ــ محمد عسه	معجزة فوق الرمال
١٩٨ــ محمد على الحضرمى	بيان نشر فى مؤتمر المسجد بمكة المكرمة سنة ١٣٩٥ هـ
١٩٩ــ محمد فرج	الأمة العربية
٢٠٠ــ محمد بن منصور التميمى	افتتاح الدعوة الزهراء (مخطوط)
٢٠١ــ محمود شكرى الألوسى	تاريخ نجد
٢٠٢ــ محمود على الداود	الخليج العربى والعلاقات الدولية
٢٠٣ــ محمد كرد على	الإسلام والحضار العربية
٢٠٤ــ أبو مخرمة	قلادة النحر
٢٠٥ــ مسعود الندوى	محمد بن عبد الوهاب
٢٠٦ــ المسعودى	مروج الذهب
٢٠٧ــ مصطفى الدباغ	قطر ماضيها وحاضرها
٢٠٨ــ مصطفى غالب	الحركات الباطنية فى الإسلام
٣٠٩ــ المقدسى	أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم
٢١٠ــ المقريزى	اتعاظ الحنفا
٢١١ــ «	السلوك فى معرفة الدول والملوك

٢١٢– »	الخطط
٢١٣– »	الحسن الأعصم
٢١٤– منير عجلانى	تاريخ المملكة العربية السعودية
٢١٥– الميـــدانى	مجمع الأمثـال
٢١٦– »	معجم الأنساب
٢١٧– ناصر خسرو	سفر نامه ترجمة الخشاب
٢١٨– نظمى زاده مرتضى	كلشن خلفا ترجمة موسى كاظم
٢١٩– نعمان خيرالدين الألوسى	جلاء العينين
٢٢٠– النــويرى	نهاية الأرب فى فنون الأدب
٢٢١– ابن هشام	سيرة ابن هشام
٢٢٢– الهمــدانى	الإكليـل
٢٢٣– هوايت دونالدش	عقيدة الشيعة
٢٢٤– ابن واصــل	مفرج الكروب
٢٢٥– ابن الوردى	جريدة العجائب
٢٢٦– الويسى	اليمن الكبرى
٢٢٧– Wellested	Travels in Arabia
٢٢٨– ياقــوت	معجم البلدان
٢٢٩– يحيى بن الحسين	غاية الأمانى
٢٣٠– اليعقــوبى	تاريخ اليعقوبى

فهـرس الأعـــلام

ملاحظـــات :

١ — تحاشيا للاطالة لم أضمن هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها فى ذيل صفحات الكتاب وفى قائمة المراجع ٠

٢ — ولم أضمن هذه الفهارس الأسماء التى وردت فى قوائم الأئمة خلال عهد آل نبهان وبعدهم بعمان ، ولا الأئمة العلويين باليمن اكتفاء بورود هذه الأسماء فى هذه القوائم الطويلة ٠

٣ — رتبت هذه الأسماء ترتيبا أبجديا مع عدم اعتبار الملحقات (ابن — ال) ٠

حرف الألف

حرف البـاء

حرف التـاء

حرف الثـاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرست البلدان والأماكن

حذفنا من الكشاف البلدان التى عقدت لها فصول خاصة ، وكثر ورودها فى كثير من صفحات الكتاب ، مما يجعل ايرادها هنا قليل الفائدة . وهذه البلدان هى :

البحرين أو الأحساء - البصرة - بغداد - الحجاز - حضرموت - صنعاء - عدن - العراق - عمان - الكويت - مصر - نجد - اليمن .

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثـاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف اليـاء

رقم الايداع ١٩٧٦ لسنة ١٩٩٢

مطابع سجل العرب

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

A study, in Ten Volumes, On History and Civilization of Islam in All Muslim Ages and Lands

7

ISLAM AND MUSLIM COUNTRIES
THE ARAB PENINSULA AND IN IRAQ,

FROM THE RISE OF ISLAM UP TO THE PRESENT TIME.

By

AHMED SHALABY,

B.A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,
Professor of Islamic History and Civilization
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Published by :
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo.



دكتور أحمد شلبى

- تلقى دراساته فى الأزهر وفى كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج.
- زار الولايات المتحدة الامريكية كما زار أكثر دول أوربا وآسيا وافريقيا، ومثّل مصر فى عدة مؤتمرات دولية.
- درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويجيد الانجليزية والاندونيسية.
- اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية، وقد حاضر منتدبا وزائرا ومُعارا فى جامعة الأزهر، وعين شمس، واندونيسيا، والسودان، وماليزيا، والمملكة العربية السعودية، وليبيا، وفى معهد الدراسات الاسلامية، ومعهد البحوث والدراسات العربية، ومعهد الدراسات الدبلوماسية.
- **مؤلفاته تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الثانية والعشرون من بعضها وأهم هذه المؤلفات :**

١ ــ موسوعة التاريخ الاسلامى فى عشرة مجلدات
٢ ــ موسوعة الحضارة الاسلامية فى عشرة أجزاء.
٣ ــ مقارنة الأديان فى أربعة أجزاء.
٤ ــ كيف تكتب بحثا أو رسالة.
٥ ــ المكتبة الاسلامية لكل الاعمار: ١٠٠ جزء من السِّيَر والتاريخ وقصص القرآن للأولاد والشبان والسيدات والرجال.
٦ ــ ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS
٧ ــ HISTORY OF MUSLIM EDUCATION

- كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية، وتُرجمت أكثر مؤلفاته الى الأوردية، والتركية، والاندونيسية، والماليزية والفرنسية، والفارسية.